

صحة التصديق المصداق

د. فاروق أحمد سويح

د. سيد داود
المؤلف
حرف

توزيع الطالب
لوسيلة

المجلد العزيم السبعون
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
بمكة المكرمة
قسم الدراسات العليا والبحوث
تسرع العقيدة

رسالة مقدمة بجامعة أم القرى

رسالة مقدمة بجامعة أم القرى لنيل درجة «مابجستير» في الشريعة الإسلامية
« تسرع العقيدة »

إعداد الطالب

د. يوسف محمد صالح الدعمر
٠٠٢٢٩٦ ر.

إشراف

فضيلة الشيخ الأستاذ محمد قطيب
الأستاذ بقسم الدراسات العليا بالجامعة



١٤٠٦ - ١٤٠٧ هـ
١٩٨٦ - ١٩٨٧ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شكر ونقد

شكر وتقدير

الحمد والشكر لله تعالى اولا وآخرا وظاهرا وباطنا على ان هدانى ووفقنى لاتمام هذا البحث وارجوه تعالى : وتبارك ان يجعله خالصا لوجهه الكريم وينفع به المسلمين .

وعلا بقوله صلى الله عليه وسلم : (من اتى اليكم معروفا فكافئوه فان لم تجد وفادعوا له حتى تعلموا ان قد كافتموه) . (١) وقوله : (من لا يشكر الناس لا يشكر الله) . (٢)
فانى اتوجه بالشكر والتقدير لاستاذى الفاضل الشيخ محمد قطب - حفظه الله - على اشرافه على وسعة صدره لى ، ومتابعته الدقيقة بالارشاد والتوجيه والجهد المتواصل الذى بذله خلال فترة الاشراف ، اذ اعطانى من وقته الثمين الشئ الكثير فكان يكلف نفسه عناء القراءة فى البيت زيادة على وقت لا اشراف المقرر مما كان له اكبر الاثر فى الانتهاء من البحث خلال المدة الزمنية المقررة ، فجزاه الله عنى خيرا ما يجزى استاذ عن تلميذه وانى ادعو الله تعالى ان يحفظه ويلحظه برعايته ويشمله بعنايته ، ويسدد خطاه ويثبته بالقول الثابت فى الحياة الدنيا والاخرة ويمد فى عمره وينفع بجهوده فى سبيل العودة الى دين الله .

ثم اتوجه بالشكر الى جامعة ام القرى بمكة المكرمة على اتاحتها لى الفرصة لطلب العلم ومتابعة الدراسة وخص بالشكر معالى مدير الجامعة الدكتور راشد الراجح والقائمين على كلية الشريعة والدراسات الاسلامية فضيلة الدكتور صالح بن حميد عميد الكلية وسعادة الوكيل الدكتور سليمان التويجى ، على ما يقدمونه من جهد كبير ويبدلونه من عناية واهتمام بشئون قسم الدراسات العليا ، فجزاهم الله خير الجزاء .
واشكر كذلك لكل من كان له حق على او اقدم لى مساعدة من اساتذتى بقسم الدراسات العليا وغيرهم من الاخوة والزملاء الافاضل .

-
- (١) رواه أبو داود فى الادب ١٠٨ ، والنسائى فى الزكاة ٧٢ ، واحمد ج ٢ ص ٦٨ .
 - (٢) رواه ابوداود فى الادب ١١ والترمذى فى البرة ٣٥ وقال حديث حسن صحيح .
 - (٣) اتبعت فى تحريج الاحاديث طريقة المعجم المفهرس لالفاظ الحديث ، فذكرت

الكتاب ورقم الباب الذى ورد فيه الحديث .

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

(أ)

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيله واهتدى بهديه إلى يوم الدين .

أما بعد : فإن من أعظم نعم الله على الإنسان أن خلقه في أحسن تقويم ، وفضل على كثير ما خلق تفضيلا ، واستعمله في طاعته والعبودية له وحده ، وجعل العبودية له هي الغاية من خلقه وإيجاده فأكرمه بذلك من الذل والعبودية لغيره من المعبودات الباطلة وسائر الطواغيت ، ثم بعث الرسل وأنزل عليهم الكتب فيها هدى ونور وبرهان ونظام شامل للحياة لا يزيغ عنه قوم إلا هلكوا .

ولما كانت العبودية الكاملة لله تعالى هي أساس سعادة بني البشر وأمن كيانهم فقد فطر الله تعالى الخلق على ذلك ، وأخذ عليهم العهد والميثاق وأشهدهم على أنفسهم فأقروا له بالربوبية وأذعنوا له بالطاعة والعبودية . قال تعالى : * وإن أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا . . * (١)

وقال صلى الله عليه وسلم : (كلُّ مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه كما تنتج الإبل من بهيمة جمعاء ، هل تحص فيها من جدعاء) (٢) .
وقرأ أبو هريرة رضي الله عنه - (ففطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم . . *) (٣) .

وتضافرت الرسالات السماوية جميعها على تحقيق هذه الغاية فكلما خرج الناس عن هذا الأصل وانحرفوا عن عبادة الله وحده إلى عبادة ما سواه وأشركوا به ما لم ينزل به عليهم سلطانا بعث الله الرسل ليردوهم إلى سبيل السبيل .

(١) سورة الاعراف آية ١٧٢ .

(٢) أخرجه البخاري في الجناز ٩٢ والقدر ٣ ، وسلم في القدر ٢٢ ، وأبو داود في السنة ١٧ ومالك في الجناز ٥٢ واحمد ج ٢ ص ٢٣٣ .

(٣) سورة النور آية ٣٠ .

(ب)

وقد كان هذا ملقياً كلِّ الرسالات ومنطلق جميع الأنبياء والرسل فكانت دعوتهم إلى إقامة العبودية لله وحده وهجر كلِّ معبود سواه صريحة منذ اللحظة الأولى ، فجاءت قولتهم واحدة : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ^(١) ، فكان موقفهم من الوثنية واحدا لا هوادة فيه .

ومعلوم أن بعثات الرسل كانت محدودة بالزمان والمكان وبنفثة من الناس دون غيرهم ، بخلاف دعوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم التي استازت على غيرها بكونها عامة وشاملة فتخطت حدود الزمان والمكان ولم تقتصر على طائفة دون أخرى ، فكانت ذات سمة خاصة في موقفها من الوثنية إلى يوم الدين .

فقد جاء صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى إقامة العبودية الكاملة لله

تعالى في سائر شؤون الإنسان الدينية والدينية : في العقائد ، والشعائر والشرائع والأحكام والأنظمة ، وكان هذا هو مقتضى كلمة التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله - فلا إله يستحق أن يعبد مع الله أو من دونه ولا يستقيم إيمان العبد حتى يقرَّ بالعبودية الكاملة لله تعالى في كلِّ شأن من شؤونه عقيدة وشريعة ، ولا تستقيم الحياة ولا تتحقق سعادة البشرية وإنسانيتها حتى يتحقق إسلام القلب والجوارح وإسلام الفرد والمجتمع أو بعبارة أشمل إسلام الحياة كلها لله تعالى وحده لا شريك له .

وقد تحقق هذا مرات كثيرة في تاريخ البشرية الطويل ، وكان آخر مرة

قد دام قرابة ثلاثة عشر قرنا من الزمان في حياة الأمة الإسلامية بعد أن قضى الإسلام على سلطان الوثنية ودولتها وأزال كلِّ مظاهرها فحطم الأصنام والأوثان وسائر الطواغيت والمعبودات التي كانت تعبد من دون الله وانقادت الحياة كلها لله تعالى وحده لا شريك له في كلِّ مجال من مجالاتها ، وبقي شأن الأمة الإسلامية عاليا مرفوعا وشريعة الله تعالى نافذة في أكثر الأحيان إلى أن دبَّ الوهن في الأمة وأخذت تبتعد عن حقيقة التوحيد وتجانف روح الإسلام شيئا فشيئا ، وركبت سَنَنَ الأمم من قبلها شبراً بشبر ، وذراعا بذراع فدخلت كلَّ حجر دخله غيرها ولدغت منه مرات كثيرة .

ولئن كان الإسلام قد قضى على الوثنية التي كان ضوانها عبادة الأصنام والأوثان وغيرها من المعبودات الحسية في جزيرة العرب وما حولها ، وسسَدَ

(١) انظر سورة الاعراف الايآت ٥٩ ، ٦٥ ، ٧٣ والنحل ٣٦ .

(ج)

كلّ الذرائع المغضية إليها ، وأقام السدود من دونها وكشف سترها وأبان حقيقتها وجردّها من كلّ ما كانت تتمتع به من قوة وسلطان على عقول الناس وقلوبهم ، وأقام مكانها العبودية الكاملة لله تعالى ، حتى ظن من ظن أن الوثنية قد ولّت إلى غير رجعة .

لئن كان الإسلام قد فعل كلّ هذا وزيادة ، فإن الصراع بين الحق والباطل لم ينته ، وإن محاربة الطواغيت لدين الله لم تختف ، وإن الوثنية لا تلبث أن تظهر بأشكال متعددة جديدة كلما خفت نور التوحيد ، وابتعد الناس عن حقيقة الإسلام .

والإسلام لم يحصر الوثنية أو العبودية لغير الله في شكل واحد ولم تكن دعوة التوحيد تعنى مجرد هدم الأصنام والأوثان وتحطيمها ، ولكنها تعنى شيئاً أبعد من هذا الفهم المحدود ، هو القضاء على الوثنية في جميع أشكالها ومظاهرها التي كانت تسيطر على حياة الناس وتستعبدهم من دون الله وجعل العبودية كاملة لله تعالى في كلّ شيء .

فالوثنية - كما يجب أن نفهم - ليست مجرد إقامة الأوثان وعبادتها مع الله أو من دونه كما يفهمها الكثير في هذا الوقت ، وبالتالي يرون أن الوثنية لا وجود لها في عالم اليوم المتحضر .

إن إقامة الأوثان وعبادتها هي مظهر واحد من مظاهر الوثنية وشكل من أشكالها ، في حين أن الوثنية تعني العبودية لغير الله تعالى مهما كان نوع المعبود ومهما كان شكل العبودية سواء في العقائد أم في الشعائر أم في الشرائع والقوانين والأنظمة والأحكام التي شرعها وأمر بطاعتها والالتزام بها وعدم الخروج عليها .

وإذا كان الناس في فترات الجهل والضلال والبعث عن دين الله قد عبدوا الأوثان والأصنام من شجر أو حجر ، فكثير منهم اليوم يعبد الأوثان ، ولكن مع وجود فارق في الشكل والصورة وطريقة العبادة فأوثان اليوم ليست أوثان الأمس ، وإن كانت الحقيقة واحدة ، وإن لم تكن هي اللات والعزى ولا هبلأ أو مناة أو غيرها من الأوثان الأخرى إنها أوثان جديدة مستحدثة في شكل مذاهب ونظريات ومبادئ وأفكار لا إسلامية؛ إنها القوم والوطن والعقل والمادة والاحتميات الاقتصادية والاجتماعية والعرف والرأى العام والديمقراطية والشيوعية . . . إلخ .

هذه هي الأوثان البديلة التي تعبد مع الله تارة أو من دونه تارة كثيرة في أكثر من صورة من صور العبودية ، كالطاعة والاتباع والتشريع والولا . . . إلخ كما هي الحال في كل الوثنيات .

ولما كانت العبودية لغير الله تعالى في هذا العصر قائمة على أشدها في جميع مجالات الحياة سواء : في السياسة أم في الاقتصاد أم في الأخلاق أم في العلوم أم في الفنون والآداب وفي باقي المجالات ، فإن هذا يعني - كما لا يخفى على من يدركون حقيقة دين الله - أن الوثنية قد ظهرت في حياة الناس من جديد واستشرى أمرها وطلا سلطانها وسيطرت على عقولهم واتخذت لها مكانا من قلوبهم فنافست إيمانهم بالله وعبوديتهم له . فالوثنية - أو العبودية لغير الله - هي الدين أو المنهج الذي يدين به أكثر العالم اليوم ، وإن لم نر تلك الأصنام والأوثان المحسوسة ، ولم نشاهد الناس يسجدون أو يتقربون بالشعائر والطقوس الدينية المعتادة لغير الله ، هذا إذا تجاوزنا ما عليه حال كثير من القبائل الوثنية في أفريقيا وغيرها .

وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم حقيقة الوثنية لعدى ابن حاتم رضي الله عنه كما جاء في قصة إسلامه . إذ سمع الرسول صلى الله عليه وسلم يتلو من سورة التوبة قوله تعالى ﴿ اتخذوا أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ (١) .

فقال عدى : يا رسول الله ما عبدوهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : بلو . إنهم أحلوا لهم الحرام وحرّموا عليهم الحلال فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم (٢) .

وهذا هو حال زماننا الذي نحن فيه ، فقد وقع الناس - إلا من رحم ربك - في العبودية لغير الله بالطاعة والاتباع والخضوع والذل والانقياد للمطواغيت من دون الله ، راضين بذلك منقادين لها مدافعين عنها داعين إليها شارحين بذلك صدورهم مستبشرين بها مفضلين لها على العبودية لله وحده .

ولا شك أن هذا خطر عظيم ومرض خطير يهدد البشرية بالويل والهلاك .

(١) التوبة آية ٣١ .

(٢) رواه الترمذى في تفسير سورة التوبة ، وانظر ابن كثير ج ٢ ص ٣٤٨ .

ومع إحساسي الكبير بأن الأمر يحتاج إلى دراسة وبحث يستحق أن
تكتب فيه أكثر من رسالة جامعية ، إلا أنني قد ترددت بعض الوقت في الإقدام
على الكتابة في هذا الموضوع لأنه كما لا يخفى واسع ودقيق وذو حساسية ،
ولا أستطيع أن أوفيه حقه ، لأن بضائتي في العلم بسميرة ، وزادى في الموضوع
قليل ، وهو في نظري يحتاج إلى جهد جماعي كبير .
ولا أنكر أن هناك كثيرا من الجهود التي بذلت في جوانب هذا
الموضوع سواء كان ذلك على شكل رسائل جامعية كما هو الحال في العارضية
والعلمانية والقوسية والديمقراطية . أم على شكل كتب ومواد لفات وندوات وغير
ذلك كما هو الحال في كتابات الكثير من أعلام الدعوة والفكر منذ بدايات
القرن العشرين تقريبا ممثلة في آثار سيد قطب - رحمه الله تعالى -
ومواد لفات أخيه فضيلة الشيخ محمد قطب - حفظه الله ومدى في صره وأتمنا
به - ، وكتابات الداعية فضيلة الشيخ محمد الغزالي ومواد لفات المودودي والندوي
وأندور الجندی من الكتاب الإسلاميين .

وقد استفدت من هذا فائدة كبيرة لدرجة أنني اكتفيت بالرجوع إليها
والإتماد عليها في كثير من المسائل والأقوال .
ومع هذا كله فقد رأيت أن الأمر لا يحتمل التردد لتداعي الحاجة
إليه نظرا لخطورة المرحلة التي يمر بها العالم أجمع في وقتنا الحاضر والذي
قد بدت عليه علامات الضجر وظهرت منه دلائل اليأس والملل من العبودية
لغير الله بعد طول عهده بها ، وفي وقت قد لاحت فيه بوارق العودة والأمل
في الرجوع لدين الله - كما أطلق عليه في العالم الإسلامي " الصحوة
الإسلامية " - فما هذه وتلك إلا من مبشرات الخير ودلائل العبودية لله
التي فطر الناس عليها وإن صباوا عنها زنا طويلا .

من هنا فقد توكلت على الله وعزمت على الكشف عن حقيقة الواقع الذي
يعيشه العالم منذ عدة قرون ، وأنه قد ابتعد عن دين الله بعدا كبيرا ظاهرا
وارتد إلى حياة وثنية من جديد في عقائده وشعائره وشرائعه الباطلة التي
أقامها على أسس العبودية لله ، حتى ندرك أن العالم الغربي بعيد عن دين
الله غارق في الوثنية في شتى مجالاته محارب لله في كل تصوراته وندرك كذلك
أن العالم الإسلامي - مع الأسف الشديد - قد انتقل إليه المرض لأسباب ومواسل
كثيرة تحت شعارات خادعة وعناوين براقية مزيفة فوقع في دائرة العبودية

هذه الأمراض

لغير الله في كثير من مجالات الحياة وفي مقدسة إقصاء شريعة الله وتحكيم الشرائع والنظم الجاهلية التي وضعها الطواغيت في الدول الكافرة والاحتكام إليها بديلا عن شريعة الله ، واستيراد مختلف الأنظمة والمذاهب والأفكار والنظريات في السياسة والاقتصاد والأخلاق وسائر شؤون الحياة من ديمقراطية وشيوعية اشتراكية وقومية ووطنية وعلمانية وقلانية وأعراف وعادات وتقاليد . . . إلخ من غير نكير ولا استغراب ومن غير إدراك ووعي لحقيقتها الوثنية ومصادمتها لدين الله ، وجعلها واقعا مفروضا وبديلا عن دين الله ومنهجها الشامل ، وجعل الدين مجرد عقيدة - لا تضرها معصية ! - يمتقدها الإنسان بقلبه ، وصلة فردية وجدانية يعقدها مع خالقه ويؤدى له - تبعاً لذلك - بعض الشعائر التعبدية والطقوس الدينية في صورة تقليدية وطريقة آلية لا أثر لها على حياته وسلوكه ، وحصر الشريعة في مجال ضيق ومحدود من حياة الإنسان أطلق عليه " الأحوال الشخصية " من : زواج وطلاق وميراث وموت . . . إلخ وأن من فعل ذلك فقد استكمل الدين وأقام الإسلام وخرج من دائرة الوثنية .

أما الطاعة والاتباع والتشريع والحاكمية والتحليل والتحریم في بقية الوجوه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والفنية . . . إلخ فهي ليست من دين الله ولا من حق الله أن يتدخل فيها بشيء . وبالتالي فلا حق لأحد أن ينادى بضرورة ربطها بدين الله والعودة بها إلى أصلها ، لأنها حجر على الشركاء والطواغيت من دون الله فلا يصح أن يصل إليه منها شيء ، وإن صح في منطقتهم الفاسد أن يصل ماله إلى شركائهم .

فقالوا بكل صراحة : (لا دين في السياسة ولا سياحة في الدين)

وقالوا : (الدين لله والوطن للجميع) وقالوا : (العلم للعلم) و (الفن

للفن) و (الحياة للحياة) وقالوا : (لا إله والحياة مادة) وقالوا :

(الطبيعة تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق) وقالوا : (إن

الدين هو مصدر شقاء الشرق والحجاب سبب تخلفه) .

وسيجد القارىء أن جميع المذاهب والنظم والأفكار والنظريات السائدة

في هذا العصر هي صور متعددة ومختلفة في الظاهر لا في الحقيقة والجوهر

، فهي جميعها تمثل العبودية لغير الله تعالى في صورة ما ، وهذا فهي

جميعها مرفوضة وباطلة وناقية للإسلام ومغايرة لحقيقة - لا إله إلا الله -

وبالتالي فهي لا تصلح نظاما للحياة ولا يجوز استيرادها إلى العالم الإسلامي

(ز)

والدعوة إليها فيه وترويجها بين المسلمين ، وإن الأخذ بشيء منها يعتبر عودة إلى الوثنية وخروجاً عن العبودية والدينونة لله تعالى وحده .

وأما بعض المواقفت الجزئية المعارضة بينها وبين الإسلام فهي لا تنهض أعدارا ولا تصلح مبررات لاحتناقها وإدخالها ديار الإسلام ، ولا يصح أن نضيفها إلى الإسلام أو نضيفه إليها بأي شكل من الأشكال ، لأنها تغايره في القاعدة والأساس ، فالإسلام يقوم على العبودية لله وحده ، بينما تقوم هي على العبودية لغير الله والطاعة والاتباع لما سواه .

ومن هنا فما كان فيها من حق - إن وجد - فالإسلام مصدره وهو

أسبق إليه ، والأصل أحق أن يتبع ، وما فيها من باطل فهو مرفوض ومردود ولا يجوز اتباعه لمنافاته لدين الله ، وذلك فلا عذر لمن يضيف على الإسلام وصف الديمقراطية أو الاشتراكية أو غيرها من الأفكار الوثنية ويمتدح الإسلام بأنسه ديمقراطي أو اشتراكي ، سواء أكان ذلك بحسن نية أم بسوء وخبث ومكروها . فالإسلام هو الإسلام ، دين الله لا هو ديمقراطي ولا هو اشتراكي كما أنه ليس بوثنى تماماً بتمام .

لكل هذه المبررات وغيرها فقد اخترت أن يكون موضوع رسالتي - في

مرحلة الماجستير - المقدمة لقسم العقيدة بجامعة أم القرى هو : (الوثنية الحديثة وموقف الإسلام منها) .

وقد اشترطت ثلاثة شروط رأيت أنها تمثل حقيقة الإسلام الكاملة

وقست عليها كثيراً من المذاهب والأفكار السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها ، وذكرت أنه إذا اجتمعت هذه الشروط كاملة تحققت العبودية لله تعالى وانتفت الوثنية أو العبودية لغير الله . وإذا اختل أحد هذه الشروط اختلت القاعدة واختلف الحكم ، فالخلل في أحدها يلحق الخلل بها جميعاً . فلا بد من تحققها معاً .

وأما هذه الشروط فهي :

أولاً : الإيمان الصحيح بالله تعالى ، أو سلامة العقيدة وصحتها .

ثانياً : صحة الشرائع التعبدية وإخلاصها لله تعالى .

ثالثاً : إفراد الله بالحاكمية ، وتطبيق شريعته كاملة .

وقد تبين من خلال البحث أن هذه الشروط لم تتحقق في أي نظام

من الأنظمة أو مذاهب من المذاهب أو فكرة من الأفكار التي تعرضت لها ،

وليس هذا فحسب بل إن شرطا واحدا من هذه الشروط لم يتحقق بصورة نقية تامة موافقة لدين الله ، مما يؤكّد أن جميع هذه المذاهب والأنظمة والفلسفات المعاصرة كلها صور متعددة لحقيقة واحدة وهي العبودية لغير الله سبحانه وتعالى ، كما هو شأن الوثنيات السابقة ، وهي بالتالي مرفوضة في حكم الإسلام لمعارضتها لقواعده الأساسية .

هذا وقد جاء الموضوع في : مقدمة وتمهيد وأربعة أبواب وخاتمة .
أما المقدمة : فقد بيّنت فيها أهمية الموضوع وألمحت فيها للأسباب التي دفعتني للكتابة فيه .

وأما التمهيد : فقد خصصته لبيان مفهوم الوثنية ، وتعرّضت فيه لعدة نقاط ذات صلة بالموضوع ، فعرّفت الوثن والصنم وتحدثت عن الفرق بينهما ، وعرّفت الطاغوت وأنه لفظ عام في كلّ ما عبد من دون الله تعالى .
وذكرت المفهوم الشائع للوثنية وهو قصرها على عبادة الأوثان المجردة وبيّنت المفهوم الصحيح وأنها العبودية لغير الله تعالى سواء كان ذلك في الشعائر التعبدية أم في الشرائع والأحكام .

وفندت شبهة القول بزوال الوثنية وأن الأرض ما عاد يخشى عليها من عودة الشرك مرة أخرى بعد أن أرسيت قواعد التوحيد ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم .

وجعلت الباب الأول في فصلين :

الأول ويشتمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : في مفهوم العبادة ، فعرّفتها لغة واصطلاحاً ، وتعرّضت

للانحراف في فهم العبادة وحصرها في الجوانب التعبدية المحضة ، وبيّنت أن العبادة تشمل جميع شؤون الدين والدنيا . ولا يصح قصرها على جانب دون آخر . وأشارت إلى النتائج والآثار السيئة التي ترتبت على هذا الفهم المحدود .

وأما المبحث الثاني : فتحدثت فيه عن نزعة التدين والعبادة

عند الإنسان ، فوجدت أنه مفطور على ذلك ولا ينزك عن العبادة ، فإن لم يعبد الإله الحق عبد غيره من المعبودات الباطلة .

وأما المبحث الثالث : فجعلته لبيان وجوه العبادة ، وأن لها

وجهين : الأول أن تكون على الأصل خالصة لله تعالى بشرط أن تكون على وفق ما شرع الله ورسوله . والثاني : أن تكون لغيره ، سواء في ذلك أن تكون

(ط)

على سبيل الشرك والمعية مع الله ، أو لغيره استقلالاً .

والفصل الثاني يشتمل على ستة مباحث :

المبحث الأول : تحدثت فيه عن أحقية الله بالعبادة لكونه الخالق

المنعم والمدبر لهذا الكون وما فيه .

والمبحث الثاني : جعلته في بيان مفهوم التوحيد ، لغة وشرعاً وأشارت

للانحراف في فهم التوحيد بحصره في توحيد الربوبية فقط ، في حين أن التوحيد

الذي جاءت به الرسل هو توحيد الألوهية ، لأن المشركين لم يخالفوا في توحيد

الربوبية بشهادة القرآن الكريم ، وإنما كان نزاعهم في توحيد الألوهية .

والمبحث الثالث : ذكرت فيه أنواع التوحيد : الربوبية والألوهية

وتوحيد الأسماء والصفات وأشارت للعلاقة بينها ، وأنها لا تصلح إلا مجتمعة

والإخلال بواحد منها يلحق الخلل بالجميع .

والمبحث الرابع : خصصته لبيان أن التوحيد دعوة جميع الرسل من

لدى آدم إلى خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين .

والمبحث الخامس : بينت فيه أن التوحيد هو الأصل وأن الشرك طارئ

على البشرية ، وأبطلت القول بأن البشرية بدأت بالشرك والتعدد وتطورت حتى

وصلت إلى عقيدة التوحيد ، وأن الرواية الصحيحة ، عن ابن عباس أن الناس

كانوا على التوحيد ثم دخل عليهم الشرك .

والمبحث السادس : خصصته لبيان أهمية التوحيد في حياة الفرد

والمجتمع وذكرت أنه يحقق السعادة والطمأنينة والحرية في حياة الفرد ، كما

أنه يوحد بين الناس ويجمع شملهم ويلم شتاتهم ، بخلاف الشرك والعبودية

لغير الله .

وأما الباب الثاني : " الوثنية القديمة " فجعلته في فصلين :

الفصل الأول : في أسباب الوثنية الأولى ونشأتها التاريخية .

وجعلته في تمهيد ومبحثين .

أما التمهيد : تكلمت فيه عن نشأة الوثنية وولادتها ، وأنها نشأت

بعد سيدنا آدم بعشرة قرون كما صحَّ عن ابن عباس رضي الله عنه .

وأما المبحث الأول : فذكرت فيه أسباب الوثنية الأولى ، ووجدت

أن تقديراً لأشخاص والفلو في محبة الصالحين كانت السبب الأول في ذلك

إلى جانب مجموعة أخرى من الأسباب .

والمبحث الثاني : تحدثت فيه عن نشأة الوثنية في جزيرة العرب قبل بعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ووجدت أن عمرو بن لحي الخزاعي كان أول من أدخل الأوثان وفير دين إسماعيل عليه السلام ، ودانت له العرب بالطاعة والاتباع فعبدتهم للأصنام والأوثان التي جلبها لهم .

وأما الفصل الثاني : فخصته لذكر أهم وأشهر صور الوثنية القديمة وظاهرها ، واقتصرت فيه على خمس صور هامة وهي عبادة الأشخاص ، وعبادة الأصنام والأوثان ، وعبادة النجوم والكواكب ، وعبادة الحيوان وعبادة النار .

الباب الثالث : " الوثنية الحديثة " ويشتمل على ثلاثة فصول .

الفصل الأول : في منشأ الوثنية الحديثة وأسبابها . بينت فيه أنها نشأت في أوروبا منذ بداية عصر النهضة ، وحصرت الأسباب في ثلاثة أمور :

الأول : يتمثل في عدم معرفة أوروبا لدين الله الصحيح منذ أن اعتنقت الديانة المسيحية التي دخلها التحريف والفساد على يد كل من بولس اليهودي وقسطنطين الملك الروماني وإقرار الكنيسة ورجال الدين فيها لتلك العقيدة المحرفة ، وركزت في هذا الفصل على دور الكنيسة بالذات في إفساد الديانة النصرانية ، وأشارت إلى الطغيان الذي كانت تمارسه على عقول الناصرون وقلوبهم وأموالهم وإلى الإرهاب الذي كانت تمارسه عن طريق محاكم التفتيش وإلى الهرطقات التي روجت لها كسألة صكوك الغفران ، وأشارت كذلك إلى المفاصد الأخلاقية التي انتشرت بين رجال الدين على مختلف مستوياتهم مما أورت أوروبا نفورا من الدين وبعدا عنه إلى الوثنية .

والثاني : يتمثل في تدخل اليهود وتوجيههم للنهضة الأوروبية واستغلالهم لكثير من النظريات كظنرية التطور لدارون والاستفادة من الواقع الذي بدأ يتحلل من الدين والأخلاق بطبيعته .

والسبب الثالث : يتمثل في تقصير المسلمين وعدم نهوضهم بواجب الدعوة لدين الله في تلك الفترة من الزمن وذلك نظراً لسوء الأحوال التي كانوا يعيشونها وبالذات بعدهم هم أنفسهم عن حقيقة الإسلام .

وأما الفصل الثاني : فبينت فيه العلاقة التي تربط بين الوثنية الحديثة والقديمة ، وأنها امتداد للجذور الوثنية القديمة ، وأنهما لا تختلفان إلا في الظاهر والقشور الخارجية ، أما الحقيقة فواحدة فهي العبودية لغير الله تعالى .

(ك)

وأما الفصل الثالث : فقد خصصته لذكر مجموعة من صور الوثنية الحديثة كالديمقراطية والشيوعية والقومية والوطنية والعلمانية والعقلانية وغير ذلك . وبُيِّنَت أنها جميعها تقوم على العبودية لغير الله تعالى وأنها تشكيل جديد للوثنية ، وبذلك فهي مناقضة للإسلام ولا يجوز اعتناقها . وبُيِّنَت موقف الإسلام منها ، وأُشِرَت إلى خطورة إضافة الإسلام إلى أي صورة من هذه الصور الوثنية ، سواءً في ذلك الديمقراطية والاشتراكية وغيرها لأنها جميعها تنطلق من أصل واحد وهو الشرك في عبادة الله .

الباب الرابع : عدوى الوثنية الحديثة في حياتنا المعاصرة ، ويشتمل على ثلاثة فصول .

الفصل الأول : أحوال المسلمين في العهود الأخيرة . تحدثت فيه عن مجموعة من الأسباب والظروف أدت إلى استعداد العالم الإسلامي لتقبل كثير من الأفكار والمذاهب الوثنية الحديثة . وكان في مقدمة هذه الأسباب بُعد المسلمين عن الإسلام وعدم تمثيلهم لحقيقته والتزامهم به بصورة متكاملة .

ثم التخلف المادي والعلمي والفكري والتفكك السياسي وغير ذلك من جوانب الحياة المادية ما جعل العالم الإسلامي في حالة من الضعف شجعت الدول الصليبية على فزوه واحتلاله عسكرياً ثم إفساده عن طريق الغزو الفكري بنشر المذاهب المادية والترويج للأفكار اللادينية وإشاعة الفواحش والأخلاق والعادات السيئة بين أبنائه ، مما أورثهم هزيمة روحية أدت إلى انبهارهم وإعجابهم بالحضارة الأوروبية المادية والتخلي عن الدين والأخلاق بصورة تدريجية .

وأما الفصل الثاني فقد خصصته لذكر بعض مظاهر عدوى الوثنية الحديثة التي انتقلت للعالم الإسلامي في عقر داره وتأثر بها المسلمون . وكان من أبرز مظاهر المدوى وأخطرها التخلي عن شريعة الله والتحاكم إلى غيرها من الأنظمة والقوانين والدساتير الوثنية في كثير من مجالات الحياة . ثم موالاته غير المسلمين وموادتهم والتقرب إليهم واستعمالهم في شؤون المسلمين في وظائف حساسة ومهمة بحيث يطلعون على عورات بلاد المسلمين ونقاط الضعف فيها خصوصاً في الناحية السياسية والمجال العسكري . ثم ظاهرة الدعوة لتحديد النسل والقضاء على ذراري المسلمين بطرق خبيثة بحجة الخوف من الجوع والفقير والعوز .

(ل)

والظاهرة الرابعة وهي الدعوة إلى السفر والاختلاط وإشاعة الفاحشة بين المسلمين في سبيل القضاء على بقايا الالتزامات الدينيّة والفضائل الأخلاقية بحيث يصبح العالم الإسلامي مباءة للفساد وموطناً للرديلة والعيان بالله .
وأما الفصل الثالث . فقد جعلته لبيان وسائل العلاج والدواء الشافي وذلك عن طريق التربية الإسلامية الصحيحة ، ببيان حقائق الإسلام وإعداد الفرد والأسرة والمجتمع إعداداً إسلامياً عن طريق الدعوة إلى الإسلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة حدود الله ، ثم عن طريق إصلاح مناهج التعليم ووسائل الإعلام المختلفة واستغلال ذلك كله في خدمة الإسلام وإقامة الحياة الإسلامية الصحيحة ، حتى يقوم بعد ذلك المسلمون بدورهم وواجبهم في الدعوة إلى الله ونشر عقيدة التوحيد وتبليغها / في مختلف نواحي العالم لتخليصهم من الشرك والعبودية لغير الله التي وقعوا فيها في ظل النظم والمذاهب الوثنية الحديثة التي تسود العالم .

الخاتمة : وقد تعرّضت فيها لأهم النتائج التي توصلت إليها من

خلال البحث .

هذا وإني لأرجو الله تعالى أن أكون قد وفقت في هذا البحث ، فإن كنت قد أصبت فمن الله تعالى وحسن توفيقه ، وإن أخطأت فعني ومن الشيطان وأستغفر الله وأستلهمه الرشد والهدى والرجوع إلى الحق فإن الرجوع إلى الحق خير من التعمد في الباطل .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين صلى الله وسلم وبارك على

نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

التحضير

تمهيد في بيان مفهوم الوثنية

- ١ - تعريف الوثن والصنم والطاغوت
- ٢ - المفهوم الشائع للوثنية
- ٣ - المفهوم الصحيح للوثنية
- ٤ - شبهة القول بزوال الوثنية

ما تجدر الإشارة إليه قبل البدء في تحديد مفهوم الوثنية وكشف حقيقتها
أن أعرف ببعض الأسماء والفردات ذات الصلة بالوثنية التي سيكون لها أهمية
في بيان مدلولها .

١ - الوثن : وكلمة الوثن أقرب الكلمات إلى الوثنية لأنه الأصل الثلاثي لها ،
ونسبتهما إليه .

الوثن لغة^(١) : وَثَنَ يَثِنُ وَثْنًا فِي الْمَكَانِ أَقَامَ وَثَبَ فَهُوَ وَاثِنٌ .

استوثن الشيء : بقى وقوى

وَثَنَ الشَّيْءُ بِالْمَكَانِ : أَقَامَ وَثَبَ

ويجمع على وَثْنٍ وَوُثْنٍ وَأَوْثَانٍ

الواثن : الشيء الثابت الدائم في مكانه ، والماء المعين الدائم الذي لا يذهب .

ولما كان الوثن من شأنه أن يكون ثابتا في مكانه الذي ينصب فيه سمي وَثْنًا .

" وسمى الصليب^(٢) وَثْنًا ، لأنه ينصب ويركز في مقامه فلا يبرح عنه " ^(٣) .

الوثن اصطلاحا : كثر الأقوال في تحديد معنى الوثن في الاصطلاح ، وذهبت
مذاهب متعددة منها من نظر إلى المادة المصنوع منها الوثن ، ومنها من نظر إلى
الصورة أو الهيئة ومنها ماتجاوز هذه الأمور الشكلية إلى الغاية التي من أجلها كان الوثن .

١ - انظر : لسان العرب ، محمد بن مكرم بن منظور ، ج ١١ ، ص ٤٤٢ ، دار صادر
بيروت ، والصحاح للجوهري ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، ج ٦ ، ص ٢٢١٢
ط ٢ ، والمعجم الوسيط ، ابراهيم أنيس وجماعة من العلماء ، ج ٢ ، ص ١٠١٠ ،
ومعجم متن اللغة ، أحمد رضا ، ج ٥ ، ص ٧٠٦ ، دار مكتب الحياة
بيروت ، ومعجم الألفاظ والأعلام القرآنية ، محمد إسماعيل إبراهيم ، ج ٢ ،
ص ٢٦٥ ، ط ٢ .

٢ - وجاء في قصة إسلام عدي بن حاتم - وكان في عقبه صليب على عادة النصارى - أن
الرسول صلى الله عليه وسلم قال : (اطرح عنك هذا الوثن) رواه الترمذي في
تفسير سورة التوبة ، وما زال النصارى يضعون الصليب في أعناقهم ، وتبعهم في
ذلك كثير من أبناء المسلمين وبناتهم .

٣ - تفسير فتح القدير ، محمد بن علي الشوكاني ج ٣ ص ٤٥١ ط ٣ ، الحلبي .

فقالوا (١) : الوثن هو التمثال يعبد سواء أكان من حجر أم من خشب

أم من نحاس أم من فضة أم من غير ذلك كصورة آدمى ينصب ويعبد .

وقيل : ما كان مُعدًّا للعبادة من غير صورة (٢) .

وقال الراغب : الوثن هو حجارة كانت تعبد (٣) .

وقيل : الوثن عند العرب القدماء في الأغلب مادة من حجر أو خشب أو طعام

يؤكل وتكون المادة على الأكثر على حالتها الطبيعية من دون أن تعمل يد الإنسان

فيها نحتاً أو صقلاً أو نقشاً (٤) .

وقال في اللسان : الوثن هو الصنم ما كان (٥) .

وقال الطبري : الوثن ما كان موضوعاً على غير صورة (٦) .

وجاء في شرح كتاب التوحيد أن الوثن اسم جامع لكل ما عبد من دون الله

لا فرق بين الأشجار والأحجار والأبنية ولا بين الأنبياء والصالحين والظالمين ففى

١ - انظر المعجم الوسيط ج ٢ ص ١٢ ١٠ ، و متن اللغة ج ٥ ص ٧٠٦ ، ومعجم

الألفاظ والأعلام القرآنية ج ٢ ص ٢٦٥ .

ومعجم ألفاظ القرآن الكريم ، مجمع اللغة العربية ، ج ٢ ،

ص ٨٢١ ، ط ٢ .

٢ - تحفة الأريب بما فى القرآن من الغريب ، أثير الدين الأندلسى

ص ٨٢٦ ، ط ١ .

٣ - مفردات غريب القرآن ، الراغب الاصبهانى ، ج ٢ ، ص ٨٠٥ ، طبع

مكتبة الانجلو المصرية .

٤ - تاريخ الأديان ، طه الهاشمى ، ص ١٧٦ .

٥ - لسان العرب ، ابن منظور ، ج ١٣ ، ص ٤٤٢ ، مادة وثن ، طبع بيروت ،

وانظر : دائرة معارف القرن العشرين ، محمد فريد وجدى ، ج ١٠ ، ص

٦٣٩ ، الشركة اللبنانية ، الصباح المنير ، أحمد بن محمد الفيومى

ج ٢ ، ص ٣٢٢ ، مطبعة الحلبي .

٦ - جامع البيان عن تأويل القرآن (تفسير الطبرى) ، أبو جعفر محمد بن جريس

الطبرى ، فى تفسير قوله تعالى (وأجنبنى ومنى أن نعبد

الأصنام) سورة ابراهيم - ٣٥ .

هذا الموضع وهو العبادة فإنها حق لله وحده ، فمن دعا غير الله أو عبده
فقد أتخذة وثناً (١) .

وبذلك فالوثن يطلق على الأصنام وغيرها مما عبد من دون الله (٢) .

ويقال : رجل وثني ، وقوم وثنيون ، وامرأة وثنية ، والوثني من يتدين بعبادة
الوثن (٣) .

٢ - كلمة الصنم :

الصنم لغة : قال في اللسان : الصنم معروف واحد الأصنام وهو الوثن (٤) .

وقال في الصحاح : الصنم واحد الأصنام ، يقال إنه معرب من شمن بالفارسية ،
وهو الوثن (٥) .

الصنم في الاصطلاح :

اختلف في تحديد معنى الصنم اصطلاحاً تبعاً للاختلاف في معنى الوثن ، فقيل :
الصنم تمثال من حجر أو خشب أو معدن كانوا يزعمون أن عبادته تقربهم إلى الله
والجمع أصنام (٦) .

وقيل : الصنم جثة متخذة من فضة أو نحاس أو خشب كانوا يعبدونها
مقربين بها إلى الله تعالى (٧) .

١ - فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ، عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ، ص ٢٢٠
تحقيق محمد حامد فقي ، باكستان ، لاهور .

٢ - المرجع السابق ص ٢٦٣ .

٣ - معجم متن اللغة ج ٥ ص ٧٠٦ .

٤ - انظر لسان العرب ج ١٢ مادة صنم .

٥ - الصحاح ج ٥ ، ص ١٩٦٩ .

٦ - المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، ج ١ ،
ص ٥٢٦ ، ط ٢ .

٧ - مفردات غريب القسطنطيني ، الراغب الاصبهاني ،
ج ١ ، ص ٤٢٣ .

وجاء في اللسان أن الصنم واحد الأصنام وهو الوثن^(١) ، وكذا قال

الجوهري في الصحاح .

وقال الكلبي : الصنم ما كان معمولا من خشب أو ذهب أو من فضة على

صورة إنسان^(٢)

ولعل أجمع ما قيل في تعريفه : أنه ما اتخذ إليها من دون الله أو كل

ما يشغل عن الله تعالى^(٣) .

الفرق بين الوثن والصنم :

تبيين مما سبق اختلاف الأقوال في تحديد المعنى المراد بكل من كلمة

الوثن والصنم ، فهل هناك فرق بينهما أم هما شيء واحد ؟

الكثير من التعريفات حاولت أن توجد فرقا بينهما .

قال الكلبي : إذا كان معمولا من خشب أو ذهب أو من فضة على صورة

إنسان فهو صنم . وإذا كان من حجارة فهو وثن^(٤) .

وقال السهيلي : يقال لكل صنم من حجر أو غيره : صنم ، ولا يقال : وثن

إلا لما كان من غير صخرة كالنحاس ونحوه^(٥) .

وقال في اللسان : الصنم هو ما كان له جسم أو صورة ، والوثن

ما لم يكن له جسم أو صورة .

١- لسان العرب ، ج ١٢ ، ص ٣٤٩ ، والصحاح ، ج ٥ ، ص ١٩٦٩ .

٢ - كتاب الأصنام ، أبو المنذر هشام بن السائب الكلبي ، ص ٥٣ ، تحقيق أحمد زكي ، الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة .

٣ - معجم ألفاظ القرآن الكريم ، ج ٢ ، ص ٩٠ ط ٢ .

٤ - الأصنام ص ٥٣

٥ - الروض الأنف في شرح سيرة ابن هشام ، عبد الله السهيلي ، ج ١ ، ص ٣٥٧ ، ط ٢ ، تحقيق عبد الرحمن الوكيل .

قال تعالى : (واجبنى وبنى أن نعبد الأصنام)^(١) ، قال ابن عرفة :
ما اتخذوه من الهة فكان غير صورة فهو وثن ، فإذا كان له صورة فهو صنم .
وقيل الفرق بين الوثن والصنم : أن الوثن ما كان له جثة من خشب أو حجر
أو فضة ينحت ويعبد .
والصنم : الصورة بلا جثة .
ومن العرب من جعل الوثن المنصب صنما^(٢) .
والذى أراه أن بينهما عموما وخصوصا بفض النظر عن المادة المصنوع منها ،
والهيئة أو الصورة التى يكون عليها كل منهما .
فيطلق الصنم على الوثن و العكس كذلك إذا افترق اللفظان ، قال تعالى على
لسان إبراهيم عليه السلام : (إنما تعبدون من دون الله آوثانا)^(٣) ، وقال
تعالى فى آية أخرى : (وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين)^(٤) .
فعبّر عن المعبودات من دون الله بكلا اللفظين فدل ذلك على أنهما سواء ،
ومن هنا قال فى فتح المجيد : (وقد يسمى الصنم وثنا)^(٥)
وإذا اجتمع اللفظان كان الوثن أعم بحيث يشمل الصنم وغيره من معبودات
حسية كالقبور والأشخاص والتماثيل ، ومعبودات معنوية غير حسية كالقومية والوطنية
والمذاهب الوثنية الأخرى ، فى حين أن الصنم يختص بنوع من المعبودات الحسية
فقط ، وذلك يصح القول بأن كل صنم وثن ولا عكس .
ولهذا قال فى فتح المجيد : ويقال إن الوثن أعم وهو قسوى^(٦) .

١ - سورة إبراهيم آية ٣٥ .

٢ - لسان العرب ج ١٢ ، ص ٣٤٩ .

٣ - سورة العنكبوت آية ١٧ .

٤ - سورة الأنبياء آية ٥٧ .

٥ - فتح المجيد ص ٧٤ .

٦ - المصدر السابق ص ٧٤ .

هذا وقد ورد لفظ الأصنام والأوثان في مواطن متعددة من القرآن الكريم والأحاديث النبوية ، يمكن أن نستخلص منها أن الأصنام والأوثان ما عبد من دون الله تعالى (١) .

٣ - الطاغوت :

الطاغوت لغة (٢) :

قال في اللسان : طَغَى يَطْفَى طَفِيًا ، وَيَطْفُو طُفْيَانًا جَاوَزَ الْقَدْرَ وَارْتَفَعَ وَغَلَا فِي الْكُفْرِ .

وظفا الماء : ارتفع وعلا على كل شيء ، وفي التنزيل العزيز :

(إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ) ، وطفى البحر : هاجت أمواجه .

وكل شيء جاوز القدر فقد طغى كما طغى الماء على قوم نوح .

الطاغوت : يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، وهو مفرد وجمعه

طاوغيث ، ووزنه : فَعَلَوْتُ ، وإنما هو طَفْيِيوت ، قُدِّمَت الياء قبل الغين وقلبت

ألفا لأنها مفتوحة وقبلها فتحة .

الطاغوت في الاصطلاح :

قال الطبري^{رحمه الله} : " والصواب عندى أنه كلُّ ذى طغيان على الله ، فَعْبِدَ مَنْ

دونه ، إما يقهر منه لمن عبده ، وإما بطاعة ممن عبده له ، إنسانا كان ذلك

المعبود أو شيطانا ، أو وثنا أو صنما ، أو كائنا ما كان من شيء " (٣) .

وقال الأصبهاني : " هو كل متعبد وكل معبود من دون الله " (٤) .

وقيل : هو كل رأس في الضلال يَصْرِفُ النَّاسَ عَنْ طَرِيقِ الْخَيْرِ سِوَاءِ

أَكْبَانَ شَيْطَانًا أَمْ كَاهِنًا أَمْ سَاحِرًا ، أو هو كلُّ ما عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

١ - فتح المجيد ص ٧٤ ، ٢٢٠ .

٢ - لسان العرب ج ١٥ ، ص ٧ - ٩ ، مادة طغى .

٣ - تفسير الطبري ، ج ٣ ، ص ١٣ ، وانظر ج ٥ ، ص ١٣٣ .

٤ - مفردات غريب القرآن ، ج ٢ ، ص ٤٥٤ .

من الجن والانس (١) .
رحمه الله

وقال المودودي: "الطاغوت في اصطلاح القرآن معناه كلُّ دولة أو سلطنة وكل إمامة أو قيادة تبغى على الله تعالى وتتمرد ثم تنفذ حكمها في أرضه وتحمل عباده على طاعتها بالإكراه أو بالإغراء أو بالتعليم الفاسد (٢) ."

وقال محمد حامد الفقى^{رحمه الله} في حاشية فتح المجيد: "الذي يستخلص من كلام السلف رضی الله عنهم أن الطاغوت كل ما صرف العبد صدَّه عن عبادة الله ، وإخلاص الدين والطاعة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، سواء في ذلك الشيطان من الجن والشيطان من الإنس ، والأشجار والأحجار وغيرها ، ويدخل في ذلك بلا شك : الحكم بالقوانين الأجنبية عن الإسلام وشرائعه وغيرها من كل ما وضعه الإنسان ليحكم به في الدماء والفروج والأموال ، وليبطل بها شرائع الله ، من إقامة الحدود وتحريم الربا والزنا والخمر ونحو ذلك ، مما أخذت هذه القوانين تحللها وتحميمها بنفوذها ومنفذيها والقوانين طواغيت ، وواضعوها مروء جوها طواغيت" (٣) .

ومثل الطاغوت في المعنى الجيت فهما سواء ، كما ذكر ابن جرير الطبري "أنهما إسمان لكلٍ معظم بعبادة من دون الله ، أو طاعة أو خضوع له كائنا ما كان ذلك المعظم من حجر أو شجر أو إنسان أو شيطان" (٤) ، وبهذا فالأنصاب والتمائيل والتصاویر كلها جهوت وطواغيت إذا عبدت من دون الله .

وهكذا فالطاغوت لفظ عام واسم شامل لكل ما يصدُّ الإنسان أو يصرفه عن طاعة الله وإخلاص العبادة له سبحانه وتعالى ، فالأصنام والأوثان

١ - معجم الألفاظ والأعلام القرآنية ، ج ٢ ، ص ٣٢ ، ط ٢ ، وانظر كتاب التصاريف ، يحيى بن سلام ، ص ٢٠٧ تحقيق هند شلبي .
٢ - المصطلحات الأربعة في القرآن ، أبو الأعلى المودودي ص ١٠١ .
٣ - فتح المجيد ص ٢٨٢ .
٤ - تفسير الطبري ، ج ٥ ص ١٣٣ ، مطبعة الحلبي .

طواغيت ، والشيطان طاغوت و السلطان الجائر الحاكم بغير شرع الله طاغوت ، ودعاة الأفكار والمذاهب الباطلة هم ومذاهبهم طواغيت كالقومية والوطنية ودعاتهما ، ودعاة الانحلال والسفور وتحديد النسل فى المجتمعات الإسلامية طواغيت وأنصار الشيوعية وأتباع الرأسمالية طواغيت ودعاة فتنة وهوى وضلال .

” فالطواغيت التى أمرنا الله أن نكفر بها ليصح إيماننا ليست ولم تكن الأوثان والأصنام فحسب ، إن تلك الأوثان والأصنام مجرد صورة واحدة ، أو شئ واحد ، لكن صور الطواغيت كثيرة ، معتقدات ، مبادئ ، أفكار ، أشخاص ، عواطف ومشاعر ، سلوك ، صور للتنسك“

فليُنظر الذين يقولون ” أنا مسلم العقيدة ماركسي المذهب “ ، فإن العقيدة لا تصح حتى يسقط كل طاغوت يعطيه الإنسان بعض حق الله (١) ، لأن الله تعالى يقول :
(فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى) (٢) .

ومن هنا فقد أمر الله سبحانه وتعالى بإخلاص العبادة له واجتناب كل الطواغيت التى تتناول على حق الله وعبوديته .

قال تعالى : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) (٣)

وعلى هذا سيتضح لنا المراد بالوثنية وسيتحدد المفهوم الشامل لها دون حصرها فى نمط معين مما يعبد من دون الله .

مفهوم الوثنية :

أ - المفهوم الشائع للوثنية :

قال فى المعجم الوسيط : (الوثنية مذهب عبدة الأوثان) (٤) .

١ - أساليب الغزو الفكرى - د . على جريشة ورفيقه ، ص ١٩٢ - ١٩٤ ،

ط أولى ، دار الاعتصام .

٢ - سورة البقرة آية : ٢٥٦ .

٣ - سورة النحل آية : ٣٦ .

٤ - المعجم الوسيط ج ٢ ص ١٠١٢ .

وقال محمد فريد وجدى : (الوثنية فى عرف الفلسفة الدينية هى إقامة الأوثان وعبادتها) (١) .

ومن هنا فقد يظنُّ البعض أن الوثنية هى الصورة المتمثلة فى عبادة إله أو آلهة معلومة مجسَّمة ومنظورة من الأوثان والأصنام ، تُقدَّم لها الصلوات والقرايين وتلتمس منها المنافع والبركات ، كما هو المتبادر إلى الذهن لأول وهلة ، كما كان معهوداً فى الوثنية العربية قبل الإسلام ، حيث كانت عبادة الأوثان هى الحالة السائدة على معظم العرب المشركين ، فارتبطت الوثنية فى حس الناس بوجود الأوثان والأصنام فقط فاذا لم توجد فلا وثنية ولا شرك ولا خروج على عبادة الله ، وهذا خطأ جسيم وخطر كبير .

فحصر الوثنية فى هذا المفهوم الضيق كان له آثاره الوخيمة على الأمة الإسلامية حتى وقعت فيما هو أفحش من عبادة الأصنام والأوثان ، لاسيما أن هذا اللون من الوثنية لم يعد له وجود فى ديار الإسلام على الشكل الذى عرفه عبادة الأوثان فيما قبل البعثة النبوية بديانة التوحيد .

ب - المفهوم الصحيح للوثنية :

المعنى الذى يجب أن نفهمه عند ذكر الوثنية أوسع وأشمل من مجرد كونها محصورة فى نمط معين من أنماط الشرك وهو إقامة الأصنام والأوثان والأنصاب والتماثيل وقبور الموتى من الصالحين و الطالحين ، فيجب أن نفهم أن الوثنية هى الشرك كله بجميع فروعه وصوره وأشكاله فحيثما لم تتحقق العبودية خالصة لله تعالى فى شكل من أشكالها تكون الوثنية .

وليس من الضرورى أن يجاهر الطاغية الظالم بقوله : (أنا ربكم الأعلى ، وما علمت لكم من إله غيرى) ، كما قال فرعون من قبل حتى يُحكَّم عليه بالنكوص عن

١ - دائرة معارف القرن العشرين - محمد فريد وجدى ، ج ١٠ ،

التوحيد والانحراف إلى الوثنية وتفضيلها على دين الله وشرعه ، ولكن الوثنية
تعنى هذا وغيره من الأقوال والأحوال والأفعال ، فمن ترك شرع الله واستبدل به
شرائع وقوانين ما أنزل الله بها من سلطان ، ومن جعل ^{أو نصب} السلطة التشريعية أو
نسبها إلى غير الله كأن يجعلها للشعب أو لفئة معينة كالعمال أو الحزب
أو السلطان الحاكم أو يجعلها للعرف والعادة أو لسلطة الرأي العام من مجموع
الناس ، ومن جعل الولاء لغير الله كأن يكون ولاؤه للقوم أو الوطن أو الحزب
أو النظام ، إلخ . ومن ذلَّ وخضع وأعطى الطاعة العمياء لغير الله كأنما ما كان ،
ومن اعتقد أنه حرّ تطبيق له أن يفعل ما يشاء من غير قيد ولا شرط يحلّل الحرام
ويحرّم الحلال ، ويفعل ما تزينه له نفسه وما يدعوه إليه شيطانه وهواه .

كل هؤلاء وغيرهم من أمثالهم إنما هم عبدة أوثان وجنود شيطان وأتباع هوى
ضلال يتخبطون في حياة وثنية بعيدة عن الإسلام ، وإن لم يسجدوا لصنم
أو وثن أو يذبحوا على نصب وتمثال ، أو يطوفوا حول المشاهد والقبور
والأنصاب .

(إن الوثنية ليست صورة واحدة هي وثنية الأصنام الحجرية والآلهة الأسطورية
إن الوثنية يمكن أن تتمثل في صور شتى ، كما أن الأصنام يمكن أن تتمثل مرة أخرى
في المقدسات والمعبودات من دون الله أيا كانت أسماؤها ، وأيا كانت مراسيمها ،
وما كان الإسلام ليخلص الناس من الأصنام الحجرية والأرباب الأسطورية ثم يرضى لهم
بعد ذلك أصنام الجنسيات والقوميات والأوطان وما إليها يتقاتل الناس تحت راياتها
وشعاراتها ، وهو يدعوهم إلى الله وحده ، وإلى الدينونة له دون شئيين
من خلقه) (١) .

(وفي حياتنا المعاصرة أمثلة كثيرة تكشف عن حقيقة الوثنية السائدة وحقيقة
الأصنام المعبودة المقامة اليوم بدلا من تلك الوثنية الصريحة ومن

تلك الأصنام المنظورة ، ويجب ألا تخدعنا الأشكال المتغيّرة للوثنية والشرك — عن حقيقتها الثابتة (١) .

إن عبادة الأصنام التي دعا سيدنا إبراهيم — عليه السلام — ربه أن يجنبه هو ونيه إياها في قوله تعالى : (وإن قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وني أن نعبد الأصنام) (٢) لا تتمثل فقط في تلك الصورة الماذجة التي كان يزاولها العرب في جاهليتهم ، أو التي كانت تزاولها كل الوثنيات في صور شتى ، مجسمة في أحجار أو أشجار أو حيوان أو طير أو نجم أو نار أو أرواح ، أو أشباح ..

(إن هذه الصور الماذجة كلها لا تستغرق كل صور الشرك بالله ، ولا تستغرق كل صور العبادة للأصنام من دون الله ، والوقوف بمدلول الشرك عند هذه الصور الماذجة يمنعنا من رؤية صور الشرك الأخرى التي لا نهاية لها ، ومنعنا من الرؤية الصحيحة لحقيقة ما يعتصم به البشر من صور الشرك والجاهلية الجديدة .) (إن الشرك بالله — المخالف لشهادة أن لا إله إلا الله — يتمثل في كل وضع وفي كل حالة لا تكون فيها الدينونة في كل شأن من شؤون الحياة خالصة لله وحده ولا يكفي أن يدين العبد لله في جوانب من حياته ، بينما هو يدين في جوانب أخرى لغير الله ، حتى تتحقق صور الشرك وحقيقته ، وتقديم الشعائر ليس إلا صورة واحدة من صور الدينونة الكثيرة .. والأمثلة الحاضرة في حياة البشر اليوم تعطينا المجال الواقعي للشرك في أعماق طبيعته .. إن العبد الذي يتوجه لله بالاعتقاد في ألوهيته وحده ، ويدين لله في الرضوء والطهارة والصلاة والصوم والحج وسائر الشعائر ، بينما هو في الوقت ذاته يدين في حياته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لشرائع من عند غير الله ، ويدين في قيمه وموازينه الاجتماعية لتصورات واصطلاحات من صنع



١ - في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ج ٣ ، ص ١٤١٣ .

٢ - سورة إبراهيم آية : ٣٥ .

غير الله ، وبيدين في أخلاقه وتقاليده وعاداته وأزيائه لأرباب من البشر تفرض عليه هذه الأخلاق ، والتقاليد والعادات والأزياء - مخالفة لشرع الله وأوامره - إن هذا العبد يزاول الشرك في أخص حقيقته ، ومخالف عن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله في أخص حقيقتها . . . وهذا ما يغفل عنه الناس اليوم فيزاولونه في ترخص وتميع وهم لا يحسبون الشرك الذي كان يزاوله المشركون في كل زمان ومكان (والأصنام ليس من الضروري أن تتمثل في تلك الصور الأولية الساذجة ، فالأصنام ليست سوى شعارات للطاغوت ، يختفى وراءها لتعبيد الناس باسمها وضممان دينونتهم له من خلالها .

(إن الصنم لم يكن ينطق أو يسمع أو يبصر ، إنما كان السادن أو الكاهن أو الحاكم يقوم من ورائها يتمم حولها بالتعاون والرقى ، ثم ينطق باسمها بما يريد هو أن ينطق لتعبيد الجماهير وتذليلها .

(فإذا رفعت في أي أرض وفي أي وقت شعارات ينطق باسمها الحكام والكهنة ويقررون باسمها ما لم يأذن به الله من الشرائع والقوانين والقيم والموازين والتصرفات والأعمال ، فهذه هي الأصنام في طبيعتها وحقيقتها ووظيفتها .

(إذا رفعت " القومية " شعاراً أو رفع " الوطن " شعاراً أو رفع " الشعب " شعاراً أو رفعت " الطبقة " شعاراً ، ثم أريد الناس على عبادة هذه الشعارات من دون الله ، وعلى التضحية لها بالنفوس والأموال والأعراض ، بحيث كلما تعارضت مع شريعة الله وقوانينه وتوجيهاته وتعاليمه ونفذت إرادة تلك الشعارات - أو بالتعبير الصحيح الدقيق - إرادة الطواغيت الواقعة وراء هذه الشعارات - كانت هذه هي عبادة الأصنام من دون الله ، فالصنم ليس من الضروري أن يتمثل في حجر أو خشبة ، ولقد يكون الصنم مذهبا أو شعاراً .

(ولا بد من تتبع الهيئات والصور في كل وضع وفي كل وقت لإدراك طبيعتها الأنظمة والمناهج القائمة وتقرير ما إذا كانت توحيداً أم شركاً ؟ دينونة لله وحده أم دينونة لشئ الطواغيت والأرباب والأصنام ؟

إنَّ الوثنية لا تتمثل فى إقامة أحجار وأخشاب ، بقدر ما تتمثل فى إقامة شعارات ، لها كلُّ ما لتلك الأصنام والأوثان من نفوذ ومقتضيات (١) .

(وفى عصرنا الحاضر ظهرت أوثان ومعبودات شتى ، أصبحت تمتلك قلوب الناس ومشاعرهم وولاءهم ، بذكرها يهتفون وباسمها يُقسِمون ، وفى سبيلها يجاهدون ويستشهدون ، تلك هى أوثان الوطنية والقومية وما شاكلها ، تدخل المدارس والجامعات وتشهد المؤتمرات والندوات وتقرأ الصحف والمجلات وتسمع برامج الإذاعات فلا تكاد تسمع لله ذكراً ، أو تجدد له مكاناً ، وإنما تجدد معبوداً آخر تدور حوله كلُّ الأفكار وكلُّ المشاعر وكلُّ الأعمال إلا القليل أو أقل من القليل إنه الوطن أو القومية - العروسة مثلاً - أو المجتمع أو الدولة أو غير ذلك من أصنام هذا العصر .

(ومن السائد الآن الهداية باسم الوطن أو الشعب ، وإن تكرم فباسم الله واسم الشعب ، والحلف باسم الوطن أو الشعب " أقسمت باسمك يا بلادى " ، والجهاد فى سبيل الوطن أو العروبة ، فإن قتل فهو شهيد الوطن أو شهيد العروبة ونحوها ، وهذا من أخطر أنواع الشرك التى دخلت على المسلمين من حيث لا يشعرون وسجلها دارسون الأيقاظ بوصفها ظاهرة جديدة فى حياة المسلمين (٢) .

يقول برنارد لويس : " كل باحث فى التاريخ الإسلامى يعرف قصة الإسلام الرائعة فى محاربه لعبادة الأوثان منذ بدء دعوة النبى صلى الله عليه وسلم وكيف انتصر وصحبه وأقاموا عبادة الإله الواحد التى حلَّت محلَّ الديانات الوثنية لعرب الجاهلية ، وفى أيامنا هذه تقوم معركة مماثلة أخرى ولكنها ليست ضدَّ (اللآت والعزى) وبقية آلهة الجاهلية ، بل ضدَّ مجموعة أخرى جديدة من الأصنام اسمها الدولة والعنصر والقومية . وفى هذه المرة يظهر أن النصر حتى

١ - فى ظلال القرآن ، ج ٤ ، ص ٢١١٤ - ٢١١٦ ، طبع دار الشروق ١٩٧٨م
٢ - العبادة فى الإسلام ، د . يوسف القرضاوى ، ص ١٤٦ ، مؤسسة الرسالة ط ٩ .

الآن حليف الأصنام ، فإدخال هرطقة العلمانية أو عبادة الذات الجماعية كان من أرسخ المظالم التي أوقعها الغرب على الشرق الأوسط ولكنها مع كل ذلك كانت أقل المظالم ذكرا وإعلاناً (١) .

وهكذا فالوثنية ليست مقصورة على عبادة المعهود من الأصنام والأوثان وقيمة الجمادات ، وإنما هي كما يقول محمد البهي : (التوجه لغير الله في التعظيم والإجلال والخضوع والطاعة) (٢) .

وهي بكلمة أخرى إشراك غير الله معه في أيّ لون من ألوان العبادة ، وهذا يكون حصر الوثنية في معبودات حسية من حجر أو شجر أو أي معدن من المعادن على صورة أو على غير صورة مجانباً للحقيقة ، وبالتالي يجعل الناس يقعون في أرجاس الوثنية وشراكها من غير أن يتنبهوا لحقيقة الأمر ، وذلك بسبب الجهل بحقيقة العبادة ومدى شمولها لجميع أحوال الدنيا والآخرة فكثير من الناس يظن أن الوثنية لا تكون إلا إذا قامت الأصنام والأوثان والنصب والتماثيل وعادات من جديد أصنام قوم نوح التي صارت في العرب فيما بعد ، وعادات اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، وهذا - لعمر الحق - فهم قاصر وتصور محدود لم يفهمه الأولون الما بقون من المهاجرين والأنصار ، وكلّ ذي سليقة سليمة وعقل ناضج وفطرة سوية .

فالحرب التي قام بها رسل الله جميعاً لم تكن مع الأوثان والأصنام الحجرية والمعبودات الأخرى من الجن والإنس والشياطين والملائكة المقربين ، وحدها وإنما كانت لتحرير العبادة لله وحده بلا شريك وتحرير قلوب البشر من أي توجه فسي أيّ جزئية من جزئيات الحياة لغير الله ، معه أو من دونه .

والذين لا يدركون هذه الحقيقة قد يهولهم القول بأن أتباع المذاهب السياسية

١ - الغرب والشرق الاوسط ، برنارد ليمس ، ص ١٠٥ ، تعريب د . نبيل

صبي ١٩٦٥ م .

٢ - القرآن والمجتمع ، د . محمد البهي ، ص ٣٨ ، ط ١ ، مكتبة وهبة .

والاجتماعية التي اصطنعها البشر لأنفسهم مخالفة لشرع الله ، واقعون في الوثنية والشرك ، وإن صلوا وصاموا وتوهموا أنهم على الإيمان الكامل ، لأنهم لا يدركون أن هؤلاء قد عبدوا غير الله واتخذوا لهم آربابا آخرين يقرون لهم بالطاعة ويكون لهم الوُدُّ والمحبة ويمتهنون لهم أنفسهم بالذل والعبودية ، وإن لم يقولوا عن أنفسهم إنهم عابدون لهم ، أو لم يعترفوا بهذه العبودية لغير الله لأنهم في ظاهر الأمر لم يسجدوا ولم يركعوا ولم يقدّموا القرابين وشعائر العبادة المعروفة ، ظنا أن العبادة هي مجرد تلك الشعائر والحركات التي يقوم بها الناس لله في حياتهم اليومية ، وأنهم إذا فعلوا ذلك كانوا في حلٍّ من دينهم وأنفسهم أن يفعلوا بعد ذلك ماشاءوا ، فسقطوا في الوثنية دون أن يدروا ، غير أنّ وثنتهم في هذه المرة لم تكن مجرد أصنام وأوشان أو حيوانات وأشجار مباركة أو غير ذلك من المعبودات الحسية القديمة ، وإنما كانت عبادة ذلٍّ وخضوع وطاعة واتباع لأحكام وشرائع وقوانين جاهلية ، كما قال تعالى : (اتخذوا أربابهم ورهبانهم أربابا من دون الله) (١) .

وقد فات هؤلاء وهؤلاء فهم حقيقة الوثنية في جوهرها وحقيقة العبادة ومقتضياتها ، فكلُّ انحراف في مفهوم العبادة وكلُّ ميلٍ فيها عن الأصل الذي جعلت له ينقلها جزئيا أو كلياً إلى الوثنية وعندها لا تكون العبادة خالصة لله المستحق لها ولا تكون منسجمة مع الأصل الذي بنيت عليه .

ولقد كان العرب المشركون يدركون جيدا أنّ الدعوة التي جاءهم بها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، ليست مجرد صلاة وصيام ، وشعائر ، ولو كانت كذلك فلربما كانوا على استعداد للقبول والتسليم ، ولكنهم علموا أنها نقلة بعيدة من حياة إلى حياة أخرى دفعة واحدة ، الدينونة الكاملة فيهم لله وحده لا شريك له في الشعائر والشرائع والاعتقاد والطاعة والاتباع والحب والبغض

وكل معنى من معانى الحياة .

لهذا لم يستسلموا بيسر ولم ينفادوا بسهولة ، بل احتاج الأمر إلى زمن طويل وصراع وجهاد وصبر ، حتى من الله عليهم بالهداية وأيقنوا أن ما يبذلون من لعبوداتهم الوثنية لا ينبغى إلا لله ، وأدركوا أن العبادة لا تكون إلا لمن له الخلق والأمر ، لله الواحد القهار ، فانقلبوا سيوفا على الأوثان فى طاعة مولاهم الحق الرحمن ، ودعاة فى سبيله يناقحون عن دين الله فى سبيل تحقيق العبودية الكاملة لله تعالى .

ونساء على هذا المفهوم الشامل لحقيقة الوثنية وحقيقة الإسلام فإنك إذا رأيت الرجل يهملهم أو ينطق أو يعلن شهادة الألوهية بملء فيه ، ورأيتهم يصلون مع المسلمين صلاتهم ، ويصوم معهم شهرهم ويشهد معهم حجهم ، ويشاركهم يوم النحر عيدهم ، ولكنه مع هذا كله قد تشرب قلبه حب القوانين الوضعية الأوروبية وهام بها حتى أصبح متيما بحبها شغوفا بتطبيقها معها بصلاحياتها لحياة هذا العصر ، ينتصر لها ، ويدافع عنها كما يدافع الأسد الهصور عن عرينه ، وهو فى المقابل ينظر إلى شريعة الله نظرة شرزا ، ويعتقد فيها عقيدة جاهلية شنعاء لا يقيم لها وزنا ، ولا يحتفل بها احتفاله بشرائع الأوثان ، فهذا وأمثاله من أنصار الوثنية وأتباع الهوى والشيطان ، وإن ظن جهلامه أنه من أبناء الإسلام ، فما كان الإسلام فى يوم ما مجرد عقائد وشعائر تعبدية فقط ، وإنما هو الدينونة المطلقة والطاعة الكاملة لله العزيز الحكيم .

وكذلك فإن المجتمع الذى تكون العبادة فيه بناءً على شكل من الأشكال من طاعة وحب وولاء وخضوع وذل وحاكمية ودستور تشريعى ، لغير الله تعالى فهو من المجتمعات الوثنية .

(وإذا لم يتحقق الإسلام فى حياة الناس بجميع صورته وأحكامه ، فعند ذلك تكون الوثنية ، فالخروج عن الإسلام فى أى أمر من أموره أو نواهيه أو أحكامه يعتبر تفضيلا للوثنية على الإسلام

وخروجاً عليه (١) .

فإذا كانت الطاعة العمياء والانقياد المطلق لفئة من البشر من دون الله فهى وثنية ، وإذا كان الولاء للوطن أو القوم أو الجنس أو القرابة أو أى رابطة أخرى غير رابطة عقيدة التوحيد فهى وثنية ، وإذا كان التصرف فى المال شيوعياً اشتراكياً أو رأسمالياً احتكارياً فهى وثنية ، وإذا كانت الحياة السياسية تقوم على المبادئ الديمقراطية العلمانية التى تستمد أحكامها من سلطة الشعب فهى وثنية وإذا كانت العادات والأعراف والتقاليد والرأى العام المأخذ هى مصادر التشريع فتحلل وتحرم وتقرّر ما تريد فهى وثنية ، وإذا أبيع التحرر والتمتلك والسفسفور والاختلاط والتفكك والتحلل من قيود الدين وضوابط الأخلاق تحت شعار الحرية فهى وثنية ، وإذا كانت القبور تقبّس والأضرحة يطاف بها وينذر لها ويذبح لها ويذبح فى أركانها ، والأموات يتوسل بهم ويُدعّون فى الملبأ والشدائد من دون الله أو معه فهى وثنية .

وهكذا فكل انحراف عن التوحيد وكل ابتعاد عن الهدى الربانى يكون وثنية .

ولهذا فيجب أن لا نأخذ عنا الأسماء ولا تبهرنا العناوين والشعارات والدعاوى العريضة الموهبة فكل ما نأخذ عن منهج الله وكل ما خرج عن طاعته فهو واقع فى الوثنية ، فإذا لم تتحقق العبودية الكاملة لله وحده من حيث الاعتقاد ومن حيث الشعائر التعبدية ومن حيث التشريعات القانونية وغير ذلك مما له ارتباط بتحقيق العبودية الكاملة لله وحده لا شريك له فاعلم أنها الوثنية (٢) .

وهذا الميزان الربانى يجب أن تزن الأمور ، فأى مذهب من المذاهب أو فكرة أو نظرية من الأفكار والنظريات الحديثة من قومية أو وطنية أو ديمقراطية أو اشتراكية

١ - عدة التفسير ، أحمد محمد شاكر ، ج ٣ ، ص ٢١٣ .

٢ - انظر معالم فى الطريق ، سيد قطب ، ص ٨٨ طبعة الاتحاد الاسلامى العالمى للمنظمات الطلابية .

شيوعية أو أعراف اجتماعية . . . الخ " إذا لم تتحقق فيها هذه الغاية العظيمة وهي إخلاص العبودية لله وحده ، بالمفهوم الشامل الواسع للعبادة ينبغي أن نحكم عليها بالوثنية والبعد عن دين الله وإن اتفقت معه في بعض الأحكام والمواقف الجزئية وذلك لأن دين الله لا يؤخذ إلا جملة واحدة ولا يقبل التجزئة ولا التقسيم ولا الأزدية ولا الثنائية ، فلما أن يؤخذ كاملا وإلا فهو ليس دين الله .

فليس من الإسلام أن تكون العبادات والشعائر التعبدية خاصة لله ، ففي حين تكون المعاملات والشرائع والقوانين التي تنظم الحياة غير خاضعة لحكم الله ولا نابعة منه .

فالمسألة : إما إسلام وتوحيد ، وإما شرك ووثنية ، وإما حق ، وإما باطل وليس هناك مرحلة وسيطة ، أو حياة مُرَقَّعة من حق واطل يقرها الإسلام ، فما بعد الهدى إلا الضلال .

فالقضية أولا وأخيرا قضية إيمان أو لا إيمان ، قضية توحيد أو شرك . قال تعالى : (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) (١) .

فهنا طريقان لا ثالث لهما ، ولا يرضى الله منهما إلا واحدة وهي الطريق المؤدية إليه من غير اعوجاج ولا التواء ، طريقا قيما ، لا تجد فيها عوجا ولا أمما ، وأما سواها فطريق الهوى والضلال ، طريق مظلّم موحش ، طريق الطواغيت والأوثان ، فروعه شتى ومساكنه متعددة ينعق على رأس كل طريق منها شيطان ينادي إلى معصية الله والخروج على طاعته يدعو إلى إعلاء راية الوثنية وطمس شعار التوحيد .

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : (خَطَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا بيده ثم قال : هذا سبيل الله مستقيما ، وخطَّ عن يمينه

وشماله خطوطا ثم قال: هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ثم سمى قرا (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) (١) .
وإذا كان العالم فى أكثر دوله اليوم (٢) خاليا من شرك الأوثان وعبادتها على الأسلوب المعهود فإنَّ هناك ألوانا من الشرك جديدة ولكنها فى حقيقتها لا تختلف عن عبادة الأوثان ، لأن هـذـه وتلك لا تحقق العبودية لله تعالى وحده فى جميع المجالات ، وتلتقى جميعها على الشرك والوثنية .

بقى أن أشير إلى نقطتين هامتين على صلة بالوثنية : الأولى فيما يتعلق بظاهرة الإلحاد الشيوعى هل هى وثنية أم لا ؟ والأخيرة فيما يتعلق بشبهة القول بزوال الوثنية وعدم رجعتها مرة أخرى .

أما النقطة الأولى فسأتركها لحين الحديث عن الشيوعية فى الصور الوثنية الحديثة بعون الله فيما بعد عند ذكر صور الوثنية الحديثة (٣) .

وأما بخصوص شبهة القول بزوال الوثنية إلى غير رجعة فأقول :
إن الفهم الخاطئ للوثنية وحصرها فى شكل معين وهو : إقامة الأوثان والأصنام وعبادتها مع الله أو من دونه استقلالاً ، قد أدى إلى إثارة القول بزوال الوثنية وعدم رجعتها ، وأن الأرض ما عاد يخشى عليها من الوثنية ولا سيما فى العالم الإسلامى ، وذلك لأن الإسلام قد قضى على الوثنية بتحطيم الأوثان وهتك أسرارها وغرس عقيدة التوحيد فى صدور أتباعه مكانها .

١ - رواه أحمد ج ١ ص ٤٣٥ ، والحاكم ج ٢ ص ٣١٨ ، وقال صحيح ولم يخرجاه ،

وانظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٣٦٠ طبعة دار الشعب .

٢ - هناك كثير من الدول الإفريقية مازالت حتى الآن تعيش فى الوثنية القديمة فتعبد كثيراً من المعبودات التقليدية المعروفة من الأوثان وغيرها .

٣ - فى الفصل الثالث من الباب الثالث . ص ٤٤٦

وقد أشار هذه الشبهة فريق من الناس وخاصة من كان على اطلاع بثقافات العصر الزائفة ، والمبهورون بالتقدم العلمى والتطور الحضارى ، بحجة أن الوثنية انحطاط فى العقل البشرى وازدراء بقيمة الإنسان ، وأن البشرية وصلت حدا من التقدم والتطور والنضج والاكتمال ، يحول دون عودتها إلى الوراء قرونا طويلة لتقع فى مذلة تحررت منها وسذاجة فارقتها ، وقد أشار لهذه الشبهة كثير من الكتاب والمحققين ورد وهما (١) .

وهذه الشبهة واهية ، وهذا الادعاء باطل ومردود ، وهذه المبررات ساقطة الإعتبار ، فإن الملاحظ أن بعض صور الوثنية القديمة مازالت قائمة فى العالم الإسلامى فضلا عن غيره من ديار الشرك والأوثان (٢) ، وذلك لأن الإنسان لا يسد له من معبود فيما أن يعبد الله وإما أن يقع فى عبادة ما سواه .

وفى الرد على هذه الشبهة يقول الألبانى : (وهذا ظن باطل ، فإن الواقع يخالفه ، إذ أن المشاهد أن الشرك على اختلاف أنواعه ومظاهره لا يزال ضاربا أطنابه فى أكثر بقاع الأرض ، ولا سيما فى بلاد الغرب (٣) عر دار الكفر وعبادة الأنبياء والقديسين والأصنام و المادة ، وعظماء الرجال والأبطال ، ومن أبرز ما يظهر ذلك للعيان انتشار التماثيل بينهم ، وإن ما يؤسف له أن هذه الظاهرة قد أخذت تنتشر ويبدأ فى بعض البلاد الإسلامية دون أى تكبير من علماء المسلمين .

-
- ١ - انظر (كتاب الاسلام) ، سعيد حوى ج ٢ ص ٦٨ ط ١ عام ١٩٦٩ م
(تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد) ، محمد ناصر الدين الألبانى ص ١٧٠ ط ٣ ، المكتب الإسلامى .
 - ٢ - حتى الآن هناك الكثير من القبائل فى افريقيا مازالت تعبد الأصنام والأوثان والحيوانات وغير ذلك من المعبودات التقليدية الساذجة .
 - ٣ - يقول ميخائيل نعيمة ، وهو أدرى بشؤون قومه - : أتعجبون أن عبادة الله وعبادة الأوثان تمشيان حتى فى أيامنا هذه جنباً إلى جنب ، وهو قول ليس بالمبتكر ولا بالجديد ولا بدعة فيه ولا تجديف . . .
عن كتاب الأوثان ، ميخائيل نعيمة ، ص ٩ ، ط ٥ ، دار صادر بيروت .

وما لنا نذهب بالقراء بعيدا ، فهذه كثير من بلاد المسلمين وخاصة الشيعة منهم ، ففيها عديد من مظاهر الشرك والوثنية كالسجود للقبور ، والطواف حولها ، واستقبالها بالصلاة والسجود ودعائهم من دون الله تعالى وغير ذلك (١) .

على أنه لو سلمنا جد لا بقول هؤلاء ، وفرضنا أن الأرض قد تطهرت من أدران الوثنية وصارت كحالها يوم اغتسلت بطوفان نوح عليه السلام من رجس الأوثان وقذارة الوثنيين ليس من الممكن - بل من المتيقن - أن الوثنية لا يؤمن شرها ، وأنها لا تلبث أن تعود مرة أخرى كما عادت في العرب من بعد إبراهيم وإسماعيل ، وفي بنى إسرائيل من بعد موسى وعيسى عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام .

نعم إنه لا يؤمن لها جانب ولا يركن إلى وهدتها ، ومن هنا نجد أن القرآن الكريم يشدد وطأته عليها ، والرسول الكريم يقطع كل السبل المفضية إليها ويسد كل الدرائع المؤدية إليها ، وعلى ذلك درج السلف من الصحابة والتابعيين وتابعيهم عليهم رضوان الله أجمعين .

هذا من جهة ومن جهة أخرى فنحن نقطع بأن الشرك سيقع في هذه الأمة في آخر الزمان ، إن لم يكن قد وقع حتى الآن ، وإليك بعض النصوص الواردة في ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم حتى نكون على بينة من الأمر :

١ - قوله صلى الله عليه وسلم : (لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس حول

ذى الخلفة) وكانت صنما تعبدها دوس في الجاهلية بتبالة من اليمن (٢)

٢ - وقوله : (لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى) (٣)

٣ - وقوله : (لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين وحتى تعبد فئام

من أمتي الأوثان) (٤) .

١ - تحذير الساجد ص ١٢٠ - ١٢١ .

٢ - متفق عليه ، رواه البخارى في الفتن ٢٣ ومسلم في الفتن ٥١ ، وأحمد ج ٢ ص ٢٧١

٣ - رواه مسلم في الفتن ١٧ .

٤ - رواه أبوداود ، والترمذى وصححه الحاكم وقال على شرط الشيخين ، وانما

هو على شرط مسلم فقط ، انظر تحذير الساجد ص ١٢٥ .

ففي هذه الأحاديث دلالة قاطعة على أن الشرك سيقع في هذه الأمة لا محالة لأنه صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى ، وإذا كانت هذه الأحاديث قد نصّت على عبادة الأوثان والأصنام الحسية وحددت منها اللات والعزى وذى الخلصة ، وأن الأمة الإسلامية ستقع في عبادتها من دون الله مرة أخرى وهي ظاهرة لا لبس فيها ولا خفاء في عبادتها ، فكيف الأمر بالنسبة للأوثان غير الحسية من الأفكار والمذاهب والعبادى الوثنية الحديثة والتي خفيت حقيقتها على الكثير من الناس فوقعوا في عبادتها وانحرفوا عن عبادة الله ، فإنه من باب أولى أن تعود الوثنية بصورة جديدة كقدمت أولية ومؤشرات مبدئية بحيث يتبدل حس الناس وصوروا على استعداد لتقبل عبادة اللات والعزى مرة أخرى قبل قيام الساعة ، ولا بد أن هذا سيقع كما جاء به الخبر .

هذا ولا يخفى أن الوثنية الحديثة قد فشت بين الناس ، وعمت بها البلوى ودرجوا عليها ورضوا بها ، ولم يعد الأمر مقتصرًا على أوروبا منشئها ومنبتها بسبل تجاوزه إلى العالم الإسلامى بسبب الغزو الصليبي العسكرى والفكرى ، وانبهار فئة كبيرة من أبناء حضارة أوروبا المادية .

وخلاصة الأمر أن الوثنية تطلق على مختلف العقائد التي لا تفرد الله سبحانه وتعالى بالعبادة ، وهي تنسب إلى الوثن الذى يعد رمزا لكل ما عبد من دون الله (١) .

وأخيرا . . . فما أصدق قول عمر الفاروق رضى الله عنه : (لا يعرف الإسلام من نشأ في الإسلام ولم يعرف الجاهلية) ، فمعرفة الوثنية وأباطيلها تضمن للنشء المؤمن السلامة منها ، والابتعاد عنها ، وهذا ما قصدت أن أوضحه وأبينه فليحذر المسلمون من كلّ الشعارات التي لا تفرد الله

١ - انظر الإسلام والدعوات الهدامة ، أنور الجندي ، ص ٢٢٠ .

- ٤ بالعبادة وإن لم يكن معبودها اللات والعزى ويغوث ويعوق وسعيرا
• فلكل زمان أصنامهم ومعبوداتهم إذا انحرف الناس عن عبادة الله وحده .

الْبَيْتُ
الْإِنْسَانُ وَالْعِبَادَةُ
وفيه فصلان :

١- الفصل الأول : مفهوم العبادة ووجوبها

٢- الفصل الثاني : أحقية الله بالعبادة دون غيره

الفصل الأول : مفهوم العبادة
وشتمل على الباحث التالية :

البحث الأول : الإنسان عابد بطبعه

البحث الثاني : مفهوم العبادة

البحث الثالث : وجوه العبادة .

البحث الأول - الإنسان عابد بطبعه

(نزعة التدين عند الإنسان)

من الحقائق المشاهدة أن الإنسان مفطور على العبادة أو التدين كما هو مفطور على كثير من الفرائض والحاجات ، فكما أنه لا يستغنى عن الطعام والشراب والتناسل وحب التملك . . . فهو كذلك لا يستغنى عن العبادة (١) .

ويستوى في هذا كلُّ الإنسان سواء أكان يعيش في الغابات والأدغال أم كان من سكان ناطحات السحاب ورواد الأقمار الصناعية والمركبات الفضائية ، كلهم يشعر بحاجته للعبادة ، وإذا لم يعبد الإله الحق وقع لا محالة في عبادة الأنداد والطوائف من دون الله .

والإنسان وهو يشعر بفقره وحسُّ بعجزه وحاجته إلى قوة عظمى تتعده بالرعاية والتدبير والحماية ، فهو لا ينفك يتطلع إليها شغوقاً بالبحث عنها والتقرب إليها بما يراه من الوسائل والأسباب المتاحة لديه ، ومعرفة الإنسان بربه وشعوره بالحاجة إليه كانت تدفعه دائماً للعبادة والتسكُّ له في كل زمان ومكان ، فلم يزل الإنسان عابداً منذ أن وجد على سطح الأرض ، وكيف لا يكون عابداً وقد خلق للعبادة والطاعة ؟؟ قال تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) (٢) .

فإذا كانت الغاية من وجود الإنسان هي العبادة ، فكيف لا تكون فطرة وجبلة فيه ، وأن الشرود عنها يعتبر خروجاً على الأصل ، قال تعالى : (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ) (٣) .

ومن هنا فإن الناظر في تاريخ الحضارة الإنسانية والمتبع لحركة الدراسات التاريخية الدينية في علم مقارنة الأديان على العصور الغابرة والحفريات الأثرية في

١ - قصة الأديان ، دراسة تاريخية مقارنة ، د . رفقي زاهر ، ص ٦ ط ١ .

٢ - سورة الذاريات آية : ٥٦ .

٣ - سورة الروم آية : ٣٠ .

مخلفات الأمم التي مضت ، والتحقيقات الجارية حديثا على القبائل والأجناس البشرية التي ما زالت في ظلام الجاهلية بعيدا عن أي لون من ألوان التطور المادي والتقدم العلمي^(١) - يلاحظ فيما يلاحظه ظاهرة بارزة في حياة الإنسان ملازمة له منذ بداية الخليقة وهي أن الإنسان - جنس الإنسان - عابد ، فلقد أثبتت هذه الدراسات والحفريات على مختلف مستوياتها ومصادرها عبودية الإنسان ، وأنه قد ترك من الآثار والعلامات والإشارات ما يدل على عبادته وأنواع الطقوس التي كان يمارسها .

وقد كان من المفروض أن نكتفي بذكر آية قرآنية أو حديث شريف للدلالة على كون الإنسان مغطورا على العبودية والتدين ، ففي ذلك من التأكيد القاطع واليقين الجازم ما لا يتوفر في غيرهما من الأدلة والبراهين ، لأنها القول الفصل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولكني سأذكر بعض الأقوال التي صرح بها كثير من العلماء الباحثين استجابة لثداء الفطرة من داخلهم ، وإن كان البعض منهم على غير دين صحيح .

والأقوال والشواهد الدالة على كون الإنسان مغطورا على العبادة إلى جانب الدراسات التاريخية والحفريات الأثرية كثيرة تنبؤ عن العبد والحصر ولكني سأختصر منها بعض النماذج والأمثلة :

أ (يقول المؤرخ اليوناني الشهير (بلوتارك) بعد فحص واستقراء : (من الممكن أن نجد مدنا بلا أسوار ولا ملوك ولا ثروة ولا أدب ولا مساح ، لكن لم ير إنسان قط مدينة بلا معبد أو لا يمارس أهلها العبادة)^(٢) .

ب (يقول ارنست رينان في كتابه تاريخ الأديان : (إنه من الممكن أن يضمحل كل شيء نجبه ، وأن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة ، ولكن يستحيل أن ينمحي التدين ، بل سيقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي

١ - كما هو الحال في جنوب أفريقيا .

٢ - نقلنا عن كتاب الدين ، د . محمد عبد الله دراز ، ص ٨٧ ، ط ٢ ، دار

القلم ، الكويت .

الذي يريد أن يحصر الفكر الإنساني في المضائق الدينية في الحياة الأرضية (١) .
ج () يقول الفيلسوف الفرنسي هنري برجسون : (لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات ، ولكن لم توجد قط جماعات بدون ديانة) (٢) .
د () ويقول د . دراز : (إن فكرة التدين فكرة مشاعة لم تخل عنها أمة من الأمم فـ في القديم والحديث رغم تفاوتها في مدارج الرقي ودركات الهمجية ، وإنها أقدم فـ في المجتمعات من كل حضارة مادية ، وإنها تعبر عن نزعة أصيلة مشتركة بين الناس ، وأنه ليس هناك دليل واحد على أنها تأخرت عن نشأة الإنسان) (٣) .
هـ () ويقول معجم " لاروس " للقرن العشرين : (إن الفريضة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية وأقربها إلى الحياة الحيوانية ، وإن الاهتمام بالمعنى الإلهي وما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالصة للإنسانية) (٤) .

و () ويقول بنيامين كونستان أحد مؤرخي علم الأديان : (إن الدين من العوامل التي سيطرت على البشر وإن التحمس الديني من الخواص اللازمة لطبائعنا الراسخة ، ومن المستحيل أن نتصور ماهية الإنسان دون أن تتبادر إلى أذهاننا فكرة الدين ، ولم يذكر التاريخ أناسا عاشوا من دون أن يتدينوا بدين ومن دون أن ينقادوا إلى رسوم وطقوس لذلك نرى الفكرة الدينية منتشرة بين جميع الأمم القديمة) (٥) .

والأصل في هذه الحاسة الدينية أو فطرية العبادة أن تكون على التوحيد وعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وأن يكون الدين هو الدين الرباني الصحيح وأن يكون المعبود في جميع الحالات هو الله الخالق الذي أخذ العهد على

١ - المرجع السابق ص ٨٩ .

٢ - نقلا عن العبادة في الإسلام د . يوسف القرضاوي ص ١٦ ، ط ٩ .

٣ - الدين ، محمد عبد الله دراز ، ص ٧٥ .

٤ - نقلا عن كتاب الأديان في القرآن ، د . محمود بن الشريف ص ٧ ، ط ٣ .

٥ - نقلا عن تاريخ الأديان وفلسفتها ، طه الهاشمي ، ص ٣٥ ، مكتبة دار

الحياة ، بيروت .

بنى الإنسان وهم فى عالم الذر على الإقرار بالربوبية له والإذعان بالطاعة والعبودية له لأن من حق الخالق الرازق أن يعبد وحده فهو المتفضل بالنعم جميعها قال تعالى : (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا) (١) .

ولكن بالرغم من هذا الاعتراف والإقرار لله تعالى بالربوبية من قبل الناس جميعا ، ولزوم الطاعة والعبادة لله تعالى لأنها مقتضى هذا الإقرار بالرغم من هذا فإن البعض منهم انحرفت فطرته وضلَّ عن عبادة الله وحده لاشريك له وتوجَّه بالعبادة لغيره من المخلوقات ، أو عبد معه منها ما يراه أهلا للعبادة .

ومع أن الإنسان ينحرف عن عبادة ربه فإنه لا يلبث أن يقع فى عبادة غيره ، تلبية للحاسة الدينية التى فى قرارة نفسه ، لأنها لا تفتقر عن طلب حاجتها شأنها فى ذلك شأن بقية حاجات الجسم .

فإنسان عابد وإذا لم يعبد إلا الله المستحق للعبادة فإنه لا بدَّ له من عبادة غيره من المخلوقات المختلفة فيذلُّ لها بالطاعة والخشوع والدعاء . . . الخ

ومما يدل على كون الإنسان مفطورا على عبادة الله وحده ما يلاحظ على من فسدت فطرته وأشركوا بعبادة الله غيره أنهم فى مواطن الشدة والفرع والخوف لا يتوانون عن التوجه إلى الله بالدعاء والذل والطاعة والخشوع والطلب بصدق وإخلاص ، وإنسك كثيرا ما تشاهد الإنسان لاهيا بعيدا عن عبادة خالقه مشغولا بعبادة غيره ولكن إذا ما ادلهمت من حوله الخطوب وأيقن بالهلاك عاد لأصل الفطرة وتخلَّى عن العبودية لكل شىء إلا لله الواحد القهار .

قال تعالى : (هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين) (٢) .

١ - سورة الأعراف آية : ١٧٢ .

٢ - سورة يونس آية : ٢٢ .

فالإنسان متدين بطبعه ومفطور على عبادة الله وحده سبحانه وتعالى إذا سلم من الصوارف ، وسلمت فطرته من الغواشى والأدران وسائر المفسدات ، مهما كانت حاله ومهما كان مستواه العقلى والعلمى .

قال صلى الله عليه وسلم : (كلُّ مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) (١) .

وقال تعالى فى الحديث القدسى : (إني خلقت عبادى حنفاءً كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا) (٢) .

وها هو رائد الفناء الأول والعالم الشيعوى الملحد جاجارين ، الذى ولد ونشأ وترعرع على مبادئ الشيعوية وترى فيها على الإلحاد الكامل وانكار وجود الله والدين ، لما صعد إلى الفناء هزته روعة الكون فأيقظت فطرته التى ران عليها الفكر الشيعوى زمنًا طويلًا ، فقال فى تصريحه الأول للصحفيين عند هبوطه إلى الأرض : (عندما صعدت إلى الفناء أخذتني روعة الكون فضيت أبحث عن الله) (٣) .

وهكذا فإن الإنسان مفطور على التدين ، وإن النزعة الدينية فى أعماق النفس البشرية تدفع الإنسان دفعا للبحث عن معبود تتحنث له بأنواع العبادات ما دامت على طبيعتها الأصلية ، وأما إذا أفسدتها المفسدات وغطتها سحابة كثيفة من الغواشى فإنها لا تستيقظ بنفسها وإنما تحتاج إلى موقظ خارجي يوقظها ، فإذا ما تلقيت ذلك من العوامل الخارجية من الكون والبيئة المحيطة بها فإنها سرعان ما تستيقظ ، وتعود لأصلها الذى طبعت عليه وتذعن بالعبودية والطاعة لله تعالى ، وتلتقى مع الفطرة التى بقيت على أصلها .

١ - رواه البخارى فى القدر ٣ ، ومسلم فى القدر ٢٢ ، وأبو داود فى السنة

١٧ ، وأحمد ج ٢ ، ص ٣١٥ .

٢ - رواه مسلم فى الجنة ٦٣ .

٣ - نقل عن مذاهب فكرية ص ٣٤٨ .

كما هي حال القبائل البدائية المتفرقة حتى الآن في الأحرار والأدغال والتي لا تعرف إلا شريعة الغاب والناب تؤ من كذ لك بالقوة الإلهية ، فقبائل الهوتنتوت الأفريقية التي لم تفارق مرتبة الهمجية حتى اليوم ولا يزال أناس منها يأكلون لحوم البشر تعبد إلهها واحداً فوق جميع الألهة يسمى أبا الآباء (١) .

وإذا تبين كون الإنسان عبداً بطبعه متديناً بفطرته ، فإنه يكون من الصعوبة بمكان أن يصرف عن العبادة إلى اللاعبادة فيصبح غير عابد ، إنه عسير ، بل من المتعذر أن يحمل الإنسان على عدم العبادة لأنه حينئذ يصطدم مع نفسه ومع فطرته وحاجته إلى العبادة ، وهو لا يستطيع أن يتخلى عن غرائزه وحاجاته كلياً ، فالإنسان طبقاً لهذه الفطرة إما أن يعبد الإله الحق ، وإما أن يعبد من الآلهة المزيفة ما يشغل بعبادته حاجته إلى التدين والعبادة ، أما أن يكون غير عابد فأمراً غير ممكن ، والذين يقولون بأن : (الدين أفيون الشعوب) ، وأنه لا إله يستحق العبادة ، وأن الإنسان قد شبَّ عن الطوق ولم تعد هناك حاجة للصلاة لذلك الإله الخالق ، هؤلاء الذين يتظاهرون بالإلحاد والتأبي عن عبادة الله وحده ، قد وقعوا في عبادة غيره سواء أم أبوا ، فعبدوا العلم والعقل والطبيعة والوطن والقوم والحزب والرئيس وعبادته حثالات البشر الذين لا يستحقون أي احترام ولا تقدير .

أما إنهم حقاً لم يعبدوا الله ، ولكنهم عبدوا عن وعى أو غير وعى كل ما سواه ولم يبقوا من غير عبادة .

ومع ذلك فإن هذا الإلحاد والشكران مفروض على الشعوب بقوة الحديد والنار ، قبلته الجموع البشرية المغلوبة على أمرها بالخوف والإكراه لا عن رضى واقتناع ، وقد ثبت أنه كلما لاحت فرصة لأحد هؤلاء المستعبدين لغير الله أثر العودة لنداء الفطرية

• الحبيسة •

وجاجارين أحد النماذج البارزة على واقع الشيوعية وسيبقى قوله ضرورة فى

• صميم الإلحاد •

وهكذا فإنَّ الإنسان عابد بطبعه مفطور على العبادة كما تشهد بذلك الآيات
القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال العلماء والمفكرين ، وهذا الشعور الفطرى ليس ناشئاً
عن الخوف من مظاهر الطبيعة أو القوى المحيطة بالإنسان ، وإنما هو مركز فى
فطرته من قبيل العزيز الحكيم •

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

البحث الثاني : مفهوم العبادة

العبادة في اللغة :

(عَبَدَ يَعْبُدُ عِبَادَةً ، والعبادة الطاعة ، وأصل العبودية الخضوع والذل ، والتعبيد : التذليل ، يقال طريقٌ مُعَبَّدٌ ، ويعبر معبداً ، والتعبيد : الاستعباد وهو أن يتخذهُ عَبْدًا ، والتَعَبَّدَ التَّمَسَّكُ) (١) .

قال في اللسان : (عَبَدَ يَعْبُدُ عِبَادَةً ، ولا يقال هذا إلا لمن يعبد الله ، وأصل العبودية الخضوع والتذلل .

العبادة : الطاعة ، والتعبد : التذلل ، والتعبيد : التذليل ومنه يعبر معبداً ، وطريق معبداً إذا كان مذلاً بكثرة الوطء .

والتعبيد : الاستعباد وهو أن يتخذهُ عَبْدًا .

(٢) عبده عبادة ومعبداً وَمَعْبُدَةً . تأله له ، و (التعبد) : التمسك .

وهكذا فإنَّ "العبادة" مصدر الثلاثي (عَبَدَ) ، ونلاحظ أن جميع المعاني التي تدور حولها الكلمة هي : الطاعة والخضوع والتذلل والاستكانة والتأله وهي جميعها متقاربة المعنى ، ولهذا قال المودودي بعد أن استعرض المعاني اللغوية لمادة (عَبَدَ) : (إن مفهومها الأساسي أن يدع عن المرء لعلاء أحد وغلبيته ، ثم ينزل له عن حرته واستقلاله ، ويترك إزاءه كلَّ المقاومة والعصيان وينقاد له انقياداً) (٣) .

ولكن الشيخ محمد عبده يريد أن يضيف على الفعل (عَبَدَ) معنى زائداً على هذه الألفاظ جميعها فيقول : يقولون إن العبادة هي الطاعة مع غايية

١ - الصحاح ، الجوهرى ، ج ٢ ص ٥٠٢ ، مادة عبدا .

٢ - لسان العرب ، ج ٣ ص ٢٧٠ ، مادة عبدا .

٣ - المصطلحات الأربعة في القرآن ، أبو الأعلى المودودي ، ص ٩٧ ،

ط ٦ ، دار القلم ، الكويت .

الخشوع ، وما كلُّ عبارة تمثل المعنى تمام التمثيل وتجليه للأفهام واضحاً لا يقبل التأويل . . . وإنما إذا تتبعنا آي القرآن وأساليب العربية واستعمال العرب (عِبَادَ) وما يماثلها ويقاربها في المعنى - كخَضَعَ وَخَنَعَ وَأَطَاعَ وَذَلَّ - نجد أنه لا شيء من هذه الألفاظ يضاها (عِبَادَ) ويحلُّ محلَّها ويقع موقعها .

ولهذا قال في تعريف العبادة : (تدل الأساليب الصحيحة والاستعمال العربي الصراح على أن العبادة ضرب من الخشوع بالغ حدِّ النهاية ناشئ عن استشعار القلب عظمة للمعبود لا يعرف منشأها ، واعتقاده بسلطة لا يدرك تفهمها وماهيتها ، وقصارى ما يعرفه منها أنها محيطة به ، ولكنها فوق إدراكه) (١) .

(فالشيخ محمد^{رحمه الله} عبده يرى هنا أن الذي يميِّز العبادة من غيرها من السوان الخشوع والتذلل والانقياد ليس هو درجة الخشوع والطاعة ، كما يقول اللغويون الذين يرون العبادة هي أقصى الطاعة والخشوع ، وإنما ينظر إلى منشأ هذا الخشوع والانقياد ، فإن كان منشؤه وسببه أمراً ظاهراً كالملك والقوة ونحوهما ، فلا يسمى عبادة ، وإن كان منشؤها الاعتقاد بأن للمعبود عظمة وقدرة فوق الإدراك والحس فهذا هو العبادة .

ولكن هذا التقييد مع مخالفته لما اتفقت عليه كتب اللغة - بيد ومخالفاً أيضاً لظاهر القرآن كما جاء على لسان قوم فرعون : (أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهم ما

لنا عابدون) (٢) .

قال الطبري^{رحمه الله} : " يعنون أنهم لهم مطيعون متذللون ياتعون بأمرهم ويدينون

لهم ، والعرب تسمى كلَّ من دان لملك عابداً له " (٣) .

١ - تفسير المنار ، محمد عبده ، رشيد رضا ، ج ١ ص ٤٧ .

٢ - سورة المؤمنون آية : ٤٧ .

٣ - العبادة في الإسلام ، القرضاوى ، ص ٣٠ .

العبادة في الاصطلاح الشرعي :

تطلق العبادة في الاصطلاح الشرعي ويراد بها معنيان أحدهما عام والآخر خاص .

أولا - المعنى العام والشامل : *عبادة الله تعالى بما يحب*

قال شيخ الاسلام ^{رحمه الله} ، وقد سئل عن قول الله تعالى : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) (٣) ، في رسالة له سماها [العبودية] يؤكد أنها بقوله : (العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ، فالصلاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وزيارة الوالدين ، وصلة الأرحام والوفاء بالعهد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والجهاد للكفار والمنافقين ، والإحسان والذكور ، والقراءة وكذلك حب الله ورسوله ، وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له ، والصبر لحكمه ، والشكر لنعمه ، والرضا بقضائه ، والتوكل عليه ، والرجاء لرحمته والخوف من عذابه ، وأمثال ذلك هي من العبادة لله) (٤) .

ويقول في موطن آخر منها : (بأن الدين كله داخل في العبادة ، إذ الدين يتضمن معنى الخضوع والذل يقال : دِنْتُهُ فَدَانَهُ ، أي أذلته فذل ، ويقال : يَدْرِينُ اللهُ وَيَدِينُ اللهُ ، أي يعبد الله وطيعه ويخضع له ، فدين الله : عبادته وطاعته والخضوع له ، والعبادة أصل معناها الذل أيضا) (٥)

ويقدر المرحوم سيد قطب هذا المعنى العام للعبادة فيقول : (هي

١ - سورة البقرة آية : ٢١ .
٢ - رسالة العبودية ، ابن تيمية ، ص ٣٨ ، ط ٢ ، المكتب الاسلامي .
٣ - المرجع السابق ص ٧٣ .

الدينونة الشاملة لله وحده في كل شأن من شؤون الدنيا والآخرة (١) .
وكذلك قال محمد أسد بعد إسلامه : (إن العبادة في الإسلام ليست
محصورة في أعمال من الخشوع الخالص كالصلاة والصيام مثلا ولكنها تتناول كل حياة
الإنسان العملية أيضا ، ولذا كانت الغاية من حياتنا على العموم "عبادة
لله" (٢) .

ثانيا - المعنى الخاص للعبادة : (هي الأعمال الخاصة المحددة التي كلف العبد
بالقيام بها ، تمرينا عمليا له على الخضوع الكامل وهي ما يُعبر عنه بالشعائر التعبدية
كالأركان الإسلامية الخمسة : الشهادتان والصلاة والزكاة والصيام والحج وما يلحق
بها من شعائر كالجهاد والأذآن ونحوهما مما يدخل في نطاق المعنى العام
وإنما خُصت بمعنى خاص لأهميتها من جهة وإشعارها بعبودية المرء القائم بها
من جهة أخرى) (٣) .

وإلى هذا المعنى الخاص أشار الحديث المتفق عليه من قول رسول الله صلى
الله عليه وسلم : (بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا
رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت وصوم رمضان) (٤) .
وأطلقت العبادة على الشعائر التعبدية باعتبارها صورة من صور الدينونة لله
في شأن من الشؤون . . صورة لا تستغرق مدلول العبادة ، بل إنها تجيء بالتبعية
لا بالأصل (٥) .

-
- ١ - في ظلال القرآن ، ج ٤ ، ص ١٩٠٢ .
 - ٢ - الإسلام على مفترق الطرق ، محمد أسد ، ص ٢١ ، ترجمته
د . عمر فروخ .
 - ٣ - العبادة ، د . محمد أبو الفتح البيانوني ، ص ١٨ ، ط ١ ، دار السلام .
 - ٤ - رواه البخاري في الإيمان ، ١ ، ٢ ، ٢ ، ومسلم في الإيمان ، ١٩ ، والترمذي في
الإيمان ، ٣ ، والنسائي في الإيمان ، ١٣ .
 - ٥ - في ظلال القرآن ، ج ٤ ، ص ١٩٠٢ .

الانحراف في فهم العبادة :

تبين لنا فيما سبق من خلال المعنى العام للعبادة أنها شاملة لجميع أمور الدين والدنيا على السواء ، فكل ما يحبه الله ويرضاه يكون آداءً له عبادة لله وطاعة له ، ومنذ اللحظة التي انبثق فيها شعاع الوحي أصبح للحياة مفهوم جديد ، وتغيرت نظرة الإنسان إلى كل ما يصد رغه ، ولم تعد العبادة رسوماً وطقوساً تؤدي داخل المعابد والصوامع والبيوع والكنائس ، وركب الفساد يطحن الناس ويقضى على أمنهم واستقرارهم وسعادتهم ، نعم تغيرت هذه النظرة الضيقة للعبادة وأصبحت (إقرأ باسم ربك) منارة هادية وضعت يد الإنسان على الحقيقة فالقراءة باسم الله ، والعلم باسم الله والصلاة باسم الله والحياة بما فيها ومن فيها باسم الله (١) .

قال تعالى : (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) (٢) .

وقد بقي هذا المعنى الشامل للعبادة قروناً طويلة مادام المسلمون فاهمين لحقيقة دينهم مدركين لرسالتهم الربانية ، أما وقد ابتعد المسلمون في العهد الأخيرة عن حقيقة الإسلام ، وسهتت في نفوسهم معانيه وحقائقه ومحيت كثير من معالمه وأحكامه ودهيات ، فقد فسد مفهوم العبادة ، وتقلص ضاق حتى لم يعد يفهم كثير من أبناء الإسلام من العبادة إلا ما هو أضيق وأخص من المعنى الخاص ، فأصبح الدين في حصر الكثيرين هو الأركان الخمسة للإسلام مجردة عن تواجدها ولوازمها ، وجعلوا الدين صلة العبد بربه فقط ، أما علاقته بنفسه ومع الناس فليس ذلك من الدين في شيء ، فإذا ذكر الدين أو العبادة انصرف ذهن إلى الصلاة والصوم والزكاة والحج لا غير ، تماماً كما كان مفهوم المشركين للعبادات والطقوس التي

١ - انظر منهج القرآن في التربية ، عبد الفتاح عاشور ، ص ١٨٩ ، مكتبة النجاشي ١٩٧٩م

٢ - سورة الأنعام الآية : ١٦٢ - ١٦٣ .

يُود ونها إلى أصنامهم وأوثانهم ، وكما فهم عدى بن حاتم معنى العبادة - وكان حديث عهد بالإسلام - عندما سمع قول الله تعالى في اليهود والنصارى : (اتخذوا أبحارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهها واحدا) (١) .

فقال عدى : (إنهم لم يعبدوهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم أيهم) (٢) .

نعم لقد انحصر مفهوم العبادة في المعنى الخاص لها وهو القيام ببعض الشعائر التعبدية فحسب ، ولهذا فإن كثيرا من علماء المسلمين في الآونة الأخيرة بدأوا يدركون هذا الخطر العظيم على حياة الأمة الإسلامية وعلى دينها ، فشمروا عن ساعد الجند يوضحون للناس حقائق الدين ويصرونهم به ليوردوهم إلى عبادة الله تعالى على هدى وبصيرة من أمرهم .

يقول المودودي : (وما يدعوا إلى الأسف أن المسلمين تناسوا هذا المفهوم للعبادة وجعلوها طائفة من الطقوس والمراسم التعبدية ، وحسبوا أن مَنْ أداها فقد أدى ما عليه من حق العبادة لله سبحانه ، وقد اغترَّب بهذا الخطأ الجسيم خاصتهم وعامتهم .

(مخطئ من يقول إن العبادة إنما هي منحصرة في السبحة والسجادة والمسجد والصومعة ، الحق أن المؤمن لا يكون عبدا لله بأدائه الصلوات الخمس في الليل والنهار وصومه شهرا في السنة وأدائه زكاة أمواله مرة في السنة ، وحججه البيت الحرام مرة في حياته فحسب ، بل لا تكون حياته كلها إلا عبادة لله تعالى ، أفلا يعبد الله عندما يتخلى عن الحرام ومنافعه ويقتنع بالحلال القليل المشروع في مكسبه ؟ أو عندما يتجنب الظلم والكذب والغش والتدليس ، ويلتزم الصدق والأمانة والعدل في معاملاته

١ - سورة التوبة آية : ٣١ .

٢ - الحديث رواه أحمد والترمذي ، انظر تفسير ابن كثير ج ٤ ، ص ٧٧ .

مع الناس ؟ أو لا تكون كل حركة من حركاته عبادة لله عندما يشمّر عن ساق الجسد لخدمة خلق الله وإيصال الحق إلى أهله ؟

أو لا يكون كل قول من أقواله وكل فعل من أفعاله عبادة لله عندما يتبع قانسون الله ويلتزم حدوده في جميع ما يقول ويفعل ، الحق أن كل فعل دينيما كان أو دنيما إذا كان يأتي به المؤمن متبعاً لقانون الله وشريعته هو عبادة لله من أوله إلى آخره حتى أن بيعه وشراؤه في السوق ومعاشرته لأهل بيته وانهماكه في شؤونه الدنيوية البحتة ليس إلا عبادة منه لله سبحانه وتعالى (١) .

ويقول سيد قطب - رحمه الله - مؤكداً على المعنى الشامل للعبادة : (ولقد كنا دائماً نفسر العبادة لله وحده بأنها الدنيوية الشاملة لله وحده في كل شأن من شؤون الدنيا والآخرة ، ذلك أن هذا هو المدلول الذي تعطيه اللفظة في أصلها اللغوي) (٢) .

ويقول الإمام أبو زهرة : (وليست العبادات في الإسلام مقصورة على الصلاة والصوم والزكاة والحج ، فإن كل عمل يقصد به وجه الله تعالى والقيام بحق الناس استجابة لطلب الله تعالى بإصلاح الأرض ومنع الإفساد فيها يعد عبادة ، فالعامل الذي يخلص في عمله ويقوم بواجبه مرضاة لله سبحانه وتعالى واستجابة لأمره يعد في عبادة مستمرة ومن يعمل عملاً ينتفع منه الناس يقدم صدقة يثاب عليها ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : (ما من مسلم يزرع زرعاً أو يغرس غرساً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة) (٣) .

وبذلك يتبين لنا أن العبادات ليست مجرداً عن الدنيا ومعداً عن الناس ، وليست

١ - مفاهيم إسلامية حول الدين والدولة - أبو الأعلى المودودي ،

ص ٣٠ - ٣٣ ، دار القلم ، الكويت .

٢ - في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ج ٤ ، ص ١٩٠٢ .

٣ - رواه البخاري في الأدب ، ٢٧ ، ومسلم في المساقاة ، ٧ ، والترمذي

في الأحكام ، ٤٠ ، وأحمد ج ٣ ص ١٤٧ .

مجرد علاقة للعبد بربه وإنما هي عامة شاملة لجميع شؤون الدنيا مما يحبه الله تعالى ورضاه (١) .

قال تعالى : (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك) (٢) .

ويقول الأستاذ محمد قطب : (والإنسان في صلاته وتسيبته ونسكه هو عابد لله وفي مشيه في مناكب الأرض وأكله من رزق الله بالضوابط التي أقامها الله من حلال وحرام هو عابد لله ، وفي زواجه وإقامة أسرته ورعايتها في حدود الضوابط والتوجيهات الربانية هو عابد لله ، وفي طلبه العلم سواء للتعرف على أوامر ربه ونواهيه أو للقيام بعمارة الأرض على المنهج الرباني هو عابد لله ، وفي إقامة شريعة الله في الأرض هو عابد لله ، وفي قتاله لتكون كلمة الله هي العليا هو عابد لله . . . وذلك معنى قوله تعالى : (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له) (٣) .

فإذا تبين ذلك تبينت مهمة الإنسان في الأرض وطبيعة عمله فيها ، مهمته هي العبادة بمعناها الشامل الذي يشمل العقيدة الصحيحة وشعائر التعبد والنشاط الحيوي في شتى مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والفنية . . . إلخ ، ملتزما في ذلك كله بمنهج الله (٤) .

وهكذا يتبين لنا أن كثيرا من علماء الأمة بدأوا يدركون انحسار مفهوم العبادة في حياة المسلمين وقصره على الشعائر التعبدية ، وقطع الصلة الوثيقة التي تربط الدين بالدنيا ، لهذا هبَّ هؤلاء الدعاة وغيرهم يصلحون ما أفسد الناس ويذكرونهم

١ - المجتمع الإنساني في ظل الإسلام ، الإمام محمد أبو زهرة ، ص ١٣٣ ، ط ٢
الدار السعودية .

٢ - سورة القصص آية : ٧٧ .

٤ - مذاهب فكرية معاصرة ، ص ٣٩٥ .

٣ - سورة الانعام آية ١٦٢ - ١٦٣ .

بحقيقة الدين والعبادة وشمولها لجميع نواحي الحياة كما جاءت بذلك الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة ، وكما كان عليه سلف هذه الأمة .

قال تعالى : (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين) (١) .

وقوله تعالى : (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين) (٢)

وقوله تعالى : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر) (٣) .

وروى الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال : (جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادته فلما أخبروا ، كأنهم تقالوها ، فقالوا : وأين نحن من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؟ فقال أحدهم : أما أنا فأصلي الليل أبدا ، وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إنني لأخشاكم لله ، وأتقاكم له لكني أصوم وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني) (٤) .

وقال صلى الله عليه وسلم : (رُبَّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع ، وربَّ قائم ليس له من قيامه إلا السهر) (٥) .

وقال صلى الله عليه وسلم (الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله) (٦) .

وقوله صلى الله عليه وسلم : (طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ) (٧) .

١ - سورة الانعام آية : ١٦٤ .

٢ - سورة القصص آية : ٧٧ .

٣ - سورة البقرة آية : ١٧٧ .

٤ - متفق عليه ، البخاري في النكاح ١ ، مسلم في النكاح ٥ .

٥ - رواه ابن ماجه في الصيام ٢١ .

٦ - متفق عليه البخاري في النفقات ١ ، ومسلم في الزهد ٤١ .

٧ - رواه البيهقي والطبراني ، انظر الكنز الثمين في أحاديث النبي الأمين

رقم ٢١١١ ، ص ٢٣٦ ، ط ٢ ، رواه ابن ماجة في المقدمة ١٧ .

والأحاديث في هذا المجال كثيرة جداً كلها تؤكد شمول العبادة لجميع نواحي الحياة الدنيا والآخرة ، وعدم اقتصرها على جوانب محدودة من الدين ، ولا شك أن هذا من فضل الله على المؤمنين أن جعل جميع أعمالهم - إذا حسنت نياتهم - طاعات وقربات وأن هذه الميزة ليست لأحد إلا للمؤمنين .

نعم إن حياة المؤمن كلها عبادة لله تعالى حتى في إتيانه شهوته ، وفي تناوله طعامه وكده على أبويه وأولاده وبنخه نفسه ، وفي نومه عبادة ، وفي طاعته لولي الأمر الملم عبادة ، وفي إماطته الأذى عن الطريق عبادة ، وفي كل تسبيحه وتحميدته وتهليله عبادة ، وفي بيعه وشراؤه عبادة ، وفي صبره على الأذى في سبيل الله عبادة ، وفي قوله كلمة الحق عبادة ، وفي انبساطه وانشراحه مع أهل بيته عبادة وصناعته وزراعته وسلمه وحره عبادة .

والمعجب كل المعجب كيف نسي المسلمون هذه الحقيقة ، وضيقوا واسعاً وخصصوا عاماً من غير مخصص ؟ فما عاد الإسلام في أذهانهم إلا بعض دقائق لآداء عدد من الركعات يؤدونها في كسل وثاقل ، وبعض ساعات يطوونها على جوع وعطش ويستهلكونها في قيل وقال وإضاعة الوقت والمال ، وبعض دربهات يدفعونها زكاة لأموالهم التي جمعت في الأغلب من حرام ، وزكاة لأنفسهم وقلوبهم التي طغت عليها الحياة المادية الخالصة .

آثار ونتائج هذا الانحراف على حياة الأمة الإسلامية

لقد كان لهذا الانحراف في فهم معنى العبادة وقصرها على الشعائر التعبدية نتيجتان قاسيتان كانت الأولى في العبادات نفسها والأخرى أضرت بالمجتمع الإسلامي فكانت مدخلا للوثنية الحديثة إلى معازل الإسلام .

أما الأثر السئ على العبادات فقد أدى إلى فقدان آثار العبادة الإيجابية فأصبحت العبادة في واقع المسلمين بعد ذلك التحول الخطير في مفهومها أشبه ما تكون بأعمال لا شعورية وطقوس لا أثر لها في حياتهم حيث ضاع كثير من وظائفها الفردية والاجتماعية فقد تحولت هذه العبادات إلى مجرد عادات يقوم بها المسلمون من غير وعي ولا شعور ولا إدراك ، فكم من مصلٍ وصائم ومعتكف وحاج ومعتزم ، يسردى كل هذا وهو لا يدرك ولا يشعر بحقيقة العبادة التي يؤديها وكأنه يؤدي أعماله اليومية الاعتيادية من غير أدنى ارتباط بغيرها .

يقول محمد المبارك^{رحمه الله} : (لما اقتصر مفهوم العبادة على تلك العبادات الرئيسية أركان الإسلام الخمسة ، فتجد الرجل يصلو ويصوم ويحج ويؤتي ، وربما زاد على الفرائض بما يتطوع به من هذه العبادات ، وربما زاد عليها ما ابتدعه الناس ، وهو في الوقت نفسه لا يهتم بدئين يماطل في أدائه وإجحاف بحق عمال يشتغلون عنده ، واحتكار لأقوات العباد ، وريح فاحش يربحه على حساب المستهلكين من عباد الله ، أو إهمال لما يترتب عليه الوفاء به كإخلاف الوعد في تنفيذ عقد كما يفعل كثير من الصناع والتجارين والحدادين والخياطين وغيرهم ، وكالإخلال بالعمل الذي يكلفه في مقابل أجر أو الفش في الصناعة التي يصنعها ، كل هذه الحقوق التي تتعلق بالذمة ولا تمحسب العبادات إثم الإخلال بها وهضمها تجد الاهتمام بها قليلا مع أن الإسلام جعلها في المرتبة الأولى بعد توحيد الله وأولها غايته) (١) .

وإلى جانب هذا الأثر السيئ على العبادة من هذا الجانب فقد وقع الناس في

الإعراض عن العبادة والتفريط فيها والتساهل في آدائها ، والتقليل من شأنها ، بل لقد وصل الحال إلى السخرية بفاعلها والمهزء بمؤديها والتندر على المحافظ عليها ووصفه بأوصاف سلبية كالرجعية والتأخر وما إلى ذلك .

وأما النتيجة الثانية فهي أن هذا الفساد الذي لحق بالعبادة بحصر مدلولها

في العبادات ثم مسح هذه العبادات وتحولها إلى عادات يومية ،

لم يتركها في مكانها بل تم الإعراض عنها والتهاون بحقها - كل هذا

كان منفذاً من منافذ الوثنية الحديثة. والوقوع في الشرك الذي لا يغفره الله تعالى .

يقول سيد قطب : " فلما بهت مدلول العبادة في نفوس الناس صاروا يفهمون

أن عبادة غير الله التي يخرج بها الناس من الإسلام إلى الجاهلية هي فقط تقديس

الشعائر التعبدية لغير الله كتقديمها للأصنام والأوثان مثلاً ، وأنه متى تجنب الإنسان

هذه الصورة فقد بعد عن الشرك والجاهلية ، وأصبح مسلماً لا يجوز تكفيره ، وتمتع

بكل ما يتمتع به المسلم في المجتمع المسلم من صيانة دمه وعرضه وماله إلى آخر

حقوق المسلم " .

وهذا وهم باطل وانحسار وانكماش بل هو تبديل وتغيير في مدلول لفظ العبادة ،

التي يدخل بها المسلم في الإسلام أو يخرج منه - وهذا المدلول هو الدينونة الكاملة

لله في كل شأن ورفض الدينونة لغير الله في كل شأن ، وهو المدلول الذي تفيد اللفظة

في أصل اللغة والذي نص عليه رسول الله نصاً وهو يفسر قول الله تعالى : (اتخذوا

أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) ، وليس بعد تفسير رسول الله لمصطلح مسن

المصطلحات قول لقائل " (١) .

وهكذا فالفهم الخاطيء للعبادة جعل الكثير من أبناء الإسلام على مستوى العلماء

والمفكرين ودعاة الإصلاح والتقدم والحضارة من السياسيين والاقتصاديين وعلماء الاجتماع

يظنون أنه يمكن أخذ الأنظمة والمذاهب الفكرية الحديثة المعاصرة ودمجها بالإسلام

وتحكيمها في شؤون الدنيا - المعاملات - بعيدا عن الإسلام ، فمن قائل باشتراكية الإسلام كبدأ في سياسة المال وتوزيع الثروة وأن هذا لا يتعارض مع مفاهيم الإسلام ومن قائل بديمقراطية الإسلام في ميدان السياسة والحكم لأنها تحقق شيئا من الحرية والعدل ، ومن مروج للعلمانية جهلا بحقيقتها ومن داع للعقلانية بحجة أن الإسلام اهتم بالعلم والعقل ، ومن قائل بأن الإسلام دين الحرية لا يكره أحدا على دين يوفق في ذلك بين الإسلام والديانات المحرفة لأهل الكتاب ويرفع من قدرها ويحط من قدر الإسلام وهو لا يدري ، ومن . . . ومن . . .

وكل هؤلاء يظنون أنهم ملتزمون بتعاليم الإسلام قوامون على حدوده مؤدون لعبادته خير أداء إذ هم يؤدون الصلاة ويصومون رمضان ، وليس الأمر كذلك فالمسألة ليست مسألة أداء شعائر ومناجاة مساجد وتشديد عمران وامتناع عن طعام أو شراب لعدة ساعات من نهار^{فصب} ، إنها مسألة دين متكامل فكما هو للآخرة فهو للدنيا ، وليس من المعقول أن تحكم شريعة الله أمور الآخرة في حين تحكم الدنيا قوانين فرنسا أو أمريكا أو روسيا أو القيصرية والأباطرة ، وما على هؤلاء إلا أن يراجعوا أنفسهم ويعودوا لحقيقة دينهم تماما كما أراد الله أن يكون (إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه) (١) (ألا له الخلق والأمر) (٢) ، (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين) (٣) فالذي لا يعمل لله في جميع مجالات الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية وغيرها ، ليس عبدا لله ، بل هو عابد للهوى ، ومتخذ له آلهة شتى ، في كل ميدان ، فليحذر المسلم من الانخداع .

(إن الدين الذي اختاره الله ليس مجرد عقيدة صورية محصورة في الضمير ، منعزلة عن واقع الحياة - كالأديان - فمن الذي يسير واقع

١ - سورة يوسف آية : ٤٥

٢ - سورة الأعراف آية ٥٤

٣ - سورة الأنعام آية ١٦٢

الناس ويؤسس لهم النظم الأخلاقية والثقافية والتربوية والسياسية والاقتصادية
وغيرها ؟ (١) .

١ - صفوة المفاهيم والآثار ، الشيخ عبد الرحمن الدوسري ، ج ١ ص ١٨٨ ، ط ١ ،
مكتبة دار الأرقم .

البحث الثالث - وجوه العبادة

بعد توضيح مفهوم العبادة وميانه شمولها وإحاطتها لجميع نواحي الحياة الإنسانية
أود أن أبيّن الوجوه التي تكون عليها العبادة ، وأى هذه الوجوه هو المعتبر والمقبول
وأيهما الساقط والمرفوض فى معيار الإسلام .

إن الواقع العملى للعبادة يؤكد أنها تكون على وجهين لا ثالث لهما فهى إما
أن تكون خالصة لوجه الله تعالى لا يشوبها أدنى شرك ، وإما أن تكون لغير الله
وسواء فى هذه الحالة أن تكون خالصة لغيره أو أن تكون على سبيل الإشراك فيعبّد
مع الله غيره .

يقول المرحوم سيد قطب : (قضية واحدة محددة لا تقبل لنا ولا تميّعا ، إما
إفراد الله سبحانه بالتوجه والتلقى والطاعة والخضوع والعبادة والاستعانة والإقرار
له وحده بالحاكية فى كلّ أمر من هذه الأمور ، ورفض إشراك غيره معه فيها ، وولاء القلب
والعمل فى الشعيرة والشريعة له وحده بلا شريك .

إما هذا كله فهو الإسلام ، وإما إشراك أحد من عباده معه فى شىء من هذا
كله فهو الشرك الذى لا يجتمع فى قلب واحد مع الإسلام) (١) .

وهذه الوجوه جميعها قد عرفتها البشرية فى تاريخها الطويل ، وتنقلت بينها من
وجه لآخر تبعاً للأحوال والظروف التى كانت تمرّ بها الإنسانية من جيل لآخر حسب
قربها أو بعدها من الرسالات النبوية .

الوجه الأول :

أن تكون العبادة خالصة لله تعالى ، ومعنى أن تكون العبادة خالصة لله تعالى
أن تكون مقصورة عليه ، خاصة به دون غيره ، لا يدخلها
أدنى شرك .

وهذا هو الأصل الذى يجب أن تكون عليه العبادة ، فلا تتحول عنه إلى صورة أخرى من صور الشرك والوثنية والإلحاد ، وذلك لأن العبادة - كما سيأتى - حق الله تعالى على عباده ، فلا يجوز أن يصرف هذا الحق لمن لا يستحقه وليس له بأهل .

وقد فطر الله سبحانه وتعالى جميع خلقه على عبادته وحده والإذعان له والافتقار إليه ، فكان من الموافق للعقل والمنطق أن تكون العبادة على وجهها الصحيح ووضعها السليم من غير التواء ولا كس .

وقد طلب الله سبحانه وتعالى من عباده أن يخلصوا له العبادة وحده لا شريك له فى غير ما آية من آيات القرآن الكريم ، قال تعالى : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) (١) .

وقال سبحانه : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء) (٢) .

وإخلاص العبادة لله تعالى الذى هو التوحيد أعظم ما يدور عليه القرآن الكريم ، فإن الله تعالى قد أمر على السنة رسله وأنبيائه أن لا يعبدوا إلا هو ، فكانت الدعوة إلى عبادة الله وحده شعار كل رسول من الرسل وعنوان كل رسالة من الرسالات ومنطلق كل نبوة من النبوات ، وأول مطلب من العبد .

ومن هنا فإنه كان من الواجب الذى لا يجوز تخلفه أن تكون جميع أعمال الإنسان ومقاصده خالصة لوجه الله تعالى ، فلا يدخله نفاق ولا طمع ولا يخالطه رياء ولا شك ، ولا يتقرب لأحد بمعصية الله ، ولا يؤمل فى أحد كما يؤمل بالله تعالى ولا يعلسق على شئ كبير أهمية من دون الله .

والإخلاص فى العبادة هو صراط الله المستقيم الذى يصل بالعبد إلى خالقه ويبلغه مرضاته والنجاة من عذابه .

١ - سورة الاسراء آية : ٢٣ .

٢ - سورة البينة آية : ٥ .

قال تعالى : (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) (١) .

روى الإمام أحمد وغيره عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : (خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا بيده ، ثم قال : هذا سبيل الله مستقيما ، ثم خط خطوطا عن يمين ذلك الخط وعن شماله ، ثم قال : وهذه السبل ليس منها سبيل إلا وعليه شيطان يدعو إليه) (٢) .

فمن سلك الجادة نجا ومن خرج إلى تلك الطرق أضلت به إلى النار (٣) .

ولهذا فقد جعل الله سبحانه وتعالى إخلاص العباد ة شرطا للقاءه وكسب رضاه .

قال تعالى : (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) (٤) .

وإلى جانب هذه فقد جعل الإخلاص فى العباد ة شرطا لصحة الأعمال وقبولها ،

فلا يقبل الله تعالى من الأعمال إلا ما كان خالصا له .

روى الإمام مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال - قال رسول الله صلى الله عليه

عليه وسلم ، يقول الله تبارك وتعالى فى الحديث القدسى : (أنا أغنى الشركاء عن

الشرك ، من عمل عملا أشرك معى فيه غيرى تركته وشركه) (٥) .

وقال تعالى (وقد منا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) (٦) .

١ - سورة الأنعام آية ١٥٣ .

٢ - رواه أحمد ج ١ ، ص ٤٣٥ ، ٤٦٥ ، والحاكم ج ٢ ، ص ٣١٨ وقال : صحيح

ولم يخرجاه ، وابن ماجه ج ١ ، ص ٦ ، حديث رقم ١١ باب اتباع السنة ، انظر

تفسير ابن كثير ج ٣ ، ص ٣٦٠ ، طبعة دار الشعب .

٣ - انظر تفسير القرطبي ، ج ٧ ، ص ١٣٧ - ١٤٢ ، طبعة ٢ .

٤ - سورة الكهف آية ١١٠ .

٥ - رواه مسلم فى الزهد ٤٦ .

٦ - سورة الفرقان آية ٢٣ .

الوجه الثاني للعبادة : أن تكون لغير الله تعالى وهي الوثنية .
والعبادة لغير الله تعالى تكون على صورتين: إما على سبيل الشرك والمعية فيعبد
الله تعالى ويعبد معه غيره من المعبودات الباطلة ، وإما أن تكون العبادة لغيره
استقلالاً وتفرداً ، وفي كلا الحالتين فالعبادة لغير الله تعالى ، لأنه سبحانه وتعالى
لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له من دون سواه كما سبق .

والعبادة على هذه الصورة تكون في حالة الانحراف عن الأصل الذي هو التوحيد
وعبادة الله وحده لا شريك له .

وقد ضلّت البشرية الطريق في كثير من الفترات في الماضي والحاضر فخرجت عن
عبادة الله تعالى والدينونة له وحده واتخذت لها من دون الله معبودات توجهت
إليها بالعبادة على سبيل الشرك مع عبادة الله ظناً منها أن العبودية يمكن أن تصح
على هذه الهيئة ، وهو في الواقع أمر لا يكون أبداً ، فالله تعالى أغنى الشركاء عن
الشرك ، فمن عبد الله على هذه الصورة تركه الله وشركه واستغنى عن عبادته .

وقد اشتهر العرب في جاهليتهم قبل بعثة الرسول الكريم ، بهذا اللون من
العبادة ، فكانوا يتقربون إلى الله بعبادة غيره من الأصنام والأوثان ، والصالحين
يقولون : (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) (١) ، في حين أنها لم تزدهم إلا بعداً
إلى بعدهم .

ويذكر أنهم كانوا يوحدون الله بالتلبية ثم يدخلون آلهتهم مع الله
ويجعلونها ملكاً لله تعالى .

فيقولون عند التلبية : (لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك إلا شريك
هو لك تملكه وما ملك) (٢) .

ولهذا قال تعالى (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) (٣) .

١ - سورة الزمر آية : ٣ .

٢ - كتاب الأصنام ص ٧ .

٣ - سورة يوسف آية : ١٠٦ .

وعبادتهم لله تعالى على هذه الصورة الوثنية لم تكن تنفعهم بشيء فبقوا على شركهم حتى بعث الله رسوله هاديا ومبشرا وداعيا إلى توحيد الله عز وجل .
وقد اقتضت حكمة الله وعد له أن يتجاوز عن كثير من الذنوب والآثام التي يرتكبها الإنسان ، غير أنه سبحانه استثنى من ذلك الشرك ، فإن الإنسان لا محالة معذب على شركه إن مات ولم يتب منه ويخلص عبادته لله تعالى .
قال سبحانه وتعالى : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دونه ذل لك لمن يشاء) (١) .

ومن هنا يتبين أن عبادة الله بهذه الصورة لا تعدُّ عبادة له وإنما هي عبادة للأنداد والشركاء من دون الله ، وهذا فهم لا تختلف عن الوجه الآخر وهو اتخاذ الأنداد وعبادتهم استقلالاً من دون الله تعالى ، بالطاعة والاتباع والدعاء والطلب والنذر والذبح ، والحب والبغض والموالة . . . إلى غير ذلك من العبادات التي اختص الله بها وحده من دون سواه .

قال تعالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله) (٢)
وقال سبحانه عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) (٣) .

ولهذا فقد حذرنا الله سبحانه وتعالى ونهانا أن نجعل له ندا يعبد من دونه كعبادته فقال : (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) (٤) .

وعليه فقد دلت الأحاديث النبوية الصحيحة أن النار هي المصير الذي ينتظر من أشرك بالله أو اتخذ من دونه أندادا يتقرب إليهم بالطاعات والقربات ويتعبد

١ - سورة النساء آية : ١١٦ .

٢ - سورة التوبة آية : ١٦٥ .

٣ - سورة التوبة آية : ٣١ .

٤ - سورة البقرة آية : ٢٢ .

لهم من دون الله وقد أمر أن لا يعبد إلا الله وحده .
روى البخارى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : (أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال : (مَنْ مات وهو يدعو من دون الله ندا دخل النار) (١) .
وفى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
(مَنْ لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة ، ومن لقيه يشرك به
شيئاً دخل النار) (٢) .

١ - رواه البخارى فى تفسير سورة البقرة آية : ٢٢ .

٢ - رواه مسلم فى كتاب الإيمان ١٥٠ - ١٥٣ .

الفصل الثاني - أحقية الله بالعبادة دون غيره
وهو

وفيه ستة مباحث :

المبحث الأول : أحقية الله بالعبادة
وهو

المبحث الثاني : مفهوم التوحيد

المبحث الثالث : أنواع التوحيد

المبحث الرابع : التوحيد دعوة جميع الرسل

المبحث الخامس : التوحيد هو الأصل والشرك طارئ

المبحث السادس : أهمية التوحيد في حياة الفرد والمجتمع

المبحث الاول - أحقية اللّٰم بالعبادة

جاء في الصحيحين عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : (كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار ، فقال لي : يا معاذ ، أتدري ما حق الله على العباد ؟ وما حق العباد على الله ؟ قلت الله ورسوله أعلم . قال حق الله على العباد ، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله ، أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً ، قلت يا رسول الله ، أفلا أبشر الناس ؟ قال : لا تبشروهم فيتكلوا^(١) .

أتدري ما حق الله على العباد ؟ قال في فتح المجيد : أخرج السؤال بصيغة الاستفهام ، ليكون أوقع في النفس وأبلغ في فهم المتعلم^(٢) .

وحق الله على عباده : أي ما يستحقه عليهم ، وهذا الحق المستحق له تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً بمعنى أن يفردوه بالعبادة ويخصّوه بها ويقصرونها عليه ، لأنه لا حق فيها لأحد ، وكيف يكون لأحد فيها نصيب ؟ والله سبحانه وتعالى هو الخالق وحده والرازق ، والمدبر لما في السموات والأرض ، والمالك لكل شيء لأن المتفضل بهذه النعم الجليلة دون أن يكون لأحد فيها نصيب يقضى العقل والمنطق السليم بأحقيته بالعبادة دون سواه .

ولهذا قال في المخصص : (العبادة نوع من الخضوع لا يستحقه إلا المنعم بأعلى أجناس النعم ، كالحياة والفهم والسمع والبصر . . . لأن أقل القليل من العبادات يكبر عن أن يستحقه إلا من كان له أعلى جنس من النعمة ، ألا وهو الله سبحانه فلذلك لا يستحق العبادة إلا الله)^(٣) .

وقال الرازي : إن العبادة عبارة عن نهاية التعظيم ، وهي لا تليق إلا بمن صدر عنه غاية الإنعام وأظم وجوه الإنعام : الحياة التي تفيد المكنة من الانتفاع وإليها^(٤) الإشارة بقوله تعالى (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً)^(٥) وقوله :

- ١ - رواه البخاري في التوحيد ١ ، ومسلم في الايمان ٤٨ ، وأحمد ج ٢ ص ٣٠٩ .
- ٢ - فتح المجيد ص ٢٦ .
- ٣ - المخصص ، ابن سيد ٥ ، ج ١٣ ، ٩٦ .
- ٤ - التفسير الكبير ، محمد بن عمر الرازي ج ١ ص ٢٤٢ المطبعة البهية المصرية .
- ٥ - سورة مريم آية : ٩ .

(كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم) (١) .
وقال شيخ الإسلام رحمه الله : (فالله تعالى مستحق أن يعبد لا يشرك به شيء ، وهذا هو أصل التوحيد الذي بعث الله به الرسل وأنزلت به الكتب) (٢) .
وقال المرحوم سيد قطب : (إن الذي يخلق هو الذي يستحق أن يعبد ، وإن الذي يملك أن ينصر عباده بقوته ويحميهم هو الذي ينبغي أن يعبد ، فالقوة والقهر والسلطان خصائص الألوهية وموجبات العباد والعبودية) (٣) .
ويقول الهرامس رحمه الله : (إن الذي يستحق من العباد أن يعبدوه : هو من كان رسا خالقا ملكا مدبرا ، وأما من لا شأن له في خلق ولا في تدبير لا يصلح أن يكون إليها معبودا ، إذ لم يصلح أن يكون ربا مقصودا) (٤) .
قال تعالى : (يا أيها الناس أعبدا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) (٥) .
وقال تعالى مؤكداً أحقيته بالعبادة : (أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون) (٦) .
وقد جرى منهج القرآن الكريم في خطابه للمشركين والناس كافة أن يلزمهم بما يقرون به من توحيد الربوبية ، فيجعله برهانا ودليلا واضحا على أحقية الله بالعبادة دون سواه لأن العقل الصحيح يقضى بهذا .
قال الشنقيطي رحمه الله : (ويستدل القرآن الكريم على أحقية الله سبحانه وتعالى بالعبادة ، دون غيره بتوحيد الربوبية عن طريق الاستفهام التقريري ، وذلك في كثير من الآيات الكريمة ، فإذا أقر المخاطبون بربوبية الله ، احتج بها عليهم على أنه سبحانه وتعالى

١ - سورة البقرة آية : ٢٨ .

٢ - اقتضاء الصراط المستقيم ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، ص ٤٤٦ ، ط ١ ، المكتبة السلفية .

٣ - في ظلال القرآن ، ج ٣ ، ص ١٤١٤ .

٤ - دعوة التوحيد ، محمد خليل هرامس ، ص ٣٤ .

٥ - سورة البقرة آية : ٢١ - ٢٢ .

٦ - سورة الأعراف آية : ١٩١ - ١٩٢ .

هو المستحق للعبادة ، وأنها حق له دون غيره وذلك لأن من اعترف بأن اللّٰه هو الرب وحده لزمه الاعتراف بأنه هو المستحق لأن يعبد وحده (١) .

قال تعالى : (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى اللّٰه خير أم ما يشركون ، أمن خلق السموات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حنائق ذات بهجة ، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها إله مع اللّٰه ؟ بل هم قوم يعدلون ٠٠٠) إلى آخر الآيات (٢) .

وقال تعالى : (قل أغير اللّٰه أتخذ وليا فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم ؟ قل : إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين) (٣) .

قال سيد قطب : (إنه منطلق الفطرة القوى العميق لمن يكون الولاء ولمن يتمخض ؟ لمن إن لم يكن لفاطر السموات والأرض الذي خلقهما وأنشأهما ؟ لمن إن لم يكن لسرازق من في السموات والأرض والذي يطعم ولا يطلب طعاما) (٤) .

وإذا كانت العبادة هي حق اللّٰه تعالى ، فقد خلق من أجلها الثقيلين ، والأنس والجن ، وجعلها وظيفتهما في الحياة الدنيا ، وأمرهم بإخلاصها له سبحانه .

فقال تبارك وتعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن اللّٰه هو الرزاق ذو القوة المتين) (٥) .

ومن لوازم هذا أن تكون جميع أعمال الإنسان وأقواله الظاهرة والباطنة خالصة للّٰه تعالى ، فانه لا معنى لأن يدعى الإنسان أنه عابد للّٰه تعالى ثم تجده يدين ويتعبد لغير اللّٰه في كثير من شؤون دنياه ، إنها انتكاسة للفطرة البشرية ومسوخ لإنسانية الإنسان الذي استعبد نفسه لغير خالقه .

و (مادام أن اللّٰه هو الخالق وحده ، والمالك وحده ، والرازق وحده ، والمسيطر وحده فمن ذا الذي يمكن أن يتجه له الخلق بالمبودية غيره ؟ وكيف يتجهون إلى أحد غيره أو أحد معه) (٦) .

١ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، محمد الأمين الشنقيطي ج ٣ ص ٣٧٤ ، مطبعة المدني .

٢ - سورة النمل آية ٥٩ - ٦٤

٣ - سورة الانعام آية ١٤

٤ - في ظلال القرآن ج ٢ ص ١٠٥٤

٥ - سورة الذاريات آية ٥٦ - ٥٨

٦ - جاهلية القرن العشرين ، محمد قطب ، ص ٢٠٦

وليس من دواعى العجب والاستغراب أن نقول: إن العبادة حق واجب ومفروض لله تعالى ، وخالصة له من شوائب الشرك فهو الخالق المنعم المتفضل بالخيرات الستى لا تحصى ولا تعد ، ولكن العجب أن يغمط المخلوق خالقه فى هذا الحق فيلحد عنه إلى عبادة ما سواه ، حقا (إن الانسان لربه لكنود)^(١) كيف يشكر لمن لا يستحق الشكر؟ وكيف يذل لمن ليس أهلا للتذل له؟ وكيف ينحن ويركع لمخلوق ضعيف عاجز عن أن يجلب لنفسه نفعا أو يذفع عنها خطرا فضلا عن أن يفعل ذلك لغيره؟ كيف يأسر نفسه لإحسان البشر فى كثير من الأوقات والمناسبات ويتأبى أن يروضها لمن يغمره بعظيم العطاء وجليل النعم؟ (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها)^(٢) .

العجب كل العجب لهذه الفطرة التى شهدت بالوجود وأقرت بالربوبية فى عالم السم الذى لهذا الإله العظيم (وإن أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا)^(٣) .

وما زالت تشهد بذلك وتعتزف (قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون ، قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون)^(٤) ؟

ولكنها تتنكب الطريق الصحيح وتجدد الحق وهو لازم لها لأنه من لوازمها تجاه الخالق سبحانه وتعالى .

وإن كانت العبادة حقا مفروضا وواجبا محتوما لله تعالى ، فإنها لا تكون صحيحة ولا مقبولة إلا إذا كانت على وفق أمره ونهيه طبقا لما شرع ، فكما أنه لا يُعبد إلا الله فإنه سبحانه لا يُعبد إلا بما شرع ، وإلا كانت عبادة هوى وضلال ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم ، (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد)^(٥) .

ومن هنا قال الفضيل بن عياض - رحمه الله - فى قوله تعالى (ليلوكم أيكم أحسن عملا)^(٦) . مفسرا معنى أحسن العمل قال : أخلصه وأصوبه ، قالوا : يا أبا

١ - سورة العاديات آية ٦

٢ - سورة ابراهيم آية ٣٤

٣ - سورة الاعراف آية ١٧٢

٤ - سورة المؤمنون آية ٨٤ - ٨٧

٥ - متفق عليه البخارى فى الاعتصام بالسنة ٢٠ ، ومسلم فى الاقضية ١٧

٦ - سورة الملك آية ٢

المبحث الثاني - مفهوم التوحيد

- أ (التوحيد في اللغة : جاء في اللسان : وَحَّدَ يُوحِّدُ توحيداً .
الوحدة الانفراد ، تقول : رأيتُه وحده .
توحَّدَ برأيه ، تفرد به .
تقول أحَدت اللهُ ووحَّدتُه وهو الواحد الأحد (١)
قال القاضي عبد الجبار المعتزلي : التوحيد في أصل اللغة : عبارة عما يصيِّر الشيءَ
واحداً (٢) ^{بمعناه}
قال الجرجاني : التوحيد في اللغة الحكم بأن الشيءَ واحد والعلم بأنه واحد (٣) .
والمتبوع لمادة (وَحَدَّ) يلاحظ أنها تدور حول انفراد الشيء وتمييزه عن غيره
وعدم وجود ما يماثله فيما ينفرد به .
وإذا عُدَّ الفعلُ (وَحَدَّ) بالتضعيف ف قيل : وَحَّدَ الشيءَ توحيداً كان معناه
إما جعله واحداً أو اعتقده واحداً .
وتوحيد الله معناه اعتقاد أنه إله واحد لا شريك له ، ونفى المثل والنظير عنه
والتوجه إليه وحده بالعبادة (٤) .
وجملة القول أن التوحيد في اللغة : إما جعل الشيءَ واحداً ، أو الاعتقاد
بأنه واحد ، والأنسب في حق الله تعالى أن نقول الاعتقاد بأنه واحد ، وذلك لأن
الله تعالى غير مفتقر لفعل فاعل أو جعل جاعل .
ولهذا قال في اللسان : (التوحيد هو الإيمان بالله وحده لا شريك له) (٥) .

ب (التوحيد في الاصطلاح :

بالرغم من اتفاق جميع المذاهب والفرق الإسلامية على توحيد الله عز وجل ، إلا أنها
اختلفت في بيان مفهوم التوحيد ، وتحديد المراد منه ، ولايسعني في هذا المقام

-
- ١ - لسان العرب ج ٣ ، ص ٤٤٦ مادة وحد
 - ٢ - شرح الاصول الخمسة - القاضي عبد الجبار ص ١٢٨ ، تحقيق د . عبد الكريم عثمان ، مكتبة وهبة
 - ٣ - التعريفات ص ٦٩
 - ٤ - دعوة التوحيد ، محمد خليل هراس ص ٧-٨
 - ٥ - لسان العرب ، مادة (وحد) ج ٣

أن أتعرض لذكر هذه الخلافات ، ولكنى سأقتصر على ذكر مذهب السلف في فهم التوحيد كما جاءت به الرسل وأنزل الله به الكتب .
قال شيخ الإسلام ابن تيمية^{رحمه الله} في تعريف التوحيد وبيان حقيقته في معرض رده على المتكلمين في تعريفهم التوحيد :

(إن توحيد الرسل والمؤمنين هو عبادة الله وحده ، فمن عبد الله لم يشرك به شيئاً فقد وحده ، ومن عبد من دونه شيئاً من الأشياء فهو مشرك به ، ليس بموحِّد مخلص له الدين .

والتوحيد الذي جاءت به الرسل يتناول التوحيد في العلم (الاعتقاد) والقول (الوصف) والتوحيد في الإرادة والعمل هو عبادته وحده لا شريك له (١)
ومعنى ذلك (أن يشهد العبد أن لا إله إلا هو ولا يعبد إلا هو ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يوالي إلا له ، ولا يعادى إلا فيه ، ولا يعمل إلا لأجله ، ويثبت ما أثبتته الله لنفسه من الأسماء والصفات) (٢) .

ويقول ابن القيم^{رحمه الله} في بيان حقيقة التوحيد : (وليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه لا خالق إلا الله ، وأن الله رب كل شيء ومليكه كما كان عباد الأصنام مقرين بذلك وهم مشركون ، بل التوحيد يتضمن من محبة الله والخضوع له ، والذل له ، وكمال الانقياد لطاعته ، وإخلاص العبادة له ، وإرادة وجهه الأعلى بجميع الأقوال والأعمال والمنع والعطاء والحب والبغض ما يحول بين صاحبه وبين الأسباب الداعية إلى المعاصي والإصرار عليها) (٣) .

وقال في لوامع الأنوار : (هو أفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتها صفات وأفعالا) (٤) .

-
- ١ - نقض تأسيس الجهمية ، ابن تيمية ، ج ١ ، ص ٤٧٨ - ٤٧٩ ، الفتاوى ، ج ٣ ، ص ٩٨ .
 - ٢ - درء تعارض العقل والنقل - ابن تيمية ، تحقيق محمد رشاد سالم ، ج ١ ، ص ٢٢٤ ط ١ .
 - ٣ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، ابن القيم الجوزية ، الدمشقي ، ج ١ ، ص ٣٣٠ ، ط ٢ .
 - ٤ - لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدرّة الضيئة في عقيدة الفرقة المرضية ، محمد بن أحمد السفاريني ، ج ١ ، ص ٥٧ ، ط ٢ ، المكتب الإسلامي .

ويمكن القول بأن التوحيد هو نفي الكفر والمثل عن ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله
ونفي الشرك في ربوبيته وعبادته عز وجل ، وهو ضد الشرك (١) .
ولهذا فالتوحيد هو الإيمان بالله ربا خالقا وإلها معبودا لا شريك له موصوفا بصفات
الجلال والكمال ليمثله شيء .

١ - عقيدة المؤمن ، أبو بكر الجزائري ، ص ٨٩ .

المبحث الثالث - أنواع التوحيد

اتفقت كلمة السلف على أن التوحيد ثلاثة أنواع ذكرها ابن القيم رحمه الله تعالى (١) :

(التوحيد نوعان : نوع في العلم والاعتقاد ، ونوع في الإرادة والقصد .
وسمى الأول : التوحيد العلمي ، والثاني : التوحيد القصدى الإرادى ، لتعلق الأول بالإخبار والمعرفة ، والثاني بالقصد والإرادة ، وهذا الثاني أيضا نوعان : توحيد فى الربوبية ، وتوحيد فى الألوهية ، فهذه ثلاثة أنواع) .
وقال شارح الطحاوية : (إن التوحيد يتضمن ثلاثة أنواع : أحدها الكلام فى الصفات ، والثاني : توحيد الربوبية ، وميان أن الله وحده خالق كل شئ ، والثالث توحيد الألوهية ، وهو استحقاقه سبحانه وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له) (٣) .

النوع الأول :

وهو توحيد الصفات ومعنى إفراد الله سبحانه وتعالى بما يتصف به من صفات الجلال والكمال ، فلا يوجد فى خلقه من يشبهه ، فهو متفرد بما ثبت له من الصفات التى جاءت فى كتبه المنزلة وعلى السنة رسله الكرام كما هو متفرد فى ذاته الخاصة فلا يشبهه شئ من الذوات الحادثة .

والكلام على الصفات فرع عن الكلام على الذات ، فكما أنه متفرد بذاته فهو متفرد بصفاته ، نؤمن بها ونثبتها كما جاءت فى النصوص الثابتة ، ومن كمال الله تعالى أن نثبت له كل الصفات التى وصف بها نفسه ووصفه بها رسوله صلى الله عليه وسلم ، لان إثبات ذات مجردة عن جميع الصفات لا يتصور لها وجود فى الواقع ، بغض النظر عن التصورات ، العقلية الخيالية الباطلة فالعقل يفرض المحال (٣) .

١ - مدارج السالكين ، ج ١ ، ص ٢٤ ، وانظر اجتماع الجيوش الإسلامية

ص ٣٣ .

٢ - شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز الحنفى ، ص ٧٦ ، ط ٤ .

المكتب الإسلامى .

٣ - شرح الطحاوية ص ٧٦ .

قال شيخ الإسلام ^{رحمه الله} : (ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه ، وما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم - من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل) (١) .

النوع الثاني :

توحيد الربوبية وهو بمعنى الإقرار والتصديق بأن الله تعالى وحده لا شريك له الخالق والمدبر والرازق لكل ما في هذا الكون ، وهو توحيد الرب تبارك وتعالى بأفعاله كما هو في قول ابن القيم في معنى هذا النوع من التوحيد (أن يشهد صاحبه قيومية الرب تعالى فوق عرشه ، يدبر أمر عباده وحده ، فلا خالق ولا رازق ولا معطي ولا مانع ولا مميت ولا محيي ، ولا مدبر لأمر المملكة - ظاهرا وباطنا - غيره ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، لا تتحرك ذرة إلا بإذنه ، ولا يجري حادث إلا بمشيئته ولا تسقط ورقة إلا بعلمه ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا أحصاها علمه و أحاطت بها قدرته ونفذت بها مشيئته ، واقتضتها حكمته) (٢) .

وهذا التوحيد لم يجادل فيه أحد لأنه من أساسيات الفطرة ، ومسلّمات الأمور . قال تعالى فيما حكاه على لسان رسوله الكرام : (قالت رسلهم أفي الله شك ، فاطر

السموات والأرض) (٣) .

ولهذا فإن المشركين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا مقرين بهذا النوع من التوحيد ، غير أنه لم يسمعهم في شيء فبقوا في شركهم وضلالهم وذلك لأن مجرد الإقرار بهذا التوحيد لا يكمل الواجب والمطلوب ، فهو من الواجب إلا أنه لا يتم به الواجب ، فلا بد له من عدة التوحيد وهو توحيد الألوهية .

ولهذا قال في فتح المجيد : (فإن الرجل لو أقربها يستحقه الرب تعالى من الصفات ، ونزهه عن كل ما ينزه عنه ، وأقرباً به وحده خالق كل شيء : لم يكن موحداً حتى يشهد أن لا إله إلا الله وحده فيقرباً بأن الله وحده هو الإله

١ - شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تأليف محمد خليل هراس

ص ١٨ - ١٩ ، الطبعة الخامسة ، مؤسسة مكة للطباعة .

٢ - مدارج السالكين ، ج ٣ ص ٥١٠ ، وانظر الطحاوية ص ٧٧ .

٣ - سورة إبراهيم آية : ١٠ .

- المستحق للعبادة ، ويلتزم بعبادة الله وحده لا شريك له (١) .
- وذلك فهذا النوع يستلزم توحيد الألوهية كما سيأتي بيانه .
- وهذان النوعان هما ما يعرفان بتوحيد العلم والمعرفة والاعتقاد .
- وقد غلط كثير من الناس فجعل توحيد الربوبية هو ما جاءت الرسل لبيانه وتقريره ، والدفاع عنه ، وفاتهم أن محل النزاع بين الرسل وأقوامهم هو توحيد الألوهية - كما سيأتي بعد قليل - فمشركو العرب على سبيل المثال كانوا مقرين بتوحيد الربوبية - شاهدين بأن الله هو الخالق البارئ المصور ، ولكنهم كانوا يتوجهون بالعبادة إلى ما سواه ويتقربون بتلك المعبودات إلى ذلك الخالق المدبر .
- والقرآن الكريم قد أكد في غير ما آية إقرار المشركين بتوحيد الربوبية .
- قال تعالى : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) (٢) .

النوع الثالث - توحيد الألوهية :

وهو توحيد العبادة ويعرف بتوحيد الطلب والطلب ، وهو فعل العبد تجاه خالقه من التزامه بالأوامر وانتهائه عن النواهي وقوفه عند حدود ما شرع الله تعالى ، قال ابن القيم : (وأما توحيد الألوهية ، فهو أن يجمع قلبه وهمه وعزمه على الله ، وإرادته ، وحركاته على أداء حقه تعالى ، والقيام بعبوديته سبحانه فتتجمع شؤون إرادته على مراده الديني الشرعي) (٣) .

وابن القيم في هذا تابع لشيخ الإسلام حيث قال : (التوحيد الذي جاءت به الرسل إنما يتضمن إثبات الألوهية لله وحده بأن يشهد أن لا إله إلا الله : لا يعبد إلا إياه ولا يتوكل إلا عليه ولا يوالى إلا الله ، ولا يعادى إلا فيه ، ولا يعمل إلا لأجله ، وذلك يتضمن إثبات ما أثبتته لنفسه من الأسماء والصفات) (٤) .

وقال في شرح الطحاوية : هو عبادة الله وحده لا شريك له (٥) .

-
- ١ - فتح المجيد ص ١٢ ، وانظر الطحاوية ص ٨٣ .
 - ٢ - سورة لقمان آية : ٢٥ .
 - ٣ - مدارج السالكين ج ٣ ، ص ٥١٠ .
 - ٤ - درء تعارض العقل والنقل ، ابن تيمية ، تحقيق محمد رشاد سالم ج ١ ، ص ٢٢٤ ط ١ .
 - ٥ - ص ٧٩ ، وانظر تفسير الطبري ج ١ ، ص ٥٤ .

وغوان هذا التوحيد هو كلمة الاخلاص شهادة (ان لا إله إلا الله) وهي أفضل ما قاله الأنبياء والمرسلون ولأجلها كانت كل الرسل والرسالات ، قال صلى الله عليه وسلم : (أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له) (١) . وهي أول واجب على المكلف (٢) ، وفي سبيلها بقى صلى الله عليه وسلم ثلاثة عشر عاما من فترة البعثة والرسالة يدعو المشركين في مكة ، وهي التي بها يعصم الإنسان دمه وعرضه وماله ، قال صلى الله عليه وسلم في ذلك (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله) (٣) .

وقد شهد الله سبحانه وتعالى لنفسه بالألوهية ، وشهد له بها الملائكة المقربون وأولوا العلم فقال تعالى : (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم) (٤) قال عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ في قررة العيون : (وقد تضمنت هذه الكلمة العظيمة نفيا وإثباتا ، فنفت الألوهية عن كل ما سوى الله بقولك (لا إله) وأثبتت الألوهية بقولك (إلا الله) فكم ضل بسبب الجهل بمعناها من ضل وهم الأكثرون ، فقلبوا حقيقة المعنى فأثبتوا الألوهية المنفية لمن نفيت عنه من المخلوقين أرباب القبور والمشاهد والطواغيت والأشجار والأحجار والجن وغير ذلك ، فلم يعرفوا منها ما عرف أهل الجاهلية من كفار قريش ونحوهم فإنهم عرفوا معناها وأنكروا ما دلّت عليه من الإخلاص) (٥) .

والذين ضلوا في فهم معناها حسبوا أن (الإله) هو الرب الخالق والصانع ، ولكن الأمر غير ذلك (فالإله) هو المعبود الذي تأله القلوب (٦) .

-
- ١ - رواه مالك في الموطأ . قرآن ٣٢ ، حج ٢٤٦ ، ج ١ ص ٢١٥ ، ٤٢٢ ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .
 - ٢ - شرح الطحاوية ص ٢٥ .
 - ٣ - متفق عليه ، البخارى في الجهاد ١٠٢ ، ومسلم في الايمان ٣٢ ، وأبو داود في الزكاة ١ ، والترمذى في الايمان ٢ .
 - ٤ - سورة آل عمران آية ١٨ .
 - ٥ - انظر حاشية فتح المجيد ص ٣٥ .
 - ٦ - انظر المصباح المنير ص ١٩ .

قال ابن القيم^{رحمه الله}: (الإله هو الذي يؤله فيعبد محبة وإنبابة ، وإجلالا وإكراما) (١) .
وسوء فهم المراد (بالإله) وعدم فهم حقيقة كلمة الإخلاص وشهادة التوحيد والظن
أن الإله بمعنى (الرب) ، جعل الكثير يظنون أن أعظم التوحيد هو إثبات الصانع
وتوحيد الربوبية ، وأنه هو الذي جاءت به الرسل ونزلت به الكتب الربانية ، وصار في
أذهان الكثير من الناس أن المقر بتوحيد الربوبية من أهل الإخلاص والإيمان ولا يضر
ذلك أن يدعو غير الله أو يستغيث بسواه أو يتوسل بغيره في قضاء الحاجات وجلب
المنافع ، أو يوالي أعداء الله ، أو يخضع لغير حكم الله وشرعته وذلك لأنه
مقرّ ومعترف بوجود الله وربوبيته للكون .

وقد عظم خطر هذا الفهم السقيم في العهود الأخيرة التي تمرّ بالمسلمين اليوم
حيث ولّوا وجوههم قبل الغرب والشرق وخضعوا لأحكامه وقوانينه ظنا من الكثير منهم أن هذا
لا يتعارض مع التوحيد ، لأنهم مقرّون بالربوبية ويؤدّون العبادة على الفهم الناقص
المقصود على العبادات المشهورة ، بينما جميع معاملاتهم الحياتية تجري على غير
نهج التوحيد .

(فالتوجه إلى الله وحده بالشعائر التعبدية ، والطلب والرجاء والخشية والتقوى ،
كالتلقى من الله وحده في التشريع والتوجيه ومنهج الحياة ، ونظام المعيشة وقواعد
الارتباطات وميزان القيم والاعتبارات ، كلاهما من مقتضيات التوحيد كما هو في التصور
الإسلامي وكلاهما يصور المساحة التي تشملها حقيقة التوحيد في ضمير المسلم وفي
حياته على السواء) (٢) .

ويقول أنور الجندى : (وتستلزم فكرة التوحيد الخالص إلى جانب الاعتراف بأن الله
هو خالق السموات والأرض والإيمان بالوحدانية ، وهو أن يكون الحكم لله وحده في حياتهم
ومجتمعاتهم وأن يتلقوا منه الحلال والحرام وأن يكون هو وحده مردّ أمورهم كلها في
الدنيا والآخرة ، وأن يتحاكموا إلى شريعته وأن على المسلمين أفراد الله بالألوهية
والإقرار له بالعبودية ، وأن الإسلام وحدة لا تنقسم ، وأن من مقتضيات توحيد الألوهية
أفراد الله سبحانه وتعالى بخصائص الألوهية في تصريف حياة البشر كأفراد سبحانه

١ - طريق الهجرتين وباب السعادتين ، ابن قيم الجوزية ، ص ٩٦ ، مطابع

الذوحة - بقطر .

٢ - خصائص التصور الإسلامي ، سيد قطب ، ص ٢٢٢ .

بخصائص الألوهية في اعتقادهم وتصورهم وفي ضمائرهم وشعائرهم على السواء (١) .
(وما كان هذا الجهد كله الذي بُذِل في العهد المكي واستمر في العهد المدني
ليعلم الناس أن هناك إلها ، فإنهم يعرفون ذلك بالفطرة ، بلا كتاب ولا رسول ولا يعبدوا
ذلك الإله بأى نوع من أنواع العبادة فهم يقومون بذلك من تلقاء أنفسهم إنما كان ليعلموا
أنه إله واحد لا شريك له فيعبده وحده بلا شريك ، ويعبدوه كما أمرهم هو سبحانه لا على
هوى أنفسهم ثم يزعون أنهم عبادة مخلصون (٢) .

هكذا يجب أن يفهم التوحيد حتى تطهر الأرض من الوثنية .

العلاقة بين أنواع التوحيد الثلاثة :

تبين فيما سبق أن التوحيد المطلوب لا بد أن يكون شاملا لجميع أنواعه
الثلاثة فالإخلال بواحد منها يفسد باقيها ويجعل عمل المرء هباء منثورا ، وذلك
لأن أنواع التوحيد مترابطة متداخلة يكمل بعضها البعض الآخر ، لا تميّز لواحد منها على
الآخر في حقيقة الأمر ، وإن قيل بأن توحيد الألوهية هو أجلها وأعظمها ، فإنه لا ينفع
المرء مطلقا أن يعبد الله وحده لا شريك له ويخصه بجميع أنواع العبادة من دعاء ورجاء ،
في حين أنه يعتقد أن الله تعالى مشابه لخلقه في صفاته أو مماثل لشيء في ذاته ،
فإن من اعتقد هذا الاعتقاد فإنما هو عابد وثن ، وأن من أنكر صفاته ونفاها عنه
فأنكر اتصافه بها فإنما يعبد الوهم .

قال ابن القيم :

لسنا نشبه ربنا بصفاتنا

إن المشبه عابد الأوثان

كلا ولا نخاييه من أوصافه

إن المعطل عابد البهتان (٣)

ومن هنا قال في الأسئلة والأجوبة الأصولية : فهذه الأنواع الثلاثة - أي توحيد
الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات - متكاملة متلازمة يكتمل بعضها ببعض
ولا ينفع أحدها بدون الآخر ، فكما لا ينفع توحيد الربوبية بدون توحيد الألوهية فكذلك

١ - الإسلام والعالم المعاصر - أنور الجندى ص ٢٦٢ .

٢ - دراسات قرآنية - محمد قطب ص ٦١ .

٣ - القصيدة النونية ، ابن القيم الجوزية ، ص ١٤٥ ، دار المعرفة

لا يصحُّ توحيد الألوهية بدون توحيد الربوبية ، فإنَّ مَنْ عَبدَ الله وحده ولم يشرك به شيئاً في عبادته ولكنه اعتقد مع ذلك أنَّ لغيره تأثيراً في شيء أو قدرة على ما لا يقدر عليه إلا الله ، أو أنه يملك ضرَّ العباد أو نفعهم ونحو ذلك فهذا لا تصحُّ عبادته ، فإنَّ أساسها الإيمان بالله رباً له شأن من الربوبية كلها ، وكذلك من وحد الله في ربوبيته وألوهيته لكنه ألحد في أسمائه وصفاته فلم يثبت له ما أتت عليه تلك الأسماء من صفات الكمال أو أثبت لغيره مثل صفته ، لم ينفعه توحيد في الربوبية والألوهية ، فلا يكمل لأحد توحيد إلا باجتماع أنواع التوحيد الثلاثة (١) .

وقد قرَّر هذه الرابطة شيخ الإسلام رحمه الله فقال : (إن الرجل لو أقرباً يستحقه الرب تعالى من الصفات ونزاه عن كل ما ينزه عنه ، وأقرَّباً بأنه وحده خالق كل شيء لم يكن موحداً ، بل ولا موقناً حتى يشهد أن لا إله إلا الله ، فيقرَّب بأن الله وحده هو المستحق للعبادة) (٢) .

ومن ناحية أخرى فإنَّ العلاقة بين هذه الأنواع تقوم على الاستلزام والتضمن والشمول وبيان ذلك (٣) : أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية ، وهو له كالمقدمة من النتيجة وذلك أنه إذا تقرر وثبت أنه سبحانه وتعالى هو الرب وحده لا شريك له في ربوبيته فمن خلق ورزق وتدبير .

كان من حق هذا الرب الخالق القدير على كل شيء أن يُعبدَ وحده لا شريك له وتكون العبادة عند ذلك حقه على المقرِّين له بالربوبية ، لأنَّ العقل الصحيح والمنطوق السليم يقضى بذلك ، ولهذا فقد جرى منهج القرآن الكريم على إيراد آيات الربوبية ثم يتبعها بطلب لازمها وهو إخلاص الألوهية لله .

واللازم الآخر في هذه العلاقة أن مَنْ كان رباً خالقاً وإلهاً معبوداً مستحقاً للعبادة ، فلا بدَّ عندها أن تكون له الأسماء الحسنى والصفات العليا من الجلال والكمال بالغة حدَّ النهاية ، وهو ما لا يكون لغيره من المخلوقات .

١ - الأسئلة والأجوبة الأصولية عن العقيدة الواسطية - عبد العزيز محمد السلطان

... المدرِّس بمعهد إمام الدعوة بالرياض - ص ٣٦ ، ط ١٠ .

٢ - درء تعارض العقل مع النقل ج ١ ، ص ٢٢٥ .

٣ - انظر في هذا : دعوة التوحيد ، ص ٨٣ وما بعدها ، وكتاب في العقيدة

الإسلامية بين السلفية والمعتزلة د . عبد المنعم محمود خفاجي ص ٢٢٣ .

وأما توحيد الألوهية فهو متضمن لتوحيد الربوبية ، وذلك أن مَنْ عَدَّ اللهُ وحده ولم يشرك به شيئا لابد أن يكون معتقدا أن هذا المعبود هو ربه وخالقه ومالكه والمتفضل عليه لا ربَّ له غيره ، وإلا لم يكن ليعبده .

وأما توحيد الأسماء والصفات فهو شامل لنوعى التوحيد السابقين ، فهو يرتكز على الإيمان بالله تعالى وإفراده بكل ماله من الأسماء الحسنى والصفات العليا التي لا تنبغى إلا له ، ومن جعلتها كونه ربا واحدا لا شريك له في ربوبيته ، وكونه إلها واحدا لا شريك له في ألوهيته ، فاسم الرب لا ينصرف إلا إليه عند الإطلاق ، وكذلك اسم الجلالة (الله) لا يطلق إلا عليه ولا يتسمَّى به إلا هو سبحانه وتعالى .

وبالجمله فأنواع التوحيد بمنزلة الأعضاء من الجسد لا يقوم بأداء عمله على الوجه الصحيح إلا باجتماع الأعضاء جميعها ، فإذا اشتكى منها عضو تعب لذلك الجسم وتداعى بالحمى والسهر .

فليعلم الذين يدعون الإيمان وتوحيد الرحمن ، لأنهم يقرون به ربا خالقا ومتميزا بصفاته وأسمائه ويخصونه ببعض أنواع العبادات ثم يتعبدون لغيره من أوثان هذا العصر كالوطنية والقومية بالولاء والمحبة والرضى والكره .

أو يتعبدون لغيره بأشباع شرائع وثنية وهجر شريعته الربانية ودستوره القوم أو من يقدر على العقل ومبتكراته ، أو يقدر على العلم ، أو يدين بمذاهب اقتصادية كالاشتراكية الشيوعية الماركسية أو سياسية باسم الديمقراطية والعلمانية ، أو يروجون للفساد ونشر الرذائل باسم الفن والحرية ، وغير ذلك - فليعلم هؤلاء وأمثالهم أنهم بعيدون عن التوحيد ولا ينفعهم إقرارهم بالربوبية كما لم ينفع مشركي العرب من قبلهم ، ولا بدَّ لهم من تحقيق توحيد الألوهية بمعنى قصر جميع أنواع العبادات (العبادات والمعاملات) على الله تعالى وحده ، وأنه لا فرق بين من ينكر وجود الله أو يشرك في ربوبيته ومن يعتقد أن أساس الولاء يكون لتراب الوطن أو لقطرات الدم وأواصر النسب والقرباة من دون الله .

المبحث الرابع - التوحيد دعوة جميع الرسل

وكون التوحيد دعوة جميع الرسل - عليهم الصلاة والسلام - قضية مسلمة قررها القرآن الكريم في أكثر من سورة ، وأكد على ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم في أكثر من حديث شريف .

وإذا كانت شهادة القرآن الكريم الذي تعهد الله بحفظه من الضياع والتحريف والفساد ، وكذا شهادة خاتم الرسل محمد عليه الصلاة والسلام الذي لا ينطق عن الهوى - إذا كان هذا كافيا في التأكيد على هذه المسألة وتجليتها أمام العقول ودحض كل الشبهات والوسوس ، وإقامة الحجة الناصعة والدليل البيِّن ، فإنه مما لا بأس به أن نذكر - زيادة في التأكيد واستئناسا بالقول - بعض النصوص التي وردت في التوراة عند اليهود ، والأنجيل عند النصارى وكلها تؤكد وتدعو إلى التوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له ، ثم أتوجها بما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية ، ومن ثم أتبعها ببعض أقوال الأئمة وعلماء الإسلام ، (ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا) (١) .

جاء في التوراة كثير من الفقرات التي تؤكد الدعوة إلى التوحيد وإخلاص العبادة لله ، ومن هذه النصوص ما يلي :

١ - جاء في سفر الخروج : (أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر أرض العبودية لا يكن لك آلهة أخرى أمامي) (٢) .

٢ - وفي سفر التثنية : (لا يكن لك آلهة أخرى أمامي ، لا تصنع لك تمثالا منحوتا صورة ما مما في السماء من فوق وما في الأرض من أسفل وما في الماء من تحت الأرض ، لا تسجد لهم ولا تعبدهم لأنى أنا الرب إلهك إله غير) (٣)

(إسمع يا إسرائيل . الرب إلهنا رب واحد ، فحبب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قواك) (٤)

٣ - ومن الرصايا العشر في سفر الخروج : (لا تصنع لك تمثالا منحوتا ، ولا صورة مما في السماء ومن فوق ، وما في الأرض ومن أسفل ، لا تسجد لهم ولا تعبدهم

١ - سورة المدثر آية : ٣١

٢ - سفر الخروج ، الاصحاح العشرون ، الفقرة ١ - ٤

٣ - سفر التثنية ، الاصحاح الخامس ، الفقرة ٧ - ١٠

٤ - سفر التثنية ، الاصحاح السادس ، الفقرة ٤ - ٦

لأنى أنا الرب إلهك غير أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء فى الجيل الثالث والرابع من مبغضى (١) .

٤ - وفى سفر اللاويين (لا تلتفتوا إلى الأوثان، وآلهة مسبوكة لا تصنعوا لأنفسكم أنا الرب إلهكم) (٢)

ونصوص أخرى كثيرة كلها تدعو لعبادة الله وحده لا شريك له مما يدل على أن دعوة موسى رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت دعوة التوحيد كما هو حال إخوانه من الرسل .
و أما من شهادة الأناجيل :

١ - جاء فى إنجيل متى يقول المسيح لتلاميذه : (أفما قرأتم ما قيل لكم من قبل الله القائل : (أنا إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب ، ليس الله إله أموات بل إله أحياء) (٣) .

٢ - وفى إنجيل مرقس : (يسأل أحد الكتبة يسوع : أية وصية هى أول الكل ؟ فيجيبه بأن أول كلِّ الوصايا هى إسمع يا إسرائيل : (الرب إلهنا رب واحد ، وتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك) (٤) .

هذه النصوص وغيرها تشهد بأن دعوة عيسى عليه السلام كانت دعوة إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة وحده ، ولا علينا بالتحريف والفساد الذى طرأ على هاتين الديانتين فإن أصلهما التوحيد الذى هو أصل النبوة جميعها .

ونعود إلى كتاب الله المبين لندلِّل ببعض الآيات القرآنية - وهى كثيرة - على أن التوحيد وعبادة الله وحده كانت عنواناً بارزاً وهدفاً أول فى دعوة كل رسول من رسل الله إلى خلقه .

أ (فطر الله تعالى بنى آدم على عبادته وحده وأشهدهم على هذا وأقرأوا على أنفسهم بذلك كما قال تعالى : (وإن أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا

١ - سفر الخروج ، الإصحاح العشرون ، فقرة ٤ - ٧

٢ - سفر اللاويين ، الإصحاح التاسع عشر ، فقرة ٤ - ٥

٣ - إنجيل متى ، الإصحاح ٢٢ ، فقرة ٣٢ - ٣٣

٤ - إنجيل مرقس ، الإصحاح ١٢ ، فقرة ٣٠ - ٣١

عن هذا غافلين (١) .

ب () وفقى بنو آدم على توحيد الله الخالص وعبادته الحقه عشرة قرون من بعد آدم حتى دبّ فيهم الشركوا و انحرقوا عن التوحيد (٢) ، فبعث الله تعالى نوحا عليه السلام أوّل الرسل إلى بنى البشر يدعوهم إلى عبادة الله تعالى ، قال تعالى : (لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) (٣) .

ج () ثم تتابع الرسل من بعده كلما طال الأمد وانحرف الناس عن التوحيد فبعث الله هودا رسولا لعاد يقول لهم (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) (٤) .
وكذلك قال صالح عليه السلام لثمود : (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) (٥) .

وبعث شعيبا عليه السلام إلى مدين فقال (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) (٦) .

وبعث إبراهيم أبا الأنبياء عليه الصلاة والسلام ، ومن قبله ومن بعده و كلمهم يدعوا بالدعوة نفسها ويسعى للهدف ذاته ، توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له .
د () ولهذا قال تعالى على سبيل الإجمال : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ، أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) (٧) .

وقال مخاطبا رسوله الأمين ومبيناً له نوعية الدعوة وحققتها (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) (٨) .

هكذا بصيغة النكرة في سياق النفي لتدل على العموم فتكون جميع الرسالات دعوة لعبادة الله وحده لا شريك له .

١ - سورة الأعراف آية ١٧٢

٢ - سيأتي تفصيله في مبحث التوحيد هو الأصل ص ٧٦

٣ - سورة الأعراف آية ٥١

٤ - سورة الأعراف آية ٦٥

٥ - سورة الأعراف آية ٧٣

٦ - سورة الأعراف آية ٨٥

٧ - سورة النحل آية ٣٦

٨ - سورة الأنبياء آية ٤٥

هـ) وقال تعالى مخاطباً أمة خاتم الرسل : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً
والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا
فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه) (١) .

فإذا كانت هذه آيات القرآن الكريم شاهدة بهذه القضية فإن الرسول صلى الله
عليه وسلم قال : (الأنبياء إخوةٌ " أولاد " لعالات) (٢) أمهاتهم شتى ودينهم
واحد) (٣) .

قال ابن حجر في الفتح (٤) والنووي في شرحه (٥) : معنى الحديث أن أصل
دينهم واحد وهو التوحيد وإن اختلفت فروع الشرائع (٦) .
وقال صلى الله عليه وسلم في حديث آخر : (إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلتى

كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به
ومعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين) (٧) .

فهذا الحديث وإن كان نصاً في ختم النبوة فإن فيه دلالة على وحدتها واتساقها
واجتماعها على غاية واحدة وهدف واحد ، فالبناء الذى يشير إليه المصطفى هو
الإسلام الذى هو التوحيد ودين الله الخالص ، فقد بناه الأنبياء وأسسوه وأرسوا
قواعده حتى جاء خاتمهم فاتمه وأكمله ، فظهرت راية التوحيد (لا إله إلا الله)
لتبقى إلى يوم القيامة ، بحفظ الله لها ، استقام عليها من استقام وانحرف عنها من
انحرف .

وليس غريباً أن تكون دعوة الرسل جميعهم دعوة واحدة وهى التوحيد فإن المرسل
لهم واحد ، والأصل الذى انطلقوا منه واحد ، فهم وإن تباعدوا فى الزمان والمكان

١ - سورة الصورى آية ١٣

٢ - العلات بفتح العين الضرائر ، وأصله من تزوج امرأة ثم تزوج أخرى كأنه عل منها
والعلل الشرب بعد الشرب ، أولاد العلات : الإخوة من الأب وأمهم شتى .

٣ - متفق عليه ، البخارى فى الانبياء ٤٨ ، ومسلم فى الفضائل ١٤٣

٤ - فتح البارى ، ابن حجر العسقلانى ج ٦ ص ٤٨٩ كتاب الأنبياء طبعة محمد
فؤاد عبد الباقي .

٥ - صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٥ ص ١١٩ كتاب الفضائل .

٦ - انظر معالم السنن للخطابى بهامش سنن أبى داود ج ٥ ص ٥٥ ط ١ ١٩٧٤ م .

٧ - متفق عليه رواه البخارى فى (خاتم النبيين) ١٨ ، ومسلم فى الفضائل ٢٠

فهم متفقون في أصول الدين التي بعثوا بها ودعوا إليها وجاهدوا لأجلها ، فكانت كلمتهم واحدة وطريقتهم واحدة وأسألهم واحدا ، وكان موقف أقوامهم منهم واحدا .

ومن الجدير بالذكر هنا القول بأن وحدة الأصول التي انطلق منها الرسل جميعا لا تمنع أن يكون بينهم تفاوت في الشرائع وشعائر العبادة ، وإنما كانت كل رسالة تقوم على محورين : الأول وهو محور العبودية لله الذي هو التوحيد ، وهذا مشترك وواحد في كل الرسالات ، والمحور الآخر يختص بالشرائع والتنظيمات الحياتية وهذا متباين - نوعا ما - من رسالة لأخرى مناسبة لحال البشرية في كل زمان ومكان ولهذا قال تعالى : (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) (١) .

وهذا ما عناه صلى الله عليه وسلم بقوله (الأنبياء أخوة لعلات أمهاتهم شسبتي ودينهم واحد) (٢) بمعنى أن أصل إيمانهم واحد وهو التوحيد وشرائعهم مختلفة .

والآن بقی أن أذكر طائفة من أقوال العلماء في هذه المسألة .
قال شيخ الإسلام ^{رحمه الله} في مواطن متعددة من كتبه بأن الله قد أرسل جميع الرسل وأنزل جميع الكتب بالتوحيد الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له (٣) ، وذكر قوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) (٤) وقال سيد قطب - رحمه الله - عند تفسير قوله تعالى (وأسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) (٥) .

(التوحيد هو أساس دين الله الواحد منذ أقدم رسول ، والقرآن يقرر هذه الحقيقة في هذه الصورة الفريدة ، صورة الرسول صلى الله عليه وسلم يسأل الرسل قبله عن هذه القضية (أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ؟) .

(وحول هذا السؤال ظلال الجواب القاطع من كل رسول ، وهناك أبعاد الزمان والمكان بين الرسول - صلى الله عليه وسلم - والرسول قبله ، وهناك أبعاد المسوت

١ - سورة المائدة آية ٤٨

٢ - سبق تخريجه

٣ - مجموعة الرسائل والمسائل ج ١ ص ٣٥ ، وانظر الجواب الصحيح لمن بدل دين

المسيح ج ١ ص ٥ ، مطبعة المدنى .

٤ - سورة الأنبياء آية ٢٥

٥ - سورة الزخرف آية ٤٥

والحياة وهي أكبر من أبعاد الزمان والمكان ، ولكن هذه الأبعاد كلها تتلاشى هنا أمام الحقيقة الثابتة المطردة ، حقيقة وحدة الرسالة المرتكزة كلها على التوحيد ، وهي كقيلة أن تبرز وتثبت حيث يتلاشى الزمان والمكان والموت والحياة وسائر الظواهر المتغيرة ، ويتلاقى عليها الأحياء والأموات على مدار الزمان متفاهمين متعارفين . . . ومن خلال هذه الحلقة تتجلى وحدة الرسالة ووحدة المنهج ووحدة الطريق (١) .

ويقول في موطن آخر : (بأن التوحيد كان هو قاعدة كل ديانة جاء بها من عند الله رسول ، والقرآن الكريم يقرر هذه الحقيقة ويؤكد ها في قصة كل رسول كما يقررها إجمالاً على وجه القطع واليقين) (٢) .

ولهذا كان التوحيد وصية يوصى بها الأنبياء لمن بعدهم فهم لم يورثوا دهرهما ولا ديناراً ، فوصى إبراهيم الخليل عليه السلام به إسماعيل وإسحاق ووصى يعقوب به بنيه في ساعة موته كما يحكى ذلك القرآن الكريم (٣) .

وعلماء الإسلام كلهم متفقون على هذا ولم يعرف من خالف في هذه القضية ، وأخيراً (فرسل الله تعالى كلهم مطبقون ومجمعون على أن دعوتهم واحدة وهدفهم واحد ، فالأصل الذي إليه يدعون هو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وتخليص الإنسان من أدران الشرك والوثنية أو العبادة لغير الله) (٤) .

١ - في ظلال القرآن ، ج ٥ ، ص ٣١٩١ ، ج ٤ ، ص ٢٣٧٤ .

٢ - خصائص التصور الاسلامي ومقوماته ، ص ٢١٢ - ٢١٨ .

٣ - انظر سورة البقرة آية ١٣٠ وما بعدها .

٤ - الموسوعة في سماحة الإسلام ، محمد الصادق عرجون ، ج ١ ، ص ٢١٤ ،

الناشر مؤسسة سجل العرب ، القاهرة .

المبحث الخامس

التوحيد هو الأصل والشرك طارئ

سبق القول بأن الإنسان عابد ومفطور على العبادة ، فهل كانت العبادة التي فُطِرَ عليها والبداية التي ابتدأ بها حياته الدينية قائمة على وحدة المعبود الحق أم كانت حياة شرك ووثنية وتعدد المعبودات الباطلة ، فظل يتخبط في الضلال واليه حتى وصل إلى توحيد معبوده ؟

وفي الإجابة على هذا التساؤل انقسم الباحثون إلى فريقين يسيران في خطين متعاكسين كما يقول الدكتور عبد الله دراز : (فريق ذهب إلى أن الدين بدأ في صورة الخرافة والوثنية وأن الإنسان أخذ يترقى في دينه على مدى الأجيال حتى وصل إلى الكمال فيه بالتوحيد ، كما تدرج نحو الكمال في علومه وصناعاته . وفريق آخر يقرر بالطرق العلمية بطلان هذا المذهب وثبت بالعكس أن عقيدة الخالق الأكبر هي أقدم ديانة ظهرت في البشر ، مستدلاً بأنها لم تنفك عنها أمة من الأمم في القديم والحديث ، فتكون الوثنيات إن هي إلا أعراض طارئة ، أو أمراض متطفلة بجانب هذه العقيدة العالمية الخالدة ، وهذه هي نظرية فطرية التوحيد وأصالتها التي انتصر لها جمهور من علماء الأجناس وعلماء الإنسان وعلماء النفس) (١) .

وأصحاب القول الأول من غير المسلمين هم دعاة مذهب التطور أمثال (هيرت سبنسر) و (فريزر) و (دور كايم) (٢) وغيرهم من المفكرين الملحدين فيرون بالاستناد إلى الملاحظات القاصرة ودراسة أحوال القبائل البدائية وعلى فروع العلوم الأخرى المساعدة مثل علم النفس وعلم الاجتماع أن عقيدة التوحيد ظهرت متأخرة بالقياس إلى ظهور الوثنية والشرك بعد أن توسعت مدارك الإنسان فشعر أن ما كان يتصوره من وجود قوى روحانية عليها في الأشياء التي عبدها لم يكن سوى وهم وخداع وصار يقتصد في الشرك إلى أن اهتدى إلى عبادة الله (٣) .

١ - الدين ، د . عبد الله محمد دراز ، ص ١٠٧ ، ط ٢ ، دار القلم الكويت

٢ - المصدر السابق ص ١٠٧

٣ - الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، د . جواد علي ، ج ٥ ، ص ٦٠ ،

ومن غير مناقشة لهؤلاء فلا فليس غريبا أن يصند ر مثل هذا القرار عن علماء لم
ينعموا بمعرفة العقيدة الصحيحة منذ نعومة أظفارهم (١) ، فلم يعرفوا إلا ديانة
وثنية محرّفة تقوم على التثليث ، فالعالم الذي عاش بعيدا عن المعاني الحقيقية
لدين الله ، ماذا يمكن أن نتصوّر منه خلاف هذا لا سيما وأنه يضر حقا وكرها
لدين الله أو على الأقل درج في مجتمع يقوم على العلمانية (٢) .

وإذا كان هذا غير مستنكر - تجاوزا - من غير المسلمين ، فإنه يكون من الغريب
أن تجد بعض الكتاب والمفكرين الإسلاميين من ذهب هذا المذهب ، وأخذ بهذا
الرأى ، ومن زلت بهم القدم في هذا المجال الكاتب المشهور (عباس محمود العقاد)
في كتاب له سماه (الله) اقتتحه بقوله : (ترقى الإنسان في العقائد كما ترقى في
العلم والصناعات ، فكانت عقيدته الأولى مساوية لحياته الأولى وكذلك كانت علومه
وصناعاته ... فالرجوع إلى أصول الأديان في عصور الجاهلية الأولى لا يدل على
بطلان التدين ولا على أنها تبحث عن محال ، وكل ما يدل عليه أن الحقيقة الكبرى
أكبر من أن تتجلى للناس كاملة في عصر واحد ، وأن الناس يستعدون لعرفانها عصرا
بعد عصر وطورا بعد طور وأسلوبا بعد أسلوب) (٣) .

ومن هنا فهو يرى كما يرى بعض الملحدّين من علماء الأديان أن البشرية مرّت في
ثلاثة أطوار في حياتها الدينية : الطور الأول دور التعدد ، والطور الثاني دور
التمييز والترجيح ، والثالث هو دور التوحيد وهو نهاية تلك الأطوار كافة في جميع
الحضارات الكبرى (٤) .

-
- ١ - سيأتى بيان ذلك في أسباب الوثنية الحديثة . ص ١٧٠
 - ٢ - معناها الحقيقي اللادينية ، كما سيأتى بيانه في صور الوثنية
الحديثة . ص ٢٥٦
 - ٣ - كتاب (الله) عباس محمود العقاد ص ١٣ ط ٦ ، دار المعارف بمصر
 - ٤ - المرجع السابق ص ٢٨ وما بعدها .

ومنهم طه الهاشمي في كتابه (تاريخ الأديان وفلسفتها) حيث يقول : (تدرج البشر في سلم الاعتقاد من معتقد ساذج إلى معتقد متطور شيئا فشيئا من الوثنية والشرك فانتهى بالتوحيد) (١) ويقول : (لهذا لا غرابة إذا رأينا علماء الأديان ومؤرخيها يسلكون في بحوثهم مسلك التطور ، ويرون أن الدين أيضا ينبغي أن يجاري التطور فيبدأ بحالة بسيطة ثم يأخذ بالتطور نحو التكامل حتى يبلغ مرتبة الأديان السماوية الموحدة) (٢) .

وذهب محمد فريد وجدى إلى القول بهذا الرأي في (دائرته المشهورة) فنقل وجهة نظر علماء الغرب الملحدين كما أطلق عليهم ثم واقفهم على أن أصل الدين التعدد حيث يقول : (الوثنية أقدم الأشكال المعروفة للأديان ، ولدت مع الإنسان ومهما نقبنا في أحوال الأولين رأينا الوثنية أظهر ما كان لديهم من آثار التدرجات ، يقمол الملحدين هذا أصل التدين فأين أثر الفطرة فيه ، وهذا أصل الأديان فأين مكان الوحي منها ؟

يقول وجدى تعليقا على ذلك : (نعم لا ننكر عليكم أن هذا أصل التدين) (٣) .
وأما أنصار القول بأن عقيدة التوحيد هي أقدم ديانة للإنسان وأن الوثنية سحابة صيف تعرض وتزول : فمنهم المسلم وغير المسلم ، وأما بالنسبة لغير المسلمين فهم فريق من العلماء والدارسين المنصفين الذين تجردوا لقول الحقيقة في أكثر المناسبات وإن كانت لهم زلات خطيرة ضد الإسلام بالذات . (٤)

وقد ذكر د راز عدد منهم فقال : ومن أشهر مشاهيرهم (لانج) الذي أثبت وجود عقيدة (الإله الأعلى) عند القبائل الهمجية في استراليا وأفريقيا وأمريكا (وبروكلمان) وجدها عند الساميين قبل الإسلام ، (وشميدت) عند الأقزام وعند سكان استراليا الجنوبية والشرقية ، وقد انتهى بحث شميدت هذا إلى أن فكرة الإله الأعظم توجد عند الشعوب الذين يعدون من أقدم الأجناس الإنسانية) (٥) .

-
- ١ - تاريخ الأديان وفلسفتها ، طه الهاشمي ص ١٣ منشورات دار مكتبة الحياة بيروت .
 - ٢ - المرجع السابق ص ١٣٩ .
 - ٣ - دائرة معارف القرن العشرين ص ٦٣٩ مادة (وثن) .
 - ٤ - من أمثلة ذلك كارل بروكلمان في مقترحاته على التاريخ الاسلامي .
 - ٥ - الدين ، ص ١٠٢ - ١٠٨ ، وانظر الفصل في تاريخ العرب ، جواد على ، ج ٦ ، ص ٣٤ - ٣٦ .

ويقول (ماكس مولر) : (إن الناس كانوا في أقدم عهودهم على التوحيد الخالص فإن الوثنية عرّضت عليهم بفعل رؤسائهم الدينيين بغيا بينهم وفي ذلك دحض لفكرة النشوء والارتقاء التي تدّعى أن الناس عبدوا الأصنام أولا ولم يصلوا إلى التوحيد إلا مؤخرا) (١) .

وأما الموحّدون من علماء الإسلام فكلهم - كما يقول جواد على في تاريخه (٢) - يرى أن الناس كانوا أمة واحدة في الدين وكانوا على التوحيد جميعا ثم ضلوا فعبدوا جملة آلهة وصاروا مشركين .

ومنهم على سبيل المثال لا الحصر المرحوم سيد قطب في تفسيره حيث انتصر لهذا القول في أكثر من موطن من مؤلفاته .

يقول رحمه الله : (هبط آدم إلى الأرض مسلما لله متبعا هداه ، وما من شك أنه علم بنبيه الإسلام جيلا بعد جيل وأن الإسلام كان هو أول عقيدة عرفتها البشرية ففى الأرض ، حيث لم تكن معها عقيدة أخرى . . . ولنا أن نجزم أن هذه الجاهلية طارئة على البشرية بوثنيتها وأساطيرها وخرافات وأصنامها وتصوراتها وتقاليدها جميعا وأنها انحرفت عن الإسلام إليها بفعل الشيطان المسلط على بنى آدم وفعل الثغرات الطبيعية فى النفس البشرية . . . حقيقة أن أول عقيدة عرفت فى الأرض هى الإسلام القائم على توحيد الدينونة والربوبية والقوامة لله وحده وهذا ما يقودنا إلى رفض كل ما يخبط فيه من يسمونهم (علماء الأديان المقارنة) وغيرهم من التطوريين الذين يتحدثون عن التوحيد بوصفه طورا متأخرا من أطوار العقيدة . . . إلى آخر ما تخبط فيه هذه البحوث التى تقوم ابتداء على منهج موجه بموامل تاريخية ونفسية وسياسية معينة يهدف إلى تحطيم قاعدة الأديان السماوية والوحى الإلهى والرسالات التى من عند الله وإثبات أن الأديان من صنع البشر ، وأنها من ثم تطورت بتطور الفكر البشرى على مدار الزمان) (٣) .

(على أية حال هذا هو قول الله سبحانه - وهو أحق أن يتبعه ، وبخاصة من يكتبون عن هذا الموضوع فى صدد عرض العقيدة الإسلامية أو صدد الدفاع

١ - الإسلام والعالم المعاصر - أنور الجندى ص ٢٢٣

٢ - المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٥ ص ٦٠

٣ - فى ظلال القرآن ج ٢ ص ١٨٨٢

عنها ، أما الذين لا يؤمنون بهذا القرآن فهم وما هم فيه والله يقص الحق وهو خير الفاصلين ، فبنو آدم الأوائل نشأوا موحدين لرب العالمين كما كانت عقيدة آدم وزوجته ثم انحرفوا (١) .

ومنهم أنور الجندی بقوله : (يحاول علم مقارنات الأديان أن يصل إلى افتراض يروج له المنهج الغربي العلمي الوافد وهو أن البشرية بدأت في طفولتها بالوثنيات ثم ارتفعت إلى التوحيد وأن الأديان تطورت وتتطور ، وهي فرض باطلة تدحضها النصوص التاريخية والوثائق والحفريات ، ويدحضها القرآن نفسه وهو النص الخالد المؤثق ، فإن آدم أبو البشر كان على علم ، وكان يعرف التوحيد ويؤمن بالإله الواحد ، ومعنى هذا أن البشرية بدأت موحدّة ثم انحرفت ، وأنها وأجهت صراعا بين الأديان الداعية إلى التوحيد والدعوات الهدامة الوثنية ، وكلما انحرفت البشرية جاءت الأديان تردّ الناس إلى التوحيد) (٢) .

وبعد فقد حان الوقت لذكر القول الفصل الذي لا هزل فيه ، قول الله تعالى في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وقول رسوله المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ، ثم ما قاله بعض علماء السلف في هذه المسألة .
ويلاحظ القارىء بأننى قد أخرت ذكر ما حقه التقديم والصدارة ، فلعل في ذلك غاية لي وهي أن يكون القول الفصل بمنزلة المرجع والحكم في مسائل الخلاف كما قال تعالى : (فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) (٣) .

ولهذا وبعد أن عرضت النزاع في هذه المسألة فأجيب أن يكون مردّ الأمر ونهايته إلى كتاب الله وسنة رسوله .
قال تعالى : (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه) (٤)

١ - في ظلال القرآن ج ٣ ، ص ١٣٠٥ بتصرف

٢ - أخطاء المنهج الغربي الوافد في العقائد والتاريخ والحضارة واللغة والأدب

والاجتماع ، أنور الجندی ، ص ٧٤ ، ط ١ ، دار الكتاب اللبناني .

وانظر له كذلك سقوط العلمانية ص ١٠٣ ، طبعة أولى .

٣ - سورة النساء آية : ٥٩ .

٤ - سورة البقرة آية : ٢١٣ .

وفى قراءة عبد الله بن مسعود رضى الله عنه (كان الناس أمة واحدة فاختلّفوا) .
وقال تعالى فى سورة يونس : (وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلّفوا) . (١)
فإذا كان القرآن يفسر بعضه بعضاً ، والقراءات القرآنية المعتمدة تفسر كذا لك
بالنقل لا بالرأى ، كلُّ هذا يقطع بأن الناس كانوا أمة واحدة على التوحيد إلى أن
وقع الاختلاف وعبد من دون الله ما لا يستحق العبادة ، وظهر الشرك على وجه
الأرض .

هذا هو الحكم الصحيح والقول الصواب ، وهو ما عليه جمهور علماء السلف ، وأن
الرأى المنسوب إلى ابن عباس رضى الله عنه (أن الناس كانوا على الشرك والضلال) لم
يصحَّ ، وهناك رواية عنه أقوى سنداً تؤكد أن الناس كانوا على التوحيد والحق حتى
اختلفوا وعبدوا الأوثان فبعث الله الرسل ليردّوهم إلى التوحيد من جديد .

ذكر ابن كثير رحمه الله فى تفسيره عن ابن عباس قال (كان بين نوح وأدم عشرة قرون
كلهم على شريعة من الحق ، فاختلّفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) (٢) .
ثم ذكر ابن كثير رواية العوفى عن ابن عباس (كان الناس أمة واحدة) يقول :
كانوا كفاراً (فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) فقال : (ما رواه العوفى عن ابن
عباس لا يصحُّ عن ابن عباس لأن العوفى ضعيف لا يحتجُّ به)

وصححه الله
ووصل ابن كثير إلى القطع بأن (٣) : (القول الأول عن ابن عباس أصحُّ سنداً ومعنى
لأن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام ، فبعث الله إليهم نوحاً عليه السلام
فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض) (٤) .

١ - سورة يونس آية : ١٦ .

٢ - ذكره ابن جرير فى تفسيره ج ٤ ص ٢٧٥ بتحقيق أحمد شاكر ، ورواه الحاكم ج ٢
ص ٥٤٦ ، وقال صحيح على شرط البخارى ووافقه الذهبى (انظر تحذير

الساجد للألبانى) ص ١٤٧ .

٣ - الرازى كذلك قد رجَّح القول بأن

الأصل هو التوحيد وانتصر له بمجموعة من الأدلة ، انظر تفسير الرازى المشتهر

بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب ج ٦ ص ١١ - ١٣ ، ط ١ ، دار الفكر بيروت .

٤ - تفسير القرآن العظيم ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشى ، ج ١

ص ٤٤٣ ، دار الفكر بيروت ط ٢ ، وانظر البداية والنهاية له ج ١ ص ١٠١ ،

ط ٢ ، مكتبة المعارف بمصر .

وقد أكد ابن القيم^{رحمه الله} على أن التوحيد هو الأصل فقال^(١) : (وهذا القول - يعنى القول الأول المنسوب إلى ابن عباس وهو أن الناس كانوا على الشرك والكفر - ضعيف جدا وهو منقطع عن ابن عباس والصحيح خلافه ، قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة حدثنا شيبان بن فروخ حدثنا همام حدثنا قتادة عن عكرمة عن ابن عباس قال : كانوا على الإسلام كلهم ، وهذا هو الصواب قطعاً فإن قراءة أبي بن كعب (وابن مسعود) (فاختلفوا) فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين (تؤكد ذلك ويشهد له هذه القراءة : قوله تعالى في سورة يونس : (وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا)^(ج) وابن القيم في قوله بأن التوحيد هو الأصل والشرك عرض طارئ ، تابع في ذلك لشيخ الإسلام حيث يقول (إن الناس كانوا بعد آدم وقيل نوح عليه السلام على التوحيد والإخلاص كما كان عليه أبوه آدم أبو البشر عليه السلام حتى ابتدوا الشرك وعبادة الأوثان بدعة من تلقاء أنفسهم لم ينزل الله بها كتاباً ولا أرسل بها رسولا ٠٠٠ وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ، قال ابن عباس كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام)^(٢) .

وقال الألويسي^{رحمه الله} : (في تفسير عطية عن ابن عباس أنهم كانوا على الكفر هذا ليس بشيء ، لأن تفسير عطية عن ابن عباس ليس بثابت عن ابن عباس ، بل قد ثبت أنه قال : (بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام) .

قال تعالى في سورة يونس : (وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا) .
فدّمهم على الاختلاف بعد أن كانوا على دين واحد فعلم أنه كان حقاً^(٤) .
وأما الأحاديث النبوية الشريفة التي تدل على هذه القضية وتؤكد أن الناس فطروا على التوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له ، ثم انحرفوا ومالوا إلى عبادة الأوثان واتبعوا أمر الشيطان فهي كثيرة ومنها :

-
- ١ - إغاثة اللهفات - ابن القيم - ج ٢ - ص ٢٠٠ - ٢٠٥ ، طبعة أنصار السنة بمصر .
 - ٢ - سورة يونس آية ١٩
 - ٣ - مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ٢٠ ، ص ١٠٦ ، وج ٢٨ ، ص ٦٠٣ ، وانظر ج ١ ، ص ١٦٢ .
 - ٤ - انظر : غاية الأمانى في الرد على النبهانى ، محمود شكرى الألويسى ، ج ٢ ، ص ١١٤ ، المطبعة العربية ، لاهور .

١ - قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه : (إنى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا) (١) .

٢ - قوله صلى الله عليه وسلم : (ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ قال أبو هريرة : وقرأوا إن شئتم (فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم) (٢) .

وهكذا فإن القول الصواب والأولى بالاعتقاد أن أصل التدين عند البشرية كان هو التوحيد الخالص ثم طرأ عليها الشرك ومالت إلى عبادة غير الله ، دل على هذا القرآن والسنة وأقوال سلف الأمة وعلمائها الأفاضل فى القديم والحديث ، وما توصل إليه الباحثون فى تاريخ الأديان ، وما أثبتته الحفريات فى آثار الأمم الغابرة وما قاله بعض المختصين من رجال الفكر والفلسفة من غير المسلمين ، (وما يدل عليه واقع الحياة التى تعيشها كثير من القبائل المهجية البدائية التى مازالت تعيش فى عصرنا الحاضر فى مناطق من العالم حيث إنه دلت الدراسات أنها على همجيتها وما وراثتها ، لها أفكار دينية تشير إلى وجود عقيدة الإله الأكبر) (٣) .

ولهذا فإن القول بالتعدد يعتبر مخالفا للعقل الصحيح والمنطق السليم .
(وما قال من قال بالتعدد إلا عن عقلية بدائية ابتدائية وفكرة وثنية وتصور خيالى مصطنع ، بعيد عن التحقيق مصادم للعقل ، فلم يبق فى الدنيا من يلتزم العقل والمنطق يقول بالتعدد) (٤) .

١ - رواه مسلم ، وقد سبق تخريجه .

٢ - متفق عليه ، وقد سبق تخريجه .

٣ - الديانات والعقائد ، أحمد عبد الغفور عطار ، ج ١ ص ١٥ ، ١٨ .

٤ - (الله جل جلاله) سعيد حوى ، ص ١٣٢ ، ط ٣ .

بقى أن أقول بأن فرية القول بتطور الدين والعبادة ومرورها بمراحل متعددة حتى وصل الأمر إلى توحيد المعبود ، لا تصدق على الدين الذي ارتضاه الله لنا ، والذي بعث به رسله وأنبياءه وفطر عليه الخلق منذ خلقهم ، لأن ديانة التوحيد ليست من وضع البشر ولا من صنعهم حتى تتطور وترقى بتطورهم ورفقيهم المبادئ ولكنها فطرة فطرها الله الذي قال : (إن الدين عند الله الإسلام) (١) وقال : (ومن یتغیر الإسلام دینا فلن یقبل منه وهو فی الآخرة من الخاسرين) (٢) .

فالذي یتغیر غیر الإسلام دینا سواء فیما مضى من الزمان أو فیما هو واقع إلى یوم القيامة فإنه من الخاسرين .

وإذا صدقت نظرية تطور الدين — وهي ليست بصادقة — فإنما تصدق على الديانات الوثنية التي انحرفت عن التوحيد وتطورت بتطور المتعبدین بها وتعقدت تبعاً لتطورات حياتهم ، حتى وصلت إلى مرحلة راقية من العبودية ، واتجهت لمعبود واحد ، وفي أغلب الأوقات لم يكن هو الله تعالى المستحق للعبادة .

يقول سيد قطب : (والذين يزعمون أن الأديان تطورت وترقت بتطور البشر وترقيهم لا يفرقون في هذا بين ديانات هي من تصورات البشر أنفسهم كالوثنيات كلها قديماً وحديثاً ، ترتقى وتنحط بارتقاء أصحابها وانحطاطهم ولكنها تظل خارج دين الله كله ، وبين ديانات جاء بها الرسل من عند الله ، وهي ثابتة على أصولها الأولى ، جاء بها كل رسول فتقبلتها فئة وعتت عنها فئة ، ثم وقع الانحراف عنها والتحرير فيها فعاد الناس إلى جاهليتهم في انتظار رسول جديد بذات الدين الواحد الموصول) (٣) .

وأظن أنه لا يخفى على عاقل أن القول بتطور العقيدة الدينية عند الإنسان ، يسمى لهدم الدين من أصوله حيث يؤدي ذلك إلى الاعتقاد بأن الدين عبارة عن مجموعة من أساطير الماضي وخرافات الأقدمين وضلالاتهم ، وفضى هذا أخيراً إلى التحلل من الدين وتعاليمه والخروج على مبادئه ورفضه منهاجاً للحياة بحجة أنه من الموروثات البالية المستمدة من الأوهام والخيالات للأمم السابقة في فترة من فترات

١ — سورة آل عمران آية ١٩

٢ — سورة آل عمران آية ٨٥

٣ — في ظلال القرآن ، ج ٢ ، ص ١١٤٥

الجهل وانحطاط العقل ، أما وقد انتشر العلم وتفتحت مدارك العقل وسبل الرشاد فإنه بيد وأن لا حاجة لهذه الموروثات ولا داعى لمراعاة تلك الأساطير والخرافات ، مما يروّجه دعاة الوثنية الحديثة .

ومن هنا تظهر لنا خطورة هذا الرأى ومصادمته لدين الله الحق ، ونشره الإلحاد والتحلل من الدين ، وأظن أن مثل هذه المحاولات ذات صلة وثيقة بأفاميل اليهود الذين لا يتصيدون إلا فى ماء عكر وليل داس وتحلل شامل من ضوابط الدين والأخلاق .

وهذا ما وقعت فيه أوروبا ومازالت ، بسبب فساد عقيدتها النصرانية وتحريفها فارتدت فى الوثنية على أعقابها من جديد .

وإذا تبين لنا أن التوحيد هو الأصل والشرك طارئ على حياة البشر ، فإنه من المناسب الإشارة إلى نشأة الوثنية وبدأيتها ، وسأجعل هذا فى الفصل الثالث عند الحديث عن أسباب الانحراف عن التوحيد إلى الوثنية .

XXXXXXXXXXXXXXXXXX

البحث السادس

أهمية التوحيد في حياة الفرد والمجتمع

لا شك أن الإنسان يتأثر بنوع العقيدة التي يعتقد ها ، والدين الذي يلتزم به في حياته ، ولو كانت العقيدة من بنات أفكاره وكان الدين من وضعه وانتحالها وإذا كان الأمر كذلك فإنه مما لا شك فيه أن العقيدة إذا كانت رنانية والدين من لدن حكيم خبير ، فإن ذلك يؤثر في حياة الإنسان تأثيرا خاصا ويطبعمها بطابع متميز بحيث يكون الفرد المتدين بعقيدة التوحيد نموذجا فريدا في المجتمع الإنساني الذي يدين لهواه ويتبع ما تمليه عليه العقائد الوثنية الباطلة .

وإنه لمن المناسب أن أفرد هذا البحث لبيان أثر عقيدة التوحيد وأهميتها فسي حياة الإنسان كفرد ومجتمع متكامل ، خصوصا في هذه الأحوال المادية والحياة التي غلبت عليها كثير من المعاني والقيم والأخلاق والبدائى والتصورات الوثنية الحديثة مما جعل الكثير ممن يدعون التقدم والتحضر ومواكبة ركب الحضارة والعلم وغلبت عليهم الوثنية يهون من أمر الدين ويعتبره أمرا جانبيا ومجرد علاقة يعقد ها الإنسان إن شاء ذلك مع خالفه لا أثر له ولا أهمية في الحياة حتى أصبح الدين في غربة بين أتباعه ، وأعرضوا عنه إلى شتى المذاهب الفكرية والتصورات العقلية والمناهج الوثنية المعاصرة .

ولهذا وغيره كان لابد من إشارات ولوعابرة ، أشير بها إلى الدور الكبير الذي تؤديه العقيدة الصحيحة - عقيدة التوحيد - حين يلتزم بها الفرد والمجتمع ، ويخلصون لها في جميع شؤونهم .

وقد رأيت أن أجعل الحديث في هذا على فرعين : الأول فيما يخص الإنسان فردا ، والآخر فيما يخص المجتمع عموما .

(أ) أهمية التوحيد في حياة الفرد :

إن الأمور التي ينشد ها الفرد في حياته ويسعى إلى تحقيقها والوصول إليها كثيرة جدا ، فهو ينشد السعادة والراحة والطمأنينة وعزة النفس وكرامتها ويبحث عن أسلوب يوصله إلى خالقه الذي فطر على الإقرار به والإذعان إليه والحاجة له في كل شيء ، ينشد أشياء كثيرة ربما يكون من الصعب أن أحيط بها وأحصيها عددا . هذه التطلعات هي التي يهتم بها الإنسان السوي ، بخلاف أولئك الشواذ ، وحثالات البشرية الذين لا يعرفون إلا إشباع شهوة البطن والجنس ، يأكلون ويلبسون ويمتعمون كالأنعام إذا ملأت بطونها ، أو كما تعيش الذئب والعمادى إذا جاعت فلا يحدّها حدٌ ولا يضبطها ضابط ، حتى تهلك أو تصل لشهوتها ورغبتها ، فهم لا يتطلعون ولا يفكرون بشيء من ذلك سوى ما تدفعهم إليه الغرائز الشهوانية .

وفيما يلي أهم ما يحققه التوحيد في حياة الفرد :

١ - التوحيد يكفل للإنسان تحقيق السعادة التي ينشد ها دائما ، فرى حلم يراود الإنسان على مختلف مستوياته ، فكما يطلبها الغنى ويسعى جاهدا في البحث عنها فهي كذلك مما يخامر عقل الفقير في ساعة نومه ويقظته ، وكما هي مطلب الكبير العاقل فهي في الوقت عينه أمل الصغير الذي لم يناهز الحلم ، وكما هي ^{من}مطمح الشباب فهي من أعز بقايا أمانى الشيخ الهرم ، وكما هي مما يفكر فيه الفلاسفة وكبار العلماء فهي الشغل الشاغل للعالمى الساذج ، ومن المؤكد أنه لا يوجد أحد لا يفكر فيها كما أنه لا يوجد من يسعى لشقاء نفسه وإتعاسها .

(فالإنسان خلق محتاجا إلى جلب ما ينفعه ، ونفع ما يضره) (١) .

وإذا كانت السعادة على هذه الدرجة من الأهمية ، فأين يمكن أن نجد ها ؟ أو أين وجد ها الإنسان من خلال حياته ونحته ؟

يسعى الإنسان دائما نحو تحقيق سعادة نفسه وراحتها ويبحث عن السبيل والأساليب التي يصل بها إلى ذلك الهدف المنشود من الراحة والهدوء والطمأنينة والبعد عن مكدرات الحياة ومنغصات العيش ، وقد جرب في سبيل تحقيق هذه الغاية كل الأسباب التي ظنها أو توهم أنها مصدر الهناء وطمأنينة النفس .

والإنسان في كل جاهلية من جاهليات التاريخ لا يعرف الأسباب المادية سبيلا

لتحقيق هذه السعادة ، ولا يلتفت إلى المصدر الحقيقي لها .

فهو يظن أن السعادة تتحقق له عن طريق الغنى وجمع المال ، أو فى شهوة الجنس والجمال الفاتن ، أو ببلوغ أعلى المناصب وأرقى المراتب والوظائف ، أو فى الانطلاق والتحرر من كل القيود ، ويظنها — وكما تروّج له الشيوعية — فى المأكل والمشرب والسكن ، يظنها فى كل شىء من هذه الماديات الجافة والأسباب الخارجية التى لا تلبى بوحدها حاجات النفس البشرية التى تركبت فى أصل وجودها من جوهرين رئيسيين هما :

المادة والروح ، وإن التركيز على أحد الجانبين وإهمال الآخر يسبب انفصاما للنفس ويحدث فيها فجوة عميقة لا يسدّها إلا توافق المادة مع الروح واتزانها .

وخير دليل لنا على صدق ما نقول — لا من الماضى المحيق — بل من التاريخ المعاصر هذا الواقع الجاهلى والحياة الوثنية التى يعيشها الناس اليوم فى ظل المادية الجامحة والحضارة المتطورة ، حيث إنه قد تهيأت للإنسان فيها كل السبل المادية التى يظن الجاهليون أنها أسباب السعادة وسبل الراحة والطمأنينة والعيش الرغيد ، فالمال والشهرة والشهرة والمناصب والسلطة والزعامة والرياسة والحرية المطلقة من كل القيود ، والنساء والخمرة وجميع الملذات الجسدية ، والوسائل المتطورة ، والوفرة فى كل شىء من مطالب الجسد التى يعنى وراءها المستعبدون لهوى النفس ورغبة الشيطان ، كل ذلك قد تحقق وتوفر بشكل لا أظنه قد حصل فيما مضى ولا أحسب أنه سيكون أكثر منه فيما بعد .

فقد فتحت الدنيا على أوسع ما يمكن وتنافسها الناس تنافسا ليس بعده تنافس ، وتمها لكوا عليها حتى صاروا عبيدا لكل ما فيها ، فخسروا كل شىء وأعز شىء وهو الكرامة الإنسانية ، ولم يصلوا إلى السعادة ذلك الشبح الذى صار فى حسبهم وكأنه شىء من الخيال ، ولم يزدادوا إلا تخبطا وكآبة واضطرابا وقلقا وحيرة وحسرة وألما وتعاسة وشقاء وتشاؤما من الحياة وشعورا بالضعف والانهزام . فازدادوا سوءاً على سوء ضياعا فوق ضياع .

وقد دفعهم كل هذا إلى البحث عن المخرج ، فاستغرق البعض اللذة والشهوة والمتاع الحسى لأن ذلك الحيلة الوحيدة والطريق الذى يراه ، فحاز على الثروة والجاه والجمال والمنصب الرفيع ، وغيرها من عوامل الشهرة والمجد والنجاح التى تتوق إليها النفوس وتتقطع دون الحصول عليها الأنفاس ، فلما بلغ ما تمنى وطلبه لم يفسن عنه ذلك شيئا ، ولم يحقق إلا مزيدا من الأسى والشقاء والإحساس بالتهدم الداخلى والمبودية الذليلة ومقيد داخل النفس حاجة — وهى أصيلة — لم تأخذ

رغبتها التي لا تحققها إلا العبودية الحقة الصادقة لله تعالى وحده لا تنازعها عبودية
لشيء آخر .

وجنح البعض إلى تفضيل الغياب عن هذه الحياة ، إما غيابا تاما وهو الموت
بالانتحار ، وإما غيابا مؤقتا عن طريق المخدرات وسائر المسكرات .
وما يد هشا الناظر في قوائم الإحصاء لأعداد المنتحرين في الدول الوثنية ، أنه
يجد الأعداد المذهلة والتي دائما في ازدياد مستمر ، ويجد كذلك أن من بين
الذين يُقدّمون على هذه الجريمة ، شخصيات كبيرة مشهورة حازت على ثروة وسلطان
عظيم ، ولكنها لم تحصل على السعادة وراحة النفس واستقرارها .
ولا أستطيع هنا أكثر من أن أختار بعض النماذج من الأسماء التي آثرت الموت
اختيارا في سبيل الخلاص من العبودية الذليلة التي يشعرون بها ويقاسون آلامها .
فمنهم الأمير رودولف وولي عهد النمسا وعشيقتة ، انتحرت عام ١٨٨٩ م باطلاق
الرصاص على نفسه .

ومنهم السير جون فيشر المسؤول البريطاني الشهير ، وانتحرت معه زوجته «ماريا»
راقصة الأوبرا الشهيرة .

ومنهم «هتلر» وزميله «المارشال غورنيج» ، ومنهم الشاعر الأمريكي المشهور «راندل جاويل»
والشاعر الألماني «كلايست» ، ونجمة السينما «مارلين مونرو» وتولر الكاتب المسرحي الإيطالي
ومنهم المستشرق اللغوي «كراوس» الذي كان يعمل أستاذا في جامعة عين شمس بمصر .
ومنهم «مايكوفسكي» و«ايسنين» و«باجر تسكي» وكلهم من كبار الأدباء في روسيا الشيوعية (١) .
وفي كل يوم تكشف الأحداث والتقارير أن الانتحار أصبح ظاهرة مألوفة شملت
كثيرا من الفنانين والشعراء والمؤلفين وكبار الساسة والمفكرين والأدباء والرأسماليين
فضلا عن عامة الأفراد الذين يعيشون ويموتون كما تموت أحقر المخلوقات من البهائم
وسائر الدواب في الأماكن النائية .

وأما الفريق - وهو الأكثر عددا - الذي آثر الغياب المؤقت عن هذه الحياة
المادية ، فقد أتجه إلى المخدرات ، ومعاقرة الخمر والإدمان على شرب المسكرات
ليبتعد ولو لمجرد ساعات من ليل أو نهار عن الواقع الكئيب الذي يعيشه ، وهذا

١ - انظر في هذا كتاب : الموت اختيارا د . فخرى الدباغ .

ورسالة الفراغ الروحي وأثره على البشرية إعداد جميل عبد المحسن قرارعة

ج ١ ص ٢٦٩ - ٢٧١ ، ٤٠٠ - ٤٠٣ .

التصرف الجاهلى يعتبر مؤشرا واضحا وخطيرا على سوء الحالة النفسية التى يحياها هؤلاء المترفون والمنعمون والسادة المخمورون .

والإحصائيات المهمة بشؤون المخدرات والخمرة وكافة المسكرات تبعت على الدهشة وتندربسوء العاقبة التى تنتظر الدول العلمانية جميعها ، فهى تشير إلى أن عدد المدمنين على المخدرات قد ارتفع إلى حوالى عشرة ملايين مُدمن فى الولايات المتحدة الأمريكية وحدها ، وأن حوالى ثلاثين فى المائة من أسرة المستشفيات فى فرنسا يشغلها مرضى الإدمان والمخدرات (١) .

وإلى جانب هذا فقد كثرت - فى المجتمعات الوثنية المعاصرة - مظاهر القلق وحالات الجنون والأمراض العصبية والاضطرابات العقلية والنفسية بين الذكور والإناث وعلى كافة مراحل العمر خصوصا بين الشباب ومادون الأربعين ، وأصبحت وسائل العلاج النفسى عاجزة عن أن تفعل شيئا ذا قيمة أمام الزيادة المستمرة والمذهلة لأعداد المرضى النفسيين (٢) .

أضف إلى ما سبق تلك الجرائم وحوادث السلب والنهب والمارقة والسطو ومشاعر الرعب التى يثيرها هؤلاء فى النفوس ، ولم ترد عنهم القوانين الوثنية ولم تمنعهم الأحاسيس القومية و المشاعر الوطنية ولا سلطة الرأى العام .

ناهيك عن اضطراب الحياة الأسرية التى بات يهددها الطلاق من جهة والخيانات الزوجية من جهة أخرى ، وتحديد النسل والعزوف على الزواج من جهة ثالثة ورابعة (٣) .

وربما ظن البعض أن السعادة يمكن تحقيقها لدى معبودات باطلة يتقرب إليها ويقدم لها قربان الطاعة ومظاهر العبودية ظنا منه أنها تؤثر فى سعادته وشقاؤه

١ - انظر الخمرة بين الطب والفقہ ، محمد على البارص ٢٠٧

والمسكرات بين الشرائع والقوانين الجنائية ، اسماعيل الخطيب ص ٤٣

ورسالة الدكتوراه فى الفراغ الروحى ، جميل قراره ج ١ ص ٣٢٥ - ٣٨٥ .

٢ - انظر : خطر التبرج والاختلاط ، عبد الباقي رضون

ورسالة الفراغ الروحى ، ج ١ ، ص ٣٩٤ - ٣٩٩ .

٣ - انظر فى هذا : السلام العالمى والإسلام ، سيد قطب ، وخطر التبرج والاختلاط ،

والفراغ الروحى ، ج ١ ، ص ٢٨٩ - ٣٢٢ .

وتجلب له النفع وتدفع عنه الضر ، فتراه تارة عاكفا على قبر من قبور الصالحين ملتجئاً إليه في الشدة ، والملمات يرجوه ويدعوه ، وتجده حيناً آخر مستسلماً بين يدي دجال مدع للولاية يوجهه كيف يشاء ، وتراه حيناً آخر أسيراً للأوهام والخيالات والخرافات تتقاذف الأهواء وتتجاذبه الرغبات بين هذه العبوات هائماً مضطرباً ليس له من الأمر شيء ، كما قال تعالى : (ضرب الله مثلاً رجالاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) (١) .

قال سيد قطب^{رحمه} : (يضرب الله المثل للعبد الموحّد والعبد المشرك بعبادة يملكه شركاء يخاصم بعضهم بعضاً فيه ، وهو بينهم موزع لكلّ منهم فيه توجيه ولكلّ منهم عليه تكليف وهو بينهم حائر لا يستقرُّ على نهج ولا يستقيم على طريق ولا يملك أن يرضى أهواءهم المتنازعة المتشاكسة المتعارضة التي تمزق اتجاهاته وقواه ، وعبد يملكه سيّد واحد ، وهو يعلم ما يطلبه منه ، ويكلفه به فهو مستريح مستقر على منهج صريح (هل يستويان مثلاً) ؟ إنهما لا يستويان) (٢) .

كلُّ هؤلاء وأولئك لم يحققوا السعادة المنشودة والطمانينة النفسية ، وذلك لأنهم لم يقموا على مكنها .

نعم هذه هي النتيجة الطبيعية التي تنتظر العابدين لغير الله ، من جاءه أو مال أو سلطان أو شهوة أو شيطان أو دجال أو وثن من الأوثان ، وذلك ما عبّر عنه سبحانه وتعالى بقوله في محكم التنزيل : (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْي) (٣) .

وما غناه رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله : (تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ والدِ رَهْمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالخَمِيصَةِ ، تَعَسَّ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَقَشَ) (٤) .

فما هذا الضنك في العيشة والنهم والشره والجشع ، وما هذه التعاسة التي تتخبط فيها الدول الأوروبية والشعوب الوثنية إلا نتيجة من نتائج العبودية لغير الله .

١ - سورة الزمر آية ٢٩

٢ - في ظلال القرآن ج ٥ ص ٤٩ ٣٠

٣ - سورة طه آية ١٢٤

٤ - رواه البخاري في الجهاد ٧ ، وفي الرقاق ١٠ ، وابن ماجه في الزهد ٨

ولو سألنا أهل الإيمان بالله وحده ، والخاضعين لسلطانه والعابدين له من غير شريك عن الراحة والطمأنينة التي تعمر صدورهم والسعادة التي تملأ قلوبهم ؟ فماذا عساهم قائلين ؟ لا شك أنهم سيقولون ما قاله الله تبارك وتعالى : (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب) (١) .

نعم إن الموحدين المخلصين لله عبادتهم يحسون بمشاعر السعادة الحقيقية في قرارة النفوس ، وبذوق حلاوة الطمأنينة والراحة التي استكتت في أعماق القلوب ، وإن لم يكونوا من أرباب المسال وذوى الجاه والسلطان ، أو لم يتحصّلوا على ما يشتهونه من لذات جسدية ومطامع دنيوية ، فقد عجز عنها بلال - رضى الله عنه - وهو تحت السياط ملقى فوق رضاء مكة بقوله : (أحد أحد) (٢) .

وجلاها خبيب بن عدى - رضى الله عنه - عند مقتله بقوله (٣) :

فوالله ما أرجو (٤) إذا ميتٌ مسلماً

على أى جنب كان فى الله مصرعى

فلمستُ بعبدٍ للعبد وتخشعاً

ولا جزعاً إنسى إلى الله مرجعى

فإنسان المؤمن الموحّد لله تعالى يعلم أن أسباب السعادة والطمأنينة كلها بيد الله تعالى وليست بيد أحد سواه ، وإذا أيقن المرء - كما يقول ابن القيم - (بأن الله على كل شيء قدير وأنه المتفرد بالأختيار والتدبير وأن تدبيره لعبده خير من تدبير العبد لنفسه وأنه أعلم بمصالحه من العبد وأقدر على جلبها وتحصيلها منه وأنصح للعبد منه لنفسه وأرحم به منه لنفسه وأبرّ به منه بنفسه) وعلم أنه لا يستطيع أن يتقدم بين يديه تدبيره خطوة واحدة ولا يتأخر عن تدبيره خطوة واحدة ولا يتأخر عن تدبيره خطوة واحدة ، فلا متقدم له بين يديه قضاءه وقسده ولا متأخر . فألقى نفسه بين يديه وسلم الأمر كله إليه وانطرح بين يديه انطراح عبده .

١ - سورة الرعد آية ٢٨

٢ - انظر السيرة النبوية لابن هشام ، ج ١ ص ٣١٨ ط ، تحقيق السقا

والابيارى وعبد الحفيظ شلبى .

٣ - المرجع السابق ج ٣ ص ١٢٦ .

٤ - أرجو ، أخاف .

مملوك ضعيف بين يدي ملك عزيز قاهر . له التصرف في عبده بكل ما يشاء وليس للعبد التصرف فيه بوجه من الوجوه .

فاستراح يومئذ من الهموم والغموم والأنكاد والحسرات وحمل كل حوائجهم ومصالحهم من لا يبالي بحملها ولا يثقله ولا يكثر بها فتولاها دونه ، وأراه لطفه وبره ورحمته وإحسانه فيها من غير تعب من العبد ولا نصب ولا اهتمام منه لأنه قد صرف اهتمامه كله إليه وجعله وحده هممه فصرف عنه اهتمامه بحوائجه ومصالح دنياه ، وفرغ قلبه منها فما أطيب عيشه وما أنعم قلبه وأعظم سروره وفرحه (١) .

(ورد الأمر إلى مشيئة الله وحده تنسكب في القلب الطمأنينة) (٢) .

(والعبد كلما كان أذل لله وأعظم افتقارا إليه وخضوعا له كان أقرب إليه وأعز له ، وأعظم لقدره ، فأسعد الخلق أعظمهم عبودية لله) (٣) .

وذلك (فالذين يتخذون من غير الله إلها محرومون من الاستقرار والطمأنينة الحقيقيتين كالطفل اليتيم الذي يحاول أن يتخذ من مصنوعات البلاستيك أمما له) (٤) .

تلك هي الحقيقة أن (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) (٥) .

٢ - التوحيد يحقق الحرية ويحفظ العقل من قيود الوثنية :

الحرية مطلب من مطالب الإنسان ، لا تقل أهمية عن السعادة التي يسعى إليها دائما ، بل ربما كانت السعادة من نتائج الحرية وآثارها ، فالإنسان بطبعه يأنف القيود والسلاسل ويعشق الحرية ولا يجب أن يكون خاضعا لسلطان أحد من بني جنسه ، وقد عانى الإنسان الكثير في سبيل الوصول إلى هذه الحرية .

والناس وإن خلقوا أحرارا فإنهم لم يلبثوا أن أوقعوا أنفسهم في الذل والعبودية

١ - الفوائد / ابن القيم / ص ١١٤ / دار الفكر

٢ - في ظلال القرآن ، ج ٦ ، ص ٤٠٠٣

٣ - مجموع الفتاوى ، ج ١ ، ص ٣٩

٤ - الإسلام يتحدى / وحيد الدين خان / ص ١٥٦ / ط ٦ / مكتبة القرآن

القاهرة .

٥ - سورة الانعام آية ٨٢

لغة من البشر أو لمظهر من مظاهر الطبيعة أو للأوهام والخرافات والتقاليد الباطلة
فصاروا عبيدا في أثواب أحرار .

يقول حسن الترابي : (من البشر فريق عظيم يرزحون في الوثنية الجاهلية
تستعبد لهم مظاهر الطبيعة التي تكنف حياتهم فيتخذونها آلهة يصرفون إليها كثيرا
من الجهد عبادة وقربى وينخذلون عن كثير من مجالات العمل خوفا منها ، وتستبدُّ
بهم الخرافة والأوهام وتأسرهم ظروف الحياة الفطرية فالوثني مثلا يقدر الحيوان
وينسخ له ، وإنما خلق الحيوان لخدمة الإنسان يتخذه مأكلا ومشربا ومحملا وجمالا
(والأنعام خلقها لكم فيها دفاً ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون
وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم
بكم لرؤوف رحيم) (١) .

(وهو يحاصر نفسه بالمحظورات الموهومة ويحرمها من منافع الطبيعة ومتاعها ،
فقد كان العرب في الجاهلية فريسة الكثير من التصورات التي تنسب للطبيعة قوة
غيبية على الإنسان فحزَّروهم الدين الإسلامي - دين التوحيد - من رقة الاعتقاد في
الهيبة والكهانة والخوف من أوضاع الكواكب وخسوفها والتعبد للأصنام والأوثان) (٢) .

وقد تبين لنا أن الإنسان عابد بطبعه فإذا لم يتوجَّه بعبادته للخالق المستحق
للمعبادة فإنه لا محالة سيقع في عبودية غيره ، وقد كان ذلك عبر تاريخ الإنسان الطويل
فكلما انحرف عن عبادة الله سبحانه وتعالى انحطَّ في درجات من العبودية والسذل
لمعبودات لا تستحق أدنى احترام أو تقدير أعظمها أن يكون المعبود بشرا من جنس
عابده ناهيك عن غيره من المعبودات الواهية من شجر أو حجر أو كواكب أو خيصال
ووهم أو عادة وتقليد .

وكلما ركن الإنسان إلى هذه المعبودات وقنع بها من دون الله فقد حرَّته وصار
في ذلٍّ وعبودية تتجاذبه تلك المعبودات وتتقاذفه الأهواء يَمَنَّةً وَمَسْرَةً ، فلم يعد
صاحب إرادة أو قوة وعزيمة ، لا يفعل أو يترك إلا بهوى معبوداته وتوجيهها ورغبتها
فعاث الإنسان مزلقا مفرقا الأمور .

١ - سورة النحل آية ٥ - ٧

٢ - الإيمان وأثره في حياة الإنسان / د . حسن الترابي / ص ٥٣ ، ط ٤ ،

دار القلم ، الكويت .

رحمه الله

يقول سيد قطب: (إن الذين يستنكفون أن يكونوا عبيداً لله وحده ، يقعون من فورهم ضحايا لأحطّ العبوديات الأخرى يقعون من فورهم عبيداً لهواهم وشهواتهم ونزواتهم فيفقدون من فورهم إرادتهم الضابطة التي خصّ الله بها نوع الإنسان من بين سائر الأنواع ، وينحدرون في سلم الدواب فإذا هم شرُّ الدواب وإذا هم كالأنعام بل هم أضلّ ، وإذا هم أسفل سافلين بعد أن كانوا - كما خلقهم الله - فسي أحسن تقويم .

كذلك يقعون في شر العبوديات الأخرى وأحطّ بها ، يقعون في عبودية العبيد من أمثالهم ، ويصترفون حياتهم وفق هواهم ، ووفق ما بيد ولهم من نظريات واتجاهات قصيرة النظر مشوبة بحب الاستعلاء ، كما هي مشوبة بالجهل والنقص والهوى ، ويقعون في عبودية الحتميات التي يقال لهم : ^{لا قبل لهم بها} ^{إنه} ^{وإنه لا بد} من أن يخضعوا لها ولا يناقشوها (حتمية التاريخ) و (حتمية الاقتصاد) و (حتمية التطور) وسائر الحتميات المادية التي تُمرّغ جبين الإنسان في الرغام وهو لا يملك أن يرفعه ولا أن يناقش - في عبوديته البائسة الذليلة - هذه الحتميات الجبارة المذلة المخيفة) (١)

وليس من سبيل للخلاص من هذه العبودية إلا سبيل التوحيد فعبادة الله تعالى وحده والإخلاص له في كل شيء يفعله الإنسان ، يردُّ على الإنسان حرّيته السلي سلبها ، ويذيقه طعم هذه الحرية وحلاوتها ، فالإنسان المؤمن الذي لا يشرك بعبادة ربه أحداً تنضبط أموره وتنسجم جميع شؤون حياته لأنه يسلم قيادته لقائد واحد يستمدُّ منه منهج حياته ورشده ، فليس عليه للهوى سلطان ، ولا للأوهام والخرافات والخزعبلات إلى قلبه طريق ، ولا تتحكم به العادات الباطلة والتقاليد البالية ، ولا يخضع لبشر ولا يخضع لجبار ولا يصدّق بمشعوذ أو دجال ولا يثق بكاهن ، ولا ترده الطير ولا تسيّره النجوم والكواكب ، ولا ينفق أمواله في سبيل الطواغيت ولا يدنّس كرامته بالذل للقبور الدارسة يتمرغ بترابها وينحن أمامها ويظوف بها طواف منكسر القلب وذليل الجناح .

وقد جُربت عقيدة التوحيد فكانت هي العلاج الوحيد لكل ألوان العبودية ، فجعلت من العبيد أحرارا ، ومن الأذلاء أعزة وأباة على الضيم ، ومن الضعفاء قسوة

ضخمة تخشاها أقوى الأمم وأعظمها آنذاك ، ففتحوا العالم بقوة إيمانهم ، ونشروا
فى ربوع الأمن والسلام .

وما رأيت شخصا يعتقد عقيدة أو يدين بدين أو يتمذهب بذهب يشعر بحريته
الحقيقية إلا من يعبد الله وحده ويعتقد عقيدة التوحيد والإخلاص .

وقد كانت حرية الإنسان من أبرز أهداف الإسلام (فقد بدأ بتحرير الوجدان
البشرى من عبادة أحد غير الله ، ومن الخضوع لأحد غير الله فما لأحد عليه غير
الله من سلطان ، وما من أحد يميته أو يحييه إلا الله ، وما من أحد يملك له ضرا ،
ولا نفعا ، وما من أحد يرزقه من شئ فى الأرض ولا فى السماء وليس بينه وبين الله
وسيط ولا شفيع ، والله هو وحده الذى يستطيع والكل سواء عبيد ولا يملكون لأنفسهم
ولا لغيرهم شيئا) (١) .

(فالناس فى كل نظام غير نظام الإسلام يعبد بعضهم بعضا - فى صورة من
الصور - وفى المنهج الإسلامى وحده يتحرر الناس من عبادة بعضهم لبعض بعبادة
الله وحده والخضوع لله وحده) (٢) .

ومجالات الحرية التى يضمنها التوحيد ويحققها للإنسان كثيرة جدا ومن أبرزها :
أن التوحيد يربط الإنسان بفكر واحد منظم ومنهج شامل مقنن لا يأتيه الباطل ،
ويبعده عن كل الأفكار والمناهج والشرائع المتضادة المضطربة والتوحيد إذ يحقق
هذه الخاصية فهو يحرر الإنسان ويخرجه من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ،
وعندها يولد الإنسان بمعناه الكامل الذى لم يوجد إلا يوم أن تحررت رقبته وحياته
وتقله من سلطان العباد ، إن الإنسان فى جميع الأنظمة التى يتولى فيها البشر
التشريع والحاكمة والسلطان فإنه يقع لا محالة فى عبودية العباد .
أما التوحيد فهو ميلاد الإنسان لأنه يحقق له وجوده الكامل الذى لم يكن له من
ذى قبل (٣) .

١ - العدالة الاجتماعية فى الإسلام ، سيد قطب ، ص ٤١ - ٤٢ ، ط ٧ دار الشروق

٢ - معالم فى الطريق ، سيد قطب ، ص ٨ ،

٣ - انظر خصائص التصور الإسلامى ، سيد قطب ، ص ٢٣٥ ، وانظر الظلال

ج ٤ ، ص ١٩٢٩ - ١٩٤١ .

وهذا ما قاله الرعيل الأول من حملة التوحيد : (الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده) (١) .

ومنها أنه يحرره من سلطان الهوى والشهوة .
يقول الترابي : (ومن أعظم آثار الإيمان أنه يحرر الإنسان من إسار أهوائه ومن حصار أغراضه وشهواته ويوجهه نحو غاية علمية يعلق بها همه ، ثم يهبه علما يهدي بصره الجبب إلى أبعاد الوجود الروحية ونورا يبدد من ظلام الغيب ليضيء له آفاق الحياة ومراحل الطريق إلى الله أولها وآخرها .

(والمؤمن يدبر أمره ببصيرة نافذة لا يعنيه الحرص ولا يستخفه التعجل عن تقديم الجهد الصادق مهما تأخرت ثمرته في الدنيا ، بل لا يبالي أن يفوته الأجر العاجل لأن الدنيا عنده مزرعة الآخرة وهو يرسم خط حياته بنظرة شاملة ويتجه بها نحو قبلة واحدة ، لأنه يهتدي من الله ذي العلم المحيط والتدبير الحكيم ، ولأنه قد راض هواه وطوع رأيه لحكم الله ، فطاقاته جميعا مشدودة وجوانب سعيه كافة موقوفة لعبادته .

والفرق في معيار الدين بين الذي لا يشرك بعبادة ربه شيئا والذي يتعبد لهواه أو لما يروق له من أهواء البشر هو الفرق بين الهدى والضلال ، فالأول مؤمن عرف ربه فهو يستقبله بالعبادة معتصما بحبله لا يتحوّل عن هديه ولا يحميد ، والآخرتائه يتخبط العشواء) (٢) .

وسلّم أن النفس البشرية والعقل الإنساني إذا لم يتحررا من عبودية الهوى والشهوة - كما يتحررا من كل عبودية خارجية عن النفس - فإن الإنسان لا محالة سيقى أسيرا لهذا الهوى وتلك الشهوة ومقيدا بقيودهما .

يقول سيد قطب - رحمه الله - : (قد تتحرر النفس البشرية من عبودية القداسة ومن خوف الموت والأذى والفقر والهوان ، ومن كل الاعتبارات الخارجية والقيود الاجتماعية ثم تبقى مستذلة لذاتها ، مستذلة لذاتها وشهواتها مستذلة لمطامعها وأهوائها ، فيأتي لها القيد من داخلها حين تنفلت منه من خارج ، فلا تبلى - فتحترق الوجداني الكامل الذي يريد الإسلام لها ليحقق لها العدالة الاجتماعية الإنسانية الكبرى .

١ - قول الصحابي ربيع بن عامر أمام رستم قائد الفرس

٢ - الإيمان ، ترابي ، ص ٥٦

والإسلام لا يغفل هذا الخطر الكامن على التحرر الوجداني فيلقى إليه التفاتة عيقة تشهد بعنايته بدخل النفس البشرية وأغوارها ، وتد ل على رعايته لكل استعداداتها وملابساتها (١) .

قال تعالى : (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فترىصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين) (٢) .

وإلى جانب مظاهر الحرية التي تحدثها عقيدة التوحيد وعبادة الله وحده فسي نفس الإنسان فإنها تحرره من قيود اجتماعية باطلة كثيرة تصدّه عن عبادة الله وتحاول أن تجعله متعلقا بها دون الله .

(فالمؤمن المخلص عبادته لله وحده لا يبقى مرهونا في إطار القبيلة أو الشعب أو الطبقة التي ولد فيها ، ومهما طوّقه وسطه الاجتماعي وواقعه المادي انشد لله بحبل متين ينتشله من وحل أوضاعه إلى آفاق إنسانية طليقة لتنقشع غشاوة العصبية التي تحصر بصره ، وتنحط أوزارها التي تثقل ظهره ويخلى بين فكره وطاقته وبين إمكانات الترقى في الاتساع في الحياة .

وما التقاليد والموروثات والقيود الاجتماعية إلا قوالب جمدت فيها سوابق اتجاهات الحياة وهي كثيرا ما تشكل بضمونها جمودا وتماديا في باطل قديم أو تخلفا عن مقتضيات الظروف المتجددة فتعرقل تقدم المجتمع ، وأما المؤمن فهو متحرر من كثير من هذه القيود الاجتماعية التي تكبل الإنسان وتقعده به عن العمل الحر والنهضة المنطلقة وتحتمسه ألا يرتاد آفاق الحياة الرحبة) (٣) .

وقد ذمّ الله سبحانه وتعالى المتعلقين بهذه الموروثات الوثنية والمقلدين لآبائهم الأولين في ضلالتهم الاجتماعية ، فقال سبحانه :

(وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون ، يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم

١ - العدالة الاجتماعية ص ٥١ .

٢ - سورة التوبة آية ٢٤ .

٣ - الإيمان - تراوى ، ص ٥٧ - ٥٩ بتصرف

بما كنتم تعملون (١) .

ثم إنه سبحانه تعالى رَغَّبَ إلينا اتباع أمثلة القدوة الحسنة من الأنبياء والصالحين الموحدين فقال : (قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم وما تعبدون من دون الله كفرنا بكم ودا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده) (٢) .

وقال كذلك : (إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شئئ ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون) (٣) .

ويلخص الشيخ محمد المبارك أثر التوحيد فى هذه الناحية فيقول :

(كان هذا الإيمان محررا للإنسان الفرد فى نفسه من نوازحه الغريزية إلى حد كبير ، ومحررا له من تأليه البشر والخضوع لهم خضوع انقياد واستسلام ، ومحررا له من أساطير تأليه الكون أو الطبيعة أو أى جزء منها بل دافعا له للجهاد فى سبيل تقويض النظم القائمة على تأليه البشر أو الاستسلام للخرافات الوثنية وأساطيرها والخضوع لتأثيرها ودافعا له لاستثمار الكون الذى أصبح هو خليفة الله فيه وتسخيره وتذليله لئلا يفسده) (٤) .

٣ - التوحيد درع للإنسان ضد الشيطان :

عداوة الشيطان للإنسان قديمة جدا ومستحكمة ، فهو لا يفتقر فى لحظة ما عن الكيد والغواية والتفليل والصد عن عبادة الله سبحانه وتعالى ، فمنذ استدرج أبوى البشرية وأخرجهما من الجنة وهو فى نشاط دائم وعمل دؤوب لإفساد عقيدة الإنسان فقد زين لكثير من الناس سوء عملهم ، واستزلهم عن إخلاص الدين لربهم إلى أنواع من الشرك (٥) .

١ - سورة المائدة آية ١٠٤ - ١٠٥

٢ - سورة الممتحنة آية ٤

٣ - سورة يوسف آية ٣٧ - ٣٨

٤ - المجتمع الإسلامى المعاصر ، محمد المبارك ، ص ٤٧

٥ - انظر اقتضاء الصراط المستقيم ، ابن تيمية ، ص ٤٥٧ ، وراجع بشكل عام إغاثة

اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم رحمه الله .

وإذا كانت هذه حال الشيطان مع بنى الإنسان فإنَّ الله سبحانه وتعالى قد حفظ الموحَّدين منهم والمخلصين عبادتهم لوجه الله ، فلم يجعل للشيطان عليهم سلطاناً وذلك لأن قلوبهم آمنة مطمئنة متوكلة على الله حق التوكل .

قال تعالى : (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، إنما سلطانه على الذين يتولَّونه والذين هم به مشركون) (١) .

يقول سيد قطب^{رحمه الله} : (فالذين يتوجهون إلى الله وحده ، ويخلصون لله ، لا يملك الشيطان أن يسيطر عليهم ، مهما وسوس لهم فإن صلَّتهم بالله تعصمهم أن ينساقوا معه ، وينقادوا إليه ، وقد يخطئون ولكنهم لا يستسلمون ، فيطردون الشيطان عنهم ويتوبون إلى ربهم من قريب ، إنما سلطانه على الذين يجعلونه وليَّهم ويستسلمون له بشهواتهم ونزواتهم) (٢) .

وقد أدرك الشيطان نفسه هذه الحقيقة فاحترف بها وقرَّرها كما فى قوله تعالى ما كذباً قول إبليس اللعين : (قال : رب بما أغويتنى لأزیننَّ لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين قال هذا صراط على مستقيم أن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين وإن جهنم لموعدهم أجمعين) (٣) .

قال سيد قطب رحمه الله : (والله يستخلص لنفسه من عباده من يخلص نفسه لله ويجردها لله وحده ويعبده كأنه يراه وهو لا^٤ ليس للشيطان عليهم من سلطان بشرطه هو على نفسه هذا الشرط الذى قرره إبليس اللعين ، قرره هو ويدرك أن لا سبيل إلى سواه لأنه سنة الله أن يستخلص لنفسه من يخلص له نفسه ، وأن يحميه ويرعاه ومن ثمَّ كان الجواب (هذا صراط على مستقيم ، أن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) .

(إن عبادى المخلصين لي ليس لك عليهم سلطان ، ولا لك فيهم تأثير ، ولا تملك أن تزین لهم لأنك عنهم محصور ، ولأنهم منك فى حمى ولأن مد اخلك إلى نفوسهم مغلقة ، وهم يعلقون أبصارهم بالله .

١ - سورة النحل آية ٩٩ - ١٠٠

٢ - الظلال ج ٤ ، ص ٢١٩٤

٣ - سورة الحجر آية ٣٩ - ٤٣

(إن الشيطان لا يتلقف إلا الشاردين كما يتلقف الذئب الشاردة من القطيع ، فأما مَنْ يخلصون أنفسهم لله ، فالله لا يتركهم للضياع ، ولو تخلَّقوا فإنهم يشون — من قريب .

والمعركة الخالدة بين الشيطان والإنسان في هذه الأرض ترتكز إلى استدرار الشيطان للإنسان بعيداً عن منهج الله ، والتزيين له فيما عداه ، استدراجه إلى الخروج من عبادة الله — أي الدينونة له في كل ما شرع من عقيدة وتصور وشعيرة ونسك وشرعية ونظام — فأما الذين يدنون له وحده — أي يعبدونه وحده — فليس للشيطان عليهم من سلطان (١) .

ومعنى هذا أن قلب الإنسان المؤمن بربه العابد له وحده قد اتصل بالخالق وارتبط به برباط وثيق ، وقطع كل علاقته إلا مع الله فاستمد بذلك قوة وعزيمة تعصمه من الشيطان وتنصره على كيد ومكره .

وقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى القلب وأهميته في جسد الإنسان فقال : (إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسدت الجسد كله ألا وهي القلب) (٢) .

يقول الدوسري^{رحمه الله} : (إخلاص العبادة لله وحده يخلص القلب من الأمراض المفسدة له والمشقية لجميع جوارح صاحبه ، لأنه ملك الأعضاء والمسير لها ، فانشغاله التمام بالعبودية الصحيحة يقيسه من أمراضه الموجبة لفساد الأخلاق من الهلع والجزع والشح والنع والحرص واللد في الخصومة والجهل ، والغرور والظلم والبغى ، والجدل والمرء والطيش والسفه المبدد لجميع الطاقات ، والعجب والخيلاء والشك والأشهر والبطر والريبة والغفلة والجمود ، والكبر والفجور من جهة أخرى ، والافتتان بالدنيا ، وحب المال والشهرة والمكر والتشغى والحقد والغضب والحسد والهمز واللمس والانهماك بالشهوات وغير ذلك ، فإن الضمير منشأ الفعل ومصدره ، فإن كان صالحاً بمراقبة الله ومحبته وخشيته كانت الأعمال سالحة ، والأخلاق حسنة لانتفاء هذه الأوصاف والسجايا المذمومة ، وإن كان الضمير فاسداً لحلول غير الله فيه من أنواع الأنانية وحب الذات فسدت الأعمال والأخلاق لأن الأقوال والأعمال معبودة عما نفي

١ — انظر الظلال ج ٤ ، ص ٢١٤٢ — ٢١٤٥ ، بتصرف

٢ — رواه مسلم في المساقاة ١٠٢ ، النووي ٥ ج ٣ ، ص ١٢١٨ ، دار الفكر

الضمير (١) .

وهكذا فإن القلب من غير عقيدة التوحيد كالبيت الخرب يفرخ فيه الشيطان ويتعلق بعبادة الأوثان ، لا عزم له ولا قوة ولا حياة فيه وإن كان يدفق بالدم وتنبض بالحرارة والإحساس .

قال تعالى : (أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (٢) .

قال ابن كثير عن هذه الآية : (هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتا في الضلالة هالكا حائرا فأحياه الله ، أحيا قلبه بالإيمان وهداه له ، ووقفه لاتباع رسوله) (٣) .

٤ — التوحيد مصدر العزة والشجاعة والكرامة وكل الصفات الحميدة :

التوحيد جماع لكل الصفات الحميدة والخصال الطيبة التي تعشقها النفوس وتهفو إليها القلوب ، فالمؤمن الموحد الذي استغنى عن كل شيء يشعر بعزة النفس والكرامة الإنسانية ، لأنه استعلى بإيمانه ولم يفتقر إلا لله تعالى ، وهذه العزة هي للمؤمنين دون غيرهم ، قال تعالى : (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) (٤) .

فاهتقاد المرء بأن الله تعالى هو وحده الضار النافع والمالك المتصرف يجعله عزيزا فلا يذل ولا يخضع لأحد سوى الله لأنه يعلم أن هذا الغير لا يقدر على شيء .

ولهذا فإن الله تعالى ذكرنا بأنه مَنْ كان يريد العزة فلا يجدها إلا عنده لأنه هو مصدرها ومالكها ، قال تعالى : (مَنْ كَانَ يَرِيدَ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا) (٥) .

قال المودودي رحمه الله : (والإيمان بالله لا يله إلا الله ينشئ في الإنسان من الأنفة وعزة النفس ما لا يقوم دونه شيء ، فهو يعلم أن الله هو المالك الحقيقي

١ — صفوة الآثار والمفاهيم ، الشيخ عبد الرحمن بن محمد الدوسري ، ج ١ ، ص

١٥٩ ، ط ١ ، مكتبة دار الأرقم ، الكويت .

٢ — سورة الانعام آية ١٢٢

٣ — تفسير ابن كثير ، ج ٢ ، ص ١٢٢ ، طبعة الحلبي ، وانظر مجموع فتاوى ابن

تيمية ، ج ١٠ ، ص ٢١٥ .

٤ — سورة المنافقون آية ٨

٥ — سورة فاطر آية ١٠

لكل ما فى هذا الكون من القوى وأنه لا ضار ولا نافع إلا هو ، وأنه لا محيى ولا مميت إلا هو ، وأنه لا صاحب للحكم والسلطة والسيادة إلا هو وحده .

فهذا العلم اليقينى يغنيه عن غير الله وينزع من قلبه خوف سواه فلا يطاقطس رأسه أمام أحد من الخلق ولا يتضرع إليه ولا يتكف له ، ولا يرتعب من كبريائه وعظمته . ومثل هذه الصفة لا يمكن أن يتصف بها إنسان غير مؤمن بهذه الكلمة ، ومما يستلزمه الشرك والكفر والإلحاد أن يطاقطس المرء رأسه لغيره من الخلق ويراه قادرا على جلب النفع والمضرة إليه ويرهبه ويعلق به آماله (١) .

(و) المؤمن عزيز غالب مؤيد منصور مكفى ، مدفوع عنه بالسذات أين كان ، ولو اجتمع عليه من باقطارها إذا قام بحقيقة الإيمان وواجهاته ظاهرا وباطنا وقد قال تعالى : (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) (٢) .

فهذا الضمان إنما هو بإيمانهم وأعمالهم التى هى جند من جنود الله يحفظهم بها (٣) .

وظالما أن الله هو القوى العزيز فعبادته وحده تنعكس على العابد له ، والمؤمن به ، وإذن فالإيمان بوحدة الألوهية هو مدخل القوة فى الإنسان ومدخل عزتسه ومنعته على الآخرين وعلى الأحداث التى تواجهه ، بينما التوجه لغير الله دليس ضعف الإنسان ثم هو فى الوقت نفسه مصدر استمرار ضعفه فى تصويره وتقديره للأشياء وحكمته على الأشياء (٤) .

-
- ١ - مبادئ الإسلام ، أبو الأعلى المودودى ، ص ٩٤ - ٩٦ .
 - ٢ - سورة آل عمران آية ١٣٩ .
 - ٣ - إغاثة اللهفان ، ابن القيم ، ج ٢ ، ص ١٨٢ - ١٨٣ .
 - ٤ - انظر : القرآن والمجتمع ، د . محمد البهى ، ص ٣٧ - ٤٠ بتصرف .

(ب) أهمية التوحيد في حياة المجتمع :

وأما عن أهمية التوحيد وأثره في حياة المجتمع فأرى أن يقتصر الحديث على نقطة هامة جدا وشاملة وهي أن التوحيد يجمع بين أفراد المجتمع ويوحد هم ويكون منهم أمة واحدة .

فالتوحيد أو عبادة الله وحده تجمع بين المتبايعين جنسا ووطنا ولونا ونسبا ،
بها تزول كل الفوارق وتنحى كل الفواصل وذلك لأن هذه العقيدة تجمع الناس
جميعا : غنيهم وفقيرهم ، صغيرهم وكبيرهم ، أسودهم وأبيضهم ، عربهم وعجمهم ،
سيدهم ومسودهم ، شريفهم وضيعهم على عبادة إله واحد لا يستحق
العبادة إله سواه ، وهم إذ يجتمعون على هذا فإنه تتحد آمالهم وأهدافهم ودافعهم
وحاجاتهم حتى يصيروا وكأنهم جسداً واحداً يتحرك جطة واحدة نحو غاية واحدة
وهذا التجمع تكون هناك طاقة ضخمة جدا لا يقف في وجهها شيء .

وهذا كما يقول سيد قطب هو بعض أسرار الخوارق التي أنشأتها العقيدة الإسلامية
- التوحيد - في الحياة والتاريخ البشرى ، فمن هذا التصور انبعثت تلك الطاقة
الموحدّة التي صنعت هذه الخوارق (١) .

قال تعالى : (لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله
ألف بينهم) (٢) .

ومن هنا فقد قال أرنولد تويني : (بأن عقيدة التوحيد التي جاء بها الإسلام
هي أروع الأمثلة على فكرة توحيد العالم وأن في بقاء الإسلام أمل العالم كله) (٣) .
وما قال هذا المؤرخ قولته هذه إلا بعد أن أتضح له أن العقيدة الصحيحة
هي التي تكفل التجمع البشرى فهدى وحدها الرابطة الوثيقة التي تصلح للجمع بين
الأفراد والشعوب وليس الجنس ولا القوم ولا الأرض ولا اللون ولا الطبقة ولا المصلحة
الاقتصادية أو السياسية ، ولا أي قيمة أخرى من القيم ولا أي اعتبار من الإعتبارات
الوثنية .

١ - خصائص التصور الاسلامي ، ص ٢٢٨

٢ - سورة الانفال آية ٦٣

٣ - عن الإسلام والعالم المعاصر ، أنور الجندي ، ص ١٠٣ ، ط ١

وقد جَرَّبَت البشرية في الماضي والحاضر الحياة في ظل عقيدة التوحيد وتحسنت
راية الألوهية الواحدة ، والحياة تحت رايات الوثنية المتعددة وعانيت بنفسها
الفارق الضخم بين الحياتين .

فكانت الألفة والأخوة والمحبة والتعاطف والترابط ، والمساواة والعدل والعطاء
والتضحية ، والرحمة والحنان والمودة والأمل والسعادة والكرامة ، والنقاء والطهارة
والعزة والكرامة والسؤدد والقوة ، وكل معنى من المعاني الطيبة وكل قيمة من القيم
السامية .

كل هذا وغيره الكثير قد عرفته البشرية في ظل عبادة الله وحده في حين أنها
عرفت التفرق والاختلاف والبغض والكره والحقد والتفكك والأثرة والتمييز ، والقتل
والسفك والحروب والتعاسة والشقاء والويلات ، والذل والاستعباد والضعف والانهزام
والجلافة والقسوة ، وكل معنى من المعاني الساقطة والقيم السخيفة والأخلاق والطباع
الليثمة ، كل هذا قد عانت البشرية منه المرَّ وذاقت فيه العذاب في ظل الوثنية
وتعدد الآلهة المختلفة (١) .

وإن نظرة سريعة إلى حياة العرب - على سبيل المثال - قبل البعثة وبعدها
لتؤيد كل ما ذكرت (٢) .

فقد أنشأت عقيدة التوحيد من الممزقين المفرقين المشتتين بين اللات والعزى
وظائفة أخرى من الآلهة والمعبودات ، مجتمعاً متأخياً مترابطاً متحاباً متعاضداً
يؤثر أفرادهم بعضهم بعضاً على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

وقد امتدحهم الله سبحانه وتعالى في كثير من آيات القرآن الكريم وامتننَّ عليهم
أن هداهم إلى هذا السبيل بعد أن كانوا في الضلال البين .

قال تعالى : (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم
بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها) (٣)

١ - انظر في هذا الإيمان والحياة - د . يوسف القرضاوى ، ص ٢٠٣ - ٣٠٠ ،
ط ١٢ ، وكتاب الإيمان واثره في حياة الانسان ، د . حسن الترابي ،
ص ١٠٩ - ١٥٠ .

٢ - راجع قول جعفر بن ابى طالب للنجاشى ملك الحبشة في السيرة النبوية
لابن هشام ، ج ١ ، ص ٣٣٦ .

٣ - سورة آل عمران آية : ١٠٣ .

نعم لقد أعطت الوحدة وقوة الترابط والتماسك التي أوجدتها عقيدة التوحيد ففى نفوس الأفراد - ثمارها وانتجت نتائجها الطيب من الحُبِّ والأخوة والصَّلات الطيبة والعلاقات الشريفة بين هؤلاء المؤمنين ، حتى قال تعالى فيهم (والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) (١) .

وقال سبحانه : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) (٢) .

ووصفهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد .

فقال صلى الله عليه وسلم : (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحيمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى) (٣) .

وما كان هؤلاء يستحقوا هذا المدح والإطراء من الله ورسوله إلا لأنهم التزموا بالتوحيد منهجا وهجروا ما كانوا عليه هم وآباؤهم من عبادة الأصنام والأوثان .

وفى مقابل هذا المجتمع الإيمانى القائم على عبادة الله وحده ، هناك مجتمعات أخرى قامت وماتزال قائمة على الشرك والوثنية ، تلتقى على الأهواء والشهوات ثم لا تلبث أن تتفرق شذرا مذر ، وحال المجتمعات فى عصرنا الحاضر دليل صارخ على نوعية المجتمع الذى يقوم على الشرك وعبادة الأوثان ، وإن تغيَّرت الأسماء وتبدلت الصور ، فما دام أن المعبود ليس هو الله تعالى وحده فهى وثنية ولا علينا إذا كان ذلك المعبود وثنا من حجر أو شجر أو كوكب أو قومية أو وطنية أو حزب أو دولة أو أى طاغوت آخر من طاغوت هذا الزمان .

(إن الحياة لا تستقيم ولا تصلح إلا على أساس الإيمان بالله الواحد والعبودية لإله واحد ، وإن الأرض لتفسد حين لا تتمحض العبودية لله فى حياة الناس ، ويخضعون لشريعته وحدها فتخلص حياتهم من الخضوع لأهواء البشر المتقلبة .

١ - سورة الحشر آية : ٩

٢ - سورة الفتح آية : ٢٩

٣ - متفق عليه ، البخارى فى الادب ٢٧ ، ومسلم فى البر ٦٦ ، واحمد

وما صلحت الأرض قط ولا استقامت حياة الناس إلا أيام أن كانت عبوديتهم لله
وحده - عقيدة وعبادة وشريعة - وما تحرر الإنسان قط إلا في ظلال الربوبية
الواحدة (١) .

وهكذا ومع هذا الاستعراض الموجز لأهمية التوحيد في حياة الفرد
والمجتمع ، ونظرا لهذه الآثار الإيجابية التي تصحب الإيمان بوحدة الألوهية نجد
أن القرآن قد حذر البشر من الشرك والوثنية وجعلها هي مصدر الانحطاط والضعف
في حين أنه اهتم بالتوحيد والدعوة إلى عبادة الله وحده خالصة من كل ما يكدرها
من عبادة أى معبود، سواء أكان حجرا أم إنسانا أم أى شئ آخر ، مما يعبد من
دون الله بأى شكل من أشكال العبادة .

(و ذلك فلم يكن مصادفة ولا اعتباطا أن أنفق القرآن الكريم ثلاث عشرة سنة
كاملة في تقرير قضية واحدة أصيلة هي قضية الألوهية وقضية المعبود .

(لم يكن ذلك لأن العرب كانوا مُغْرَقِينَ في الوثنية فحسب ، ولكن كان السبب -
إلى جانب ذلك وقبل ذلك - أن هذه القضية هي محور ارتكاز الحياة البشرية كلها
لا يقوم لها بناء ولا تستقيم لها حياة إلا إذا استقامت هذه القضية في نفوس الناس
ورسخت في ضمائرهم وصارت هي الأساس الذي يقوم عليه كل البناء .

(ولقد رأينا من واقع الجاهلية الحديثة صداق هذه القضية ، رأينا كيف انحرفت
حياة الناس كلها لمجرد أن انحرفت في نفوسهم قضية الألوهية ففرقت بهم السبيل ،
وما عادوا يهتدون أو يستقرون أو يطمئنون .

لذلك ظل القرآن المكي كله لا يقول للناس شيئا سوى قضية الألوهية وقضية
الاعتقاد (٢) .

ومضى أن أشير إلى أنه ربما يقول قائل : ما بال المسلمين قد سيطرت عليهم
أوهام وخرافات كما سيطرت على غيرهم من الأمم الوثنية وأنهم اليوم في ذلة وهوان
والغلبة لأهل الأوثان ، فلو كان التوحيد يحفظ الفرد والمجتمع من هذا وذاك لما
حل بهم ما نشاهدهم فيه ؟

١ - الظلال ، ج ٣ ، ص ١٣٤٥ .

٢ - جاهلية القرن العشرين ، محمد قطب ، ص ٢٠٤ .

وفى الرد على هذه الشبهة يقول أبو زهرة : (والجواب عن ذلك بالتسليم فسى أصل الاعتراض من حيث حال المسلمين ولكن ليس ذلك إلا لأنهم ابتعدوا عن الإسلام ومبادئه ، فحقت عليهم هذه الحال التي هم عليها فهم لا يصوّرون حقيقة الإسلام لأنهم جانبوها ، وكل مبدأ مقرر ثابت يؤخذ من مصادره ، ولا يؤخذ من حال معتنقيه ، فالمسيحيون الذين يستمرثون دماء البشرية لا يصوّرون دعوة المسيح عليه السلام إلى السلام والعفو والصفح ، وهل المسيحيون الذين يقولون (وسئل للمخلوب) هم الذين يتبعون قول المسيح فيما يروى (استغفروا لأعدائكم) .

وهكذا فمن يرد أن يعرف الإسلام يعرفه من أصوله وما قرره العلماء أهل الخبرة فيه ، ولقد يضل عن معرفته من يأخذ حقيقته من العامة .^(١)

إن المبدأ السليم كثيرا ما يعتريه من ركاب الزمان ، وما يغيره من أحداث وأحوال اجتماعية ، بحيث يحتاج إلى تجلية وتوضيح وإزاحة ما علق به واعتسراه ، ولا يكون ذلك إلا عن طريق العودة إلى الأصول والتمسك بها^(٢) .

كما قال صلى الله عليه وسلم : (تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما مسكتم بهما : كتاب الله وسنة نبيه)^(٣) .

وربما احتاج الأمر بين الحين والحين إلى من يجدد للأمة أمر دينها ويقودها إلى دين الله من جديد .

١ - المجتمع الإنساني في ظل الإسلام ، محمد أبو زهرة ، ص ٢٦ - ٢٧ ، ط ٢

٢ - المرجع السابق بتصرف ص ٢٧ .

٣ - رواه مالك في الموطأ في القدر ٣ .

الباب الثاني

الوثنية القديمة

وفيه فصلان :

الفصل الأول : أسباب انحراف الناس عن التوحيد إلى الوثنية .

الفصل الثاني : صور من الوثنية القديمة .

الفصل الأول

أسباب الوثنية القديمة

- ١ - تمهيد : نشأة الوثنية القديمة
- ٢ - البحث الأول : أسباب الوثنية القديمة
- ٣ - البحث الثاني : نشأة الوثنية في جزيرة العرب

الفصل الأول

أسباب انحراف الناس عن التوحيد إلى الوثنية

تمهيد :

من المناسب لهذا الفصل أن أشير إلى النشأة الأولى للوثنية ومدى أيتها التاريخية قبل ذكر الأسباب التي أدت إلى الانحراف عن عبادة الله وحده إلى عبادة معبودات أخرى باطلية .

نشأة الوثنية الأولى وولادتها :

لا يستطيع الباحثون أن يحددوا على وجه التحديد والقطع متى ظهرت عبادة الأوثان وذلك لطول العهد بتلك البداية المشرومة ، فبعض الروايات التاريخية التي أوردها الكلبى فى كتابه الأصنام تشير إلى أن ظهور الوثنية كان فى مرحلة مبكرة جدا من تاريخ البشرية بعد موت آدم عليه السلام مباشرة فقال : (أول ما عبُدت الأصنام أن آدم عليه السلام لما مات ، جعله بنو شيث بن آدم فى مغارة فى الجبل الذى أهبط عليه آدم بأرض الهند ، وكان بنو شيث بن آدم يأتون جسد آدم فى المغارة فيعظمونه ، ويترحمون عليه ، فقال رجل من بنى قابيل بن آدم : يا بسنى قابيل : إن لبنى شيث دَوراً يدورون حوله ويعظمونه وليس لكم شئ فنحت لهم صنما فكان أول من عمل الأصنام) (١) .

فهذه الرواية ^{إن صححت} تُدل على أن الوثنية نشأت فى فترة مبكرة جدا وأن عهد بسنى آدم بالتوحيد لم يكن طويلا ولم يلبثوا أن غيروا ومدّوا من بعده وعبدوا غير الله .

والذى أراه أن هذه الرواية غير صحيحة لأنها فضلا عن معارضتها لما روى فى الصحيح عن ابن عباس (أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة الحق) (٢) .

قال ابن عروة الحنبلى ^{رحمه الله} فى (الكواكب) : (وهذا يردُّ قول من زعم من أهل

١ - كتاب الأصنام - أبو المنذر هشام بن السائب الكلبى ، ص ٥٠ ، تحقيق

أحمد زكى ، الدار القومية ، القاهرة .

٢ - سبق تخريجه .

التاريخ من أهل الكتاب أن قابيل ونيه عبدوا النار (١) .

فهى تعارض العقل الصحيح والمنطق السليم ، فليس من المعقول أن يقع الشرك وعبادة الأوثان بهذه الفترة الوجيزة بعد آدم ، بل لابداً من زمن طويل حتى يُلبَّسَ الشيطان على العقل بطول الأمد وانحسار العلم وفشو الجهل إلى غير ذلك .

وهذا ما تفيد الرواية الثانية التى ساقها الكلبى نفسه بخصوص أصنام قوم نوح (٢) ، التى تنص على أنهم لم يعبدوها إلا بعد عدة قرون .

وإذا كانت النصوص التاريخية عاجزة عن تحديد نشأة الوثنية الأولى فإنه يمكن تحديدها بالتقريب الزمنى بما يقارب الألف عام من بعد وفاة آدم عليه السلام وذلك استناداً إلى ما جاء فى الرواية الصحيحة عن ابن عباس رضى الله عنه التى تشير إلى أن الناس بقوا على التوحيد عشرة قرون وهى الفترة ما بين آدم ونوح عليهما السلام وأن قوم نوح هم الذين أحدثوا الشرك وعبادة الأصنام بعد موت بعض الصالحين منهم وعكفهم على قبورهم وتمثيلهم زمناً طويلاً .

روى البخارى فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : (وقالوا لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا وذا ولا سواعا ولا يغوث ويغوث ونسرا) (٣) .

قال : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصاباً ، وسموها بأسمائهم ففعلوا ، ولم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم عُدَّتْ (٤) .

وروى الكلبى قال : (كان وداً وسواعاً ويغوثاً ويغوثاً ونسراً قوماً صالحين ماتوا فى شهر فجزع عليهم ذوو أقاربهم ، فقال رجل من بنى قابيل : يا قوم هل لكم أن أعجل لكم خمسة أصنام على صورهم ، غير أنى لا أقدر أن أجعل فيها أرواحاً قالوا : نعم ، فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم ، فكان الرجل يأتى أخاه وعمه وابن عمه ، فيعظمه ويسعى حوله حتى ذهب ذلك القرن الأول ثم جاء قرن آخر فعظموهم أشد من تعظيم القرن الأول ، ثم جاء من بعدهم القرن الثالث

١ - انظر تحذير الساجد ، ص ١٤٨ .

٢ - انظر كتاب الأصنام ص ٥١ - ٥٣ ، وسيرد ذكرها بعد قليل .

٣ - سورة نوح آية ٢٣ .

٤ - رواه البخارى فى تفسير سورة نوح آية ٢٣ .

فقالوا ما عَظَّم أولونا هو لاءٍ إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله ، فعبدوهم وعَظَّم أمرهم ، واشتدَّ كفرهم ، فبعث الله إليهم إدريس عليه السلام نبيا فدعاهم فكذبوه ، ورفعوا الله إليه مكانا عليا .

ولم يزل أمرهم يشتدُّ حتى مجيء نوح عليه السلام فبعثه الله إليهم نبيا ، وهو يومئذ ابن أربعمائة وثمانين سنة ، فدعاهم إلى الله في نبوته مائة وعشرين سنة ، فعصوه وكذبوه ، فأمره الله أن يصنع الفلك ، ففرغ منها وركبها وهو ابن ستمائة سنة ، وغرق من غرق ، ومكث بعد ذلك ثلاثمائة وخمسين سنة (١) .

وأخرج الفاكهي عن عبيد الله بن عبيد بن عمير قال : (أول ما حدثت الأصنام على عهد نوح ، وكانت الأبناء تَبْرُّ الآباء فمات رجل منهم فجزع ابنه عليه فجعل لا يصبر عنه ، فاتخذ مثلا على صورته فكلما اشتاق إليه نظره ثم مات الابن ففعل به كما فعل ثم تتابعوا على ذلك فمات الآباء فقال الأبناء ما اتخذ هذه آباؤنا إلا أنها كانت آلهتهم فعبدوها) (٢) .

هذا كل ما يستطيع أن يقوله الباحث عن نشأة الوثنية ، وللخلاف في نشأتها ثمرة وفائدة كبيرة تدل على أنها ليست هي الأصل وإنما هي طائفة ، والتوجيه هو الأصل ، وهذا ما يدفعنا إلى البحث عن أسباب الانحراف عن هذا الأصل ، يرى بعض الباحثين بأن عبادة الأوثان قد إما كانت ناشئة عن قصور العقول البشرية عن إدراك موجود أعلى أو إليه أكبر (٣) .

هذا التعليل - في نظري - غير وجيه وذلك لأن الوثنيين على اختلاف أحوالهم وتعدد وجوه عبادتهم كانوا يشعرون بوجود قوة عليا أو إليه أكبر يستحق منهم التقدير والاحترام والتأله .

والقرآن الكريم قد سجَّل إجابات واعية لمشركي العرب مثلاتدُّل على الفهم والوعى وإدراك التام والإحساس بوجود تلك القوة العظمى أو الموجود الأعلى أو إليه الأكبر الذي اختص بالخلق والتصرف في أمور الكون ، وإن كانوا يجهلون حقيقته .

١ - الأصنام ، ص ٥١ - ٥٣ .

٢ - انظر فتح الباري ، كتاب التفسير ، سورة نوح ، ج ٨ ، ص ٦٦٧ .

٣ - انظر الشبهات والأخطاء الشائعة في الفكر الإسلامي ، أنور الجندي ،

ص ٢٣٣ ، دار الاعتصام .

ومما يقوى وجهة نظرى هذه ما نشاهد ه حولنا فى شرق العالم وغربه من مظاهر الوثنية الحديثة الظاهرة للعيان والصارفة عن عبادة الله التى تجرى جنبا إلى جنب مع التطور الفكرى والتقدم العلمى ، وهذا مما يؤكد أن هناك مجموعة من الأسباب علت منفردة أو مجتمعة على الانحراف إلى عبادة غير الله ، منها ما يعود إلى طبيعة الإنسان نفسه باعتباره ميّلا لتجسيد ميوله ورجاته وجنوحه إلى ما يقع تحت حواسه ، أو باعتباره متأثرا بشهواته ورجاته وأهواء نفسه وغرائزه الفطرية فيقع تحت تأثيرها وينغمس فى ملذاته فيحيد عن طريق الصواب ويستعبد نفسه لهواه ، أو باعتبارات أخرى راجعة إلى أمور خارجة عن ذات الإنسان ولكنه يتأثر بها كطول العهد بالرسالات السماوية وبعد الأمد بالنبوات ، واندثار العلم ، وفشو الجهل ... الخ

المبحث الأول - أسباب الوثنية القديمة :

السبب الأول - تقديس الأشخاص والغلو فى الصالحين :

دلت الروايات الآتفة الذكر على أن تقديس الأشخاص والغلو فى محبة الصالحين منهم كان أكبر سبب من الأسباب التى أدت إلى الانحراف عن عقيدة التوحيد وعبادة غير الله ووقوع الناس فى الشرك .

فقد جاء فى الحديث الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنه فى تفسير قوله تعالى (وقالوا : لا تدرن وذا ولا سواها ولا يغوث ويغوث ونسرا) (١) .

أنه قال هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم ، أن أنصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابا ، وسموها باسمائهم ، ولم تعبّد حتى إذا هلك أولئك ونسى العلم عبت (٢) .

وقد ذكر ابن جرير الطبرى - رحمه الله - فى تفسيره قريبا من معنى حديث البخارى : (بأن يغوث ويغوث ونسرا كانوا قوما صالحين من بنى آدم وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة فصوروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون دبّ إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم وهم يسقون المطر فعبدوهم) (٣) .

١ - سورة نوح آية : ٢٣ .

٢ - سبق تخريجها .

٣ - تفسير الطبرى ج ٢٩ ، ص ٦٢ ، ط ١ ، المطبعة الكبرى الاميرية ببـولاق ،

وهذا ما عليه كثير من السلف في سبب حدوث الشرك في بداية الأمر ، قال ابن القيم : (قال غير واحد من السلف لما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوّروا تماثيلهم ثم طال عليهم الأمد فعبودهم) (١) .

وواضح من هذه الروايات أن عبادة هؤلاء الأشخاص لم تكن مقصودة في بداية الأمر ، ولا غاية لأولئك المحبين لسلفهم الأوائل الذين صوّروا صورهم وتماثيلهم وشيّدوا قبورهم ، فلم يكن فعلهم هذا إلا من فرط محبتهم وعظيم تقديرهم وخالص ودعهم لآبائهم وأجدادهم الصالحين لما رأوا فيهم من علامات الصلاح والتقوى والفضل وحسن العبادة ، فأرادوا أن يكونوا لهم مثالا يحتذى وقدوة صالحة فصوّروهم ليتذكروا أفعالهم الصالحة ، فلا يفترون عن عبادة الله ، غير أن هؤلاء قد أخطأوا في الوسيلة وإن أصابوا في الغاية ، فقد وقع الناس من بعدهم في الشرك وعبادة الأوثان وانحرفوا عن عبادة مولاهم الرحمان .

وأرجو أن لا يفهم أحد أن القول بأن محبة الأشخاص وتعظيمهم واحترامهم وكونه السبب الأكبر في الانحراف إلى الشرك أن هذا يدعونا إلى احتقار عباد الله وتخطئهم حقوقهم والاستهانة بهم ويدفع الأبناء إلى عقوق الآباء ومغضهم ، فليست هذا بلازم ، فإن الاحترام والمحبة والتعظيم شيء والغلو والمبالغة في ذلك شيء آخر مذموم ومحظور لأنه يفضى - كما رأينا - إلى الشرك والخروج عن التوحيد .

٢ - السبب الثاني - طول الأمد وتقادم السنين :

وما دلت عليه الروايات الآتفة كذلك أن توالي الأعوام وتقادم الزمان كعاملين عاملا مساعدا في الانحراف عن عقيدة الإخلاص والوقوع في الوثنية ، ولا يخفى أن عامل الزمان له أثر بارز ودور مهم على الجمادات والأحياء وكافة المحسوسات كما أن له أثرا كذلك على العلوم والفكر والعقائد .

فقد علمنا أن الناس استمروا على عقيدة التوحيد عشرة قرون من بعد آدم عليه السلام إلى قوم نوح ، وبعد طول العهد بعقيدة التوحيد بدأت بعض مظاهر الوثنية ، ولكنها لم تتحدد تماما ، فالصالحون الذين صوّروهم أتباعهم لم يُعْبَدوا من دون الله في الجيل الأول ولا في الثاني ولا حتى في الثالث - كما ذكر ابن الكلبي - حتى دار الزمان دورته وموتت أعوام طويلة واستطاع الشيطان أن يدخل العقول ويستدرجها رويدا رويدا عن عبادة الله إلى عبادة تلك الصور والتماثيل .

ونجد أن الله سبحانه وتعالى قد ذكر في القرآن الكريم أن فسوة قلوب أهـل الكتاب كانت ناشئة عن طول الأمد عليهم وعدهم عن مصدر الرسالة وطول عهدهم بها ، وحذر المؤمنين أن يصيبهم ما أصابهم فقال تعالى : (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) (۱) .

فما قويت فيهم الوثنية إلا بعد أن طال عليهم الأمد وعدهم بانبيائهم .
ولهذا ذكر ابن القيم عن غير واحد من السلف - رضوان الله عليهم أجمعين - أن قبور الصالحين ومثيلهم لم تُعبد حتى طال عليها الأمد فعبدت (۲) .

وعليه فقد جاء (في ظلال القرآن) : أن البشرية استمرت أجيالا كثيرة على عقيدة التوحيد والإخلاص لا تشرك بالله شيئا حتى طال الأمد على الأجيال المتتابعة من ذرية آدم وانحرفت عن التوحيد ودانت لشتى الأرباب إلى أن جاءها نوح عليه السلام بالتوحيد من جديد (۳) .

ويقول د . القرضاوى : (وفي الفترات التي طال فيها الأمد على دعوة الرسل فسيت أو حُرقت ضلّ الناس وعبدوا أنواعا من الآلهة لا يكاد العقل يصدقها) (۴) .

ومن هنا اقتضت حكمة الله تعالى أن يرسل الرسل بعضهم أثر بعض حتى لا يطول عليهم (الأمد) فيفسقوا ويضلوا فيعبدوا غير الله .

فقال عزّ شأنه : (ثم أرسلنا رسُلنا تنزّل) (۵) ، فيجدّدون عقيدة التوحيد ، ويجلونها للناس بعد أن نسوا ، خطأ ما ذكروا به ، فكانت الرسل في تتابع مستمر إلى أن جاء خاتم النبيين والمرسلين عليهم صلوات الله أجمعين وعندها اكتملت سلسلة الرسل .

١ - سورة الحديد آية ١٦

٢ - انظر فتح المجيد ص ٢٢٢

٣ - في ظلال القرآن ، ج ٤ ص ١٨٨٤

٤ - العبادة في الاسلام ، ص ١٣٢

٥ - سورة المؤمنون آية ٤٢

ولكن رحمة الله وسعت كل شيء فهو يعلم ما كان وما سيكون بفعل طول العهد وتقادم الزمان ، على خير أمة أخرجت للناس فضل الطريق كما ضل من قبلها من أمم الأنبياء والمرسلين ، فاقتضت العناية الإلهية أن يبعث لهذه الأمة على رأس كل قرن من الزمان من يجدد لها دينها ويقودها إلى عبادة الله وحده وتجديد مساندرس من معالمة فى النفوس .

روى أبو داود عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها) (١) .

ومن هؤلاء الأفاضل المجددين بعد طول العهد برسالة خاتم الرسل الكرام على سبيل المثال شيخ الإسلام ابن تيمية^{رحمه} ، وكذلك شيخ الإسلام الثانى محمد بن عبد الوهاب^{رحمه} ، فقد جاء كل منهما فى وقت خفت فيه نور الإيمان ووهن فى النفوس شأن التوحيد ، وظهر الشرك وقويت منزلة الوثنية فطغت على العقول وطمت الأبصار والبصائر ، فذاذوا عن حياض التوحيد ما استطاعوا لذلك سبيلا .

وما أحوجنا اليوم فى هذه العهد الأخيرة - وقد تفتت مظاهر حدیثة للوثنية طغت على عقيدة التوحيد وعبادة الله وصار المسلمون فى غربة من دينهم - إلى داعية مخلص يجدد لهذه الأمة دينها ويردها إلى طاعة خالقها .

٣ - السبب الثالث - الجهل بحقيقة التوحيد :

لقد أدى طول العهد بديانة التوحيد وبعد المدى بها إلى اندراس العلم ونسيانه وفشو الجهل ، وقصور العقول والمدارك وتحجرها وضيق آفاقها ، فلم تستطع العقول البشرية بعد تلك القرون الطويلة التى قطعتها من عمر الزمان أن تستمر على العقيدة الصحيحة ، وتلتزم بها فبدأت تداخلها الأوهام والخرافات والشكوك والتصورات الباطلة لحقائق الأشياء ، وربما كان أعظم انحراف فى الفهم والتصور قد وقع فى مجال العبادة والاعتقاد ، فبدأت الأجيال المتأخرة من ذرية آدم فى عهد نوح تضل الطريق الصواب ولا تهتدى إلى الحق فلم تعد قادرة على التمييز بين الشرك والتوحيد ، فعبدت من دون الله تعالى رجالا صالحين ماتوا ولا شك أن ذلك قد أفضى إلى إعتقادات باطلة فى تلك المعبودات حتى صار

١ - أبو داود فى الملاحم ١ ، ورواه الحاكم ، ج ٤ ص ٥٢٢ ، طبعة عام

يُرْجَى خَيْرَهَا وَيُخْشَى شَرَّهَا وَضَرَّهَا ، وَظَنُوا أَنَّ فِعْلَهُمْ هَذَا يَنْفَعُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ
وَيُقْرِبُهُمْ إِلَيْهِ زَلْفَى ، كَمَا قَدْ نَصَّ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَلَى فِعْلِ مَشْرِكِي الْعَرَبِ فِيمَا بَعْدَ حَيْثُ
قَالُوا (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زَلْفَى) (١) فَلَا شَكَّ أَنَّ قَوْلَهُمْ هَذَا كَانَ
عَنْ جَهْلٍ بِحَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ .

وَحَدِيثُ الْبُخَارِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْأَوْثَانِ الَّتِي عَبَدَتْ مِنْ دُونِ اللَّهِ بَادِيَ الْأَمْرِ
نَصٌّ صَرِيحٌ وَبَيَانٌ شَافٍ لِمَجْمُوعَةِ مِنَ الْعَوَامِلِ وَالْأَسْبَابِ الَّتِي أَضَتْ بِالنَّاسِ إِلَى عِبَادَةِ
غَيْرِ اللَّهِ وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ (وَلَمْ تَعْبُدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أَوْلَاكَ وَنُسِخَ الْعِلْمُ
وَفِي رِوَايَةٍ "نُسِيَ الْعِلْمُ" عُبِدَتْ) (٢) فَيُظْهِرُ لَنَا أَنَّهُ إِذَا مَحِيَتْ آثَارُ عِلْمِ التَّوْحِيدِ
وُطِّسَتْ مَعَالِمُهُ وَحَقَائِقُهُ وَفُشِيَ الْجَهْلُ فِي النَّاسِ وَاخْتَلَطَتْ عَلَيْهِمُ الْأُمُورُ ، وَقَعَسُوا
فِي الْمَحْظُورِ وَأَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَلَا يَقُومُ عَلَيْهِ دَلِيلٌ ، وَأَعْرَضُوا
عَنِ الْحَقِّ لِجَهْلِهِمْ بِهِ .

قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ ^{رحمه الله} : (وَالْأَسْبَابُ الْمَانِعَةُ مِنْ قَبُولِ الْحَقِّ كَثِيرَةٌ جَدًّا فَهِيَ الْجَهْلُ
بِهِ ، وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ الْغَالِبُ عَلَى أَكْثَرِ النَّفُوسِ ، فَإِنَّ مَنْ جَهَلَ شَيْئًا عَادَاهُ وَعَادَى
أَهْلَهُ) (٣) .

وَاللَّهُ تَعَالَى لَمْ يَثْبِتِ الْخَشْيَةَ وَالْخَوْفَ مِنْهُ وَحَصَرَ الرَّجَاءَ فِيهِ إِلَّا لِأَهْلِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ
لِلْجَاهِلِينَ .

قَالَ تَعَالَى : (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) (٤) .

وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ مَنْ يَعْرِفُ اللَّهَ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُقَدِّمَ عَلَى الشَّرْكِ فِي أَيَّةِ
صُورَةٍ مِنْ صُورِهِ (٥) .

فَأَهْلُ التَّوْحِيدِ يَعْرِفُونَ حَقَّ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَيَقْدِّرُونَ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ بِخِلَافِ الَّذِينَ
عَمِيَ عَلَيْهِمُ الْحَقِيقَةُ وَعَمَّهِمُ الْجَهْلُ فَإِنَّهُمْ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ

١ - سورة الزمر آية ٣

٢ - سبق تخريجه

٣ - هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى ، محمد بن أبى بكر بن قيس
الجوزية ، ص ١٦ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

٤ - سورة فاطر آية ٢٨

٥ - جاهلية القرن العشرين ، محمد قطب ، ص ٦٥ .

حق قدره (١) فابتدعوا لأنفسهم معبودات جديدة وعبادات على قدر تصورهم
ومعرفتهم الناقصة .

وقد كان الجهل بحقيقة التوحيد سببا من أسباب الوثنية وعبادة غير الله في كل
زمان ومكان ، وفي القديم والحديث ، فالمشركون من عرب الجاهلية كان من أسباب
شركهم جهلهم بالله تعالى وعدم إدراكهم لحقيقة الألوهية ، فظنوا الله عظيما من
العظماء أو ملكا من الملوك فقاوسه على ما يشاهد منه من أحوال الملوك والأباطرة ،
فتوسلوا إليه بغيره وتقربوا إليه بعبادة الأصنام والأوثان من الأشخاص والأشجار
والحجارة ، فلم يعبدوه وأصروا واستكبروا عن عبادته بالرغم من إقرارهم له بالربوبية
فلم يشركوا معه في ذلك أحدا ، غير أن هذا لم يمنعهم عن عبادة غيره وذلك
لجهلهم بحقيقة العبودية لله وأسلوبها الصحيح .

ولا يزال الاستمرار على هذا الفهم الخاطئ لحقيقة التوحيد سببا في كل الوثنيات
، فهناك الكثير من العلماء على اختلاف تخصصاتهم ومعارفهم يظنون أن التوحيد هو
مجرد الإيمان بوجود الله تعالى والإقرار بربوبيته لهذا الكون وما فيه ، وفهموا على
هذا أن (الإله) هو الصانع القادر على الاختراع في حين أن الإله هو المعبود
الذي تأله القلوب بالذل والخضوع والطاعة وسائر ألوان العبادة .

وهذا الجهل لحقيقة التوحيد الصحيح (٢) الذي جاء به الرسل من عند الله
كان وما يزال سببا في شرك الأولين والآخرين ، فاتخذوا الأبحار والرهبان أربابا
من دون الله يخضعون لهم ويتبعونهم فيما أحلوا وحرموا من غير سلطان من الله .

ولهذا قال عبد القادر عود^{عليه السلام} : (هو لا يؤذون اليوم يؤذون من آذنتهم
خمس مرات في كل يوم وليلة وينادون بأعلى أصواتهم (أشهد أن لا إله إلا الله)
وأنت ترى أن الناس على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم يسمعون هذا النداء ولا تقض
مضاجعهم لسماعه وذلك أن الداعي لا يعرف : إلام يدعوا الناس ؟ ولا الناس
يتفطنون إلى ما تضمنه الكلمة بين جنبيها من دعوة سامية وغاية جلييلة ، ولكن
لوعلمت الدنيا ما يشتمل عليه هذا النداء من غاية بعيدة المدى ، وأن المنادى

١ - سورة الزمر ، آية ٦٢ .

٢ - انظر مثلا تعريف التوحيد في الملل والنحل ، للشهرستاني ، ج ١ ص ٤٢ ،

بتحقيق محمد كيلاسي ، رسالة التوحيد لمحمد عبده ، ص ١٥٢ .

ينادى بعزم وإصرار ، لانقلبت الأرض غير الأرض ولتنكرت الوجوه ، وما يدريك كيف
تستقبل الدنيا - التى رضعتم بلبان الجاهلية وترعرعت فى مهدها - هذا النداء
إذا عرفت أن النداء يقول أن لا ملك لى إلا الله ، ولا حاكم لى إلا الله ، ولا أخضع
لحكومة ولا أعترف بدستور ولا أنقاد لقانون ولا سلطان على محكمة من المحاكم الدينية
ولا أطيع أمرا غير أمره ، ولا أتقيد بشئ من العادات والتقاليد الجاهلية المتوارثة
ولا أسلم شيئا من الامتيازات الخاصة ، ولا أدين لسيادة أو قداسة ، ولا أستخذى
لسلطة من السلطات المتكبرة فى الأرض المتمردة على الحق ، وإنما أنا مؤمن بالله ،
مسلم له ، كافر بالطواغيت والآلهة الكاذبة من دونه ، فما يدريك هل تسمع الدنيا
وأهلها هذا النداء فتسكت عليه ؟ لا . لا . والله إنها تنقلب عليك عدوا وتنكسر
وجوه أهلها لك ويعلمون الحرب عليك بمجرد سماع هذه الكلمة (١) .

فالجهل بحقيقة التوحيد هو الذى جعلهم يسكنون فيه ، وهو الذى جعل هذا
النداء يرضى بالعبودية لغير الله فى ظل الأنظمة الوثنية .
ومن هنا فلا خلاص لنا من هذه الوثنية إلا بالعودة لفهم التوحيد وتحقيقه فى
واقع حياتنا نظيفا من كل أدراى الشرك ظاهره وخفيه .
وهكذا بيد وجليا أن الجهل بحقيقة التوحيد أوقع الأولين والآخريين فى عبادة
غير رب العالمين .

٤ - الميل الرابع - الاتجاه إلى المحسوسات والميل إليها :

يرى الكثير أن الإنسان ميال بطبعه إلى الركون للمحسوس وكل ما يقع تحت حواسه
ومشاهداته ، أكثر من ميله إلى ما لا يقع تحت حواسه من المعقولات ، وأن هذا
الميل الفطرى أوقع الإنسان فى عبادتها وتقديسها وزيادة الاهتمام بها .

يقول البيرونى : (معلوم أن الطباع العامى نازع إلى المحسوس نافر عن المعقول
الذى لا يعقله إلا العاملون الموصوفون فى كل زمان ومكان بالقلّة ، ولسكنه إلى
المثال عدل كثير من أهل الملل إلى التصوير فى الكتب والهيكل كاليهود والنصارى
ثم المنانية خاصة وناهيك شاهدا على ما قلته أنك لو أبديت صورة النبى صلى الله
عليه وسلم أو مكة أو الكعبة لعمامى أو امرأة لوجدت من نتيجة الاستبشار فيه دواعى

(١) التقبيل وتعفير الخدين والتمرغ كأنه شاهد المصوّر وقضى بذلك مناسك الحج والعمرة) .
ويقول وجدى فى دائرته : (والسبب فى عبادة الأوثان ليس يصعب على الفهم
فإن الإنسان فى حالته الساذجة مفطور على تجسيد ميوله وعواطفه ، وتجسيم خيالاته
ومدركاته فيريد أن يرى بنظره الإله الذى يتوجه إليه بقلبه فإن منعه الدين من تشبيهه
خالقه بالمخلوقين عمّد إلى الحيلة فاتخذ له من صالحه أو قد يسيه وسطاء ونصب
لهم التماثيل إكباراً لشأنهم فى الظاهر وعبادة لهم فى الواقع) (٢) .

وقد تبين من الآثار المتقدمة أن غلبة نزعة الميل إلى المحسوس دفعت البشرية
وأرقعتها منذ القدم فى الوثنية ، فصالت إلى التجسيد والتجسيم والتمثيل والتحت
والتصوير ، فإن أحفاد الأموات من الصالحين وأتباعهم من قوم نوح عليه السلام قد
أوقعهم التعلق بالمحسوس فى عبادة غير الله فقالوا : لو صورناهم كان أشوق لنا إلى
العبادة ، فصوروهم ثم انتهى الحال بعبادة تلك المجسمات والتماثيل من دون
الله لفرط التعلق بالمحسوس والميل إليه ، فرجع بذلك من قيمة المادة وأعلى شأورها
وحطّ من كمال الله وقدره وغطه حقه فى إخلاص العبادة له .

وقد اعتبر محمد حسين هيكل أنّ الميل للمحسوس من أعظم وأكبر ما يشد الإنسان
إلى الحرص على عبادة الأوثان والبقاء فى الوثنية قدما وحدثا ، فعبد الشمس
والقمر والنار والحجارة وخلق على الأوثان من صور التقديس ما لا تزال نراه فى
بلاد العالم جميعا مع ما يزعم هذا العالم من تقدم فى العلم وسمو فى الحضارة (٣) .

ومن هنا فإن المتتبع للتاريخ يجد أن بنى الإنسان قد ركوا إلى المحسوس
فى عبادتهم مرات كثيرة كلما انحطوا فكريا ولم يرتفعوا إلى درجة التجريد وتقبل المعقول
فإنهم إذا تصوروا موجودا تصوروه محسوسا فاتخذوا أصناما آلهة يعبدونها من دون الله .
(وتكاد كلّ العصور أن تكون حاوية لمجموعات من هؤلاء الحسينيين فى عبادتهم
لقد رأيناهم فى عهد نوح وعهد إبراهيم وعهد موسى وعهد محمد صلى الله عليه
وسلم وعليهم جميعا ، ويظهر أن الذين يرتبطون بالمحسوس فى العبادة قلما

١ - تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة ، أبو حيان بن أحمد

البيرونى ص ٨٤ ، ط ٢ ، مجلس دائرة المعارف العثمانية - الهند .

٢ - دائرة معارف القرن العشرين ، ج ١٠ ، ص ٦٣٩ ، مادة وثن .

٣ - انظر : حياة محمد ، محمد حسين هيكل ، ص ٩٨ ، ط ١٣ ، دار

يستطيعون التخلص مما هم فيه .

إننا نجد قوم موسى يتطلعون إلى عبادة الأصنام ولما تجفُّ أقدامهم من ماء البحر الذي فلقه الله لهم ، وأغرق فرعون فيه^(١) ، قال تعالى : (وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون ، إن هؤلاء متبرِّ ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون)^(٢) .

ولكن بنى إسرائيل قد استحكمت فيهم النزعة المادية وطلبوا من موسى - عليه السلام - أكثر من هذا بأن يُريهم الله جبهة حتى يؤمنوا به .

قال تعالى : (وإذ قلت يا موسى لن تؤمن لك حتى نرى الله جبهة)^(٣) .

ومما تجدر الإشارة إليه والتنبيه عليه أن الاتجاه إلى المحسوسات والميل إليها ومن ثمَّ الوقوع في عبادتها من دون الله لم يكن عبادة لها لذاتها المجردة مهما كان نوع تلك المعبودات ، (فالمشهور الذي أجمعت عليه أقوال الباحثين في نفسيات الوثنيين وعقلياتهم أنه ليس أحد من عباد الأصنام والأوثان كان هدف عبادته فسسى الحقيقة هياكلها الملموسة ولكن غاية أمرهم أنهم كانوا يزعمون هذه الأشياء مهبطًا لقوة غيبية أو رمزًا لسرٍّ غامض يستوجب منهم التقديس البليغ)^(٤) .

وهذا معنى قوله تعالى حكاية عن مشركى العرب : (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى)^(٥) ، فهى مجرد وسائل ووسائط لا غير .

وكما كان ميل الإنسان إلى المحسوس وظواهر الأشياء المادية سببًا فى انحرافه عن أصل فطرته وعبادته لما يشاهده من ظواهر الطبيعة ، منذ غابر الأيام فى مراحل الطفولة البشرية ، فهو ما زال سببًا فى عصرنا الحاضر رغم أنها كما يقال قد اكتمل

١ - الوجدانية مع دراسة فى الأديان والفرق د . بركات عبد الفتاح دويدار ، ص

١٤ ، مكتبة النهضة المصرية .

٢ - سورة الاعراف آية ١٣٨ - ١٣٩ .

٣ - سورة البقرة آية ٥٥ .

٤ - الأديان فى القرآن ، محمود الشريف ، ص ٤٨ .

٥ - سورة الزمر آية ٣ .

نضجها ، وشبّت عن الطوق^(١) ، وبلغت حدّاً من التقدم العلمى والفكرى ربّما لم يبلغه بنو الإنسان من ذى قبل .

فقد استشرت النزعة المادية فى هذا العصر ووصلت حدا لم تصل إليه فى حياة الأوائى من قبل حيث إن المادة نفسها أصبح لها من القداسة والهيمنة على حياة الإنسان أكثر من ذى قبل ، (حتى قيل بأنها أزلية أبدية وأنها مصدر كل شىء فى الوجود ولا أثر لقوة غيبية ولا سلطة روحية فى شىء ما)^(٢) .

(وهكذا ، فتحت ضغط حاجات الإنسان الملحة وضرورات حياته المادية ومقومات وجوده من هذه الناحية ، اندفع إلى التفاعل بقوة مع هذه المادة وبالغ فى ذلك وأسرف حتى انحصر تصوّره عن ما سواها من وجود ، وأغفل عقله كل ما عداها من قيم روحية ومثل إنسانية ومبادئ أخلاقية ، وغد عند أنكر كل ما عدا المحسوس من موجودات وغالط نفسه ، وخالف طبيعته ، فحكم حكمه الجائر القاصر : بأنه (لا موجود إلا المحسوس) وأنّ (كل ما لا يناله الحس بجوهرة ففرض وجوده محال) دون أن يلتفت إلى ما فى ذلك من إنكار لذاته ولكيانه ونفسه)^(٣) .

ومن هنا فقد أصبح رهين الظروف المحيطة به ، فأوضاعه المادية ومشاهداته وتجاربه الخاصة هى الإطار الذى يحكم فكره واتجاهه ، ولا يؤمن إلا بما يراه ولا يصدق إلا بما يدّخله بيده فى المعامل والمختبرات وما يصل إليه عقله بعد ذلك من نتائج محسوسة وآثار ملموسة ويتنكر لنداء فطرته التى تقر بوجود قوة غيبية مهيمنة لا تخضع لهذه المقاييس المحدودة ولا تخضع لشيء من مقاييس البشر .

يقول راندل : (إنه لأقرب إلى الطبيعى والمعقول أن نشق من صور المادة كل شىء موجود لأن كل حاسة من حواسنا تبرهن على وجودها ونختبر كل لحظة نتائجها بأنفسنا ونراها فاعلة متحركة ، تنقل الحركة وتولد القوة دون انقطاع ، من أن نعزو تكون الأشياء لقوة مجهولة ولكائن روحى لا يستطيع أن يخرج من طبيعته ما ليس هو بذاته ، كائن يعجز بحكم الجوهر المنسوب إليه أن يفعل أى شىء أو أن يحرك أى شىء)^(٤) .

١ - هذه أقوال الشيوعيين .

٢ - قذائف الحق ، محمد الغزالى ، ص ١٧٢ ، المكتبة العصرية ببيروت .

٣ - العقيدة والأخلاق ، محمد بيصار ، ص ١٣٩ .

٤ - تكوين العقل الحديث ، ج ١ ، ص ٤٣٩ نقلا عن مذاهب فكرية ص ٢٦٤ .

وهذا الذي جعل (برينتون) يقول : (إن السببية تهدم كل ما بنته الخرافات والإلهامات والمعتقدات الخاطئة في هذا العالم) (١) .

هذا هو - كما يقول محمد البهس - منطق الطفولة البشرية الذي يقضى بمأن الوجود لا يكون إلا لمحسوس يشاهد بالعين أو يسمع بالأذن أو يلمس باليد ، وأن ما عدا المحسوس هو غير موجود (٢) .

(ولا بد لهذا الاتجاه أن يفرض حتما وثنية وشركا في التقديس والعبادة فصاحب الاتجاه المادي يفتش عن نفع مادي يحصل عليه ، أو عن اتقاء ضرر مادي يتوقع أن يصل إليه ، وفي كلا الجانبين يميل ذات اليمين مرة وذات اليسار مرة أخرى ليجد "الوسيط" الذي يقدم له النفع أو يدفع عنه الضرر ، ويتعدد الوسيط وتختلف قرابين التقديس والاحترام والعبادة ، وهنا يكون الشرك وهنا تكون الوثنية) (٣) .

وهكذا تكون النزعة الحسية التي في الإنسان سببا في شقائه وانحرافه عن عقيدة التوحيد التي فطر عليها منذ الأزل ، وأنه حتى يستمر على هذه الفطرة الربانية لا بد له من التخلص من الماديات وعدم التعلق بها والاعتماد عليها وحدها ، والإيمان بقوة غيبية عليها تسخر كل شيء وتسيطر عليه وتدبره ، وإنيها هي وحدها التي تستحق جميع مظاهر العبادة والتقديس .

٥ - السبب الخامس - الانغماس في الشهوات واتباع الشيطان :

إلى جانب مجموعة العوامل والأسباب السابقة التي صرفت الناس عن أصل فطرتهم وعبوديتهم لله تعالى وحده ، يمكن أن نضيف سببا آخر ، يتمثل في الانغماس في المتع والشهوات واتباع خطوات الشيطان ووساوسه فإن الشيطان كان سببا في خروج آدم وزوجه من الجنة بفعل وسوسته لهما ووعدهما الوعود الكاذبة والأمانى الباطلة ثم تخليه عنهما ونكوصه على عقبه وقد خسر الدنيا والآخرة .

وقد حذر الله تبارك وتعالى عباده من اتباع الشيطان والانقياد له قال تعالى :
(ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان أنه لكم عدو مبين) (٤) .

١ - منشأ الفكر الحديث ص ١٥١ نقلا عن مذاهب فكرية ص ٢٦٣ .

٢ - من مفاهيم القرآن في العقيدة والسلوك ، د . محمد البهس ، ص ٩ ، ط ١ ، دار الفكر .

٣ - المجتمع الحضاري وتحدياته ، د . محمد البهس ، ص ٦٤ .

٤ - سورة يس آية : ٦٠ .

وقد علمنا من حديث ابن عباس في بيان وقوع الناس في عبادة الصالحين من دون الله أن الشيطان قد أوحى إلى الأحفاد وذرياتهم أن اصنعوا لكم تماثيل وتصاوير وأنصابا وسموها بأسماء أولئك الآباء والأجداد الصالحين لتذكروهم وتتأسسوا بهم في العبادة وزيادة التقرب إلى الله ، فركبوا إليه وثقوا بنصيحته وفعلوا ما حدّثهم به ولم يلبثوا أن ماتوا فكانت فرصته الجديدة فجاء إلى من بعدهم - كما ذكرت رواية الطبري - وقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يمشون المطر فعبدوهم (١) .

قال القرطبي^{رحمه الله} : (إنما صوروا أولئهم الصور ليتأسسوا بهم ، ويتذكروا أفعالهم الصالحة ، فيجتهدوا كاجتهادهم ، ويعبدوا الله عند قبورهم ، ثم خلفهم قوم جهلوا مرادهم ، فوسوس لهم الشيطان أن أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها) (٢) .

٦ - توجيه الطغاة والمفسدين للناس لعبادة غير الله :

في كل جاهليات التاريخ ووثنيات الأمم - قد يمها وحديشها - لا يخلو الأمر من وجود بعض الطغاة الذين يهيمهم أن يخضع لهم الناس وينقادوا لرأيهم ، إذا قالوا سمعوا لقولهم ، وإذا أمروا سارعوا لتنفيذ أمرهم وتلبية حاجاتهم ، يحبسون دائما أن يكون الناس عبيدا لهم من دون الله ، يتحكمون في رقاب البشر ويتصرفون في شؤونهم تصرف الإله الخالق الرازق المدبر .

وهذا لا يمكن أن يتحقق لهم ما دام الناس عابدين لله وحده ومربوطين به ، ومشددين إليه عن وعي وإخلاص ، لا يؤمنون بغيره إليها يستحق منهم العبودية والذل والطاعة والانقياد .

ولذلك فإن هؤلاء الطواغيت يحرصون دائما على صدّ الناس عن عبادة الله ، وتوجيههم لعبادة ما سواه على سبيل الاستقلال أو الشرك في العبادة ، وهذا في الحقيقة عبودية لغيره تعالى مهما كان نوع المعبودات الباطلة .

وما أن يبدأ الناس بالانحراف التدريج عن عقيدة التوحيد وعبادة الله وحده ، حتى يتهيأوا للسقوط في عبادة أولئك الطغاة المتألهين ويسلموا لهم قيادهم ، ويعطوهم حق التصرف في شؤونهم .

١ - سبق تخريجه .

٢ - الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، ج ١٨ ، ص ٣٠٧ ، دار الكتيب

العربي للطباعة والنشر .

وقد عرف التاريخ البشرى كثيرا من هؤلاء الطغاة ، من الفراعنة والقيصرية ، والأكاسرة والأباطرة والحكام والملوك ورؤساء الأقباط والأخبار والرهبان والباباوات من رجال الدين ، وكان لهم دور كبير فى نشر الوثنية والدعوة إليها وتوجيه الناس نحوها ، وصدّهم عن العبودية لله وحده لا شريك له ، بأساليب متعددة تقوّم تارة على الخداع والمراوغة والاستدراج ، وتارة أخرى على القهر والاستبداد والتوجيه المباشر بقوة السلطان .

فهوذا فرعون مصر ، وسامرى بنى إسرائيل ، وقسطنطين الروم وعمر بن العرب وأخبار اليهود ورهبان النصارى ، وغيرهم مما لا يحصى عددا ، كلهم قد بلغ جهده فى توجيه الناس نحو الباطل والانحراف عن عبادة الله إلى معبودات شتى مع الله أو من دونه ، واتخاذهم أخيرا أربابا من دون الله يحلون ويحرمون .
وقد امتدح الله الأنبياء والرسل ، ورأهم من هذا الأسلوب الماكر والتوجيه الخبيث ، فما كانوا إلا قادة وهداة مخلصين إلى دعوة الناس إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وحرى على كل المعبودات الوثنية التى اتخذها الناس من دون الله .

قال تعالى : (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) (١) .

وقال سبحانه وتعالى مخاطبا عيسى عليه السلام : (وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذنى وأمى إلهين من دون الله ، قال سبحانه ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق) (٢) .
ولكن أولئك الطغاة قالوا للناس كونوا عبادا لنا ولغيرنا من دون الله فصد وهم عن الذكر وعبد وهم الأوثان .

فقال فرعون مصر : (يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى) (٣) .
وكذلك أوحى السامرى لبنى إسرائيل بعبادة العجل ، بعد أن صنعه لهم

١ - سورة آل عمران آية ٧٩

٢ - المائدة آية ١١٦

٣ - القصص آية ٣٨

من حلّيتهم وجوهراتهم (١) .
وتنصّر الإمبراطور الرومانى قسطنطين واستحوذ على النصرى فأفسد عقيدتهم
واستعبد هم للأوثان من دون الله .
وكذ لك فعل عمرو بن لحي بعرب الجاهلية فجلب لهم الأصنام وأوحى إليهم أنها
تنفعهم من دون الله فعبدوها .
وهكذا يفعل الطغاة فى كل زمان ومكان ، فهم لا يستريح لهم بال ولا يهنأ
لهم عيش ولا يستقيم لهم سلطان ، إلا إذا حالوا بين الناس وبين عبادة الله وحده ،
وأعدوا لهم معبودات باطلة ووجهوهم إليها بالترغيب والترهيب .
ولعله يكون من هذا الباب ما يفعله الآباء والأمهات فى توجيه أولادهم وجهة
وثنية ، ويحولونهم عن الفطرة التى فطروا عليها .
قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه الشيخان عن أبى هريرة : (ما من مولود
إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) (٢) .
وقوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه : (..... وإنى خلقت عبادى
حنفاءً كلهم فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحلت لهم ،
وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا) (٣) .
وهكذا فإن شياطين الإنس والجن لا يتورعون عن إقامة معبودات من دون الله
ويوجهون الناس إليها ليخلو لهم الجو وتمكنوا من رقاب العبيد .
ودعوة التوحيد دائما تحرير لهم ، لا المسترقين والمستعبدين وحصر لعبوديتهم
فى الله تعالى وحده .
وأخيرا فإنه يمكننا القول بأن الأسباب والعوامل التى كانت وراء انحراف البشرية
عن التوحيد إلى الوثنية منذ قوم نوح عليه السلام هى تقريبا ذات الأسباب والعوامل
التي دفعت بالعرب إلى عبادة الأوثان والأصنام وحرقتهم عن عقيدة التوحيد التى
أرسى قواعدها سيدنا إبراهيم ومن بعده إسماعيل عليهما السلام .

١ - انظر سورة طه آية ٨٥ - ٨٨ .

٢ - سبق تخريجه .

٣ - سبق تخريجه .

المبحث الثاني

نشأة الوثنية في جزيرة العرب

تظهرت الأرض من الأوثان والأصنام وعاد الناس إلى أصل فطرتهم حيث لم يبق مع نوح عليه السلام إلا الموحدون ، وتكاثر أبناؤه من بعده وعاشوا ما شاء الله لهم على عبادته وحده ، وجاء من بعدهم عاد قوم هود ، ويبدو أن ذراري نوح من بعده مع طول الأمد قد انحرفوا عن التوحيد مرة أخرى فبعث الله هودا يدعو إلى عبادة الله تعالى وفقى الأمر إلى أن جاء سيدنا إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء فكان له صراع طويل ومرير مع الأوثان وعبادتها حيث يعتبر عهده بداية عهد جديد في الدعوة إلى توحيد الله وترك عبادة ما سواه ، ومن يوم أن غرس إبراهيم شجرة التوحيد وهي تنمو وتزداد حيناً وتذبل وتضمحل حيناً آخر ، تبعاً لبعثة الرسل ، ووصلت ديانة التوحيد إلى العرب عن طريق إسماعيل عليه السلام حيث استقر به المقام في مكة ومقيت آثارها زمننا طويلاً إلى ما قبل بعثة خاتم المرسلين ، ومقيت مكة بالذات والجزيرة العربية عموماً خالية من الأوثان زمننا طويلاً حتى ظهرت فيها الوثنية من جديد على حساب عقيدة التوحيد (١) .

فمتى وكيف نشأت الوثنية في جزيرة العرب ؟

بيد وأن نشأة الوثنية عند العرب وانتشارها فيهم يلقى شيئاً من الغموض كما هو الحال في شأن النشأة الأولى للوثنية وبذلك يصبح من العسير على الباحث أن يقطع بتحديد زمن نشأتها وظهورها في العرب ، كصعوبة القطع في تحديد النشأة الأولى للوثنية ، وعمدتنا في تحديد بداية الوثنية عند العرب روايات الكلبى في كتاب الأصنام وهي في كثير من ألفاظها تعلل كيفية ظهور الأوثان ، ولا تحدد بدايتها ، وإن كان في بعضها إشارة إلى ظهورها بعد إسماعيل عليه السلام بزمن قد لا يكون طويلاً وفي هذا نظر .

قال : (إن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام لما سكن مكة وولد له بهما ، أولاد كثير حتى ملأوا مكة ونفوا من كان فيها من العمالق ضاقت عليهم مكة ، ووقعت بينهم الحروب والعداوات وأخرج بعضهم بعضاً ففسحوا في البلاد والتماس المعاش

١ - انظر دعوة التوحيد ، د . محمد خليل هراس ، ص ١٢٥ - ١٦٣ ، من غير

وكان الذي سُلخ بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم وصبابة بمكة ، فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، تيمنا منهم بها وصبابة بالحرم وحبا له ، وهم بعسده يعظمون الكعبة ومكة ويحجون ويعتمرون على إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام .
ثم سُلخ بهم ذلك إلى أن عبدوا ما استحَبوا ، ونسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا بدِين إبراهيم وإسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان ، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم ، وانتجشوا ما كان يعبد قوم نوح عليه السلام منها على إرث ما بقى فيهم من ذكرها ، وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتنسكون بها من تعظيم البيت والطواف والحج والعمرة والوقوف على عرفة ومزدلفة وإهداء البدن والإِهلال بالحج والعمرة مع إدخالهم فيه ما ليس منه (١) .

ويقول في رواية أخرى له تكاد تناقض سابقتها ولا تتفق معها على تحديد بدء الوثنية في العرب يقول : (كان أول من غير دين إسماعيل عليه السلام فنصب الأوثان وسبب السائبة ووصل الصيلة وحرّ البحيرة وحمى الحامى عمرو بن لحي) (٢) .
ثم راج الكلبى يبين كيف كان دور عمرو بن لحي في استحداث الأوثان ، وإقامتها ، فذكر في ذلك روايتين مختلفتين .

قال في الأولى : (كان عمرو بن لحي كاهنا وقد غلب على مكة وأخرج منها جرهما وتولى سد انتها ، وكان له رثى من الجن ، وكان يكنى أبا ثمامة فقال له الجن عجل بالمسير والظعن من تهامة بالسعد والسلامة .

قال عمرو ابن لحي : جبر ولا إقامة .
قال الجن : إيت صفا جدة ، تجد فيها أصناما معدة ، فأوردّها تهامة ولا تهساب ثم ادع العرب إلى عبادتها تجاب (٣) .

فأتى عمرو بن لحي شط جدة فاستشارها ثم حملها حتى ورد تهامة ، وحضر الحج فدعا العرب إلى عبادتها قاطبة ، فأجابه عوف بن غزرة بن زيد اللات فدفع إليه وداً فحملة إلى قومه بدومة الجندل وسقى ابنه عبد وداً (٤) .

١ - الأصنام ص ٦ .

٢ - " ص ٨ .

٣ - هكذا وردت والصواب حذف الألف لأن الفعل الأول مجزوم بلا الناهية والثاني

مجزوم في جواب الأمر .

٤ - الأصنام ص ٥٤ - ٥٥ .

والأصنام التي يشير إليها هنا هي الأصنام التي كانت في قوم نوح حيث إنه ذكر : (أن ماء طوفان نوح قد أهبط هذه الأصنام من جبل نود بالهند إلى الأرض ، وجعل الماء يشتد جريه وعبابه من أرض إلى أرض حتى قذفها إلى أرض جدّة ثم نضب الماء ومقيت على الشط فسفت عليها الرياح حتى وآرتها) (١) .

وقال في الرواية الأخرى : (إن عمرو بن لحي قد مرض مرضا شديدا ، فقيس له إن باللقاء من الشام حمة) (٢) إن أتيتها برئت ، فأتاها فاستحم بها فبرئ ووجد أهلها يعبدون الأصنام فقال ما هذه ؟ فقالوا نسقى بها المطر ونستنصر بها العدو فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة) (٣) .

وهكذا نجده يجعل بداية الوثنية على يد هذا الهاغوث ، فتكون بذلك قد تأخرت عن عهد إسماعيل وأولاده زينا ليس بالقصير ، يمكن تحديده تقريبا بنحو أربعمئة سنة قبل الهجرة النبوية فهي بذلك أقصر وثنيات العالم عمرا كما قال أنور الجندی (٤) .

والذي أراه أن الجمع بين الروايتين هو الصواب في تحديد نشأة الوثنية في جزيرة العرب ، وانحرافهم عن ديانة التوحيد التي جاءهم بها سيدنا إسماعيل عليه السلام ، وذلك لما رواه البخاري عن ابن عباس قال : (صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد) (٥) .

وما صحح عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (رأيت جهنم يحطم بعضها بعضها ، ورأيت عمرا يجرق صبه وهو أول من سبب الموائب) (٦) .

وفي الصحيح عن جابر رضي الله عنه عن رسول الله قال : (عرضت على النار ورأيت فيها عمرو بن لحي يجرق صبه في النار ، وأشبهه من رأيت به معبد بن أكنهم

-
- ١ - الأصنام ص ٥٣ .
 - ٢ - مازالت حتى الآن وهي عين ماء جوفية كبريتية حارة تنفع في الأمراض الجلدية والروماتيزم .
 - ٣ - الأصنام ص ٨ ، وانظر السيرة لابن هشام ج ١ ص ٧٧ .
 - ٤ - الإسلام والعالم المعاصر ، أنور الجندی ، ص ٩٥ ، ط ١ .
 - ٥ - فتح الباري ج ٨ ص ٦٦٧ وانظر الروض الأنف للسهيلى ج ١ ص ٦٣ .
 - ٦ - البخاري في تفسير سورة المائدة ، فتح الباري ج ٨ ص ٢٨٣ ، طبعة عمدة الباقي .

الكعبي ، قال معبد يا رسول الله أيخشى علي من شبهة وهو والد ؟ فقال لا ، أنت مؤمن وهو كافر ، قال حسين : وكان أول من حمل العرب على عبادة الأوثان (١) .
وفى السيرة : (أنه كان أول من غير دين إسماعيل ، فنصب الأوثان ٠٠٠) (٢)
ويقول د . جواد علي : (ويذكر أهل الأخبار أن الجاهليين جميعا ممن قحطان وعدنان كانوا قبل عمرو بن لحي موحدين يعبدون الله جلّ جلاله وحده ، ولا يشركون به ولا ينتقصونه ، فلما جاء عرب بن لحي أقصد العرب وشرب بينهم أضاليل عبادة الأوثان بما تعلمه من وثني بلاد الشام حينما زارهم وحلّ بينهم فكان داعسى الوثنية عند العرب والمبشّر بها ، ومضّ لهم الأول ، وهو على رأيهم مؤرّع الأضغمام بين القبائل ومقسّمها عليهم) (٣) .

وقد روى المسعودي في مروج الذهب أبياتا من الشعر لسحنة بن خلف الجرهني على حدوث الشرك بسبب عمرو بن لحي قال (٤) :

يا عمرو إنك قد أحدثت آلهة شتى بمكة حول البيت أنصابا
وكان للبيت رب واحد أبدا فقد جعلت له في الناس أربابا
لتعرفن بأن الله في مهمل سيصطفى د ونكم للبيت حجابا
كلّ هذا يجعلنا نجزم أن وثنية العرب نشأت متأخرة عن عهد إسماعيل وأنها كانت من جراء ما فعله عمرو بن لحي وربما ساعده في ذلك قرينه من شياطين الجن فاجتمع لشركها شيطان الجن ، وشيطان الإنس عمرو بن لحي الذي استحوز على سداثة البيت الحرام ، ودانت له العرب واتخذوه ربا لا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة فأمرهم بعبادة اللات فعبدوها .

وكان فوق ذلك قد ملكهم بانفائده وبذله للكساء والطعام في المواسم فرمما كان ينحرف في الموسم عشرة آلاف بدنة ، ويكسو عشرة آلاف حلة (٥) .

١ - البخاري في المناقب ٩ ، وتفسير سورة المائدة ، وسلم في الجنة ٥٠ ، وأحمد

ج ١ ص ٤٤٦ .

٢ - السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٧٦ .

٣ - تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٥ ص ٧٥ ، انظر السيرة لابن هشام ج ١ ص ٧٦ ،

والسيرة لابن كثير ج ١ ص ٦٤ .

٤ - مروج الذهب - المسعودي ج ٥ ص ٢٩

٥ - انظر السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٧٧ ، وأديان العرب في الجاهلية ،

محمد نعمان الجارم ، ص ١٢٩ ، مطبعة مصر ١٩٢٣ م .

الفصل الثاني :

صور من الوثنية القديمة

- الصورة الأولى : عبادة الأصنام
- الصورة الثانية : عبادة النجوم والكواكب
- الصورة الثالثة : عبادة الأشخاص
- الصورة الرابعة : عبادة الحيوان
- الصورة الخامسة : عبادة النار

الفصل الثاني

في ذكر صور من الوثنية القديمة

لا أرمي من خلال هذا الباب أن أحيط بجميع ما عبد في الوثنية القديمة ، وإنما سيقصر الحديث على نماذج معينة من المعبودات الوثنية ، ولعل في ذكر هذا البعض ما يكفي للدلالة على مقدار الانحراف الذي أصاب بنى الإنسان في فترات الضلال والابتعاد عن سبيل الله وصراطه المستقيم ، ومفارقة الأصل الذي فطرهم عليه ، ومجاناة المنهج الذي ارتضاه لهم ، وسلوكوا سبلا كثيرة ملتوية ، تفرقت بهم عن سبيله ، فوقعوا في أسر المعبودات الباطلة ، وصاروا إلى عبودية ذليلة ، استعبدوا من خلالها للجمادات والأوهام والخيالات كما استعبدوا للحيوانات وطائفة من البشر ، ومظاهر الكون في الأرض والسماء ، ودفعهم لهذا عوامل سبقت الإشارة إليها لا مبرر لإعادتها . وهكذا ، فكلما ضلَّ الناس وانحرفوا عن دين الله وعبادته ابتدرتهم الشياطين فقادتهم إلى سواء الجحيم وعبدتهم لكلِّ ما لا يستحق العبادة ، بل ربما لا يستحق أدنى احترام أو توقير ، فعبدوا أنواعا من الألهة الزائفة مما لا يكاد العقل يصدق أنها عبادت من قبل الإنسان الجاهل فضلا عن الإنسان العاقل .

فالشمس عبادت والقمر عبد وكثير من الكواكب عبد ، وكذلك عبادت النار ، وعباد الماء وعبادت الحيوانات من بقر وخيل ، وعبادت الأشجار الضخمة والحجارة الكبيرة والأودية العميقة ، وأنهار المياه الجارية ، وعبادت الصور والتماثيل والأصنام والأنصاب وعباد الإنسان من بنى جنسه أحياء وأمواتاً ومنحهم من القداسة والتعظيم ما لا يستحقه إلا المنفرد بالربوبية والألوهية .

وباختصار شديد فقد عبد الإنسان كلَّ شيء ، مما وقع عليه حسه أو تصوُّره في الخيال ، فصار كلُّ شئٍ رائع وكلُّ شئٍ جذاب وكلُّ مرفق من مرافق الحياة إلهاً يعبد (١) .

بعض الصور الوثنية القديمة :

١ - الصورة الأولى - عبادة الأشخاص :

هذه هي الصورة الأولى للوثنية منذ نشأتها ، فقد كانت عبادة الأشخاص وتقديس الصالحين الأصل الأول للوثنية ، وذرئتها الأولى ، وما وقع الشرك في الناس

١ - انظر ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، أبو الحسن الندوي ، ص ٤٧ .

إلا من هذا الباب (١) .

وقد سبقت الإشارة إلى كيفية حدوث ذلك ، وأن الناس ظلوا على التوحيد ما يقارب عشرة قرون ما بين آدم ونوح عليهما السلام حتى وقع الشرك في قوم نوح بتصويرهم لبعض الصالحين من آبائهم وأجدادهم والعكوف على صورهم وتمثيلهم وقبورهم ، الأمر الذي أفضى بهم فيما بعد إلى عبادتهم من دون الله .

روى البخارى في صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما في تفسير قوله تعالى : (وقالوا لا تدرن آلهمكم ولا تدرن ودا ولا سواها ، ولا يغوث ويعقوق ونسرا) (٢) . قال : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم : أن أنصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون بها أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا ، ولم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسى العلم عبادت (٣) .

وإذا أضفنا إلى هذا ما روى عنه أيضا أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الحق ، تبين لنا أن تقديس الأشخاص والغلو في محبة الصالحين كان أول شرك حدث على وجه الأرض .

ومن هنا فهذه الصورة الوثنية قديمة جدا ، وعريقة حيث عرفها الإنسان منذ الماضى السحيق ، ثم أنها لم تلبث أن لازمته في كل الفترات التي كان يخفت فيها نور التوحيد ويبعد العهد برسالات السماء ، فنجد أن عباد قوم نوح عليه السلام تملك الفئة المؤمنة من آبائهم وأجدادهم وعبادة الأشخاص في مد وجزر إلى عصرنا الحاضر .

وهذه الصورة الوثنية وإن كانت قد بدأت بعبادة الصالحين والتعلق بهم وتمقص آثارهم والعكوف على صورهم وتمثيلهم وقبورهم من دون الله فهي لم تلبث أن اتسع نطاقها وامتدت ، ولم تعد مقصورة على عبادة الصالحين والتبرك بآثارهم والتماس نفعهم فشملت إلى جانب هؤلاء فئات من البشر ليسوا من أهل الصلاح والتقوى وإن بقى هؤلاء من ضمن الفئات المقدسة والمعبودة من دون الله تعالى ، فعبدت الطغاة والظلمة من فراغة تألهوا وأكاسرة وقياصرة وأباطرة تغطرسوا وقبادة

١ - انظر : مدارج السالكين ، ابن القيم ج ١ ص ٣٤٦ ، وفقه المجيد ص ٢٢٥ .

٢ - سورة نوح آية ٢٣ .

٣ - سبق تخريجه .

وأبطال نسجت لهم الدعاية الكاذبة والوهم والخرافة من هالات الجلال والعظمة لأفعال قاموا بها وأدار لعبوها في مجتمعاتهم كان لها وقع عظيم في نفوس السذج والبسطاء ما جعلهم محط آمال العامة وسهوى أفئدة تهم فأملوا فيهم الآمال وعلقوا عليهم تحقيق المحالات ، مما أوقع الناس في عبادتهم من دون الله والتوجه إليهم بالطاعة والاتباع ، والتوسل إلى رضاهم بتقديم القرابين والدعوات الخاصة لهم .

ومن هنا قال الندوي^{هفظه الله} : (وكانت الأكاسرة ملوك فارس يدعون أنه يجري فسى عروقهم دم إلهي ، وكان الفرس ينظرون إليهم كآلهة ، ويعتقدون أن في طبيعتهم شيئاً علوياً مقدساً فكانوا يكفرون لهم ، ونشدون الأناشيد بالوهيتهم ويرونهم فوق القانون وفوق الانتقاد وفوق البشر ، لا يجري اسمهم على لسانهم ، ولا يجلس أحد في مجلسهم ، ويعتقدون أن لهم حقاً على كل إنسان ، وليس لإنسان حق عليهم وأن ما يرضخون لأحد من فضول أموالهم وفتات نعيمهم إنما هو صدقة وتكريم ، من غير استحقاق ، وليس للناس قبلهم إلا السمع والطاعة — إلى آخر ما قال (١) .

اللهم سبحانه إن هذا افتئات عظيم على حق الألوهية ، بل لقد جعلوا لمعبودهم مكانة لا تكون ولا تنبغى إلا لفاطر السموات والأرض ، ولهذا فقد جعل لعباده عليه حقاً أن لا يعذبهم إذا لم يشركوا به شيئاً .

ويقول د . شلبي^{هفظه الله} : (ووجدت هذه الصورة نفسها في الصين ضمن الشخصيات التي قدسها الصينيون (كونفشيوس) الحكيم الصيني المشهور الذي كان فيما يذكر عنه أنه يدعو للخير والرحمة والإخلاص وآداء الواجب ، ولكن الصينيين من بعده انحرفوا بهذه الدعوة الخيرة واتجهوا إلى (كونفشيوس) يبنون له الهياكل ويعبدونه ويقدمون أمام تماثيله الذبائح والقرابين ويركعون لها ويسجدون .

وكذلك فسدت الديانة البوذية وأصبحت شخصية بوذا من المعبودات فنصبوا له التماثيل ونحوه الهياكل وتقربوا إليه بكل ألوان القربات وأنواع الطاعات (٢) .

وقد حرص اليونان على تمجيد أبطالهم وتخليد ذكراهم ، فنصبوا لهم التماثيل والهياكل والمعابد ، وأقاموا لتكريمهم أعياداً دينية ، وتقربوا إلى أرواحهم بتقديم القرابين ، وخصوصهم بصنوف من العبادات وأنزلوهم منزلة من التقديس لا تقبل كثيراً

١ - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٤٠ - ٤١ .

٢ - موسوعة الحضارة د . أحمد شلبي ج ٣ ص ٣١ .

عن منزلة الآلهة ، وماكوا بذكراهم الأفاصيص والأساطير ، وألقوا في الإشادة بهمهم
والترجمة لهم وتفصيل حروسهم وانتصاراتهم وآثارهم وما كان لهم من فضل على البلاد
وما امتازوا به على سائر الخلق من صفات مكتسبة موهوبة ، وألقوا في ذلك قصائد
طويلة ممتعة (١) .

وإلى جانب هذا عبد أهل الكتاب من اليهود والنصارى أحبارهم ورهبانهم
واتخذوهم أربابا لهم من دون الله ، فيما أحلوا لهم وحرموا عليهم تبعا لهواهم
وشهواتهم ، وكانت عبادتهم لهم هي الطاعة والاتباع ، كما أن أهل الكتاب كانوا قد
قدَّسوا أكثر أنبيائهم وجعلوا لهم بعض صفات الألوهية ، ووصلوهم بنسب البنوة إلى
الله تعالى عما يقولون علوا كبيرا .

قال تعالى : (وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله
ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ،
اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا
إلهها واحد لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) (٢) .

وإذ بقيت هذه اللوثة الوثنية تنتقل من أمة إلى أمة ومن جيل إلى جيل ،
فقد انتقلت إلى العرب بعد أن دانوا بعقيدة التوحيد زما طويلا على ما بقى فيهم
من دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، حيث صارت تلك المعبودات بأسمائها
وأشخاصها - كما سبق ذكره - في قبائل العرب ، وغضوا عليها بالنواجذ ، وربما
تحمسوا لعبادتها أكثر من سبقهم ، حتى أصبحت عبادتها تقليدا موروثا يصعب
التخلي عنه .

قال تعالى : (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما
وجدنا عليه آباءنا) (٣)

والعرب كغيرهم من أمم الأرض ضلَّت الطريق وانحرفت عن عبادة الله
وحده والإخلاص له ، عبدوا كثيرا من الأشخاص فقدَّسوا أهل الصلاح والتقوى وذوى

١ - انظر : حياة المجتمعات - غرائب النظم والتقاليد والعبادات ، د . علي

عبد الواحد وافي ، ج ١ ، ص ٥٠ ، مكتبة النهضة بمصر .

٢ - سورة التوبة آية : ٣٠ - ٣١ .

٣ - سورة لقمان آية : ٢١ .

الفضل والإحسان ، فعكفوا على قبورهم وتمائيلهم وكل ما يمتُّ إليهم بصلة ، وتقرَّبوا إليهم بأنواع القربات وأصناف الطاعات فلم يرضوا عليهم بأموالهم ولا بأولادهم .

ولقى الرسول صلى الله عليه وسلم من هؤلاء المشركين بعد بعثته الأذى ، الكثير والعنت الشديد ، وقضى في سبيل تخليصهم منها سنوات طويلة لا يفتر عن دعوتهم لعبادة الله تعالى وحده وترك عبادة آبائهم وأجدادهم في كل مناسبة من المناسبات ، إلى أن خلَّصهم الله فيما بعد من تلك العبودية الذليلة فأخلصوا عبادتهم لله وحده لا شريك له حتى صاروا بعد ذلك خير أمة أخرجت للناس تدافع عن عقيدة التوحيد .

وليس معنى ذلك أن هذه الصورة الوثنية القديمة ذات الجذور التاريخية الطويلة قد زالت ومحيت آثارها إلى الأبد ولم يعد لها من رجوع كما يظن البعض .

فبالرغم من أن البعثة المحمدية - خاتمة التوحيد - قد اقتلعت جذور الوثنية بشكل عام وأصول هذه الصورة بشكل خاص ، فإنها لم تلبث أن ظهرت من جديد بعد القرون الأولى الخيرة ، فعمت البلوى مرة أخرى وبرزت مظاهر عبادة الأشخاص بأسلوبها التقليدي المعتاد وأسلوب وثني جديد سيأتي ذكره في صور الوثنية الحديثة فيما بعد بعون الله .

وأما الأسلوب التقليدي الذي نحن بصدده الحديث عنه ، فإن الأمة قد رزقت به مرة أخرى (حتى صار كثير من العوام وبعض الخواص يعتقد في أهل القبور وفي المعروفين بالصلاح من الأحياء من أنهم يقدرون على ما لا يقدر عليه إلا الله جل جلاله ويفعلون ما لا يفعله إلا الله عز وجل حتى نطقت ألسنتهم بما انطوت عليه قلوبهم ، فصاروا يدعونهم تارة مع الله ، وتارة استقلالاً ويصرخون بأسمائهم ومعظمتهم تعظيم من يملك الضر والنفع ويخضعون لهم خضوعاً زائداً على خضوعهم عند وقوفهم بين يدي ربهم في الصلاة والدعاء وهذا إذا لم يكن شركاً فلا ندري ما هو الشرك) (١) .

وما عليه حال المسلمين اليوم في كثير من دول العالم الإسلامي أدل دليل على هذا ففي كل دولة منها معبود من دون الله بل معبودات ، تحت ستار المحبة

١ - الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد ، ص ٧ (ضمن مجموعة الرسائل السلفية)

محمد بن علي الشوكاني ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

والتعظيم والتقدير والإجلال ، ويعتقد فيها الناس اعتقادات باطلة كما كان يعتقد
المشركون في الجاهلية الأولى ، ولا حول إلا بالله^{تعالى} (١) .

وقع هذا في الأمة مؤخراً بالرغم من أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يتسرك
سبيلاً من السبل ولا ذريعة من الذرائع المفضية إلى عبادة غير الله وتقديس الأشخاص
إلا سداً لها حماية لجناب التوحيد وذباً عن حماه ، وحذراً أمته من فعلها والوقوع
فيها .

فنهى أولاً ما نهى عن إطرائه والمبالغة في مدحه وتجاوز الحد المعقول
في الثناء عليه .

روى الشيخان عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه
عليه وسلم قال : (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد فقولوا :
عبد الله ورسوله) (٢) .

ونهى عن استعمال كل لفظ يوهم النِدْيَةَ والمساواة لله تعالى مع أحد من
الخلق ، كذلك مثلاً (ما شاء الله وشئت) ، (أنا في حمى الله وحماك) ، (وأنا
متوكل على الله وعليك) ، (واسم الله واسم فلان) (٣) .

فقال صلى الله عليه وسلم معلماً ومحدّراً - من كل هذا - لمن قال له ما
شاء الله وشئت : (أ جعلتني لله ندأ بيل ما شاء الله وحده) (٤) .

وقال : (لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ولكن قولوا ما شاء الله ثم
شاء محمد) (٥) .

١ - انظر معارج القبول ، الشيخ حافظ الحكيم ، ص ٤٩٥ - ٤٩٨ ، ط أولى ،

وانظر دعوة التوحيد ص ٧٤ .

٢ - متفق عليه : البخاري في الأنبياء ، ٤٨ ، وانظر تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص

٦٠٣ ، طبعة دار المعرفه عام ١٤٠٦ هـ .

٣ - انظر دعوة التوحيد ص ٧٠ .

٤ - رواه أحمد ، ج ٣ ، ص ٢٥٢ ، تحقيق أحمد شاكر ، وقال عنه اسناد صحيح

وانظر تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ٦٠ .

٥ - أحمد ، ج ٥ ، ص ٧٢ ، والدارمي في الاستئذان ، ٦٣ ، وابن ماجه

في الكفارات ١٣ .

وقال : (لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان ، ولكن قولوا : ما شاء الله ثم شاء فلان) (١) .

وذلك لأن العطف بالواو يقتضى المساواة بين المعطوف والمعطوف عليه بخلاف العطف بثُمَّ فإنه يقتضى تأخير المعطوف فى الرتبة عن المعطوف عليه) (٢) .
قال الخطابى رحمه الله : (فأرشد هم إلى الأدب فى تقديم مشيئة الله سبحانه على مشيئة سواه) (٣) .

ونهى - صلى الله عليه وسلم - عن الحلف بغير الله تعالى ، كالحلف بالنبى صلى الله عليه وسلم أو بالآباء وغير ذلك لما فى الحلف من تعظيم للمحلوف به ، والتعظيم من العبادة التى لا تكون إلا لله ، ولهذا يعتبر الحلف بغير الله - من الشرك الأصغر وقد يصل لمرتبة الشرك الأكبر .

روى البخارى عن عمر بن الخطاب أن الرسول صلى الله عليه وسلم أذركه وهو فى ركب وهو يحلف بأبيه ، فقال : (إن الله ينهاكم أن تحلفوا بأبائكم ، فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليسكت) (٤) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تحلفوا بأبائكم ولا بأمهاتكم ، ولا بالأنداد ، ولا تحلفوا إلا بالله ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون) (٥) .

وعن ابن عمر أنه سمع رجلا يحلف : (لا والكعبة) ، فقال له ابن عمر : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (مَنْ حلف بغير الله فقد أشرك) (٦) .

-
- ١ - رواه أبو داود عن حذيفة ج ٥ ، ص ٢٥٩ ، ط ١ .
 - ٢ - دعوة التوحيد ، هراس ، ص ٧٠ .
 - ٣ - معالم السنن ، الخطابى بهامش سنن أبى داود ، ج ٥ ، ص ٢٥٩ ، ط ١ ، م ١٩٧٤ .
 - ٤ - متفق عليه ، رواه البخارى فى الإيمان : انظر فتح البارى ، ج ١١ ، ص ٥٣٠ طبعة عبد الباقي ، وانظر سنن أبى داود ، ج ٣ ، ص ٥٦٩ .
 - ٥ - متفق عليه ، رواه البخارى فى الإيمان ، انظر سنن أبى داود ، ج ٣ ، ص ٥٦٩ .
 - ٦ - سنن أبى داود ج ٣ ، ص ٥٢٠ .

ونهى عن الاستغاثة بغير الله تعالى ، وقال لمن قالوا: قوموا نستغيث برسول الله من هذا المنافق فقال : (إنه لا يستغاث بى وإنما يستغاث بالله) (١) .

ونهى عن تجصيص القبور ورفعها عن الأرض كثيرا والبناء عليها وسرجها بالشرح والصلاة عندها ، ولعن اليهود والنصارى لبنائهم المساجد على قبور أنبيائهم .

قال صلى الله عليه وسلم (اللهم لا تجعل قبرى وثنا ، لعن الله قوما اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) (٢) (٣) .

وهكذا فإنه صلى الله عليه وسلم قد حذر أمته من كل عمل يفضى إلى تقديس غير الله تعالى وتمظيمه ، احتياطا منه صلى الله عليه وسلم لحماية التوحيد ، وحفظاً لنا من الوقوع فيما وقعت فيه الأمم قبلنا من الوثنية بسبب تقديس الأشخاص والغلو فى محبة الصالحين (٤) .

٢ - الصورة الثانية - عبادة الأصنام والأوثان :

وهذه صورة أخرى من صور الوثنية القديمة ، ومظهر من أهم مظاهرها ، وهى كذلك قديمة ، عرفتها البشرية منذ بداية انحرافها عن التوحيد ، وهى ذات صلابة بالصورة السابقة (تقديس الأشخاص) وامتداد لها ، فمن مظاهر تقديس الأشخاص أن تقام على هيئاتهم وصورهم التماثيل والتصاوير والأصنام والأوثان والأنصاب ، لتجديد ذكراهم والإبقاء عليها ، ولكن لم يلبث الحال أن تطور إلى عبادة هـنـذه الأصنام والأوثان والتوجه إليها بكثير من أنواع العبادات التى لا تكون إلا لله من السجود والذبح والنذر والحلف وغير ذلك .

وأشهر الأصنام القديمة المعروفة هى التى كانت فى قوم نوح عليه السلام تخليداً لذكرى بعض الصالحين فيهم ، والتى جاء ذكرها فى القرآن الكريم على لسان قوم نوح على سبيل التواصى بها والمحافظة عليها والاستمرار على عبادتها ورفض دعوة إياهم إلى التوحيد .

قال تعالى : (وقالوا لا تدرن آلهتكم ولا تدرن ودا ولا سواعا ولا يغوث

١ - رواه أحمد ج ٥ ص ٣١٧ .

٢ - رواه أحمد ج ٢ ص ٢٤٦ .

٣ - انظر تحذير المساجد ص ١١ - ٢٨ ، ستجد شواهد كثيرة .

٤ - انظر دعوة التوحيد ص ٧٠ - ٧٣ ، وفتح المجيد ص ٢٢٤ - ٢٦٢ .

وَيَعْسُقُ وَتَسْرَأُ (١) .

ويبدو ومن خلال هذه الآيات أن هذه الأسماء الخمسة ليست على سبيل الحصر ولكن ربما كانت أشهرها وأشدّها تعظيما عندهم .

وإذا ثبت هذا فإن رواية الكلبي التي تشير إلى أن الأصنام نحتت ونصبت بفعل أبناء آدم بعد فوته مباشرة أو بزمن يسير جدا - لا يعول عليها ولا يستند إليها إذ أنه ترجّح أن الأصنام لم تعرف إلا في قوم نوح وكان بين آدم ونوح عليهما السلام عشرة قرون كما هي الرواية عن ابن عباس .

ورواية الكلبي هي قوله : (أول ما عبدت الأصنام أن آدم عليه السلام لما مات ، جعله بنو شيث من آدم في مغارة في الجبل الذي أهبط عليه آدم بأرض الهند ، وكان ينسوس شيث يأتون جسد آدم في المغارة فيعظمونه ويترحمون عليه ، فقال رجل من بني قابيل بن آدم : يا بني قابيل : إن لبني شيث دّاراً يدورون حوله ويعظمونه وليس لكم شيء ، فنحت لهم صنما فكان أول من عملها) (٢) .

وحاصل الأمر أن طوفان نوح عليه السلام قد اقتلع جذور الأصنام ومسحها عن الوجود ، كما قد ذهب بعبادها وسدنتها ، ولم يبق على وجه الأرض إلا الفتنة المؤمنة فئة التوحيد والإخلاص .

غير أن هذه النهاية لم تكن آخر العهد بعبادة الأصنام والأوثان فبطول الأمد وتقادم الزمن وتناسخ العلم وذهاب أهله وغير ذلك من الأمور عادت (الصنمية) أو عبادة الأصنام جذوة قوية ، وعظم شأنها في قوم سيدنا إبراهيم عليه السلام فبعثه الله تعالى مجدداً لدعوة التوحيد ومرسّخاً لقواعدها وحرماً على الوثنية وهادماً لمظاهرها .

وتعتبر بعثة سيدنا إبراهيم عليه السلام بداية عهد جديد للتوحيد ، ويغلب عليه الحماس والصبر والثبات والمحااجة بالبراهين والأدلة ومقارعة الأوثان وعابديها باليد واللسان فضلاً عن استنكاره لها بالجنان ، فكان يعلن عداوته لها بكل صراحة (إنا برآؤمكم مما تعبدون من دون الله قد كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده) (٣) ، وليس هذا فحسب بل ترجم ذلك عليها فباشر بنفسه وده الكريمة تحطيم الأصنام في حين غفلة من عابديها ، حتى قويت

١ - سورة نوح آية ٢٣ .

٢ - الأصنام ، الكلبي ، ص ٥٠ .

٣ - سورة المتحننة آية ٤

شجرة التوحيد ، وأينعت ثمارها ، وعلا شأنها ، وارتفعت رايتمها فوق راية الأصنام .
وبهذا فقد طويت صفحة الأوثان مرة أخرى ودالت عليها الأيام د ولتمها .
ولكنها لم تلبث أن عادت من جديد فبدأت الأصنام تبرز للوجود مرة أخرى .
فهما يبعث على العجب أن أصنام قوم نوح لم تلبث أن ظهرت فى جزيرة العرب
بأسمائها وأجسادها .

كما قد جاء عن ابن عباس رضى الله عنه قال (١) : (صارت الأوثان التى فى
قوم نوح فى العرب بعد . أما وَدَّ فكانت لكلب بدومة الجندل وأما سُواع فكانت لهذيل ،
وأما يَغُوث فكانت لمراد ثم لبني غطفان بالجرف عند سبأ ، وأما يَعُوق فكانت لهمدان ،
وأما نَمِر فكانت لحمير) (٢) .

وأما عن قصة اكتشاف هذه الأصنام الأثرية التى طواها الزمن قرونا طويلة
بعد الطوفان فهى كما يذكر الكلبى فى كتابه : (أن عمرو بن لحي هو الذى جاء
بها بمساعدة قرينه من الجن الذى أخبره عن مكانها بشاطئ جُدَّة ، بعد أن حطَّ بها
ماء الطوفان من جبل نود بالهند ، وبقيت مدفونة منذ ذلك العهد حتى جاء الطافوت
عمرو بن لحي الخزاعى فاستخرجها كما تقول الروايات) (٣) .

وقد سبق ذكر ذلك مما أغنى عن إعادته هنا .
ويبدو أن الجوكان قد تهيأ لإظهار هذه الأصنام من جديد حيث إن الكلبى
يذكر أن تعلق أبناء إسماعيل وتعظيمهم للحرم كان قد أفض بهم إلى عبادة الحجارة
 وإقامة الأصنام ، وذلك أن مكة بعد أن كثر بها أولاد بنى إسماعيل ضاقت بهمهم ،
فكانوا يتركونها إلى ما جاورها من البلاد وكانوا يحملون معهم من حجارة الحـرم
لعظمتهم فى نفوسهم ، يطوفون بها حيث نزلوا ، كما كانوا يطوفون بالكعبة نفسها ،
ثم أذى بهم الأمر مع الزمن إلى عبادة تلك الحجارة وغيرها واتخاذها أوثانا يعبدونها
لتقربهم إلى الله زلقى .

وقد سبقت الإشارة لهذا فلا داعى لإعادته هنا (٤) .

١ - سبق تخريجه ، وانظر ابن كثير ، ج ٤ ، ص ٤٥٤ ، طبعه دار

المعرفة .

٢ - الأصنام ، ص ٩ - ١١ .

٣ - انظر الأصنام ص ٥٤ .

٤ - الأصنام ص ٦ ، والسيرة لابن هشام ج ١ ص ٧٧ .

على أن عمرو بن لحي لم يفتأ أن زود الجزيرة بعينة أخرى جديدة من الأصنام كان مصدرها بلاد الشام من البلقاء في الأردن ، حيث كان قد قُدم إلى حمتها المشهورة ليستحم بها من إثر مرض نزل به ، فوجد أهلها يعبدون الأصنام فاستعطفهم أن يعطوه شيئا منها ففعلوا (١) .

كما سبقت الإشارة لهذا فأغنى عن إعادته هنا .

وهكذا فقد جلبت إلى مكة أصنام عديدة ، وانتشرت عبادة الأصنام في العرب وفشت فيهم فشتوا ذريعا ، وتعلقوا بها من دون الله تعلقا شديدا ، فصارت آلهتهم من دون الله ، وتواصوا بها كما فعلت الأم من قبلهم ، فصارت الآمرة والناهية والمتصرفة بهم على غير هدى ، فإذا أرادوا السفر تمسحوا بها واستشاروها وإذا عادوا من سفرهم أكرموها وتقربوا إليها (٢) .

وقد بلغت الأصنام كثرة بحيث لا تحصى ، فكان في الكعبة وما حولها ثلاثمائة وستون صنما ، ومقيت إلى يوم فتح مكة حتى هُدِمَتْ وكُسِرَتْ ، وبهذا تكون الأصنام قد حُطِّمَتْ وهُشِّمَتْ للمرة الثالثة : الأولى بطوفان نوح عليه السلام والثانية بفعل سيدنا إبراهيم خليل الرحمان والثالثة على يد خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام . وأما أشهر الأصنام التي عرفت إلى جانب أصنام قوم نوح الخمسة فهي اللات والعزى ومناة ، وإساف ونائلة وهبل ، وسعد ، وعينان وغيرها . ومن هذه الأصنام ما جاء ذكره في القرآن الكريم ، قال تعالى : (أفرايتم اللات والعزى ومناة الأخرى) (٣) .

وأقدم هذه الأصنام كما يذكر الكلبي (مناة) كان على ساحل البحر بقديد بين مكة والمدينة ، وكان لقبيلة هذيل وخزاعة ، وكانت جميع العرب تعظمه ، وكانوا يتسمون به عند مناة ، وزيد مناة .
وقضى حتى هدمه على ابن أبي طالب رضى الله عنه عام الفتح (٤)

-
- ١ - الأصنام ص ٨ ، انظر تفسير الرازي ج ١ ص ٢٣٢ ، فتح الباري ص ٨ ص ٤٧٢ ،
والروض الأنف ج ١ ص ٦٢ .
 - ٢ - السيرة لابن هشام ، ج ١ ص ٨٣ .
 - ٣ - سورة النجم آية ١٩ - ٢٠ .
 - ٤ - انظر إغاثة اللهفان لابن القيم ج ٢ ص ٢١٢ ، دار المعرفة .

وأما اللات فكان فيما يرويه ابن عباس رجلاً يُلْمَةُ السوق للحجاج فلما مات
عكفوا على قبره فعبدوه ، وكان صخرة مربعة الشكل بالطائف ، هدمها المغيرة بن
شعبة رضى الله عنه .

وأما العزى ، وهى ثلاث سمرات ببطن نخلة ، فكانت أعظم الأصنام عند قريش
تزورها وتذبح لها ويتقربون إليها ، هدمها خالد بن الوليد رضى الله عنه (١) .

وهذا الثالث من الأصنام كان أعزماً ما فتخر به العرب فى الجاهلية وتتقرب
إليه ، ويرجون فيه ما لا يرجون فى غيره من الأصنام (٢) .

وهناك الصنم (هُبَل) فرما لا يقل أهمية عند عرب الجاهلية عن الثالث
السابق ، فكان فى جوف الكعبة من عقيق أحمر على صورة الإنسان مكسور اليد اليمنى
فجعلت قريش له يدا من ذهب ، ولهذا دلالة كبيرة على أهميته فى نفوسهم (٣) .

وهُبَل هذا هو الذى كان يهتف باسمه أبو سفيان فى معركة أحد وهو يقول
أعل هبل .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أعلى وأجل (٤) .

وهناك أصنام أخرى كثيرة يرجع فيها إلى كتاب الأصنام ، والمفصل فى تاريخ
العرب لجواد علي ، والسيرة النبوية لابن هشام .

ومن المعروف أنه إلى جانب عبادة الأصنام عند مشركى عرب الجاهلية كانت
فيهم عناصر على مابقى من عقيدة التوحيد التى جاء بها إبراهيم وإسماعيل (٥) عليهما السلام .
فكانوا يحرمون على أنفسهم مايفعله المشركون وعباد الأصنام ، ومن أشهر هؤلاء النفر
زيد بن عمرو بن نفيل كان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول : أيها الناس هلموا إليّ فإنه
لم يبق على دين إبراهيم أحد غيرى ، وسمع يوماً أمية بن أبى الصلت ينشد :

١ - انظر الأصنام ص ١٣ - ٢٠ ، والفكر الدينى الجاهلى ، محمد الفيومى

ص ٢٤٥ - ٢٤٦ ، ودعوة التوحيد ص ٢٤٣ - ٢٤٥ ، والملل والنحل -

الشهر ستانى ج ٢ ص ٢٣٧ .

٢ - انظر الأصنام ص ٢٧ .

٣ - الأصنام ص ٢٨ ، والسيرة لابن هشام ج ١ ص ٧٧ .

٤ - انظر السيرة لابن هشام ج ٢ ، ص ٩٣ ، وإغاثة اللهفان ج ٢ ، ص ٢١٥ .

٥ - انظر الملل والنحل ج ٢ ص ٢٤١ - ٢٤٨ .

كلُّ دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفة زور .
فقال له صدقت .

وممن كان يعتقد التوحيد ويؤمن بيوم الحساب (قس بن ساعدة الإيادي) ،
قال في موعظة له : كلا ورب الكعبة ليعودن ما باد ولئن ذهب ليعودن يوماً وقال شعرا
كلا بل هو الله إله واحد ليس بمولود ولا والـــــــد

وقال زيد بن عمرو بن نفيل شعرا (١) :

أربا واحدا أم ألف رب	أدين إذا تقسّمت الأمــــور
تركت اللات والعزى جميعا	كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى أدين ولا ابنتيها	ولا صنمى بنى غنم أזור
ولا هبلا أזור وكان رسا	لنا فى الدهر إن حلنى صغير

ومنهم القلس بن أمة الكنانى قام يخطب للعرب بفناء الكعبة : أطيعونى
ترشدوا قالوا : وما ذاك ؟ قال : إنكم قد تفرقتم بالهة شتى ، وإنى لأعلم ما الله
راض به ، وإن الله ربُّ هذه الآلهة وإنه ليحب أن يعبد وحده ، فتفرقت عنه العرب
حين قال ذلك .

وإلى جانب هؤلاء الذين اعتزلوا عبادة الأصنام والأوثان لما بقى عندهم من
آثار الحنيفة السمحة ورسالة إبراهيم عليه السلام ، هناك فئة هجروا الأصنام ولكن
تبعاً للهوى والشهوة ولعدم تليتها لورغباتهم ومطامعهم .

ومن ذلك أنه كان لبني كنانة صنم يقال له (سَعْدٌ) يساحل جُدَّة قصده
أحد هم ومعه إبل ليقفها عليه ويتقرب بها إليه ، فلما دنت الإبل من (سَعْد) نَفَرَتْ
وذهبت كل مذهب وتفرقت فى كلِّ وجه ، فما كان منه إلا أن تناول حجرا ورمى به
(سَعْدَا) وقال : لا بارك الله فيك إلهها ، أنفرت علي إيلي وقال شعرا :

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا	فشتتنا سَعْد فلانحن من سعد
وهل سعد إلا صخرة بتنوفة	من الأرض لا يدعولغي ولا رشــــد (٢)

وقد اتخذت بنو حنيفة صنما من عجوة وعبدوه زمنا طويلا ، ثم أصابتهم المجاعة
ونزل بدارهم القحط فأكلوه ، وقيل فى ذلك شعر :

=====

١ - السيرة النبوية لابن هشام ، ج ١ ، ص ٢٢٦ .

٢ - انظر : الأصنام ص ٣٧ ، والملل والنحل ج ٢ ، ص ٢٤٠ - ٢٤٨ .

والسيرة النبوية ، ج ١ ، ص ٨١ .

أكلت حنيفة ربهما زمن التقحيم والمجاعة
لم يحذروا من ربهما سوء العواقب والتباعد (١)
ومن ذلك أن أمراً القيس استقسم بالقداح أمام الصنم ذي الخلصة ، ليأخذ
بشار أبيه ، ثلاث مرات فكان يخرج (الناهي) فكسر القداح ، وضرب بها وجه الصنم
وقال لو كان أبوك قتل ما عوّقتنى (٢) .

ويدل هذا على ضعف ثقتهم بهذه المعبودات وعدم توقيرها إذا لم تتحقق
رغائبهم وتسير أمورهم على الوجه الذي يريدون ، وأن السلطان الذي كانت تحظى
به كثير من الأصنام لم يكن حائلاً ولا مانعاً لبعضهم من سبها وشمها والكفر بها
والخروج عليها .

ومن المعلوم أيضاً أن هذه الأصنام لم تكن تُعبد لذاتها وإنما كانت في نظر
العابدين لها في أغلب الأوقات مجرد وسائل وسبل يتقربون بها إلى الله تعالى ،
كما حكى الله تعالى عنهم في قوله تعالى : (والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم
إلا ليقربونا إلى الله زلفى) (٣) .

والذي دفعهم لهذا سوء ظنهم بالله وقياسهم الباطل لله تعالى على خلقه
حيث وجدوا الملوك والرؤساء لا يتوصل إلى رضاهم إلا برضى غيرهم من الحُجَّاب
وغيرهم ، فعبدوا هذه الأصنام وتقربوا إليها بكل أنواع القربات والهدايا على أمل
رضاهم عنهم ومن ثم لتصلهم بالله .

فلم تكن عبادتهم لهذه الأصنام والأوثان لذاتها وقد استهيا في نفسها ،
ولكن لظنهم الباطل أنها رموز لأسرار خفية ، وإشارات لأمر غيبية مجهولة ، وأنها
وسائل تشفع لهم عند الله تبارك وتعالى .

قال د . دراز : (إعلم أن كلمات الباحثين في نفسيات المتدينين وعملياتهم
قد تطابقت على أنه ليس هناك دين ، أيا كانت منزلته من الضلال والخرافة ، وقف
عند ظاهر الحس واتخذ المادة المشاهدة معبودة لذاتها ، وأنه ليس أحد من عباد
الأصنام والأوثان كان هدف عبادته في الحقيقة هياكلها الملموسة ، ولا رأى في مادتها
من العظمة الذاتية ما يستوجب لها منه هذا التبجيل والتكريم .

١ - انظر الاديان في القرآن ، محمود بن الشريف ص ٤٣ .

٢ - الأصنام ص ٤٧ .

٣ - سورة الزمر آية ٣ .

وكل أمرهم هو أنهم كانوا يزعمون هذه الأشياء مهبطا لقوة غيبية أو رمزا لسر
غامض يستوجب منهم هذا التقديس البليغ (١) .

ولكن قياسهم كان باطلا فما أغت غمهم هذه القربات من الله شيئا وما زادتهم
من الله إلا بعدا .

وذلك أن عبادة الله تعالى لا تحتاج إلى وسيط ، وصلة الإنسان بربه
مباشرة ، وهذه ميزة عظيمة من مزايا عقيدة التوحيد التي تربط الإنسان بخالقه ، قال
تعالى : (وقال ربكم أدعوني أستجب لكم) (٢) .

وهذا بخلاف العقائد الوثنية التي تستعبد الإنسان لمعبودات باطلة وتجعلها
همزة الوصل بينه وبين خالقه فلا يصل إليه ولا ينال رضاه إلا عن طريقها وشفاعتها
الباطلة .

قال تعالى : (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) (٣) وذلك لأن الشفعاء لا يمكن
الشفاعة إلا بعد أن يأذن الله لهم ، (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) (٤) .

وإذا كان الأنبياء والرسل لا يشفعون إلا بعد أن يأذن الله لهم ، فكيف
بمن هم دونهم من الصالحين ؟ وكيف بمن هم دون هؤلاء من الأصنام والقبور والمشاهد
والمزارات ؟ وغير ذلك مما يقدره الجهال ويتعبدون له على أمل أن يشفع لهم عند
خالقهم وما هم بشافعين . .

قال تعالى : (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون
هؤلاء شفعاؤنا عند الله) (٥) .

٣ - عبادة النجوم والكواكب :

حظيت النجوم والكواكب - كما حظى غيرها - باهتمام الوثنيين في الوثنية
القديمة ، فقد لفتت مجموعة الكواكب والأجرام السماوية التي تملأ السماء ليلا ونهارا
نظر الإنسان ، وأعظم ما شدَّ انتباهه تلك الكواكب البارزة والتي تترأى على مقربة

١ - الدين ، د . د راز ، ص ٤٢ ، ط ٢ ، وانظر الملل والنحل ج ٢ ص ٢٥٩ .

٢ - غافر آية ٦٠

٣ - المدثر آية ٤٨

٤ - البقرة آية ٢٥٥

٥ - سورة يونس آية ١٨

من الأرض وهي الشمس والقمر والزهرة والشعري وزحل وغيرها .
وقد لاحظ الإنسان فيما لاحظته أن لهذه الكواكب فائدة في حياته وأن لها آثارا ملموسة فيما حوله من حيوان ونبات وجماد (١) .
فراى أن الشمس ذات تأثير على الحيوانات والنباتات وجودا ووعيا وجودة ورداءة ، ووجد كذلك أنها تؤذيه إذا اشتدت حرارتها ، وأن القمر كذلك له ارتباط بحياة الإنسان وربما كان حبه للقمر أكثر من حبه للشمس حيث إنه المصباح المنير فى الظلام فيستضيء به فى جله وترحاله ، فهو يكشف له عن الأخطار التى تقابله فى الليلة الظلماء فكان أنيسه ومسامره ، وكان يشعر بالخوف والرهبة إذا غاب القمر عن الأنظار وأظلمت من حوله السهول والجبال والأودية ، ووجد بالملاحظة والتكرار أن لبعض الكواكب دورا فى نزول المطر وهبوب الرياح واختلاف الفصول والطباع .

وكان من نتائج بُعد الإنسان عن عبادة الله وحده ، وعدم التزام عقيدة التوحيد فى فترات الجهل والضلال والانحراف - أن تصوّر أنه فى أمس الحاجة إلى هذه النجوم والكواكب لكسب رضاها ونيل عطفها وودها ، ودفع خطرها ودرء أذاها وأضرارها التى ربما تلحقها به إذا ما غضبت عليه فما كان منه إلا أن بدأ يفكر فى الطريقة والأسلوب الذى يحقق له ذلك ، فبدأ يعظمها ويجلّها ويسترضيها بكل أنواع القرب والطاعات ، فعبدها من دون الله واعتقد أنها ذات تأثير فى العالم وجعل لها بيوتا وسدنة وحجّابا ، وحجا وقرابا (٢) .

وأصل هذا المذهب من مشركى الصابئة ، وهو مذهب قديم فى العالم (٣) ، وهم قوم سيدنا إبراهيم عليه السلام ، وأهل دعوته وكانوا بحرّان فهى دار الصابئة ، وكانوا قسامين : صابئة حنفاء ، وصابئة مشركين ، كانوا يعظمون الكواكب السبع - والبروج الاثنى عشر ويصورونها فى هياكلهم (٤) .

١ - الديانات والعقائد فى مختلف العصور ، أحمد عبد الغفور عطار ، ج ١ ،

ص ٦٦ ، ط ١ ، مكة .

٢ - انظر : إغاثة اللهفان ج ٢ ، ص ٢٢٢ .

٣ - مختصر سيرة الرسول ، الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ص ٢٨ ، طبعنة

عام ١٩٥٦ م .

٤ - انظر : بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ، محمود شكرى الألوسى ، ج ٢ ،

ص ٢٢٤ ، ط ٣ .

وقد أظهرت الدراسات التاريخية أنه في الزمن والبيئة التي عاش فيها إبراهيم عليه السلام كان الناس يؤمنون الشمس والقمر والكواكب (١) .

(وقد ربط عابدو الكواكب مصير الإنسان بمظالمها ، وأن ميلاده مرتبط بالصدفة ، فإن صادف ميلاده سعوا في طالعه فهو سعيد ، وإن صادف نحوسا في طالعه فهو نحيس أو شقي ، فعبادة الكواكب خلقت مشاكل الجبر والتسيير والصدفة والحظ ، وفيها مصادرة حقيقية على الحرية الإنسانية ، وأصبح الوجود معها يشكّل حرجا في الوجود الإنساني ، ومع ذلك عبدها الإنسان ، واستلطف الارتقاء في أحضانها واستعذب شقاءه في عبادتها) (٢) .

وعبدة الكواكب والنجوم طوائف شتى : فمنهم من عبد الشمس ، ومنهم من عبد القمر ومنهم من عبد الزهرة ومنهم من عبد غيرها (٣) .

والجملة فإن الصابئة كانوا يعظمون الكواكب السبعة والبروج الاثنى عشر ويصورونها في هياكلهم ، ولتلك الكواكب عندهم هياكل مخصوصة وهي المتعبدات الكبار كالكنائس للنصارى والبيع لليهود ، فلمهم هيكل كبير للشمس ، وهيكل للقمر ، وهيكل للزهرة ، وهيكل للمشتري وهيكل للمريخ ، وهيكل لعطارد ، وهيكل لزحل ، وهيكل للعلّة الأولى ، ولهذه الكواكب عندهم عبادات ودعوات مخصوصة ويصورونها في تلك الهياكل ، ويتخذون لها أصناما تخصّها ويقربون لها القرابين ولها صلوات خمس في اليوم والليلة نحو صلوات المسلمين (٤) .

وكانت شعائر عبادتهم مزيجا من شتى الديانات حتى أنه قلما يوجد دين من الأديان المعروفة إلا وللصابئة شبه به بعض الشعائر (٥) .

وأما أشهر المعبودات من الكواكب فهي الشمس والقمر والزهرة .

١ - مع الأنبياء في القرآن الكريم ، غيف عبد الفتاح طبارة ، ص ١٨٨ ، ط ٢ ،

دار العلم للملايين .

٢ - في الفكر الديني الجاهلي ، د . محمد إبراهيم الفيومي ، ص ٩ ، ط ٢

دار القلم الكويت .

٣ - مختصر السيرة ، ص ٣٨ .

٤ - انظر : بلوغ الأرب ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ - ٢٢٦ .

٥ - دعوة التوحيد ، ص ١٥٥ .

يقول فيليب حتى : وقوامُ عبادة الكواكب هو (الثالث الكوكبي) القمر والشمس والزهرة (١) .

وكان لها جميعها عبادات مخصوصة وطقوس معروفة وأدعية وعرائم ، وأوقات معينة ورسوم متبعة قلما يخرج عنها عبادها .

يقول شيخ الإسلام ^{رحمه الله} : (فإن من الناس من يسجد للشمس وغيرها من الكواكب ويدعو لها بأنواع الأدعية والتعزيمات ، ويلبس لها من اللباس والخواتم ما يظن مناسبتها لها ويتحرى الأوقات والأمكنة والأبخرة المناسبة لها في زعمه ، وهذا من أعظم أسباب الشرك الذي ضلَّ به كثير من الأولين والآخرين) (٢) .

ولم يتعین على وجه الدقة والقطع أيُّ هذه الكواكب سبقت عبادته قبل الآخر ، فمن قائل بأن الشمس هي الأسبق ومن قائل بأن القمر هو الأسبق .

يقول جواد على : (والشمس هي من أول الأجرام السماوية التي لفتت إليها أنظار البشر بتأثيرها في الإنسان وفي الزرع والنماء ، وهذا التأثير البارز جعل البشر يتصور في الشمس قدرة خارقة وقوة غير منظورة كامنة فيها فعبدوها وألَّهوها وشاد لها المعابد وقدم لها القرابين) (٣) .

في حين أن (فيليب حتى) يرى أن عبادة القمر كانت أسبق من عبادة الشمس فيقول معللاً ذلك : (وكان القمر محور الاعتقادات الفلكية الدينيَّة الأولى عند البدوي ، إذ كان يرعى قطعانه على ضوءه وكان دليل الحادي ، ورسول القافلة ، ولذلك لقب بالحكيم والقديس والصادق والعدل والمعين والحامي ، وعبادة القمر لاحقة بحياة المراعي والبدوة ، وأما عبادة الشمس فمرحلة أرقى وهي عالقة بحياة الزراعة) (٤) .

-
- ١ - تاريخ العرب - فيليب حتى ، ج ١ ص ١٣٥ وانظر دراسات في تاريخ العرب ، مصطفى أبو ضيف ص ٢٠٩ .
 - ٢ - اقتضاء الصراط المستقيم ، ص ٤٠٥ .
 - ٣ - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج ٦ ص ٥٥ ، وانظر الديانات والعقائد عطار ، ج ١ ص ٦٦ ، وانظر الديانات والعقائد ، عطار ج ١ ص ٦٦ - ٧٢ .
 - ٤ - تاريخ العرب ، ج ١ ص ١٣٥ .
وانظر تفسير القرطبي ج ٧ ص ٢٥ ، طبعة أحمد شاکر .

وليس شئمة كبيرة فائدة في تحديد نوع الكواكب الذي سبقت عبادته ، فالمهم في الأمر أن جميع هذه الكواكب والنجوم عبادت من دون الله ، لزعم عبادتها أنها تستحق التعظيم والسجود والدعاء وسائر أنواع العبادة .

ولما كانت هذه الكواكب والنجوم غير دائمة الظهور ، فتغيب عن الأنظار بعض الوقت ، وكان تعلق عبادتها بها كبيرا وحاجتهم إليها دائمة ضرورية ، فقد ابتدعوا لعبادتها الهياكل والبيوت وأقاموا فيها الأصنام التي ترمز إلى تلك الكواكب ، فأقاموا للشمس صنما بيده جوهرة على لون النار . وله بيت خاص قد بنوه بأسمه وجعلوا له الوقوف الكثيرة من القرى والضياع ، وله سدنة وقوام وحجابة ، وينتقرون إليه ليقربهم إلى تلك الكواكب والتي بدورها تقربهم إلى الله تبارك وتعالى (١) .

واتخذوا للقمر كذلك صنما على شكل عجل ويجره أربعة ، ويبد الصنم جوهرة ، ومن دينهم أن يسجدوا له ويعبدوه ، وأن يصوموا النصف من كل شهر ولا يفتروا حتى يطلع القمر ثم يأتون صنمه بالطعام والشراب واللبن ثم يرغبون إليه وينظرون إلى القمر ويسألونه حوائجهم . وفي نصف الشهر إذا فرغوا من الإفطار أخذوا في الرقص واللعب بالمعازف بين يدي الصنم والقمر (٢) .

وهكذا فقد اتخذوا لجميع الكواكب أصناما على صورها وأشكالها ونوا لها الهياكل الخاصة ووضعو لها عبادات خاصة .

وبذلك يترجح أن الأصنام التي كان يعبدها قوم إبراهيم عليه السلام كانت رموزا لمعبوداتهم الأصلية وهي عبادة الكواكب ، ثم زاد تعلقهم بتلك الأصنام لقربها منهم وقيامها بين أيديهم .

ولهذا فإن إبراهيم الخليل عليه السلام قد بدأ بكسر عبادة الأصنام والتشنيع عليها وعلى عابديها باليد واللسان ، ثم انتقل إلى كسر عبادة الكواكب بالحجة والبرهان وقرّر دين التوحيد وملة الحنيفية (٣) .

١ - انظر : الملل والنحل ، ج ٢ ، ص ٤٩ - ٥١ ، ٢٥٨ .

ومختصر السيرة ، ص ٣٨ .

٢ - انظر : الملل والنحل ، ج ٢ ، ص ٢٥٩ .

وبلوغ الأرب ، ج ٢ ، ص ٢١٦ .

٣ - انظر : الملل والنحل ، ج ٢ ، ص ٥١ - ٥٤ .

هذا وقد عرفت عبادة الشمس في قوم بلقيس ملكة سبأ على عهد نبي الله سليمان عليه السلام ، كما قصَّ الله تعالى ذلك على لسان الهدد في سورة النمل فقال تعالى : (وتفقذ الطير فقال مالي لا أرى الهدد أم كان من الغائبين لأعذبنه عذاباً شديداً أو لاذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين ، فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ نبأ يقين ، إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يبهتدون) (١) .

ومما يبعث على الدهشة والعجب أن الهدد قد استغرب أن تكون العبادة لغير الله تعالى ، فلقت انتباهه أن القوم يسجدون للشمس من دون الله فاستعظم الأمر وراح ينقل الخبر لرسول التوحيد سليمان عليه السلام ، فأتخذ بدوره الإجراءات اللازمة وردَّ القوم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وأعلنت ملكتهم عن إسلامهن وعودتهن لعبادة الله رب العالمين وحده لا شريك له ، قال تعالى : (قالت رب اني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) (٢) .

ويبدو أن عبادة الكواكب قد أسدلت عليها الأستار من ذلك العهد إلى قبيل بعثة خاتم النبيين والمرسلين ، حيث ظهرت عبادة الكواكب مرة أخرى في العرب من ضمن الانحرافات الوثنية التي وقعوا فيها بعد مفارقتهم ملة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام .

ويروي أن أول من أدخل عبادة الكواكب في العرب أبو كبشة وهو من أجداد النبي صلى الله عليه وسلم من جهة أمه ، فكان أول من عبد كوكب الشعرى وترك عبادة آبائه وأجداده (٣) .

وأبو كبشة هذا يعتبر - في نظري - رجلاً جريئاً إذ استطاع أن يخرج على ما يعبد قومه من أصنام وأوثان ، إلا أنه مع الأسف ، استخدم هـذـه الجرأة في استحداث باطل جديد ، والصّدَّ عن عبادة الله وحده فاستبدل باطلاً بباطل ووثناً بوثن .

١ - سورة النمل آية ٢٠ - ٢٤ .

٢ - سورة النمل آية ٤٤ .

٣ - انظر تفسير القرطبي ، ج ١٢ ، ص ١١٩ ، طبعه أحمد شاکر .

وقد كان كفار مكة ينسبون الرسول صلى الله عليه وسلم إليه قياساً منهم لمخالفة الرسول لهم في عبادتهم الباطلة على مخالفة أبي كبشة ، وفي الحقيقة هذا قياس باطل لأن خروج الرسول صلى الله عليه وسلم عن عبادة قومه كان بوحي من الله الذي أرسله ليخرجهم من الظلمات إلى النور ومن العبودية إلى الحرية ، بخلاف أبي كبشة الذي كان خروجه بوحي من شيطان نفسه وهواه .

ولم يلبث هذا المرض الوثني أن فشا في العرب وتوسعت عبادة النجوم والكواكب فيهم كما فشت فيهم من قبل عبادة الأصنام بفعل عمرو بن لحي الخزاعي ، وهكذا فإن الانحراف في بداية الأمر يكون بطيئاً ومحدوداً ثم لا يلبث أن يستشري ويزداد وتعم به البلوى .

فلم يقف الحال على عبادة الشعري وحدها وإنما شمل معظم النجوم والكواكب المعروفة ، وتعلقوا بها تعلقهم بالأصنام والأوثان . فأسندوا إليها كل الحوادث واعتقدوا فيها اعتقادات باطلة وعلقوا عليها مصير حياتهم ، فسعادتهم مصدرها الكواكب ، ونحسهم كذلك ، وإذا مطروا بفعل النجوم وتأثير الكواكب ، وإذا أصابهم القحط كان ذلك بسبب غضب بعض النجوم والكواكب ، فراحوا يتوسلون إليها ويقرَّبون لها القرابين ، وبالجملة فقد علقوا عليها الحياة والموت ، واعتقدوا أنها تضر وتنفع فلا يتزوجون ولا يسافرون ولا يقدِّمون أو يؤخرون إلا بعد مشورتها ورضاها ، فهي عندهم منشأ الأسباب ووراء كل حادث وهذا من أعظم الشرك بالله تعالى .

ويلاحظ أن أبرز اعتقاد لعرب الجاهلية في النجوم والكواكب هو ربطهم نزول المطر وهبوب الرياح بها .

فقد كانوا يقولون : (مطرنا بنو نجم كذا) ، (وهبت الريح بسبب نجسم كذا) ، ومعنى هذا أنهم كانوا يرون أن هذه النجوم والكواكب مؤثرة بنفسها في حصول هذه الأمور أو عدم حصولها ، وهذا هو دليل شركهم وعلامة عبادتهم لها من دون الله الذي وضع الأسباب وأجراها بعلمه وإرادته ، فإذا اجتمعت هذه الأسباب الظاهرة وشاء الله حدث الفعل حصل ، وإن لم يشأ لم يحصل .

وقد حدَّث الرسول صلى الله عليه وسلم أمته من الوقوع في وثنية الكواكب وعبادتها من دون الله في أكثر من حديث وأكثر من مناسبة .
روى الشيخان عن زيد بن خالد رضى الله عنه قال : (صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل ، فلما

انصرف أقبل على الناس ، فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : قال : أصبح من عبادة مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب (١) .

فواضح من الحديث أنه صلى الله عليه وسلم يحذر أمته من الشرك ويعلمها التوحيد والإخلاص ومخالفة المشركين في أفعالهم وأقوالهم .

وفي حديث آخر ذكر فيه صلى الله عليه وسلم بعض رواهب الجاهلية على سبيل الذم والاستنكار لها ، ومحذرا أمته من الوقوع فيها ومشابهة الجاهلية في فعلها .

فقال صلى الله عليه وسلم - فيما رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري - : (أربع في أمته من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر في الأحاب والطعن في الأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة) (٢) .

وموطن الشاهد في الحديث قوله (والاستسقاء بالنجوم أي نسبة المطر إلى النوء وهو سقوط النجم) (٣) .

قال الخطابي / النوء - واحد الأنواء - وهي الكواكب الثمانية والعشرون التي هي منازل القمر ، كانوا يزعمون أن القمر إذا نزل بعض تلك الكواكب مطسروا ، فأبطل صلى الله عليه وسلم قولهم وجعل سقوط المطر من فعل الله سبحانه دون فعل غيره (٤) .

١ - رواه البخاري في الاستسقاء ٢٨ ، ومسلم في الإيمان ١٢٥ ، وأبو داود في الطب ٢٢ ، ومالك في الاستسقاء ٤ ، وأحمد ج ٤ ص ١١٧ .

٢ - مسلم في الجنائز ٢٩ ، وانظر في معناه البخاري في مناقب الانصار ٢٧ ، وأحمد ج ٢ ص ٣٧٧ ، ج ٥ ص ٣٤٢ .

٣ - فتح المجيد ، ص ٣٢٣ .

٤ - معالم السنن بحاشية سنن أبي داود ج ٤ ، ص ٢٢٨ .

وقد بين الله سبحانه وتعالى أنه هورب هذه الكواكب والنجوم وما لكم
ومدبرها والمسيطر عليها لا تجرى إلا بإرادته ومشيئته فقال تعالى : (وأنه
هورب الشعري) (١) ، (٢) .

١ - سورة النجم آية : ٤٩ .

٢ - ومن بقايا عبادة النجوم في الوثنية الحديثة ما جرت عليه عادة كثير من الصحف
ووسائل الإعلام في العالم مما يسمى (بطوالح النجوم) أو (حظك اليوم)
أو (ماذا تقول لك النجوم) ٠٠٠ إلخ .

والمأمل لتلك التكهنات يجد أنها كتابات غامضة رديئة لا تقوم على إثارة
من علم صحيح أو قول سديد ، فضلا عن مصادمتها لصريح الأحاديث بنسبتها
التأثير في السعادة والشقاء والخير والشر إلى مطالع الكواكب ، وأنها تعتمد
على أقوال الكهان والمنجمين ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : (من قصد
عرافا فصدقه لم تقبل صلاته أربعين يوما) ، فهذه عادة وثنية يجب التنبيه
لها والإقلاع عنها .

وهناك من يظن أن التنبؤات الجوية من خسوف وكسوف ونزول المطر وهبوب
الرياح وغير ذلك من بقايا الوثنية كذلك .
والواقع أنه يمكن استثناء هذه التنبؤات من الوثنية وذلك لقيامها على قواعد
حسابية وملاحظات فلكية مقننة واجتماع مجموعة من الأسباب .

انظر دعوة التوحيد للهراس ، ص ٧٨ .
ولكن لا بد من النظر في حال المتنبئ الجوي - فإن قوله (تسقط أمطار في
مساء هذا اليوم مثلا) بناء على تلك الحسابات والملاحظات القائمة على النظر
في أسباب معينة - من نقطتين : الأولى إما أن يعتقد أن هذه الأسباب مؤثرة
بنفسها وأن لها تأثيرا في نزول المطر فلا يتخلف ، من غير ربط ذلك بمشيئة
الخالق ، فإن هذا يعد من أفحش الوثنية التي جاء الإسلام لإزالتها وحذر
منها الرسول صلى الله عليه وسلم .

وإما أن يعتقد أن هذه الأسباب ينتج عنها لازمها عادة ولكن مع اعتقاد أنها
لا تؤثر بنفسها منفردة ، ولكنه ينسب نزول المطر إليها على سبيل المجاز .
قال في فتح المجيد : (والصحيح أنه يحرم نسبة ذلك إلى النجم ولو على طريق
المجاز وذلك أن القائل ينسب ما هو من فعل الله تعالى الذي لا يقدر عليه =

ونهى تبارك وتعالى عن التوجه بالعبادة لشيء منها كالشمس أو القمر ، فقال سبحانه : (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إِيَّاهُ تعبدون) (١) .

ولهذا فإن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن الصلاة فى أوقات معينة ، كوقت طلوع الشمس وغروبها ، وذلك لأن هذه الأوقات كانت تعظم فيها الشمس من دون الله تعالى من قبل عبدة الكواكب من المشركين ، ومعلوم أن المسلم إذا صلى فى هذه الأوقات أو فى غيرها إنما يتوجه إلى الله تعالى ، ولكن المصطفى عليه السلام قصد من هذا النهى سد كل ذريعة وقطع كل شبهة قد تفضى بالأمة إلى الشرك ، أو مشابهة أفعال المشركين .

قال صلى الله عليه وسلم : (لا تحزوا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها) (٢)

ومن جهة أخرى فإنه لما توفى إبراهيم ابن الرسول صلى الله عليه وسلم من مارية القبطية ووافق موته كسوف الشمس ، وقال الناس إنما كسفت لموت إبراهيم ، قال صلى الله عليه وسلم : (إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت ولا لحياتهم ولكنهما آيتان من آيات الله عز وجل يخوف بهما عباده فاذا كسفان فزعوا إلى الصلاة) (٣) .

وهكذا فإنه صلى الله عليه وسلم يريد أن يعلم أمته أن تربط كل فعل من أفعالها وكل حركة من حركاتها وكل حادث من الحوادث الكونية بإرادة الله وفعله دون التعلق بشيء غيره من المخلوقات والاعتماد عليها وحدها والاكتفاء بها مما يؤدى إلى تعظيمها وللمبالغة فى تقديسها وبالتالي عبادتها من دون الله كما وقع للأمم الغابرة

= غيره إلى خلق مسخر ، لا ينفع ولا يضر ، ولا قدرة له على شيء فيكون ذلك شركاً أصغر والله أعلم ، ص ٣٢٤ .

والمخرج من هذا هو ربط هذه التنبؤات بمشيئة الله تعالى فإن وقع ما تنبأت به علم أن الله شاء وقوعه وإن لم يقع علم أنه لم يكن مقدراً الوقوع من قبل .

١ - سورة فصلت آية ٣٧ .

٢ - رواه البخارى فى المواقيت ٣٠ ، ومسلم فى المسافرين ٢٩٠ ، والنسائى فى المواقيت ٣٥ ، ومالك فى القرآن ٤٩ ، وأحمد ج ٢ ، ص ١٣ .

٣ - رواه البخارى فى الكسوف ١ ، ومسلم فى الكسوف ١٠ ، وأبو داود فى الاستسقاء

٤ ، وأحمد ج ٤ ، ص ٢٤٩ .

٤ - الصورة الرابعة - عبادة الحيوان :

إن الانحراف عن عبادة الله وحده يوقع الإنسان في عبادة غيره من المخلوقات وقد لاحظنا كيف عبد الإنسان فئة من بنى جنسه ، وكيف عبد أوثانا لا تضر ولا تنفع وكيف تمادى فعبد الكواكب والنجوم بالرغم من بعدها عنه ، وما زال في التيه فهو يعبد كل شيء يحس بأنه محتاج إليه لجلب منفعة أو درء مفسدة ، كما يظن ، وهو في هذه المرة نجده مولياً وجهه قبل الحيوان طلباً لمنافعه .

والحيوانات بشكل عام - والأنعام بشكل خاص - كثيرة المنافع والخيرات ، فهى وسيلة النقل وحمل الأثقال وهى جمال وزينة ومتعة وهى مصدر لباس وكساء وهى بالتالى والأهم طعام الإنسان ، وغداؤه .

والإنسان إذا كان بعيداً عن الله سبحانه وتعالى الذى هو مصدر كل خير وواهب كل نعمة وأصل كل عطاء - فإنه يركن إلى جانب من ينعم عليه أو يتفضل عليه بعطاء أو يقدم له منفعة أو يدفع عنه مفسدة ، ويبعد وأن من فطرة الإنسان وطبعه أن يذعن وينكسر ويذل لمن تفضل عليه أو أحسن إليه ، اللهم إلا إذا كان ذا طبع لئيم وفطرة فاسدة ، فإنه يجازى الإحسان بالإساءة ويتنكر للجميل .

والحيوان باعتباره مصدر خير وبركة وغوان عطاء وفضل فى حياة الإنسان فقد لقي منه اهتماماً بالغاً وتقديراً جماً وصل إلى درجة التقديس والعبادة ، من دون الله ، لأنه اعتبره منبع هذا الخير وسببه ومالكه ، ونسى أن هذا الحيوان خلق جعله الله تعالى فى خدمة الإنسان فذلل له ، ومكّن من الانتفاع به .

قال تعالى : (والأنعام خلقها لكم فيها دفاً ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون) (١) .

لم يحفل الإنسان فى لحظة ضلاله لكل هذه المعانى ، فاستعبد نفسه لحاجته ومنفعته وكل ما يحققها له .

وعبد الإنسان الحيوان ، وذل أمامه وسجد له وتقرّب إليه ، وعظّمه أيّما تعظيم وقدّسه غاية التقديس ، وكان الأجد ربّه أن يذلّ لله ويسجد له ويتقرّب إليه بكسل وسيلة مشروعة .

وشملت عبادة الانسان للحيوان معظم أفراده فعبد البقرة والعجل والفيصل
والشعبان والجمل والسمك والخنزير وغيرها من الحيوانات (١) .

وكانت البقرة وابنها أهم ما عبد من بين الحيوانات ، نظرا للأهمية الكبيرة
التي تتمتع بها والمنافع الكثيرة التي تفوق بها سائر الحيوان .

ويبدو أن قدماء المصريين هم أول من عبد الحيوان واعتقدوا أنها آلهة فى
ذاتها ، وجعلوا لها المعابد .

وكان العجل - ولد البقر - أول معبود من بين الحيوانات جميعها عند
أولئك الوثنيين من أبناء مصر ، فقد زعموا أن العجل (أبيس) نشأ من قبضة نور
نزلت من السماء فى رحم بقرة فحملته ثم وضعت ولم تلد بعده قط ، وكان من مميزات
هذا العجل أنه أسود اللون ، مشوب بنقط بيضاء ، وعلى جبهته مثلث أبيض وفى
جانبه هلال (٢) .

و عبادة الحيوان عند هؤلاء كانت قائمة على قداسة ذلك المعبود وتمييزه عن
باقى الحيوان باعتباره صادرا عن قبضة نور جاءت من السماء إلى الأرض ، فهم لسم
يعبدوه لمنافعه وخيراته كما سبق القول فى تعليل عبادة الحيوان .

واستغرقت عبادة العجل فى مصر زمنا طويلا بحيث تأثر بها بنو اسرائيل فيما
بعد كما سيأتى ذكره بعد قليل .

غير أن عبادة الحيوان التي كانت بسبب منافعه وخيراته التي يقدمها للإنسان
قد بدأت على أيدى الهندوس الوثنيين . حيث عبدوا البقرة مكافأة لها على ما تقدمه
للإنسان من منافع فكانت لها مكانة خاصة ومنزلة مرموقة وقداسة عظيمة عندهم .

يقول د . شلبى : حظيت البقرة فى الهند بأسمى مكانة ، وهى من المعبودات
الهندية التي لم تضعف قداستها مع كثر السنين . وتوالى القرون ففى (الويدا) (٣)
حديث عن قدسيتهما والصلاة لها ، ولا تزال البقرة حتى الآن تحتفظ بهند

١ - الديانات والعقائد - عطار ، ج ١ ، ص ٧٤ .

٢ - انظر ذيل الملل والنحل - محمد سيد كيلاسى ص ٨ مع الجزء الثانى ، دار
المعرفة ، بيروت ، لبنان .

٣ - الويدا : كتاب الهندوس المقدس يشمل مبادئ الفكر الهندى فى أكثر مراحلها
ويسمى بالفيدا كذلك ، وليس له مؤلف معروف ، ويعتقد الهندوس أنه أنزل
لابداية له .

القدسية (١) .

وأما عن طريقة عبادتهم للبقرة ، فقد أورد شلبي طرفا من النشيد الذي ينسى الذي يتوجهون به إلى البقرة في صلاتهم لها ، وعبادتهم إياها : (أيتها البقرة المقدسة ، لك التمجيد والدعاء في كل مظهر تظهري به ، أنش تدرين اللبن في الفجر وعند الغسق ، أو عجلًا صغيرًا أو ثورًا كبيرًا ، فلنعدّ لك مكانًا واسعًا نظيفًا يليق بك ، وما نقيًا تشرينه ، لعلك تنعمين بيننا بالسعادة) (٢) .

هذا وما تزال عبادة البقرة في تقاليد الهند وسالتى يحافظون عليها أشدّ محافظة ، ويعتبرون المحافظة على معبودهم من الواجبات الدينية التي لا يملكون مخالفتها .

فإن (المهاتما غاندي) المتكشف المسالم والداعية إلى السلام ، صاحب الدعوة إلى كبح الشهوات يعدّ من أكبر أنصار عبادة البقر والمدافعين عنها والداعين إليها يقول : (إن حماية البقرة التي فرضتها الهندوسية هي هدية الهند إلى العالم ، وهي إحساس برباط الأخوة بين الإنسان وبين الحيوان ، والفكر الهندوسي يعتقد أن البقرة أم للإنسان وهي كذلك في الحقيقة ، إن البقرة خير رفيق للمواطن الهندي ، وهي خير حماية للهند .

عندما أرى بقرة لا أمدني أرى حيوانًا ، لأنني أعبد البقرة وسأدافع عن عبادتها أمام العالم أجمع وأمي البقرة تفضل أُمي الحقيقية من معدة وجوه فالأم الحقيقية ترضعنا مدة عام أو عامين ، وتتطلب منا خدمات طول العمر نظير هذا ، ولكن أُمنا البقرة تمنحنا اللبن دائمًا ولا تتطلب منا شيئًا مقابل ذلك سوى الطعام العادي ، وعندما تمرض أُمي الحقيقية تكلفنا نفقات باهظة ، ولكن أُمنا البقرة تمرض فلا نخسر لها شيئًا ذا بال .

وعندما تموت أُمي الحقيقية تتكلف جنازتها مبالغ طائلة وعندما تموت أُمنا البقرة تعود علينا بالنعيم كما كانت تفعل وهي حية ، لأننا ننتفع بكل جزء من جسمها حتى العظم والجلد والقرون ، أنا لا أقول هذا لأقلل من قيمة أُمي ولكن لأبين السبب الذي دعاني لعبادة البقرة .

١ - مقارنة الأديان ، د . أحمد شلبي ، ج ٤ ، ص ٢٩ ، ط ٣ ، مكتبة النهضة المصرية .

٢ - المرجع السابق ص ٣٠ .

إن ملايين الهنود يتجهون للبقرة بالعبادة والإجلال وأنا أعد نفسي
واحدا من هؤلاء الملايين (١) .

وهكذا يتبين لنا بوضوح من كلام هذا الوثني الكبير أن الدافع لعبادة البقرة
هو مقابل المنافع الكثيرة والدائمة التي تقدمها البقرة .

إنها نظرة محدودة وقاصرة أن يعبد الإنسان هذا الحيوان لما يعطيه من
منافع قليلة ، ولا يعبد الله الذي هو مصدر كل المنافع التي ينتفع بها .

وهكذا فإنه لا تزال فئات كبيرة من الهنود تشقى بعبادة البقرة ، تعيث الفساد
في الأرض فلا يستطيع أحد أن ينهريها ، ولا يجروا أحدهم أن يذبحها وكثيرا ما سبب
ذبح البقرة في الهند متاعب وخصومات وأثار الفتنة بين المسلمين والهندوس (٢) .

ونعود الآن إلى بنى إسرائيل ، فقد كانوا ألفوا عبادة العجل في مصر زمنا
طويلا ، ولهذا فإنهم لما خرجوا منها وغاب عنهم موسى عليه السلام بعض الوقت لم
يلبثوا أن عاودهم الحنين إلى الوثنية وعبادة العجول ، فاستضعفوا هارون عليه
السلام وغلّبوه على أمره واتبعوا السامري فصنع لهم عجلا من ذهب ونصبه أمامهم
واتخذوه إلها يعبدونه من دون الله ، حتى رجع موسى من ميقات ربه فلما وجدهم
نكسوا إلى الوثنية بعد أن أكرمهم الله بفراقها ، غضب غضبا شديدا وكسّر الوثن بل
طحنه طحنا بعد أن أحرقه ونذّراه في البحر ، وأمرهم بقتل أنفسهم والتوبة إلى الله
تعالى من هذه اللوثة الوثنية (٣) .

وقد ذكر القرآن الكريم عودة بنى إسرائيل لعبادة العجل بعد خروجهم من
مصر ، قال تعالى : (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار
الم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين) (٤) .

ولم يلبث موسى عليه السلام أن أمرهم بالتوبة والاستغفار والتكفير عن فعلتهم
هذه ، وأعادهم إلى عبادة الله تعالى وحده ، قال تعالى : (وإذ قال موسى لقومه
يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم) (٥) .

١ - المرجع السابق ص ٢٩ - ٣٢ .

٢ - انظر المجتمع الاسلامي المعاصر - محمد المبارك ص ٣٨ .

٣ - انظر سورة البقرة آية ٥٤ ، وسورة طه آية ٩٧ ، وانظر سفر الخروج الإصحاح

٣٢ ، فقرة ٢٠ - ٢٩ .

٤ - سورة الاعراف آية ١٤٨ .

٥ - سورة البقرة آية ٥٤ .

ويبدو أن تلك الفعلة لبني إسرائيل كانت آخر عبادة للعجل من دون الله تعالى ، خصوصا إذا اعتبرنا أن الهندوس لا يعبدون إلا الأنثى من البقر دون الذكر فلم يذكر أن طائفة من البشر عبدوا العجل بعد ذلك .

وأما عن عبادة الحيوان عند العرب في أيام وثنتيتهم الأولى فإنني لم أجد أحدا نسب إليهم أنهم عبدوا الحيوان وهو على قيد الحياة وإنما عبدوا بعض الحيوانات عن طريق تصويرها وتمثيلها وجعلها أوثانا على هيئة الحيوان المعبود .

فقد عبدوا الأسد والفرس والنسر والحمام وغيرها .
روى ابن إسحاق^{رحمه الله} : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل مكة وأتم طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها فوجد فيها حمامة من عيد أن فكسرها بيده ثم طرحها (١) .

وأما القول بأن الصنم يفتوح كان على صورة الأسد ، ويعوق كان على هيئة الفرس ، والصنم نسر على شكل الطائر المعروف^(٢) فهو غير صحيح ، فقصة هذه الأصنام مشهورة ومعروفة أنها على صور بعض الصالحين من قوم نوح ثم صارت في العرب من بعد ذلك كما هو ثابت عن ابن عباس وقد سبق بيانه .

فإنه ليس من المعقول أن يكون منها على هيئة الظير والحيوان شيء .
ولم يرد أن العرب في جاهليتهم عبدوا الجمل ، ذلك الحيوان الصبور ، الذي كان يرافقهم في حروبهم وترحالهم وفيه لهم من المنافع ما لم يتوفر في بقرة الهندوس ؟

٥ - الصورة الخامسة - عبادة النار :

ومن ضمن المعبودات في الوثنية القديمة النار ، ويقال بأن عبادتها وتقديسها كان في مرحلة مبكرة جدا من تاريخ البشرية ، فقد ذكر ابن جرير الطبري أن أول من نصب النار وعبدها من دون الله هو (قابيل) ولد آدم عليه السلام ، وذلك أنه عندما قتل أخاه (هابيل) وهرب من أبيه جاءه الشيطان فقال له : إن هابيل إنما قُبل قربانه وأكلته النار ، لأنه كان يخدمها ويعبدها ، فانصب أنت أيضا نارا تكون لك ولعقبك ، فبنى بيت نار ، فهو أول من نصب النار وعبدها ، ثم سرى هذا المذهب

١ - انظر السيرة لابن هشام ج ٢ ص ٤١١ .

٢ - قاله الواقدى ، انظر تفسير القرطبي ، ج ١٨ ، ص ٣٠٩ ، طبعته دار

إلى المجوس فعبدوها ونوا لها بيوتا كثيرة (١) .

والذي أراه أن هذه الرواية ليست صحيحة ولا مقبولة ، وذلك لأنها تعارض ما صحَّ عن ابن عباس فيما رواه البخارى أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام حتى وقع الشرك بسبب الغلو فى محبة الصالحين وتصوير صورهم وعبادتها بعد ذلك كما سبق .

وما يمكن قبوله منها أنها مجرد محاولة ووسوسة شيطانية من إبليس اللعين لعبادة النار وتقديسها من بنى البشر ، لتأييد مذهبه ودعواه بأن النار خير من الطين كما هو معروف فى قصة إبليس ورفضه السجود لآدم بحجة أنه مخلوق من الصلصال فى حين أن الشيطان مخلوق من نار .

قال تعالى : (قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) (٢) .

ورما كانت دعوى إبليس بخيرية النار وأفضليتها على غيرها هى أساس عبادتها وتعظيمها .

سبحه الله

فقد ذكر الشهرستانى أن طائفة من المجوس زعمت أن النار هى أعظم أصل صدرت عنه الموجودات ، وأنها خير بطبعها ، وكل ما فى العالم من خير فصدره النار ، وأنهم يتعصبون للنار تعصبا شديدا من حيث أنها علوية ، نورانية ، لطيفة ، لا وجود إلا بها ، ولا بقاء إلا بإمدادها (٣) .

وزعمت أخرى أن النار أعظم العناصر جرما ، وأوسعها حيزا ، وأعلاها مكانا ، وأشرفها جوهرًا ، وأنورها ضياء وإشراقا وألطفها جسما وكيانا ، والاحتياج إليها أكثر من الاحتياج إلى سائر الطبائع ، ولا كون فى العالم إلا بها ، ولا حياة ولا نمو ،

١ - انظر إغاثة المهفان لابن القيم ، ج ٢ ص ٢٢٩ ، طبعة الحلبي ، تحقيق

محمد سيد كيلانى ، بلوغ الأرب للالوسى ، ج ٢ ص ٢٣٣ ، ط ٣ .

ولم أجد هذه الرواية عند الطبرى فى التفسير ولا فى التاريخ .

راجع تفسير الطبرى ، ج ١٠ ، ص ٢٠١ ، طبعة دار المعارف ، وتاريخه

١٣٧-١٤٥ ، ط ٣ .

٢ - سورة الأعراف آية ١٢ .

٣ - انظر الملل والنحل ج ١ ص ٢٥٣ .

ولا انعقاد إلا بمجازحتها (١) .
قال ابن القيم رحمه الله: (وعباد النار يفضلونها على التراب ويعظمونها وصوِّون
رأى إبليس) (٢) .

وقد رُعيَ بشارُ بن برد الشاعر المعروف بهذا المذهب لقوله :
الأرض سافلة سوداء مظلومة والنار معبودة مذ كانت النار (٣)
” وبالجملة فالمجوس إنما يعظمون النار لمعانٍ فيها منها أنها جوهر شريف
علوى ، ومنها أنها ما أحرقت الخليل إبراهيم عليه السلام ، ومنها ظنهم أن التعظيم
لها ينجيهم من المعاد من عذاب النار .
فهي قبلة لهم ، ووسيلة وإشارة ” (٤) .

وأما عن طريقة عبادة المجوس للنار فهم — بالإضافة إلى اعتقادهم بأفضلية
النار على غيرها ، وتعظيمها أشد التعظيم ، وتقديسها أعظم التقديس ، ومتابعتهم
لإبليس في معارضة الله تعالى وهذا كله من ضروب العبادة — يعبدونها بطريقتهم
أخرى خاصة ابتدعوها من عند أنفسهم ما أنزل الله بها من سلطان ولا عندهم عليها
أثارة من علم أو بيان .

فقد ذكر الشهرستاني رحمه الله عن طائفة أنهم يحفرون لها أخدوداً مرتعاً في الأرض ،
ويؤججون النار فيه ثم لا يدعون طعاماً لذيقها ، ولا شراباً لطيفا ، ولا ثوباً فاخراً ،
ولا عطراً فائحاً ، ولا جوهرًا نقياً إلا طرحوه فيها تقريباً إليها وتبركاً بها ، غير أن هذه
الطائفة حرمت إلقاء النفوس فيها ، وإحراق الأبدان بها .

ومن عبادتهم لها أن يجلس الزهاد منهم حول النار صائمين يسدون منافسهم
حتى لا يصل إليها من أنفاسهم نفس من صدرٍ محرِّم (٥) .

-
- ١ — المرجع السابق ج ٢ ص ٢٦١ .
 - ٢ — إغاثة اللهيان ج ٢ ص ٢٢٩ .
 - ٣ — ديوان بشار بن برد ، ج ٤ ، ص ٩٢ — ٩٣ ، جمعه الشيخ محمد الطاهر
ابن عاشور .
 - ٤ — الملل والنحل ج ١ ، ص ٢٥٥ .
 - ٥ — المرجع السابق ج ٢ ، ص ٢٦٢ .

وقد ذكر ابن القيم - رحمه الله - طائفة أخسرى تبلغ عبادتهم للنار أن يقربوا أنفسهم وأولادهم لها ، وهؤلاء أكثر ملوك الهند وأتباعهم ، ولهم سنة معروفة فى تقرب نفوسهم وإلقاءهم فيها ، فيعمد الرجل الذى يريد أن يفعل ذلك بنفسه أو بولد ، أو حبيبه فيجمله ويلبسه أحسن اللباس ، وأفخر الحلى ، ويركبه أعلى المراكب وحوله المعازف والطبول والبوقات فيزف إلى النار أعظم من زفافه ليلة عرسه حتى إذا ما قابلها ووقف عليها وهى تأجج طرح نفسه فيها ، فضج الحاضرون ضجة واحدة بالدعاء له . وغطته على ما فعل ، فلا يلبث إلا يسيرا حتى يأتهم الشيطان فى صورته وشكله وهياته لا ينكرون منه شيئا ، فيأمرهم بأمره ، ويوصيهم بما يوصيهم به ، ويوصيهم بالتمسك بهذا الدين ، ويخبرهم أنه صار إلى جنة ورياض وأنهار ، وأنه لم يتألم بمن النار له ، فلا يهولونهم ذلك ولا يمنعونهم عن أن يفعلوا مثله (١) .

ومن عجيب الأمور أنهم جعلوا التقرب إلى النار والقرب منها إنما يحصل بالتزام الأخلاق الجميلة والأفعال الحسنة الحميدة كالصدق والوفاء وآداء الأمانة والعفة والعدل وترك أضرارها من الكذب والغدر والخيانة والسفه والطيش والبغى والحرس والحسد وغير ذلك من سبب الأفعال والأفعال (٢) .

فى حين أن هذه الأمور مما يتقرب به إلى الجنة ويباعده عن النار غير أن المجوس قد قلبوا الأمر وغيروا دين الله ، وهذا من لوازم الانحراف عن عبادة الله تعالى وحده ، والاشتغال بعبادة غيره فينجس الإنسان إلى أرذل الأعمال وأغرب التصورات وذلك لفساد العقل والقلب من ذل العبودية الدنيئة للأوهام والخيالات وسائر التصورات والأفكار والمذاهب والعبادى المنحرفة عن منهج الله .

هذه هى أشهر صور الوثنية القديمة ، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم أن العرب فى جاهليتهم قد عبدوا الجن والشياطين من دون الله تعالى ، فكانوا يتقربون إليهم ويخافونهم ويعوذون بهم من أن تنزل بهم الأذى والضرب . قال تعالى على لسان الجن الذين استمعوا للقرآن : (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا) (٣) .

١ - إغاثة اللهفان ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ .

٢ - أنظر المرجعين السابقين .

٣ - سورة الجن آية : ٦ .

وقد ورد (١) أنهم كانوا - إذا نزلوا منزلاً جديداً أو هبطوا وادياً من الأودية أو فلاة خاوية من الناس - يتعوذون ويحتمون بكبير الجن وعظيمهم في ذلك السوادى ليحفظهم من شرور باقى الجن وسفهاثهم أن يصيبوهم بأذى غير أن هذه الدلالة والعبودية من الإنس للجن والشياطين لم تعد عليهم بأذى منفعة بل كانت سبباً فى شقاوتهم وقلقهم الدائم من الأوهام والخيالات ولم تزد هم إلا خوفاً إلى خوفهم (١) .

وكان فريق يدعى أنه يعبد الملائكة ويتقرب إليها من دون الله وقد كشف القرآن الكريم عن حقيقة معبوداتهم ، واستنكر الملائكة أن يكونوا هم المعبودين ، بل كانت الجن ومردة الشياطين هى معبوداتهم فى الواقع وإن ادعى المشركون أنهم يعبدون الملائكة .

قال تعالى : (ويوم يحضرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ، قالوا سبحانك أنضت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) (٢) .

وذكر الشهرستاني أن الماء كذلك كان من المعبودات فى الوثنيات القديمة ، وكان عباده يزعمون أنه ملك ومعه ملائكة ، وأنه أصل كل شئ ، وما من عمل فى الدنيا إلا وهو محتاج إلى الماء ، فاستحق منهم العبادة (٣) .

١ - انظر فتح المجيد ص ١٦٢ - ١٦٥ .

٢ - سورة سبأ آية ٤٠ - ٤١ .

٣ - انظر الملل والنحل ، ج ٢ ، ص ٢٦١ .

الباب الثالث

الوثنية الحديثة

وفيه ثلاثة فصول :

١- الفصل الأول : منشأ الوثنية الحديثة وأسبابها .

٢- الفصل الثاني : العلاقة بين الوثنية الحديثة والوثنية القديمة .

٣- الفصل الثالث : صور من الوثنية الحديثة .

الفصل الأول

منشأ الوثنية الحديثة وأسبابها

وفيه بحثان :

- البحث الأول : منشأ الوثنية الحديثة .
- البحث الثاني : أسباب الوثنية الحديثة .

الفصل الأول

منشأ الوثنية الحديثة وأسبابها

المبحث الأول : منشأ الوثنية الحديثة :

الوثنية الحديثة أوروبية المنشأ ما في ذلك شك (١) ، فقد نشأت وترعرعت في أوروبا على أنقاض الوثنيين اليونانية والرومانية ، كبديل للديانة النصرانية التي ظلت سائدة فوق كل شيء ، طوال العصور الوسطى منذ اعتنقها الملك قسطنطين وفرضها على الإمبراطورية الرومانية وكانت المرجع الأخير في جميع الأمور ، بالرغم مما لحقها من تحريف وتغيير وتبديل في الأصول والفروع ، وبالرغم كذلك مما آلت إليه حال الكنيسة ورجال الدين من طغيان وتجبر وفساد خلقي كان له كبير الأثر في تشويه صورة الدين في نفوس الأوروبيين ونفورهم من الدين إلى الوثنية فيما بعد .

فقد بقي الدين سائدا طوال هذه الفترة حتى كان القرن الخامس عشر الميلادي وبدأت حركات الإصلاح الديني ضد الكنيسة ودونها المحرف ، وبدأت بعد هذا موجة الميل والاتجاه للاعتماد على العقل وتقديسه على الدين ، وهنا بدأ ما يُسمى بعصر النهضة والتنوير أو عصر سيادة العقل حيث بدأ سلطان الكنيسة ينحسر تدريجيا ، والطاعة العمياء لرجال الدين تختفي ، وصارت السيادة للعقل وحده في مناقشة الأمور وقبولها بعيدا عن رأي الدين ، كرد فعل معاكس لاباطيل الكنيسة ، فما أقره العقل فهو الموجود ، وما أنكره فغير موجود . (٢)

ومعنى هذا أن العقل أصبح في منزلة فوق الدين ، وحل محله وصار ميزان تقييم البشرية والموجه لها وواضع تشريعاتها ، وله الحق في الإشراف على كل اتجاهات الحياة وما فيها من سياسة وقانون ودين ، ويفهم من هذا أن أوروبا قد خطت خطوة كبيرة نحو الوثنية بعيدا عن الوحي والروح وصارت تتعبد للعقل وحده من دون الله .

ولم تلبث أوروبا أن خطت خطوة وثنية جديدة ، ففي بداية القرن التاسع عشر الميلادي تقريبا ، تحولت أوروبا من عبادة العقل إلى معبود آخر ليس له كنيسة ولا رجال دين ولا فرائض ولا التزامات ولا ضرائب ، ذلك هو الطبيعة التي استحوذت على اهتمام المفكرين في أوروبا في مطلع القرن التاسع عشر

(١) انظر : المجتمع الإسلامي المعاصر محمد مبارك ص ١٠٨ .

وانظر كتاب الغرب والشرق الأوسط ، برنارد لويس / ص ١٧٩ / تعريب

د . نبيل صبحي .

(٢) انظر : الفكر الإسلامي الحديث / د . محمد البهي ص ٢٧٩ - ٢٨٣

وماذا خسر العالم ص ١٧٨ .

وصارت لها السيادة المطلقة حتى على العقل ناهيك عن سيادتها على الدين ،
وأصبحت "الطبيعة" المحسوسة والمشاهدة هي مصدر المعرفة الحقيقية ،
وأن ما وراء الطبيعة لا يعتدُّ به ولا اعتباره ، بمعنى أن كلَّ ما جاء عن طريق
الوحي فهو خرافة وهم وخداع لا وجود له ، وكذلك ما يتصوره العقل من نفسه
فهو وهم وتخيل للحقيقة ، وليس حقيقة واقعة ما لم يكن قائما في الحس والمشاهدة .
وهكذا فإن الله وكلَّ ما يتصل به شيء لا وجود له ، لأنه لا وجود
له في الطبيعة أو الحس .^(١)

وهذه الوثنية التي نشأت في أوروبا عندما بدأت تتمرد على سلطان
الدين والأخلاق هي وثنية الآباء والأجداد من الإغريق والرومان ، لا سيما
وأنها لم تفقد صلتها بها أثناء تدوينها بالديانة النصرانية التي اختلطت
بالوثنية الرومانية في وقت مبكر من تاريخها ، ومعلوم كذلك أن الوثنية الرومانية
صورة مكررة للوثنية الإغريقية في أكثر مجالاتها ، وهما معا المصدر الذي استمدت
منه أوروبا وثنيتها الحديثة .^(٢)

يقول محمد أسد : (إن الرومانيين في الحقيقة لم يعرفوا الديسن
وإن آلهتهم التقليدية لم تكن سوى محاكاة شاحبة للخرافات اليونانية : لقد
كانت أشباحا سُكِّتَ عن وجودها حفاظا للعرف الاجتماعي ، ولم يكن يسمح لها
قطُّ بالتدخل في أمور الحياة الحقيقية .

(تلك التربة التي نمت فيها المدنية الغربية الحديثة ، ولقد عملت
فيها بلا شك مواءمات أخرى كثيرة في أثناء تطورها ، ثم إنها بطبيعة الحال
قد بدلت وحوَّرت في ذلك الإرث الثقافي الذي ورثته عن رومه في أكثر من
ناحية واحدة . ولكن الحقيقة الباقية أن كلَّ ما هو اليوم حقيقي في الاستشراق
الغربي للحياة والأخلاق يرجع إلى المدنية الرومانية ، وكما أن الجوافكسري
والاجتماعي في رومه القديمة كان نفعيا بحتا ولا دينيا - لا على افتراض بل
على الحقيقة - فكذا هو الجوف في الغرب الحديث فتري التفكير الأوربي

(١) انظر الفكر الاسلامي للبهني ص ٢٩٧ - ٣٠٠ .

(٢) انظر مذاهب فكرية ص ٤٥٤ ، جاهلية القرن العشرين ص ٣٣ .

ماذا خسر العالم ص ١٥٦ ، ١٨٠ .

الحديث - بينما هو يتسامح بالدين وأحيانا يوءد كد أنه عرف اجتماعي - يترك على العموم الأُخلاق المطلقة خارج نطاق الاعتبارات العملية .

(ان المدنية الأُوروبية قائمة في أساسها على المدنية الرومانية الوثنية ، وهي لا تزال في واقعها وثنية مادية لا تؤمن بخير القوة ، وقد أقامت نفسها زعيما بكل ما هو ضد الدين مبدئيا وعليا ، لقد رجعت أوروبا إلى إرثها الروماني (١) .

ومن هنا فإن الحضارة الأُوروبية المعاصرة قد نشأت نشأة غير موفقة منذ أول لحظة ، ثم استمرت تتباعد عن دين الله كلما تقدمت خطوة جديدة في المادية ، تماما كما هو حال أوروبا عندما بدأت بداية غير موفقة مع الديانة النصرانية التي مزجت بوثنية الرومان على يد الملك قسطنطين ، واستمرت في الهدم عنها من جراء حماقات الكنيسة ورجال الدين الكتسي ، وعلى كل فقد عادت الوثنية في أوروبا جزئة من جديد . (٢)

وكون النهضة الأُوروبية الحديثة قامت على أسس وثيقة الصلة بالحضارتين الوثنيتين الإغريقية والرومانية ، ومعيدة عن الدين ، كان هذا قد هبها الفرصة وأوجد الثغرات المناسبة لتدمير بقايا الدين والأخلاق في المجتمعات الأُوروبية ، فلما قامت كل من الثورة الفرنسية والثورة الصناعية ، تنبه اليهود لهما لقطع دابر الدين وتمزيق بقايا سلطان الكنيسة وهتك أستار ما تبقى من الأُخلاق والمبادئ الإنسانية السامية ، واستغلوهما لتقوية الوثنية الحديثة وترويجها ، وتوجيه أوروبا وجهة لا دينية بمعيدة عن الأُخلاق ، وقد كان لهم ذلك .

وهكذا فإن الوثنية الأُوروبية الحديثة لم تظهر دفعة واحدة ، فمنذ أن بدأت حركات الإصلاح الديني في القرن الخامس عشر الميلادي ، بدأت أوروبا تعيد النظر في التراث الوثني الروماني والإغريقي وتبني عليه حضارتها وتخطط انطلاقا منه ، وقد كان تراثا ماديًا خالصا لا يقيم للدين والأُخلاق وزنا ، وظلمت الوثنية تتفشى حتى بلغت غايتها من القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين على أظهر ما تكون الوثنية بعدما عن الله وشريعته .

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص ٣٨-٤٥ بتصرف .

(٢) انظر ماذا خسّر العالم ص ١٨٠ ، وتكوين العقل الحديث راندل

ترجمة جورج طعمة ج ١ ص ١٨٠ طبعة دار الثقافة .

وإذا علمنا أن الوثنية الحديثة قد نشأت في أوروبا واستفرقت زمننا طويلا حتى برزت هذا البروز السافر ، وأسقطت الدين من كل اعتباراتها ، فإنه لا بدّ أنه كان هناك أسباب ودوافع أدت إلى تحول أوروبا عن تمسكها بالدين النصراني ، وتخليها عن كل قواعد الأخلاق وعودتها إلى الوثنية الرومانية ، واعتبارها أفضل صورة للتقدم والتطور الحضاري وأنها أفضل من الحياة في ظل الدين والأخلاق تحت سلطان الكنيسة وقيادة رجال الدين . وهذا ما سيقودنا للبحث عن أسباب الوثنية الحديثة والظروف التي مهّدت لنشأتها وانتشارها في أوروبا .

*

البحث الثاني : أسباب الوثنية الحديثة :

لم تكن الوثنية الحديثة التي يعيشها العالم المعاصر اليوم شرقا وغربا - وليدة الصدفة أو مجرد مفاجأة من مفاجآت الزمان من غير أسباب ودوافع ، بل لقد كان لها عوامل أدت إلى ظهورها وتشكلها التمهيدى لنشأتها ، ومعرفة هذه الأسباب والدوافع يبصرنا بحقيقة هذه الوثنية والتعرف عليها من جوانب متعددة ، ويكشف لنا عن هوية هذه اللوثة الوثنية التي طغى سلطانها وعظم خطرها وانتشر أذاها وفسادها في جميع مناحي الحياة في أوروبا وغيرها من الدول بالمجاورة والعدوى .

فالوثنية الحديثة لم تنشأ من فراغ - كما هي سنة الكون والحياة - بل كان وراءها مجموعة كبيرة من البواعث يمكن حصرها في النقاط التالية :

١ - السبب الأول : يتمثل في عدم معرفة أوروبا بالدين الله الصحيح بسبب إفساد الكنيسة له .

لقد بات من المسلّم به عند الكتاب والمفكرين أن الديانة النصرانية التي اعتنقتها أوروبا لم تكن ديانة ربانية صحيحة سليمة من التحريف ، كما جاء بها عيسى عليه السلام من عند الله ، فلم تلبث طويلا حتى امتزجت بالأفكار الوثنية الرومانية .

وقبل كشف البيان عن هذا السبب ودوره في نشأة الوثنية الحديثة في أوروبا ومن ثم في أنحاء العالم ، أود أن أؤكد حقيقة إيمانية وهي : أن الديانة النصرانية التي جاء بها المسيح عليه السلام لم تكن يدعوا من الرسالات الإلهية ولم يكن عيسى عليه السلام إلا واحدا من سلسلة رسل الله الكرام فلم يدع منذ

اللحظة الأولى إلا لعبادة الله وحده لا شريك له .
فالنصرانية الصحيحة هي دين الله الذي يحبه ويرضاه ، وهي دعوة
توحيد خالصة ، دعوة حق وصدق وعدل وإخلاص لم يكن فيها للشيطان نصيب
ولا للباطل طريق .

فمنذ اللحظة الأولى قال رائدها وداعيتها كما قال الأنبياء والرسل
من قبله ودعا بدعوة التوحيد وعبادة الله وحده .

قال تعالى : ﴿ وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدا الله ربِّي
وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين
من أنصار ﴾ (١) .

هذه حقيقة يسجلها القرآن الكريم على لسان عيسى عليه السلام
ويعلن عن تمسكه بها ، وينعى على الذين انحرفوا من بعده فضلوا ضللا
بمعيدا .

فيقول تعالى : ﴿ وإن قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس
اتخذوني وأمي إلهين من دون الله . قال سبحانه ما يكون لي أن أقول ما ليس
لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك
أنت علام الغيوب ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدا الله ربِّي وربكم وكنت
عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل
شيء شهيد ﴾ (٢) .

وقد تقدم أن التوحيد دعوة جميع الرسل ، وإذا كانت دعوة المسيح
عليه السلام لم تخرج عن دائرة التوحيد فكيف دخلها الفساد ؟ وكيف اختلطت
بالوثنية وامتزجت بالآفكار الإغريقية والرومانية ، حتى وصلت إلى أوروبا على غير
الصورة التي جاء بها نبي الله عيسى ابن مريم عليه السلام ؟
كيف فسدت النصرانية من بعد المسيح ؟

الإجابة عن هذا السؤال تساعدنا في تدعيم هيمان القول بأن أوروبا لم
تعرف الدين الصحيح ، وأن هذا يشكل السبب الأكبر في نشأة الوثنية
الحديثة .

(١) المائدة آية ٧٢ .

(٢) المائدة آية ١١٦-١١٧ .

سبق القول بأن اليهود تلقوا النصرانية منذ اللحظة الأولى بالرفض والعداء والكيد وأغروا بها الحكام الرومانيين الوثنيين ، فمئيت بالهزيمة منسفة البداية ، وتكتم أهلها على أنفسهم ولم يكن لها دعاة ظاهرون ، وفي تلك الظروف الخرجة ظهر فجأة شخص يدعى (شاول أو بولص) وهو يهودي كان عدوا لعدوا النصرانية وأتباعها ، ظهر فجأة وقد اعتنق الديانة النصرانية (١) - وببدو أن هذا هو أسلوب اليهود في إفساد الأديان - ثم أخذ يدعو الناس إليها بطلب من السيد المسيح حسب دعواه ، فكان هذا الشخص الداعية الملني والمؤسس الحقيقي للنصرانية التي نعرفها اليوم ورسولها بعد المسيح (٢) يدعو إليها ليل نهار ، وطاف كثيرا من البلاد يكرز بالنصرانية التي يريد بها هولا التي جاء بها المسيح من عند الله .

وكان يتقرب إلى الوثنية ويرضى بكثير من طقوسها الباطلة مما يدل على سوء نواياه ، وإن كان يتمل بحجة نشر الديانة النصرانية وتقريبها للوثنيين . يقول د . شلبي : (ولم ينفر بولص من الطقوس الوثنية ، بل على العكس اقتبس كثيرا من هذه الطقوس ليضمن نشر ديانته بين الوثنيين دون أن ينفروا منها) (٣) .

فكان هذا الدور بمثابة التمهيد والإعداد لإفساد العقيدة النصرانية ، بعد أن يكسب تأييد الدولة الرومانية ، وبدأ نشاطه بالقول بألوهية المسيح التي كانت بداية بدعة التثليث ، فكانت له اليد الطولى في تحريف النصرانية .

يقول شلبي عن دور بولص في إفساد النصرانية : (لقد أحدث بولص في المسيحية أحداثا خطيرة ، نقلها من التوحيد إلى التثليث فقال بألوهية روح القدس . . .) (٤)

(١) انظر محاضرات في النصرانية / الإمام محمد أبو زهرة / ص ٨٤ ، دار

الفكر العربي .

(٢) المسيحية / د . أحمد شلبي / ص ٦٠ .

(٣) المسيحية ص ٧٢ .

(٤) المسيحية ص ١٠٢ .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن العصر الذي بحث فيه عيسى كان عصر سيادة الوثنية ، فقد كانت ذات سلطان كبير وسطوة عظيمة وذلك لأنها كانت ديانة لإحدى الدول العظمى في ذلك العهد وهي الدولة الرومانية ، وبالرغم من أن هذه الدولة الوثنية لم تقف موقفا عدائيا من دعوة المسيح فسي البداية ، إلا أنها بعد فترة من الزمن غيرت موقفها بفعل دسائس اليهود الذين وقفوا بالمرصاد لعيسى وأتباعه منذ اللحظة الأولى (١) .

فنشأ الخلاف بين اليهودية المحرفة ، والنصرانية دعوة التوحيد الجديدة التي ما زالت في بدايتها ، وكان لليهود دور كبير في تغيير موقف بعض الحكام الوثنيين الرومانيين ، بعد أن أقنعوهم بخطورة الدعوة الجديدة على سلطان الدولة الرومانية ، فأصدر الحاكم الروماني بيلاطس أمره بقتل المسيح عليه السلام صليبا (٢) . غير أن رعاية الله تعالى وعنايته بعيسى حالت دون صلبه فنجاه الله تعالى من المكيدة التي دبها يهودا الاسخريوطي أحد تلامذة المسيح لصلبه والتخلص منه ، حيث إن الله تعالى ألقى شبه المسيح على يهودا الاسخريوطي وصلب بدلا عنه ورفع الله تعالى عيسى إليه (٣) .

قال تعالى : ﴿ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما ﴾ (٤) .

واستمر بعد ذلك الاضطهاد الوثني لدعوة التوحيد وأتباعها ، فكان كلما تسلّم دفة الحكم إمبراطور جديد تقرب إلى الوثنية يصب جام غضبه وإيقاع عظيم سخطه على أتباع التوحيد وحواربي عيسى من بعده وكل من عرف بالنصرانية ، واستمرت فترة الاضطهاد ثلاثة قرون من ميلاد المسيح ، بقيت خلالها النصرانية منكشحة على نفسها غير ظاهرة ومطاردة في كل مكان في أشخاص معتنقيها حيث لا قوا سوى العذاب وشردها في أنحاء الأرض واتخذ الكثير منهم الأديرة والمغارات والكهوف مساكن لهم فرارا بدينهم من العذاب (٥) .

-
- (١) انظر خطر اليهودية على الإسلام والمسيحية - عبد الله التل ص ٢٠ ط ٢ .
 - (٢) راجع النصرانية ، أبو زهرة ص ٢٨ ، والمسيحية ، شلبي ص ٣٣ .
 - (٣) انظر النصرانية ، أبو زهرة ص ٢٨ ، والمسيحية ص ٣٣ .
 - (٤) سورة النساء آية ١٥٧ - ١٥٨ .
 - (٥) انظر النصرانية ٣٤ - ٣٩ ، المسيحية ص ٤٨ - ٥٢ ، مذاهب فكرية ص ١٠ .

ولعل قصة أصحاب الكهف التي ورد ذكرها في القرآن توحى بذلك وتدل على مبلغ الاضطهاد الذي ألجأ أولئك الفتية المؤمنين إلى الكهف. (١)
وفي القرن الرابع الميلادي تغير الأمر حين اعتنق الإمبراطور قسطنطين النصرانية ورفضها على الإمبراطورية الرومانية .
ولكن الدين الذي فرضه قسطنطين شي* آخر غير الدين الذي جاء به المسيح عليه السلام. (٢)

أما حقيقة هذا الدين وعقيدته فهي الوثنية الرومانية التي مزجت بالنصرانية بقوة السلطان توفيقاً لمصلحة الفريقين كما تراءى ذلك لقسطنطين .
وخلاصة الأمر أن النصرانية ومنذ اللحظة الأولى لم تتمكن من الحكم والسيطرة والقيادة والتوجيه العام بكيد من اليهود واضطهاد الوثنية الرومانية ، فبقيت في مرحلة الستر والكتمان ولم يستطع أنصارها الجهر بها والدعوة إليها ، حتى انبرى لها قسطنطين وأظهر اعتناقه لها ، وكان عهده رخاء* على النصارى لا على النصرانية ، وليته لم يمتنعها فقد أفسدها أيما إفساد ومسحها شمسوخ وجعلها ديانة وثنية بصورة رسمية ومعتمدة بختم الإمبراطورية الرومانية ، وهكذا فقد كان دوره متمماً للجهود الخبيثة ، ومثبتاً للأفكار والتحريفات التي بشها المفسد الأول للنصرانية وهو بولص من قبل .

وهذه أوروبا ما زالت تجني عواقب دخول ذلك الإمبراطور الوثني في النصرانية الذي وإن كان قد رفع الظلم والتعذيب الجسدي عن النصارى ، إلا أنه أفسد عليهم عقيدتهم وأولى الأقل كان سبباً في ذلك .

يقول د رابرا الأمريكي في كتابه " الدين والعلم " : (ودخلت الوثنية والشرك في النصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلدوا وظائف خطيرة ، ومناصب عالية في الدولة الرومانية بتظاهرها بالنصرانية ، ولم يكونوا يحفلون بأمر الدين ، ولم يخلصوا له يوماً من الأيام ، وكذلك كان قسطنطين فقد قضى عمره في الظلم والفجور ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلاً في آخر عمره سنة ٣٣٧ م .

(إن هذا الإمبراطور الذي كان عبداً للدنيا ، والذي لم تكن عقائده الدينية تساوى شيئاً رأى لمصلحته الشخصية ولمصلحة الحزبين المتنافسين -

(١) راجع سورة الكهف من آية ٩ - ٢٧ .

(٢) انظر الجواب الصحيح لمن يدل دين المسيح ج ٣ ص ١٢٢ .

و مجموع الفتاوى ج ١٧ ص ٣٣١ والنصرانية ص ٣٨ .

النصراني والوثني - أن يوحد هما ويؤلف بينهما حتى إن النصراني الراسخين - أيضا لم ينكروا عليه هذه الخطة ولعلمهم كانوا يعتقدون أن الديانة الجديدة ستزدهر إذا طُمِّتْ ولقِّحت بالعقائد الوثنية القديمة . وسيخلص الدين النصراني عاقبة الأمر من أدناس الوثنية وأرجاسها ولكنها لم تتمكن من أن تقطع دابسر الوثنية وتقتلع جرثومتها وكان نتيجة كفاحتها أن اختلطت مبادئها ونشأ من ذلك دين جديد تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء (١) .

ومن هنا قال القاضي عبد الجبار: (ان الروم ما تنصرت ولا أجابت المسيح بل النصراني ترومت وارتدت عن دين المسيح وطمّلت أصوله وفروعه ، فصارت إلى دياناة أعدائه) (٢) .

(وهكذا فقد التقت النصرانية بالوثنية فصافحتها مصادفة المسالمة والموادعة بل مصادفة المصادقة !! فلم تنكر عليها وجها من وجوهها ، بل ان دعاة المسيحية ورسلمها الأولين قد غيروا وبدلوا في صميم الشريعة لكي تجي على سمت التفكير الوثني وما استقر في نفوس الوثنيين وحياتهم من تقاليد وعادات (٣))
وانا وصل الأمر بالنصرانية لهذه الدرجة فلك أن تتصور تلك الحال التي انحطت إليها النصرانية وصار إليها النصراني استرضاء للوثنية وخوفا من الوثنيين ، ولعلنا إذا أردنا الإنصاف أن نقول بأن النصراني ما كانوا ليرضوا بالعقائد الوثنية إلا من جراء كيد « شاول » وخداع « قسطنطين » .

من هنا تتضح للمقاريء معالم القول بأن أوروبا لم تعرف الدين الصحيح ، فالنصرانية منذ فترة مبكرة من تاريخها بدأت تتحول تدريجيا إلى ديانة وثنية ، أو بكلمة أخرى صارت نتاجا مشوها من اختلاط الديانتين ، مما حال دون وصول النصرانية الصحيحة للأوروبيين .

وهذا هو العامل الأول الذي أدى إلى إفساد الديانة النصرانية . أما العامل الآخر - والذي يزيد خطورة وأهمية عن العامل الأول - فهو الدور الذي لعبته الكنيسة ومارسه رجال الدين في مسخ وتشويه النصرانية

(١) نقلا عن مذاهب فكرية ص ١٠ .

ومن مدى أثر قسطنطين في إفساد النصرانية انظر محاضرات في النصرانية

ص ١٤٧ - ١٥٤ .

(٢) تثبيت دلائل النبوة - القاضي عبد الجبار المعتزلي ج ١ ص ١٦٨ .

(٣) المسيحية في القرآن والتوراة والإنجيل / عبد الكريم الخطيب ص ٣٣٨ /

دار الكتب الحديثة .

بشقيها العقيدى والتشريعي ، فقد أقرت العقائد الباطلة وأبطلت شريعة الله وحالت دون تطبيقها بين الناس ، وهذا ما سيتضح في الفقرة التالية .

*

* دور الكنيسة ورجال الدين في تحريف العقيدة النصرانية ثم فصلها عن الشريعة ما أدى إلى فصل الدين عن الحياة فصلا كاملا .

معلوم أن النصرانية - كغيرها من الديانات السماوية - عقيدة وشريعة والعقيدة هي نقطة الارتكاز والثبات وملتقى جميع الرسالات ، تقوم على الإيمان بالله تعالى وإخلاص العبادة له لا شريك له ، والإقرار له بالربوبية والإيمان بما ثبت له من الأسماء والصفات والإيمان بالرسول جميعا وبالملائكة والكتب المنزلة إلى غير ذلك ما هو معروف في بابه .

وأما الشريعة - وإن كان فيها بعض الثوابت - فهي متناسبة مع دعوة كل رسول وحال قومه والزمان والمكان الذي يبعث فيه ، بمعنى أنها متلائمة ومتناسبة مع التطور الإنساني بكافة مجالاته ، وغاية الشريعة أن تحكم شؤون الحياة وأمور الناس ويعودوا إليها فيما يختصمون فيه ، وكلمة أخرى هي رد الحاكمية لله تعالى لأنه صاحب الحق في التشريع ، وطاعة أمره والخضوع له . وقد كان للكنيسة موقف خطير لا يقل - بل يزيد - عن موقف اليهود والوثنية من الديانة النصرانية ، فإذا اعتبرنا أن التقاء المسيحية مع الوثنية بداية تدهور النصرانية فإن موقف الكنيسة ورجالها كان بحق العثم لتلك البداية والمفرغ للنصرانية من محتواها ومضامينها الصحيحة ، وبذلك تكون الضربات التي وجهتها الكنيسة ورجال الدين^{إلى} النصرانية أشد وأنكى من دسائس اليهود وأفعال الأباطرة الوثنيين بما فيهم قسطنطين .

وقد كانت تلك الطعنات على محورين رئيسيين : أحدهما مباشر والآخر غير مباشر في آثاره ونتائجه .

أ - أما المحور المباشر فيبتكون من نقطتين هما :

الأولى : تشويه العقيدة وإفسادها .

والثانية : فصل العقيدة عن الشريعة ، وتحديده الشريعة عن واقع الحياة .

ب - أما المحور غير المباشر فهو يتمثل في مجموعة المساوي^ة التي ارتكبتها

رجال الدين واستغلوا بها سلطتهم الدينية بطريقة غير سليمة ، مما كان له بالغ الأثر في النفور من دين الكنيسة ثم الدين بشكل عام والجنوح إلى الحياة الوثنية الحديثة .

١ - تشويه العقيدة وفسادها:

سبقنا الإشارة إلى أن بولص قد أتى على النصرانية من جذورها ،
مبتدئاً فيها أفكاره الخبيثة ، وبالرغم من الدور الكبير الذي قام به لنشرك الأفكار
والترويج لها بين النصارى الموحدين ، إلا أن ذلك كان من الجائز أن يبقى
مجرد جهد فردي محدود نوعاً ما ، لولا أن الكنيسة قد تبنت أفكاره فيما بعد
وآمنت بها وأولتها اهتماماً بالغاً ، واعتنقها رجال الدين واعتبروها الدين
المنزل على عيسى من عند الله .

واستخدمت الكنيسة سلطتها لفرضت العقيدة المشوهة وألزمت الناس
بها تدريجياً عن طريق عقد المجامع الكنسية التي كان يحضرها الأساقفة
وكبار رجال الدين النصراني كلما سنحت الفرصة لتثبيت فكرة باطلة جديدة إذ
كان من الصعب على الكنيسة ورجال الدين أن يقدموا العقيدة الجديدة
دفعة واحدة وذلك لوجود كثير من الموحدين الذين لا يؤمنون بأفكار
بولص ولا يرضون بالصورة المشوهة التي آلت إليها الديانة النصرانية بعد
قسطنطين .

وأما الصورة النهائية للعقيدة النصرانية الجديدة التي أقرتها المجامع
واعتمدها الكنيسة وقامت بتبليغها للناس بالقوة والهيمنة فقد جاءت في كتاب
سوسنة سليمان لنوفل بن نعمة الله بن جرجس النصراني وهي تتلخص في أن :
(عقيدة النصارى التي لا تختلف بالنسبة لها الكنائس ، وهي أصل الدستور الذي
بينه المجمع النيقاوي ^(١) هي الإيمان بالله واحد أب واحد ، ضابط الكل ، خالق
السماء والأرض ، كل ما يرى وما لا يرى ، ويرب واحد ، يسوع الابن الوحيد المولود
من الآب قبل الدهور من نور الله . إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساوٍ
للآب في الجوهر ، الذي به كان كل شيء ، والذي من أجلنا نحن البشر ، ومن
أجل خطايانا نزل من السماء ، وتجسد من الروح القدس ، ومن مريم العذراء
تأنس ، و صلب عنا على عهد بهلاطس ، وتأمم وقبر ، وقام من الأموات في اليوم
الثالث على ما في الكتب . وصعد إلى السماء وجلس على يمين الرب ، وسيأتي
بمجد ليدين الأحياء والأموات ، ولا فناء لملكه ، والإيمان بالروح القدس الرب
المحيي المنبثق من الآب ، الذي هو مع الابن يسجد له ، ويمجد ، والناطق
بالأنبياء) . ^(٢)

(١) عقد في عام ٣٢٥ م بأمر من قسطنطين .

(٢) نقلاً عن النصرانية ص ١١٦ .

هذا هو جوهر العقيدة التي آمنت بها الكنيسة ، وهي كما ترى تعتبر نقلة كبرى للنصرانية من التوحيد إلى التثليث ، وهي في نظر الكنيسة عقيدة لا تحتل إلا التسليم والخضوع والطاعة والاتباع ، فلا يجوز النقاش فيها ، فحجرت على العقول أن تتفكر فيها ، واستأثرت هي بتفسير نصوصها وشرحها وتوضيحها . جاء في كتاب خلاصة تاريخ المسيحية في مصر (كنيسةنا المستقيمة الرأي التي تسلمت إيمانها من كيرلس وديسقوروس ومعها الكنائس : الحبشية والأرمنية والسريانية والأرثوذكسية تعتقد أن الله ذات وحدة مثلثة الأقانيم : أقنوم الآب ، وأقنوم الابن وأقنوم روح القدس ، وأن الأقانوم الثاني أي أقنوم الابن تجسد في الروح القدس ، ومن مريم العذراء ، مصيراً هذا الجسد معه واحداً وحدة ذاتية جوهرية منزهة عن الاختلاط والامتزاج والاستحالة ، بريئة من الانفصال وبهذا الاتحاد صار الابن المتجسد طبيعة واحدة من طبيعتين (١)
ومشيئة واحدة) .

ويقول صاحب رسالة الأصول والفروع (٢) : (قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا ونرجو أن نفهمه فهماً أكثر جلاءً في المستقبل ، حين ينكشف لنا الحجاب عن كل ما في السموات وما في الأرض ، وأما في الوقت الحاضر ففي القدر الذي فهمناه كفاية) . (٣)

عقيدة غامضة مبهمه لا تحتل البحث والتفكير والنقاش ، وذلك لأنها تقوم على أسس فاسدة وأصول باطلة ، ومع هذا فالكنيسة كانت تجتهد في إثبات أن هذه العقيدة هي ما جاءت به الكتب المقدسة . (٤)

هذه هي الضربة الأولى التي وجهتها الكنيسة لصميم النصرانية ووافقت عليها وانتصرت لها وقدّمتهما للناس على أساس أنها الدين الرباني المنزل ، واستمر الإيمان بها إلى بداية عهد النهضة وقيام حركات الإصلاح الديني والاجتماعي . وعلى كل الأحوال فقد كان هذا التحريف هادماً لأساس الديانة النصرانية ومقوضاً لركان العقيدة الدينية عقيدة التوحيد حيث أصبحت فسي صورة تثليث إلى جانب الأوهام والخرافات مثل عبادة الصليب والصور والتماثيل

(١) عن المرجع السابق ص ١٢٠ .

(٢) للقس بوطر .

(٣) عن المرجع نفسه ص ١٢١ .

(٤) انظر المرجع نفسه ص ١٢٢ - ١٢٤ هناك مجموعة من الأدلة والشواهد .

والمشاة الرباني الأخير والتعميد وقصة الصلب والفداء^١ للخطيئة الأولى، وصكوك
الغفران، وغير ذلك ما حملته الكنيسة للديانة النصرانية وهي في حقيقتها بريئة
من كل هذه الخرافات.

٢ - هذه هي الضربة الأولى التي وجهتها الكنيسة إلى صميم الديانة
النصرانية^(١)، وليتها اكتفت بها، وأبقت على الشق الآخر من الدين وهو
الشريعة الربانية، ولكنها لم تتوان في توجيه ضربة قاصمة أخرى، ربما كانت
لا تقل أثرا على النصرانية عن سابقتها، وكانت هي القاضية.

أما هذه الضربة فهي عملية فصل ما بين العقيدة والشريعة، وعزل
الشريعة واستبدال القانون الروماني الوثني بها ليحكم حياة الناس.

يقول الاستاذ محمد قطب: (على أن التحريف الذي وقع في العقيدة
من جعل الإله الواحد ثلاثة أقانيم وتأليه عيسى عليه السلام، وادعاء بنوته
للله تعالى وتأليه مريم وروح القدس جبريل عليه السلام، واختراع قصة الصلب
والفداء^٢، وعبادة الصليب وعبادة التماثيل والأوثان... إلخ هذا التحريف
على بشاعته لم يكن هو التحريف الوحيد الذي أدخلته الكنيسة والمجامع
المقدسة على دين الله المنزل، بل أضافت الكنيسة انحرافا آخر لا يقل
سوءا وتشويها للدين المنزل من عند الله، وذلك بعزل العقيدة عن الشريعة
واتخاذ الدين عقيدة فقط وترك القانون الروماني يحكم الحياة^(٢).

ونسبت أناجيل الكنيسة زورا وههنا إلى السيد المسيح أنه قال:
(أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله)^(٣).

وظاهر هذه الفرية يدل على أن المسيح عليه السلام يقرأ أن الدين
الرباني هو مجرد عقيدة لا صلة لها بالتشريع الذي يحكم حياة الناس وتصرفاتهم
، وأنه مجرد شعائر وطقوس ودعوات يوهبها الإنسان لله في حين أنه يحتكم
إلى قوانين الغاب والناج لا إلى شريعة العليم الخبير.

(إن هذا المعنى يستحيل أن يخطر في بال المؤمن من العبادي الذي
يوه من بلا إله إلا الله، فكيف ينبغي مرسل من عند الله؟!)^(٤)

(١) انظر النصرانية ص ١٨٢ .

(٢) مذاهب فكرية ص ١٢ .

(٣) انظر القصة في انجيل متى الاصحاح ٢٢ فقرة ١٥-٢٣ .

(٤) مذاهب فكرية ص ١٦ .

تسلحت الكنيسة بالنزور والبهتان واعتمدت على الأناجيل المحرّفة ،
وجنحت إلى تحكيم القانون الروماني الوثني وفضّلته على شريعة الله سبحانه
منها للدولة الرومانية ، ولم تتح الفرصة أمام شريعة الله أن تضبط واقع الحياة
بالرغم من أن الكنيسة وصلت في فترات من الزمن أن تكون هي الآمرة الناهية
وصاحبة الكلمة النافذة تطرد من رحمة الله مَنْ تشاء وتمنحها لمن أحببت ، وتتصرف
في أمور الأباطرة عزلاً وتشبيهاً لا معقب لا أحكامها ، ولكن رهبانها وابطواتها
وكرادلتها جعلوا أنفسهم أرباباً من دون الله يحلون ويحرّمون يبيحون ويمنعون
تبعاً لهواهم .

وخلاصة الأمر أن الكنيسة حملت هذه القصة - على فرض صحتها - فوق
ما تحتل وزعمت أن معناها أنه من حق قيصر أن يحكم عالم الأرض على أن يحكم
الله عالم السماء أو أن الأبدان لقبصر يفعل بها ما يشاء في الحياة الدنيا ،
ولله الأرواح في الآخرة .

وهكذا سمحت للعالم المسيحي أن يحكمه القانون الروماني في كل
شؤونه ما عدا "الأحوال الشخصية" (١) من زواج وطلاق . . . إلخ وأن ينحصر
سلطان الله على عباده في مشاعر الخشوع والتقوى والشعائر التعبدية والأحوال
الشخصية التي لا يهتم بها قيصر إذا ما تركت لشريعة الله ، وتمّ بذلك فصل
العقيدة عن الشريعة وتمّ المسخ الكامل لدين الله . (٢)
ومعنى ذلك أن التشريع لم يمد حقا لله تعالى من دون الناس ، وإنما
هو للبشر حسب هواهم وأعرافهم وعاداتهم وتقاليدهم الوثنية السائدة وشهواتهم
الباطلة .

ومشير القرآن الكريم إلى هذا الانحراف بقوله تعالى : * اتخذوا
أحبّارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا
إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه وتعالى عما يشركون * (٣)
وقد فسّرها الرسول صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم في قصة
إسلامه رضي الله عنه .

(١) لاحظ كيف تأثر المسلمون بهذا في اليهود الأخيرة كما سيأتي

فيها بعد .

(٢) مذاهب فكرية ص ١٧٠ .

(٣) سورة التوبة آية ٣١ .

فقد روى الترمذى بسنده عن عدى بن حاتم قال :
(أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب . فقال يا عدى
اطرح هذا الوثن من عنقك فطرحته ، وانتهيت إليه وهو يقرأ في سورة براءة
فقرأ هذه الآية ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ﴾ . فقلت
يا رسول الله إننا لسنا نعبدهم فقال أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه
ويحلون ما حرم الله فتحلونهم قال : قلت بلى . قال : فتلك عبادتهم .
وفي رواية أخرى قلت يا رسول الله أما إنهم لم يكونوا يصلون لهم ، قال
صدقت . ولكنهم كانوا يحلون لهم ما حرم الله فيستحلونه ويحرمون ما أحل الله
فيحرمونه (١) .

وهكذا عملت الكنيسة على إفساد الديانة النصرانية بشقيها وقدستها
للناس على تلك الصورة المزيفة باعتبارها دين الله الذي لم يأت الباطل ، مما
حال دون معرفة أوروبا للدين السماوي الصحيح .

*

المحور غير المباشر لفساد النصرانية بفعل الكنيسة ورجالها .

بالرغم من الضربات المباشرة التي وجهتها الكنيسة لصميم الديانة
النصرانية ، فإنها - مثلة في رجال الدين - لم تكتف بهذه الخطيئة الكبرى
التي لا تغتفر بحق دين الله السماوي ، بل أضافت إلى ذلك خطايا أخرى ومنكرات
لا تقل أثرا على النصرانية من خطاياها السالفة (٢) .

هذه الخطايا تتمثل في ثلاثة أمور : (طغيان الكنيسة ورجال الدين ،
وفسادهم الخلقي ، ومحاكم التفتيش) .

وهي في مجموعها تصرفات شاذة قام بها رجال الدين باسم الكنيسة
المقدسة كانت لها نتائج وآثار سلبية أدت بطريقة غير مباشرة للنفور من دين
الله على اعتبار أن الكنيسة ورجال الدين يتصرفون وفق التعاليم الدينية التي

(١) انظر : تحفة الأحوزى بشرح صحيح الترمذى لابن العربي المالكي

ج ٤ ص ١١٢ مكتبة المعارف بيروت .

وجامع البيان عن تأويل القرآن / ابن جرير الطبري ج ١٠ ص ٨٠-٨١

مطبعة الحلبي بمصر .

وتفسير ابن كثير ج ٣ ص ٣٨٥ .

(٢) انظر مذاهب فكرية ص ٢٤٤ .

جاءت بها النصرانية حيث أدى ذلك إلى ردة فعل معاكسة ضد كل الأديان السماوية والرضا بالحياة الوثنية الجديدة .
أ - طغيان الكنيسة ورجال الدين :

قبل الشروع ببيان جوانب هذا الطغيان الكنسي أود أن أشير إلى المصدر الذي استمدت منه الكنيسة هذا السلطان ومن ثم استفلته بطريقة جبروتية طاغية بعيدة عن العقل والمنطق .

لقد حاولت الكنيسة دائما في كل تصرفاتها أن تعتمد على نص ديني وتستند في وجودها وسلطانها على أقوال نسبتها الأناجيل المحرفة إلى المسيح عليه السلام زورا وبهتانا في معظم الأحيان ، لم يقلها المسيح ولا يقرها آحاد المؤمنين فضلا عن الأنبياء والمرسلين .

وهي في هذه المرة تدعي - كما جاء في إنجيل متى - أن المسيح عليه السلام قال لبطرس كبير الحواريين : (أنت بطرس ، وعلى هذه الصخرة أبني كنيسة وأبواب الجحيم لن تقوى عليها ، وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا في السموات وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا في السموات) (١) .

من هذا القول استمدت الكنيسة سلطانها وطيغانها ، وجعلت طاعتها واجبة وأوامرها نافذة لا تقبل الاعتراض لأنها تمثل أوامر الرب ، وبالتالي فإن طاعة البابا وجميع رجال الدين واجبة لأنهم يمثلون الكنيسة ، وألقت عليهم هالة من التعظيم والقداسة ما جعلهم يستحلون فعل كل محظور ويرتكبون كل منكر تحت ستار الكنيسة وحمايتها .

وهكذا كانت الكنيسة تبرر كل شيء تفعله أو تنوي فعله بنسبته إلى المسيح لتضفي على منكراتها صفة شرعية ، وسلطة إلهية ، وعندها فليس من حق أحد أن يعترض عليها ولا يسهه إلا التسليم والانقياد والطاعة والخضوع ، لأن هذه الأفعال ليست من صنع الكنيسة ورجال الدين حسب الهوى والرغبة ، وإنما هي حكم الرب وإرادته والطاعة في ذلك واجبة . (٢)

(١) إنجيل متى الإصحاح ١٦ فقرة ١٩ - ٢٠ .

(٢) في كشف زيف هذه الدعاوى انظر : مذاهب فكرية ص ٢٨ - ٣٠ .

١ - الطفيان الروحي :

في كل منهج من المناهج الوضعية ، وفي كل جاهلية من جاهليات التاريخ ، وفي كل دين من الأديان الباطلة والمحرفة تجد سمة ظاهرة وعلامة مميزة تلك هي ظاهرة الطفيان في مجالات شتى الذي يستمد سلطانه مسن الأوهام والخرافات والمعتقدات الباطلة ، كما هي الحال بالنسبة إلى السحرة والنجمين والدهاة في كل فن من الفنون ، فإنهم يستأثرون بمميزات وخصائص لا يحظى بها عامة الناس ، فهم يعلمون الغيب ويكشفون الأسرار وينفَعون ويضرون !

ولما كانت الديانة النصرانية - بعد أن فسدت عقيدةً وشريعةً - لا تختلف عن أي دين من الأديان الباطلة ظهرت فيها هذه السمة واستشرت بحيث فاقت كل وصف وعلت على كل تصور ، فادعت الكنيسة أن لرجال الدين فيها سلطانا روحيا على الناس ، ومنزلة عالية لم يبلغها الأفراد العاديون وذلك لأنهم - حسب دعواها - الوسطاء بين الخالق والمخلوق فهم وكلاء عن المسيح في كل شأن من شؤون الدين والدنيا ، فلا يكون الشخص نصرانيا حتى يعمدوه ، ولا يصلي ولا تقبل له صلاة إلا بواسطةهم ، ولا تغفر خطاياهم وذنوبهم ولا تقبل توبته إلا برضاهم ، ولا يتزوج حتى يباركوا له زواجه ، وأخيرا فلا يدخل الجنة إلا إذا شملوه برعايتهم ونال رضاهم .

ولم يكن ذلك هو الباب الوحيد للطفيان الروحي الذي مارسته الكنيسة ورجال الدين ، بل في صلب العقيدة المحرقة أسرار لا يعلم تأويلها إلا الراسخون لا في العلم ولكن في الكهنوت أسرار التثليث والعشاء الرباني الذي يتحول فيه الخبز إلى جسد المسيح والخمر إلى دمه ، وما إلى ذلك من معتقدات وخرافات . ومارست الكنيسة طفيانها على الأرواح فقالت للناس : لن توءمنوا بالله حتى توءمنوا بتلك الأسرار ثم قالت لهم إن مفتاح تلك الأسرار عندها ولن تعطيه إلا لمن تختاره .

وهكذا رفعت الكنيسة من قدر رجال الدين على اختلاف درجاتهم ناهيك عن القداسة العظمى والآية الكبرى " قداسة البابا " إنهم مقدسون قداسة مطلقة حتى كلماتهم التي يسمعونها الناس منهم تعد مقدسة لأنهم يتكلمون باسم الرب .

واستغل رجال الدين هذا السلطان وعتوا عتوا كبيرا ، وركب الشيطان هاماتهم فكانوا عبادا للدنيا بما فيها من مال ونساء وشهوات ، وملكوا أرواح الناس يتصرفون بهم كما يريدون ، ويستعبدونهم لا أنفسهم من دون الله .

و يصور (تشارلس ديكنز) مدى الطفيلان الروحي الذي مارسه البابوات والكرادلة على أرواح الناس فيصف شارعاً من شوارع باريس وهي يومئذ غيرها اليوم والمطر ينهمر بقوة والشارع مملوء بالطين والاقذار والوحل ، وموكب الكاردينال على حصانه يمر في الطريق ، والناس محتشدة على الصفيين ترقب ذلك المشهد بقلوب خائفة واجفة ، وتنتظر اللحظة الهائلة التي يحاذي الموكب فيها رؤوسهم ، فتتهوى هذه الرؤوس خشوعا ومذلة للموكب العوقر ، وتظل تهوى حتى تلتصق بالأرض في الوحل والطين والقاذورات .^(١)

٢ - الطفيلان العقلي والفكري والعلمي :

إذا كانت الأسرار والكرامات والمنازل العالية القدسية التي أسبلتها الكنيسة على رجال الدين تسيطر على الجانب الروحي من حياة الناس فإنها نسي الوقت نفسه من جانب آخر تحظى بالسيطرة نفسها وبالقداسة نفسها على العقل والفكر ، فقد فرضت هذه الأوهام والخرافات على العقول ففرضت عليها مناقشتها واعتبرت كل من تسوّل له نفسه ولو بأدنى شك فيها أنه مهترق ومخرف وستوجب اللعنة والحرمان وخارج من رضوان الرب الذي تملكه الكنيسة .^(٢)

ووقفت موقف المعارض لمبادئ العقل في تصوراتها ومعتقداتها ، فقتلت بذلك في الإنسان كل تفتح عقلي وكل محاولة لاستكشاف أسرار الكون وكل تقدم يستهدف إسماع الإنسان في هذه الحياة الدنيا .^(٣)

استخدمت الكنيسة سلطانها وتلبست بالطفيلان والظلم والسيطرة على العقول والأفكار لتخفي زيف الأسرار التي اختص بها رجال الدين من دون غيرهم وذلك لأنها منافية للمنطق والعقل السليم ولا تقف أما البحث والتحميس أو عن أدنى تأمل لأنها تعلم سبقا أن هذه الأسرار وتلك الصلاحيات ليست من الدين الذي جاء به المسيح عليه السلام وإنما كان الأرباب العزيفون - نسي

(١) مذاهب فكرية ص ٣١-٣٢ .

(٢) انظر مذاهب فكرية ص ٤٧ - ٥٠ ، النصرانية ص ١٩٨ - ٢٠٠ .

(٣) المجتمع الاسلامي ، محمد المبارك ص ١٠١ .

المجامع المقدسة وعلى كراسي الهابوية - هم الذين حرموا على العقل أن ينكر،
وفرضوا عليه أن يسلم تسليمًا أعمى بأمور لا يستسيغها ولا يعقلها .^(١)
ولكن هل كان من الممكن أن يستمر ذلك إلى الأبد دون أن تتمرد
العقول العقيدة وتدعو إلى حريتها وفك قيدها .

كلا . لم يكن ذلك الخضوع والإذعان ليستمر فقد رأينا العقول
المستعبدة تحطم كل القيود وتتبرّد على سلطان الكنيسة وطغيانها ، وترفض
التسليم وتتأبى على الذل والانقياد فثارت من غير وعي تقوّض أركان الدين وتهدم
كلّ التعاليم التي خضعت لها زمنًا طويلًا .

تحررت أوروبا من ذلك الاستبداد وتخلّصت من ذلّ الطغيان ولكنها
لم تلبث أن وقعت في قبضة طواغيت جديدة وصارت إلى وثنية حديثة ، انتقلت من
استبداد الكنيسة ورجال الدين إلى استبداد العقل المجرد عن تعاليم الدين ،
ووقعت في عبادة العقل والعلم بمد أن كانت في عبادة الكنيسة ورجال الدين ،
خضعت للنظريات العلمية المادية بصورة أشدّ من خضوعها لسلطان الكنيسة ، وهكذا
انتهت أوروبا إلى عبودية ووثنية ما كانت لتقع فيها لولا الطغيان الذي مارسه
الكنيسة باسم الدين ضدّ العقل والعلم والعلماء والتفكير والإبداع ، ووقع الفصام
الشديد بين الدين والعلم وحدثت المجازاة بينهما كرد فعل مماكس للطغيان
الكنسي .

٣ - الطغيان السياسي :

لم تكتف الكنيسة ورجال الدين بالتسلط على الأرواح والعقول والأفكار
والعلوم ، بل تناولت في طغيانها فاستبدت بالجانب السياسي .
ومن الغريب في تصرفات الكنيسة - وكلها غريبة - أنها لم تلتزم بالقاعدة
التي نسبتها إلى المسيح عليه السلام (أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله)^(٢) .
وبالرغم من بطلان دعوى الكنيسة ، فإنه كان من المنطقي والمفترض أن
تلتزم الكنيسة بهذا ، وتترك السياسة أو السلطة الزمنية وتكتفي بالناحية العقدية
والأخروية وإقامة الشعائر التعبدية وتفسير النصوص الشرعية ولكنها لم تفعل ذلك ،

(١) النظر : المسيحية ص ١٩٢ .

(٢) انظر انجيل مرقس الاصحاح ١٢ فقرة ١٧ .

بل زاد طغيانها وفرضت سلطانها على الملوك والاباطرة وكبار الإقطاعيين ،
وربما يتوقع البعض من الكنيسة أن تلزمهم بشرع الله بدلا من شريعة قيصر
وتطبق عليهم أحكام الدين ، ولكنها لم تفعل شيئا من هذا ولم تفكر به مطلقا ،
ولم تعارض بحقهم إلا سلطانا شخصا بحثا وهو أن يطأطيء الملوك والاباطرة
لها الروءوس وأن يعلنوا أنهم خاضعون لسلطانها .^(١)

ويروى (فيشر) من قصص الطغيان السياسي الذي مارسه الكنيسة
ضد الملوك والاباطرة ، ما لا يكاد يصدق العقل ، ومن ذلك قصة البابا (هلدبراند)
مع امبراطور المانيا (هنرى الرابع) .^(٢)

وطغيان الكنيسة في هذا المجال كان خطيرا جدا من جهة أنها
ظفت في حكمها واستبدت في معاملة رعاياها أفرادا وملوكا ، ومن جهة أخرى
وهي أشد من سابقتها ذلك أنها تجاهلت أن شريعة الله من حقها أن تحكم
الحياة وتسود في الأرض ليشمر الناس بالعدل والراحة والطمأنينة ، وتتشرف
هي بتنفيذ المهمة التي أسندها إليها المسيح عليه السلام كما تدعى الأناجيل
المحرّفة .

ومن سنة الكون أن الظلم والطغيان لا يدوم وإن طال عهده ، فالظلم
مرتعه وخيم ، فبدأ سلطان الكنيسة يتداعى وهيبتها تتلاشى من القلوب في نهاية
القرن الوسطى حتى قام الملوك يعملون أنهم هم الحكام في الأرض ويسترجعون
سلطتهم التي ادعواها بمقتضى الحق الإلهي المقدس الذي روجت الكنيسة لسه
من قبل ، وأنه لا حق للبابوات فيه .

وشارت أوروبا ثورتها التي قلبت الموازين وحطمت دين الكنيسة واتجهت
في مسالك جديدة وسقطت تحت ظلم جديد فطفت عليها الأفكار والمذاهب
الوثنية من ديمقراطية وعلمانية ورأسمالية وشيوعية ، وكانت انتكاسة جديدة وضربة
أخرى لكبد أوروبا فارتدت إلى ماضي الآباء والأجداد فانتجحت أوثانهم واتبعمت
خطاهم ، وهكذا فهي إلى الآن لم تعرف دين الله الصحيح ولم تنعم بشريعة
ربانية صحيحة .

(١) انظر : النصرانية ص ٢٠٠ وانظر مذاهب فكرية ص ٤٤ .

(٢) تاريخ أوروبا ج ١ ص ٢٦٠ عن مذاهب فكرية ص ٤٦ .

٤ - الطفيلان المالي ومساندة نظام الإقطاع الظالم:

وهذا لون آخر من ألوان الطفيلان التي مارستها الكنيسة ورجالها التي لم تكن لتقف عند حدٍّ معينٍ ففي الوقت الذي كانت الكنيسة تنشر التعاليم الرهبانية وتدعو إلى الزهد والتقشف وهجر الدنيا وملذاتها وتكره الناس في المال وتحبب إليهم الشقاء والعذاب والفقر والحرمان والمعبودية الذليلة لغير الله تعالى فتقول على لسان المسيح : (ما أسعد دخول المتكلمين على الأموال إلى ملكوت الله ، مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله) (١) .

و (من أراد أن يصير فيكم عظيما يكون لكم خادما ، ومن أراد أن يصير فيكم أولا يكون للجميع عبدا ، لأن ابن الإنسان أيضا لم يأت ليخدم بل ليخدم) (٢) .
ولهبذل نفسه فدية عن كثيرين .

بينما كانت الكنيسة تتظاهر بهذا التقشف والترفع عن المال والشهوات كان الأمر على خلاف ذلك في الواقع .

يقول " كرسون " في كتابه " المشكلة الأخلاقية " : (أما أساقفة البلاط والشخصيات الكهنوتية الكبيرة فقد كان لهم شيء آخر ، البذخ والأحاديث المتأنقة مع النساء والشهرة في المجالس الخاصة والمجلات والخدم والأرباح الجسيمة والموارد والمناصب) (٣) .

ويقول ول ديورانت : (أصبحت الكنيسة أكبر ملك الأرض وأكبر السادة الإقطاعيين في أوروبا فقد كان دير (فلدا) مثلا يمتلك خمسة عشر ألفا قصر صغير ، وكان دير (سانت جول) يملك ألفين من رقيق الأرض وكان (الكوين فيتور) وهو أحد رجال الدين سيّدا لعشرين ألفا من أرقاء الأرض . . . وكانت أملاكها الزمنية أي المادية وحقوقها والتزاماتها الإقطاعية ما يجعل بالماركل مسيحي متمسك بدينه وسخرية تلوكها السنة الخارجيين على الدين ومصدرا للجدل والعنف بين الأباطرة والبابوات) (٤) .

(١) انجيل مرقس الصحاح ١٠ فقرة ٢٤ - ٢٦ .

(٢) انجيل مرقس الاصحاح ١٠ فقرة ٤٣ - ٤٥ .

(٣) المشكلة الأخلاقية - كرسون ص ١٦٢ / عن مذاهب فكرية ص ٤١ .

(٤) قصة الحضارة - ول ديورانت ج ١٤ ص ٤٢٥ / عن مذاهب فكرية ص ٤٢ .

وراحت الكنيسة ورجالها تبحث عن كل الطرق والوسائل التي يمكنها بها أن تجمع المال ، ففرضت على أتباعها أن يدفعوا إليها عشر أموالهم ضريبة سنوية ، وضريبة أخرى عرفت باسم ضريبة السنة الأولى وهي دخل السنة الأولى لا^(١) أية وظيفة من الوظائف الدينية أو الاقطاعية تدفع الى الكنيسة بطريق الاجبار .

واتبعت وسيلة أخرى للجمع والتحصيل من طريق " الهيئات " شبهه الإجبارية التي تقوم على الإحراج والخوف والطمع في رحمة الكنيسة ورضا رجال الدين .

وكانت تستخدم الأفراد في أيام راحتهم وتسخرهم للعمل في أملاكها وأراضيها يوماً في الأسبوع بالمجان .

وكما أن الكنيسة قد كانت مولعة بجمع المال بطرق شتى تقوم على الظلم والبغي فهي لم تكتف بهذا الجشع الذي يتنافى مع روح النصرانية التي جاء بها المسيح عليه السلام بل كانت نصيرة للنظام الإقطاعي الظالم ومدافعة عن كبار الإقطاعيين والسادة المالكين .

ولما بدأت أوروبا تتعلم وتتضرر من رجال الإقطاع المستهدين والطواغيت الحاكمين ، وبدأت الثورات ضد النظام المتسلط ، فقد كان المفروض بالكنيسة والمتوقع منها أن تقف إلى جانب أولئك الثائرين ضد الظلم والعبودية التي يمارسها الإقطاعيون ضد العبيد ، ولكن هيئات . هيئات . وليتها لم تتدخل والتزمت الصمت والحياد على أقل تقدير .

ولكنها وقفت تتهدد الثائرين على الظلم ، والمتمردين على الطواغيت والأوثان بالويل والعذاب واعتبرتهم مارقين من الدين خارجين عن طاعتها وأن لهم اللعنة الأبدية عند الله وعليهم غضب الرب يوم الحساب ، وأخذت تحبب الظلم إلى المظلومين وترؤسهم عليه وجعلته طريق الرضوان في الحياة الآخرة وزعمت أن الله سيجزيهم عن ذلك نعيم الجنة الدائم مقابل تحملهم وصبرهم على الذل والهوان .

هكذا كانت الكنيسة داعماً هادماً للدين ومنفرة منه ما دفع أوروبا أن تقف موقفها المعروف من دين الله ، وتو^ط شر عليه الوثنية الحديثة .

(١) انظر المسيحية ص ١٩١ ط : ٠٢

ومذاهب فكرية ص ٤٢ .

٥ - مهزلة صكوك الغفران :

حقاً إنها مهزلة من مهازل الكنيسة ورجال الدين وظهر من مظاهر طفيلانها .

ولكنها في نظري ليست غريبة من الكنيسة ، فقد فعلت كل ما يناقض العقل ولا يتفق مع المنطق السليم .

إنها جنابة من جنابات الكنيسة على دين الله ، وهي فعلة فريدة في التاريخ البشري ، فما من جاهلية من جاهليات التاريخ السابقة لجأت لعثل هذه المهزلة الدينية ، فكانت بدعة ابتدعتها الكنيسة وعلينا وزر ذلك إلى يوم القيامة .

وتعتبر هذه المهزلة ذات صلة بالطفيلان الروحي والمالي الذي مارسه الكنيسة على أتباعها وراياها .

فأما من ناحية الطفيلان الروحي فإن الكنيسة قد ادّعت أن المسيح عليه السلام قد منحها وأوكل إليها حق غفران الذنوب وخط الآثام عن المخطئين ، وضمان دخولهم الجنة ، والكنيسة بدورها تستخدم هذه الصلاحيات .

فقد جاء في كتاب تاريخ الكنيسة في بيان قرار مجمع (لاتيران) عام ١٢١٥م نايلي : (أنهى المجمع تعليمه فيما يتعلق بأمر الغفران فقال : إن يسوع المسيح لما كان قد قلّد الكنيسة سلطان منح الغفران وقد استعملت الكنيسة هذا السلطان الذي نالته من العلام منذ الأيام الأولى ، قد أعلم المجمع المقدس وأمر أن تحفظ للكنيسة في الكنيسة هذه العطية الخلاصية للشعب المسيحي المشبته بسلطان المجمع ، ثم ضرب بسيف الحرمان من يزعمون أن الغفرانات غير مفيدة أو ينكرون على الكنيسة سلطان منحها) .^(١)

ومن هنا فقد فكرت الكنيسة وقدرت فابتدعت طريقة لإحكام طفيلانها على الأرواح فاخترت صكوك الغفران تبيعها للمذنبين والعصاة وتعتبر بمثابة التوبة من الذنوب حتى يلقى الإنسان الرب وليس عليه شيء من الآثام والخطايا لأنه بمجرد شرائه لصك غفراني يَغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخره . وهذه صورة صك الغفران الذي كانت تبيعها الكنيسة للمذنبين .

(١) نقلا عن النصرانية ص ٢٠٣ .

(١) ربنا يسوع يرحمك يا (.....) وبثملك باستحقاقات
الأمة الكلية القدسية وأنا بالسلطان الرسول المعطى لي أحلك من جميع
القصاصات والأحكام والطائعات الكنسية التي استوجبتها . وأيضا من جميع الأفراس
والخطايا والذنوب التي ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفظيعة ، ومن كل علة وإن كانت
محفوفة لابئنا الأقدس البابا والكرسي الرسولي ، وأمحو جميع أقذار الذنب وكل
علامات العلامة التي ربما جلبتها على نفسك في هذه الفرصة وأرفع القصاصات التي
كنت تلتزم بمكابدتها في المطهر وأردك حديثا إلى الشركة في أسرار الكنيسة ،
وأقرنك في شركة القديسين ، أرك ثانية إلى الطهارة والبر اللذين كانا لك
عند معمديتك ، حتى إنه في ساعة الموت يخلق أمامك الباب الذي يدخل
منه الخطاة إلى محل العذاب والعقاب ويفتح الباب الذي يؤدى إلى فردوس
الفرح وإن لم تمت سنين مستطيلة فهذه النعمة تبقى غير متغيرة حتى تأتي
ساعتك الأخيرة باسم الآب والابن والروح القدس) .
وإلى جانب الهيبة الروحية التي حظيت بها الكنيسة على قلوب الناس
وعقولهم وأرواحهم بسبب هذه الصكوك المزينة فقد كانت لها مصدرا ماليا
كثيرا تبتزبه أموال الناس وصارت تجارة بيع الصكوك الباطلة تجارة مربحة تدر
على خزانة الكنيسة وجيوب رجال الدين مبالغ مالية ضخمة حتى أشرت ثرا فاحشا .
هذه المهزلة التاريخية الفريدة كانت لها نتائج وآثار سلبية انعكست
على الدين بشكل عام والكنيسة ورجالها بشكل خاص .

*

ب - الفساد الخلقي لرجال الدين الكنسي :

لقد كان الفطيان الذى مارسه الكنيسة ورجالها مدعاة لفساد أخلاق
رجال الدين النصراني ، فكان الفطيان المالي - على وجه الخصوص - عاملا مهما
في هدم الناحية الخلقية نظرا لما للمال في أغلب الأحيان من آثار سلبية على
صفات الأعضاء وذلك لأنه يفتح أمامهم الفرص ويهيئ لهم الأجواء ويحقق
لهم الشهوات والرغائب .

(١) يملا الفراغ باسم المشتري للصك .

(٢) انظر النصرانية ص ٢٠٤ .

وإذا كان للمال تأثير سلبي على الأغنياء في أحوال كثيرة فإنه من المفروض أن لا يتعدى الحال إلى (رجال الدين) وذلك لأنهم يمثلون القدوة الصالحة والمثل السامي لكل فضيلة وخلق كريم باعتبارهم أقرب إلى تعاليم الدين من عامة الناس .

ومن هنا فإنه إذا كان سوء الخلق مرفوضاً وغير مقبول في حق الأفراد العاديين فإنه من باب أولى أن يكون مرفوضاً ومستنكراً ممن يمثل الدين ، وينصب نفسه قدوة للآخرين ، لأنه إذا لم يكن كذلك فإنه يهدم قواعد الفضيلة ويشوّه صورة الأخلاق الحميدة ويبطل بنفسه كلّ ما يدعو إليه من قيم ومبادئ^١ وتعاليم دينية سامية .

ولكن شيئاً من هذا لم يكن فقد رأينا الحد الذي وصل إليه طغيان الكنيسة من الناحية المالية بحيث صارت حياة رجال الدين في ترف وبذخ وفتحت عليهم الدنيا بكل مباحها ومفاتها واستحوذوا على خزائن الأموال ومساحات الأرض الواسعة ، وامتلكوا الأعداد الكبيرة من العبيد ، حتى أصبحوا يتهالكون على كرسي البابوية ويتسامون عليه كأي سلعة تباع وتشترى .

يقول ول ديورانت : (وظل كرسي البابوية عدة سنين لا ينال إلا بالرشا أو القتل أو رغبات النساء ذوات المقام السامي والخلق الدنيء ، ومقبت أسرة (بثوفلاكت) أحد كبار الموظفين في قصر البابا ترنح البابوات إلى كراسيهم وتنزلهم عنها كما يحلّولها ، واستطاعت ابنته (مريوزا) أن تنجح في اختيار عشيقها (سرجيوس الثالث) لكرسي البابوية ٩٠٤ - (٩١١ م)^(١) ولم يعد غريباً أن نقرأ أو نسمع ما كتب حول أخلاق رجال الدين الكنسي ومدى الانحطاط والسقوط الذي بلغوه .^(٢)

تقول القديسة كثرين السينائية : (إنك أينما وليت وجهك - سواء نحو القساوسة أو الأُساقفة أو غيرهم من رجال الدين أو الطوائف الدينية المختلفة ، أو الأُهبّار من الطبقات العليا أو الدنيا ، سواء كانوا صغاراً في السن أو كباراً - لم تر إلا شراً ورذيلة ، تزكم أنفك رائحة الخطايا الآدمية البشعة إنهم كلهم ضيقو العقل ، شرهون ، بخلاء ، تخلوا عن رعاية الأرواح اتخذوا بطونهم إليها لهم ، يأكلون ويشربون في الولائم الصاخبة حيث يتمرغون في الأقدار ويقضون

(١) قصة الحضارة ج ٢١ ص ٨٥ ، ومذاهب ص ٥٧ .

(٢) انظر النصرانية ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

حياتهم في الفسق والفجور ويطعمون أبناءهم من مال الفقراء ، ويفترون — من
الخدمات الدينية فرارهم من السجن (١) .
ومن أهم العوامل التي أدت إلى فساد رجال الدين من البابوات
والكرادلة القداسة المطلقة التي كانوا يتمتعون بها في نظر الناس ، ثم
السلطة الزمنية غير المحدودة التي كانوا يحظون بها فوق كل القوانين ، مما
جعلهم يتعاضدون في المنكرات والرذائل من غير خوف من الناس .
كما كان نظام الرهبانية الذي فرضته الكنيسة ، من أبرز العوامل التي
أدت إلى انتشار الرذائل الخلقية بين الرهبان والراهبات في الأديرة وسراديب
الكنائس المظلمة بحجة أن المسيح عليه السلام دعا إلى الزهد والتقشف واعتزال
مذات الحياة والإقبال على ملكوت الله .
ونحن وإن كنا لا ننكر أن دعوة المسيح عليه السلام دعوة روحية
تدعو إلى الزهد والتقشف والترفع عن حطام الدنيا وعدم التهاكك عليها ، ولكن
الكنيسة كمعادتها فهمت دعوة المسيح فهما خاطئا وفشرتها تفسيراً ملتويماً
وحملتها على غير محل ، فالعيسى عليه السلام لم يأمر بهذا النوع من الرهبانية
والانقطاع عن الدنيا ولم يسنه شرعاً لهم ، ولكن ذلك من تشريعات الكنيسة
ومحدثاتها ونكراتها التي ابتدعتها وجعلتها من الدين وما هي من الدين
في شيء* (٢) .

قال تعالى : ﴿ ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاءاً
رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ﴾ (٣) .

فحرمت على رجال الدين ما أباح الله لهم ، فتمودوا الحرمان واعتزلوا
النساء ولجأوا إلى الأديرة وسراديب الكنائس ورضوا بالكفاف ومغالبة النفس
، فلم يتزوجوا النساء ، ومنعوا أنفسهم مما أباح الله من الطيبات ، ومكثوا على هذا
الحرمان زماً غير يسير ، غير أن الفطرة البشرية لا تستطيع أن تعيش الدهر على
هذا النمط الجاف من الحرمان ، وإن تروضت عليه طويلاً فبدأت النوازع والغرائز
الكامنة في النفس الإنسانية تطلب حاجتها ، ولم يكن لها من سبيل إلى المباح
فاتجهت إلى الإباح وأتبعته الهوى وطرق الرذيلة والفساد وسلمت قيادتها
للشيطان .

(١) قصة الحضارة ج ٢١ ص ٨٤ ، مذاهب ص ٥٦ .

(٢) انظر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ج ١ ص ١٢٢ ، ج ٢ ص ٢٣٠ .

(٣) سورة الحديد آية ٢٧ .

فصارت الكنائس والأديرة مهابة لكل رذيلة ، وماخورا للفواحش ووكرا
للمتعة المحرمة بمعبدا عن الأنظار ، وانحلت أخلاق الرهبان وابتعدوا عن
روح الديانة التي جاء بها المسيح .^(١)

*

ج - محاكم التفتيش :

بقي أن أشير إلى وصمة من وصمات الخزي والعار أختم بها السجل
التاريخي للكنيسة ورجالها وكان لها أثر بالغ في صدأ أوروبا من دين الله والاتجاه
إلى التيارات الوثنية الحديثة ، تلك هي " محاكم التفتيش " إحدى الوسائل
التي اتبعتها الكنيسة في إحكام قبضتها على رعاياها وفرض سلطانها الطاغوي
على العقول والقلوب والأجساد وقد كان تاريخ هذه المحاكم حافلاً بكل
أنواع القسوة والشدة والوحشية وأغرب أنواع التعذيب التي كانت معروفة في
ذلك العهد ، الأمر الذي جعل الكتاب يستنكرون ما تقوم به ولا يتفاضون
عنه .

يقول (ول ديورانت) : (وإذا ما عفونا عن بعض هذا الشذوذ
الجنسي والانهماك في ملاذ المأكل والمشرب فإننا لا نستطيع أن نعفوا عن
أعمال محاكم التفتيش) .^(٢)

وفي الحقيقة لقد كانت أبشع من أن يعفو عنها أحد في قلبه ذرة من
مشاعر الإنسانية ، وإن كنا نحن المسلمين لا نوافق الكاتب على الشق الأول من
كلامه فلا نعفو عن تلك المخازي والمهازل والدناءات التي ارتكبتها الكنيسة
ورجالها بحق رعاياها والناص أجمعين .

يقول د . توفيق الطويل : (وفي القرون التالية كثر صرع هذا النظام
وتعرض للشنق والحرمان جماعات كثيرة لأنهم في نظر الكنيسة هراطقة وكثيرا
ما كانت الكنيسة تلجأ إلى الإعدام البطيء مبالغة في التنكيل ، فتسلط الشموع
على جسم الضحية ، وتخلع أسنانه كما فعل (بينيامين) كبير أساقفة مصر
لأنه رفض الخضوع لقرار مجلس خلقدونية^(٣) الذي يرى أن للمسيح طبيعتين

(١) انظر مجموع الفتاوى ج ٢٨ ص ٦٠٨ .

(٢) قصة الحضارة ، : ٤ ص ٨٦ / مذاهب ص ٦٧ .

(٣) عقد عام ٦٤٨ م

إلهية وإنسانية ، وأما الجماعات التي أعدت فأكثر من أن يحصيها عدُّ ، ففسي أسبانيا فقط قدّمت محكمة التفتيش للنار أكثر من واحد وثلاثين ألف نسمة ، وحكمت على أكثر من مائتين وتسعين ألفا بحقوق أخرى تلي الإعدام .
ولما ظهر البروتستانت ، اتجهت الكنيسة لهم بالاضطهاد العنيف وكثرت المذابح ومن أهمها مذبحه باريس في ٢٤ أغسطس سنة ١٥٧٢م التي سطا فيها الكاثوليك على ضيوفهم من البروتستانت ، هو " لا " الذين دُعا لباريس لعمل تسوية تقرب بين وجهات النظر ، ثم قتلوا خيانة وهم نيام فلما أصبحت باريس كانت شوارعها تجري بدماء هو " الضحايا .

وانهالت التهانى على تشارلص التاسع من البابا ومن ملوك الكاثوليك وعظماهم على هذا العمل الدنى (١) .

والكنيسة إذ لجأت إلى هذا الأسلوب الإرهابي لم يكن هدفها خدمة الدين ولا نصره شريعة الله ، وإنما كانت تهدف إلى تمكين سلطانها وفرض سيطرتها بكل الأساليب واقتناع رعاياها بأفكارها وخرافاتها الوثنية التي اهتمت بها المجمع الكنسية المقدسة في حين أنها تتعارض مع العقل ، فلم يكن من مجال للإقناع إلا أسلوب القهر والشدة عن طريق محاكم التفتيش التي أنشأتها وهي تشبه إلى حد بعيد في وقتنا الحاضر دوائر المخابرات العالمية التي تستخدم كثيرا من الأفراد في التجسس وجمع المعلومات وتقصي الأخبار .

وإذا لاحظنا أن القسوة والقهر كان طابعاً لمحاكم التفتيش فيجب أن نعي تماما أنها كانت من أقسى وأشد مظالمها فيما يختص بالمسلمين في الأندلس عندما كانت الكنيسة تطاردهم لتقضي بذلك على الإسلام في تلك البلاد . (٢)

ويغض النظر عن كانوا يقاسون ويعانون ويبلات محاكم التفتيش التي أقامتها الكنيسة فقد ترتب على ذلك الاضطهاد والطغيان نتائج فظيمة عيقة الأثر في الحس الأوربي ، وأدت إلى هذه الحياة الوثنية التي اندفعت إليها أوروبا منذ عصر النهضة والخروج عن طاعة الكنيسة بشكل جرى وسريع . (ولقد أصبح عدا " الدين المتمثل في الكنيسة ورجالها أمرا لازما لكل صاحب فكر حر أو ضمير حي لأن هذا العدا " هو أبسط تعبير عن

(١) الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام - د . توفيق الطويل ص ٢٦-٩٠ .

(٢) انظر المسيحية ، شلبي ص ٥٠-٥٢ .

والتعصب والتسامح ، محمد الغزالي ص ٣١١-٣١٨ .

الثورة ضد الذل والمهانة التي تفرضها الكنيسة على الكرامة الإنسانية كما تفرضها على العقل الذي خلقه الله ليفكر لا ليهتمن بالحيس في داخل حدود وقيود ما أنزل الله بها من سلطان ، ولئن كان كلُّ ما ارتكبه الكنيسة من الخطايا جريمة في حق الدين ، فإن هذه الخطيئة البشعة كانت ولا شك من كبريات الجرائم التي سجلها التاريخ (١) .

وهكذا فإن الطغيان الذي مارسته الكنيسة كان من أبشع ألوان الطغيان في التاريخ وكان حقا على أوروبا - حين تنورت - أن تخلع هذا السلطان الطافي وتنسلخ منه إحساسا بالكرامة وفرارا من الذل والعبودية ، وأن تختار لها نهجا يحقق لها كرامتها وحرمتها ، ولكنها وقعت في عبودية شرٍّ من العبودية التي خرجت منها لأنها لم تبحث عن الحل الصحيح ولم تتيقن من أن تصرفات الكنيسة كانت شخصية لا تبتُّ إلى دين الله بشيء ، فأثرت عليه المناهج والأفكار الوثنية الباطلة ، ولم تحفل بأمر الدين والأخلاق في أي شأن من شؤونها .

نعم لقد أعطى هذا التاريخ الحافل بالساوي والآثام والأخطاء صورة غير حميدة لدين الله ما كان له بالغ الأثر في موقف أوروبا من الدين ونفورها عنه ، وسيلها إلى الوثنية والانفلات من قيود الكنيسة وتعاليم الدين وطفيان القساوسة والبابوات .

ولذلك فلا يبقى مجال للمعجب من النهاية الوثنية التي وصلت إليها أوروبا وانسلاخها من دين الكنيسة ، وتحللها من القيود الأخلاقية التي كان يفرضها رجال الكنيسة ويمارسون خلافها .

وأخيرا (لقد تجردت أوروبا من نير الكنيسة ومن سلطان الدين معا وارتدت بذلك رومانية كاملة ، لا يقف شيء في سبيل نزعتها الرومانية ، التي لا تعرف غير الجسد ونزواته ولا توفُّ من إلا بالواقع المادي الذي تثبت الحواس ، ونشأت على أنقاض الكنيسة والدين فلسفة مادية بحتة ، تعتمد وحدها من الأرض من واقع الحواس ولا ترتفع بصرها لحظة واحدة إلى السماء) (٢) .

(١) مذاهب فكرية ص ٦٩ .

ولمزيد من المعلومات عن محاكم التفتيش انظر كتاب " محاكم التفتيش " تأليف د . إسحق صيد / جامعة عين شمس .

(٢) الإنسان بين المادية والإسلام ، محمد قطب ص ١٦ .

وقد بين الكاتب المسلم محمد أسد حقيقة النهضة الأوروبية وأكد على كونها نابعة من مصادر رومانية خالصة .^(١)

ومن هنا قال د . صر فروح موضحاً ذلك : (إن المدنية الأوروبية قائمة في أساسها على المدنية الوثنية وهي لم تأخذ من النصرانية - التي احتنقتها لأسباب سياسية - قاهرة - سوى الطلاء الخارجي فحسب ، ثم إن المدنية الأوروبية لا تزال في واقعها مادية لا تؤمن بغير القوة ، وبذلك فالعقيدة الحقيقية للغربي سواءً أكان ديمقراطياً رأسالياً أم اشتراكياً شيوعياً ، ليست هي المسيحية بل هي وثنية جديدة لها معابدها وأصنامها وكهنتها) .^(٢)

ويرى بريهنتون أن عصر النهضة في أوروبا يعني - على الأقل - محاولة العودة إلى الوثنية اللادينية .^(٣)

وهكذا فقد اجتمع على الديانة النصرانية التحريف والطغيان مما حال دون وصولها لأوروبا صحيحة كما أنزلها الله تعالى على عيسى عليه السلام وكان لذلك أثره الكبير في نشأة الوثنية الحديثة واتجاه أوروبا نحوها وتفضيلها على الدين والأخلاق ، وكان ذلك في صورة مذاهب وأفكار واتجاهات وآراء وتشريعات ودعوات باطلة وأنظمة سياسية واقتصادية واجتماعية مادية لا تؤمن بالدين ولا تدع له مجالاً فيها في أغلب الأحيان .

*

٢ - السبب الثاني : تدخل اليهود وتوجيههم للنهضة حسب مخططاتهم .

اشتملت نار الثورة الأوروبية ضد نظام الإقطاع والإقطاعيين ، وضد الكنيسة ورجال الدين ، وقدر لها أن توفق في القضاء على الإقطاع والإطاحة بالكنيسة ورجال الدين ، والتحرر من الاستعباد والطغيان ، وكان من الممكن أن تسير الأمور سيراً معتدلاً ويكتفى بمجرد إبعاد الكنيسة ورجال الدين - كظهر من مظاهر الظلم والطغيان والفساد ، والسير في طريق الإصلاح وإعادة التعامل الدينية الصحيحة ، ولكن لما كانت أوروبا لم تعرف الدين الصحيح منذ بداية دخولها النصرانية - كما سبق بهانه - ولما كانت حركات الإصلاح الديني

(١) انظر: الإسلام على مفترق الطرق ص ٣٩ - ٤٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٤١ .

(٣) منشأ الفكر الحديث ص ٢٧ .

التي عرفتها أوروبا فاقدة للمنهج السليم والعقيدة الصحيحة واختلطت بالنزعات القومية والوطنية وغلبت عليها النزعة المادية ، فجعلت للعقل سلطانا ليس له واتبعت في جميع أمورها ، ولما كان الفساد الذي أحدثته الكنيسة والطغيان الذي ارتكبه رجال الدين والانحلال الخلقي الذي وصلوا إليه ، والمهازل التي ابتدعوها والخرافات والأسرار التي فرضوها على العقول . . . إلخ لما كان كل هذا وغيره فظيها وعنيفا ، وأثره في النفوس عميقا ، فقد كان الحقد والنفور من الدين أعمق ، وذلك لأنه استقر في حنق الأوربيين أن الدين هو المسؤول الأول والأخير ، وهو مصدر هذا الظلم والطغيان فما كان منهم إلا أن تنكروا للدين وانعتقوا من كل التعاليم الدينية ، وانطلقوا انطلاقا مادية وثنية يبحثون عن البديل الذي يحقق لهم سعادتهم .

ومع هذه المؤثرات والمرجحات التي يمكن أن تقود أوروبا إلى الوثنية والإلحاد وعبادة غير الله ، والتخلي عن دينه وشريعته ، مع هذا كله فقد كان من الممكن - لو تركت وشأنها ، أن تعود لرشدتها بعد أن تهدأ الثورة وتخف سورة الغضب ، وتراجع نفسها لتبحث لها عن طريق هداية ، لا سيما إذا وجدت من يهديها سواً المسبيل و يبصرها بالطريق - وكان المفروض أن يكون المسلمون هم الهداية والقادة لأوروبا نحو الدين الصحيح وعقيدة التوحيد إلا أن ذلك لم يكن^(١) فلم تجد من يقودها إلى جادة الحق ويهديها إلى الصراط المستقيم ، بل لقد وجدت قائدا خبيثا ماكرا وموجها خفيا مفسدا أشد عليها من الكنيسة ورجال الدين ، حذرا متيقظا ويحسن استغلال الأحداث وانتهاز الفرص ، فقادها من حيث تشعر أولاً تشعر - وقد كانت فاقدة الوصي والإدراك من شدة الصدمة - إلى وثنية الإغريق والرومان والعودة إلى التراث الوثني المدفون .

وكان ذلك القائد أو الموجه الخفي - لأنه قلما يكشف عن هويته - هم اليهود ، فقد كان لهم دور كبير في نشأة الوثنية الحديثة ونشرها في أوروبا ، والدعوة إلى الإلحاد والترويج لمفاسد الأخلاق وتنشئة أجيال متحللة من كل القيود الدينية والأخلاق الإنسانية الفاضلة^(٢) .

(١) وهو السبب الثالث في نشأة الوثنية كما سيأتي بعد قليل .

(٢) انظر سقوط العلمانية ، أنور الجندي ص ١٣٢ .

كيف كان اليهود سببا في نشأة الوثنية الحديثة ؟

سبق القول بأن اليهود منذ البداية وقفوا من دعوة المسيح عليه السلام موقفا سلبيا عدائيا وناصروا الوثنية الرومانية على دين الله ، وكانهم قد أخذوا على أنفسهم العهد بمحاربة الأديان وإفساد الأخلاق ، فوضعوا في مخططهم الشرير أنه (يجب علينا أن ننتزع فكرة الله ذاتها من عقول المسيحيين وأن نضع مكانها عقليات حسابية وضرورات مادية) .^(١)

هذا هو باختصار هدف اليهود أن ينتزعوا الدين من القلوب البشرية ويفرسوا مكانه معبودات مادية ، وظل اليهود يترقبون بأوروبا الدوائر زمانطويلا حتى حان الوقت وسنحت الفرصة فبادروا لاكتسابها .

ومن هنا كما قال الاستاذ محمد قطب : (فإن اليهود لا ينشئون الأحداث كما يزعمون لا أنفسهم وكما يتوهم الذين تبهرهم سيطرة اليهود في الوقت الحاضر ، ولكن لا شك أنهم يجيدون انتهاز الفرص واستغلالها لتنفيذ مخططهم الشرير) .^(٢)

وكانت الأمور في أوروبا تسير لاعداد تلك الفرصة حيث إن الإقطاع والكنيسة قد طغيا واستعبدا الأفراد وما أن قامت الثورة الفرنسية والنهضة الصناعية الحديثة حتى تهيأ اليهود للاستفادة منها .

كانت أهداف الثائرين هي القضاء على دينك الحليفيين الطاغيين المستبدين : رجال الإقطاع ورجال الدين . وكان الإقطاع شرا خالصا فكان ينبغي أن يزول وكان الدين الذي تقدمه الكنيسة وتطفئ به على الناس يحسوى بعض الحقائق وكثيرا من الأباطيل ، فكان يمكن أن تصحح أباطيله ويستبدل به الدين الحق ، الخالي أساسا من الأباطيل .

ولكن اليهود لم يدعوا فرصة لتصحيح الدين وإنما اهتملوا فرصة سانحة لتحطيم الدين ، واستطاعوا بمعقريتهم الشريرة أن يتسلموا قيادة المجتمع الأوروبي الآخذ في الانسلاخ من دينه من جراء أفاعيل الكنيسة وينشئوا منه مجتمعا جديدا بلا دين ولا أخلاق ولا تقاليد .^(٣)

(١) بروتوكولات حكما صهيون . الرابع ص ١٢٠ .

(٢) مذاهب فكرية ص ٧٩ .

(٣) انظر مذاهب فكرية ص ٩١ .

ومعنى هذا أن اليهود قد أسهموا إسهما كبيرا في نشأة الوثنية الحديثة في أوروبا ثم تصديرها للعالم أجمع .
ونريد أن نتعرف على الأسلوب الذي اتبعه اليهود لإفساد المجتمع وسلخه من الدين والاتجاه به نحو الوثنية الحديثة .
اتبع اليهود لتحقيق هذا الهدف وسيلتين :
الأولى : هي استغلال نظريات مخططة لها تسعى لهدم الدين والأخلاق والتقاليد ، كانت تخلط الحق بالباطل وتقدمه للناس على أنه مسلمات وحقائق يقينية لا تقبل الشك ولا تحتمل الخطأ وتستوجب الرضا والقبول والتسليم .
وأما الوسيلة الأخرى : فكانت الواقع الذي تعيشه أوروبا والذي اكتسب عداوة الدين وكل ما يمت إليه كرد فعل معاكس لطيفيان الكنيسة ورجال الدين كما سبق بيانه .

أولا - استغلال نظرية دارون :

كانت الديانة النصرانية - بالرغم من التحريف الذي أصابها - تقر بتوحيد الربوبية وأن الله قد خلق الإنسان متميزا عن غيره من المخلوقات وأنه خلقه على الصورة التي هو عليها اليوم ، غير أن " دارون " قد خالف هذا الاعتقاد ، ففي عام ١٨٥٩م قال بأن الإنسان عبارة عن حلقة من حلقات سلسلة التطور التي مرت بها الحياة منذ زمن بعيد ، بمعنى أن الإنسان قد تطور عن كائنات حية حتى وصل إلى الحالة التي هو عليها الآن ، ومعنى ذلك أن المعلومات الدينية عن خلق الله للإنسان منذ الأزل ليست صحيحة .
ومن هنا فقد وفت الكنيسة من دارون ونظريته موقفا المعروف من كافة العلماء - وأظنها في هذه المرة على حق - فاعتبرته كافرا وخارجا عن تعاليم الكنيسة .

وقد كان من الممكن أن يسقط دارون ونظريته ، ولكن اليهود وجدوا فيها ما يحقق أهدافهم ويخدم مخططاتهم لهدم الدين والأخلاق ، فوقفوا إلى جانبها واعتبروها حقائق علمية ثابتة فساعدوا على نشرها والانتصار لها وذلك لما فيها من الأفكار والمبادئ المناهية للدين والأخلاق وكرامة الإنسان والقول بتطورها وعدم ثباتها .
(١)

(١) انظر البروتوكول الثاني لحكام صهيون ص ١١٣ تونسسي .

حقاً إن هذه النظرية قد زلزلت الإيمان بالله ، ونزعت منه قدرته على الخلق والابداع وأعطت ذلك للطبيعة التي قال عنها دارون : إنها تخلق ما تشاء ، وتخلق خلقاً عشوائياً من غير قصد ولا غاية (١) ، ثم حطت هذه النظرية من إنسانية الإنسان وربطته بالحيوان ، وزعمت الثقة بكل قيمة أو فكرة سامية وهدمت كل ما كان ثابتاً من قبل . (٢)

استغل اليهود فكرة التطور التي ابتدعتها دارون ، وطبقوها على كل شيء مادي ومعنوي وركزوا على تطور الدين والأخلاق والقيم تركيزاً شديداً فوجهوا جميع الأحداث وجبهة مادية بحيث أصبحت بعيدة عن كل أثر روحي ، وهذا قادوا أوروبا إلى الوثنية بعيداً عن الدين والأخلاق ، فنشأ فيها جيل وثني لا يقيم للدين وزناً ولا يعترف بقيمة خلقية ، فخيم الخواء الروحي على نفوس العقاقين . (٣)

ومن خلال هذه النظرية وجه اليهود ثلاثة سهام سامة للدين والأخلاق وإنسانية الإنسان ، زادت من اندفاع أوروبا نحو الوثنية ، وسلخها من الديانة النصرانية .

أما السهم الأول فكان راميهِ اليهودي الألماني (كارل ماركس) الذي زرع بذرة الشيوعية وتعمدها أتباعه حتى كادت أن تقتلع جذور الدين والعبودية من النفوس المفظورة على ذلك . (٤)

وأما السهم الثاني فكان من يد اليهود النمساوي (فرويد) الذي مسح الإنسانية منها على الشبهة الجنسية الحيوانية وجعلها الموشراً الأكبر والموجه الأظم في حياة الإنسان .

وأما السهم الثالث فكان من جمعة اليهودي الفرنسي (دوركايم) الذي ابتدع فكرة العقل الجمعي الفوغائي الذي استمده من واقع حياة الحيوان وثني عليه حياة الإنسان وجميع تصرفاته ليهدم الأديان ويحطم قوانين الأخلاق .

يرى د. محمد سليمان داود أن يضاف إلى هؤلاء « دارون » نظراً لدوره الكبير في مسح انسانية الإنسان وهدم الدين وخلق الخلق .

- (١) انظر كتب غيرت وجه التاريخ جوليان هكسلي ص ٣٠٥ .
- (٢) انظر معركة التقاليد ص ١٥ ، ٥٩٠ .
- (٣) انظر أصل الأنواع لدارون ص ٣٨ ترجمة إساعيل مظهر .
- (٤) انظر الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها / د . توفيق الطويل / ص ٢٣٠ - ٢٣٤ طبعة ثانية / دار النهضة العربية .

وقد نبه " العقاد " إلى دور اليهود واستغلالهم هذه النظريات
لهدم الدين والأخلاق فقال : (بأن إصعاً من الأصابع اليهودية كأمّة وراة
كل دعوة تستخف بالقيم الأخلاقية وترمي إلى هدم القواعد التي يقوم عليها
مجتمع الانسان في جميع الأزمان) .^(١)

أ - ماركس هذا اليهودى لم يتحرّج من القول بأن الدين أفيون
الشعوب ومخدر الأعصاب ، وأن العادة هي صاحبة السلطة والتغيير واليهما
ترجع جميع الأفكار والشاعر والاعتقادات والأنماط السلوكية والأخلاق والتقاليد
الإنسانية ، وأن الإنسان لا حيلة له إلا أن يخضع لسلطانها ويدور في مدارها
كفيما دارت .

والحياة البشرية في نظره خمس مراحل حتمية هي الشيوعية الأولى
والرق والاقطاع والرأسمالية والشيوعية الثانية والأخيرة ، وادعى بأن الحياة البشرية
قد مرّت في جميع هذه الأثوار ولم يهتق إلا الدخول في المرحلة الأخيرة وهي
الشيوعية الحقيقية التي صورها على أنها جنة سلام ووثام وعدالة ، لا تنافس فيها
ولا قتال ، هدوء وطمانينة ، لا دين حيث لا حاجة له لأنه من مخلفات مهسود
الأوهام والخرافات ، ولا نظام أسري لأنه من بقايا الأنظمة القديمة ، ولا حلال
ولا حرام ، لأن الحاجات كلها مشاع ولا ملكية لأحد وعندها تصل الإنسانية إلى
قمة التطور الذي ليس بعده شيء .^(٢)

هكذا يتجلى بوضوح هدف هذا اليهودى فهو لم يقف عند الحد
الحيواني الذي رمى به دارون بنى الإنسان بل تجاوزوه إلى أبعد من ذلك
حيث أن الدين في نظره خرافة من خرافات الجهل ومن مخلفات الأطوار الرجعية
التي لا تليق بالإنسان في عصر التقدم الاقتصادي والتطور الصناعي .

ب - فرويد . وأما هذا الطبيب فقد تخصص في دراسة الحالات العصبية
والأمراض النفسية وكانت له عيادة لهذه المهمة .

ادعى - من خلال دراساته وأبحاثه وحججه العملية والحالات المرضية
التي عالجها والملاحظات التي رصدها ، والاستقراء الناقد الذي عممه ، والأهواء
والأحقاد اليهودية التي تربى عليها . . . إلخ - أن الغريزة الجنسية هي الطاقة

(١) الخطر اليهودى خليفة تونسي ص ٧١ ، عن جريدة الأساس في ٢١ / ٤

١٩٥٠ م .

(٢) انظر مذاهب فكرية ١٠١-١٠٧ .

العظمى في حياة الإنسان وإليها ترجع كل الميول والآداب الدينية والخلقيسة والروابط الأسرية ، وعليها مدار الحياة .^(١)

فكل حركة من حركات الإنسان - في نظره - نابعة من الغريزة الجنسية ومدفوعة منها ، والحضارة برمتها والدين والأخلاق وكل شيء صادر عنها .

وهذا ما يسعى اليهود جميعا لتحقيقه فقد أقتنعوا أوروبا الحاقدة على دين الكنيسة أن الدين والأخلاق والقيم والمبادئ السامية كلها أمور باطلة ، وأنها من صنع الإنسان نفسه في فترات الجهل والعجز ، أما وقد شبَّ عن الطوق واستنار بالعلم والقوة فليس هناك أدنى جبر لبقائه تلك الموروثات القديمة .

وهكذا سخر هذا (العالم !) عقله وجهده ووقته لهدم كل الحقائق الثابتة ونشر الوثنية ، وتجنس على الإنسانية فجردها من أعلى وأعز ما تملكه الدين والأخلاق .

ج - إميل دوركايم .

إذا كان ماركس قد بنى الحياة البشرية على الجانب الاقتصادي وبناها فرويد على الغريزة الجنسية والشهوة الحيوانية ، فإن دوركايم " العالم الاجتماعي قال بأن الحياة البشرية محكومة ومدارة بما سماه (العقل الجمعي) الذي استمد فكرته من (نزعة القطيع) في عالم الحيوان غير أنه مال إلى استعمال (العقل الجمعي) تمويها على العقول وخذاعا للجماهير البشرية ليضمن تحقيق المخطط اليهودي ، فهو يرى أن كل تصرف يقوم به الأفراد جميعا أو الفرد بمفرده صادر عن سلطة عليا مجهولة الهوية أطلق عليها (العقل الجمعي) قياسا على ما شاهده في عالم الحيوان المحكوم بنزعة القطيع ، فهو بذلك يسعى أولا للقضاء على شخصية الفرد ودمجه مع التيار البشري العام الذي لا يستطيع أحد أن يخرج عن إرادته ، وثانيا - وهو الهدف - أن يهدم الدين والأخلاق من جذورهما بجعلهما من صنع المجموعة البشرية في مرحلة من مراحلها وأنه لا علاقة لذلك بالوحي الرباني ولا بالرسالات الإلهية ولا بالفطرة البشرية .

وهكذا فقد جعل الدين والأخلاق والعادات والتقاليد التي تحافظ عليها الأجيال البشرية كلها من صنع العقل الجمعي وهذا العقل من طبيعه التفسر والتبدل وعدم الثبات ، وبذلك فما يقره اليوم ينقضه غدا وما بناه نسي

(١) انظر : التحديات المعاصرة في مواجهة الاسلام / د . أحمد عبد الحميد

الماضي فقد حان أوان هدمه وأصبحت الفرصة مناسبة للتخلص منه والعودة إلى الوثنية، وما على الإنسان إلا التسليم والانقياد والطاعة لأنه ليس هناك شيء ثابت في حد ذاته لا من دين ولا من أخلاق كما كان يظن الناس قديما .
والمجيب في نظرية هذا (العالم) ! أنه جهل أو تجاهل الدور الذي قام به بعض الأفراد ضد " العقل الجمعي " وعاكسوا التيار ولم يقدر أن يحقنهم أو يشبههم عن مواقفهم ، فهناك الأنبياء والرسل من أصدق الأمثلة وأدلة المراهقين على بطلان نظريته وهناك كثير من المحررين والمصلحين الأوربيين - وهو أعلم بهم - الذين صدوا في وجه التيار الكسبي وحطموا ذلك الطاغوت الذي بقي معبودا من دون الله عهدا طويلا .

وهكذا استفل اليهود (العلماء والنظريات العلمية المادية) التي تنتكر للدين والأخلاق ، وتقوم على أسس مقطوعة الصلة بقضية الإيمان بالله تعالى ، وبث الأفكار والنظريات المنافية للمعائد والشرائع الدينية والعبادي الأخلاقية ، لمحاربة الدين والترويج للوثنية الحديثة .^(١)

وقد صح اليهود في بروتوكولاتهم وفي أكثر من موضع عن هذه الرغبة والسعي لتحقيقها .

فهم يقولون : (يجب علينا أن ننزع فكرة الله ذاتها من عقول غير اليهود . . .)^(٢)

ويقولون : (سنحاول أن نوجه العقل العام نحو كل نوع من النظريات المبهرجة التي يمكن أن تبدو تقدمية أو تحررية ، لقد نجحنا نجاحا كاملا بنظرياتنا التي ألبسناها ثوب التقدم . . .)^(٣)

وقالوا : إن نجاح دارون وماركس ونيتشه قد رتبناه من قبل .^(٤)

وقالوا أخيرا : (لقد خدعنا الجيل الناشئ من الأسيين وجملناهم فاسدا متعفنا بما علمناه من مبادئ ونظريات معروف لدينا زيفها التام)^(٥)

(١) انظر الشبهات والأخطاء الشائعة في الفكر الإسلامي ، أنور الجندي ص ٣٠٨ .

(٢) البروتوكول الرابع ص ١٢٠ .

(٣) البروتوكول الثالث عشر ص ١٥١ .

(٤) البروتوكول الثاني ص ١١٣ .

(٥) البروتوكول التاسع ص ١٣٣ .

والذي يحزن القلب ويجب التنبيه له ، أن هذه " النظريات العلمية " ما زال العالم يتناقلها ويتربس عليها وتحشى بها عقول الأميين على أنها مسلّمات علمية ، وحقائق ثابتة وبقينية ، وتجد الكثير من التحسين والتعصّب لها وكأنها الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فإلى متى ستبقى هذه الغفلة خصوصا في جامعات العالم الإسلامي ومناهجه التعليمية ؟

*

ثانيا - الواقع الأوروبي ذاته :

يظن البعض أن اليهود هم الذين هيئوا الظروف المناسبة لنقل أوروبا من النصرانية إلى الوثنية الحديثة ، ولكن الحقيقة غير هذا . فبالرغم من الدور الكبير الذي لعبه اليهود في حياة أوروبا إلا أنهم ليسوا هم السبب المباشر في الوثنية التي تسود العالم المعاصر ، فاليهود ليسوا عمارة العالم ولا عقول المدبرة وإنما هم مجرد صيادين إذا هبت الرياح اغتتموها ، وإذا سحبت فرصة اهتبلوها ، وإذا لاحت في الأفق مناسبة استغلوها لصالحهم حسبما تعلّم عليهم تعاليم التلمود وبروتوكولات قادة صهيون .

إنّاهم لا ينشئون الأحداث ، وإنما يحسنون استفلالها فهم كما قيل عنهم : كالملاح الماهر ينتفع لتسيير سفنه بكل تيار وكل ريح مهما يكن اتجاهه ويسخره لمصلحته (١) .

هذه حقيقة أريد أن يدركها القارىء حتى لا يستمر الانخداع بسدور اليهود ومقدرتهم كما يتصورهم الكثير وكما يصورهم البعض من الكتاب والمؤلفين (٢) فيها فنون في تقديريهم لدرجة تشبه الرعب وتبعث الفزع في النفوس وكأن اليهود أسطورة لا تقهر ، وأخطبوط يطوق العالم .

وإذا كان هذا هو دور اليهود ، فما هي الوسيلة المباشرة التي استغلوها والريخ التي اغتتموها حتى هدموا الدين والأخلاق من القلوب الأوروبية وأقاموا مكانها الأوثان وروجوا لمبادئ الأخلاق .

(١) الخطر اليهودي خليفة تونسى ص ٧٢ .

(٢) انظر كتاب أحجار على رقعة الشطرنج ، ولهم غاي كار / ترجمة

ذلك هو الواقع الذي صارت إليه أوروبا في جميع أحوالها وبالذات

الدينية والأخلاقية على يد الكنيسة ورجال الدين .

وعن ذلك يقول فيشر : (إن القلب لينعم بالأسى وتنفطر النفس مرارة ،

عندما نتعرض للحياة الدينية في هذه الفترة من العصور الوسطى ، فقد عمّ الانحطاط وساد ، ودبّ في الحياة دبيب الفساد من هامة الرأس إلى باطن القدم ، أصبحت الكنيسة مريضة مضرمة بضربة موسومة بسمّة الانحطاط الخلقي لا فرق بين قائد ومقود الجميع زافوا وفسدوا معا .) (١)

نعم تغيرت الأحوال جملة وتفصيلا بعد قيام الثورة الصناعية الأوروبية ،

ولكن فيالرغم من الظلام القاتم الذي كان يلقأ أوروبا في العصور الوسطى ، وبالرغم

من الأفاعيل المنكرة التي أحدثتها الكنيسة ورجال الدين فيها ، وبالرغم من قسوة

نظام الإقطاع الذي كان سائدا . . . بالرغم من كل ما هو معروف عن تلك القرون

الطوال فقد كان فيها للدين والأخلاق والتقاليد حظ غير يسير ، ومقايها ليست

خافية ، فقد كان المجتمع - إلى حد ما - ملتزما ببعض تعاليم الدين وقواعده

الأخلاق ، فالرأيا لم يكن معمولا به إلا في حالات نادرة ، والاختلاط الفاحش

كان مستهجنا مستكرا ، والزنا وإن وجد فهو محدود على نطاق ضيق ، والأسرة

تشكل رباطا غير ضعيف ، ووحدة متماسكة ، يقودها الرجل ويوفر لها احتياجاتها .

وهكذا فقد كانت الحياة أقرب إلى الاعتدال منها إلى الشذوذ والانحراف

وإن كانت لا تخلو مما يشوهه صفحة الأخلاق خصوصا بالنسبة لرجال الدين والرهبان

ومعنى المترفين .

على هذه الصورة كانت الحياة الأوروبية قبل الثورتين الفرنسية والصناعية .

ولكن الأمر بدأ يتغير بسبب ما قامت به الكنيسة ورجال الدين فبدأ المجتمع

ينسلخ من كل شيء من دينه وأخلاقه وعاداته ، وأول ما بدأ به هو الانسلاخ من

سلطان الدين ليتخلص من طاغوت الكنيسة وأوثانها المستبدة .

وإذا كان ضياع الدين أول خسارة منيت بها أوروبا وأول تنازل قدمته ، فقد

ترتب على ذلك خسائر جسيمة لا تقل فداحة وخطورة عن خسارة الدين ، إذ بدأت

الأخلاق والتقاليد تضطرب وبدأت القيم والعادات والأعراف الحسنة تهتز وتنحرف

وذلك لأن الدين هو الركيزة التي تشد عضد الأخلاق وتحفظها من الزيغ

والانحراف والفساد ، وضعف سلطان الدين في حياة أوروبا انفلت كل صمام أمان وكل ضابط حماية للمجتمع الأوروبي ، وظهرت الفرصة مواتية لبعث الوثنية من جديد ، وقيام المجتمع على الأسس المادية المجردة .

هنا لاحت الفرصة وتبها الجوال المناصب أمام اليهود - وهم أصحاب رؤوس الأموال وتجار الرنا ومروجوه ودعاة الفساد الخلقي - فبدأوا بتوجيه المجتمع الأوروبي وجهة وثنية بعد أن سقط في أيديهم نقادوه حيث يريدون ، فأوقعوه في المعاملات الربوية لأنهم أصحاب رؤوس الأموال التي تدير الصناعة والتجارة فتحوّلت وجهة الحياة ما كانت عليه في ظل الإقطاع والكنيسة إلى العمل في المصانع التي أنشئت في المدن الرئيسية ، وأقبل عليها العمال والعاملات ، وكانت هذه نقطة تحول خطيرة في حياة أوروبا ، وبداية مسخ كامل للأخلاق والتقاليد وتفكك للأسرة فضلا عما أصاب بقايا الدين .

كانت هذه بداية للاختلاط الفاحش وترويج الزنا والبغاء ، كانت وبالا على المرأة وامتهانها لها واستخدامها وسيلة للإفساد وتدمير الأخلاق ، أصبحت تعمل في المصانع مع الرجل جنباً إلى جنب ساعات طويلة من ليل أو نهار ثم كانت المطالبة بحقها في المساواة في الأجرة مع الرجل ، ثم تطور الأمر إلى طلب المساواة في كل شأن من شؤون الحياة .

ومن ذلك المطالبة بحقها في التعليم ، وهذه المطالبة حق أريد به باطل فهي وسيلة اتبها اليهود لإفساد المرأة الأوروبية ومن ثم إفساد المجتمع يكامله .

وليس معنى هذا أن تعليم المرأة محذور أو ممنوع ، وليس في طلبها العلم ما يفسد أخلاقها ، بل العكس هو المتوقع بأن يكون العلم وسيلة لإصلاحها ، غير أن المخططات اليهودية قلبت الموازين وسخرتها لتحقيق مطامع اليهود . تعلمت المرأة الأوروبية وتدرجت في مراحل التعليم جميعها لا فرق بينها وبين الرجل في نوعية العلم أو غير ذلك . ولكن المرأة في مقابل هذا خسرت أنوثتها وفقدت شرفها ، وفسدت أيما فساد ، وكان لهذا أثره السيء على المجتمع بشكل عام وعلى النظام الأسري بشكل خاص حيث طغت النزعة المادية على جميع الأفراد صفارا وكبارا ذكورا وإناثا وأصبح الحال أسوأ مما كان عليه أيام استبداد الكنيسة ونظام الإقطاع .

ومع هذا فالكنيسة هي المجرم الأكبر الذي أتاح لليهود أن يعبثوا

بأخلاق أوروبا ودينها ويفسدها فكرها وروحها وخلقيها واقتصادها وسياسيا وينشئوا
منها مسخا متحللا من كل القيود والضوابط .^(١)

*

السبب الثالث : تقصير المسلمين وعدم قيامهم بواجب الدعوة لنشر
عقيدة التوحيد .

الإسلام دعوة عالمية ورسالة شاملة للبشرية كافة وليس مقصورا على
قوم دون قوم أو بلد دون آخر ، كما كان شأن الرسالات من قبله .

وقد قام المسلمون من السلف الصالح ومن جاء بعدهم بنشر دعوة
التوحيد وتطهير الأرض من الوثنية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا فما أدرخوا من
جهد ولا مال وما بخلوا بتقديم أنفسهم في سبيل الله .

وقد كانت الفرصة الذهبية التي مرت بها أوروبا ، بعد سقوط هيبة
الكنيسة والذين النصراني من قلوب الأوربيين ، كانت تلك الفرصة أمام المسلمين
بومها فلم يغتنموها لنشر الإسلام والدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده وتخليص
أوروبا من العبودية للأوهام والخرافات وحمايتها من الانتكاس إلى لون جديد
من الوثنية والطغيان .

لقد كانت حالة أوروبا بحق تستدعي قيام المسلمين بالدور المنوط بهم
وحمل الأمانة التي حملوها ، ولكنهم تخاذلوا وقد كانوا ضعافا فلم يقدروا على
أداء واجبهم الديني ، فضيعوا الأمانة وتهاونوا في أداء الرسالة الإلهية التي
قاموا بحملها عدة قرون على خير وجه ونعمت البشرية في ظلها وطلا سلطان
الحق والعدل الإلهيين في أرض الله .

نسيت الأمة الإسلامية يومها تلك المهمة وشغلت عنها بنفسها ، فبدأت
تنحرف هي نفسها عن حقيقة دينها ، وتتلهى بأمور الدنيا نظرا لما أصابها من
وهن وترف ، وغاب عنها أنها خير أمة أخرجت للناس لتأمرهم بالمعروف وتنههم
عن المنكر وتدعوهم إلى دين الله وعبادته وحده لا شريك له .

لما توانت الأمة الإسلامية عن النهوض بواجبها أصبح الأمر أكثر سهولة
أمام اليهود ليقوموا بدورهم ويفعلوا ما تدفعهم إليه تعاليم التلمود ومخططات

(١) حول هذا الواقع التحلل انظر (كتاب مباهج الفلسفة) تأليف :

ول ديورانت وكتاب مذاهب فكرة معاصرة ص ١١٩ - ١٢٣ .

(١)

كهنة صهيون ، فوجهوا أوروبا وجهة وثنية وزادوا الشقة بينها وبين دين الله .
صحيح أن أوروبا كانت للدين كارهة نظرا لأنها لم تعرف إلا الصورة
المشوّهة التي قدمتها الكنيسة لدين الله ، غير أن هذا لا يعفيها من تحمل
بعض المسئولية ، فقد كان بمقدورها أن تبحث عن الحق وتجد بنفسها الدين
الصحيح عند المسلمين من خلال لقاءاتها بهم في (السلم والحرب)^(٢) غير
أنها لم تفعل ، وربما يعود ذلك للدور الكبير الذي كانت تقوم به الكنيسة
ورجال الدين لتشويه صورة الإسلام والمسلمين مما أورت الأوربيين نفورا من كل
ما يأتي من طرف الشرق الإسلامي .

وهذا لا يعني الأمة الإسلامية من تحمل قسط كبير من المسؤولية
فقد كان من الجدير بها والمفروض عليها أن تسارع لتقديم البديل الصحيح
عن دين الكنيسة المحرف وتقطع الطريق على الوثنية فلا يتسنى لها الظهور ،
غير أنها توانت وتهاونت فكانت النتيجة قاسية والخسارة فادحة والنهاية
مؤلمة ، فانتشرت الوثنية في أوروبا وسرت فيها شرقا وغربا كما تسرى النار في
العشيم اليابس ، وكان اليهود من ورائها ينفخون فيها كلما خبت ، ويشعلونها
كما خفتت حتى استشرت وقويت شوكتها وصارت هي الدين البديل^(٣) .
ولم يقتصر الأمر على أوروبا بل إن عدوى الوثنية انتقلت إلى معازل
الإسلام وقلوب المسلمين ، كما سيأتي ذكره .

وهكذا فقد كانت الأمة الإسلامية هي المسؤول الأكبر عما أصاب
البشرية كلها من الخبال على يد اليهود ، فقد أنزل الله إليها النور وأنزل إليها
الرسالة الخاتمة وشرفها بخاتم التبيين لا لتلهمي بذلك كله ، وإنما لتكون - بكل
ثقلها وبكل فاعليتها - جهدا دائما وحركة دائمة لنشر النور والهداية فسي
الأرض ، فإذا تخلت فمن يحمل الرسالة ؟!^(٤)

(١) انظر : ماذا خسّر العالم بانحطاط المسلمين ص ٢٥٨ .

(٢) من خلال الدراسة والتجارة ثم الحروب الصليبية الأولى .

(٣) ماذا خسّر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٢٢ - ١٢٨ .

(٤) انظر مذاهب فكرة ص ١٢٤ - ١٢٢ .

الفصل الثاني

العلاقة بين الوثنيين

الفصل الثاني

العلاقة بين الوثنية المعاصرة والوثنية القديمة

هناك طريقان لا ثالث لهما أمام الإنسان :

طريق الحق وطريق الباطل .

طريق الحق يتمثل في تحقيق العبودية الكاملة لله والد ينونة التامة له والإخلاص في العمل لوجهه الكريم ، وذلك بحصر جميع وجوه العبادة لله تعالى مع الالتزام بشريعته والتسليم له في كل الأمور .

هذا الطريق الرباني الذي ارتضاه الله تعالى وأمر به وجعله الطريق الوحيد الموصول إليه ، هو الإسلام دين التوحيد الذي فُطِرَ عليه الناس أجمعون .

قال تعالى : (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) (١) .

وهو المنهج الذي لا يقبل الله تعالى من أحد سواه ، قال سبحانه : (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (٢) .

وقد أمرنا تبارك وتعالى بأن نلتزم هذا الطريق فلا نحيد عنه ، ونثبت عليه فلا نفرقه إلى غيره من الطرق التي تنحرف بسالكها إلى سواء الجحيم .
قال تعالى : (وَأَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْشَرُوا بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) (٣) .

وأما الطريق الآخر فهو طريق الشرك والوثنية ، والبعد عن الله ، والانحراف عن عبادته إلى عبادة غيره من المخلوقات ، إما استقلالاً وإما على سبيل الشرك والمعية وفي كلا الحالين بُعد عن الحق وسير في سبيل الضلال ومسالك الوثنية وعدول عن عبادة الله وتوحيده ، وابتداع لما لا يرضاه الله .

وهذا فالوثنية باعتبارها ميلا عن دين الله ، وانحطاطا عن سمته ونزولا عن مستواه هي من صنع الإنسان وابتداعه في القديم والحديث ، تابعة له متخلفة بتخلفه ومتطورة

١ - سورة الروم آية ٣٠ .

٢ - سورة آل عمران آية ٨٥ .

٣ - سورة الأنعام آية ١٥٣ .

بتطوره وملتونة باللون الذي يتناسب مع قدراته وإمكانياته ومستواه الفكري والحضارى .
فهى نسبة إلى الزمان والمكان والإنسان ، أما حقيقتها فواحدة وهى البعد
عن دين الله وعبادة غيره من الكائنات ، والاحتكام إلى غير شريعته فى شؤون الحياة .
فلا فرق بين وثنية أمس ووثنية اليوم ، هى ذاتها لم تتغير ولم تتبدل إلا فى
ظاهر الصورة التى تتكيف بها لتناسب مع الإنسان الذى صنعها وابتدعها لنفسه ورضى
بها بدلا عن عبادة الله فى فترات غيه وضلاله ومعه عن طريق الحق وتنكبه سواه .
السبيل .

فالوثنية هى الوثنية على مرّ الزمان واختلاف المكان غير أنها دركات فى السفلى
والانحطاط والبعد عن طريق التوحيد لتتلاءم وتطور البشرية .

فقد كانت الوثنية القديمة بأطوارها وصورها وأشكالها ودرجاتها متناسبة مع نوع
الحضارة التى وصل إليها الإنسان وتصوراته وأفكاره .

وكذلك هى الوثنية المعاصرة بصورها وأشكالها وجميع مظاهرها متناسبة مع
حالة الإنسان المعاصر وتقدمه الفكري والحضارى ، غير أن الحقيقة واحدة ، والمنطلق
واحد ، فالعلاقة بين الوثنيين متصلة لأن مصدرهما واحد وهو البعد عن عبادة الله
والتوجه بالعبادة إلى ما سواه وإن تغيرت مظاهر العبادة ، واختلفت صور المعبودات .

ولا أهمية لما بيد ومن الاختلاف والتباعد بين الوثنية القديمة ووثنية هذا
العصر ، فليس هذا الاختلاف والتباعد والافتراق إلا فى ظاهر الأمر لا فى حقيقته ،
فلم تتبدل إلا المظاهر الخارجية ، ولم تتغير إلا الصور والقشور الظاهرية التى تغشى
الإنسان فى صياغتها وتطويرها وتعديلها عن الأصول الأولى التى نشأت عنها وانبثقت
منها ، كما تغشى فى تطوير الآلة التى صممها من قبل فى صورة ساذجة خالية من كل
تعقيد ، ثم أخذ يشكّلها ويطورها لتناسب مع رغباته وحاجاته .

ولهذا فإنه من جمود الفكر وخذاع النفس إذا نحن فرّقنا بين وثنية الأمم
ووثنية اليوم ، وقصرنا الوثنية على تلك الأصنام والأوثان وماقى المعبودات القديمة .

يقول سيد قطب - رحمه الله - (إننا نخذع أنفسنا حين نقف بالوثنية عند
الشكل الساذج للأصنام والآلهة القديمة والشعائر التى كان الناس يزاولونها فى
عبادتها واتخاذها شعاعاً عند الله ، إن شكل الأصنام والأوثان فقط هو الذى

تغيير ، كما أن الشعائر هي التي تعقدت ، واتخذت لها عنوانات جديدة ، أما طبيعة الشرك وحقيقته فهي القائمة من وراء الأشكال والشعائر المتغيرة وهذا ما لا ينبغي أن يخذلنا عن الحقيقة (١) .

فالذكي الفطن هو الذي ينظر إلى اللباب لا إلى المظاهر والقشور التي كثيرا ما تخدع الناظر وتخفى عن عينه الحقيقة .

فالوثنية القديمة كانت في أغلب الأحيان ساذجة خالية من التعقيد قريبة من عقلية الإنسان الوثني ومفاهيمه وتصوراته للأشياء ، ومدى إحساسه بما يحيط به من الموجودات والأفكار ، فكانت وثنيته إرضاء لميوله ورغباته وتحقيقا لأهوائه ومطامعهم ونوازع نفسه ، فهي إما عبادة للإنسان نفسه في حياته أو بعد موته تقديرا له وتعظيمًا لشأنه لما يتصف به من طيب الصفات كأن يكون نبيا أو رجلا صالحا تقيا أو غير ذلك مما يمتاز به بعض الأفراد عن بنى جنسهم .

وإما عبادة لوشن من حجر أو شجر أو من أي شيء آخر ، وإما عبادة لحيوان ، ارتبط في حنّ الوثنيين بخاصة معينة كأن يكون عنوانا للقوة والشجاعة .

أو مصدرا لنفع ما يعمود على الإنسان كما هو الحال في عبادة البقرة .

وإما عبادة لمظهر من مظاهر الكون كعبادة الأفلاك والكواكب أو الأنهار والجهال ، إلى ما هنالك مما يقع تحت الأنظار مما في هذا الكون المسخر لعبادة الله .

وهكذا فالوثنية^{القرية} في كل صورها عبودية لغير الله وخضوع لما سواه ، والوثنية المعاصرة لا تختلف عن سابقتها لأنها عبودية لغير الله وخضوع لما سواه واتبساع لغير ما جاءت به الرسل عن الله وتحكيم لشرائع البشر وقوانينهم القاصرة .

والاختلاف الظاهري هو مما يقتضيه الحال ويستلزمه الوضع الحضاري المسادى لعصر العلم ، فمن البدهى جدا أن تتزعزع الثقة ببعض المعبودات القديمة فسي نظر وثني اليوم ، لأنها لم تعد تفي بالمطلوب أو تقوم بالدور الذي يليى حاجاتهم فاتجهت الوثنية إلى نماذج جديدة وصور حديثة ومعبودات مستجدة ، كما هو الحال في الخضوع للأسباب المادية ، والإيمان بالنظريات العلمية التي لم تصل إلى درجة

الحقائق ، ومع ذلك يقدمونها على ما جاء عن طريق الوحي ، أولا يثقون بما جاء عن هذا الطريق الديني لأنه لا يخضع لتجارهم ولا يتفق مع نظرياتهم المادية الباطلة .

يقول الندوي : (وهذا هو الشرك الذي أتجهت إليه الحضارة العصرية المادية ، فقد اتخذت الأسباب الطبيعية والمادية والفنية ، وأصحاب الاختصاص فيها ، الذين نسميهم الاخصائيين أربابا وأولياء من دون الله ، وضع الرجل العصري حياته تحت تصرفهم ، واعتقد أن بيدهم الحياة والموت والسعادة والشقاء ، لقد أصبحت عبادة الأسباب والماديات الكونية ، وعبادة الطبيعة والاعتماد الكلي على أصحاب الاختصاص واتخاذهم أربابا من دون الله وثنية جديدة مضافة إلى الوثنية القديمة التي لا تزال لها أنصار وآثار ودعاة وأتباع وهو نوع من الشرك الذي ينافس الإيمان والعبودية) (١) .

وقس على هذا كل المظاهر الوثنية الحديثة ، من قومية ووطنية وديمقراطية وعلمانية وعقلانية ... الخ . فالمعبود فيها هو غير الله والمنهج الذي تسير عليه هو غير شريعة الله .

فالإنسان مثلا ما زال معبودا في وثنية اليوم كما كان معبودا في وثنية الأمس ولكن مع فارق في الصورة الظاهرة ، وأسلوب العبادة فهو يعبد في الوثنية الحديثة لا لأنه من ذوى الفضائل وأصحاب الكرامات والولاية والأخلاق الحميدة .

فقد تبدلت الموازين واختلت الأسس ، فلاداعي إلى نحر القرابين وتقديس الأضاحي لأنها ليست من مراسيم الوثنية الحديثة ، إنه يعبد ولكن بصورة جديدة بوصفه رئيس الحزب أو القائد أو الحاكم ، أو من ذوى التخصصات المادية التبادرة والمهارات الفنية الفائقة ، أو ممن يسمونهم أبطال الرياضة أو نجوم المسرح أو كواكب الفن والغناء أو من ربات الجمال إلى غير ما هنالك من صور البطولة الوثنية في عصرنا الحاضر .

فالعابدون لأمثال هؤلاء يقفون أمامهم موقف الذل والخضوع والإذعان ويقدمون لهم باقات الزهور ، ويرجون منهم ما لا يرجى إلا من الواحد القهار ، وهم فسي

١ - الصراع بين الإيمان والمادية ، أبو الحسن الندوي ، ص ٢٩ ، دار القلم الكويت .

حقيقة أمرهم لم يصلوا مرتبة الإنسان المعبود في الوثنية القديمة لا في الدين ولا في الأخلاق (١) .

وعبد كذلك العقل البشري فقد أعطته الوثنية الحديثة من الصلاحيات ما ليس له وضعته في منزلة ليس أهلا لها فهو الحاكم المطلق الذي تجب طاعته في كل ما يراه ويحكم به .

والعلم من معبودات هذا العصر ، فلا وجود إلا لما يقره العلم ويقطع بوجوده ، وقد وجهته الوثنية المعاصرة وجهة لا دينية بحيث لا يمكن أن يلتقى مع الدين ، بل لا مدخل للدين فيه ، فقد بنيت قواعده ووضعت أسسه وأصوله على مجافاة الدين والانفصال عنه .

والوطن والقوم من معبودات الوثنية الحديثة إذ صارت هي أساس الولاء والمحبة ولأجلها كل التضحيات ، عليها يجتمع الناس ويفترقون فهي بمثابة العروة الوثقى التي تشد أزهرهم وتجمع بينهم بعيدا عن منهج الله .

والأعراف الباطلة والتقاليد الضالة ، والرأى العام المضلل والأحزاب ومراكز القيادة وغيرها هي مصادر التشريع وهي صاحبة النفوذ والسلطان ولها تجب الطاعة من دون الله وشرعه .

وهكذا فالعلاقة بين الوثنيتين تنبعث من أصل واحد فاسد وهو صرف العبادة لغير الله تعالى بأي شكل من الأشكال ، فالمعبودات الوثنية القديمة التي كانت على شكل أصنام وأوثان وغير ذلك قد حلت محلها معبودات جديدة من مذاهب سياسية واقتصادية وأفكار ونظم وبيادى ضالة ومعان منحرفة .

وهكذا فإن الشرك الذي كان بالأمس ، أصبح اليوم أنظمة اجتماعية وسياسية واقتصادية تحكم بغير ما أنزل الله ، وصار نظريات مزيفة تتحدث عن أصل الإنسان والكون والحياة فتنسبها إلى غير إرادة الله لأنها لا تدخل الله في حسابها .

وبذلك تلتقى الوثنيات على عبادة غير الله ، فقد عبد فيهما كل شيء سوى الله تعالى ، واتفقتا على تنحية شريعة الله عن واقع الحياة وتحكيم كل الأهواء والرغبات والقوانين والأنظمة البشرية التي أفرزتها بعض العقول الوثنية القاصرة عن

١ - انظر الجامع الفريد (كشف الشبهات) محمد بن عبد الوهاب

الإحاطة والشمول ، وجعلت طاعتها لازمة والخضوع لها واجبا ، والرضا بها قدرا محتوما ، وكان الويل لمن يخرج عنها أو تحدّثه نفسه بمحاولة الخروج عنها ومخالفتها والمطالبة بتحكيم شريعة الله .

وبعد بيان العلاقة بين الوثنيين أود أن أذكر بعض الملاحظات ذات الصلة
بهذه الفقرة :

١ - يلاحظ أن الوثنية القديمة كانت أكثر أدبا واحتشاما وتقربا إلى الله
وبغض النظر عن بطلان أساليب تقربها فقد كانت تبحث عن الله وتتقرب إليه بما رأته
من الأساليب والوسائل والوسائط .

وقد أثبت القرآن الكريم لأولئك الوثنيين ذلك فقال تعالى : (والذين اتخذوا
من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) (١) .

فالله تبارك وتعالى وإن كان لا يرضى تلك العبادة ولا يقرها إلا أنه بيّن مراد
العابدين وكشف عن غايتهم وهي غاية سليمة في حد ذاتها غير أن وسيلتها باطلّة
فلم تنفعهم أنواع القرابين ولم تقبل وسائطهم فضاعت أعمالهم لافتقارها إلى الإخلاص .

ومعنى كون الوثنية القديمة تتقرب إلى الله وتسعى في الوصول إليه أنها
مقرة بوجوده غير منكورة له ، تؤمن بأنه الخالق المدبر وأنه أعظم من كل شيء ، فهو
أعظم من جميع المعبودات التي يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى ومكانة ، فهو نفسى
نظرهم أعظم من أن يعبد من غير وسائط قياسا على عظماء الأرض ، فهو يستحق منهم
أن يفعلوا كل شيء وسلوكوا كل طريق ليصلوا إليه (٢) .

أما الوثنية الحديثة فهي - في أغلب الأحيان - على خلاف حال الوثنية
القديمة في هذا المجال فهي في الأعم الأغلب نوع من الإلحاد والفجور والمكابرة والصدّ
عن سبيل الله والتنكر له والبعد عنه ، فهي تسلك كل السبل وتبحث عن كل وسيلة
وتنقب عن كل واسطة لا لتتقرب بذلك إلى الله تعالى فتكون كسابقتها في الشر سواء ،
ولكن لتزداد عن الله بعدا بالتقرب إلى كل شيء سواه ، فهي تجاهر بعداء الله
ومحاربه والخروج عن طاعته وتتقرب إلى أوثانها بذلك .

فالجاهلية الإغريقية كانت جاهلية وثنية خالصة في واقع حياتها - كما يقول
الأستاذ محمد قطب - ومع ذلك فإن المفكرين والفلاسفة فكروا في الله سبحانه
وتعالى .

١ - سورة الزمر آية ٣ .

٢ - ليس هذا من قبيل تبرير واقع تلك الوثنية ولكنه مجسّد
تسجيل لها .

وحاولوا تصوّره على قدر ما اجتهدت عقولهم فاهتدوا إلى وحدانيته وكماله وجلاله ولكن تشعبت بهم الظنون في متاهات لا قرار لها حين أخذوا يصفون كنه هذا الكمال وهذا الجلال .

أما جاهلية عصر الأحياء وعصر النهضة فقد سخّرت عقلها في كيفية الاستغناء عن الله ، وإخراج موضوع الألوهية من ميادين الفكر والحياة وأحد اثر واحد (١) .

فالناس في الوثنية الأولى كانوا يؤمنون بالدين ثم تنحرف أفكارهم في تصور طبيعة القوة الخالقة المدبرة فيصورونها آلهة متفرقة ، ثم يتصورون العلاقة بينها وبين البشر علاقة مشاحنة دائمة وبغضاء .

أما اليوم فهم يقتلعون الدين ذاته من أساسه (٢) .

٢ - والملاحظة الثانية : هي أن الناس في كل الوثنيات يعرضون عن معبوداتهم من دون الله ويفقدون الثقة بشركائهم في بعض الحالات كأوقات الشدة والفرح أو في حالات الإعجاب والانبهار بروعة الكون ودقته وعظمة الدلائل والآيات فيستجيبون لنداء الفطرة ويخلصون لله وحده ولو في دقائق معدودة .

ولهذا فقد كان من الملاحظ أن الشرك في أغلب الأحيان لا يكون إلا في ساعات النعمة والرخاء ، أما في النوازل والملمات والأحوال فكثيرا ما تسقط رايحة الأوثان ويعود الناس إلى عبادة إلههم الرحمن .

قال تعالى : (وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا آياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا) (٣) .

وهذه الملاحظة وإن كانت تنطبق على الكثير من أحوال الوثنيين في سائر الوثنيات إلا أنه يبيد وأن الوثنية المعاصرة أشد شركا وإصرارا وإعراضا عن الله في كثير من حالات الشدة والخوف مما يجعلها تستمر في الإلحاد وتتجاهل كل الحقائق والبراهين والانذارات التي يخوف الله بها عباده من حين لآخر .

فالوثنية الحديثة بإمعانها في المادية والتمسك بالأسباب الظاهرة والتعليل بها والاستغناء عن الله ، واسقاطه من حسابها واهتمامها — جعلت تتصادم في

١ — انظر مذاهب فكرية ص ٥١٦ .

٢ — منهج الفن الاسلامي ص ١٦٦ .

٣ — سورة الاسراء آية ٦٧ .

الباطل وتصّر على البعد عن الله حتى في ساعات الشدة (فلا تكاد تشعر في خطب الزعماء والوزراء والقادة الذين يعيشون تحت راية هذه الوثنية برقة قلب وانكساره وإخبات إلى الله في أدهى ساعات الحرب وأمرها ولا تشاهد شيئا من ذلك في أخلاق الشعب وأعماله وأفراحه ، وبعث ذلك مفكرو الغرب وأدبائه من باب التجلد وقوة القلب وإيساء الضيم ، وقد افتخر أحد زعماء الإنجليز وكبار رجال الكنيسة في البرلمان الإنجليزي بأن رجال الشعب الإنجليزي لم يستسلموا للحوادث والنوازل ، واستشهد على ذلك بأن المشتغلين بالرقص واللهو في سنغافورة لم يتحولوا عن مكانهم ولم يؤخروا أدوار الرقص والغناء وطائرات اليابان تمطر شأبيب القنابل) (١) .

وفي هذه الأيام والعالم شرقا وغربا يعيش أشقى حياة ويلقى من المحن والمصائب والنوازل والكوارث والدمار ما لا يكاد يحصر ، ويدق عن الوصف والبيان فإن ذلك كله لا يزيد الناس في الوثنية الحديثة إلا تماديا في الباطل وإنكارا لقدرة الله وعظمته ومعدا عنه تقريبا إلى سواء .

٣ - والملاحظة الثالثة تتمثل في عدم الاستقرار والثبات على معبوداتها في كل الوثنيات قد يمها وحديشها .

فالإنسان العابد لغير الله تعالى كثيرا ما يميل من العبودية لمعبود ما ، وسرعان ما يتحول عن عبادته إلى عبادته غيره خصوصا إذا ظن أن المعبود الجد يد أنفع له من السابق ، أو إذا لم يوافق هواه ويحقق له رغبته فإنه لا يتردد في هجر ذلك المعبود والكفر به والالتجاء إلى غيره لعله يجد عنده بغيته ويحقق له مراده .

وهناك شواهد كثيرة جدا على هذا في تاريخ الوثنية عند العرب قبل البعثة النبوية ، لا داعي لإيرادها اختصارا للحديث (٢) .

وكذلك الحال في الوثنية الحديثة في عصر العلم والحضارة والتقدم - كما يقولون - فإنك تجد الناس - دولا وأفرادا - مضطربين هائمين لا يستقر لهم قرار ولا يثبتون على معبود من المعبودات العصرية فتجدهم مذنبين بينها حائرين في أمرهم ولسان حالهم (بكل تدأونا فلم يشف ما بنا) ، فإنك تجد كثيرا من دول

١ - انظر كتاب : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين - الندوى ، ص ١٨٥ بتصرف .

٢ - انظر السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٧٨ - ٨١ ، ٨٦ ، ٤٥٣ .

العالم تخضع لطاغوت معين وتتعبد بشرائعه وقوانينه وتذل لسلطانه وتركع للأوثان التي ينصبها لها - فترة من الزمن تطول أو تقصر حتى إذا بدا لها من أمرها شئ جديد أو عرض لها عارض ، أو شعرت بنوع من الكرامة الإنسانية ، فإنها لا تليث أن تتحول عن عبادته وتتحرر من سلطانه ولكن لا يطول بها العهد حتى تقع فى عبودية وثن جديد وطاعة طاغوت آخر .

وإذا كانت هذه حال الدول ، فإن الأفراد كذلك فهم مستعبدون لأوثان وطواغيت فى ظل نظام شيوعى ملحد طوراً ، وفى ظل نظام ديمقراطى متحرر من كل سلطان دينى تارة أخرى^(١) ، وقد تجدهم أحياناً أخرى فى حياة متحررة متحللة من كل القيود والضوابط الأخلاقية وأقرب إلى حياة الحيوان فى أدنى صورها وأشكالها .

وهم فى جميع التقلبات من وثن إلى وثن مخدوعون حائذون عن طريق الهدى والصواب ، وبالرغم من أنهم جربوا كل ألوان العبودية لغير الله ، ولم يزدادوا إلا إمعاناً ورسوخاً فى الذل والاستعباد ، فإنهم يأنفون من تجريب سبيل العبودية لله تعالى ، ليجدوا فيها حرمتهم وإنسانيتهم ويشعروا بكرامتهم .

٤ - والملاحظة الأخيرة تتمثل فى وحدة الأسلوب الذى تسلكه الوثنيين جميعها فى السيطرة على قلوب المستعبدين فيها وإخضاع التابعين لسلطانها حيث تعتمد على التخويف والتهميل والتهديد .

فقد يما أتبع الوثنيون الأسلوب نفسه مع نبي الله إبراهيم عليه السلام فخوفوه وهددوه بأن أوثانهم ومعبوداتهم سوف تلحق به الأذى وتنزل عليه غضبها وتصيبه بالسوء ، عقاباً له على موقفه منها واستهانتها بها وإلحاق الضرر بها^(٢) .

وكذلك استخدم المشركون من العرب الطريقة نفسها مع خالد بن الوليد رضى الله عنه عندما بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم لقطع شجرات العزى بالطائف ، فهددوه بأن آلهتهم سوف تلحق به الأذى إذا هو حاول مسها بسوء^(٣) .

١ - انظر كتاب (الضم الذى هو)

٢ - انظر سورة الانعام آية ٨٠ - ٨١ .

٣ - انظر المسيرة النبوية لابن هشام المجلد الثانى ص ٤٣٦

وانظر قصة المغيرة بن شعبه فى هدم طاغية ثقيف ص ٥٤١ .

وكذا الحال فى الوثنية الحديثة فالسدنة وكبار الطواغيت فيها يخوفون الناس بمعبوداتهم وأفكارهم الوثنية ، وينذرون الناس بسوء العاقبة إذا هموا بالخروج عنها وهجرها والتفكير فى اتباع غيرها فيصورون لهم القبائح والمنكرات والأفكار الباطلة والمذاهب الهدامة والسياسات الفاسدة والقيادات الفاشلة والخرافات والأوهام أنها هى المنقذة من الهلاك والويل والدمار ، وأنها سبيل الحياة الكريمة ، وضرورات لازمة لا تسير الحياة بدونها فمثلا يروجون للربا ويدعون إليه بكل ما يستطيعون من دعاية وترويج ويجعلونه من ضرورات التقدم والحضارة ، وأنه لا غنى عنه ، وأن تركه يعرقل عجلة الحياة وتقدمها .

ويدعون إلى السفور والاختلاط والتحرر من قيود الدين والأخلاق حتى يعيش الفرد حياة طيبة خالية من العقد النفسية والمشاكل الاجتماعية كما يدعون .

وينادون بتحكيم شرائع الكفار وقوانين دول الوثنية لأنها هى التى تناسب الحاضر وتمشى مع روح العصر وتلبى جميع الحاجات وتحل كل المعضلات ، فمسرة يدعون إلى الديمقراطية ، وأخرى إلى الشيوعية الاشتراكية وتارة يطالبون بالحرية ، وطورا ينادون بالعلمانية إلى غير ذلك من الأفكار الوثنية الحديثة التى سيطرت على العقول واستحوذت على رضى القلوب وحظيت بالطاعة والخضوع والاتباع من دون شرع الله .

وبعد : فإن الوثنية هى صورة واحدة تمثل الانحراف عن عبادة الله وحده فى كل زمان ، تحل فى القلوب الخالية من عقيدة الألوهية عقيدة التوحيد التى تحميها من الأوهام وتحفظها من الاستعباد ، وتنظم لها شؤون الحياة .

فالوثنية الإغريقية والرومانية والفارسية ووثنية العرب أيام الجاهلية وكل الوثنيات منذ انحراف الإنسان عن التوحيد ومال إلى الشرك وعبادة غير الله ، واتباع منهجا غير منهجه واحتكم إلى غيره هى نفسها الوثنية لم تتغير ولم تبدل .

والوثنية الحديثة ليست بخافية على الموحدين فهى هى لم تختلف فى حقيقتها ولم تتغير فى جوهرها ، ولا يخذ عنك ظهورها فى صورها الجديدة ، وأشكالها المستحدثة ، فما ذلك إلا مناسبة للحال ومواكبة للعصر وتمشيا مع الواقع الجسدي وتمويهها على العقول ، فالمهم فى حقيقة الأمر هو المعبود ، فإذا كان المعبود غير الله أيا كان ذلك المعبود وفى أى وجه من وجوه العبادة ، سواء فى الاعتقاد أم فى الشعائر أم فى الشرائع ، فأعلم أنها الوثنية .

وهكذا . . . فإن الوثنية التي يعيشها العالم اليوم هي امتداد خفى للجذور
الوثنية الأولى ، فمن المعروف أن الوثنية الإغريقية والرومانية قد صارت في الدول
النصرانية الأوروبية من بعد قسطنطين الروماني وأن وثنية العرب مازالت لها آثار في
نفوس الكثير منهم .

فالواجب أن لا يخذلنا تبدل الأصنام وتغيير الأوثان وتجدد القبور واختلاف
الأشخاص ، إذ أن الأمر واحد ، إما الحق وإما الباطل ، إما عبادة الله وحده
لا شريك له وإما عبادة لغيره ، وكل معبود سواه فوشن أو طاغوت .
وصدق الله القائل : (فذكركم الله ^{الحق} ربكم فماذا بعد الحق إلا الضلال) (١) .

١ - سورة يونس : آية ٣٢ .

xxxxxxxxxxxx

الفصل الثالث

صور من الوثنية الحديثة

- تمهيد
- ١ - الديمقراطية •
 - * موقف الإسلام من سيادة الشعب وسلطته التشريعية •
- ٢ - الشيوعية •
 - * ظاهرة الإلحاد في الشيوعية •
- ٣ - العقلانية •
- ٤ - العلمانية •
 - * موقف الإسلام من العقل والعلم •
- ٥ - القومية والوطنية •
 - * موقف الإسلام من القومية والوطنية •
 - * القول بديمقراطية الإسلام واشتراكيته وعقلانيته . . الخ
- ٦ - الرأي العام •
- ٧ - صور جزئية أخرى •

الفصل الثالث

صور من الوثنية الحديثة

تمهيد :

١ - ذكرت في بيان مفهوم الوثنية أنها ليست مجرد إقامة الأصنام والأوثان وعبادتها ، فهي ليست مقصورة على تلك الصور والأشكال التقليدية التي عرفها الناس في عهودهم الجاهلية وعبوديتهم الذليلة لغير الله من حجر أو شجر أو حيوان أو إنسان - حيا كان أم ميتا - أو كوكب أو نجم إلى غير ذلك من المعبودات الحسية .

٢ - ولما كانت الوثنية ديانة صنعها البشر لأنفسهم في فترات بعدهم عن الدين السماوي الصحيح ، فهي عرضة لأن تتطور من زمان إلى زمان ومن بيئة إلى أخرى ، لأنها تابعة لمصدرها في جميع أحواله متناسبة مع أوضاعه ، تتلون تبعاً له في رقيته وانحطاطه مادياً وفكرياً .

وأوروبا اليوم - وهي في أوج تطورها وراقيتها المادي وتقديسها العلمي والعقلي - لا تستسيغ الذل والعبودية لمثل تلك المعبودات التقليدية ، وهي في الوقت نفسه بعيدة عن دين الله الصحيح ، لأنها لم تعرفه أصلاً ثم لم تلبث أن قطعت صلتها بدين الكنيسة المحرف ، واستهترت بكل التعاليم والأخلاق والمبادئ التي كانت تخضع لها وتلتزم بها أيام سلطة الكنيسة ورجال الدين كرد فعل معاكس لطغيان الكنيسة ، فكان لا بد لها من معبودات جديدة وأوثان حديثة وطقوس وشعائر تناسب تقدمها وراقيتها المادي والعقلي ، تعبدها مع الله أو من دونه بالذل والطاعة والاتباع والخضوع والتقديس وتستمد منها القوة وتستلهمها في التشريعات والقوانين وسائر متطلبات الحياة ولكن شريطة أن لا يكون لها كنائس ولا بيع ولا رهبان ولا بابوات وليس لها كذلك طقوس ولا شعائر ولا قرابين ، ولا أخلاق ، تريد دينا جديداً يوافق هواها ويشبع غرائزها وشهواتها .

فابتدعت لها أديانا بصورة أنظمة سياسية واقتصادية واجتماعية وعلمية ونظمت شؤونها بناءً عليها ، والتزمت بكل ما توحى به تلك الأنظمة والأفكار والمذاهب المادية التي لا صلة للإله بها وآثرت على العبودية لله وحده .

٣ - وفي هذا الفصل سأحدث عن عدد من هذه الأنظمة والمذاهب التي تمثل الوثنية الحديثة ، مع بيان موقف الإسلام منها .

٤ - وما تجدر الإشارة إليه أن هذه الأنظمة والمذاهب هي أديان وعقائد تنافس دين الله .

هي أديان بكل ما تعنيه كلمة (الدين) (١) من القهر والغلبة والسلطة والطاعة والنظام . . . إلخ ، هي نظام كامل للحياة بجميع مجالاتها : من عقائد وأفكار وأخلاق وعلوم وسياسة واقتصاد . . . إلخ ، هي تصور شامل للإنسان والكون والحياة بل وللإله المعبود ، ولكنه نظام وثني وتصور مادي بحت ، لا يؤمن إلا بالمادة والنفعة الحسية المجردة عن كل المعاني الروحية والإلهية .

هي أديان وفيها آلهة ومعبودات وطواغيت وأوثان تعبد من دون الله أو معه على أقل تقدير ، بكل معاني العبادة (٢) من الطاعة والاتباع والتأله . . . إلخ ، لها طقوسها وشعائرها الخاصة ، وتشريعاتها وقوانينها وفلسفتها الخاصة كذلك .

فالقوم والوطن والإنسان ، والعقل والطبيعة والعلم . . . إلخ كلها ما يعبد في ظل هذه النظم الوثنية .

والتشريع فيها هو من حق الإنسان ، سواءً أكان فرداً أم هيئة خاصة أم رأياً عاماً تفرضه غالبية الناس والأصراف السائدة والعادات الباطلة .

وكل صورة منها تشكل ديناً متكاملاً قائماً بذاته لا يدع فرصة لتدخل غيره في شأن من شؤونه ، وما الصراع بين الشيوعية والديمقراطية إلا دليل على هذا ، ليس هذا فحسب بل لا يسمح حتى لدين الله في شيء من ذلك ، ولا يسمح للمؤمنين به والمستعبدين له أن يختاروا غيره أو يعتنقوا سواه ، أو يخرجوا عن حدوده ومبادئه .

هي أديان وليست مجرد نظم سياسية أو اقتصادية أو علمية أو اتجاهات قومية ووطنية كما يظن ذلك الكثير من الناس خصوصاً في العالم الإسلامي حتى يتبادر لذهن البعض منهم أنه من الممكن استيرادها أو اعتناقها من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو العقلية أو أي ناحية أخرى من غير عقيدتها وفلسفتها التي تقوم عليها ، ولا يرى في ذلك تعارضاً مع الدين الإسلامي .

(١) انظر كتاب المصطلحات الأربعة في القرآن للمودودي ص ١٣٦ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٢٢ .

وفي رأبي أن هذا التصور ناشئ من عدم فهم حقيقة هذه المذاهب الوثنية من جهة ، والجهل بحقيقة الإسلام من جهة أخرى .
ولذا فإنه لا يجوز بحال من الأحوال اعتناقها والدعوة إليها وإدخالها في ديار الإسلام لأنها تتعارض جذريا مع الإسلام الذي يقوم على العبودية لله تعالى بينما هي تقوم على عبادة ما سواه .
ويقول الندوي ^{حفظه الله} : (وهناك أديان بغير اسم الأديان لا تقل في نفوذها وسلطانها ، ولا تقل في جورها وعدوانها وعشها بمقول أتباعها وفي عجائبها عن الأديان القديمة ، وهي النظم السياسية والنظريات الاقتصادية التي يروى من بها الناس كدين ورسالة ، كالجنسية والوطنية والديمقراطية والاشتراكية والديكتاتورية والشيوعية ، وهي أقل مسامحة لمن لا يدين بها وأشد قوة على منافستها ، وأضيق عطفًا من الأديان الجاهلية ، والاضطهاد السياسي اليوم أفظح من الاضطهاد الديني في القرون المظلمة ، فإذا تغلب حزب من الأحزاب الوطنية أو ساد مبدأ من المبادئ السياسية ، أو انتصر فريق على فريق في الانتخابات ، سد في وجهه منافسه الأبواب وعدبه أشد عذاب) (١) .
ومن هنا فيجب أن لا نخدعنا بعض مظاهر الحرية ^(٢) الدينية التي تتظاهر بها بعض هذه الأنظمة الوثنية ، وأنها لا تلغى الدين السماوي ولا تنكره إنكارًا تامًا ، فإن تنكرها لشريعة الله وإصرارها على عدم الالتزام بها والخضوع لها أضرب بدين الله وأفسد للفطرة البشرية من إنكار الدين ومعارفته وجها لوجه ، الذي يورث في كثير من الأوقات إلى تيقظ الفطرة وزيادة تسكها بالدين وبحشها عنه .

٥ - وما تجدر الإشارة إليه أيضا أنه في كل الوثنيات توجد مجموعة من الطواغيت من شياطين الإنس ، وأصحاب الأهواء الذين يسوءهم أن تكون العبودية لله وحده ، لأنهم يطمعون في هذه العبودية لأنفسهم من دون الله ، وطالما أن الناس على صلة بدين الله عابدين له وحده دون شريك فإنه لا مدخل لهؤلاء الأشخاص من شأن الآفاق وأصحاب المطامع ، ولا تأثير

(١) ماذا خسر العالم ص ٢٦٩ .

(٢) الشيوحية هي الوحيدة من بين صور الوثنية الحديثة التي تنكر الدين

وتدعو إلى الإلحاد بصراحة .

لهم على عقول الناس وأرواحهم ، لهذا فهم دائما يسعون جاهدين ليوجِّهوا الناس نحو معبودات باطلة ويحسِّنون لهم عبوديتها ويسرِّرونها لهم بمختلف العبررات فيقيمون لهم هذه الآلهة وينصبون لهم تلك الشباك ، ويدفعونهم نحوها بالترغيب تارة وبالترهيب تارة أخرى أو بهما جميعا ، حتى يقعوا في شركها ، ويخضعوا لها ويرضوا بها ويطمئنوا إليها وبألفوها من دون الله ، وتلا عليهم حياتهم ، ويربطوا مصيرهم بها ويلقوا آمالهم عليها ويضعسي عليهم بعد ذلك أن يتخلصوا منها أو ينفكوا عن عبادتها .^(١)

فإذا وصل الناس إلى هذه الدرجة من الرق والعبودية وأسروا أنفسهم لهذه المعبودات الباطلة ، كشف الطواغيت عن هويتهم وأفصحوا عن حقيقتهم و مرادهم ، وطلبوا من الناس أن يعبدوهم كما عبدوا غيرهم لا سببا وأنهم هم المالكون المسيطرون ويدهم مقاليد الأمور ومفاتيح خزائن الأرض ، وأنهم يضررون وينفعون ! ويعطون ويحرمون ، هنا يستسلم لهم عباد الأوثان ويخضعون لا إرادتهم ويطيعونهم في كل ما يشرعون لهم من أحكام ولوائح وما يفرضون عليهم من سلوك وأخلاق وأفكار باطلة .

والطواغيت في هذه المرة جعلوا المال إليها والسلطة إليها والشعب بمجموعه ورأيه العام إليها ، والفرد إليها ، والعلم ، والعقل والهوى والشهوات ، والوطن والقوم والحرب . . . كلها آلهة تعبد من دون الله ، بل جعلوا كل معنى من المعاني وكل محسوس من المحسوسات ، وكل ما في الكون معبودا للناس ، وحالوا بينهم وبين إفرادهم لله بالعبادة ، والتزاسم بشريته وخضوعهم له وطاعتهم إياه .

٦ - وأحب أن ألفت الانتباه إلى أن هذه الصور الوثنية التي اخترتها في هذا الفصل ليست هي كل مظاهر الوثنية المنتشرة في شرق الأرض وغربها ، وإنما هي نماذج مختارة لا شمر مظاهر الانحراف عن دين الله في حياة البشرية اليوم ، يمكن أن يقاس عليها سائرها ، هذا من جهة .

ومن جهة أخرى ، فإن وصفها بالحدائثة لا يعني أبدا كونها بدعا في تاريخ الوثنية وأن البشرية لم تعرفها فيما مضى من فترات الضلال والانحراف عن طاعة الله والتزام شريعته ، كل هذا ليس شرطا وذلك لأن كثيرا منها قد

(١) انظر نظرية الإسلام وهدية في السياسة والقانون والدستور - المودودي

عرف في الجاهليات السابقة ، كالديمقراطية (١) والاشتراكية (٢) ، لا سبها وإنما عرفنا أن الوثنية الأوروبية الحديثة هي امتداد للجذور الوثنية الرومانية والإغريقية . وهذا فليس هناك جدّة وحدائث بمعنى الحدائث والجدّة بمقدار ماهي تكرار لحقيقة واحدة ، ومسألة جوهرية محددة ، وهي العبودية لغير الله والتي اتخذت صورا براقعة خادعة متمقة مع طبيعة العصر الحديث .

٧ - ومن هنا فإن جميع الصور الوثنية الحديثة التي سيرد ذكرها في هذا الفصل تشكّل فيما بينها جوهرًا واحدًا وتقوم على أصل واحد فاسد ، لا يتفق مع الإسلام هو عبادة غير الله تعالى ، أو صرف العبادة - بمعناها الواسع الشامل - لمعبودات وأنداد وطواغيت وشركاء ، وعبادتها مع الله تعالى - وعندها يكون الشرك - أو من دونه وهنا يكون الكفر والإلحاد ، كما هو الحال في الشيوعية . فجميع مظاهر الوثنية الحديثة تلتقي فيما بينها على هذا الأساس ولا تفترق إلا في أمور جزئية وقضايا شكلية ومسائل فرعية ، اقتضتها طبيعة هذه الصور المرتبطة بالزمان والمكان ، لا قيمة لها في حقيقة الأمر لأنها مسألة واحدة مكررة هي عبادة الهوى والشهوة أو الشيطان أو الطاغوت . (إن شكل الأصنام الوثنية فقط هو الذي تغيّر ، كما أن الشعائر هي التي تعقدت ، واتخذت لها عنوانات جديدة ، أما طبيعة الشرك وحقيقته فهي القائمة من وراء الأشكال والشعائر الصغيرة وهذا ما لا ينبغي أن يخدعنا عن الحقيقة) (٣) .

و (إننا نواجه في هذا العصر شرا متعلا في الشيوعية والعلمانية والقومية والرأسمالية إنه شر واحد . . . وأن اختلاف أسما بعض المذاهب لا يعني اختلافها في تحديد الغاية وراء كل ما تسمى إليه) (٤) . نعم لقد (تغيّرت ولا شك بعض مظاهر العبادة فلم يعد هناك تلك " الإناث " (٥) التي كان العرب في شركهم يعبدونها ولكن عبادة الشيطان

(١) في أثينا واسبرطة . أنظر بحث الديمقراطية .

(٢) مبدأ مزدك المشهور . أنظر بحث الشيوعية .

(٣) في ظلال القرآن ج ٣ ص ١٤١٣ .

(٤) نقد أصول الشيوعية / صالح اللحيدان / ص ٦-٧ / ط ١ / مكتبة الحرمين الرياض .

(٥) قال تعالى ﴿ إِنَّ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ الْإِنثَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴾ .

ذاتها لم تتغير وحلت محل الإناث القديمة أوثان أخرى : الدولة والزعماء
والمذهب والحرب والعلم والتقدم والإنتاج والحضارة والتطور والمجتمع والوطن
والقومية والإنسانية والعقلانية و " المودة " والجنس والحرية الشخصية . . .
عشرات من الإناث الجديدة غير تلك الإناث الساذجة البسيطة
التي كان يعبدها العرب في الجاهلية تضفي عليها القديسات الزائفة وتعبد
من دون الله ويطاع أمرها في مخالفة الله وفي تغيير خلق الله . . . ما تغيرت
إلا مظاهر العبادة . . . تطورت . . . ولكن الجوهر لم يتغير . . . إنه عبادة
(الشيطان) . (١)

إن جميع الصور الوثنية على اختلافها وتمدداتها لا تعرف الله تعالى
معرفة صحيحة ولا تؤمن بوجوده الإيمان الكامل ، وأن مجرد كونها تعرف الله
ولا تنكر وجوده وتقرُّه بالربوبية لا ينفي عنها صفة الوثنية لأنها لم تلتزم
بمضمون هذه المعرفة ولم تحقق التوحيد المطلوب شأنها في ذلك شأن
الوثنية المصرية التي كانت تقرُّ بكل ذلك ، ولكن الإسلام لم يقربها ولم يقبل منها
تلك المعرفة الناقصة ، بل لم يجعلها شيئاً ولم يقم لها وزناً لأن العقيدة بهذه
الصورة لا قيمة لها إن أن العقيدة ليست مجرد وجدان داخل الضمير ، وليست
قولاً باللسان فقط ، إنما بالإضافة لذلك إنسان كامل وانقياد تام لحكم الله
وطاعته والتلقي عنه في كل شأن من شؤون الحياة وإفراجه في كل الشعائر
وطقوس العبادة ، وهذا ما لم يتحقق في أي نظام من الأنظمة المعاصرة أو مذهب
من المذاهب الحديثة أو في مجال من مجالات الحياة في حضارة القرن العشرين
الميلادي التي فصت علاقتها بدين الله .

نهى جميعها لا تفرد الله بالألوهية ، أو بالأحرى إنها لا تعبد الله
بل تعبد معه أو من دونه آلهة متعددة ، وتتقرب إليها من دون الله .
وقد يحتج البعض لما يرى من بعض مظاهر الحرية الدينية في بعض
هذه الصور ، لأنه يرى الكنائس في أوروبا تفتح أبوابها يوم الأحد لتستقبل
المصلين ، ويرى إقبال الناس على عبادة الله تعالى بالصلاة والدعاء والذل
والخشوع والابتهاال . . . الخ .

ويغيب عن ذهنه في الوقت نفسه أن عبادة الله ليست محصورة في هذه الأمور التعبدية وإنما هي تتسع لتشمل كل تصرفات الإنسان صغيرها وكبيرها ، تتسع لتشمل حياته كلها وتسخرها في طاعة الله ، وتزيل كل معبود سواه .

ومن هنا فإن هذه الأنظمة والاتجاهات والمذاهب عملت على حصر العبادة في مجال ضيق جدا من حياة الإنسان ، وجعلت الدين علاقة شخصية وصفقة فردية يعقدها الإنسان إذا هو أراد ذلك مع الله تعالى ، في حين أنها استأثرت لنفسها بجانب كبير ومجال هام من مجالات العبادة وهو إدارة شؤون الحياة المختلفة بعيدا عن دين الله ، وهذا ما لا يستقيم في دين الله ، فعبادة الله تعالى بالشعائر والطقوس ومعرفته والإقرار بوجوده وربوبيته هذا كله يستلزم أن يكون هو الحاكم المطاع والمشرع الوحيد والمنظم لجميع مجالات الحياة : في السياسة والاقتصاد والاجتماع . . الخ ، والإخلال بأي أمر من هذه الأمور يعتبر شركا ووثنية ومفارقة لدين الله .

فكما أن الله هو المعبود في الصلاة والصوم والقرابين والنذور والأدعية . . . الخ وليس المعبود هو الفرد أو القوم أو الوطن أو العقل أو الدولة أو الحزب . . . الخ فيجب كذلك أن يكون الله هو وحده المشرع ، ووحده المطاع وشرعه ومنهجه هو المتبع ، فإذا كان مصدر التشريع غير الله تعالى كأن يكون هو الحاكم أو الشعب أو طبقة العمال فيه أو فئة من خبراء القانون أو كان العرف أو الرأي العام أو الهوى والشهوة أو العقل أو أي شيء آخر غير الله كان مصدرا للحكم والتشريع وله الطاعة والاتباع والتحليل والتحريم فهو الشرك والوثنية .

فالإنسان بعلمه وفنه وعسقله وعاداته وأعرافه وأفراحه وأحزانه وجميع شؤون حياته يجب أن يكون خاضعا لله ، عابدا له وحده ومطبقا لحكمه لا لحكم سواه ، وإلا فهو في عبودية لغير الله .

٨ - والآن لعله أتضح لنا أن العبودية لله تعالى إنما تتحقق إذا

توفرت ثلاثة شروط رئيسية متلازمة لا ينفك بعضها عن بعض :

الأول : وهو الإيمان بالله تعالى والإقرار له بالوحدانية .

والثاني : وهو إفراجه سبحانه وتعالى والتوجه إليه بجميع وجوه

العبادة من صلاة وصيام . . ودعاء واستغاثة وشفاعة . . وقرابين ونذور . .

وحب وولا . . . الخ وهو ما يعرف بتوحيد (الإرادة والقصد) .

والثالث : إفراده سبحانه وتعالى بالحكم والتشريع والتحليل والتحريم

والأمر والنهي في جميع شؤون الحياة وهو ما يعرف (بالطاعة والاتباع) .
فإذا تحققت هذه الشروط المتلازمة معا في وقت واحد ، تحققت عندها
العبودية الكاملة لله تعالى ، وبكلمة أخرى تحقق التوحيد وانتفى نقيضه الشرك ،
وإذا حصل أدنى خلل أو تفریط في أحدها انتفى التوحيد جزئيا أو كليا ، وكان
الشرك والوثنية أو الكفر والإلحاد .

٩ - وبهذا فمن خلال هذه الشروط الثلاثة سنحكم على جميع النظم
والمذاهب والأفكار والعبادى والقوانين والعادات والأعراف الاجتماعية . . . الخ
التي سيرد ذكرها في هذا الفصل ، وبهذا المقياس نفسه يمكننا أن نحكم على
كل شأن من شؤون الحياة أو مجال من مجالاتها وعلى كل مجتمع من المجتمعات
، فنرى مدى قربها أو بعدة من دين الله .

فإذا كان الاعتقاد أو الإيمان بالله وحده ، وكان الله وحده هو المعبود
لا شريك له وكان هو المشرع لا مشرع سواه ، عندها تنتفى صفة الشرك والوثنية
وتزول آثارها ومظاهرها ويتحقق الإيمان الكامل وتكون الحياة على دين الله .
وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم
وصاكم به لعلكم تتقون * (١)

والآن بعد هذا التمهيد انتقل لذكر (٢) مجموعة مختارة من
المذاهب والنظم والأفكار والآراء السائدة في هذا العصر ، لنرى مدى تحقق
الشروط السابقة أو بعضها فيها ، ثم لنحكم عليها بالحكم الذى تستحقه ، أهى
قريبة من دين الله أم أنها إلى الوثنية أقرب ، وإذا كانت وثنية فهل لها
مدخل إلى بلاد الإسلام ، أو محل في قلوب المسلمين ؟

(١) سورة الأنعام آية ١٥٣ .

(٢) ليس هدنى هنا تفصيل هذه المذاهب ولكن مجرد ذكر نبذة أو فكرة

موجزة عنها ، فالهدف بيان وثنتها وبعدها عن دين الله ، وهناك

رسائل جامعية مكتوبة في أكثرها بالتفصيل يمكن الرجوع إليها .

١ - الديمقراطية :

أ - ماهي الديمقراطية (١) :

الديمقراطية : كلمة يونانية مركبة من لفظتين يونانيتين (ديموس) ومعناها الشعب ، و (كراتس) الحكم أو السلطة .
فالمعنى الحرفي لها هو حكم الشعب . أو سلطة الشعب ، أو نظام الحكم الذي تكون فيه السيادة والسلطة للشعب .

(وتطلق على نظام الحكم الذي يكون الشعب فيه رقيباً على أعمال الحكومة بواسطة المجالس النيابية ، ويكون لنواب الأمة سلطة إصدار القوانين) .
ويرى العقاد أنها تعني نظام الحكم الذي لا ينفرد به فرد واحد ولا طبقة واحدة .^(٢)

وظاهر المعنى المفهوم من تعريف الديمقراطية يشير إلى أن الشعب بكامله هو صاحب السلطة وهو الحاكم والمنفذ والمشرع ، يحكم نفسه بنفسه ويسنّ قوانينه ويضع تشريعاته التي تناسبه وتتوافق هواه .^(٤)

ويلاحظ أن الديمقراطية بهذا المفهوم أمر يتعذر تطبيقه ، ولم يوجد على مرّ التاريخ إلا في صور محدودة وضيقة ، فقد ذكر أن اليونانيين حاولوا تطبيقه في مدينتي أثينا واسبرطة^(٥) ، وكانت فكرة غير موقفة ولا ناجحة ، ولهذا فقد اتفق الناس على أن ينتخبوا من بينهم مجموعة من الأفراد تسند إليهم السلطة ، يمثلون الشعب ويتقيدون بأرائه . ويضعون القوانين تشيئاً مع إرادة الشعب . وعرف أفراد هذه المجموعة بالنواب والممثلين ، ولم يلبث هؤلاء أن استبدوا بالحكم والسلطة - إلى حد ما - وصاروا آلهة يشرعون ما يشاؤون مسنّ القوانين لمصلحتهم في أغلب الأوقات ، وأصبحت سلطة الشعب عليهم ضعيفة ولا يسمعه إلا أن يعبيدهم من دون الله بالسمع والطاعة والاتباع .^(٦)

(١) انظر في ذلك : الموسوعة العربية الميسرة ص ٨٣٧ ، وقاموس إلياس

العصرى ص ١٩٢ ، والديمقراطية في الإسلام - عباس محمود العقاد

ص ١٢ ، ومذاهب فكرية ص ١٧٨ .

(٢) مذاهب فكرة ص ١٧٨ .

(٣) الديمقراطية في الإسلام ص ١٢-١٣ .

(٤) انظر نظرية الإسلام وهدى للمودودي / ص ٣٣-٣٤ .

(٥) انظر الديمقراطية في الإسلام ص ١٤ .

(٦) انظر نظرية الإسلام وهدى - المودودي ص ٣٧ .

والديمقراطية الأوروبية المعاصرة كانت هي البديل السياسي لنظام الحكم الإقطاعي المستبد الذي استمرّ قرابة ألف عام وكانت الكنيسة تدعمه وتسانده ، فكان الناس جميعاً أرقاً مستعبدين في ظل هذا النظام الاستبدادي الذي لا يقيم وزناً للإنسان ولا يعترف له بنوع من الحرية .

ولما قُدِّرَ لأوروبا أن تتخلص من سلطة الكنيسة ونظام الإقطاع بعد عصر النهضة ، وارتدَّت - كما سبق - إلى وثنية الإغريق والرومان عن لها أن تبحث عن نظام سياسي جديد تجد فيه طعم الحرية ، فأثرت تطبيق الفكرة اليونانية التي اختفت زمناً طويلاً ، فأحييتها من جديد .

وقد كانت فرصة سانحة أمام أوروبا - قبل عودتها للوثنية - أن تسلك طريق الإسلام وتتخذه بدلاً عن نظام الإقطاع وطاغوت الكنيسة ، غير أنها - ولا سبباً معينة - لجأت إلى الوثنية واختارت النظام الديمقراطي لتحقيق ما كانت تفتقر إليه من الحقوق والضمانات والحريات ، وبالرغم من أنها حققت شيئاً من ذلك إلا أنها لم تكن موفقة إذ وقفت من دين الله موقفاً عدائياً ، فقد وقعت في قبضة طبقة جديدة لا تقل طغياناً وظلماً واستبداداً عن رجال الإقطاع ورجال الكنيسة ، تلك هي الطبقة الرأسمالية التي صارت هي صاحبة السلطة والتشريع والتنفيذ ، وذلك بتوجيه الرأي العام نحو الأهداف التي تريدها ، فوقعت أوروبا من جديد في نظام استبدادي متسلط .

وأما ما نسمع به من الحقوق والضمانات والحريات التي تتمتع بها أوروبا في أيامنا هذه فإنها لم تنلها إلا بعد تضحيات ومعارك واضطرابات كثيرة أنهكت الشعب زمناً طويلاً حتى تنازلت الرأسمالية الحاكمة له عن بعضها لا محبة للشعب ولا خوفاً منه ولكن لخوفها من انتشار الفكرة الشيوعية المفيرة لها وبهذا فالديمقراطية ليس من طبيعتها أن تمنح الشعب هذه الأمان التي يتفنىس^(١) بها المخدوعون دائماً .

ب - سببها :^(٢)

وأما بالنسبة لأهم المبادئ التي تقوم عليها الديمقراطية ، وتنادى

(١) انظر مذاهب فكرية ص ٢١٨ .

(٢) انظر الديمقراطية وموقف الإسلام منها - رسالة ماجستير للطالب محمد

نور مصطفى الرهوان ، الفصل الثاني ص ٣٩ وما بعدها .

ومذاهب فكرية معاصرة ص ١٨١ - ٢٢٠ .

بها وتسعى لتطبيقها ، فهي :

- ١ - السيادة والسلطة بيد الشعب يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد .
 - ٢ - الحكم للأكثرية أو الأغلبية ، فعند التعارض يرجح رأى الأكثرية .
 - ٣ - تقديس الفرد وتغليب مصلحته على مصلحة الجماعة بإعطاء الحرية المطلقة من غير أن تتدخل الدولة في شؤونه .
 - ٤ - كفالة الحقوق والضمانات والحريات لجميع الأفراد .
- وسأكتفي بالحديث عن مبدأ واحد من مبادئ الديمقراطية وهو سيادة الشعب وأحقته في التشريع وإصدار القوانين ، وهذا كاف في الحكم على الديمقراطية بأنها نظام وثني خالص يقوم على الشرك في الطاعة والاتباع لغير الله تعالى .

سيادة الشعب وسلطته التشريعية :

يعدُّ مبدأ سيادة الشعب وسلطته التشريعية التعبير المجسّد والمميز لما تعنيه كلمة الديمقراطية وما تتميز به عن غيرها من الأنظمة السياسية ، وهو يعني أن الشعب هو صاحب السلطة وسيد الموقف في وضع القوانين والتشريعات أو بكلمة أخرى هو مصدر التشريع وليس هناك مصدر آخر تستمدُّ الدولة منه قوانينها ودساتيرها .

فالشعب في منظار الديمقراطية هو الإله العليم الخبير الذي من حقه أن يضع القوانين والتشريعات التي تحكم الحياة وتضبط أمورها . سبق القول بأن الشعب بمجموعه العام لا يستطيع أن يقوم بهذا الدور ، بل يستحيل ذلك عمليا ، فاختار فئة تمثله وتقوم بهذه المهمة نيابة عنه بشرط أن تكون خاضعة له منقادة لمطالبه .

وبغض النظر عن حقيقة هذه الفئة النائية عن الشعب ، وبغض النظر عن كون الشعب اختارها من وحي نفسه ، أو من وحي إلهام خفي ، وبغض النظر كذلك عن مدى التزام هذه الفئة برأى الشعب وخضوعها له ، وبغض النظر عن أمور كثيرة من هذا الباب تعتبر من المآخذ على النظام الديمقراطي الغربي يبقى هناك أمر واحد مهم وخطير في نظرنا وهو : هل الشعب بمجموعه أو نوابه ومثليه أو أى مخلوق من البشر يملك حق التشريع ؟

هذا هو المحك الذي من خلاله سنحكم على الديمقراطية بأنها نظام

وثني يستعبد الناس من خلاله ويخضعون لغير الله .

إن الديمقراطية - على الرغم من دعوى إيمانها بالله - تدعى بأن التشريع ووضع القوانين هو من حق الشعب ، والشعب فوض حقه للنواب والممثلين الذين اختارهم ليقوموا بذلك عنه ، وهي تصر على ذلك وتمسك به ولا تتنازل عنه ، بل تنكر أن يكون الله هو المشرع والحاكم فلا تخضع له ولا تنقاد لأحكامه ، وبالتالي فهي تنازع في العبودية له وحده ، فنعبد معه أو من دونه آلهة أخرى لا تستحق العبادة وهي بهذا تشرك في الألوهية .

فالنظم الديمقراطية تتظاهر بالإيمان وعدم محاربة الدين ، وتنص على إيمانها بالله وتجعله شعارها على العملة المتداولة ، ولكن ما هي أهمية هذا الإيمان في حياة الديمقراطية ؟ هل التزمت بعبادة الله وحده ، أم عبدت معه أو من دونه عشرات من الآلهة ؟ إنها - إلى جانب عبادتها للنواب والممثلين الذين أعطتهم حق التشريع واتخذتهم أربابا من دون الله - تعبد كذلك آلهة أخرى كثيرة كالمال ، والوطن ، والعقل والعلم والآلة ، والهوى والشهوات . . . إلخ وكل ذلك يوه كد أن الديمقراطية لا تريد أن تلتزم بمضمون إيمانها في مجال السياسة والحكم وتعتبر الدين مسألة شخصية ، وعزلته عن واقع الناس العملي ، ووفرت لهم كل ما يصددهم عنه ويبمدهم عن التفكير فيه والاقتراب منه ، إذ أحلت لهم كل ما حرّم الله أو نهى عنه ، فأحلت لهم الربا بقانون ، وأباحت الزنا بدستور ، وأقرت جميع المنكرات بنظام وضعت لذلك ، والناس راضون ومطمعون ، بالرغم من المفساد الظاهرة التي ترتبت على تلك التشريعات والقوانين الباطلة فشملت جميع وجوه المجتمع .

فإن الديمقراطية بوضوح لا ترضى أن تتنازل عن السلطة التشريعية فتردها إلى مستحقها وهو الله سبحانه وتعالى ، وتخضع لحكمه وتنقاد له ، ولكنها اتخذت من دونه أربابا شرعوا لها ما لم يأذن به الله وما لم ينزل به سلطانا ، غير أن هؤلاء الأرباب في هذه المرة ليسوا من الأرباب والرهبان ، ولكنهم من النواب والممثلين الرأسماليين والقادة السياسيين المحترفين في فن خداع الشعوب واستعباد الجماهير .

فإذا تختلفت الديمقراطية عن الوثنيات السابقة وشرك أهل الكتاب كما قال الله تعالى عنهم : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ﴾ (١) *

د - موقف الإسلام من سيادة الشعب وسلطته المطلقة في التشريع التي تقوم عليها الديمقراطية .

من الأصول الاحتقادية ، والقواعد الإيمانية البدهية في الإسلام أن الله سبحانه وتعالى اختصَّ بالتشريع والحكم من دون الناس ، فهو المتفرد بذلك لا يشاركه فيه أحد ، يحكم بما يشاء ، ويقرر ما يريد بيده مقاليد الأمور وله الهيمنة المطلقة والسيطرة التامة على كل شيء لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . وقد جاء ذلك مبيناً في القرآن الكريم في أكثر من آية . قال تعالى :

* إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم * (١)

وقال : * له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون * (٢)

وقال كذلك : * لا يسأل عما يفعل وهم يسألون * (٣)

فالإيمان بذلك أساس من أسس التوحيد ، ولا يجوز لأحد من الناس كيفما كان أن يدعى لنفسه هذا الحق الذي اختصَّ الله به ، كما أنه لا يجوز أن يذعن الناس ويخضعوا لأحد سوى الله تبارك وتعالى إذا هو تطاول على مقام الألوهية وادَّعى أحقية التشريع والتقنين فأحلَّ ما حرم الله ، وحرَّم ما أحله تبارك وتعالى .

يقول المودودي^{رحمه الله} : (هذه العقيدة هي روح ذلك النظام الذي أسس بنيانه الأنبياء عليهم السلام ومناط أمره وقطبه الذي تدور رحاه حوله وهذا هو الأساس الذي ارتكزت عليه دعامة النظرية السياسية في الإسلام أن تنزع جميع سلطات الأمر والتشريع من أيدي البشر منفردين ومجتمعين ولا يوهن ذن لأحد منهم أن ينفذ أمره في بشر مثله فيطيعوه ، أو ليسن قانوناً لهم فينقادوا له ويتبعوه فإن ذلك أمر مختص بالله وحده لا يشارك فيه أحد غيره) . (٦)

(١) سورة يوسف آية ٤٠ .

(٢) سورة القصص آية ٨٠ .

(٣) سورة الأنبياء آية ٢٣ .

(٤) نظرية الإسلام وهدى للمودودي ص ٣٠ - ٣١ .

وأما بخصوص ما جاء به الرسل ووجوب طاعتهم ، فإنَّ الأمر ليس من هذا الباب ، فرسل الله تعالى جميعاً لم يأتوا بشيء من عند أنفسهم ولا قالوا بأنهم مشرعون من تلقاء أهوائهم ، وإنما هم مهتفون عن الله أحكامه وشرائعه ليس غير .

قال تعالى : * قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يوقنون * (١)

وقال سبحانه : * وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى * (٢)

وأما طاعتهم ووجوب اتباعهم ، فإنما هي تبع لطاعة الله واتباع أمره حيث قال سبحانه : * وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا * (٣) وقوله سبحانه : * وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله * (٤)

وقوله تبارك وتعالى : * ما كان لبشر أن يوحى تبه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون * (٥)

وهكذا فالآيات القرآنية كلها تدلُّ على أن الأنبياء لم يتناولوا على خصائص الألوهية ولم يأمرُوا إلا بما أوحى إليهم من عند الله .

وأما طاعة أولي الأمر التي أمرنا الله بها في قوله * أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم * (٦) فهي لا شك طاعة مقيدة ومشروطة بأن تكون في حدود ما شرع الله ، ولا تتجاوزها ، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق جل و علا ، فطاعتهم واجبة ما داموا ملتزمين بشرع الله وحدوده وأما إذا تجاوزوا هذا الحد فأمرُوا بالمنكر والمعصية فلا طاعة لهم .

ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : (السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وأوكره إلا أن يوحى أمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة) (٧)

(١) سورة الأعراف آية ٢٠٣ .

(٢) سورة النجم آية ٣-٤ .

(٣) سورة الحشر آية ٧ .

(٤) سورة النساء آية ٦٤ .

(٥) سورة آل عمران آية ٧٩ .

(٦) سورة النساء آية ٥٩ .

(٧) رواه البخاري في الأحكام ٤ والجهاد ١٠٨ ، ومسلم في الإمارة ٣٩

وأبو داود في الجهاد ٨٧ ، والترمذي في الجهاد ٢٩ ، وابن ماجه

في الجهاد ٤٠ وأحمد ج ٢ ص ١٧ .

وفهم السلف الصالح هذه الحقيقة فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه عند تسلمه الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم (أطيعوني ما أطيعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم . . .) (١) . وهكذا فإن الحاكمية المطلقة والسيادة العليا في التشريع التي لا تحدّها سيادة ولا تتناول إليها سيادة ، إنما هي لله تعالى خالق الكون والمدبّر له العليم بما فيه والخبير بشؤونه .

وإذا تقرر هذا واتضح ، تبين لنا بوضوح موقف الإسلام من الديمقراطية التي تجعل السيادة المطلقة في التشريع للشعب أو لفئة تنوب عنه ، فهي لا شك نظام وثني وشريعة من شرائع الجاهلية التي ذمها الله تبارك وتعالى وبكّنت الذين يفضلونها على حكم الله ورسوله فقال تعالى ﴿ أنحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾ (٢) .

وهي كذلك عبودية لغير الله تعالى كما وضحتها حديث عدى بن حاتم رضي الله عنه عندما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة وسمعه يتلو قول الله تبارك وتعالى : ﴿ اتخذوا أبقارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله . . . ﴾ (٣) .

قال عدى : إنهم لم يعبدوهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم (٤) . وهذا حديث صريح في بابه يقطع بأن التحليل والتحريم من حق الله تعالى لا يشاركه في ذلك أحد ، وأن أبقار اليهود ورهبان النصارى قد أحلوا وحرموا حسب أهوائهم وشهواتهم واتبعهم الناس فسمعوا لهم وأطاعوهم ، فحكم الله ورسوله بأنهم عبدوهم من دون الله في ذلك . ولا يخفى على أحد أن الديمقراطية لا تقوم إلا على هذا المبدأ فهي تستعبد الناس لشريعة من البشر (٥) يحلون ويحرمون ويضعون الأحكام والقوانين

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٤ ص ٦٦١ .

(٢) سورة المائدة آية ٥٠ .

(٣) سورة التوبة آية ٣١ .

(٤) انظر تفسير ابن كثير ج٢ ص ٣٤٨ طبعة دار الفكر .

(٥) بغض النظر عن حقيقة هذه الفئة فأغلبهم من اليهود .

على غير هدى من الله .

ومن هنا فإنه لا يجوز للمسلم أن يرضى بهذا النوع من الحكم ولا تصح الدعوة إليه بين المسلمين ، وأنه يجب على كل مسلم أن يكفر بكل سيادة مطلقة لغير الله تعالى ، ولا يكون إيمانه صحيحاً إذا لم يحقق ذلك ويجعل الحاكمية لله وحده .

قال تعالى ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليهم وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكوا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً ﴾ (١)

فكلُّ شرع غير شرع الله ، وكلُّ حكم غير حكم الله ، وكلُّ قول غير قول الله وكلُّ نظام يخالف شرع الله فهو نظام الطواغيت وشرعية الأوثان .

وأرى أنه لا داعي لمناقشة المفاسد الاجتماعية والنتائج السيئة التي تلحق بالمجتمع إذا هو خضع لغير شريعة الله فاستمدَّ قوانينه وأنظمتها من أقوال البشر ، فإنه إذا حكم البشر بشرع من وضع أنفسهم فإنه لا محالة سيكون الظلم والاستبداد هو الطابع العام للحياة وينقسم الناس إلى سادة وعبيد ، السادة هم القلة الحاكمة المشرعة التي في يدها السلطان والتشريع ، وهي الآلهة والأوثان المعبودة من دون الله ، والعبيد هم السواد الأعظم وهم الرقيق في أثواب الأحرار لا يملكون إلا الطاعة والخضوع والاتباع .

ومن وجهة أخرى فإن لذلك آثاراً ظاهرة في الحياة فالجنون والقلق والأمراض النفسية والعصبية والانتحار وإدمان الخمر والمخدرات والجريمة وتشرد الأطفال وجنوحهم . . . إلى جانب الفردية الجامحة وتفكك الأسرة وتحلل المجتمع وقتل المشاعر الإنسانية وتحويل الإنسان إلى حيوان آلي ، تدوير الآلة نصف حياته وتدمير بقيتها الشهوات . ذلك كله حين يشرع البشر لا أنفسهم . (٢)

هذا وقد يظن البعض أن الإسلام قيد البشرية وكبلها بالقيود والملاسل فلا تستطيع حراكاً ولا تحرك ساكناً ، ولا تقدر أن تبدع ولا تنتج ، وإنما هي تسمير وفق نظام جبري مفروض عليها ليس لها فيه أدنى مساهمة ولا تملك الخروج عليه ولا مناقشته ولا تجتهد في مسألة من مسائله .

(١) سورة النساء آية ٦٠ .

(٢) انظر مذاهب فكرية ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

ولكن الحقيقة تخالف هذا الظن (١) ، وتدفع كل الأقوال والشبهات الباطلة ، فليس معنى الإقرار بالحاكمة المطلقة لله تبارك وتعالى ، وحصر السيادة التشريعية في مقام الألوهية ، أن الجهد البشري في ميدان التشريع صار مكبلا وأمر لا يؤبه به ، أو لا يجوز له أن يسهم فيه بشيء بل إن الأمر غير هذا تماما ، إنما هو من قبيل وضع الأمور في نصابها وإعطاء الحقوق لأصحابها واختصاص المناسب بما يناسبه بحيث لا يتمداه إلى ما لا يقدر عليه فيترتب على ذلك نتائج سلبية .

فالإسلام يدعو ذوي الألباب من العلماء والمجتهدين إلى التدبير والتفكير والتأمل والاجتهاد ووضع الحلول والأنظمة واستنباط الأحكام الشرعية لما يستجد من وقائع الأحوال والمسائل ، ولكن شريطة أن تتوفر أدوات الاجتهاد (٢) ، وأهمها أن يكون في حدود ما شرع الله ما جاء في الكتاب والسنة وهما المصدران الرئيسيان للتشريع ، فما دام البشر ملتزمين بهذا فلمهم أن يضعوا من الأنظمة والقوانين والتشريعات لكل ما يستجد في حياتهم ما لم يرد فيه نص صريح في مصادر الشريعة ، أما الأمور التي تولى الشرع تحديدها وفصل أحكامها فلا مدخل للبشر في تغيير أحكامها وتحويرها حسب أهوائهم وشهواتهم ، فالمواريث على سبيل المثال قد حددها الشارع فلا يجوز تغييرها ولا الغاؤها ولا الاجتهاد فيها لأنها أمور ثابتة بنص الشرع وغير قابلة للتطور في ذاتها فهي تتناسب مع جميع الأزمنة والأمكنة ، وفي المقابل - وعلى سبيل المثال كذلك - قد أمر بالشورى ولكنه لم يحدد لها صيغة معينة ولا صفة محددة فللبشر أن يجتهدوا في مثل هذا مع مراعاة أصول الشرع الحنيف وقواعده الأساسية .

وقد جاء في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه لما أراد صلى الله عليه وسلم أن يبعثه قاضيا إلى اليمن فقال له عليه الصلاة والسلام (كيف تقضي إذا عرض لك قضاء ؟) قال : أقضي بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد في كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فإن لم تجد في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : أجتهد رأيي

(١) انظر الديمقراطية وموقف الإسلام منها ص ١٣٧-١٤١ .

(٢) سيأتي زيادة بيان في العقلانية وانظر مذاهب فكرية ص ٥٢٩-٥٥٣ .

(٣) انظر معالم المنن للخطابي بحاشية سنن أبي داود ج٤ ص ٦ .

ولا آلو^(١) ، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره وقال : الحمد لله
الذى وثق رسول الله لما يرضى رسول الله^(٢) .

ليس هذا فحسب بل إن الإسلام قد جعل للحاكم إذا اجتهد وأصاب
أجرين ، وإذا أخطأ أجرًا فقال صلى الله عليه وسلم : (إذا حكم الحاكم فاجتهد
فأصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر)^(٣) .

وهكذا فإن الأمر ليس كما يظن المتشككون ويدهس المفرضون ، ولكنهم
ينازعون في أصل السيادة التشريعية يريدونها بأيديهم يقننون الحلال والحرام
ويشروعون بأنفسهم الأحكام على هواهم ورغباتهم ، أما أن يكون ذلك لله تعالى
وحده فهذا ما يقلقهم ويهتفون مضاجعهم وبحول دون استعبادهم للناس ،
كما كانت حالة سلفهم في كلِّ الجاهليات والنظم الوثنية السابقة ، والسذى
يطمعون أن يحققوه في ظل الديمقراطية باسم الشعب .

وإذا تقرر هذا فإنه لم يعد هناك مجال للقول بديمقراطية الإسلام
أو أن الإسلام ديمقراطي^(٤) وذلك لأنهما يختلفان في أصل القاعدة التشريعية ،
فالإسلام يجعلها لله تعالى وحده ، والديمقراطية تجعلها للبشر سواء أكان
الشعب بمجموعه أو الفئة المثلة له^(٥) .

*

(١) قال الخطابي : معناه : لا أقصر في الاجتهاد ، ولا أترك بلوغ الوسع

فيه . انظر معالم السنن في حاشية سنن أبي داود ج ٤ ص ١٩٠ .

(٢) رواه أبو داود في الأقضية ١١ ، وأحمد ج ٥ ص ٢٣٠ .

(٣) رواه البخاري في الاعتصام ٢١ ، ومسلم في الأقضية ١٥ وأبو داود في

الأقضية ٢ ، وابن ماجه في الاحكام ٣ ، وأحمد ج ٤ ص ١٩٨ .

(٤) سأجعل فقرة خاصة فيما بعد للقول بديمقراطية الإسلام واشتراكيته

وحرريته وعقلانيته وعلمايته . . إلخ من هذه الوثنيات الحديثة التي

يحملها البعض على الإسلام بحسن نية أحياناً وعن مكر وخبيث ودهاء

من البعض الآخر .

(٥) انظر الفكر الاسلامي الحديث من المبارك ص ٨٢ - ٨٣ .

٢ - الشيوعية :

الشيوعية هي الصورة الأخرى من صور استعباد الناس ظهرت كرد فعل معاكس لطغيان الرأسمالية في أوروبا (١) ، وذلك أن أوروبا ما أن خرجت من قبضة الإقطاع المستبد وتحررت من سلطة الكنيسة الطاغية حتى وقعت في قبضة جديدة مستبدة وسلطة أخرى طاغية تلك هي الرأسمالية التي تستمرت بلباس الديمقراطية وحكم الشعب والحرية الشخصية وتحقيق الرخاء والطمانينة ، كان هذا هو الظاهر بل لا شك أنه كان عهداً أفضل من سابقه إذا قورن به ، إلا أن الناس كانوا يساقون إلى العبودية والرق تدريجياً بلباس جديد خادع فلم ينتبهوا إلا وهم في رق واستعباد لا يقل عن رق العصور الوسطى في ظل الإقطاع والكنيسة ، فقد وجدوا أنفسهم بين يدي طبقة من الملاك والرأسماليين تتحكم في حياتهم وتسيرهم حسب هواها ، تسن لهم القوانين وتضع لهم التشريعات والأنظمة ، لأنها المالكة والحاكمة وبالتالي فهي المشرعة وهي بذلك التي تستحق أن تعبد من قبل الناس الخاضعين الطائعين .

وقد اشتد طغيان الرأسمالية الجامحة وتضجر الناس منها فانطلقوا يبحثون لهم عن نظام آخر يخلصهم هذه العبودية ، وكان اليهود (٢) - وهم الذين يحسنون اقتناص الفرص المناسبة - مستعدين لتقديم البدل المناسب فكانت الشيوعية الشرقية على يد الملحد الشهير "كارل ماركس" ، هي البدل أو الفكرة المعارضة للرأسمالية .

على أن هذه النحلة قد دعا إليها من قبل - كما يذكر الشهرستاني - الإباحي الملحد المعروف بـ (مزدك) فكان ينهى الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال ، ولما كان أكثر ذلك إنما يقع بسبب النساء والأموال ، أحل النساء وأباح الأموال وجعل الناس شركة فيهما كاشتراكهم في الماء والنار والكلاء (٣) .

ثم ذهب هذه الفكرة في طي النسيان حتى جاء القرن التاسع عشر الميلادي - وقد ارتدت أوروبا إلى الوثنية من جديد - فظهرت هذه الفكرة مرة أخرى ضد طغيان الرأسمالية وتحكمها بموارد الإنتاج وأرزاق الناس وأرواحهم ، وكان من أوائل دعاةها (روبرت أوين) الإنجليزى (وسان سيمون) الفرنسي ثم عمدتها وطلبها (ماركس) الذي فرضها على روسيا وخلفه فيها (لينين وستالين) في روسيا (وماوتسى تونغ) في الصين (وتيتو) في يوغسلافيا وغيرهم من كبار الشيوعيين من جاءوا بعدهم وآمنوا بقوا عدها واعتنقوا فكرتها وقاموا بشرحها وبيان أساليب

(١) انظر جاهلية القرن العشرين ص ١٠٧ - ١٠٨ .

(٢) انظر بروتوكولات صهيون ص ٢٣ .

(٣) انظر الملل والنحل ج ١ ص ٢٤٩ .

تنفيذها ، وإيجادها في المجتمع كلُّ حسب اجتهاده ورأيه ، فنشأت المذاهب حولها وتعددت الآراء فيها واختلفت طرق تنفيذها في المجتمع فكانت الاشتراكية العلمية والماركسية والشعبية والتهتوية والعمالية واشتراكية الدولة ، والاشتراكية الديمقراطية الوطنية ، إلى غير ذلك من التسميات ، وكلها بالحقيقة واحدة من حيث الأسس والقواعد وإن اختلفت في بعض الجزئيات وتباينت في طرق التنفيذ. (١)

وأهم مبادئ الشيوعية تتمثل في الأسس التالية : (٢)

- ١ - إلغاء الملكية الفردية إلغاءً باتاً وإحلال الملكة الجماعية بدلاً منها .
 - ٢ - إلغاء الطبقات بإقامة دكتاتورية البروليتاريا وإبادة الطبقات الأخرى .
 - ٣ - كفالة الدولة لجميع المواطنين في مقابل تكليف القادرين منهم بالعمل رجالاً ونساءً .
 - ٤ - المساواة في الأجور بين جميع الأفراد في المجتمع لأنها هذه هي الصورة التي كانت عليها البشرية في الشيوعية الأولى .
 - ٥ - إلغاء الدين لعدة اعتبارات بمجموعها تقطع بعدم الحاجة إليه .
 - ٦ - تطبيق مبدأ (من كل بحسب طاقته ولكل بحسب حاجته) .
 - ٧ - إلغاء الصراع في المجتمع لبشرى بإلغاء الباعث عليه وهو الملكية الفردية .
 - ٨ - إلغاء الحكومة في المستقبل وإقامة مجتمع متعاون متعاطف بغير حكومة .
- وبمجرد إلغاء نظرة طابرة وسريعة على هذه الأسس والمبادئ التي تقوم عليها الشيوعية وتسمى لتحقيقها ، نجد أنها في مجملها تتعارض مع الفطرة البشرية علاوة على تعارضها مع دين الله خصوصاً وإنها تنص على وجوب إلغاء لعدم الحاجة إليه في ظل الشيوعية . ولا يمكن تحقيقها في الواقع ، فهي مجرد آمال وتطلعات وأفكار مثالية خيالية لا سبيل إلى تنفيذها وتطبيقها ، اتخذتها الشيوعية لخداع الجماهير وتخدير أعصاب العمال حتى تتمكن من السيطرة عليهم وإحكام قبضتها على جميع أفراد الدولة ، أو بالأحرى استعبادها للإنسان وتسخيرها له .

وترى الشيوعية أن التاريخ البشري قد مرَّ في خمسة أطوار رئيسية هي : الشيوعية الأولى ، ثم الرِّق ، ثم الإقطاع ، ثم الرأسمالية ، ثم الاشتراكية وهذا الطور الخامس ليس هو آخر أطوار البشرية ولكنه طور الإعداد والتمهيد والاستعداد للانتقال

(١) انظر : حكم الاسلام في الاشتراكية / عبدالعزیز البدری ، ص ٦٥-٦٧ ط ٤

والمذاهب الاجتماعية الحديثة / محمد عبدالله عنان ص ٦٨-٧٧ .

(٢) للتوسع في هذه الأسس ومعرفة مدى تطبيقها في واقع الشيوعية يراجع كتاب

ذات المنهجية ص ١٤٤-١٤٥-١٤٦ ، وحكم الاسلام في الاشتراكية ص ٦٨-١١١ .

إلى الشيوعية الأخيرة وإقامة المجتمع^{علو} أساس المحبة والمطف والتعاون من غير منفصات ولا التزامات كما جاء في مبادئ الشيوعية السابقة .^(١)

وتدّس الشيوعية أن الاقتصاد وحده هو أساس التطور التاريخي من طور إلى آخر ، وأن الوضع الاقتصادي في كلِّ عهد من عهود البشرية هو الذي يحدد ملامح الصورة ويطلع المجتمع بطابع خاص يتميز عن غيره وبذلك فالإقتصاد وحده هو الموضع في حياة الإنسان فيصوغ له أفكاره وأخلاقه وفنونه وعلومه بل يحدّد له الدين والفلسفة التي يمتنعها ، وجلة القول أن سائر الأفكار والتصوّرات الإنسانية لا تتشكل إلا بتأثير هذا النظام الاقتصادي فهو المحور الذي تدور حوله الحياة الإنسانية .^(٢)

ولعله/هنا قد ظن البعض أن الشيوعية هي مذهب اقتصادي بحيث مقطوع الصلة ببقية المجالات ، في حين أنها كما يقول المختصون بدراساتها - تصور عام وشامل لقضية الوجود كاملة بما فيها الكون والإنسان وقضية الألوهية ، ولكن بأسلوب مادي ونظرة إلحادية ، تنكر وجود الله ، ولا تقرُّ له بالعبودية ولا تعترف بالدين والوحي والآخرة ، وآمنت بالقوة الاقتصادية وجعلتها المتصرف والحاكم والموجه لبقية مجالات الحياة الأخرى ، مع أنه من المتعذر فصل المجال الاقتصادي عن بقية المجالات الأخرى واعتباره أصلاً لها وذلك لأنها تشكّل فيما بينها ترابطاً ولا ينفك بعضه عن بعض .^(٣)

والشيوعية إذ تنظر إلى الاقتصاد هذه النظرة فمعنى ذلك أنها تجعل منه قوة قاهرة ليس فوقها أيُّ مَوْءٍ شر غيرها وبهذا فهي تنكر وجود الخالق وتعتبر الإقرار بوجوده من بقايا عهود الرق والإقطاع والخرافة والوهم وضعف الإنسان ، فالخالق قضية وهمية ليس لها وجود أو كما تقول (لا إله والحياة مادة) ، و (الدين أفيمون الشعوب) .

(١) انظر مذاهب فكرية ص ٢٨٥ .

(٢) انظر الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة / أمهات الأعلی المودودي ص ٢٨ - ٢٩ ، والمذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها / د . عبد الرحمن عميرة ص ١١٨ طبعة أولى . دار اللواء للنشر والتوزيع - الرياض .

(٣) انظر مذاهب فكرية ص ٤٢٣ .

وانظر الشيوعية والأديان / د . طارق حجي / ص ٣٨ / ط ٣ ، ١٩٨٠ م .

والمادة أزلية أبدية لا تنفى (١) ، وهي الأحق بالعبادة لأنها صاحبة الخلق والتأثير في الوجود وليس هو الله كما يعتقد المؤمنون به .

يقول أنور الجندى : (المادة الماركسية تختلف عن الاتجاهات المادية كلها ، إن تقف عند الاقتصاد وحده وتجعله الإله والخالق والرازق للأفراد والمجتمعات على السواء ، وتنقل عبادة الله وماله من صفات الكمال إلى الاقتصاد القومي في المجتمع) . (٢)

والشيوعية إلى جانب عبادتها للمادة من دون الله فهي توفر كل السبل لعبادة معبودات أخرى : (كالدولة) (٣) و (الحزب) (٤) و (الرئيس أو الزعيم) .

تقول صحيفة البرافدا السوفياتية : (نحن نوّ من بثلاثة أشياء " كارل ماركس " و " لينين " و " ستالين " . ولا نوّ من بثلاثة أشياء : " الله " و " الدين " و " الملكية الخاصة " . (٥)

إن الدول التي كفرت بالرأسمالية واعتنقت الشيوعية قد وقعت في عبودية ذليلة واسترقاق ظالم يفوق كل الشرور والآثام التي تمارسها الرأسمالية الديمقراطية في الغرب على أفراد المجتمع .

فالإنسان كفر إذ ضحّت الرأسمالية حتى كان يبتلع كل شيء على حساب المجتمع ، قد سحقت الشيوعية وقضت على إنسانيته لصالح الجماعة ولم يعد يشعر بأدنى نوع من الحرية أو الوجود .

وإذا عرفنا أن الشيوعية تقوم على الإلحاد وإنكار وجود الله وترفض الدين في جميع أشكاله وصوره ، ولا تعبد الله تعالى ولا تسبح حتى بعبادته على طريقة الديمقراطية وغيرها من المذاهب الغربية التي اكتفت بفصل الدين عن الحياة وجعلت العبادة والالتزام بالدين مسألة شخصية خاصة بالفرد

(١) انظر في مناقشة هذه الفرية . موقف الإسلام من نظرية ماركس للتفسير

المادى للتاريخ ، أحمد العوايشة ص ١٢٣ - ١٢٨ ط : دار مكة .

(٢) هزيمة الشيوعية في عالم الإسلام / أنور الجندى / ص ٤٢ / طبعة

دار الاعتصام .

(٣) انظر حقيقة الشيوعية / أمين شاکر ورفيقاه / ص ٢٨ / ط ٢ / دار

المعارف .

(٤) انظر معالم في الطريق ص ٨٩ .

(٥) نقلا عن المذاهب المعاصرة ص ١٤٣ .

حسب الرغبة والهوى ، بل تحارب الدين والمتدينين وتشر الإلحاد وتسخر
لنشره جميع وسائل الإطلام ومناهج التعليم مع العنف والشدة والقهر ، وهدم
الكنائس والمساجد ودور العبادة ^(١) ، وأن الانسان إذا أراد أن يمتنع
الشيوعية لا بد له من التخلي عن كل العقائد والأديان التي كان يعتنقها
من ذي قبل .

وإذا كان الله تعالى غير معبود في الشيوعية ، فبالطبع ليس هو مصدر
التشريع وشرعته ليس لها وجود ولا مجال لتطبيقها في ظل الشيوعية وإنسا
المشترع فيها هم البشر سواء كانت الطبقة العاملة أم الحزب الحاكم أم الزعيم
الديكتاتوري الذي يستبد في أكثر الأحيان بوضع النظام القانوني وهو الذي
يحدد الحلال والحرام ، وتجب له الطاعة والخضوع والاتباع ، ولا يجوز بحال
من الأحوال الخروج عليه أو مخالفة حكمه أو مجرد الاعتراض فقوله لا يقبل
الخطأ ولا يحتمل إلا الرضى والتسليم .

وأخيرا فقد اتضح لنا أن الشيوعية تجرد الله وتنكر وجوده - مكابرة
وتعننا - ^(٢) وتو من بوجوده وفاعلية غيره في الكون ، وتنكر كذلك كل ما يتصل
بالله من عقائد وغمييات ، وهي كذلك لا تعبد في أي مجال من مجالات
العبادة بل تعبد من دونه معبودات باطلة ، وهي أخيرا لا تتركها بالحكم
والتشريع ، ومن هنا كانت الشيوعية مظهرا من مظاهر الوثنية الحديثة ، بل إنها
أخبت وأبشع مظاهرها ، بسبب مجاهرتها بالإلحاد والكفر .

وبعد هذا فليحذر دعاة الشيوعية والاشتراكية والمفتونون بها في
العالم الإسلامي ، فالشيوعية ليست مجرد نظام اقتصادي مقابل للنظام
الرأسمالي الغربي وخير منه . إنها عقيدة كافرة ومذهب يقوم على الإلحاد
وليس لها في الإسلام أدنى قبول ، والذين يريدون الشيوعية كنظام اقتصادي
لحل مشكلاتهم لا بد لهم من اعتناق جميع مبادئ الشيوعية لأن الأنظمة
إنما توخذ دفعة واحدة وفي مقدمتها العقيدة التي تقوم عليها . ^(٣)

(١) انظر الشيوعية والأديان / د . طارق حجي / ص ٣١-٣٢ .

(٢) سأجعل فقرة خاصة عن إلحاد الشيوعية المفروض بالقوة ، لأن الإنسان

بطبيعته طيب ومتدين ، وإلحادها غير حقيقي .

(٣) انظر حكم الإسلام في الاشتراكية ص ٥٠ .

وقد جُرِّبت الشيوعية في أكثر من دولة فأخفقت تلك التجارب كلها ما يدل على أن الشيوعية نظام مخالف للفطرة البشرية السوية ولا تصلح كنظام للحياة حتي في المجال الاقتصادي ، وكلُّ دولة ما زالت تحت النفوذ الشيوعي الماركسي تتطلع إلى يوم تتحرر فيه من رق الذل والاستعباد وطوق الحديد والنار الذي تمارسه الشيوعية على المستعبدين فيها وتطوقهم به .
وكذلك الأمر بالنسبة للأفراد لا سيما من كبار العلماء والمفكرين والفلاسفة الذين خدعوا لفترة من الزمن بالشيوعية ، كلما لاح لأحدهم فرصة الخروج منها والبرء عنها فإنه لا يتردد في إعلان براءته منها وكفره بها .^(١)

*

ظاهرة الإلحاد في الشيوعية :

تعريف الإلحاد : لغة ^(٢) : الميل عن القصد ، والعدول عن الشيء . وألحد : مال وعدل . والملحد : العادل عن الحق ، المدخل فيه ما ليس فيه .

الإلحاد في الاصطلاح : (هو إنكار الحقيقة الغيبية المتعثلة في

^(٣)

وجود كائن أعلى يسيطر على العالم من كلِّ وجه) .

وعرفه (إسماعيل أحمد أدهم) وهو من دعاة الإلحاد في رسالة

له بعنوان " لماذا أنا ملحد ؟ " فقال هو : (الإيمان بأن سبب الكون

^(٤)

يتضمنه الكون في ذاته ، وأن شئ لا شيء وراء هذا العالم) .

ومعنى ذلك أن الإلحاد هو إنكار وجود الله وبالتالي إنكار جميع

^(٥)

المعتقدات الدينية .

(١) محبذ الاطلاع على كتاب (الصم الذي هوى) تأليف ستة من كبار

كتاب الغرب / ترجمة فؤاد حمودة .

(٢) راجع لسان العرب ج ٤ ص ٣٨٨ - ٣٨٩ .

(٣) العقل والسلوك في البنية الإسلامية / عبد المجيد النجار / ص ١٧ /

مطبعة الجنوب / تونس .

(٤) نقلا عن ذيل الملل والنحل ص ٩٢ .

(٥) انظر الإلحاد أسباب هذه الظاهرة وطرق علاجها / عبدالرحمن

عبد الخالق / ص ٨ / ط ١ الدار السلفية .

وظاهرة الإلحاد قديمة إلا أنها لم تشكل فيما مضى ظاهرة بارزة في تاريخ البشرية ، فقد أشار الله تعالى في القرآن الكريم لفرقة أو طائفة من البشر عرفت بالدهرية ونسبت الهلاك والموت للدهر من دون الله تعالى وأنكرت البعث والحساب قال تعالى : ﴿ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ﴾ (١) .
وظاهر الآية أن هذه الفرقة لا تنكر وجود الله مطلقا ولكنها تنكر الحياة الآخرة أو البعث والنشور .

ولا يخلو تاريخ البشرية من وجود حالات شاذة عند بعض الأفراد أنكرت وجود الله تعالى ، لا وزن لها في هذا التاريخ الطويل ، ذهبت فسي طبي النسيان لأنها أصلا لم تكن تجاهر بالإلحاد ولم تدع إليه ولم تحاول نشره وإذاعته بين الناس ، فكأنهم كانوا يشعرون بأن الإلحاد حالة مرضية خاصة بهم لا مجال لتشرها وتعميمها ، وربما كانوا غير مقتنعين في دخيلة أنفسهم بعدم وجود خالق مدبر لهذا الكون .
وبقي الأمر حتى جاءت النهضة الصناعية الأوروبية المتحللة من قواعد الدين والأخلاق ، ومالت إلى إنكار كل ما لا يقع تحت الحس والمشاهدة أو لم يقره العقل والعلم .

وتبنت الشيوعية على يد (ماركس) وأتباعه هذه الفكرة ، وأخذت تنظر للدين نظرة عدائية وبدأت تحارب المعتقدات الدينية وتنشر الإلحاد بطرق مدروسة وأساليب إرهابية عنيفة .

واشتهرت الشيوعية بالإلحاد وإنكار وجود الله والأديان ، حتى أن هذه الظاهرة لم تعرف بهذه الصور الشاملة من مجموعة من الناس أو شعوب من الشعوب في تاريخ البشرية من قبل ظهور الوضعية المادية ، والجدلية التاريخية في القرن التاسع عشر .

والراصد لتاريخ البشرية يرى أن حقيقة الألوهية كانت هي الطابع المشترك الذي لم تتخل البشرية عنه ولم ترفضه إلا في الندرة . (٢)

(١) سورة الجاثية آية ٢٤ .

(٢) انظر المذاهب المعاصرة ص ١٢٣ - ١٢٥ .

وهذا هو معنى فطرية التدين والعبادة في النفس البشرية ، وأن
الإنسان مفلطور على الإقرار بوجود الله والإيمان بربهية ، كما سبق بيان
ذلك (١) .

وإذا كان الأمر كذلك فهل (الشيوعية) خارجة عن هذا
الأصل الفطري واستثناء من هذه القاعدة ، لأننا نجد فيها شمويا كاملة
لا تؤمن بالله ولا تمعبده بوجه من الوجوه ، ليس هذا فحسب بل إنها تدرّس
الإلحاد والكفر كما يُدرّس الإيمان في شمويا أخرى ؟
أما أن الشيوعية هي خروج عن الفطرة وخط سير البشرية فهذا

شيء من العو كد ولا يحتاج إلى دليل .

وأما أنها استثناء من الفطرة فلا ، وأمر ليس عليه دليل ، بل إن الأدلة
تؤكّد خلاف هذا وتشير إلى أن الشيوعية ليست من قبيل الاستثناء ، وأن إصرارها
على تدريس الإلحاد وفرضه بقوة الحديد والنار لهو أدل دليل على خوفها من
ظهور العقيدة الدينية المفروسة في النفوس ، ودليل كذلك على أن الإلحاد
ليس من طبيعة الإنسان .

وقصة جاجارين أول رائد فضاء شيوعي نشأ وترعرع وترهب على الكفر
والإلحاد منذ نعومة أظفاره ، تدل دلالة واضحة على أن الإلحاد الشيوعي
ليس أصيلا في النفوس ، فقد صرح فور عودته من الفضاء بأن روعة الكون قد
استجاشت الفطرة الدينية الكامنة في أعماقه فأخذ يبحث عن الله خالق هذا
الكون (٢) .

ومن جهة أخرى فإن مظاهر العبادة والتدين في روسيا الشيوعية ،
وغيرها قد وُجّهت نحو معبودات غير الله سبحانه وتعالى ، يعبدونها طوعا
أو كرها وما النصب والتماثيل وصور الزعماء الشيوعيين الموزعة هنا وهناك إلا دليل
على أن الفطرة الدينية ما زالت مستقرة في نفوس الشعوب التي تحكمها الشيوعية .
ومن هنا فإنني أستطيع القول بأن الإلحاد المطلق الذي ينكر وجود
الخالق ، ويدل على انعدام الفطرة الدينية عند الملحددين في هذا العصر

(١) انظر الباب الأول : الإنسان عابد بطبعه .

(٢) انظر دراسات قرآنية ص ٢٧ - ٢٨ .

أمر لا وجود له البتة وإنما هو من قبيل الغناد والمكابرة والمجاهرة بالإثم ،
وأستخفاف بالله لعدم وجود دولة تحمي ذمار الدين وتدافع عن المتدينين
وتنشئه بين الناس ، ثم هو رد فعل شديد التطرف ضد الكهنة ورجال الدين
منذ العصور الوسطى .

إذن الإلحاد إنكار للأديان وتمرد على الالتزام بشريعة الله وليس
إنكاراً للخالق ولا كفراً حقيقياً بوجود الله (١) .

وهذا فإني أقول بأن الإلحاد المطلق والاعتقاد اليقيني الجازم
بعدم وجود الله أمر لا مدخل له في النفوس السوية والفطر السليمة ، وإنما
هو تعبير عن ظاهرة مرضية وتوترات عصبية وشذوذ نفسي مصادم للفطرة
لا يلبث أن يزول إذا وجد الدواء المناسب والطبيب الحاذق .

وإذا اتضح لنا هذا فإن القول بأن الشيوعية مظهر من مظاهر الوثنية
ال حديثة ليس بعيداً عن الصواب ولا مجانها له وإنما تستتر بالكفر والإلحاد
بالغة في حرب الدين وتجاهلاً وإبعاداً له عن مجالات الحياة ، وإلا فالإقرار
بوجود الخالق أمر فطري وكامن في النفس البشرية الشيوعية وغيرها ، ولكنها
لا تريد أو بالأحرى لم تجد الفرصة لإظهار هذا الإيمان ، وهي تعبد ولكنها
لا تعبد الله أو بالأحرى لم تترك لها الفرصة لعبادة الله ولو على الطريقة
الغريبة الباهتة ، وأما شريعة الله فهي ليست مطبقة في هذه ولا تلك .
ومن هنا فإن حكم الوثنية ينسحب على الشيوعية كما ينسحب على غيرها .

(١) انظر الجفوة المتعملة بين العلم والدين / محمد علي يوسف / ص

١١-١٢ ، وعقائد المفكرين عباس محمود العقاد / ص ٦٢-٦٣ /

مكتبة الانجلو المصرية ، وطريق الإيمان / سعيد عاطف الزيني / ص

٣ - العقلانية :

معناها : العقلانية نسبة إلى العقل ، وهي على غير القياس لزيادة الألف والنون ، إذ أن النسبة القياسية إلى العقل هي (العقلي) ، وبهذا فالأولى أن نقول : (العقلية) ، والتاء المربوطة في آخر الكلمة تفيسد البالغة . ولكني سأستخدم لفظ (العقلانية) - وهي ما ورد سماعاً كقولنا روحانية ونورانية - لغلبة استعمالها في هذا العصر .

وهي تعني : (التفسير العقلاني لكل شيء في الوجود ، أو تعبير كل شيء في الوجود من قناة العقل لإثباته أو نفيه أو تحديد خصائصه)^(١) .
وهي بكلمة أخرى دعوة لتقديم العقل وتمجيده والاعتماد عليه كمصدر وحيد للمعرفة بعد إهمال الدين أو ما يأتي عن طريق الوحي بحجة أنه لا يخضع لمقاييس العقل المادية التي تقوم على الحس والمشاهدة والتجربة .
فهي صورة من الصور الوثنية الحديثة التي تلغي الدين وتبطله ، وتقدس العقل ، فالمعبود فيها بالطاعة والخضوع والاتباع والتشريع وغيرها من معاني العبادة هو (العقل البشري) .
والعقلانية بهذا المفهوم مذهب وثني قديم في تاريخ البشرية ، اشتهرت به الفلسفة اليونانية^(٢) التي ظلت تسيطر على الفكر الأوروبي حتى اعتنقت أوروبا المسيحية في عهد الملك الروماني قسطنطين ، حيث بدأ عهد جديد كانت السجيرة والسيادة فيه للدين إلى نهاية العصور الوسطى ، وبداية عصر النهضة الأوروبية الحديثة ، حيث ارتدت أوروبا عن الدين وعادت إلى وثنية الأجداد من الرومان واليونان التي كانت تعلق شأن العقل وتجعله فوق كل شيء ، وحدثت أوروبا في ذلك حدوهما .

(١) مذاهب فكرية ص ٥٥٠ .

(٢) ومنها استمدت فرقة المعتزلة تقديم العقل على النقل عند التعارض واشتهرت (بالفلو) في تقديم العقل واعتباره المصدر الأول للاعتقاد وهي لا تتردد في تأويل ما تراه من النصوص متعارضاً مع حكم العقل لأن حكم العقل قطعي في زعمها ، وأما النصوص فدلالتها ظنية) .
انظر دعوة التوحيد - هراس ص ٢٧١ ، وانظر كذلك المؤامرة على الإسلام لأنور الجندی ص ٣٥ - ٣٨ دار الاعتصام .

والعقلانية رد فعل شديد التطرف لعملية الحجر على العقل وإلغاء دوره وشله تماما عن التفكير والبحث ، التي كانت تمارسها الكنيسة طيلة العصور الوسطى ، مما أدى إلى الغلوبي تقدير العقل وتعظيمه وزيادة الاهتمام به ومنحه حرية مطلقة في هذا العهد الوثني الحديث .

(وكان ردُّ الفعل أن الإنسان هو الذي ينبغي أن يستشار في الأمور كلها وليس الدين ، وأن العقل البشري هو الذي ينبغي أن يكون صاحب القرار وليس الله . . . ولو كان الأمر متعلقا بالعقيدة أو الأمور الأخروية ، ومقدار ما كان العقل مكبوتا ومحجورا عليه ، انطلق هذا العقل يريد أن يقتحم كل ميدان ولو كان خارجا عن اختصاصه ، يقتحمه بروح أنه هو صاحب الحق الذي كان سنويا من حقه فهو يريد أن يوه كد هذا الحق) (١)

وهكذا فإن العقلانية الأوروبية تعتبر بحق امتدادا للعقلانية الإغريقية بكل انحرافاتهما (٢) ، التي كانت لونا من ألوان عبادة العقل وتقديسه وتأليهه ، حيث كانت تفالي في تقديره ورفعته شأنه ، وتعتمد عليه في كل شيء فيثبت ما يثبت وينفي ما ينفي لا حدَّ له ولا قيد عليه .

فلما بدأت أوروبا تجتاز مرحلة العصور الوسطى التي كانت السيادة فيها " للنص " الذي كانت تفرضه الكنيسة باسم الدين الإلهي وذلك حتى النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي (٣) ، وبدأت تتعداها إلى عصر النهضة أخذت تتجه إلى مرحلة وثنية جديدة معبودها العقل البشري والاهتمام به وازدراء الوحي وما جاء عن طريقه من أفكار والخط من قدره وتهوين الثقة به ، وذلك لأنها وجدت بعد أن فككت القيود عن العقل أن معظم ما كان ينسب إلى الدين - بل كله - قضايا لا يصدقها العقل ، لأنها تتنافى معه ، ولا يمكن هضمها وناقشتها (كمقيدة التثليث ، وبنوة عيسى لله ، والعشاء الرباني وصكوك الغفران) وما إلى ذلك من خرافات الكنيسة وأوهاسها الباطلة التي جنت بها على دين الله .

(١) مذاهب فكرية ص ٤٥٩ .

(٢) انظر مذاهب فكرية ص ٥٠٢ - ٥٠٦ .

(٣) انظر الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، د / محمد

البيهي ص ٢٩٥ - ٢٩٢ / ط ٤٠٤ .

ومعلوم من هذا أن الدين الذي كانت تصارعه أوروبا ، وتسعى لإحلال العقل مكانه هو الدين النصراني المحرّف الذي كانت تمثله الكنيسة الكاثوليكية البابوية (١) ، بطغيانها واستبدادها ، وليس غيره ، بل ليس هو ذات الديانة النصرانية كما أنزلها الله على عيسى ابن مريم عليه السلام .
ولا شك أن صحوة أوروبا من هجمتها الطويلة في العصور الوسطى واتجاهها إلى البحث وإعمال الفكر واحترام العقل وإعطائه دوره في الحياة وكسرها لجميع القيود وتحطيمها لكلّ السدود والحواجز التي كانت تقيدها الكنيسة أمام العقل ، وهتكها للأسرار المقدسة التي كانت تفرضها الكنيسة على الناس . . . إلخ كلُّ هذا ما تحمد عليه ويقدر لها دورها فيه ، وإذا كان هناك من لوم بلحقها فإنما هو في طول خنوعها واستكانتها في الميودية الذليلة التي كانت تمارسها الكنيسة عليها زمنا طويلا .

وأما الخطأ الذي ارتكبه أوروبا وفيه اللوم الحقيقي والمأخذ الفعلي فهو في أسلوبها الأرعن وسلوكها الخاطي ، في عدم التمييز بين (ذات الدين) وبين السلطة التي تمارسه وهي الكنيسة ورجال الدين الذين استبدوا بالأمر ، وسدوا منافذ المعرفة كلها إلا ما كان عن طريقهم ، فلم تثبت من مصدر الخطأ هل هو في الدين نفسه أم في تلك الطبقة من الكهنة والبابوات وسدنة المعابد ؟ هذا ما لم تحاول التفكير فيه وأغضت عنه عينها ، بل منعت العقل الذي تدعو إليه أن يفكر فيه ويتامله .

وخطأ آخر وهو لا يقلُّ خطورة عن سابقه أنها لم تبحث عن بدائل ديني صحيح ، وكان في مقدورها وميسورها أن تحصل عليه دون أدنى جهد ذلك هو الإسلام ، الذي كان على مقربة منها ، ولها به احتكاك مباشر في أكثر من مجال ، واستقت منه فكرة الثورة وروحها ضد الكنيسة ، إلا أنها - لأسباب معينة - لم تفعل ذلك وسحبت حكمها الجائر على كل الأديان صحيحها وفاسدها وآثرت الوثنية .

وأما الخطأ الرئيسي - وهو ما يعنيننا هنا - فهو المغالاة الفاحشة والتطرف الكبير في تقدير العقل والاعتزاز به تقديرا بلغ حدّ التقديس والعبادة والتأليه ، حيث انتقل الناس من ظلم العقل وكتبته في العصور الوسطى إلى تقديسه

(١) انظر المرجع السابق ص ٢٩٥ .

(١) وتأليهه وإعلاء القيم العقلية على حساب القيم الروحية .
فلا عيب ولا غضاظة على أوروبا - أو غيرها - أن تعيد ثقتها بالعقل ،
وتفسح له المجال للعمل وينتج ويبتكر ويمارس نشاطه وطاقاته التي زوده الله
الخالق سبحانه وتعالى بها ، ولكن العيب والخطورة في أنها تجاوزت في
ذلك كل الحدود ، وصنعت أسوأ من صنيع الكنيسة ، فكما أن الأخيرة احتقرت
العقل وبالفت في تقييده والتضييق عليه لحساب تعاليمها الدينية فإن العقلانية
قد بالفت في إطلاق جميع منافذ المعرفة إلا طريق العقل وقضت بأن العقل البشري
هو الذي يجب أن يكون صاحب القرار وليس الله أو الدين الذي جاء منه ،
وهكذا فقد جعلت العقل وحده هو المصدر الفريد للمعرفة الإنسانية ولو كان
الأمر متعلقاً بمسائل الدين والإيمان ، فما أقره العقل ورضي به فهو الصحيح وما
أنكره ونفاه فهو الخطأ ولا وجود له ، وكان الله سبحانه تعالى في رأس قائمة
ما نفاه العقل الأوروبي .

وهكذا فلم تكتف العقلانية في تقدير العقل وتعظيمه وعبادته مع الله
واتخاذها نداً ومعبوداً من دونه سبحانه وتعالى ، بل سخرت العقل في
كيفية الاستغناء عن الله ^{تفريجه} وإبعاده عن جميع مجالات الحياة ، حتى صار الإلحاد
- وأطلقوا عليه (التفكير الحر) - هوسمة العقلانية البارزة ، وصار المفكرون
يفتخرون بالانتساب إليه ويستبشرون به .

* وإذا ذكر الله وحده اشأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ،
وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون * (٢)

وبهذا فإن العقلانية حركة وثنية تسمى كما يقول (برنتون)
في كتابه (منشأ الفكر الحديث) (٣) إلى إزالة الله من الكون - الله الذي
أصبح في عرف (نيوتن) لا يستطيع أن يتدخل في شؤون الكون بعد أن شدَّ
رباطه وأحكمه ، ولا داعي لعبادته والصلاة إليه - (٤) بل يجب الاستعاضة
عن عبادته بعبادة العقل ، لا سيما وأن هذا الإله الجديد استطاع أن يكشف

(١) انظر الفكر الإسلامي الحديث ، محمد المبارك ص ٤٢ .

وانظر العقل والسلوك في البنية الإسلامية / عبد المجيد النجار /

ص ٨٩ / مطبعة الجنوب تونس .

(٢) سورة الزمر آية ٤٥ .

(٣) ترجمه للعربية عبدالرحمن مراد . راجع ص ٢٧ ، ١٠٢ / مطبعة

العقيد الجديدة / دمشق .

(٤) انظر مذاهب فكرية ص ٥١٧ .

زيفا وخداع تعاليم وأفكار الإله السابق ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا !
وأما عن الطابع العام الذى يمتاز به عصر سيادة العقل أو عصر
عبادة العقل من دون الله فهو كما يصفه الدكتور محمد البهي بأنه يمتاز (بنمو
شعور العقل وإحساسه بنفسه ، وقدرته على أن يأخذ مصير مستقبل الإنسانية
في يده ، بعد أن يزيل كلَّ عبودية ورثها من قبل حتى لا تحجبه عن التخطيط
الواضح لهذا المصير .

وبالشجاعة والجرأة التي لا تتأرجح في إخضاع كلَّ حدث تاريخي
لامتحان العقل . وكذلك في تكوين الدولة والجماعة ، والاقتصاد ، والقانون ،
والدين ، والتربية .

والإيمان يتعاون جميع المصالح والمنافع ، وبالأخوة الإنسانية على
أساس من هذه الثقافة العقلية وحدها ، المستمرة في التزايد والنمو .

ومعنى ذلك كله : وجوب سيادة العقل كمصدر للمعرفة على غيره
، وغيره الذى ينازعه السيادة في ذلك الوقت هو الدين .

فللعقل - في نظر أصحاب عصر التنوير - الحق في الإشراف على
كلَّ اتجاهات الحياة ، وما فيها من سياسة وقانون ودين .

والإنسانية هي هدف الحياة للجميع ، وليس الله أو المجتمع الخاص
أو الدولة الخاصة ، وهي ليست إلا عوضا عن (القربى من الله) كهدف
للإنسان في سلوكه في الحياة) .^(١)

ومن أشهر فلاسفة العقلانية فولتير الفرنسي ، وجون لوك الإنجليزي
وفيشته الألماني .^(٢)

والغريب في منطق العقلانية أنها اعتبرت عصر سيادة العقل هو
(عصر التنوير) وهولا يعني عندها إلا إبعاد الدين عن مجال التوجيه
وإحلال العقل محله فيه ، وهذه هي نهاية الصراع بين العقل والدين
التي وصلت إليها أوروبا ، والتي أفضت بها إلى عبادة العقل البشرى وهي
الآن تجني المواقب الوخيمة لهذه العبودية الجديدة ، حيث إنها وقعت
في شر ما فرت منه .

=====

وهكذا فالعقلانية كما يبدو مظهر من مظاهر الوثنية لأنها لم تحقق
العبودية التامة لله تعالى ، لا من حيث الاعتقاد بوجوده فهي تؤمن
بالعقل أكثر من إيمانها بالله ، ولا من حيث التشريع إذ أن العقل هو مصدر
التشريع والمعرفة فيها وليس هو الله ، وبالتالي فهي تعبد العقل
وحده ولا تقر بالعبودية للخالق في الشعائر التعمدية .
وعلى هذا الأساس كانت وثنية تتعارض مع أصل الإسلام الذي
يجعل الحاكمية لله وحده ، وهي بالتالي مبدأ مرفوض ونظرة باطلية
إذ جعلت من العقل إلهاً معبوداً من دون .

٤ - العلمانية :

معناها : يبدو لاول وهلة من النظر لظاهر لفظ (العلمانية) أنها ذات صلة بالعلم ونسبة إليه ، وبالرغم من أن هذا هو المفهوم الذي ساد كثيرا من الأوساط العلمية في العالم الإسلامي والعربي على وجه الخصوص بسبب الترجمة الخاطئة غير الآمنة التي قام بها بعض المترجمين لكثير من المصطلحات الغربية الحديثة (إما عن جهل بحقيقتها وإما عن مكر وخبث ودهاء ، وهما أمران أحلاهما مرًا) بالرغم من كلِّ هذا فإن المعنى الحقيقي لها شيء غير هذا ، بل ربما يكون بعيدا جدا عنه .

وإذا كان الأمر كذلك فما هي العلمانية في لغة أوروبا ؟ العلمانية هي الترجمة العربية - الخاطئة - للكلمة (Secularism) في اللغة الإنجليزية ، و (Secularité) بالفرنسية .

وهي تعنى في لغاتها الأوروبية التي وضعت فيها : (اللادينية) .

تقول دائرة المعارف البريطانية في مادة (Secularism) : (هي

حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس وتوجيههم من الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بهذه الدنيا وحدها) .^(١)

ويقول معجم أكسفورد شرحا للكلمة (Secular) : أنها كل ما هو

دنيوي أو مادي ، ليس دينيا ، ولا روحيا ، وهي الرأي الذي يقول إنه لا ينبغي أن يكون الدين أساسا للأخلاق والتربية .^(٢)

وهكذا فإنَّ جميع المراجع الأجنبية تقول بأن (العلمانية) تعني :

ما ليس دينيا ولا صلة له بالدين ، أو ما كان على عداٍ ومضادة للدين .^(٣)

ومن هنا فقد تنبَّه لحقيقة العلمانية كلُّ كاتب مخلص وداعية مؤمن

ومفكر حصيف من كتابنا ومفكرينا والدعاة إلى توحيد الله وتحقيق العبودية الكاملة

له في كلِّ وجه من وجوه الحياة ، فكشفوا عن حقيقة العلمانية وعروها أمام الأجيال

الناشئة ، وأكدوا على أنها مصطلح مكر خبيث أريد به تخفيف وقع كلمة " لا دينية "

على الأسماع بردها إلى الاشتقاق من العلم ، في حين لا صلة لها به ، وإنما هي

انحسار النفوذ الديني ، ورفض كلِّ صورة من صور الإيمان بالله ، والعبادة الدينية

(١ ، ٢) نقلا عن العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية

المعاصرة ، سفر بن عبد الرحيم الحوالي ص ٢١-٢٣ ، طبعة أولى

وهي بكلمة أخرى إقامة الحياة على غير الدين وبهذا (فاللادينية) هي أقرب ترجمة توّدي المقصود من الكلمة عند أصحابها (١) .
اتضح لنا من خلال التعريف لمصطلح العلمانية أنها لا صلة لها بالعلم ، وإنما ترجمت ترجمة محرّفة عندما أريد تصديرها للعالم الإسلامي الذي ينظر للعلم نظرة احترام وتقدير ويهتم به اهتماماً بالغاً تبعاً لتعاليم الدين الإسلامي الذي يشجع على العلم والتعلم ويوقر العلماء العاملين .
ومن هنا فلا أتبرّد في القول بأن العلمانية نظام من الأنظمة الوثنية الحديثة التي تسعى للقضاء على الجانب الروحي من الإنسان في كافة مجالات حياته ليس هذا فحسب بل إنها تسعى لخلق جوٍّ من العداوة والنفور من الدين بين الناس .

وهكذا (فاللادينية) أو إقامة الحياة بمعيدا عن الدين هو المعنى الأصلي والحقيقي للعلمانية في لغة أهلها ، وأما نسبتها للعلم فهذا خلاف الحقيقة وتضليل مقصود يجب التنبيه له والتحذير من مخاطره .
والعلمانية - كغيرها من صور الوثنية الحديثة - أوروبية المنشأ ظهرت بعد عصر النهضة كرد فعل معاكس ومتطرف ضد الكنيسة ورجال الدين من جراء الطغيان الذي كانت تمارسه ضد العلم والعلماء والمكتشفات العلمية والأبحاث التجريبية باسم الدين النصراني (٢) بحيث ارتبط في حوض أوروبا أن الدين - ولم تفرق بين الأديان - هو سبب التخلف والجمود والتأخر والظلم والمبودية والاسترقاق ، ولا شك أن الانحراف والخطأ لا بدّ أن يؤدّي إلى نتائج وخيمة ، فكانت العلمانية ثورة ضدّ الدين والروح وكلّ المقدسات التي

(١) انظر في هذا الإسلام في حل مشاكل المجتمعات الإسلامية المعاصرة

د . محمد البهي / ص ١٦ ط ١

والشبهات والأخضاة الشائعة في الفكر الإسلامي / أنور الجندي /

ص ٥١ ، ٢٩٧ / دار الاعتصام .

وسقوط العلمانية - الجندي / ص ٧ - ٨ ط ١

ومذاهب فكرية معاصرة ص ٤٤٥ - ٤٤٦ .

ورسالة العلمانية ص ٢٤ .

(٢) سبق بيان ذلك في السبب الأول من أسباب الوثنية الحديثة ، ولا شك

أن اليهود قد استفلوا ذلك لتوسيع شقة الخلاف وإقصاء الدين عن

واقع الحياة .

كانت تفرضها الكنيسة وتلزم الناس بعبادتها والخضوع لها وطاعتها ، ولكنها ثورة قابلت الباطل بباطل أشد منه ، حيث نزعته قدسية كل ما هو ديني أوله صلة بالدين والوحي واحتقرته وسخرت منه ، في حين وضعت مكانه مقدسات جديدة وفرضت شريعة وثنية مكان الشريعة التي كانت تتسمح بالدين ، واستحدثت عقائد بديلة عن عقائد العهد السابق ، فهدمت المعابد الكنسية وشيدت معابد جديدة هي المختبرات والمعامل والمصانع والبنوك . . . إلخ وأقصت الأحيار والرهبان والبابوات ، وألهمت الخبراء والعلماء والفنيين . . . إلخ . أنكرت الوحي وكل ما جاء عن طريقه ، وآمنت بما قاله العلماء من النظريات التي لم تصل لدرجة الحقائق العلمية .

فصلت الدين - الذي كان سائدا وموجها طوال العصور الوسطى - عن

جميع مجالات الحياة :

(١) وكان المجال السياسي أول وأبرز المجالات التي قطعت صلة وطلاقة بالدين في وقت مبكر ، فقد كان للحكم الكنسي وطغيان البابوات ورجال الدين المسيحي وموقفهم القاسي من الملوك والأمراء في الفترة التي حكمت فيها الكنيسة باسم الدين والشريعة الإلهية - وهي في ذلك أبعدها ما تكون عن شريعة الله - أسوأ الأثر على أوروبا واتجاهها نحو السياسة العلمانية ووقوفها موقف الرفض والعداء لدين الله وتحكيم الشريعة الإلهية .

وهكذا فقد قضت العلمانية بأن الدين لا دخل له في السياسة والحكم والتشريع ، وتردد القول بأن (لا دين في السياسة ، ولا سياسة في الدين) أولا دين للسياسة ، لأنها في ظل العلمانية قد قطعت صلتها بكل ما له صلة بالدين من بقايا الأخلاق والعبادى ذات السمة الدينية (١) ، وصار السياسيون يرتكبون كل فاحشة ويفعلون كل منكر ويستحلون كل فعل خبيث وسلوك منحرف وصارت لغاية تبرير الوسيلة في ظل السياسة العلمانية (٢) ،

(١) بغض النظر عن مدى تمثيلها للأخلاق والعبادى الدينية الصحيحة .

(٢) يقول انجلز : (إن الأخلاق التي نؤمن بها هي كل عمل يؤدى إلى

انتصار سادتنا مهما كان هذا العمل منافيا للأخلاق المعمول بها)

عن رسالة العلمانية ص ٢٣٦ .

فاستباحوا نقض العهود والمواثيق ، وإزهاق الأرواح ، واستحلوا الكذب والخداع والغش والنفاق ، والوعد الكاذبة ، والتزوير والخيانة وشراء النفوس والضائر ، وهان ذلك في نفوسهم لأن العلمانية أعطتهم الحرية المطلقة وقطعت صلتهم بالدين ، ومنحتهم حق التشريع والحكم بغير ما أنزل الله ، إنها - بحق - جعلتهم أربابا من دون الله ، كما كانت الكنيسة تتخذ الرهبان والبابوات والأباطرة أربابا من دون الله ، فشرعوا جميعا وحكموا بغير ما أنزل الله ، غير أن العلمانية اتخذت صفة العداوة والبغض لدين الله .

وقد تشكلت السياسة العلمانية في مظهرين لا دينيين :

الأول : وتمثله الديمقراطية - وهي البديل السياسي لحكم الكنيسة

والإقطاع - حيث جعلت التشريع من حق فئة معينة تنوب عن الشعب لأنه هو بالأصل صاحب الحق ومصدر التشريع من دون الله .

والثاني : وتمثله الشيوعية - وهي الاتجاه المناهض للديمقراطية الرأسمالية

- وقد جعلت الحكم بيد الحزب الحاكم باعتباره الممثل النائب عن طبقة العمال ، لأنها في نظر الشيوعية هي صاحبة الحق والسيادة .

وقد تبين لنا أنهما جميعا حكم بغير ما أنزل الله ، ولا مدخل لهما

في دين الله وشريعته .

(٢) والجانب الاقتصادي قطعت العلمانية صلته بالدين ، وأزالت

عنه كلَّ المسوح الدينية التي كانت تفرضها الكنيسة على أنها من دين الله . (١)

وكان من الممكن أن تستبدل العلمانية بالنظام الاقتصادي الإقطاعي

- الذي كان سائدا في عهد الكنيسة والإقطاع قبل عصر النهضة - نظاما جديدا

أفضل منه يحقق مصالح البشرية ، ولكن العلمانية لم توفق أو لم تحاول أن تسلك

الطريق الصحيح ، فاستبدلت بالباطل باطلا أشنع منه ، جاءت أولا الرأسمالية

الطاغية بدلا عن نظام الإقطاع الذي كانت تدعسه الكنيسة ورجال الدين ،

فنقلت الناس أو بالأحرى العبيد من عبودية إلى عبودية أخرى ، ومن رق إلى

رق ، حررتهم من السادة الإقطاعيين ، واسترقتهم لأصحاب رؤوس الأموال وأكثرهم

من اليهود .

وجاءت ثانيا الاشتراكية الشيوعية كفكرة اقتصادية ضدَّ الرأسمالية الجامحة ،

فكانت أقسى وأشدَّ على الإنسان من سابقتها ، جردت الأفراد من أملاكهم وأفقرت

(١) مرة أخرى بغض النظر عن مدى تمثيل ذلك للدين الصحيح .

أصحاب رؤوس الأموال ، وحصرت الثروة بيد الدولة فتحوّل الناس أو العبيد من عبادة المال وأصحاب المصانع وملاك الثروة ، إلى عبادة الدولة أو الحزب الحاكم ليحصلوا على رقيق الخبز وشربة الماء .

وفي جميع الأحوال كان الاقتصاد بكافة مجالاته مفصّلاً عن الدين والأخلاق ، فالغاية تبرر الوسيلة في الاقتصاد كما هي في السياسة . وغلبت النزعة المادية البهتة على كلّ سلوك وتصرفات الأفراد والجماعات وأصبح الربا من أكبر الأسس العلمانية التي يقوم عليها الاقتصاد ، وغدا كأنه ضرورة من ضرورات بحيث لا يمكن الاستغناء عنه .

وصار الاحتكار من أبرز سمات الأسواق العالمية ، يطبق على مستوى الدول والأفراد والجماعات .

وصارت تجارة المحرمات على اختلافها من أنجح وأربح أنواع التجارة وصار الناس عبيداً للمال طوال ساعات النهار يجمعونه بكل الوسائل والطرق المشروعة وغير المشروعة في ظل الرأسمالية .

وصاروا عبيداً كذلك في ظل الاشتراكية التي لا تعرف من الإنسان إلا جانبه الحيواني أن يأكل ويشرب وينام ويلهو ويمتتع .

وهكذا أقصت العلمانية الجانب الاقتصادي عن الدين والأخلاق وقطعت كلّ صلة له بدين الله ، بل اتجهت به اتجاهها للإدنيا ، وجردته تجريداً كاملاً من كلّ أثر أو صبغة دينية وأخلاقية ، ورسمت له دائرة مستقلة تستقي أحكامها ومناهجها النظرية والعملية من مصادر لا دينية خالصة ، لا تؤمّن بحق أو عدل ، ولا تعرف حلالاً أو حراماً .^(١)

(٣) وامتدّت العلمانية فاحتوت الاجتماع والأخلاق ، وجردتها من

كلّ آثار الدين والأعراف الاجتماعية التي كانت سائدة في العصور الوسطى ، إن أن الجانب الاجتماعي والأخلاقي - وهو ما يمثل الأحوال الشخصية في الأنظمة الوثنية الحديثة - كان على صورة مقبولة نوعاً ما ، فبالرغم من كل مظاهر الفساد الخلقي لرجال الدين ، وسهما قرأنا وسمعنا عن مقدار الانحطاط الاجتماعي والانحلال الأخلاقي ، إلا أن الوضع الاجتماعي والأخلاقي كان إلى حدّ ما ذا مسحة دينية ، وأعلى الأقل كان ذا صبغة بشرية يحترم إنسانية الإنسان ،

فلا يصل به لدرجة الحيوان أو المادة الصماء كما حصل في العلمانية فيما بعد ،
فالمرأة ، والأسرة ، وملاقات الأفراد ، ومنزلة الرجل وقوامته ، وغيرته على عرضه ،
والزواج المبكر . . . إلخ كل هذا كان من ملامح المجتمع البارزة (١) .

ولكن العلمانية اتجهت بالمجتمع والأخلاق وجهة لادينية ، فعملت
على قطع صلتها بالدين الذي يشكل المنبع أو المصدر للعلاقات الاجتماعية
والأخلاق الإنسانية ، وربطها بمصدر أو مصادر لادينية ، أي ما كان نوعها
المهم أنها لادينية ، أو لا تعتمد على الدين والوحي الرباني ، ليكن العقل
الجمعي كما قال دوركايم ، أو اللذة والشهوة الجنسية كما قال فرويد ، أو الاقتصاد
والمادة كما قال ماركس ، أو الطبيعة الجوفاء كما يقول الطبيعيون .

لقد انحدرت العلمانية بالمجتمع والأخلاق إلى حدٍّ أن جعلت الإنسان
حيوانا شهوانيا ، توجهه المصلحة وتحكمه المنفعة وتطفئ على حياته التمتع
الجنسية . ففسدت المرأة وانحلَّت الأسرة وانقطعت العلاقات الاجتماعية وفشت
مظاهر الفساد والانحلال الأخلاقي ، وصار كلُّ ما كان ثابتا بالأمس ومحكوما
بالدين والأعراف الاجتماعية الفاضلة ، متطورا متغيرا لا يستقرُّ على حال وفي
انحطاط مستمر نحو الأخلاق واللادين .

نعم صارت الأخلاق والروابط الاجتماعية التي كانت ساعدة فسي
العصور الوسطى من مظاهر التأخر والجسود والرجعية والتقاليد والعروشيات
البالية التي لا يجوز وجودها في منطلق العلمانية .

(٤) وطبعت العلمانية بطابعها المتحلل من الدين والأخلاق ،

الأدب والفن ، فصارت الصيغة اللادينية هي أبرز ما يتصف به الأدب والفن
في عصر النهضة العلمانية في أوروبا ، بعد أن كان إلى حدٍّ ما على صلة بالدين
والأخلاق .

يقول برينتون : (إنه طالما كانت العصور الوسطى في الواقع عصورا
دينية ، وطالما أن عصر النهضة يعني - على الأقل - محاولة العودة إلى الوثنية
اللا دينية إن لم نقل إلى الزندقة فإن فن العصور الوسطى يرتبط بالكنيسة ،
أما فن عصر النهضة فيمتنع بحرية بوهيمية) (٢)

(١) انظر مذاهب فكرية ص ٤٧٧ .

(٢) منشأ الفكر الحديث ص ٢٧ ترجمة عبدالرحمن مراد .

ويقول تولستوى : (أصبح المقياس الوحيد للفن الجيد والفن الردي هو اللذة الشخصية فالخير هو ما يبعث اللذة في نفوسهم وهذا هو الجميل)^(١) .
ومن الطبيعي أن يصبح الأدب والفن علمانيين من غير دين ولا أخلاق وذلك لأن الأدب كما يقال صورة أو مرآة لحياة المجتمع تنعكس عليها آثاره وعلامته وسماته وأخلاقه ، وقد عرفنا في الفقرة السابقة أن الأخلاق والوضع الاجتماعي قد فقدتا صلتها بالدين ، فكان لا بد أن يأتي الجهد الأدبي والفني لهذا المجتمع وثنياً لادينيها ، خصوصاً إذا ربطنا هذا بالأصول الوثنية الإغريقية التي ارتدت إليها ونهت منها النهضة الأوروبية المعاصرة .

ومن هنا فلمك ما لا يلفت النظر أن تكون الفنون والآداب الغربية أعمالاً وثنية لادينية ولا صلة لها بالأخلاق ، أو لا قيمة للناحية الخلقية فيها وذلك بسبب التوجيه العلماني المستمر لها . ما يجعلها لا تستطيع أن تؤثر في المجتمع أكثر من أن تجعله وثنياً خالصاً مقطوع الصلة بربه وتحللاً من كل قواعد الدين وضوابط الأخلاق .

ولقد مرَّ الفن والأدب العلماني في مراحل متعددة منذ بداية الوثنية الحديثة من الرومانسية أو عبادة الطبيعة إلى الواقعية أو عبادة الإنسان ، إلى الوجودية . . . إلى ما عرف أخيراً بأدب الجنس المكشوف ، إن جاز أن يسمى أدباً ، وهو في كلِّ مراحلها كان علمانياً هابطاً مقطوع الصلة بالدين والأخلاق ، حتى صار (الأدب للأدب) و (الفن للفن) و (الحياة للحياة) من أبرز الشعارات الوثنية التي اشتهرت في عالم الأدب والفن في المجتمعات العلمانية المعاصرة .

وفي هذا يقول بعض أصحاب هذه النظرية الوثنية للأدب والفن تحت عنوان : (الالتزام الوحيد الممكن للكاتب هو الأدب) : (ليس من الصواب الزعم أننا نخدم في رواياتنا قضية سياسية مهما كانت القضية تبدو لنا عادلة وحتى لو كنا في حياتنا السياسية نحارب في سبيل انتصارها ، إن الحياة السياسية تضطرنا دون انقطاع إلى افتراض معاني (كذا) معروفة : معاني تاريخية ، معاني أخلاقية ، إن الفن أكثر تواضعاً وأكثر طموحاً ، ففي نظره ليس هناك من شيء معروف مسبقاً ، وقبل العمل لا يوجد شيء : لا يقين ولا قضية ولا رسالة ، فالظن أن عند الروائي شيئاً يريد أن يقوله وأنه يبحث بعد ذلك كيف يقوله يمثل أخطر عمل ناقض للحقيقة)^(٢) .

(١) نقلاً عن العلمانية ص ٤٧٧ .

(٢) عن العلمانية ص ٤٨٠ .

إن العلمانية قد جردت الأدب والفن من الدين والأخلاق تجريدا
كاملا ثم أضفت عليهما الصفة الشرعية وجعلت ذلك هو الأصل الذي يجب أن
يكون عليه الفن والأدب دائما .

(٥) والعلم صار لا دينيا في العلمانية .

قلت عند تعريف (العلمانية) بأنها لا صلة لها بالعلم في لغة
أصحابها غير أن الترجمة العربية لها لم تكن أمينة ، إذ نسبتها - وعلى غير
القياس - (١) للعلم عندما أريد تصديرها للعالم الإسلامي ، لنزع الصفة
الدينية عنه في كافة المجالات - كما هو معنى العلمانية في الأصل - فنسبها
المترجمون إلى العلم زورا وهتانا ليخدعوا بها المسلمين لأنهم يحتفنون
بالعلم كثيرا ويفسحون له قلوبهم وصدورهم لتشجيع الإسلام للعلم واحترامه
للعلماء .

والذي أود أن أقوله هنا : أن العلمانية على فرض نسبتها للعلم
- وهو فرض لا تؤيده المصادر الأصلية للعلمانية - فإنها لا تعني غير فصل العلم
عن الدين وتوجيهه وجهة مادية خالصة كما هو شأنها في باقي شؤون الحياة
التي سبقت الإشارة إليها ، ووصل نسبتها بالعلم لا ينفي عنها الطابع اللاديني
المنحرف ولا يمنحها الشرعية وقبولا في دين الله لعناقاتها له من كل وجه .
وبهذا فهي مبدأ مرفوض ومذهب لا ديني باطل لأنها تعني شيئا آخر
خلاف ما يفهمه الناس ويتصورونه من ظاهر اللفظ ، على أساس أنها اهتمام بالعلم
وتشجيع له واتباع لأساليبه وتقدير للمكتشفات العلمية واحترام لجهود العلماء
والمفكرين التي تبذل لخدمة الإنسان .

إنها تعني عزل الدين عن العلم عزلا تاما ، وعدم السماح له بالتدخل
في مقررات العلم وسناده وأبحاثه ومعطياته ، وتعتبر أدنى تدخل له في ذلك
تجاوزا للحد وإفسادا للأمر ، بل إن مجرد ذكر اسم الله في مجال العلوم
يفسدها ويسلبها صفة الحقيقة والصدق الواقعية .

(١) زيادة الألف والنون غير قياسية في الاسم المنسوب في اللفظة

العربية وإنما جاءت سماعا كثرت في كلام المتأخرين كقولهم :

(روحاني ، وجسماني ونوراني . . إلخ) انظر العلمانية ص ٢١ .

وهكذا فإن علمانية العلم هي - كما يقول الدكتور محمد محمد حسين -
(الدعوة إلى الاعتماد على الواقع الذي تدركه الحواس ، ونبتذ كل ما لا تؤيد به
التجربة ، والتحرر من العقائد الغيبية التي هي عندهم ضرب من الأوهام
ومن العواطف بكل ضرورتها ووطنية كانت أو دينية ، يزعم أنها تضلل صاحبها ،
وتحول بينه وبين الوصول إلى أحكام موضوعية محايدة) .^(١)
ومن هنا فإن العلمانية تلتفى مصدرا هاما ورئيسيا من مصادر المعرفة ،
أوتحجر على أحد مصادرها وهو ما يأتي عن غير طريق الحس والتجربة المادية
ذلك هو ما يعرف بما وراء الطبيعة . أي ما جاءت به الأديان
عن طريق الوحي ومصدره الغيب الذي لا تدركه العقول والأفهام ولا يمكن
أن يخضع للأساليب والأسباب المادية المحسوسة والمشاهدة والتجارب العلمية
التي يجربها العلماء في المختبرات والمعامل ، في حين أنها حصرت المعرفة
في طريق واحد وهو ما شاهدته الحواس وأيدته التجربة وخضع لها ، وأنكرت
وجود كل شيء لا تنطبق عليه هذه الشروط العلمية الجديدة ، ومعنى هذا ،
أن (الله) سبحانه وتعالى الذي لا تدركه الأبصار ، وكل ما هو من أمور
الغيب أو بكلمة أخرى جميع قضايا الإيمان ، وهي الإيمان بالله وملائكته
وكتبه ورسوله . الخ .^(٢)
كل هذه الأمور ليس لها وجود في - منطلق - العلمانية ودعاتها ،
وذلك فقط لأنها لا تخضع لمقاييسها ولا تدخل معاملتها ، ولا يؤمن بها
طواغيتها وسدنتها وكهاتها من العلماء والخبراء الماديين ، ولا يقرونه إلا له
الجديد والمعبود الحديث (العلم !) في نظر العلمانيين ودعاة الوثنية .
يقول جوليان هكسلي في كتابه (الإنسان في العالم الحديث)
: (إن الإنسان كان يخضع لله بسبب الجهل والعجز ، والآن بعد أن تعلم
وسيطر على البيئة فقد آن له أن يأخذ على عاتق نفسه ما كان يلقيه من
قبل في عصر الجهل والمعجز على عاتق الله ، ويصبح هو الله) .^(٣)

(١) نقلا عن سقوط العلمانية ص ٣٩ .

(٢) تراجع حديث جبريل عليه السلام . رواه البخاري في الإيمان ٢٧ ،

ومسلم في الإيمان ٥ وأبو داود في السنة ١٦ ، والترمذي في الإيمان

٤ ، وابن ماجه في المقدمة ٩ .

(٣) نقلا عن مذاهب فكرية ص ٤٦٠ .

ويقول راندل في (تكوين العقل الحديث) : (أهمل القرن التاسع عشر بشكل أكيد الاعتقاد بأن (الله) مبدأ علمي ، فقد اختفى صانع الساعة الذي تصوره عصر التنوير مع تقدم التفسيرات العقلية والعلمية عن كيفية تشكل الكون . وإذا كان المتدينون من الناس ما زالوا يعتقدون بوجود خالق وراء هذه العمليات الطويلة فهم يفعلون ذلك على أسس دينية أكثر منها علمية) (١) .
ومن هنا فإنه إذا جاز لرجل العلم أن يعتقد شيئا من الدين بدافع شخصي فإن عليه - كما قال إميل بوترو في كتابه (العلم والدين في الفلسفة المعاصرة) - حين يدخل المعمل أن (يترك بالباب معتقداته الدينية ويستعبد لها عند خروجه) . (٢)

هكذا صارت أوروبا تعتقد أن العلم والدين ضدان لا يجتمعان ، فالعلم ينافي الدين والدين ينافي العلم ، ولا بدَّ للعلم أن يتحرر من قيود الدين ، ويبقى العلم وحده الحق والحكم وهو مصدر النور ، وإذا عرضت مسألة فليخرس الدين ولينطق العلم ، ليسبحث العلماء ويستخرجوا قوانين الطبيعة وأسرار الكون من غير أن يتدخل الدين لأنه شيء والعلم شيء آخر لأنه يعني الجمود والرجعية ، والخرافات والأساطير التي كانت تؤمن بها الكنيسة في القرون الوسطى يوم كانت السيادة للدين .

وبهذا فإن أوروبا آثرت العلمانية أو الوثنية بدلا عن الدين وأطلقت العنان وأرخت الحبل على المغارب ، لكل عالم أن لا يعتمد إلا على ما يقوله العلم ولو كان يتعارض مع تعاليم الدين .
وربما تكون أوروبا معذورة في معاداتها لدين الكنيسة ، واتجاهها نحو العلم وحده تستلهم منه الحقيقة والصواب ، وذلك لأنها بالإضافة إلى الاضطهاد والطفيان الذي كانت تمارسه الكنيسة ضد العلم والعلماء ، اكتشفت أن جميع المقدسات والأسرار التي كانت تفرضها الكنيسة تناقض العلم ولا تستقيم أمام البحث والتجريب ، واكتشفت كذلك أن كثيرا من الآراء والنظريات العلمية صحيحة وصادقة وإن كانت لا تتفق مع تعاليم الكنيسة .

(١) نقلا عن العلمانية ص ٣٢٨ .

(٢) عن المرجع السابق ص ٣٣٢ .

نعم . لم تكن العبودية التي فرضتها الكنيسة ورهبانها هي العبودية
الصحيحة التي تصلح للحياة ، فكان لا بدّ من التحرر منها والبحث عن
عبودية جديدة أفضل منها ، وكان من حقها أن تتشكل في كل شيء جاءها
عن طريق الدين ^{الكنسي} وتجرب وتكشف وتناقش وترفض ما ترفضه لتصل
بنفسها الى الحقيقة .

وبالفعل فقد فعلت ذلك وخرجت بنتائج وقوانين ومكتشفات وحقائق
علمية عظيمة وجبارة كان لها خير كثير وخدمات جليلة للإنسان ، لا أحد
يستطيع أن ينكرها أو يتجاهلها ، ولكن الخطأ كان في الانبهار العظيم
والإعجاب الكبير الذي بلغ حدّ التقديس والعبادة للعلم والعلماء ، وعبادتهم
من دون الله فيما قرروه من نظريات علمية مجردة عن الدين ولا تؤمن بما جاء
عن طريقه . (١)

وهذا هو الذي لا عذر لها - ولا لها غيرها - في أن تبغضه فتنكر الدين
وتجحد كلّ ما يأتي عن طريقه ، وتستعثر به وتسخر منه مرة أخرى بحجة أن
العلم لم يقل به ولا يؤيده ، ولا يتفق معه ، فهي بذلك تجعل من العلم
إلها حاكما مسيطرا وموجّها يستحق العبادة ، من دون الله ، وتوجب له الطاعة
والتسليم والرضى التام ، وتنزع من الناس ثقتهم بالله وتعاليمه وأحكامه ، وهذا
ما قد حصل بالفعل ، وصار العلم طاغوتا من طاغوت هذا العصر ووثنا من أوثان
هذا الزمان ، يأمر وينهى ، ويحظى بكل الطاعة والتقدير .

ومالا عذر لها فيه كذلك ، أنها لم تقتصر في موقفها هذا على دين
الكنيسة الذي أثبت الواقع والعلم أنه مناقض للعقل والمعرفة ، ولكنها أجهت
بحق كلّ دين سماوي وإسلامي على وجه الخصوص الذي كان لها به لقاءات تعتبر
كافية في شدها إليه واعتناقها له ، واستلهاه طريق الصواب ، ولكنها - لأسباب
كثيرة - انحرفت هذا الانحراف واتجهت هذا الاتجاه وفضّلت العلم المجرد من
الدين ، وكلمة أخرى فضّلت عبادة العلم من دون الله ، ورفضت أن يكون الله
حتى مجرد شريك للعلم في العبادة .

فأقامت مدارسها ومآهدها وجامعاتها ، ووضعت مناهجها ومقرراتها
الدراسية ، وأجرت تجاربها وقامت بأبحاثها ، وأقرت النتائج التي توصلت إليها
وفقا لهذه الوثنية ، بمعيدا عن مشورة الدين .

(١) انظر الإنسان بين المادية والاسلام ص ٥٣ - ٥٤ .

وهنا فقد تعاظم طاغوت العلم وسدنته واغترتوا بما وصلوا إليه من تقدم مادي ، فاستبدوا بتفسير كل ظواهر الحياة وقسروها تفسيراً مادياً صرفاً لا أثر فيه للروح أو الدين ، وسخروا العلم في كثير من الأحوال في وجوه الشر ، حتى صار العلم الذي يقره الناس بالمبودية ، مصدراً من أعظم مصادر الخطر التي تهدد حياتهم ووجودهم وتندرهم بالهلاك العاجل ، فازدادوا له خضوعاً وإذعانا وعبودية وأمعنوا في احتقار الدين وتجاهله ، ليرضوا بذلك معبودهم الجديد ويتقربوا إليه زلفى ، على أمل أن يجنبهم ناره ويدخلهم جنته .

والواقع أن مخاطر العلم تزداد يوماً بعد يوم ، كلما أمعن العلماء في البعد عن دين الله وراموا علماً مادياً خالصاً واستغنوا به عن الإيمان بالله . على أن هناك الكثير من العلماء الذين تحرروا من العبودية للعلم المجرد وتخلصوا من سيطرة الأوثان والطواغيت التي لا قداسة لها ، ورفضوا أن تكون للعلم هذه الهيمنة والسيطرة المجردة من الدين على عقولهم وأبحاثهم وتجاربهم ونتائجهم ، قد أدركوا خطورة الموقف ، وتنبهوا للنتائج الوخيمة التي سيؤدي إليها هذا الاتجاه الوثني للعلم وتجاهله للدين والروح والإيمان بالله والاعتماد عليه ، فأندروا به ، إلا أن العالم الفارق في الوثنية والذي لا يرضى أن يفارقها لم يسمع لهذه الإنذارات واستغرق في علمانيته وعبوديته الجديدة .

يقول أحد الباحثين في كتاب (العلم أسراره وخفاياه) : (إن العلم يواجه ورطة شديدة فالعلم هو البحث عن الحقيقة ، وأساس العلم العقيدة الراسخة بأن الحقيقة تستحق الاكتشاف وأن البحث عنها إنما ينبع من أشرف صفة من صفات الروح الإنسانية ، ومع ذلك فهذا البحث عن الحقيقة هو نفسه الذي جعل حضارتنا تقترب من حافة هاوية الدمار ، وعندما نواجه الآن السخرية التي تحولت إلى مأساة وهي أننا كلما نجحنا في توسيع آفاق معرفتنا كان ذلك نذيراً بقرب الخطر الذي يهدد بالقضاء السيرم على الحياة البشرية على هذا الكوكب ، فهذا السعي وراء الحقيقة أمدنا في آخر الأمر بالأدوات التي تمكننا من هدم مجتمعنا بأيدينا والقضاء على كل الآمال المشرقة لجنسنا ما صانا فاعلمين في هذا الموقف ؟ هل نكبح جماح العلم أم نتمسك (١)
بطلب الحقيقة رغم ما في ذلك من تعزيق وتهديد لمجتمعنا) .

ويقول جيمس جينز العالم الفلكي : (إن مشاكل العلم الكبرى لا يحلها إلا وجود الله) (١)

ويقول سومرست موم : (إن أوروبا قد نبذت اليوم إلهها وآمنت بالله جديد هو العلم ، ولكن العلم كائن متقلب فهو ينفي اليوم ما أثبت بالأمس ، ويثبت فدا ما نفاه اليوم ، ولذلك تجد عبادة في قلق دائم لا يستقرون) (٢) وأخيرا فسواء نظرنا إلى العلمانية كما هي في لغة أصحابها التي تعني (اللادينية) أو فصل الدين عن الدولة أو إقامة جميع مرافق الحياة بعيدا عن الدين ، أو حسب مفهوم الترجمة الخاطئة بنسبتها إلى العلم فإنها لا تخرج عن دائرة الوثنية .

فهي وإن كانت تقر بوجود الله وتوّه من به ، فإن هذا الإقرار وهذا الإيمان لا قيمة له ، لأنها لم تلتزم بحقيقته ومضمونه ، فالإيمان كما سبق بيانه ليس مجرد اعتقاد أو تصديق في القلب ، كما أن إنكارها للغيبيات أو ما جاء عن طريق الوحي لا يستقيم مع إقرارها بوجود الله وإيمانها به فإذا أرادت أوروبا أو غيرها أن توّه من بالله وتعتقد بوجوده تبعا لنداء الفطرة فإن هذا يستلزم منها الاعتراف والإيمان بكل ما جاء عن هذا الإله الذي لا تدركه الحواس ، ولا يخضع لقوانين الحس .

إلا أن الحقيقة غير هذا فالعلمانية عندما لا تقر إلا بما توّه يده التجربة ويقع تحت الحس تنكر وجوده ولا توّه من به أصلا فضلا عن أن توّه من الإيمان الصحيح وإن ادّعت غير ذلك ، وأعلنت عن ثقتها بالله وإيمانها به ، وفسح الحرية الدينية .

وأما بخصوص قضية التشريع فالعلمانية تعني إقصاء شرع الله وتحكيم الشرائع الوثنية التي وضعها البشر ، ولا مجال فيها لشرع الله لا في السياسة ولا في الاقتصاد ولا في أي شأن من شؤون الحياة باستثناء بعض جوانب الأحوال الشخصية وهي ليست مستمدة من شرع الله الصحيح .

وإذا كان الله ليس هو المشرع في العلمانية فإنه بالتالي ليس هو المعبود وعبادة الله غير متحققة في ظل العلمانية ، وإذا وجدت فهي عبادة ناقصة وباهتة لا قيمة لها في واقع الإنسان ، لأن دين الله كما هو عقيدة فهو شريعة تقوم عليها جميع شؤون الإنسان .

وهكذا فإن العلمانية لم تحقق أى شرط من الشروط الثلاثة كما ينبغي ،
مذالك فهي نظام وثني وتصور جاهلي ، يقوم على العبودية لغير الله تعالى في
قضية الحكم والتشريع ، فهي تتعارض مع دين الله الذي يجعل الحاكم لله
وحده في التحريم والتحليل والطاعة والاتباع ، كما يجعل العبادة له وحده
في التوجيه والإرادة والقصد في سائر الشعائر التعبدية .
ومن هنا فإن العلمانية صورة من صور الوثنية الحديثة التي تتعارض
مع الإسلام ولا مدخل لها بين المسلمين ، ولا يحل استيرادها والدعوة إليها
في العالم الإسلامي الذي يقيم العبودية الكاملة لله تعالى عقيدة وشريعة
ويعبد الله على هذا الأساس ﴿ إن الحكم إلا لله أمرأاً تعبدوا إلا إياه ﴾ (١)

(١) سورة يوسف آية ٤٠ .

موقف الإسلام من العلم والعقل :

إن القول بأن العلمانية والعقلانية من مظاهر الوثنية والعبودية لغير الله تعالى يشير في نفوس البعض شبهة بأن الإسلام يحارب العلم ويحجر على العقل ويمتهن العلماء ويضيق منافذ المعرفة، ويمنع التقدم والتطور والبحث والاكتشاف . . إلخ وبالتالي ينظرون إليه نظرتهم إلى دين الكنيسة المحرف ويحكمون على الإسلام كما حكموا على الكنيسة ودونها، لأنها كانت بالفعل تحارب العلم وتحجر على العقل باسم الدين .

ولهذا أردت في هذا المبحث أن أشير بإيجاز إلى موقف الإسلام من العلم والعقل لقطع الشبهات ومنع الظنون .

١ - الإسلام باعتباره دعوة إلى التوحيد وإخلاء العبودية لله تعالى وإقامة الحياة على هذا الأساس، هو حرب دائمة ومستمرة على الشرك في جميع مظاهره قديمها وحديثها، فالعلم والعقل وكل شيء في الحياة خاضع لهذا، فأى انحراف عن قاعدة العبودية لله يمدد باطلا ومرفوضا وإن ظهر بمظهر العلم أو العقل أو أى مظهر آخر، ولا يعتبر ذلك إضرارا بالعلم ولا حجرا على العقل . فهو يقدم منها متكاملا يقوم على التوفيق بين حاجات الإنسان الفطرية جميعها فيجعل منه كائنا بشريا متزنا ومنسجما مع الواقع العادي من حوله .

٢ - ومن ذلك أنه لا تعارض في الفطرة السوية بين نزعة العبادة ونزعة المعرفة، ولا بين الإيمان بالغيب والإيمان بما تدركه الحواس، فلا تنازع ولا خصومة بين الدين - المحقق المنبؤ في نظر العلمانية - وبين العلم المعبود والمقدس فيها من دون الله، إنما تعمل نزعة العبادة ونزعة المعرفة في تناسق كامل دون قلق ولا حرج ولا معاداة ولا تصادم .

وعلى هذا فقد قامت الحركة العلمية الهائلة وهي في وئام مع الدين وتحت راية العقيدة، بل ويدافع وتشجيع منها، ولم يشعر المسلمون في يوم ما أن العلم ينافي الدين أو العكس، لأنهما ليسا ندين متنافرين متعادين كل منهما يسمى للسيطرة على حساب الآخر ورغما عنه، ولكنهما متساندان متعاونان بلا تنازع ولا خصومة، فلم يكن العلم مصدر فتنة في الإسلام، بحيث يفتن الناس عن الدين، ويصير في حسهم إلههم ومعبودهم من دون الله، أو معه على أقل تقدير .

فالعالم في نظر الإسلام أياً كان تخصصه ومجال علمه يجب أن يكون على قدر ومعرفة بعلوم الدين، هذا ما كان عليه علماء الإسلام في كثير من الأحيان فقد كان أحدهم عالماً في الطب أو الفلك أو الكيمياء... إلخ وهو في الوقت نفسه عالم متطلع بالعلوم الدينية، لا يصرفه العلم عن الدين ولا يبمده الدين عن العلم. (١)

٣ - الإسلام يعترف بوجود مصدرين للمعرفة، لا يقوم أمر البشرية إلا بهما معاً، ولكل مصدر مجاله واختصاصه، ولا تعارض بينهما. أما أحدهما فهو الوحي وهو يختص بما لا يقع تحت الحس والمشاهدة ولا يخضع للتجربة. وأما الآخر فهو ما يعتمد على العقل والحس والمشاهدة والتجربة. وعلمية حصر المعرفة في أحدهما تعتبر في نظر الإسلام فكرة خاطئة ليس لها سند تعتمد عليه.

فالكنيسة عندما جعلت تعاليمها - باسم الدين - هي مصدر كل العلوم فحاربت العلم والعلماء كانت على خطأ لا يقره الإسلام ولا يعترف به. والعلمانية عندما أهملت الدين وضخت الجانب المادي من المعرفة كانت أشد جاهلية، والإسلام لا يعرف هذه ولا تلك. فالإسلام لا يقر الاعتماد على الواقع الذي تدركه الحواس وحده لأنه بذلك يكون قد تجاهل عالمنا واسمنا كبراً من الحقائق، لا تصل إليه الحواس، ولا تصل إليه التجربة، وهو عالم الغيب أو ما يسمى بالـ (٢) وراء الحس والطبيعة وهو ما يعلم عن طريق الوحي الرباني.

(١) انظر مذاهب فكرية ص ٤٧٩، ٥١٧، ٥١٩.

وانظر الإيمان والحياة للقرضاوى ص ٣٢٣.

والإيمان وأثره في حياة الإنسان ص ٢٦١.

(٢) انظر سقوط العلمانية - أنور الجندي ص ٤٠ - ٤٥.

وانظر: صراع مع الملاحدة حتى العظم / عبد الرحمن الميداني /

ص ٢٦١ - ٢٧٢ / ط ٢ دار القلم.

ومن هنا فإن نظرة العلمانية إلى العلم والوقوف به عند المحسوس وحده ، تعتبر نظرة قاصرة ومحدودة ، وغير قادرة على استيعاب جميع جوانب الحياة ، وغير كفيلة بتقديم المنهج الذي يتناسب مع الفطرة البشرية التي لا تستغني عن نوازع العبادة التي فطرت عليها كما فطرت على غيرها من الحاجات .

٤ - اقتصار العلم على الماديات والمحسوسات دون الغيبيات لا يعتبر عيبا ولا خلافا ولا نقصانا فيه ولا تضيقا عليه لأن هذا في الأصل هو مجاله واختصاصه وهذه حدوده ، فالعلم منهج صحيح وسلم لمعرفة المادة بأساليبه وقوانينه وقواعده ، ولكنه ليس منهاجا صالحا لمعرفة الغيب .
والعلم في حد ذاته كان وما زال قاصرا أن يحيط بما هو مخصصه فكيف يتجاوز حدوده لينفي أو يثبت شيئا ليس من اختصاصه ولا هو بمقدوره ؟
فهو ما يزال عاجزا عن كشف ماهيات الأشياء واقتصر على تفسير ظواهرها ، وهناك أمور كثيرة وقف العلم أمامها عاجزا وهي في دائرته واختصاصه ، فكيف بأمر الغيب وتعاليم الدين ؟

يقول أحد العلماء الغربيين الذين أدركوا هذه الحقيقة : (إن نتائج العلوم تبدأ بالاحتمالات ، وتنتهي بالاحتمالات وليس باليقين ، ونتائج العلوم بذلك تقريبية ، عرضة للأخطاء في القياس والمقارنات ونتائجها اجتهادية ، وقابلة للتعديل والحذف ، وليست نهائية . واضطر العلم منذ أجيال أن يترك البحث في كنه الأشياء بعد أن تبين أنه لا سبيل إلى معرفة الكنه المغيب عن الحواس واكتفى بدراسة ظواهرها) (١) .

ويقول برتراند رسل : (إن العلم يقرر أحكاما على سبيل التقريب ، لا على سبيل اليقين) . (٢)

وقال أحمد أمين : (إن العلماء قد اتجهوا بمنهجهم العلمي اتجاهها صحيحا نحو "عجلة" العالم يفتحصونها ويجربونها ويمتحنونها ولكنهم لم يتجهوا نحو "محرك" العجلة ، وليس في مقدور علمهم وحده - وهو مبني على الحس والتجربة - أن يضع أيديهم على محرك العجلة ، لأنه لا يرى ولا يدرك بالحس ولا يدخل المعمل ، ولا يجري في أنابيب الاختبار .

(١) نقلا عن سقوط العلمانية ص ٤٦-٤٧ .

(٢) نهض الخاطر أحمد أمين ج٤ ص ١٦٠ .

لقد تقدم العلم وتقدم واعتز بنفسه وملاه الفرور ، ومع هذا كله لم
يستطع أن يفسر إلا السطح وإلا المظاهر (١) .

وهذا هو صدق قوله تعالى ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ (٢) .
فإن العلم البشري محدود فمنها تقدم وتطورت أساليبه واتسعت
أفاقه يبقى محدودا لا يستطيع أن يحيط بكل شيء ، وعليه أن لا يتجاوز
ما خصص له (٣) .

هـ - الإسلام يشجع العلم ويقدر العلماء ويدعو إلى التأمل والتفكير
والبحث والتجريب ، والمسلمون هم أول من عرف أسلوب التجريب في العلم ،
وكان ذلك بدافع من الدين الإسلامي وأوروبا مدينة لهم في ذلك .

أما أن الإسلام يشجع العلم ويقدر العلماء فهذه حقيقة واضحة
ليمن من الضروري - كما يقول محمد أسد - أن نستشهد بأيات القرآن الكريم
أوبأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم للدفاع عن موقف الإسلام من العلم .
إن التاريخ يبرهن أنه ما من دين أبدا حثَّ على التقدم العلمي كما حثَّ عليه
الإسلام ، وأن التشجيع الذي لقبه العلم والبحث العلمي من الدين الإسلامي
انتهى إلى ذلك الإنتاج الثقافي الباهر في أيام الأمويين والعباسيين وأيام دولة
العرب في الأندلس .

وأن أوروبا لتعرف ذلك حق المعرفة لأن ثقافتها هي نفسها مدينة
للإسلام بتلك النهضة على الأقل بعد قرون من الظلام الدامس .
إن الإسلام لم يقف يوما ما سدا في وجه التقدم والعلم ، إنه يقدر الجهود
الفكرية في الإنسان إلى درجة يرفعه فيها فوق الملائكة ، وما من دين ذهب
أبعد من الإسلام في تأكيد غلبة العقل وبالتالي غلبة العلم على جميع مظاهر
الحياة (٤) .

نعم هذه ميزة فريدة اختصَّ بها الإسلام ويكفي العلم والعلماء فخرا
أن الله تعالى قد جعل أهل العلم من الشهداء على وحدانيته وألوهيته كما في
قوله تعالى ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط ﴾ (٥) .

(١) فيض الخاطر أحمد أمين ج ٤ ص ١٦٠

(٢) سورة الإسراء آية ٨٥ .

(٣) انظر الإيمان والحياة ص ٢٢٨ - ٢٣٠ والإسلام اليوم ، أحمد أمين

ص ٢٠٩ - ٢٠١ .

(٤) الإسلام على مفترق الطرق ص ٢٠ - ٢١ .

(٥) سورة آل عمران آية ١٨ .

ولا يستطيع أحد أن يدعى خلاف هذا ، أو أن يساوى في الحكم بين الدين الإسلامي وتعاليم الكنيسة في موقفهما من العلم .
فالإسلام يدفع الإنسان إلى العلم دفعا ويحضه عليه ويجعل له في ذلك ثوبا وتكريما .

فقد كان العلم شعارا له منذ اللحظة الأولى كما في قوله تعالى :
﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق . . . اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ (١) .

وروى ابن ماجه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (طلب العلم فريضة على كل مسلم) (٢) .
وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِنِ الطَّلَاقُ لَتَضَعُ أَجْنَحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ . وَإِنِ طَالِبُ الْعِلْمِ يَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ حَتَّى الْحَيَاتَانِ فِي الْمَاءِ ، وَإِنِ فَضَلَ الْعَالَمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ . إِنْ الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ ، إِنْ الْأَنْبِيَاءُ لَمْ يُوْرثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا ، إِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِظِّ وَافِرٍ) (٣) .

وأما أن الإسلام يدعو إلى التفكير والتدبير والبحث والتجربة والتحصين فهذا ما سيتضح بعد قليل بمشور الله .

وأما أن المسلمين هم أصحاب المنهج التجريبي ولهم الفضل في ذلك فلم يسبقوا إليه في تاريخ العلم البشري ، فالكنيسة كانت تحارب ذلك والروم والافريق لم يعرفوه من قبل ، وإن كان يخلب عليهم تقديس المسادة والمحسوسات ، وبهذا فإن أوروبا بحق مدينة للمسلمين في هذه الناحية ، وقد أخذوه منهم وعرفوه عنهم في مناسبات اللقا معهم في السلم والحرب .

(١) سورة العلق آية ١ - ٥ .

(٢) رواه ابن ماجه في المقدمة ١٧ .

(٣) رواه أبو داود في العلم ١ ، وابن ماجه في المقدمة ١٧ .

وقد اعترف بهذا كثير من المستشرقين وكتاب الغرب ، يقول (جب)
في كتابه (الاتجاهات الحديثة في الإسلام) : (اعتقد أنه من المتفق عليه
أن الملاحظة التفصيلية الدقيقة التي قام بها الباحثون المسلمون قد ساعدت
على تقدم المعرفة العلمية مساعدة مادية ملموسة ، وأنه عن طريق هذه الملاحظات
وصل المنهج التجريبي إلى أوروبا في العصور الوسطى) (١)

والمسلمون الذين طبقوا المنهج العلمي التجريبي واكتشفوا الأسباب
الكونية وسنن الحياة الظاهرة لم يقتصروا على ما تدركه الحواس ، ولم يفتنوا بما
وصل إليه علمهم ، ولم يكن ذلك دافعا لهم للإلحاد والشرك بالله ، وإنما كان
ذلك دافعا قويا لمزيد من الإيمان والتثبيت وقوة الثقة بدين الله والاعتصام
به ، فربطوا كل ما وصل إليه علمهم في ميدان التجربة العلمية والأسباب الظاهرة
في الكون والإنسان بالدين ولم يشعروا بأن هناك أدنى تعارض أو اختلاف
فردوا كل شيء في النهاية إلى مشيئة الله وقدرته التي يجزيها على شكل سنن
وقوانين مبثوثة في هذا الكون (٢)

وهذا ما لم توفق إليه العلمانية ، وأبوالأحرى لا تريد الاعتراف به لأنه
يعني في حسبها العودة إلى عهد الدين والخرافة والأساطير ومعاداة العلم .
ولكون الإسلام مشجعا للعلم على أساس البحث والتجريب والتثبيت
واليقين فهو لا يقرُّ الظنون والشكوك والتخرصات ، وينفي كل الاعتقادات
الباطلة التي لا سند لها من العلم أو الشرع وتتناقض مع المنهج العلمي الصحيح
فهو يحارب الخرافات والأوهام والسحر والشعوذة والتنجيم ، وتحضير الأرواح .
إلخ مما لا سند له ولا دليل عليه ، إلا اتباع الظن الذي لا يفني من الحق
شيئا ، ويدم كل من يسلك هذه المسالك الباطلة أو يتعاطاها ، ويطالبهم
بالدليل والبرهان أو أدنى إشارة من علم صحيح (٣)

(١) نقلا عن صراع مع الملاحدة ص ٢٧٩ .

(٢) انظر مذاهب فكرية ص ٥٢٠ - ٥٢٢ .

(٣) انظر الإيمان وأثره في حياة الانسان ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .

وانظر سقوط العلمانية ص ١٠٩ - ١١٢ ، ١٥٦ .

٦ - الإسلام لا يقرُّ العبدُ الوثني الذي يسير فيه خط العلم في الوثنية الحديثة وهو (العلم للعلم) أو (المعرفة للمعرفة) ، لأن العلم أو المعرفة في الإسلام مسخرة وموجهة لقضية أعظم من ذات العلم أو عين المعرفة ، إنه موجه في سبيل تقوية الإيمان بالله وإقامة العبودية الكاملة له ، ولم يكن طلب العلم لذاته هدفاً ولا غاية في نظر المسلمين بل كان طلبهم للعلم في طاعة الله ورضاه ، ليزداد الذين آمنوا إيماناً ويستيقن المتشككون ويهتدى الضالون الحائرون .

فالعلم وسيلة هادية إلى الله تعالى ، بل هو خير وسيلة إذا وُجِّه التوجيه الصحيح وأخذ المأخذ السليم ، لأنه يكشف عن الحقيقة ويوصل إلى اليقين ، ولهذا كان العلماء هم أحق بالخشية والخوف والتعظيم والإجلال لله تعالى لما يظلمون عليه ويعرفونه من سنن الكون التي جعلها الله تعالى في خدمة الإنسان ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ (١) .

٧ - الإسلام وإن كان يشجع العلم ويدعو إليه ، ويحفز الإنسان لطلبه ويحترم فئة العلماء وذوى الألباب ويجعلهم في مرتبة ورثة الأنبياء إلا أنه مع كل هذه المعاني النبيلة لا يسمح أن يصل الأمر لدرجة الطفيلان والإلحاد ، فيطغى العلماء ويمتدوا بأنفسهم ، وما وصلت إليه أبحاثهم فلا يشقون إلا بما تفره وسائلهم العلمية المادية ، وينكرون ما جاء به الأديان السماوية من أفكار ومعتقدات دينية يتعذر إخضاعها لعلومهم ووسائلهم ، ويعتبرونه وهماً وخرافة لا وجود له .

وإذا ما اعترف الإسلام للعلم بفضل كبير على المدنية الحاضرة وغيرها فلا يعترف له بالعصمة ولا بالمقدرة على الوصول بالإنسان إلى المعرفة القصوى التي تترتب عليها الحرية القصوى ، المعرفة المسلمة بكل شيء والموءدية إلى القدرة على كل شيء كما يريد الذين أسكرتهم نشوة انتصارات العلم والعلماء في العصر الحديث فأدى بهم الأمر إلى الشرك والوثنية والعبودية لغير الله في ظل العلمانية والعقلانية .

(لقد حرص الإسلام عن طريق منهجه القرآني أن يحذر الإنسان من انشطارية المعرفة وانشطارية الحياة والتفرقة بين جوانبها المختلفة كما قدم

له منهجا كاملا عن " عالم الغيب " حتى يكون على بيّنة منه ، فلا يحتاج إلى البحث عنه ولمضي في طريقه إلى كشف أبعاد الحياة والتماس ذخائرها وكتوزها وبناء المجتمع وإنشاء الحضارة وإقامة أسباب العمران وقد أقام الإسلام منهجه على قاعدة واحدة كلية هي : التوحيد .

فالإيمان بالله والإقرار له بالعبودية والخلق والأمر هو دعامة الأمر كله ، ومنه تنطلق كل أسباب الحياة (١) .

ولكن " العلمانية " (٢) شيء غير هذا تماما فهي تجعل من العلم طاغوتا يعبد من دون الله ، وتمنح العلماء والفكرين حرية مطلقة تجيز لهم التحلل من كل التزام ديني ، وتجعل منهم أحرارا ورهبانا علمانيين محللون ويحرمون ، يشتمون وينفون على غير هدى من الدين ، ويتفخرون بالإلحاد .

وهذا فالعلمانية ليست علمية ولا تسير في خط العلم والمنهج التجريبي بمقدار ما هي نظام وثني يرفض أن يكون الدين أساسا لحياة البشر ومقدار ما هي دعوة للتحلل والتحرر من قيود الدين وتعاليمه وجميع أفكاره ومعتقداته ، فهي بذلك تستهدف معارضة وجود الله والأديان والرسل والكتب السماوية وجميع الغيبيات والشرائع الإلهية وإقامة ديانتها الوثنية الحديثة على تأليه العلم وتقديس العلماء بطاعتهم واتباعهم في معصية الله .

٨ - الإسلام منهج متكامل وشامل ونظام عام وحقيقي للمعرفة يجمع بين العلم المادي المحسوس والإيمان بما جاءت به الأديان .

ولهذا فإنه يخطيء من يظن أن العلم الصالح كله في الشريعة ومقصود عليها ويسعى لاستنباط علوم الكون كلها من نصوص الدين احتسافا وتأولا ، وإن كانت تلك النصوص لا تتعارض أبدا مع صحيح تلك العلوم .

وكذلك يخطيء من يظن أن العلم كله ما أدركته الحواس ورتبه العقل ومحضته التجربة أو أن ذلك وحده كاف للإنسان في كل شؤونه (٣) .

(١) سقوط العلمانية ص ١٠٠ .

وانظر الإسلام في حل مشكلات المجتمعات الإسلامية المعاصرة

ص ٣٨ - ٤١ .

(٢) على فرض نسبتها للعلم .

(٣) انظر الإيمان وأثره في حياة الإنسان ص ٢٦٠ .

وخصائص التصور الإسلامي ص ٢٣٢ .

وحياة الإنسان لا تستقيم إلا باستكمال شعاب العلم الشرعية والطبيعية
تهديه الشريعة وتضبط حياته ، ويزيده علمه العقلي هدى وعبادة ، وإلا فهو
يوشك أن يجعل من اكتساب العلم الطبيعي والتقوى به غاية في حد ذاتها
فيؤدي به الأمر إلى عبادة العلم من دون الله ، ومن ثم يحتقر نفسه ويستصفرها
أمام حقايقه ومعظياته ويصير عبدا ذليلا مسخرا في طاعة المادة الصماء .

(إن خلاف منهج الإسلام الشامل في العلم والمعرفة ، ليس مع العلم

التجريبي ، ولكن مع العلمانية بفهوم النظرية المادية التي تستوعب الاجتماع
والنفس والأخلاق ، في منهج تجريبي مادي ، ذلك أن منهج الإسلام في
المعرفة والعلم جميعا يقوم على أساس الترابط بين العقل والقلب ، وأن أخطر
ما في التقدم العلمي الصناعي ، هو انفصاله عن الخلق والدين ، انفصال العلم
عن الأخلاق وانفصال الحضارة عن الدين . والانفصال في مجال التطبيق
لمنجزات العلم ، هو الذي أحدث آثاره الخطيرة في حياة الإنسان) (١)

وقد أجمع عقلاء الشرق والغرب مؤمنهم وملحدتهم أن الإسلام ليس
مجرد عقيدة دينية وقضية شخصية لا علاقة لها بالحياة ، ولكنه نظام شامل يجمع
بين الدنيا والآخرة ويربط جميع شؤون الحياة ويضفي عليها صفة الدين وملاح
الإيمان ويسخرها لخدمته .

ولهذا فقد اعترف غير واحد من المفكرين غير المسلمين أنه قد وجد
في الإسلام (اتحاد الدين والعلم ، وأنه الدين الوحيد الذي يوحد بينهما
وأن الدين موضوع بدائرة العلم) (٢)

وصدق الله العظيم * اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي
ورضيت لكم الإسلام ديناً * (٣)
* ومن يستغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل
منه وهو في الآخرة من الخاسرين * (٤)

(١) سقوط العلمانية ص ١٦٨ .

(٢) نقلا عن المرجع السابق ص ١٩٧ .

(٣) سورة المائدة آية ٣ .

(٤) سورة آل عمران آية ٨٥ .

وإذا كان هذا هو موقف الإسلام من العلم فإن موقفه بالتالي لا

يختلف بالنسبة للعقل الذي هو أداة العلم ومرتكبه .

وليس هدفي هنا أن أستعرض موقف الإسلام من العقل ، ولكنني سأكتفي

بذكر بعض النقاط التي تدل على احترام الإسلام وتقديره للعقل وبالتالي

احترامه وتقديره للإنسان الذي هو محل العقل .

١ - الإسلام متفرد ومعتدل في نظره إلى كل شيء ، وهو في موقفه

من العقل أوضح ما يكون ، فكما أنه لا يحقره ولا يزدريه ولا يحجر عليه ، فهو

في الوقت نفسه لا يسمح له أن يصير معبوداً مع الله أو من دونه كما فعلت

الأنظمة البشرية المادية ، فلا إفراط ولا تفريط نظراً معتدلة تقدر للعقل أهميته

ودوره في المعرفة ، وتتقف به عند حدٍّ معين فلا يتجاوزه .

٢ - ومن ذلك أنه جعل العقل شرطاً ومصدراً هاماً من مصادر المعرفة

، إلا أنه لم يجعله المصدر الوحيد ، فجعل معه الوحي هادياً ومرشداً ومسوّداً

له حتى لا ينحرف ولا يضل الطريق .

يقول شيخ الإسلام ^{رحمه الله} : (العقل شرط في معرفة العلوم ، وكمال وصلاح

الأعمال وبه يكمل العلم والعمل ، لكنه ليس مستقلاً بذلك ، لكنه غريزة فسي

النفوس وقوة فيها بمنزلة قوة البصر التي في العين ، فإن اتصل به نور الإيمان

والقرآن ، كان ككوز العين إذا اتصل به نور الشمس والنار .

وإن انفرد بنفسه لم يبصر الأمور التي يعجز وحده عن دركها

وإن عزل بالكلية كانت الأقوال والأفعال مع عده أموراً حيوانية) (١) .

فالعقل في نظر الإسلام ليس المصدر الوحيد للمعرفة كما هو في نظر

العقلانية ، وقد رأينا الانحراف الذي وقعت فيه عندما جعلت العقل هو

المصدر الوحيد للمعرفة حيث أدى بها الأمر إلى إنكار الإيمان بما وراء الحس

والتجربة والمشاهدة وكل ما لم يتصوره العقل ، وبالتالي عبادة العقل من دون الله

ما جعلها نموذجاً من نماذج الوثنية .

٣ - ومن مظاهر تكريم الإسلام للعقل أنه جعله ساط التكييف ، فإذا

ذهب العقل سقطت تبعاً لذلك التكاليف الشرعية ، ولم يعد الإنسان مسوّباً ولا

عن فعله أمام الله تعالى .

- ٤ - ومنها أنه دعاه دعوة صريحة إلى التدبر والتفكير والتأمل وإرجاع البصر/ بعد كرة^{كرة} ، وحشه على طلب البرهان والدليل وعدم التسليم إلا بعد الاقتناع وظهور الحجة وبيان الأمر ، والآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية بهذا الصدور كثيرة جدا ، كلها تنهى العقل عن الظن والخرافات والأوهام وتأمره باستعمال طرق المشاهدة والتجربة وحسن الاستنتاج .^(١)
- ولا أعلم - كما يقول أحمد أمين - (دينا أو مبدؤا أو مسلكا أو طريقة عدا الدين الإسلامي جعل البرهان شعارا وطرق التجربة والمشاهدة معيارا)^(٢) . وقد صار من المعلوم والمسلم به عند كل عاقل منصف أن المسلمين هم أول من استخدم العقل بطريقة سليمة تقوم على أساس البحث والتجربة ومنهم من نقلت أوروبا الأسلوب العلمي في البحث ولكنها لم تأخذ الروح الإيمانية التي كانت ترافقه دائما ولا تنفصل عنه ، ف وقعت في عبادة العقل وخضعت لأصحاب العقول ، من دون الله ، وهذا ما لم يقع فيه المسلمون في سالف عهدهم .
- ٥ - وإذا كان الإسلام يقدّر العقل ولكنه لا يبالغ في تقديره بحيث يجعله هو المحكم في كل شيء وهو المرجع الأخير في كل شيء ، فإنه قد منعه من ثلاثة أمور لأن العقل لا يستطيع بنفسه أن يصل إليها لأنها ليست في محيط تجربته ، وإن كان بمقدور العقل أن يعقلها ويدركها ويفهمها عندما توضح أو تبين له ، فهذه الأمور يتلقاها العقل بالتلقين المباشر عن طريق الوحي ، وما على العقل إلا أن يتيقن من صدقها وصدق من جاء بها .
- وأما هذه الأمور التي حُظرت على العقل البشري فهي : التفكير في ذات الله ، والتفكير في القدر . والتشريع من دون الله .^(٣)
- قال صلى الله عليه وسلم : " تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله " وقال : " وإذا ذكر القدر فأسكوا " ^(٤)
- وقال تعالى : وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ^(٥)

(١) انظر مدخل الى موقف القرآن الكريم من العلم / دعوات الدين خليل /

ص ٨١ - ١٠٠ / ط ١

(٢) التكامل في الإسلام / أحمد أمين / ج ١ ص ٢٦ ط ٤ .

(٣) رواه أبو نعيم . انظر صحيح الجامع الصغير ج ٣ ص ٤٩ .

(٤) رواه الطبراني في الكبير ج ٢ ص ٧٨ ، وأوردته اللبناني في السلسلة

الصحيحة ج ١ ص ٤٢ .

(٥) سورة المائدة آية ٤٤ .

أما الأمر الأول والثاني فالمنع أو الحظر فيهما ليس على وجه الالتزام والحجر والتقييد على "حرية الفكر" كما قد يظن البعض، وإنما هو/سبيل^{على} النصيحة والإرشاد لصيانة العقل وجهد الفكر أن يتبدد فيما لا طائل وراءه ولا نتيجة بعده.

فللعقل إذا هو أصّر على أن يلج هذا الباب أن يفعل ذلك، ولكنه بالتأكيد - وكما يشهد بذلك تاريخ الانتاج البشرى منذ الفلسفة اليونانية إلى ما عرف بالفلسفة الإسلامية وعلم الكلام - لم يصل إلى أي شيء، ولا بد أن تضع كل الجهود التي سبذلها في ذلك، ومن هنا فحفاظا عليه وصيانة له أشار عليه السلام باعتزال هذا والتزام ما جاء عن طريق الوحي لأنه هو السبيل الوحيد وأداة الوصول المشروعة لتلك الأمور.

وإذا أصّر العقل على أن يتفكر في كنه الله أو ذاته، ويخوض في علم القدر فإنه لا محالة سيضل وينحرف عن سواء السبيل، وما له إلا الانقياد والتسليم والرضى والقبول ليجد بعد ذلك الطمأنينة والسعادة الحقيقية.

قال تعالى ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ (١).

وأما الأمر الثالث فإن الحال فيه يختلف عما سبق، فالمنع والحظر فيه ليس على سبيل النصح والإرشاد والتوجيه فحسب وإنما هو بالفعل على سبيل الالتزام والحجر، لأن حق التشريع ما اختص الله به ولم يكله إلى أحد سواه، لأنه سبحانه وتعالى هو الإله الخالق والمستحق للعبادة وحده، وهو إلى جانب هذا العليم الخبير بشؤون الخلق، فلهذا استأثر بقضية التشريع لنفسه ولم يجعلها لأحد من خلقه.

قال تعالى ﴿إن الحكم إلا لله...﴾

وقد جعل الله سبحانه وتعالى: الخروج عن شريعته والحكم بغير ما أنزل، والتعدي على حقه سبحانه وتعالى في التحليل والتحريم، استنكافا عن عبوديته وعبودية لغيره، وشركا به، بل قد يصل الأمر لدرجة الكفر نعمون بالله من ذلك.

لهذا فالمسألة مسألة إيمان أو كفر، مسألة توحيد أو شرك ومسألة عبادة لله تعالى أو عبادة لمعبودات أخرى باطلة.

(١) سورة الرعد آية ٢٨.

(٢) سورة الأنعام آية ٥٧.

ومن هنا جاء منع العقل من هذا الباب لأنه لا مدخل له إليه أصلاً ولا قدرة له عليه ، فمن أخصّ صفات الحاكم المشرّع أن يكون عالماً ومحيطاً بالزمان والمكان وحاجات من يشترع لهم وهذا يستلزم أن ينظر إليهم نظر شمول وإحاطة وإدراك ، فيكون عليماً خبيراً دائماً لا يفيب ، ويكون من غير جنس المحكومين حتى لا ينحاز إلى فئة دون أخرى ، ولا يشرع عن جهل وهوى وشهوة . ❖ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ❖ (١) والعقل البشري يفتقر إلى كلّ هذا ، وهو بالتالي قاصر وعاجز عن أن يقوم بدور التشريع على الوجه المطلوب ، وتاريخ الجاهليات البشرية والأنظمة الوثنية كلها يشهد بأن العقل البشري كلما تعدّى حدوده وتجاوز نطاقه وتطاول على مقام الألوهية ، ونصب من نفسه مشرعاً - كما هو الحال في العقلانية وغيرها من صور الوثنية الحديثة - فإنه يضل سواه السبيل وينحرف عن خط سيره وتكون بذلك العواقب وخيمة على البشرية بما تصير إليه من الفوضى والفساد والانحلال ، ولا أدلّ على ذلك من واقع البشرية اليوم في ظل الوثنية الحديثة ، التي اتخذت من دون الله أرباباً فشرعوا لها ما لم يأذن به الله ، فأوردوها الهلاك في الأولى قبل الآخرة (٢) . ❖ ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ❖ (٣)

هذه هي الأمور التي لا مدخل للعقل فيها ، وما سواها فللعقل كامل الحرية في أن يفكر ويتأمل ويبحث ويجرب ويتدبر ، بل إن الإسلام يعيب عليه التقصير في ذلك .

(١) سورة الملك آية ١٤ .

(٢) للتوسع في الفقرة الخامسة راجع كتاب مذاهب فكرية معاصرة ص ٥٢٣ -

٥٢٩ .

(٣) سورة الزمر آية ٢٦ .

٥ - القومية والوطنية :

(١)
تعريف القومية والوطنية :

القومية نسبة إلى القوم والانتما إليه ، ومعناها أن أبناء الأصل الواحد واللغة الواحدة ينهفي أن يكون ولا وهم واحدا وإن تعددت أرضهم وتفرقت أوطانهم واختلفت أديانهم وألوانهم .
ومعنى هذا أن القومية تقوم على مبدأ الانتساب أو الانتما إلى عنصر معين من العناصر البشرية أو جنس محدد من أجناسها والتعصب له وتقديسه وتمجيده والاعتزاز به والاعتقاد بأنه صاحب السيادة على باقي العناصر والأجناس الأخرى .

وأما الوطنية فهي النسبة إلى الوطن والانتما إليه ومعناها أن يشعر جميع أبناء الوطن الواحد بالولا لذلك الوطن والتعصب له ، أي كانت أصولهم التي ينتمون إليها وأجناسهم التي انحدروا منها ، أي أن الولا فيها للأرض بصرف النظر عن القوم أو اللغة أو الجنس أو أي رباط آخر .
ومعنى ذلك أن الوطنية تمجد الوطن وتقدر ترابه وتعتبره أساس كيانها ووجودها .

وأياً كانت التعريفات والغوارق بين هاتين الفكرتين فإن الذى يعنينا هنا شيء غير هذا وهو هل المبدأ الذى تقوم عليه كل منهما يصلح أن يكون رابطة قوية وأساساً متيناً لقيام الدول والمجتمعات البشرية المترابطة المتآخية فيما بين أفرادها ؟

فهل القوم أو الجنس أو العرق أو الدم الذى تقوم القومية عليه يكفي وحده أن يكون أساس التجمع ؟
وهل الوطن أو تراب الأرض وغارها يصلح لهذه الغاية السامية ؟

(١) انظر مذاهب فكرية ص ٥٥٤ .

وفكرة القومية العربية على ضوء الإسلام ، صالح بن عبد الله العبود ص

٥ - ٨ ط ١ ،

وانظر كذلك الشبهات والأخطاء الشائعة لأنور الجندي ص ٢٦٦ .

أوبكلمة أخرى هل دين الله الصحيح يقرّ مثل هذه الروابط ويعترف بها ويرضى أن تكون هي أساس تجمع البشر ولا شئهم وانتمائهم ؟
أو هل يمكن أن يقرّ لها بهذا التقديس والتعظيم والتمجيد والإكبار والسيطرة على عقول البشر وقلوبهم ؟
هذا ما سأبينه عند عرض موقف الإسلام من ذلك ، ولكن بعد أن أقدم فكرة موجزة عن نشأة هذه الفكرة الوثنية في أوروبا وكيف أصبحت هي البديل عن الديانة النصرانية التي كانت تجمع بين الشعوب الأوروبية على تعدد قومياتها وأجناسها وعناصرها ودمائها واختلاف أراضيها وتباعد مواطنها كما يدل عليه تاريخ الامبراطورية الرومانية .

ولا يعني هذا بالطبع أن هذه الفكرة من بنات العصور الحديثة ، فقد كانت القومية معروفة عند الإغريق والرومان في تفضيل بعض الطبقات على بعض وتقسيم المجتمع إلى سادة وعبيد ، وكذلك الحال عند العرب في الجاهلية ، فكانت العصبية القومية من أبرز مظاهرها .

نشأتها وتطورها :

(القومية والوطنية) مظهر من المظاهر الوثنية التي نشأت في أوروبا منذ عصر النهضة ، بسبب تعسف الكنيسة والبابوات وأمر الإقطاع حيث أدى هذا كما سبق إلى التخلي عن الدين والاتجاه نحو العلمانية اللادينية .
فقد بقيت الديانة النصرانية على ما فيها من مسخ وتحريف وتشويه لأصولها وفروعها تجمع بين شعوب الامبراطورية الرومانية ، ولم تكن لرابطة القومية والوطنية وغيرها من الروابط الجانبية قوة مؤثرة في أوروبا منذ اعتناقها للنصرانية التي ساعدت على اختفاء هذه النعرات الجانبية وقهرها حتى قيام حركات الإصلاح الديني التي قادها لوثر الألماني ضد الكنيسة والإقطاع فاستعان بفكرة الجنس الجرمانى وسيادته على باقي الأجناس ، حتى يتسنى له مقاومة الكنيسة ورجال الدين بقاعدة شعبية كبيرة ، واستغلت هذه الفكرة استغلالا سيئا من قبل أصحاب الأهواء والمطامع وفي مقدمتهم اليهود ^(١) الذين وجدوا فرصة مناسبة لتفتيت وحدة الامبراطورية الرومانية النصرانية وتفكيك دويلاتها وتمزيق شعوبها والتفريق بين أبنائها ^(٢) .

(١) انظر الشبهات والأخطاء الشائعة ، أنور الجندي ص ١١٨ .

(٢) مذاهب فكرية ٥٥٤ - ٥٦١ .

يقول الندوى : (إن القومية والوطنية والاعتداد الشديد بالشعب والموقع الجغرافي من خصائص الطبع الأوربي الذي سرى في العصر الأوربي مسرى الروح في الجسد ، وجرى منه مجرى الدم وأصبح طبيعة ثابتة له ، ولكن النصرانية قهرت هذه الطبيعة لأنها - على غلاتها وبرغم ما طرأ عليها من التحريف والتبدل - لا يزال عليها مسحة من تعليم المسيح ، وفيها أثارة من علمه ، والدين السماوي مهما تحرف وتغير لا يعرف الفروق المصطنعة بين الإنسان والإنسان ، ولا يفرق بين الأجناس والألوان والأوطان ، فجمعت النصرانية الأمم الأوروبية تحت لواء الدين وجعلت من العالم النصراني عشيرة واحدة ، وأخضعت الشعوب الكثيرة للكنيسة اللاتينية فغلقت العصبية القومية والنصرة الوطنية ، وشغلت الأمم عنها لمدة طويلة ، ولكن لما قام لوشرسنة ١٤٨٢-١٥٢٦ م بحركته الدينية الإصلاحية الشهيرة ضد الكنيسة اللاتينية ، رأى أن من المصلحة أن يستعين بالألمان جنسه ونجح في عمله نجاحا لا يستهان بقدره ، وانهزمت الكنيسة اللاتينية في عاقبة الأمر فانفرط عقدها ، واستقلت الأمم ، وأصبحت لا تربطها رابطة ، ولم تنزل كل يوم تزداد استقلالاً في شؤونها وتشتتت حتى اضمحلّت النصرانية نفسها في أوروبا وقويت العصبية القومية والوطنية ، وكان الدين والقومية ككفتي ميزان كلما رجحت واحدة طاشت الأخرى ، ومعلوم أن كفة الدين لم تنزل تخف كل يوم ، ولم تنزل كفة منافسته راجحة^(١) . وهكذا فقد أدى هذا إلى تفكك وحدة الشعوب الأوروبية التي ترتب عليه شعور كل دولة بأنها تمثل وحدة كاملة منفصلة عن غيرها لها أرضها وشعبها وقوميتها ولغتها وسيادتها وأهدافها أو بكلمة أخرى لها كيائها الخاص . وعلى هذا الأساس تعصبت كل مجموعة من هذه المجموعات البشرية لقوميتها ووطنيتها واندفعت كل منها في حماس بالغ لتحقيقها وإيلائها على باقي القوميات الأخرى ، وطالبت كل واحدة بحقها في الاستقلال الكامل بتدبير شؤون نفسها داخل حدودها الوطنية الضيقة ، وأن تحصل كل قومية على حرية ممارسة سيادتها في أرضها بكافة الحقوق السياسية والاقتصادية والتجارية وغيرها ، من غير أن تتدخل أى جهة أخرى والكنيسة على وجه الخصوص في شأن من شؤونها . ومن هنا فإن المتدبر للحروب التي وقعت بين الدول الأوروبية يجدها في مجموعها صادرة عن أصل واحد هو ظهور الروح القومية ، ومن ذلك الحروب الإيطالية التي نشبت بين فرنسا وإسبانيا خلال فترة دامت خمسة وستين عاما .^(٢)

(١) ماذا خسرت العالم ص ١٩٦-١٩٧ وانظر ص ١٦٠-١٦٥ .

(٢) انظر اتجاهات وطنية ج ١ ص ٦٨ ومذاهب فكرية ص ٥٦٢-٥٦٧ .

من هذه البداية السهلة تطورت فكرة القومية من مرحلة إلى أخرى إلى أن صارت في موضع القداسة ، وخرجت عن كونها وسيلة للتخلص من تحكم الكنيسة وقياصرة الامبراطورية الرومانية وأصبحت هدفا وغاية بل صارت دينا جديدا ينافس دين الله ، وابتدعت القومية مناهج وقيما جديدة وجعلت مقياسها الوحيد الذي تنزن به الأمور هو مصلحة الأمة ورغباتها. (١)

وظل الكتاب والشعراء^١ والصحفيون والدعاة يخذون فكرة القومية الجديدة

حتى أصبح التغنى بمجد الوطن والتضحية في سبيله هو الأغنية الرومانسية المحببة التي ترددها الجماعات ويترنمون بها ترنمهم بالتراتيل الدينية . وارتفعت قيمة التضحية بالجهد والمال وبالروح في سبيل مجد هذا الوطن الذي اتجهت إليه عواطف الناس وكأنما هو معبود جديد هداهم إليه نبي جديد . (٢)

وهكذا فقد صارت القومية هي العقيدة الجديدة التي تدبر بها الشعوب الأوروبية بدلا عن العقيدة النصرانية وصارت كل تحركاتها قائمة على أساس المصالح القومية وإن كانت تتعارض مع الدين والأخلاق التي كانت تعرفها في وقت مضى قبل عهد القومية الجديد .

وهذا الدين الجديد الذي دخلت فيه أوروبا يقوم على الاعتقاد (بأن الشعب أو الأمة فوق كل شيء * وأفضل من كل شيء * وأن الله - إذا كانت الأمة تعترف به - لم يخلق أفضل من هذه الأمة ، ولا أنجب منها ولا أذكى ولا أقوى ولا أحق بالحكم والسيادة والولاية على الأمم والرعاية للعالم منها ، وأنها أسيئة ووكيلة ووصية في الأرض ، ولم يخلق بلادا أحب إليه من هذه البلاد ولا تربية أذكى من تربيتها ، وهذا هو الدين القومي الذي لا يسمح لإنسان أن يعيش في بلاده حتى يوه من به .

ولا تختلف شعوب أوروبا الحاضرة ودولها في هذه الديانة إلا في الصراحة والنفاق ، وأن بعضها تقول وتفعل ، وبعضها تفعل ولا تقول ، فإن بذرة القومية والوطنية إذا أقيمت في أرض لا تلبث أن تنشأ وتمتد عروقها في الأرض ثم تصير شجرة ، فدوحة تظلل الأمة ، ولا يمكن لشعب أن يوه من بالقومية ثم لا يعتدى ولا يتطاول أولا يريد أن يعتدى ويتطاول ولا يمقت الآخرين ، ولا يزدريهم . كما لا يمكن أن يسرف الإنسان في الخمر ، ثم لا يسكر) . (٣)

(١) الإسلام والمدنية الحديثة أبو الأعلى المودودي ص ١٥ بتصرف .

(٢) انظر اتجاهات وطنية ج ١ ص ٦٨ .

(٣) ماذا خسر العالم ص ٢٠٢ .

هكذا كانت نشأة القومية والوطنية في أوروبا ، ثم تطورت وتبلورت حتى أصبحت بالفعل دينا جديدا وعقيدة جديدة من وضع البشر ، هلّت تدريجيا محلّ الدين والعقيدة الربانية ، واكتفى الناس بالانتماء إلى قوم ما أو وطن معين ولم يعد عندهم أدنى شعور برباط الدين أو بالحاجة إليه ، بل صار في حسهم أن الدين من عوامل التفريق والتمييز بين البشر ، وإثارة النعرات والأحقاد في النفوس وبالتالي فهو لا يصلح في نظر القوميات أن يكون رابطا وأساسا لقيام الدول والمجتمعات الإنسانية الحديثة .

وما يبعث على العجب أن القوميات التي أجمعت على تنحية الدين وإقصائه عن واقمها وكيانها قد اختلفت فيما بينها اختلافا شديدا في تحديد العنصر أو مجموعة العناصر التي تتكون منها القومية ، أو الأسس التي تقوم عليها وتتألف منها ، فهناك من يرى أن العرق أو الأصل الواحد هو الأساس العتيد الذي تقوم عليه القومية ، وهناك من يرى أنه اللغة ، ومن يرى أنه التاريخ أو المصالح المشتركة أو الأرض . . . إلى غير ذلك ما يعظم في نفوس الجاهليين وعباد الأوثان ، من معان أو قيم وأفكار مادية .

ولا يسمني المجال لمناقشة هذه الأقوال وعرضها ، ولكن باختصار يمكنني القول : بأن هذه الأسس والعناصر جميعها لا تصلح أساسا للترابط الاجتماعي أو الوحدة السياسية والقومية ، لأنها مما اتسمت تبقى ضيقة ومحدودة تفتقر إلى الإحاطة والشمول بخلاف العقيدة الدينية التي تستطيع أن تستوعب كلّ الأجناس والعناصر واللغات والأوطان وغير ذلك وتجعل منه كتلة بشرية قوية متماسكة .^(١) والآن أود أن أعرض (القومية والوطنية) على الشروط الثلاثة التي حددتها سابقا مقياسا للحكم . ونرى هل هي شكل من أشكال الوثنية - صورة من صورها الحديثة أم لا ؟

ما لا شك فيه أن فكرة القومية والوطنية أو دعواتها وأنصارها والذين يعتقدونها ويؤمنون بها يقرون بوجود الله ويقرون بتوحيد الربوبية الذي يقر به غيرهم من معتنقي الأفكار والمذاهب المادية في أوروبا وذلك تبعا للاقرار الفطري الذي فطر الله الناس عليه منذ أن خلق الخلق .

(١) انظر ظلال القرآن ج٤ ص ١٨٨٦-١٨٨٨ .

وانظر المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام للصوف ص ٢٣-٢٩ .

ولكن هذا الإقرار والاعتراف بوجود الله عند القوميين والوطنيين لا يشبه لهم صفة الإيمان ولا ينفي عنهم صفة الشرك كما هو معلوم في دين الله الصحيح ، لأن هذه المعرفة المجردة ليست بشيء في نظر الإسلام ، حتى تتحقق معها مسألة هامة أخرى وهي إفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة . فهل المعبود عند القوميين والوطنيين هو الله تعالى وحده أم المعبود شيء آخر سواء أكان هذا المعبود يعبد مع الله أم من دونه ؟

والمبدأ الذي تقوم عليه فكرة القومية والوطنية ، والواقع الذي يعمشه الناس في ظلها ، كل ذلك يوجب أن العبادة ليست خالصة لله تعالى ، فهي إن لم تكن لغير الله تعالى ابتداءً فهي تقوم على الشرك بالله .

فالقوم والوطن هي الأنداد التي تعبد من دون الله أحياناً أو معه أحياناً أخرى في القومية والوطنية .

فالولاء والبراء والحب والبغض والكره والطاعة والتضحية والشهادة والبذل والعطاء والفداء . . . إلخ ، كل هذه وغيرها من أنواع العبادة وهي في أغلب الأوقات مصروفة لغير الله تعالى .

فإذا مات ففي سبيل الوطن أو القوم وإذا أعطى أو بذل أو منع ففي سبيل الوطن أو القوم وإذا أحب أو كره فمن أجل الوطن أو القوم ، . . . إلخ

فهل الله هو المعبود ؟ إنه بالتأكيد غير الله ، وإنما بالتأكيد الوثنية

وهذا الحكم لا ينقضه أن يكون الله تعالى هو المعبود - على الطريقة

الكنسية - في بعض مظاهر العبادة التقليدية كأداء الصلاة وبعض الطقوس والشعائر الأخرى ، فعبادة الله تعالى أوسع من هذه النظرة الضيقة للعبادة والدين التي تهدف لحصار الدين في فترة محدودة من نشاط الإنسان ، بينما هو في أغلب أوقات يعبد غير الله في كثير من ألوان العبادة .

وأما الشرط الثالث وهو الالتزام بشرع الله وأحكامه فهو كذلك مفقود في

الدول التي تقوم على فكرة القومية أو الوطنية ، حيث إنها منذ نشأتها قد عزلت الدين عن الحياة وأقصت شريعة الله بعيداً عن واقع الناس ووضعت لهم شرائع وثنية وقوانين

جاهلية تشمل كافة المجالات في السياسة والاقتصاد والاجتماع والعلم . . . إلخ ،

ولم تترك لشريعة الله إلا بعض جوانب الأحوال الشخصية من نكاح وطلاق . . . إلخ (١)

(١) بغض النظر عن مدى كونها تمثل بحق شريعة الله أم لا ؟

وهكذا فإن فكرة القومية والوطنية ما هي إلا ردة إلى الوثنية من جديد
وعودة إلى تحكيم القوانين الجاهلية .
ومن هنا فلينظر العالم الإسلامي والعربي على وجه الخصوص أين موقعه
من الإسلام عندما ينجر في التيارات القومية والوطنية ، رغم شركها وقيامها على
العبودية لغير الله بشكل سافر لا خفاء فيه .
عدوى الوثنية القومية في العالم الإسلامي :

بالرغم من خطورة هذه الفكرة ومخاطباتها لدين الله إلا أن هذه اللوثة
الوطنية قد انتقلت عدواها إلى العالم الإسلامي بطريقة أو بأخرى ، وكان التركيز
الشديد على اعتناقها في العالم العربي لفصله عن العالم الإسلامي لهدف أو لآخر .
فمن المعلوم أن الإسلام ومنذ اللحظة الأولى قد بني المجتمع على أساس
المقيدة في الله ، فلم يعرف عصبية ولا جنسية ولا عرقية ولا حدودا وطنية يتفرق الناس
أو يجتمعون على أساسها ، وبقي هذا قرونا طويلة حتى أواخر القرن الثالث عشر
الهجري حيث كانت الدولة العثمانية هي آخر خلافة إسلامية تشدُّ إليها المسلمين
وتجمع بينهم ولم يكن أحد من الرعايا في الدولة العثمانية يشمر بنمرة قومية خاصة
متولدة عن لغة أو عرق أو أرض ، فكان التركي المسلم والعربي المسلم والهندي المسلم
... وغيرهم يشعرون بأنهم قوم واحد في أرض واحدة ، بالرغم من اختلاف ألوانهم
وأوطانهم ولغاتهم وأجناسهم ودمائهم . . الخ (١)
إلا أن الأمر بدأ يتغير في المراحل الأخيرة من عمر الدولة العثمانية
ويتخبط من القوى الصليبية والصهيونية العالمية أنشئت الدعوة إلى القومية
الطورانية بين الأتراك على يد أعضاء جمعية تركيا الفتاة وغيرهم من أنصار العلمانية
يومئذ ، وفي الوقت نفسه كانت هناك حركات للدعوة إلى القومية العربية داخل الدول
العربية التي كانت خاضعة لتركيا ، قام بها نصارى سوريا ولبنان (٢) وغناها اليهود ،
الذين بعثوا الشعور بالعصبية والنصرة القومية بين العرب ضد إخوانهم الأتراك
كرتة فعل للقومية الطورانية .

(١) انظر ظلال القرآن ج ٣ ص ١٥٦٢ .

(٢) انظر الاتجاهات السياسية في العالم العربي ، مجيد خدوري ص ٣٠ .

ومحاضرات في نشوء الفكرة القومية ، ساطع الحصري ص ١٦٥ - ١٧٥ .

ولقيت هذه الدعوة قبولا عند الكثير من أبناء العروبة في مصر والشام
والعراق خصوصا بين الذين كانت لهم صلات بالفرب وانهم يروا بحضارته واتبعوا
آثاره في كل شيء (١).

وتمزقت وحدة العالم الإسلامي وسيطرت عليه النزعات القومية الجامعة
فالقومية العربية في بلاد العرب والطورانية في تركيا والفارسية في بلاد فارس
والبربرية في شمال أفريقيا إلى آخر ذلك .

وقد كان لهذه الأفكار الوثنية دعائها وأتباعها والمرجون لها والمؤمنون
بها أشد من إيمان المؤمنين بدين الله ، وسخرت لها وسائل الإعلام على اختلافها
ومناهج التعليم على كافة مراحلها ، وأقيمت معظم مجالات الحياة على ضوئها (٢) .
ولم تعد القومية في العالم الإسلامي عامة والعربي خاصة مجرد دعوة
أو حركة عادية أو شعارات جوفاء مرفوعة ، بل لقد صارت كما يقول دعائها : عقيدة ،
أو دينا يجب اعتناقه ولا يجوز الخروج عليه ، وكل من يكفر به يعدُّ خارجا عن دين
قومه ومخالفا لحكومة بلاده .

وليس هدفي عرض فكرة القومية العربية بجميع جوانبها هنا (٣) ، ولكن
أود أن أذكر بعض أقوال أنصار هذه الدعوة المعادية لدين الله كشواهد على
وشئتها ، ليتسنى للقارىء معرفة حقيقة القومية التي ينادى بها القوميون حتى
لا يبقى شك في أن القومية في العالم الإسلامي قومية علمانية لا دينية شأنها
شأن القوميات الأوروبية التي قضت على الديانة النصرانية وتسعى للقضاء على الدين
الإسلامي وطمس العقيدة الإسلامية وإيماد أهلها عن التمسك بها ، وهي بالتالي
نوع من الوثنية .

يقول «ساطع الحصرى» كبير القوميين العرب : (الوطنية والقومية من أهم
النزعات الاجتماعية التي تربط الفرد البشرى بالجماعات وتجعله يحبها ويفتخر بها
ويعمل من أجلها ويضحي في سبيلها (٤)) .

(١) انظر اتجاهات وطنية ج ٢ ص ٩٩-١٠٠ .

(٢) انظر موسوعة التاريخ ، شلبي ج ٥ ص ٥١٢ .

(٣) راجع فكرة القومية العربية على ضوء الاسلام - رسالة ماجستير مؤلفها

صالح بن عبد الله العبود وهي مطبوعة .

(٤) نقلا عن المرجع السابق ص ٢٧ .

ويقول آخر : (إن انتقال الإنسان من شكل اجتماعي لآخر عبر التاريخ الطويل منذ التجمع العائلي حتى المجتمعات القومية ماراً بالعشيرة والقبيلة والمجتمع الديني والامبراطوريات السياسية والدينية . . لم يكن انتقالاً اعتباطياً ولا انتقالاً أعمى بلا هدف . . وإنما كان يمثل تمثيلاً صادقاً لتجربة الإنسان في البحث عن وضع أفضل لحياته . . وكان الإنسان يترك شكلاً معيناً من أشكال المجتمع إلى آخر حين يجد أن هذا لا يوفر له الجو الطبيعي لحياته ولا يؤمن له احتياجاته ولا يحقق له أهدافه ، وقد ترك الإنسان هذه المجتمعات الواحدة تلو الأخرى حتى وصل إلى المجتمع القومي الذي يشكل عبارة تجربة الإنسان في البحث عن وضع أفضل لحياته)^(١) .

(وإن أية وحدة لا تستمدُّ أساسها من وحدة الروابط القومية هي وحدة عرضية !! ما أسرع ما تنفك حين تسنح الظروف)^(٢) .

ويقول الأمير مصطفى الشهابي : (إن فكرة الوحدة العربية أشدُّ منطقاً

وأقرب منالاً من فكرة الوحدة الإسلامية مادنا نعيش في عصر القوميات)^(٣) .

(ولقد كانت الأديان في التاريخ أي قبل نشوء مبدأ القوميات حديثاً

أهم صلة روحية بين أبناء البشر ، ولكننا نرى في أيامنا هذه أن رابطة القومية قد تفوّقت على رابطة الدين لدى كثير من الأقسام التي تدين بدين واحد)^(٤) .

ويقول أحدهم : (إن للمسلمين دينين الإسلام والعروبة وللمسيحيين

دينين المسيحية والعروبة ، وإن الرباط الوحيد الذي يربط اليوم بين جميع العرب هو العروبة)^(٥) .

ويقول محمود تيمور : (ولئن كان لكلِّ عصر نبوته المقدسة فإن القومية

العربية لمهي نبوة هذا العصر في مجتمعنا العربي ، وإن كُتّاب العرب في أعناقهم أمانة أن يكونوا حواريين لتلك النبوة الصادقة يركونها بأقلامهم وينفخون فيها من أرواحهم ويعملون على أن تتكثل لها أسباب النماء والازدهار)^(٦) .

(١) مع القومية العربية تأليف الحكم دروزة ورفيقه ص ٣١ ، وانظر الطريق إلى

حكم إسلامي ، محمد علي الضناوي ص ١٦٨ ط ١ .

(٢) نقلا عن المرجع السابق ص ١١٩ .

(٣) محاضرات عن القومية العربية تاريخها وقوامها ورمائها ، الأمير مصطفى

الشهابي ص ٣٤٥ .

(٤) نقلا عن فكرة القومية ص ٤٨ .

(٥) نقلا عن القومية في نظر الإسلام ، محمد أحمد باشميل ص ٧٢ ط ٢ .

(٦) نقلا عن رسالة الجهاد ، علي العلواني ص ٣٧٧ .

هذه مجموعة من أقوال كبار دعاة القومية وسدنتها القائمين على شؤونها،
(١)
كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا * (٢)
وهكذا نرى إلى أي حد بلغ بهم الأمر حيث إنهم جعلوا من فكرة
القومية تحدياً عظيماً للإسلام، وفكرة مستقلة وفلسفة قائمة بذاتها لها كل ما
للدین من دافعية وحرارة وشمائر ومقدسات، وصارت هي الرباط والعروة الوثقى
التي تجمع بين القوميين، يضحون في سبيلها ويحاربون من أجلها ويتقربون إليها
ويتعبدون على مبادئها ويستلهمونها في كل تصرفاتهم من دون الله .
حقاً إن دعاة القومية قد أقاموا في المجتمع الإسلامي أصناماً جديدة لتعبد
من دون الله ووضعوا له شريعة ومنهاجا غير منهاج الله وشريعته وقالوا بأنها الحق
الواجب أن يتبع والدين الذي ينقاد له الناس ويرضوا به كالدين الرياني الذي يفارون
عليه ويتعصبون له، ويقاتلون في سبيله .
وعلى ضوء هذه الأقوال سيوضح لنا بشكل جلي موقف الإسلام من هذه
الدعوات والأفكار والمبادئ العلمانية ذات الطابع الوثني ورفضه لها .

(١) لمزيد من الأقوال راجع فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام .

وكتاب الطريق إلى حكم إسلامي ، محمد علي الضناوي .
واتجاهات وطنية ج ١ ص ٨٢ - ٩٤ ، ١١٧ - ١٢٤ شعراً في تمجيد
الوطنية والقومية .

(٢) سورة الكهف آية ٥ .

موقف الاسلام من فكرة الوطنية والقومية :

للإسلام موقف صارم من الوثنية يعترف له به الأصدقاؤه والأعداء إقراراً وإعجاباً وإذعانا، فإن التاريخ يشهد بأنه ليس هناك دين حارب الوثنية وطاردها بشتى صورها واستطاع أن ينتصر عليها كما قُدِّرَ ذلك للإسلام .

يقول وجدى في دائرته : (ليس فيما بين أيدينا من الأديان دين كافح الوثنية وطاردها أينما ثقفها ، وتغلب عليها تغلبا مطلقا مثل الإسلام ، فقد نشأ عدوا لها بعقضى أصوله الأولية ، ودفع الآخذين به لمحوها من البيئة التي نشأ فيها فلم يمرَّ عليه بضع وعشرون سنة حتى أبادها ولم يكتف بذلك بل وضع لأهله من الأصول ما يمنع عنهم عدوى الأمم الوثنية ، ويحميهم من الوقوع فيها)^(١) .

ويقول برنارد لويس رئيس قسم التاريخ في كلية الدراسات الأفريقية والشرقية بجامعة لندن في كتابه الغرب والشرق الأوسط تحت عنوان (الوطنية والقومية) :

(كلُّ باحث في التاريخ الإسلامي يعرف قصة الإسلام الرائعة في محاربتيه لعبادة الأوثان منذ بدء دعوة النبي صلى الله عليه وسلم وكيف انتصر النبي وصحبه وأقاموا عبادة الإله الواحد التي حلت محلَّ الديانات الوثنية لعرب الجاهلية . وفي أيامنا هذه تقوم معركة مماثلة أخرى ولكنها ليست ضدَّ اللات والعزى ومقبة أصنام الجاهلية ، بل ضدَّ مجموعة جديدة من الأصنام أسماها الدولة والمنصرية والقومية .

وفي هذه المرة يظهر أن النصر حتى الآن هو لحليف الأصنام ، فإدخال هرطقة القومية العلمانية أو عبادة الذات الجماعية كان أرسخ الظالم التي أوقعها الغرب على الشرق الأوسط ، ولكنها مع كلِّ ذلك كانت أقلَّ الظالم ذكرا وإعلاناً^(٢) .

ومما لا شك فيه أن القومية والوطنية وما شابهها من أفكار علمانية لا تتفق مع روح الإسلام ومبادئه وأصوله ، ولكن شمة شيئا تحسن الإشارة إليه هنا وهو أن الإسلام لم يعمد إلى إلغاء مثل هذه الروابط الجانبية إلغاء تاماً^(٣) وإنما هذبها وصقلها وجعلها تابعة لرابطة العقيدة الصحيحة .

(١) دائرة معارف القرن العشرين ج ١٠ ص ٦٤١ .

(٢) الغرب والشرق الأوسط ، برنارد لويس ، ص ١٠٥ ترجمة د . نبيل

صحيحي ١٩٦٥ م .

(٣) انظر الفكر الإسلامي الحديث للمبارك ص ١٢٣ .

فالإنسان بفطرته خلق مرتبطاً بأرض معينة ووطن معين ومنتعياً إلى قوم معينين مشدوداً إليهم بروابط كثيرة، فيتبادلون مشاعر الحب والألفة والاجتماع والمناصرة .

سئل صلى الله عليه وسلم أمين العصبية أن يحب الرجل قومه ؟ فقال :
(لا . ولكن من العصبية أن يمين الرجل قومه على الظلم)^(١)

والله سبحانه وتعالى لم يخلق الناس جنسا واحدا ولم يجعلهم شعبا واحدا ولكنه خلقهم مختلفين في الأجناس والألوان والأوطان وجعلهم كما قال سبحانه وتعالى * شعوبا وقبائل * ولكن * ليتعارفوا *^(٢) لا ليفتخر بعضهم على بعض ولا ليشترق عنصر على آخر ، ولا لينحصر أهل كل موطن داخل حدود يقيمونها تفصلهم عن بقية الأوطان المجاورة ، فلا يرون قوما أحق ولا أصح للحياة من قومهم ، ولا موطننا أشرف ولا أجدر بالاحترام والحب والولاء من موطنهم . وإذا كان الإسلام لا ينكر أن ينتسب الإنسان لقوم ما أو وطن معين ، ولم يسع إلى محو القوميات والوطنيات من الوجود ، فما الذي أنكره وما زال ينكره على القوميات والوطنيات ، وما الذي سعى جاهدا إلى محوه وإزالتها ومعاربته وما زال ؟ ذلك هو أن تكون القومية أو الوطنية هي الأساس الذي تقوم عليه المجتمعات وتلتقي عليه الأفتدة ، وتجتمع وتفترق لأجله القلوب .

هو أن يكون القوم أو الوطن أساس الحب والبغض ، لهما الولاة وفيهما البراءة ، لهما الطاعة والخضوع ، لهما القداسة والتعجيد والتعظيم لهما التضحية والفداء وفي سبيلهما الجهاد والاستشهاد . .

هو أن تكون النظرة ضيقة ومحصورة في قوم دون قوم وفي وطن دون وطن ، مع العداوة والبغضا للأقوام والأوطان الأخرى .

هو أن تكون أخوة الدين ورابطة العقيدة أمرا جانبيا تنافسها روابط غير حقيقية يقيمها الناس لأنفسهم وعلى هواهم من قومية ووطنية .

هو أن تكون محبة الله ورسوله والمؤمنين ثانوية في القلوب ، ففي وقت تكون عامرة ومعقودة على حب أبنائنا القومية الواحدة وتراب الوطن الواحد بصرف النظر عن اختلاف الأديان وتعدد الملل ، فيلتقي المسلم والنصراني واليهودي والوثني الخالص والمجوسي واليهودي . . إلخ ما دام يجمعهم وطن واحد وترابطهم قومية واحدة ، في حين يفترق الأمر إذا اختلف الوطن أو القوم ولو كان ذلك بين المسلمين المؤمنة بالله أنفسهم .

(١) رواه ابن ماجه في الفتن ٧ ، وأحمد ج ٤ ص ١٠٧ .

(٢) انظر سورة الحجرات آية ١٣ .

هو أن تكون الطاعة والتبعية والانقياد المطلق للقوم على غير هدى
ولا بصيرة من الحق ، كقول القائل :^(١)

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

هو أن تكون النصر والحماية والدفاع عن القوم أو الوطن ، لذاتها فقط

من غير اعتبار لعبادى الإسلام .

هو أن ترفع الشعارات الوثنية كقولهم (الدين لله والوطن للجميع)^(٢)

بهدف عزل الدين عن واقع الحياة ، وجعله مجرد علاقة بين الخالق والمخلوق .
هو أن تنتكس المجتمعات الإسلامية إلى ما كانت عليه المجتمعات الجاهلية
والوثنية ، فتظهر فيها من جديد العصبية القومية والنعرات والعنصريات والأجناس
ويتعلق أفرادها بالوطن يقفون حياتهم عليه ويجعلون أعمالهم خالصة له من دون
الله .

هذا هو ما ينكره الإسلام ، ولا يقره ولا يرضى به ويسعى دائما إلى إزالته
ويحده من مظاهر العبودية لغير الله .

فقد كان حربها كلَّ الحرص أن يجعل الوشيجة التي تجمع البشر وتوحد
بينهم وشيجة فريدة ومتميزة عن كافة الوشائج التي يراها الناس .^(٣)

إنها ليست وشيجة الدم والنسب ، وليست وشيجة الأرض والوطن والعنصر
التي تعرفها الوثنيات بينما لا تعترف بالوشيجة الحقيقية والرابطة الصحيحة ،
والثابتة ، رابطة العقيدة الإيمانية والأخوة في الله ، والوشيجة الدينية التي لا تقبلها
الوثنيات ولا يرضى بها الطواغيت وعباد الأوثان ، الذين يحرصون دائما على إقصاء
الدين عن واقع الناس ويقبضون لهم مكانه أوثان الأوطان والجنسيات والقوميات
ليعبدها من دون الله .

وما كان الإسلام يسعى ليخلص الناس من العبودية للأصنام والأوثان الحجرية
والأرباب الأسطورية ثم يرضى بعد ذلك أن تقوم في المجتمع أصنام من نوع آخر يجتمع
الناس تحت رأياتها وشعاراتها وقيادتها ويستعبدون لها .
لا بد أن تكون هناك قداسة واحدة لمقدم واحد ، وألا تتعدد المقدسات

(١) للشاعر دريد بن الصمة انظر المعصر الجاهلي لشوقي ص ٦١ ،

ط ٤ دار المعارف بمصر .

(٢) شعار ثورة عام ١٩١٩م التي قادها سعد زغلول ضد بريطانيا .

(٣) انظر ظلال القرآن ج ٤ ص ١٨٨٦ - ١٨٩١ .

ويجب أن يكون هناك شعار واحد وألاً تتعدد الشعارات ، ويجب أن تكون هناك قبة واحدة يتجه إليها الناس بكلياتهم وألاً تتعدد القبلات والمتجهات . (١)

إن الوطن الذي يعتبره الإسلام وطناً للمسلم هو الدار التي تحكمها عقيدة الإسلام ومنهاجه وشريعته الربانية ، وأما الجنسية أو القومية التي يريد هانئ جنسية العقيدة ورابطة الدين ، وهذه هي الأسرة والشيجة اللائقة بالآدميين التي لا يرضى الإسلام أن ينحرفوا عنها إلى غيرها من أواصر الشرك والوثنية والروابط الجاهلية . (٢)

* قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتمسكوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين * (٣)
فالرابطة الدينية - في الإسلام - هي الأولى والأجدر والأليق بالإنسانية لأنها تجمع ولا تفرق ، وتنظر للمؤمنين بها نظرة مساواة من غير تمييز ولا تفضيل لطبقة على أخرى إلا بالتقوى والصلاح ومقدار الالتزام بدين الله ، ولأنها أعم وأشمل وأرسخ وأبقى أمداً من روابط الوثنية كالقومية والوطنية .

قال تعالى * يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير * (٤)
وقال تعالى * واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا * (٥)

فالرابطة العقيدة رابطة عالمية وراية عامة لتوحيد البشرية ، بخلاف الإقليميات والقوميات والروابط المحدودة بحدود الوطن وأفراد الجنس الواحد فالوطن مهما إتسع وامتدّ لدرجة لا تغيب عنه الشمس ، والجنس الواحد مهما كثر أفرادُه وعناصره فإن ذلك سيبقى محدوداً وضيقاً ، ولا يمكن قياسه ولا مساواته بالوطن الذي لا حدود له في الإسلام ما دامت تطبق فيه شريعة الله ومنهاج دينه ، فالأرض كلها كيفما إتسعت وكيفما امتدّت هي وطن المسلم ينتقل فيها حيث يشاء فيجد له أخوة في العقيدة وأهلاً في دين الله فلا يشعر

(١) انظر ظلال القرآن ج ٤ ص ١٨٩١ .

(٢) انظر معالم في الطريق ص ١٤٣ - ١٤٢ .

(٣) سورة التوبة آية ٢٤ .

(٤) سورة الحجرات آية ١٣ .

(٥) سورة آل عمران آية ١٠٣ .

بالغربة ولا بالحمد عن مسقط رأسه الذي ولد ونشأ فيه ، وإن كان يشدُّه إليه ميل فطري ، ولكنه معتدل في ذلك فليس وطنه فوق كل الأوطان ولا هو بمقدم ومعبود له من دون الله ، فإنه يؤثِّر بالحمد عنه إذا اقتضت ذلك ضرورة دينيه ، وقد ضرب الرعيل الأول في هذا أروع الأمثلة فهجروا أوطانهم وأهلهم في سبيل الله .

ولا قومه ووطنه يمتازون عن بقية الأقوام ما دام الجميع على دين الله وشريعته ، وإن كانت تربطه بهم صلة القرابة والنسب ، فالناس جميعا في نظر الإسلام أخوة متساوون لا يميز بعضهم عن بعض إلا عمق الصلة بالله . * إن أكرمكم عند الله أتقاكم * (١)

فليس هناك جنس أبيض ممتاز ، ولا شعب مختار ، ولا قومية مقدسة ومفضلة على باقي القوميات ، كما هو الشأن في مذاهب الوثنية القومية التي تجعل كل قومية أو وطنية في نظر أصحابها فوق كل القوميات والأوطان ، ولا فضل لأحد على أحد ، فالإسلام ينظر إلى البشر كلهم بمنظار واحد .

عن جابر أنه صلى الله عليه وسلم قال : (أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب . إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر فضل إلا بالتقوى ، اللهم هل بلغت ؟ اللهم فاشهد ألا فليبلغ الشاهد منكم الفاعل) . (٢)

وروى الحاكم في المستدرک عن مصعب بن عمير رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : (سلمان منا أهل البيت) (٣) ، ومعلوم أن سلمان فارسي الأصل .

وجاء في الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن إنما ينظر إلى أعمالكم وقلوبكم) . (٤)

(١) سورة الحجرات آية ١٣ .

(٢) رواه أحمد ج ٥ ص ٤١١ ، والبيهقي في الشعب والزهد .

(٣) ج ٣ ص ٥٩٨ ، وانظر تاريخ أصبهان لأبي نعيم ج ١ ص ٥٤ .

(٤) رواه مسلم في البر ٣٢ ، وابن ماجه في الزهد ٩ .

وقد جاءت أحاديث نبوية كثيرة في هذا الباب تحذر من العصبية والقومية وتبفضها إلى قلوب المسلمين وتشدهم إلى آصرة العقيدة والأخوة الإيمانية .
عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عصبية ^(١) الجاهلية وفخرها بالآباء ، موء من تقي وفاجر شقي أنتم بنو آدم من تراب ، ليدعى رجال فخرهم بأقوام ، إنما هم فحم من فحم جهنم ، أو ليكونن أهون على الله من الجفلان التي تدفع بأنفها التتن) ^(٢) .
وعن جبير بن مطعم ^{رضي الله عنه} قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية) ^(٣) .
وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن العصبية وقال في حديث المهاجري الذي كسع الأنصاري فدعا كل منهما قومه فقال صلى الله عليه وسلم : (ما بال دعوى أهل الجاهلية ؟ دعوها فإنها خبيثة وفي رواية فإنها منتنة) ^(٤) .
وفي حديث آخر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (أبغض الخلق إلى الله ثلاثة : ملحد في الحرم ، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية ، ومطلب دم امرئ مسلم بغير حق ليهرق دمه) ^(٥) .
وسنن الجاهلية كثيرة كلها تخالف الإسلام ومنها ما يضر بأصل العقيدة كدعوى القومية والوطنية ^(٦) .
قال شيخ الإسلام ابن تيمية : (كل ما خرج عن دعوة الإسلام والقرآن من نسب أو بلد أو جنس أو مذهب أو طريقة فهو من عزاء الجاهلية) ^(٧) .
فهذا وغيره يولئ ويؤء كد أن الإسلام لا ينظر إلى الأجناس والأقوام والمناصر والأنساب والدماء والشعوب والقوميات ، والأوطان . . . إلخ كل ما من

(١) الكبر والنخوة .

(٢) رواه أبو داود في الأدب ١٢٠ ، والترمذي في المناقب ٧٤ .

(٣) رواه مسلم في الإمارة ٥٧ ، وأبو داود في الأدب ١٢١ ، وأحمد ج ٢ ،

ص ٣٠٦ .

(٤) رواه البخاري في تفسير سورة العناقون ٧٠٥ ، ومسلم في البر ٦٤ ،

وأحمد ج ٣ ص ٣٣٨ .

(٥) رواه البخاري في الديات ٩ .

(٦) انظر صفوة المفاهيم والآثار ج ١ ص ١٥٠ .

(٧) نقلا عن نقد القومية ص ٢١ .

شأنه التمييز والتفريق بين البشر ، ولا يقيم له وزنا ولا يجعل له اعتبارا ، وإنما المقياس الحقيقي والوحيد هو الدين والعقيدة في الله والأعمال الصحيحة الصالحة التي تربط الإنسان بالله وتقرّبه إليه زلفى ، وذلك بخلاف النعرة القومية والنزعة الوطنية التي تفرق بين الناس وتفصل بينهم ، وتشير الأحقاد والأضغان والنزاعات وتشحن القلوب بالحقد والكرهية ، وتفضي إلى إغراء الناس بعضهم ببعض ، فتجعل الحياة ميدانا للصراع وتحيلها جميعا لا يطاق .

وقد اعترف المؤرخ الأوروبي المشهور أرنولد توينبي (بأن القومية لا تستطيع أبدا أن توحد الإنسانية ، بل إنها توزعها وتشتت شملها ، ومن أجل ذلك ليس لها مستقبل ، وإنها لا تستطيع إلا أن تدفن البشرية في ركابها)^(١) .
والعالم كله في هذه الأيام شرقا وغربا ، عربا وعجماء - وقد تخلّى عن الرابطة الدينية وعاد لروابط الوثنية التي كانت سائدة في اليهود السالفة والأمم الجاهلية ، فأمن بالقوميات والوطنيات من جديد وجعلها الأساس الأول والأخير لكيانه - يعاني من المواقب الوخيمة لهذه الردة الوثنية في جميع شؤونه وكافة مرافقه ومجالاته ، فقد صار ساحة وغى لا أمن فيها ولا هدوء نتيجة لتعصب كل قوم لقوميتهم ووطنهم ومعاداة ما سواه فكان الصراع الدائم بين الدول المعاصرة القائم على القوة والبطش لتحقيق المصالح القومية وخدمة القضايا الوطنية وحماية حدود الوطن وما إلى ذلك من المنتحلات التي تتذرع بها القوميات العالمية^(٢) .
وأخيرا فإذا جاز لأوروبا وكلّ الدول التي لم تعرف الدين الرباني الصحيح - وهو ليس بجائز طبعا - أن تعتنق هذه الأفكار الوثنية وتوهم من بهذه المبادئ الجاهلية ، من قومية ووطنية وتجعلها أساسا لكيانها ورابطة لمجتمعاتها ، وتتخذ من دون الله أندادا تعبدهم وتستمدّ منها نظمها وتشريعاتها وقوانينها وتتخلّى عن دينها وشريعته الربانية ، فإنه لا يجوز مطلقا للأمة الإسلامية وكل دولة قامت على الرابطة الدينية أن تتخلّى عن عقيدتها وتستبدل بها رابطة من روابط الجاهلية - كالقومية والوطنية - التي حاربها الإسلام وقضى عليها واقتلع جذورها وسدّ كل الذرائع المفضية إليها ، وذلك لأنه لا مبرر لهذا في العالم الإسلامي الذي لم يعاني ما عانته أوروبا من ظلم الكنيسة وطفغانها وتحريف دينها ، ولذا

-
- (١) انظر الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية ، أبو الحسن الندوي ص ١٦٧ طبعة أولى .
(٢) انظر صفوة المفاهيم والآثار ج ١ ص ٢٠٦ .

فإنه من أعظم الخطأ أن يقاس الدين الإسلامي والمعقيدة الإسلامية على النصرانية التي مسخت شرمسخ ومزجت بالعقائد الوثنية .

ومن هنا فإن الدعوة إلى القومية الضيقة أو إلى الوطنية المحدودة وكل نزعة جاهلية وفكرة خبيثة تضرب المعقيدة الإسلامية وتهدد كيان العالم الإسلامي وتفرق بين شعوبه وأوطانه تعتبر دعوة جاهلية وردة إلى الحياة الوثنية وتفضيلا لها على الإسلام وشريعته .

ولا يخفى على من يعلم حقيقة الإسلام أن مثل هذه الأفكار تتعارض معه ، ولا تتفق مع أصوله ومبادئه ، وأنها من بقايا الجاهلية والأفكار الوثنية فلا مجال لقبولها في الإسلام ولا الدعوة إليها بين المسلمين . (١)

والحاصل أن هذه الدعوات والأفكار تعتبر خروجاً سائراً وتحدياً ظاهراً لدين الله لأنها ترفض حكم القرآن وتطبيق شريعة الله ، وهي إذا لم تكن شركاً مخللاً بأصل المعقيدة ومضاداً لها ، فإنها إثم عظيم ومعصية كبيرة يجب تركها والابتعاد عنها ، إلا أن الأقوال والشعارات والتطبيقات كل ذلك يوءد أن القومية صارت من مظاهر الشرك والوثنية التي تنافس المعقيدة الإسلامية فهي من جهة شرك في توحيد الربوبية لأنها في نظر دعواتها ومعتقداتها ذات تأثير حتى لها أحكام حتمية لا يمكن أن تتخلف ، فكأنها تخلق وتوجد وتغير وتتصرف في شؤون الخلق حسب إرادتها وإرادة سدنتها وطواغيتها ، وهذا لا شك أنه أغلظ وأفحش من شرك العرب في الجاهلية الذين أقروا لله تعالى بالربوبية ، بل كانوا يعبدون الأصنام والأوثان لتقريبهم من الله زلفى . وأما الأمر في القومية فهو غير ذلك لأنها لا تريد أن تتقرب إلى الله أبداً .

ومن جهة أخرى هي شرك في توحيد الألوهية والعبادة ، وذلك أنها صرفت كثيراً من وجوه العبادة التي لا يستحقها إلا الله تعالى لمعبودات من دون الله كالوطن والقوم والمصالح القومية والوطنية . (٢)

(١) راجع بتوسع فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام ص ٢١٥-٢٧٥- ونقد

القومية العربية على ضوء الإسلام والواقع للشيخ عبدالعزيز بن باز .
(٢) لا تعارض بين هذا الحكم وبين كون دعاة القومية والوطنية يعتقدون

بوجود الله ويقرون له بالربوبية ، وقد يعبدون الله في بعض طقوس العبادة كالصلاة والصوم أحياناً ، فالإسلام كما أنه عقيدة وشعائر فهو شريعة ومنهج كامل للحياة يوءد خذ دفعة واحدة . أما أن يعبد الله تعالى في العقائد والشعائر ، ويعبد غيره معه أو من دونه في مجال التشريع فهذا ما لا يستقيم مع الإسلام ولا يتفق من حقيقة معناه .

فقد أوجبت العمل لها وحدها والتضحية والجهاد في سبيلها ،
وصرفت الكره والبراء^٥ وما يتبعهما ضدَّ كلِّ خارج عنهما ، وحصرت الحب والولاء^٥
وما يتبعهما للقوميين ومنَّ وآلام واتخذتهم من دون الله أنذارا يعبدون ،
واستعلت على دين الله وترفعت عن الانتساب إليه .^(١)
وهكذا فإن الدعوة إلى القومية والوطنية على مستوى العالم أجمع ،
والإسلامي بوجه خاص تعتبر دعوة جاهلية وإحياء^٥ للوثنية من جديد ، لا يقرها
العقل ولا الشرع ولا يسندها الواقع الفعلي والتطبيقي .

(١) انظر : فكرة القومية ص ٢٥٢ - ٢٥٤ والولاء^٥ والبراء^٥ في الإسلام ص ٤٢٠
وصفوة المفاهيم والآثار ج ١ ص ١٤٨ .
ومن هنا نعلم - محمد الغزالي ص ٦٩ ط ٢ .
ومستقبل الإسلام في القرن الخامس عشر الهجري / د . محمد البهي /
ص ١٥ - ١٦ مكتبة وهبة .

القول بديمقراطية الإسلام واشتراكيته . . . إلى غير ذلك من الأفكار

الوشنية .

من آثار الغزو الفكري على أبناء المسلمين في العهود الأخيرة ومن مظاهر انخداهم بالغرب وانبهارهم بحضارته وأفكاره ، واتباعهم لسننه وآثاره ، ومن مظاهر اختلاط صورة الإسلام والجهل بحقائقه ، ومن علامات السذاجة والبساطة أحيانا ، والمكر والدهاء والكيد للإسلام أحيانا أخرى ، ما اشتهر في الآونة الأخيرة على ألسنة الكتاب^(١) والدعاة وما رُوِّجت له وسائل الإعلام على اختلافها ، وما نادى وينادى به أعداء الإسلام - ممن تريد القول بديمقراطية الإسلام أو أن الإسلام دين ديمقراطي والقول باشتراكية الإسلام أو الإسلام نظام اشتراكي ويقبل الاشتراكية ويدعو لمبادئها ، وقومية الإسلام أو الرسول نبي القومية ورسولها ، والإسلام دين الحرية ، والإسلام دين العلم والعقل ، إلى غير ذلك من التسميات والعناوين والألفاظ التي اختلّت موازينها واختلطت مفاهيمها ، وانحرفت عن أصلها ومعانيها الحقيقية ، والتيس على الناس ما يراون بها وخفي عليهم ما يقصد من ورائها .

يقول سيد قطب رحمه الله : (هناك من يضمنون على الإسلام أقنعة أخرى ويصفونه بصفات من التي تروج عند الناس في فترة من الفترات كالأشتركية والديمقراطية وما إليها ظانين أنهم يخدمون الإسلام بهذه الطريقة الذليلة !)^(٢)

ويقول الدوسري رحمه الله في تفسيره : (ففي الوقت الذي طغت فيه كلمة الديمقراطية على ألسنة الماديين وكثر تشدقهم بها ، رأينا من يسمى الإسلام ديمقراطيا ودين الديمقراطية ، وفي الوقت الذي طغت فيه القومية والتشديق بها رأينا أيضا من يكتب عن قومية الإسلام ، بل من يسمى محسدا صلى الله عليه وسلم برسول القومية مستشهدا بما يضحك منه العقلاء ، ثم في الوقت الذي طغى فيه ما يسمى بالاشتركية العموية الشيوعية الماركسية رأينا من يسميها اشتراكية الإسلام ، بل يصف الدين بأنه اشتراكي وأن نبيّه نبي الاشتراكية ويحرف الآيات ويقلب الحقائق في سبيل ذلك . . حتى بلغت ببعضهم المحاكاة إلى تسمية الإسلام ثورة .)^(٣)

(١) انظر مثلا كتاب الديمقراطية في الإسلام للعقاد ، وكتاب اشتراكية

الإسلام لمصطفى السباعي .

(٢) انظر ظلال القرآن ج ٢ ص ١٠٨٣ .

(٣) انظر صفوة المفاهيم والآثار ج ١ ص ١٩٠-١٩١ ، وانظر كذلك الإسلام

وأوضاعا السياسية / عبد القادر عودة ص ٢٩٣-٢٩٥ ، وكتابات

مفتريات على الإسلام / أحمد محمد جمال ص ٢٩٣ ط ١ دار الفكر

وكتاب أزمة العصر محمد محمد حسين ص ٦٢ ، دار عكاظ جدة .

وهناك مَنْ وصف الإسلام وعيَّرَ عنه بقوله (١) (الإسلام إمبراطوري) وقال عن العالم الإسلامي بأنه (الإمبراطورية الإسلامية) . لوجود الشبه العارض بين سعة الإسلام وامتداده وسعة الإمبراطوريات العالمية ، وهذا مجرد مظهر عابر ، فالمعقول عليه هو طبيعة الإسلام التي تختلف عن كل النظم الوثنية (٢) .

وحقيقة الأمر أن الإسلام ليس من ذلك كله في شيء ، فالخلاف أو الفرق بين الإسلام وبين هذه المذاهب على اختلافها خلاف أساسي وجوهري ، فالإسلام يقوم على أن الحاكمية المطلقة لله تعالى كما أن العبودية له وحده ، بينما الحاكمية في كل الأنظمة والمذاهب الوثنية هي للبشر ، والعبودية لكل شيء سوى الله تعالى ، وإذا كان هناك بعض الجوانب المشتركة والجزئيات المتشابهة والعناصر المحدودة التي تلتقي فيها هذه الأنظمة الوثنية مع الإسلام كبدأ الشورى في الإسلام ومبدأ الكفالة والضمان الاجتماعي ، وبعض عناصر الحرية ، وتشجيعه على طلب العلم وإكرام أهله وتقدير العقل واحترامه . . إلى غير ذلك فإنما هو مجرد لقاء عابر ولا يعني مشابهة هذه الأنظمة مساواتها للإسلام حتى تضاف إليه أو يضاف هو إليها .

إن الخلاف عميق جدا وكبير جدا من حيث المبدأ الذي يقوم عليه الإسلام وتقوم عليه تلك الأنظمة البشرية المحدودة بالقدرة الإنسانية والجهـد البشري الناقصه فالإسلام يقوم على التوحيد وهذه المذاهب تقوم على الشرك في الطاعة والاتباع .

فالديمقراطية مثلا وثنية في الحكم الذي تجعله من حق البشر ووثنية في العبودية لهذه الفئة الحاكمة والمشرعة ، وسائر المعبودات التي تملأ عليها حياتها وترتكز عليها في وجودها وكيانها ، فكيف نقول بأن الإسلام ديمقراطي ؟

والاشتراكية في حقيقتها وثنية كنفقيتها الديمقراطية ومع هذا فهي تعلن الإلحاد وتنكر الدين وتجحد الإله ، فكيف يمكن أن نصف الإسلام بأنه دين الاشتراكية ؟

(١) الدكتور هيكل .

(٢) انظر العدالة الاجتماعية ص ٩٩ .

والعلمانية وهي تعنى اللادينية تقوم أصلا على الفصل ما بين الدين والحياة ، ولا تترك أدنى فرصة للدين لأن يحكم الحياة في أى شأن من شؤونها سواء في السياسة أم في الاقتصاد أم في الاجتماع . . . إلخ وهي لا تؤمن إلا بما يؤيده الحس وتدعمه التجربة فتترك كل الغيبات التي جاء بها الوحي ، فهل يصح أن نقول : الإسلام علماني ؟

والعقلانية تقدس العقل وتعبد من دون الله ، وتنكر ما جاء عن طريق الوحي ولا تؤمن إلا بما يقره العقل البشرى فهل هذه هي منزلة العقل في الإسلام ، وهل يجوز لنا أن نقول الإسلام عقلاني أو عقلانية الإسلام ؟ والحرية في هذه الأيام دعوة إلى التحلل من الدين أولا ومن الأخلاق ثانيا فهل الإسلام دين الحرية بهذا المعنى ؟

والإسلام يحترم القوم والوطن ويقدر الإنسان ويجعله أفضل المخلوقات ولكن هل هو قومية ووطنية ، وهل يدعو لعبادة الأشخاص ؟ الإسلام هو دين الله أولا وأخيرا فلا هو قومية ولايمقراطية ولا اشتراكية ولا ثورية ولا دعوة تحررية ولا وجودية ولا علمانية ولا عقلانية ، ولا هو من أيسة بضاعة أرضية أو بشرية إنما هو دين سواى كامل متميز له شخصيته وذاتيته التي لا تقبل الخلط والمزج والترقيع والتلفيق ، إن الدين عند الله الإسلام * (١) * ومن يهتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين * (٢)

* فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبدل لخلق الله ذلك الدين القيم * (٣)

وهو كما جاء في سورة الكافرون : * لكم دينكم ولي دين * (٤)
(إن الإسلام يقدم حلولا مستقلة لمشكلات الإنسانية يستمد منها من تصوره الخاص . وعلينا حين نناقشه ألا نكته إلى مذاهب ونظريات أخرى تفسره أو تضيف إليه ، فهو منهج متكامل ووحدة متجانسة وإدخال أى عنصر غريب فيه كفيل بأن يفسده ، كالجهاز الدقيق الكامل ، أية قطعة غريبة منه تعطل الجهاز كله ، وتظهر كأنها رقعة فيه) . (٥)

(١) سورة آل عمران آية ١٩ .

(٢) سورة آل عمران آية ٨٥ .

(٣) سورة الروم آية ٣٠ .

(٤) سورة الكافرون كاملة .

(٥) العدالة الاجتماعية ص ١٠١ - ١٠٢ .

(فأين يقف من الإسلام مَنْ يريد أن يستشفع لمنهج الله سبحانه

عند العبيد بقول من أقوال هو " لا العبيد ؟ !

(لقد كان كلُّ شرك المشركين في الجاهلية العربية أنهم يستشفعون

عند الله ببعض خلقه يتخذونهم أولياء * والذين اتخذوا من دونه أولياء

ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى * (١) ، فهذا هو الشرك فما الوصف

الذي يطلق إذن على الذين لا يستشفعون لأنفسهم عند الله بأولياء من

عبيده ، ولكنهم - وبالنكر والبشاعة - يستشفعون لله سبحانه عند العبيد

بمذهب أو منهج من مذاهب العبيد ومناهجهم ؟

(إن الإسلام هو الإسلام ، والاشتراكية هي الاشتراكية ، والديمقراطية

هي الديمقراطية ، ذلك منهج الله ولا عنوان له ولا صفة إلا العنوان الذي

جعل الله له ، والصفة التي وصفه بها ، وهذه وتلك من مناهج البشر ومن

تجارب البشر وإذا اختاروها فليختاروها على هذا الأساس ، ولا ينبغي

لصاحب دعوة إلى دين الله أن يستجيب لإغراء الزى الرائج من أزياء الهوى

البشرى المتقلب ، وهو يحسب أنه يحسن إلى دين الله (٢) .

(إن نقل الألفاظ من عقيدة إلى عقيدة ، ومن مذهب أو نظام إلى

مذهب أو نظام آخر بجرِّمه ملبستها والمفاهيم المتصلة بها في تلك البيئة

التي كانت فيها . . . وإن وراء هذه الأنظمة عقائد انبثقت هي عنها ونظريات

في الحياة تتصل بها اتصال الفروع بالجذور ، ولذلك فإننا حين نجعل هذه

الشعارات عنواناً وحيداً لنهضتنا ونكرها وحدها على سماع الجمهور

إنما نعلن ضمناً أننا ندين بتلك العقائد ونأخذ بتلك النظريات

والمفاهيم في الحياة وإننا بنتيجة ذلك نتخلى عن مفاهيمنا وعقائدنا

وننظرنا إلى الحياة المستمدة من ديننا وتراثنا الحضارى أو على الأقل نغفلها

وننهطها ، ولا جرم أن في هذا تشويها للإسلام وإفساداً لمفاهيمه وإذابة له

في غيره وإهداراً لشخصيته وذاتيته ومخالفة للحقيقة أيضاً (٣) .

(١) سورة الزمر آية ٣ .

(٢) في ظلال القرآن ج ٢ ص ١٠٨٣ - ١٠٨٤ .

(٣) الفكر الإسلامى الحديث / المبارك / ص ٧٦ - ٩٠ بتصرف .

وانظر هزيمة الشيوعية لأنور الجندي ص ٨٧ - ٨٩ . والمسلمون تحت

السيطرة الرأسمالية ، محمود شاكر ص ٤ ط ٣ المكتب الإسلامى .

إن الإسلام ليس تابعا لأحد ولا يجيز لأهله التعلق والمداهنة
وإنه لا يصلح لدين الله ، ولا يستقيم على عبوديته الصحيحة المطلوبة إلا
الذي يعرف معنى الألوهية لله ، ومعنى الملكية لله ، فيعامله معاملة الإله
والملك دون ريب أو استفهام .

ولعبودية الله سبحانه وتعالى مغايرة لجميع صور الحياة الجاهلية
قدما وحديثا ، فلا يجوز لعباد الله مجاملتهم أبدا ، بل يصدعون بوحى الله ،
منددين بما هم عليه ، من عبادة أسماء جديدة ما أنزل الله بها من سلطان ،
أحلوها محل اسم اللات والعزى ، وعباد الله حقا الدافعون برسالتهم
المستعنين به صدقا ، لا يتحدثون عن دينهم بصفة يقدمونه بها لعباد
الهبوى كأنه مناسب لذوقهم ، صالح لعصرهم كأنهم يدفعون عنه التهمة
، فيقابلون كل نظرية جاهلية تعشقها عباد الأهواء من الشرق والغرب بقولهم
عنها : إن الإسلام قد سبق إليها منذ أربعة عشر قرنا .

فإن هذه المعالجات لا تمدد الإسلام ولا تنفع لرد الشاردين عنه
إليه ، فالناس لا يجذبهم إلى الإسلام تسميته بهذه التسميات الجديدة التي
لا يتعشقها ولا يعتنقها إلا الهطال الملحد ، أو الانتهازي المفرض أو الجاهل
المفرور الذى يتبع كل ناعق ، وهو لا ، وإن تعشقوا هذه الألقاب والمبادئ
فإنهم لا يسировون ولا ينفذون من مقتضياتها ومشتقاتها إلا ما يوافق أهواءهم ،
ومتطلبات شهواتهم مهما أسبغ عليها اسم الإسلام ، أو أكثر الكُتُاب
المنهزمون من التفهيق بها وربطها بالإسلام .

أرايت إذا هم سمو الإسلام ديمقراطيا هل يتحول سيرهم إلى
سيرة الرسول وخلفائه الراشدين ، وتكون الأنظمة الديمقراطية التي سموها منبثقة
من وحي الله الذى هو روح الإسلام ، أو تكون مستقاة من أنظمة (أوروبا وأمريكا)
ونحوهما ؟

والواقع هو الشئ الأخير ، وإن نفا فائدة التسمية ؟ (١)

يجب أن لا تخدعنا هذه الدعوات والصيحات وتلك المبررات ،
فالإسلام هو الإسلام وهو الحق وكل شئ بعد الحق هو الضلال .

إنه لا ينبغي لنا أن نقرن النظام الرياني إلى نظام جاهلي فضلا
عن أن نحاول سند النظام الرياني بنسبته إلى النظام الجاهلي ، أو أن نتصور
أننا نمدح النظام الرياني بأن نقول إنه يحمل نطقا مع النظام الجاهلي . (٢)

(١) عن صفوة المفاهيم ج ١ ص ١٩٠ - ١٩٦ بتصرف .

(٢) انظر مذاهب فكية ص ٢٥١ - ٢٥٢ .

إن هذه الأنظمة والمذاهب لا تخلو من أحد أمرين فيما أن تتفق مع الإسلام في كل مبادئها وأفكارها وتتطابق معه تطابقا كاملا ، فتكون الديمقراطية أو الاشتراكية مثلا هي الإسلام نفسه والإسلام هو هذه المذاهب عينها مثلا يمثل سوا " بسوا " ، وهو افتراض جدلي لا حقيقة له ، ولكن على فرض تحققه ، فإن هذا الاتفاق يلزمنا أن نأخذ بالأصل وهو الإسلام ونترك الفروع .

وإما أن هذه المذاهب تلتقي مع الإسلام في بعض الجوانب - وهو الحاصل فعلا - وتختلف معه في جوانب أخرى ، وبخض النظر عن نوعية هذا الاختلاف ومقدار تعارضه مع أصول الإسلام ومبادئه مما يجعلها مرفوضة بالجملة بفض الطرف عن هذا فإن هذه الموافقات الجزئية واللقاءات العابرة تعتبر لقاء عارضا غير أصيل ، لأن هذه المذاهب ليست في حد ذاتها شرا خالصا ، فهي لا تخلو من بعض الحق الذي امتزج مع الباطل وهذه الموافقات الجزئية ليست من طبيعة هذه الأنظمة ولكنها ملفقة من ديانات وشرائع سابقة متعددة والإسلام أحدها ، فكما هو معروف أن كثيرا من مواد القوانين الوضعية الفرنسية مستمدة من الفقه المالكي ، ومبدأ الشورى والانتخاب في الديمقراطية له أصل أصيل في الإسلام ، واحترام الإنسان فردا أو مجموعا من مبادئ الإسلام ، والتكافل الاجتماعي كذلك من روح الإسلام ، وضمان الحقوق والحريات ، وتشجيع العلم واحترام العقل وتقدير الروابط القومية والوطنية . . . إلخ كل هذه المعاني الحميدة التي تلتقي بها المذاهب والأنظمة المعاصرة مع الإسلام ، هي في الأصل نابعة من صميم الإسلام .

فهل هذه اللقاءات المعارضة والموافقات الجزئية ، تجعل من الأنظمة البشرية نداء أو بديلا عن دين الله ؟

ولا يخفى على العقلاء أن هذه اللقاءات والموافقات لم تسلم من الإفساد والفسخ ، إنها تفسر تفسيرات مادية لا صلة لها بالدين ، وصل بها الأمر لحد العبادة من دون الله .

فمثلا أصبح الإنسان هو المعبود من دون الله سواء كان فردا أم

مجموعا ، فالديمقراطية تضخم الإنسان كفرد حتى يفعل ويتصرف كما يشاء لا حد له ولا قيد عليه ، وهو كذلك معبود في الشيوعية باعتباره رئيس الحرب أو قائد الدولة ، والشعب كذلك يُعبد من دون الله فقد صار مصدرا للتشريع ، والوطن كذلك صار معبودا لذاته . . . إلى غير ذلك من هذه الموافقات التي لم تعد تصلح أن تنسب لدين الله على هذه الصورة

المسوخة والفهم المحرف ، أو أن ينسب الاسلام أو يضاف إليها ، هذا فضلا عن أنه لا يصح بحال من الأحوال أن نستورد هذه المذاهب المادية وشو من بها أو نأخذها كبديل عن الإسلام ، أو معه ، ونطبقها في واقع حياتنا ، لأن الإسلام هو الأصل لسكل خير أو نفع فيها كما أنه سليم من كل عيب أو خلل موجود في تلك النظم والمذاهب المادية ، وما دام الأمر كذلك فكل انحراف عن الإسلام يعتبر خروجاً عن تعاليمه وهو بالتالي خطوة في العودة إلى الحياة الوثنية ، وتفضيل لها على النبوية والالتزام بدين الله .

وصدق الله تعالى : ﴿ فذلكم الله يركم ^{الحق} فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾ (١) نعم . (إن وضع عناوين غير إسلامية - كالاتراكية والديمقراطية - للنظام الاسلامي يتضمن عدة مخاطر ومخازر ، لأن هذه المذاهب ذات العناوين المعروفة لها خط غير خط الإسلام وهدف غير هدف الإسلام) (٢) .

وأخيراً فإن الذين يدعون لهذا التقريب بين الإسلام والمذاهب الوثنية الحديثة ، ويحسنونها في أعين الناس ويقربونها إليهم بحجج واهية ومبررات هزيلة ، ويلبسونها ثوب الإسلام ليخدعوا المسلمين ويردوهم إلى الشرك والوثنية وعبادة الطواغيت من دون الله والاحتكام إلى غير شريعته ، إنهم يشبهون بني إسرائيل الذين قالوا لموسى : - وقدموا على قوم يعبدون الأصنام من دون الله - ﴿ اجعل لنا إلهة كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون ﴾ (٣) .
حقاً إن الذين يقولون بذلك قوم يجهلون حقيقة الإسلام التي تفتقر عن حقيقة هذه النظم البشرية الوثنية .

إنهم يريدون أن يجعلوا للمسلمين «ذات أنواط» جديدة كذات الأنواط التي طلبت من الرسول صلى الله عليه وسلم فاستنكر الأمر واستعظمه لأن ذلك يتعارض مع حقيقة الإيمان بالله وإخلاص العبودية له تبارك وتعالى . (٤)

(١) سورة يونس آية ٣٢ .

(٢) انظر الحل الإسلامي لفريضة د . يوسف القرضاوى ص ١١٢ - ١١٧ .

(٣) سورة الاعراف آية ١٣٨ .

(٤) انظر حديث ذات أنواط في سنن الترمذي ج ٦ ص ٣٤٣ ط ١ ،

تحقيق عزت الدعاس .

إنها دعوة واحدة ، وطلب واحد لم يختلف إلا في الشكل الظاهر والقشرة الخارجية ، فذات أنواط القوم في هذا العصر هي تلك المذاهب والنظم الوثنية التي يمتقدها المشركون ويدعوا إليها المنهزمون والدهاة الماكرون ، ليربطوا المسلمين بها ويجعلوها في سويداء قلوبهم .

إن الإسلام منهج فريد و متميز يحترم الإنسان فردا وجماعة ويدعو للحرية والتكافل الاجتماعي ، ويشجع العلم ويحترم العقل ، ويقر الأعراف والمادات والآراء الصحيحة . . كل ذلك على طريقته الخاصة وأسلوبه الفريد ، إنه الحق وما سواه الباطل .

﴿ قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾^(١)

(١) سورة يوسف آية ١٠٨ .

٦ - الرأى العام (١) :

وهذه صورة أخرى من صور العبودية لغير الله تعالى التي عرفتها البشرية في حضارة العصور الحديثة ، وهى لا تقل خطرا وخروجا عن دين الله عن غيرها من صور الوثنية الحديثة .

تعريف الرأى العام :

يمكن أن أختار بعض التعريفات التى وضعها المختصون فى هذا المجال :

١ - يعرفه الدكتور إبراهيم إمام بقوله : (هو الفكرة السائدة بين جمهور من الناس تربطهم مصلحة مشتركة إزاء موقف من المواقف أو تصرف من التصرفات ، أو مسألة من المسائل التى تثير اهتمامهم أو تتعلق بمصالحهم المشتركة ، فالرأى العام يمثّل محصلة الآراء والأحكام السائدة فى المجتمع) (٢) .

٢ - وهو : (وجهة نظر الأغلبية تجاه قضية عامة معينة فى زمن معين تهتم الجماهير وتكون مطروحة للنقاش والجدل ، بحثا عن حل يحقق الصالح العام) (٣) .

ونلاحظ من خلال هذه التعريفات وغيرها أنها تدور حول رأى مجموع الناس أو أغليبيتهم حول قضية ما إيجابا أو سلبا ، بحيث تنال هذه المسألة رضى الجماهير أو رفضهم وعدم تأييدهم .

والرأى العام - كغيره من الأمور ذات التأثير المعنوى الخفى - يعتبر سلطانا خفيا وقوة وهمية لها قيمتها ورهبتها ، يخشاها أو يحسب الأفراد حسابها عند محاولة الإقدام على فعل ما أو تصرف معين .

١ - تلحق به وتقاس عليه الأعراف والعادات والتقاليد وكل ما له تأثير وهيمنة على

عقائد الناس وأفكارهم وسلوكهم ، حيث إنها صارت ذات سلطان نافذ وتصرف

كبير يصعب على الكثير مخالفته والخروج عليه ، ولو كان فى معصية الله ومخالفا

لمبادئ الدين وقواعد الأخلاق .

٢ - أصول الإعلام الإسلامى ، د . إبراهيم إمام ، ص ٢٦٣ ، دار الفكر العربى -

٣ - الرأى العام مقوماته وأثره فى النظم السياسية المعاصرة ، د . سعيد سراج ،

ص ٧ ، الهيئة المصرية العامة ١٩٧٨ م .

وهو مفهوم قديم ضارب في التاريخ لأنه شعور عام بين أفراد الجنس البشري، فقد كان معروفا عند اليونان والرومان وعرف في الإسلام كذلك ، ولكنه لم يكن معروفا بهذا المصطلح الذي عرف به في الوثنية الحديثة ، فكان يعرف بالاتفاق العام أو الاتجاه السائد ، صوت الجماهير ، أو صوت الشعب . . إلخ .

ويمكن التعبير عنه بالإرادة العامة للجمهور ، والروح الشعبية ، والعقل العام أو الشعور العام وغير ذلك من المصطلحات والألفاظ^(١) .

وللرأي العام أنواع متعددة أشهرها : الرأي العام الحر ، والرأي المقيّد أو المسيّر ، وما بين الرأي العام المطلق الحرية المعروف في النظم الديمقراطية فسي العالم الغربي ، وبين الرأي العام المقيّد أو المسيّر المعروف في الدول الشيوعية الديكتاتورية ، يمكن أن نضع نوعا ثالثا نسميه بالرأي العام الموجّه أو الرأي العام الإسلامي^(٢) ، وهو نوع موجّه ومضبوط بضوابط الإسلام ومبادئه بعيدا عن الحرية المطلقة التي وصلت لدرجة وضع التشريع ، ومعيّدا عن الاستبدادية والديكتاتورية الظالمة التي ألغت قيمة الإنسان واعتباره .

ومنها كذلك الرأي الصريح أو الظاهر ، والرأي الخفي أو الباطن ، والمحدود أو الشامل ، والدائم أو المؤقت . . إلخ^(٣) .

و للرأي العام مكونات مختلفة حيث يتكون عن طريق العديد من الوسائط الدينية والاجتماعية والتربوية والثقافية والاقتصادية : كالأسرة والمدرسة والمعاهد التعليمية والمسجد والجماعات الدينية والقيادات كالعلماء والساسة ، والأحداث التي تؤثر في الرأي العام تأثيرا قويا ، ووسائل الإعلام والتوجيه والاتصال والدعاية - من صحافة وكتب واذاعة وسينما وتلفاز ومحاضرات وخطب وغيرها - والأحزاب السياسية وغير ذلك من الوسائل التي يتم بها تشكيل الرأي العام وصياغته نحو الهدف المطلوب ، ومن جهة أخرى يمكن استعمال المناهج التعليمية لتشكيل رأي ، عام دائم ، ولكن هذا يحتاج إلى فترة زمنية طويلة^(٤) .

١ - انظر أصول الإعلام الإسلامي ص ٢٦٦ - ٢٧٤ .

٢ - هذا حسب وجهة نظري .

٣ - انظر الإعلام والدعاية نظريات وتجارب ، د . محمد عبد القادر حاتم ص ١٢٦ - ١٢٨ ، مكتبة الامجلو المصرية ، ١٩٧٨ م .

٤ - انظر أصول الإعلام الإسلامي ص ٢٨٦ ، ومذاهب فكرية معاصرة ص ٢٠٦ - ٢١٢ .

وهذا هو الملاحظ على الدول الأوروبية المعاصرة ، خصوصاً في القضايا السياسية ، فكلما أرادت أن تسوق الجماهير وتوجهها إلى قضية معينة تستخدم معظم هذه الوسائل ، فتبدأ وسائل الإعلام المختلفة كل في دائرته في التركيز على هذه القضية ولفت الأنظار إليها وإقناع الناس بأهميتها أو بخطرها ، إلى أن يصبح المطلوب شعوراً عاماً عند غالبية أفراد الشعب ، عندها يقتنع الناس بالمطلوب ويخضعون له ، بل ويباركونه ويضعون عليه توقعاتهم ويصادقون عليه بصفتهم الإرادة العليا التي تمنح المشروعية للأحكام وتتكرم بالموافقة عليها .

وهكذا في كل مناسبة أو قضية سياسية فإن الرأي العام يحتاج إلى تنبيهه وتوجيهه دائم ومستمر في كل سنة .

وأما في المسائل الاجتماعية والنواحي الأخلاقية فهي لا تحتاج إلى هذه المتابعة الدائمة والمستمرة ، لأنها تصبح من أول مرة واقعا يعيشه الناس في الحياة اليومية ، فنجد أن الرأي العام في هذا المجال أصدق وأدق على رغبة الجماهير من الرأي العام في مجال القضايا السياسية التي يزيغ الرأي العام ويضل في كل قضية من القضايا السياسية الداخلية والخارجية .

ولهذا فإن اليهود يحرصون على تضليل الرأي العام بطرقهم المختلفة ويوجهونه لخدمة قضاياهم وتحقيق أهدافهم في كل مناسبة .

(ولضمان الرأي العام يجب أولاً أن نحيره كل الحيرة بتغييرات من جميع النواحي لكل أساليب الآراء المتناقضة) (١) .

ومن هنا فإن لهم دوراً بارزاً في تشكيل وتوجيه الرأي العام في كثير من الدول الأوروبية المعاصرة ، عن طريق وسائل الإعلام التي يملكونها أو يسيطرون عليها لحسابهم ويوجهونها في خدمة قضاياهم .

وبالنسبة للشيووعية فبالرغم من وثنتها إلا أن الرأي العام لا أثر له ولا سلطة بيده ، ولا يملك أن يسنّ قانوناً أو يضع حكماً ما ، لأنها تقوم على الاستبداد المطلق والشعب كله خاضع ذليل ومستعبد ليس له إلا السمع والطاعة وتنفيذ أوامر الحزب الحاكم .

وهي تسخر كل وسائل الإعلام فيها لتضليل الرأي العام وتشكيله بالأسلوب الذي يجعله دائما منصاعا ومواليًا (١) .

وللرأى العام وظائف ومسؤوليات خطيرة وهامة كثيرة أهمها ما يلي (٢)

- ١ - سنّ القوانين والأحكام والغازها ، وهذه هي الوظيفة الخطيرة التي سيكون الحديث عن وثنية الرأي العام من خلالها كما سيأتى بعد قليل .
- ٢ - رعاية المثل والأخلاق والفضائل الحميدة وحماية المصالح العامة .
- ٣ - دعم ومساندة الهيئات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية ، وتشجيع القادة والمفكرين وأصحاب الآراء والدعوات .

وليس هد في أن أستعرض جوانب هذا الموضوع ، وإنما جعلت هذه النبذة اليسيرة لاعطاء فكرة سريعة عن الرأي العام تمهيدا لعرض الجانب الوثني له ، وهو أظهر ما يكون حين تستخدم سلطة الرأي العام ويستغل نفوذه في سنّ القوانين ووضع التشريعات تبعا للهوى والشهوة من غير اعتبار للقيم الدينية وقواعد الأخلاق وبكلمة أخرى حين يكون الرأي العام هو مصدر التشريع وهو المرجع في التحريم والتحليل ، ويصبح رباً يعبد من دون الله .

وهذا هو الواقع في العالم الأوروسى وهو ما دفعنى إلى وضعه ضمن الصور المختارة في هذا الفصل ، فقد رأيت أن الرأي العام صار معبودا من دون الله وتجراً على حقه في التشريع فصار يحرم ويحلل في الأمور ما يحقق شهواته وأهواءه من غير التزام بدين الله ، ولا مراعاة لفضيلة خلقية أو كرامة إنسانية ، إن إرادة الرأي العام قد صارت مقدّمة على إرادة الله في المجتمعات الوثنية المعاصرة في الدول الأوروبية ، إنه هو الإله الذي يعبد من دون الله في كل النظم الديمقراطية التسي تدعى أنها حققت حرية الإنسان وضمنت له كثيرا من الحقوق ، وهي في الحقيقة

-
- ١ - انظر : أصول الإعلام الإسلامى ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .
 - ٢ - راجع في هذا : الرأي العام في الإسلام ، د . محى الدين عبد الحليم ص ٨٣ - ٩٢ ، الناشر مكتبة الخانجى بالقاهرة ودار الرفاعى بالرياض .
والإعلام والدعاية ص ١٢٤ - ١٢٦ .
والرأى العام والمخطط الصهيونى ، فتحى الأبيارى ، ص ١٠٤ - ١٠٥ ،
شركة الاعلانات الشرقية - القاهرة ، ١٩٦٩ م .

ألَّهت الإنسان وجعلته المعبود من دون الله ، حيث وضعته فى منزلة المختار المطلق الخلى من كل مسؤلية ، وجعلته شارعا لنفسه بنفسه وجعلت مدار كل نوع من التشريع على الرأى العام فحسب ، وجعلت رأى الأكثرية ، وغلبة الأصوات - ولو بفارق قليل جدا - مقياس الحق والخير والصلاح ، وأن اقتراحا مهما بلغ خبثه وضرره ، إن كان قد نال من رضى العامة ما يكسبه واحدا وخمسين صوتا فى المائة ، فلا شىء يمنع من أن يسمو إلى مرتبة الشرع (١) .

وهكذا فالوثنية فى (الرأى العام) هى كما قال المودودى : (أن يكون كل ما حكم عليه (الرأى العام) فى البلاد بالحق - بصرف النظر عن الدين - هو الحق ، وما حكم عليه بالباطل فهو الباطل .

فلا تدين الأمة إلا بما تضعه أغلبية السكان من المبادئ والقوانين والنظم والضوابط ، كما أنه لا يحل إلا لأغلبية السكان أن تغيّر وتبدل فى هذا الدين (٢) .

ويكفى أن أذكر بعض الشواهد التى استغلت فيها سلطة الرأى العام فى أوروبا وأمريكا لإصدار قوانين وأحكام وقرارات مخالفة لدين الله والعقيدة النصرانية التى تدين بها .

فالرأى العام هو الذى أباح الربا والاحتكار والاستغلال والريح الفاحش فى المجال الاقتصادى ، وهو كذلك الذى أحل الزنا واللواط وكل مظاهر الشذوذ الجنسى والعلاقات الجنسية الحرة بين الجنسين ، وتعاطى الخمر والمتاجرة بها ، فى المجال الأخلاقى والاجتماعى ، وهو كذلك الذى منح حق التشريع لشريحة قليلة من البشر ممثلة فى البرلمانات وغيرها فى المجال السياسى (٣) .

(ومن أقيح الأمثلة لذلك وأجدرها بالاعتبار ما حصل فى ألمانيا قبيل العصر النازى ، وذلك أن فاضلا من أبنائها يدعى الدكتور (ماغنوس هershfeld) وكان فى الماضى رئيسا لرابطة الإصلاح الجنسى العالمية ، قام فيها بأشد ما يكون من

١ - انظر الحجاب للمودودى ص ٧٢ - ٧٣ .

٢ - واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم ، أبو الأعلى المودودى ، ص ١٥٣ ، مؤسسة الرسالة ، الرسالة لعام ١٩٧٥ م .

٣ - انظر الرأى العام فى الإسلام ص ٩٤ - ٩٥ .
ومذاهب فكرية ص ٢٢٨ .

الدعاية ، بحق سوءة قوم لوط مدة ست سنين ، إلا أن إله هذه الديمقراطية - الرأى العام - أصرَّ على أن يحلل هذا الحرام ، فقرر المجلس التشريعى الألمانى بأكثرية الأصوات ، أن لم يعد الآن هذا الفعل جريمة بشرط أن يرتكب برضا الجانبين وإن كان المفعول به دون سن البلوغ فيمكن الرضا بيد وليه فى هذا الشأن (١) .

ومن ذلك أن الرئيس الأمريكى (ولسن) قد صادق على قرار الكونجرس عام ١٩٢٠م الذى اتخذه بخصوص منع صناعة الخمر وبيعها وتعاطيها حفاظا على مصلحة الشعب الأمريكى ، ولكن الرأى العام رفض المصادقة على ذلك القرار الجائر بحق الشعب الأمريكى الذى ألف الخمر والفواحش ! واضطر المجلس إلى التنازل عن ذلك القرار تحت ضغط الرأى العام وإرادة ذلك الإله الجبار ، وقال ولسن عن قراره (انه وسيلة خاطئة لعمل شئى حسن) (٢) .

وكانت قضية الجنس والزنا وإفساد المرأة أو ما يعرف بالحرية الجنسية - من أبرز أعمال والرأى العام الذى وقف بكل قوته إلى جانب ترويج وإشاعة وتحليل ممارسة الجنس والزنا بحرية مطلقة دون قيد أو شرط .

فقد نشرت الصحف فى بريطانيا عام ١٩٧٠م قصة مدرسة شابة فى الخامسة والعشرين كانت تدرس لمجموعة من الأولاد المراهقين ٠٠٠ وكانت تقوم بتدريسهم الجنس عمليا فى الفصل وتخلع ثيابها قطعة قطعة أمامهم ٠٠ فما كان من إدارة المدرسة إلا أن أبلغت وزارة التربية والتعليم ٠٠٠ واتفقت الإدارة والوزارة على إيقاف هذه المدرسة الشابة وطلب منها أن تكف عن عرض دروسها المثيرة على الطلبة المراهقين ، وفى اليوم التالى نشرت جريدة (الديلى ميرور) صورة هذه المدرسة الجميلة عارية فى صفحاتها الأولى وقامت بحملة ضخمة ضد إدارة المدرسة ووزارة التربية والتعليم الرجعية التى تمنع هذه الشابة العبقريّة من مواصلة دروسها المهمة لتعليم الشباب المراهق الجنس ٠٠

ودعت الصحيفة إلى قيام مظاهرات تأييدا للمدرسة الشابة وحريتها فى التعبير ودعوتها إلى مواصلة جهودها العظيمة فى تربية النشء تربية جنسية سليمة خالية من العقد ٠٠ وبالفعل قامت فى الأيام التى تلت نشر هذه المقالات مظاهرات

١ - الحجاب ص ٧٣ .

٢ - انظر الرأى العام والمخطط الصهيونى ص ١٠٥ .

والاعلام والدعاية ص ١٢٤ - ١٢٥ .

ضخمة تؤيد المدرسة الشابة فيما فعلته ، وتطالب بإعادتها فوراً إلى حقل التدريس
الذى خسر خسارة هائلة بإيقافها .

ولم تجد إدارة المدرسة الموقرة ووزارة التربية والتعليم بدأ من إعادة المدرسة
الشابة إلى ممارسة وظيفتها الحيوية مع الشباب العراهم ، وانصاعت صاغرة للرأى العام ،
الذى هيجهت الجرائد الواسعة الانتشار ، وهكذا كسبت حرية المرأة وحرية الجنس
قضيتها ضد إدارة المدرسة ووزارة التربية الرجعية (١) .

وهكذا فقد أبيع كل شئ محرم بقانون ومصدره (الرأى العام) ، وهذا
الإله المعبود بكثير من وجوه العبادة وعلى رأسها تحريم الحلال وتحليل الحرام ،
لا حاكم غيره ولا مشرع سواه ولا راد لقوله ولا معقب عليه ، فالطاعة والاتباع هى العبادة
التي يمارسها الناس للرأى العام من دون الله .

ومن الطبيعى أن (الرأى العام) لا يختلف عن بقية صور الوثنية الحديثة فى
مسألة الإقرار بوجود الله والإيمان به رباً خالقاً ، بل يتفق معها فى هذا الإقرار
الكاذب والإيمان المزيف ، ولكنه لا يحقق ما يستلزمه الاعتقاد بوجود الله من أفراد
سبحانه وتعالى بالعبادة والطاعة والاتباع .

فأما التشريع فهو للرأى العام ، وهو المعبود فى هذه المسألة ، وأما العبادة
التقليدية فهى مسألة فردية وقضية شخصية ، والرأى العام لا يمنع أحداً من مزاولته
طقوس العبادة إذا هو أراد ذلك ، فالدين مفصول عن واقع الحياة بجميع وجوهها
تبعاً لمبدأ العلمانية اللادينية الذى تقوم عليه المجتمعات الأوروبية المعاصرة .

وبعد .. فما هى حقيقة الشعوب الأوروبية المعاصرة ؟ وأين هى من الديانة
النصرانية التى تؤمن بها - بغض النظر عن فسادها وتحريفها - فضلاً عن الديانة
الإسلامية والعقيدة الصحيحة ؟

إنها لا شك شعوب وثنية خالصة وإن لم تعبد الأصنام والأوثان والأجبار ،
والرهبان ، إنها تعبد ذاتها وتضع تشريعها بنفسها دون الحاجة للأجبار
والرهبان .

إنها الوثنية الرومانية والجاهلية الإغريقية ولكن فى تشكيل حديث .

١ - عمل المرأة فى الميزان ، د . محمد على البار ، ص ١٢٧ .

موقف الإسلام من الرأي العام :

الرأي العام في المفهوم الغربي السائد في الوثنية الحديثة لا وجود له في الإسلام ، بل إن هذا المصطلح لم يرد له ذكر في علم الفقه كما ذكر "العرف" مثلاً ومع كونه حديثاً بهذا المفهوم وهذه السلطة ، فإن الإسلام ينظر له كما ينظر لسائر الأمور المستحدثة فيقرها وافق أصوله ومبادئه وينكر ما سوى ذلك .

ومن هنا فإن الإسلام يقف من الرأي العام موقفاً خاصاً يختلف عن موقف الأنظمة الوثنية جميعها ، فلا يتفق مع النظم الديمقراطية التي جعلت من الرأي العام مصدراً للتشريع ، ولا يسير على المنوال الذي تنهجه النظم الاستبدادية الممثلة في الشيوعية التي ألغت أهمية الرأي العام وأبطلت مفعوله وحجرت عليه ، وقهرت الشعب وقضت على إنسانية الإنسان .

إن الإسلام يحترم الرأي العام ويقدر له دوره ويقر بوجوده وأهميته ووزنه الكبير ولكن في التوجيه والإرشاد ومقاومة الظلم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(١) ، ثم لا يجعله مطلق السراح يفعل ما يشاء دون ضابط أو حد ، كما أنه لا يكبله بالقيود والسلاسل والأغلال^(٢) .

فالرأي العام في الإسلام خاضع لسلطان الدين وملتزم بقواعد الأخلاق ، والإسلام يقر له بكل ما ينسجم مع مبادئه وقواعده ، ولا يمنعه من ممارسة دوره الذي ناطه به ما دام أنه لم يتجاوز حدود الدين ، مع ملاحظة أنه ليس مصدراً للتشريع يستقل بوضع التشريعات بنفسه .

فالإسلام لا يجعل من الرأي العام صاحب سلطة مطلقة وإرادة عليا قاهرة يضع القوانين ويسن التشريعات بما يتفق مع رغباته وغرائزه وشهواته ، مخالفاً لدين الله فيحل الحرام ويحرم الحلال ، ويستنكر المعروف ويقر المنكر فيأمر به ، كما هو شأن الرأي العام في الأنظمة الوثنية .

فمثلاً لا يجوز للرأي العام أن يلغى من الأحكام الشرعية شيئاً ، كأن يلغى شيئاً من الحدود : كحد القصاص أو حد الرجم أو الجلد أو قطع يد السارق ، أو أن يستبدل بها قوانين وأحكاماً أخرى كالسجن أو الغرامة العالية ، وليس له أن يمنح

١ - انظر أصول الإعلام الإسلامي ، ص ٢٩٩ .

٢ - انظر الرأي العام في الإسلام ، ص ٧٩ ، ٨٠ .

تعدد الزوجات ، أو يحجر على الطلاق ، أو أن يبيح زواج المسلمة من غير المسلم ، أو أن يبيح الربا فى المعاملات المالية ، أو أن يقر الشذوذ الجنسى ، أو أن يبيح الخمر ويبيعها وشراءها ، إنه باختصار لا يجوز له أن يحكم بما يخالف شريعة الله تعالى ، فضلا عن أن يكون مصدرا للتشريع الذى استأثر الله تعالى به (١) .

(إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه) (٢) .

وقال تعالى : (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون) (٣) .

وهكذا فإن الله سبحانه وتعالى لم يفوض أحدا من خلقه أن يشرع للناس من الأحكام والقوانين التى تخالف شريعته ، أو أن يحكم بينهم بما يراه من أنظمة وشرائع مخالفة لشريعة الله .

ومن هنا فإن الإسلام لا يعتبر الكثرة أو الأغلبية مؤشرا على الحق والصواب فى كل وقت ، إنه ينظر إلى القضية من جانب آخر وهو مدى الالتزام بالحق وموافقته قواعد الدين ، وهذا ما أغفله رأى العام من حسابه حيث أنه يجعل الحق دائما مع الأغلبية بغض النظر عن مدى التزامها بمبادئ الدين وأسس الأخلاق .

وبهذا فإن الإسلام يجعل للفرد ذاتية متميزة ورأيا شخصيا ، فيأمره بالتثبت والتزام الحق دائما بغض النظر عن الكثرة والأغلبية التى قد تتبع الهوى والشهوة وتسلط طريق الشيطان فى كثير من الأحيان ، فكما أن الخطأ جائز على الفرد فهو كذلك جائز على الكثرة أو رأى العام (٤) .

ومن هنا جاء قوله صلى الله عليه وسلم : (لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا) (٥) .

١ - انظر المرجع السابق ص ٩٦ - ٩٧ .

٢ - سورة يوسف آية ٤٠ .

٣ - سورة الأعراف آية ٣ .

٤ - انظر : رأى العام فى الإسلام ص ١١٥ - ١٢٢ .

و أصول الاعلام الإسلامى ص ٢٨١ .

٥ - رواه الترمذى فى البر ٦٣ .

وقال تعالى : (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون) (١) .

وقال سبحانه : (وأحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرا من الناس لفاسقون) (٢) .

فالكثر ليست دليلا قاطعا على الحق والصواب دائما ، كما أنها ليست دليلا على الباطل والخطأ ، ولا هي حجة كذلك على إقرار الباطل وتصويب الخطأ وتشبيتهما .
وأما ما جاء عن عبد الله بن مسعود أن : (ما رأى المسلمون حسنا فهم عند الله حسن وما رأه المسلمون سيئا فهو عند الله سيء) (٣) .

فذلك لأن المجتمع المسلم الذي تبنى على الإسلام الصحيح والتزم به عقيدة وشريعة لا يجزئ على أن يأمر بمنكر أو ينهى عن معروف ، أو يحل ما حرم الله أو يحرم ما أحل الله ، لأنه يعلم عاقبة ذلك وما يترتب عليه من الشرك أو الكفر وانتفاء الإيمان .

ولعله من هنا جاء قوله صلى الله عليه وسلم : (لا تجتمع أمتي على ضلالة) (٤)
فالأمة الإسلامية ما بقيت تمثل الإسلام حقيقة وتطبيقا فلا يتصور منها أن تتبع الهوى وتشرع لنفسها ما لم يأذن به الله سبحانه وتعالى ، فكل أقوالها وأفعالها واجتهاداتها مشروطة بموافقة شرع الله وعدم تجاوز حدود الدين والأخلاق .

هذا هو شأن الرأي العام في الإسلام وهذه حدوده وهذا معناه ، فإذا تجاوز دائرة الدين والأخلاق وكل ما أمر الله به فلا قيمة ولا وزن ولا احترام ولا اعتبار له ، وإنما يكون اتباعا للهوى وحكما بغير ما أنزل الله ، وهو بالتالي وثنية وعبودية لغير الله .

١ - سورة الأنعام آية ١١٦ .

٢ - سورة المائدة آية ٤٩ .

٣ - رواه الحاكم في المستدرک موقوفا عن ابن مسعود ، وقال : صحيح ولم يخرجناه

ج ٣ ، ص ٧٨ ، وأحمد ج ١ ، ص ٣٧٩ .

٤ - رواه ابن ماجه في الفتن ٨ .

٧ - مظاهر جزئية من الوثنية الحديثة :

لعل من باب استيفاء حق الموضوع أن أذكر بعض المظاهر الجزئية من الوثنية الحديثة التي تفتت بين الناس في معظم أنحاء العالم ، وهي وإن كانت مظاهر يظنها البعض أمورا شكلية وتصرفات عادية لا خطورة فيها على عقيدة التوحيد ، إلا أنها فسى الواقع خطيرة جدا ، لصفها كثيرا في وجوه العبادة - كالركوع والانحناء والسند و الخضوع والطاعة والاتباع والتعديس والتعظيم - لغير الله تعالى .

وقد ألف الناس هذه الأفعال أو هذه الألوان من العبودية لغير الله ودرجوا عليها حتى شاب عليها الكبير ، وشب عليها الصغير ، من غير استنكار لها من قبل علماء الدين أو ولاة الأمور ، بل ربما شاركوا في أدائها في كثير من المناسبات إما عن علم بحقيقتها ولكنهم يتساهلون في شأنها لسبب ما ، وإما عن جهل منهم بحقيقتها و منافاتها لعقيدة التوحيد وهي مصيبة عظيمة على أى الإحتمالين .

ولهذا فقد أحببت أن أذيل هذا الفصل بذكر عدد من هذه المظاهر الوثنية

التي تسود العالم في وقتنا الحاضر فمنها :

١ - كثرة الأعياد خلال أيام السنة في مناسبات وأحداث وذكريات مختلفة ، والعيد من باب العبادة لا يكون إلا عن طريق الشرع والأعياد الشرعية محدودة ، وكل ما سواها من مظاهر استعباد الناس لغير الله وشغل أوقاتهم بأمور لا سند لها فسى دين الله ، وإبعادهم بالتالى عن حقيقة الدين الصحيح والعقيدة السليمة .

٢ - ما جرت عليه العادة حتى صار عرفا عاما بين الدول بشأن تحية العلم والقيام له أثناء مروره ، وتنكيس الأعلام لعدة أيام عند موت زعيم أو قائد أو شخصية كبيرة ، أو عند النوازل والملمات .

وهذه أعراف وعادات فاسدة لا يجوز أن تنتشر بين من يعتقدون عقيدة دينية

سماوية فضلا عن العقيدة الإسلامية بالذات .

٣ - إقامة وتشديد ما يسمونه (تمثال - أوصح - الشهيد ، وتمثال الحرية)

وغيرها من الأنصاب والتماثيل والمجسمات والأصنام التي تقام في الميادين والساحات العامة والأماكن الاستراتيجية الهامة في المدن والقرى والأرياف .

ولا يخفى أن هذا لون من الوثنية وبعث لها من جديد ، حيث إنه لا يؤمن مع مرور الزمن وطول الأمد وفشو الجهل أن تعبد عبادة حقيقية مع الله أو من دونه كما عبدت الأصنام والأوثان في قوم نوح ، وكما هو الحال في شأن كثير

من القبور و المقامات والكهوف والمزارات التي أضفى عليها تعاقب الأجيال وتدخل
الشیطان لونا من القداسة بحيث صارت تعبد من دون الله في كثير من وجوه العبادة
كالطواف بها والنذر لها وقصدها بالزيارة وتطويقها بطاقات من الأزهار والورود
والرياحين ، وقراءة القرآن عندها والتبرك بها ، وهذا ما قد حصل بالفعل لهذه
التمائيل التذكارية التي تقيمها كثير من دول العالم اليوم .

وأخذا بقاعدة (سد الذرائع) يجب إزالة كل هذه المظاهر الوثنية ، وبيان
حقيقتها ومناقضتها لدين الله .

٤ - ويلحق بهذا عادة الصمت - أو الامتناع - عن الكلام لمدة من الزمن :
دقيقة أو أكثر حدادا على أرواح الشهداء والأبطال والقادة .

و الصمت أو الصوم عن الكلام نوع من العبادة التي لا تكون إلا لله تعالى
و بدليل من الشرع ، و صرفها لغير الله تعالى يعتبر من الوثنية والعبودية لغيره .
٥ - ظاهرة الركوع والانحناء التي يمارسها الممثلون على خشبة المسرح أمام
المشاهدين تحية لهم .

والركوع من ألوان العبادة التي لا تنبغي إلا لله تعالى ، وأدائها لغيره
نوع من الوثنية ، وإن تعارف عليه أصحابه بأنه تحية بريئة للجماهير الحبيسة في طاعة
الشیطان .

٦ - ومنها كذلك العبودية الذليلة للموضة ، وهذه ظاهرة وثنية تسود
العالم في كثير من أمور الحياة لا سيما في المظاهر والقشور كاللباس والمسكن والمطعم
وغير ذلك .

فالملاحظ أن الكثير من الناس في أنحاء العالم مأسور لنظام خاص ونمط
معين وهيئة محددة في ملبسه ومسكنه ومأكله لا يملك أن يحيد عنه مهما كلفه ذلك
من الجهد ماديا ومعنويا .

فهو عابد لما تستحدثه بيوت الأثرياء ومصانع التجميل وشركات السيارات ، يقض
حياته في كفة وتعبد عبدا للمال يجمعه بطرق شتى ليدفعه آخر النهار لسدنة الموضة
وطواغيتها عن طواعية وطيب نفس .

ويجب أن لا يفهم من هذا أن الزينة والتمتع بملذات الحياة الدنيا حرام
أو محظور ، ولكن أن تكون للزينة والمتعة هذه السيطرة والهيمنة على حياة الناس

و قولهم بحيث لا يستطيعون مخالفتها وتستعبد لهم ، فهذا هو سرُّ أهل الوثنية ،
وهذه هي العبودية الذليلة لغير الله .

٧ - ظاهرة حمل الصليب وغيره من الأشكال والتمائيل والمجسمات والأوشان
الصغيرة في العنق وانتشار ذلك بين الشباب المسلم والفتيات المسلمات ، وفسى
أغلب الأحيان تكون مصنوعة من الذهب الخالص مما يجعلها في حق الرجال أغلظ
وأشدَّ حرمة علاوة على أنها من مظاهر الوثنية .

وإذا راجت هذه الأمور عند الوثنيين من اليهود والنصارى فلا مجال لها
عند أبناء المسلمين خصوصا تعليق الصليب وحمله ، وقد أمر الرسول صلى الله عليه
عليه وسلم عدي بن حاتم - وكان نصرانيا يحمل في عنقه الصليب - أن يطرحه منسذ
اللحظة الأولى التي أسلم فيها فقال له : (إطرح عنك هذا الوثن) (١) ، فكيف
بأبناء المسلمين بعد أربعة عشر قرنا يعودون لهذا العمل الوثني من جديد .

وكلُّ الشارات والمجسمات والأنصاب والتمائيل المصغرة التي يتقلدها الشباب
في كثير من بقاع الدنيا هي من مظاهر الوثنية وتعظيم آثارها .

٨ - ومنها ظاهرة إحياء الحضارات الجاهلية القديمة التي اندثرت مع
الأيام ، وإبراز المجسمات والتمائيل والأنصاب والتماوير الأثرية التي غنى عليها الزمن
والإشادة بها وتمجيدها وإعلاء شأنها ، علما بأنها بقايا أعمال وثنية لا تتفق مع
عقيدة التوحيد .

ولا شك أن إحياء هذه الحضارات كان من عوامل فرقة المسلمين وتشجيع
النعرات القومية والوطنية ، وإضعاف العقيدة الإسلامية في نفوس أبنائها ، لأن
الاهتمام بهذه الحضارات والآثار لم يكن من باب العظة والاعتبار والتعرف على أحوال
الأمم السابقة و عوامل سقوطها ومقدار بعدها عن طاعة الله ، وإنما كان في أكثر
الأحيان من باب التقديس والتعظيم والإجلال والافتخار بها على حساب الإسلام ،
والتهمين من الحضارة الإسلامية التي لم تحتفل بكل هذه الأعمال الوثنية لمعارضتها
لعقيدة التوحيد .

١ - سبق تخريجه .

الإيمان

عدوى الوثنية الحديثة في حياتنا

وفيه ثلاثة فصول :

١- الفصل الأول : أحوال المسلمين في العهد الأخير .

٢- الفصل الثاني : تاثير المسلمين بالوثنية الحديثة في شتى المجالات .

٣- الفصل الثالث : وسائل العلاج .

الفصل الأول - أحوال المسلمين في العهد الأخير

- ١ - البعد عن حقيقة الإسلام •
- ٢ - التخلف في مختلف نواحي الحياة •
- ٣ - الغزو الصليبي المعروف بالاستعمار الأوربي •
- ٤ - الغزو الفكرى •
- ٥ - الانبهار بالحضارة الغربية •

الفصل الأول : أحوال المسلمين في العهد الأخير

تمهيد : بقيت أحوال العالم الإسلامي بين مدة وجزر قرونا طويلة ، فمنذ انتهاء عهد الخلافة الراشدة و بداية عهد الملوك والأمراء وأحوال المسلمين في تغيير وتبدل وعدم ثبات واستقرار ، فكلما قويت شوكة الدولة الإسلامية ووجد من يقود المسلمين ويصرهم بشؤون دينهم ، حسنت أحوالهم واستقرت شؤونهم و علت كلمتهم وإذا لم يجدوا ذلك القائد الحازم ، افتقرت كلمتهم واضطربت أحوالهم وهان على أعدائهم أمرهم وأصبحوا مطعما لهم ، وانحرفت أفكارهم وسيطرت عليهم الأهواء والخرافات واحتكموا إلى العادات والأعراف والتقاليد وخضعوا لمن غلب عليهم ، وتزلفوا إلى ذوى السلطان .

ولكنهم مع هذا كانوا في أغلب أحوالهم وإلى عهد غير بعيد محافظين على شخصيتهم الإسلامية ، وأقرب إلى روح الإسلام وإقامة دولته وتحكيم شريعته .

بقي ذلك إلى مرحلة متأخرة من عهد الدولة العثمانية التي كانت تشمل دولة الخلافة الإسلامية وتشدد إليها جميع دول العالم الإسلامي ، ولكن لم يلبث أن بدأت مظاهر الضعف تقوى شيئا فشيئا وتطغى على سير الدولة العثمانية خصوصا بعد أن احتلى العرش سلاطين همهم المتعة والشهوة ولم يحفلوا بأمر الإسلام والمسلمين كما كان حال أسلافهم (١) .

ومن سوء حظ العالم أجمع أن بداية ضعف المسلمين قد تزامن مع انفتاح أوروبا على العلم وتخلصها من طاغوت الكنيسة وطغيان رجال الدين ، أو التفتت من دين الله واتجاهها إلى حياة مادية ووثنية جديدة باسم الحرية والعقل والعلم في البحث والتجريب .

استمرت أوروبا في اتجاهها المادي قدما لا يقف أمامها شيء ولا يحدّها حدٌّ وسخرت في سبيل نهضتها جميع طاقاتها وقدراتها ، فامتلكت زمام القيادة وأصبح العالم كله في قبضتها وتحت تصرفها ، تملّي عليه ما تشاء وتخضعه لقوتها وسيطرتها ، وتستعبد ، لأوثانها وطواغيتها التي أقامتها .

وبينما كانت أوروبا في هذا بدأت تسود العالم الإسلامي موجة من التأخر والضعف والانحطاط والجمود العقلي والفكري والمادي ، والتقهقر والهوان والبعث

١ - انظر : هذا هو الإسلام ، د . مصطفى السباعي ، ص ٦٣ - ٦٥ ، ط أولى ، المكتب الإسلامي .

عن حقيقة الإسلام حتى وصل الأمر في العهود الأخيرة إلى مسح كامل للهوية الإسلامية عند معظم أبناء المسلمين ، لدرجة صار من الممكن القول بأنها أسوأ عهود السذل والانحطاط التي مرّ بها العالم الإسلامي حتى اليوم ولا أظن أن المسلمين قد تعرضوا لمثل هذا المسح الكامل على مدى أحد عشر قرناً من تاريخ الدولة الإسلامية التي مرّت بها .

وفيما يلي نبذة يسيرة عن أهم مظاهر الضعف والانحطاط التي عاشها العالم الإسلامي في العهود الأخيرة :

أولاً - البعد عن حقيقة الإسلام :

أكمل بناء الدولة الإسلامية ، وعاش المسلمون في ظل الإسلام علماً وعملاً ورسخت معالم الدين وتعاليمه في نفوسهم وتمكنت من قلوبهم قروناً طويلة ، وبالرغم من كل حالات الانحراف والشذوذ التي صار إليها المسلمون في فترات معينة ، وخروجهم عن تعاليم الإسلام في بعض الأوقات والمناسبات ، وبالرغم من كل ما سجل على المسلمين من تراجع عن عهد الذروة الذي وصلوا إليه في صدر الإسلام فإنهم كانوا أقرب إلى حقيقة الإسلام والمحافظة عليه والالتزام به مما صار إليه حالهم في العهود الأخيرة التي اختلفت تماماً عما سبق من عهود الضعف والانحطاط ، إذ أنه لما طال عليهم الأمد وبعد العهد عن سيرة السلف الصالح والأفئدة الأوائل ونسوا حظاً مما ذكروا به ، ودبّ فيهم داء الأم من قبلهم ، أصبح الإسلام في نفوسهم قشوراً ومظاهر وتبدّلت لديهم كثير من المفاهيم وأختلطت كثير من الأسس والبيادق وخفيت عليهم مسلمات الأمور ودهيات الدين ، وابتعدوا عن حقيقة الإسلام بعداً ظاهراً لا يدانيه بعد .

وفيما يلي مجموعة من مظاهر هذا البعد عن الإسلام والجهل بحقائقه وسوء

فهمه :

١ - اختلاط مفاهيم العقيدة بشكل عام :

كانت العقيدة في أصلها واضحة صافية مستمدة من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة مؤدية إلى الإيمان بالله تعالى إيماناً صادقا خالصاً من كل شك يقوم على النظر في آيات الكون ومظاهر الطبيعة وسنن الله تعالى في مخلوقاته الظاهرة وقوانين الفطرة ، فلا مرأ ولا جدال .

هذه العقيدة اختلفت موازينها واضطرب فهمها وكثر الجدل والنقاش في كثير

من مسائلها ، بحيث تحوّلت مع الزمن إلى مناقشات فلسفية وجدل كلامي وأدلة منطقية معقدة يستعصى فهمها ومعرفة على المتخصصين فضلا عن عامة الناس ، كالبحث في مسائل الذات والصفات ، وخلق القرآن وكلام الله تعالى والعرش والجنة والنار ، ووصل الأمر إلى البحث في وجود الله تعالى واستحضار الأدلة العقلية التي تثبت وجوده في حين أن هذا من مسلمة الفطرة كما قال تعالى : (واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا) (١)

هذه حال العقيدة عند العلماء والمتخصصين ، أما عقيدة العامة فقد قويت فيهم الخرافات والأوهام والأساطير وازداد الاعتقاد بالقبور والأضرحة والتعلق بالموتى من الصالحين والأولياء ، وكثرت البدع والمخالفات الشرعية وقويت النزعة الصوفية ، وكثرت شيوخها وتعددت طرقها (٢) ، وعظم أمر الرقى والتعائم وهان أمر التوحيد في النفوس وعظم الشرك بصورة أوسع مما سبق .

٢ - اختلاط مفاهيم وعناصر معينة من مسائل العقيدة :

ومن هذا القبيل على سبيل المثال سوء فهم (الإيمان بالقدر) وتعطيل الأخذ بالأسباب ، وما رافق ذلك من الزهد المقوت ، والتواكل كبديل لبدأ التوكل ومع أن هذه الأمور لم تكن تثير أي تساؤل عند المسلمين الأوائل ، فكان الكل منهم يسلم بأن القدر نافذ لا محالة وأن خيره وشره من الله ، وأن الإنسان مسؤول عن عمله ومحاسب عليه ، وعليه تبعة ذلك ، ومع هذا فهم الآخذون بأسباب الحياة الدنيا التي أجزاها الله تعالى في سنن الكون متوكلين على الله في جميع أعمالهم ، زاهدين في متاع الحياة الدنيا غير متوانين في الكسب والبحث وطلب العيش الكريم من غير تفريط ولا تهالك .

هذه المفاهيم كانت واضحة في الأذهان لا يغلب جانب منها على حساب ، جانب آخر ، انطلاقا من قول الله تبارك وتعالى : (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تمنن نصيبك من الدنيا) (٣) .

١ - سورة الأعراف آية : ١٧٢ .

٢ - انظر العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة ، سفر ابن عبد الرحمن الحوالي ، ص ٥١٥ - ٥١٩ ، ط ١ ، دار مكة .

٣ - سورة القصص آية : ٢٧ .

غير أن الأمر في العصور الأخيرة صار إلى ما لا تحمد عقباه ، فقد أساء المسلمون فهم عقيدة القدر ففهموا أنه يلزم الاستسلام للواقع ، وأن الإنسان مجبر على أعماله وليس له فيها سوى أنه المنفذ لها ، وأن ما كان مقدراً له لا بد أن يأتيه ، سواء أعمل أم لم يعمل ، وأن ما لم يكن له فلن ينال منه شيئاً ، هذا الفهم أفسد مفهوم التوكل على الله بعد تعطيل الأسباب والأخذ بها ، وغاب عنهم تلك الآيات والأحاديث التي تحث على العمل والكسب والطلب والمشى في الأرض والأخذ بأسباب الحياة ، بل أصبح الأخذ بالأسباب في نظرهم يتعارض مع الاعتقاد بأن الله هو الخالق للحوادث وينافي التوكل على الله ، حتى أصبح المثل الأعلى للإنسان الكامل أن يستسلم بلا حركة ولا إرادة ، وكلا الفكرتين - كما يقول الشيخ محمد المبارك - خطأ ومخالف للقرآن والسنة (١) .

وقد أدرك كثير من المستشرقين أن المسلمين قد أساءوا فهم عقيدة الإيمان بالقدر فكتب أحدهم يقول : (طبيعة المسلم التسليم لإرادة الله والرضا بقضائه وقدره والخضوع بكل ما يملك للواحد القهار ، وكان لهذه الطاعة أثران مختلفان : ففي العصر الإسلامي الأول لعبت دوراً كبيراً في الحروب إذ حققت نصراً متواصلاً لأنها دفعت في الجندى روح الفداء ، وفي العصور الأخيرة كانت سبباً في الجمود الذي خيم على العالم الإسلامي فقفز به إلى الانحدار وعزله وطواه عن تيارات الأحداث العالمية) (٢) .

ولقد كان لهذا الفهم الخاطئ أثر سيئ بالفعل كما ذكر هذا المستشرق حتى صار الكثير من المسلمين يظن أن الدين هو سبب ضعف المسلمين وانهزامهم في ساحة الأحداث ، وأنهم إذا أرادوا الالتحاق بركب التقدم والتطور ، فلا بد لهم من التخلي عن الدين وعن الإيمان بعقيدة القدر بالذات لأنها في ظنهم تدفع المسلمين إلى التخاذل والتواكل والانعزال .

٣ - فساد مفهوم العبادة :

سبق بيان المفهوم الشامل للعبادة وأنها اسم جامع لكل ما يحبه الله تعالى

١ - انظر المجتمع الإسلامي المعاصر - محمد المبارك ص ٥٧ .

٢ - الإسلام قوة القدر العالمية ، باول شمتز ، ص ٧٨ ، ترجمة د . محمد

شامة ، القاهرة ، ١٣٩٤ هـ .

ويرضاه وأن الدين كله داخل مفهوم العبادة الصحيح ، وسبق كذلك فى بيان الخلل والفساد الذى لحق مفهوم العبادة بحيث أصبحت تعنى - عند الكثير من المسلمين حتى عند بعض المتخصصين فى علوم الدين - مجرد الأركان الخمسة للإسلام فمن أقرب بالشهادتين فسادى الصلاة المفروضة ولو فى غير جماعة ودفع الزكاة ولو جزءاً منها مع المنّ بها على الفقراء والمحتاجين والرياء أمام الناس ، وصام شهر رمضان ولو لم يمتنع عن اللهو وأكل أموال الناس بالباطل والتطاول على أعراضهم بالغيبة والنميمة وإلحاق الضرر بهم ، وحجّ مع الناس ولو من أرباح وفوائد أمواله المودعة فى البنوك الربوية - من قام بهذا أو بجزء منه أصبح يشعر فى قرارة نفسه بأنه قد عبد الله وحده وقام بالواجب وحقق توحيد الألوهية ، فى حين أنه غاب عن الأذهان ارتباط هذه العبادات الأساسية بجميع مجالات الحياة من الجهاد فى سبيل الله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتحكيم شريعة الله فى جميع مرافق الحياة صغيرها وكبيرها ، من غير تفریق بين أمر وآخر ، فكما هى حاکمة فى الحدود والفرائض والأحوال الشخصية ، فهى كذلك فى السياسة والاقتصاد والمعاملات والبيع والشراء .

وهكذا فقد أصبحت العبادة فى حنّ المسلمين مجرد حركات آلية وواجهات روتينية يؤدونها فى أوقات معلومة وهيئات محددة تؤدى لذاتها لا صلة لها بالواقع ولا ارتباط لها بالحياة مما جعلها لا أثر لها ولا فائدة منها فى الحياة .

وهذه النظرة للعبادة هى تطور وامتداد خطير للفكر الصوفى الذى ظهر فى عهد الدولة العباسية لأسباب متعددة .

وقد أدى ذلك بالناس إلى ابتداء عبادات من عند أنفسهم واستحسان أمور ليست من الدين والالتزام بأدائها والمحافظة عليها والدفاع عنها والانتصار لها والتمسك بها أكثر من تمسكهم والتزامهم بالعبادات الصحيحة .

ومعنى هذا أن المسلمين لا يدركون أنه لا يعبد إلا الله وحده ولا يعبد إلا بما شرع وكما شرع من غير زيادة أو نقص أو ميل وتحريف ، وأنهم لا يقفون عند حدود ما شرع الله ، وأنهم لم يلتزموا بالأحاديث النبوية التى تنهى عن الابتداع والهدع ومحدثات الأمور فى شؤون الدين كقوله صلى الله عليه وسلم : (من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)^(١) ، وغير ذلك من النصوص التى تحذّر المسلمين

١ - متفق عليه ، رواه البخارى فى الصلح ٥ ، ومسلم فى الأضحية ١٧ .

فى كلِّ زمان ومكان من إحدات البدع فى دين الله .
ولكن هذه البدع نتيجة حتمية للبعد عن حقيقة الإسلام لذلك فلا بدَّ من فهم
الإسلام الفهم الشامل الصحيح والالتزام الدقيق بأحكامه والعودة إلى منابعه الأصلية ؛
كتاب الله وسنة رسوله .

٤ - تشعب الإسلام إلى تخصصات فرعية ضيقة :
الإسلام - كما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من عند الله تعالى - وحدة
مترابطة الأجزاء ونظام عام شامل لجميع شؤون الحياة عقيدة وشريعة وشعائر تعبدية
وقد كان المسلمون يدركون هذه الحقيقة ويمثلونها فى واقع حياتهم قولاً وعملاً ، وكان
العلماء منهم أوعية حاوية لعلوم كثيرة وفنون متعددة يحيطون بالإسلام من جميع
جوانبه ، وقلما تجد من حصر نفسه فى جانب معين أو تخصص محصور فى علوم الإسلام
فكانت صورته فى أذهانهم واضحة جلية حفظاً وفهماً وتطبيقاً .

و لكن لما ابتعدوا عن حقيقة الإسلام فى العهد الأخيرة وفترت الهمم عن
حملة جملة واحدة ، ودبَّ فى المسلمين الضعف والكسل ، وجدنا أن الأمر قد تغيَّر
وأصبح لا محالة من تقسيم الإسلام إلى موضوعات وتخصصات فرعية فانفصلت الوحدة
الحيوية الكاملة التى تضمنها الإسلام فى صدره الكتاب والسنة وتمثلها وعى سلفنا
الصالح من العلماء ، إلى ثلاث شعب هى (١) :

الشعبة الأولى ما سُمى بشعبة العقلية أو الجانب الفكرى وكانت من اختصاص علم
الكلام والعقائد .

والشعبة الثانية تتعلق بالأحكام أو الجانب الفقهى فكانت من اختصاص الفقه وعلمائه
وتشمل العبادات والمعاملات .

والشعبة الأخيرة مختصة بالوجدانيات أو الجانب النفسى والخلقى فكانت من اختصاص
أهل الزهد والتصوف .

ومع هذه التخصصات فقد كان المختص فى جزئية منها على اطلاع ومعرفة ببقية

الشعب .

ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد فقد حدثت تشعبات داخل الشعبة الواحدة
وتمزقت مسائل الدين وتفرقت أحوال المتخصصين وانطوى كلُّ متخصص على مسألة
جزئية لا يزيد عليها ولا يعرف غيرها ويظن أن الإسلام كلُّه ممثل فيها .

يقول المبارك : (وقد نشأ علماء متخصصون في كل فرع من هذه الفروع الثلاثة بل وجد في بعض العصور ولا سيما المعاصرة محترفون في صناعة علم الكلام أو الفقه ولكنهم ليسوا دعاة إلى الله ولا مبشرين بالإسلام ، وقد لا يهتم بعضهم بما يحل في الإسلام والمسلمين من نكبات ومصائب وتبقى ضمائرهم مرتاحة إذا استخرجوا قضية عقلية قد لا يكون لها أي جدوى في حياة المسلمين ، أو حكما فقهيها في مسألة متخيلة غير واقعة ، أو تذوقوا حلاوة الوجد الصوفي) (١) .

٥ - التعصب الأعمى للمذاهب لدرجة التقديس :

ومن أبرز مظاهر البعد عن حقيقة الإسلام في العهد الأخيرة ما يعرف (بالعصبية المذهبية) تعصبا لا يستند إلى دليل ولا يقوم على برهان ، وإنما لمجرد النصرة والتقليد الأعمى .

وفي رأي أن ظاهرة التعصب كانت نتيجة من نتائج ظاهرة تقسيم الإسلام إلى فروع وجزئيات وتخصصات متعددة ، حيث بدأ التعصب الشديد عند أتباع كل مذهب أو تخصص لمذهبهم الفقهي أو العقدي أو لطرقهم وشيوخهم وأقطابهم ، فقد شغل أتباع كل مذهب بجزئيات ليست من جوهر الإسلام ، وتعصب أتباع المذاهب إلى مذاهبهم لا سيما في مجال الفقه فتجد المقلدين للأئمة المجتهدين في الفروع متعادين متباغضين وكان كل فريق منهم على دين ومنهج لا صلة له بغيره إلا صلة العداوة والقطيعة ، وذلك بسبب طغيان التبعية المطلقة للمذاهب القائمة وتحكم هذه المذاهب في عقول التابعين المقلدين وسيطرتها عليهم بحيث يهابون نقدها وإبداء الرأي في قيمتها ، أو قبول قول غيرها ، مما أدّى بالتالي إلى الفرقة والاختلاف وعدم الوحدة والاتلاف وقيام الفواصل بين أفراد جماعة المسلمين (٢) .

ومن الجدير بالذكر أن الأئمة أصحاب المذاهب الفقهية قد أثرت عندهم أقوال تدعونا إلى التزام كتاب الله وسنة رسوله ، وعدم الالتزام بأرائهم إذا كانت تتعارض مع آية قرآنية أو حديث نبوي صحيح ، وإلى جانب ذلك كانوا إخوة متحابين يحترم كل

١ - انظر المجتمع الإسلامي المعاصر ص ٧٥ .

و الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص ١٢٢ ط ٨ .

٢ - انظر الفكر الإسلامي الحديث ص ١٤١ .

و الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة - المودودي ، ص ١٧ .

دار القلم - الكويت .

منهم رأى الآخر فى حين أنه لا يلتزم به إذا لم يكن دليله مقنعا ، ومن هنا فقد اجتهدوا وأبدعوا وتركوا لنا هذه الثروة الفقهية الواسعة ، فكيف بنا اليوم معشر المسلمين أصبحنا تابعين مقلدين لآرائهم ولو من غير دليل من كتاب أو سنة ، وأعطينا أقوالهم قداسة وسلطة وكأنها مما نزل به الوحي أو قاله الأنبياء المعصومون ، فى حين أن ذلك لا يكون إلا لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

و أما فى مجال العقيدة فليس الأمر بأقل تعصبا منه فى مجال الفقه ، فقد تشعبت العقيدة واختلطت مفاهيمها - كما سبق - وافتقرت الأمة الإسلامية إلى فرق كثيرة متباينة ، وشغل المسلمون فيما بينهم بأفكار ومسائل أثارت التعصب والمغالاة حتى آل الأمر إلى المحن والسجن والتعذيب كما حدث للإمام أحمد وغيره فى فتنة القول بخلق القرآن ، وما لاقاه شيخ الإسلام ابن تيمية من العنت والأذى من أتباع الطرق الصوفية وأنصار المذاهب الفقهية .

وهكذا فقد وصل الأمر بالمسلمين إلى درجة عظيمة من التعصب والولاء المذهبى المقوت والبعيد عن روح الإسلام وحقيقته ، وقد استغل أعداء الإسلام هذه الفرقة وهذا التعدد والاختلاف ووجدوا من خلالها منافذ يلجون منها إلى قلوب المسلمين ويشيرون أضغانهم وأحقادهم ويؤججون نار الفرقة والعداء فيما بينهم .

وأخيرا . . . فإن هذا الانحراف والبعث عن حقيقة الإسلام الذى صارت إليه حال المسلمين فى العهد الأخيرة يعتبر المنطلق الخطير والطريق المباشرة لكسب ما أصاب المسلمين فيما بعد ولكل ما حل بهم فى داخلهم ومن خارجهم ، فقد كان بمثابة التمهيد والتهيئة أو بمثابة التفريخ ، استعدادا لمرحلة التعبئة وملء الفراغ بكل ما يناقض الإسلام ويفسد عقول المسلمين فى جميع مجالات الحياة العلمية والفكرية والمادية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية ، وهو الذى جعل العالم الإسلامى فى حالة شجعت أصحاب المطامع والأهداف التوسعية من الدول النصرانية لغزو ديار الإسلام واحتلالها وانتهاب خيراتها وشحنها بالأفكار والمذاهب الوثنية التى تعرف بالغزو الفكرى ، وهو بالتالى السبب فى هذا الانبهار والإعجاب العظيم والتقليد الأعمى للحضارة الغربية الوثنية .

حقا إن بعد المسلمين عن حقيقة دينهم وعدم التزامهم به كان البذرة المسمومة التى غرست فى قلب العالم الإسلامى فأفسدت ما كان صالحا طويلا

القرون الماضية (١) .

و لذلك فلا بدّ من العودة الجادة الصادقة إلى حقيقة الإسلام وفهمه الفهم الصحيح وتطبيقه تطبيقاً شاملاً ، فالقرآن الكريم والسنة المطهرة - وهما المصدران الأساسيان للإسلام - قد أمرنا بالالتزام بها والمحافظة عليها وتنفيذ ما جاء فيهما ، فالله تعالى عندما أنزل القرآن لم ينزله لمجرد الحفظ والتلاوة والتجويد والتفسير والقراءة في المحافل وافتتاح المناسبات واختتام برامج الإذاعات ، لم ينزله لمجرد الترتيل أثناء الليل وأطراف النهار ، إنما أنزله إلى جانب ذلك ليكون دستوراً للحياة وقانوناً للبشرية ومنهاجاً للإنسانية ، أنزله ليحكم تصرفات الناس وأعمالهم ويرشدهم إلى الحق فيمساختلفون فيه ، وقد أكد الله سبحانه وتعالى الغاية التي من أجلها أنزل القرآن فقال في غير ما آية من الكتاب العزيز : (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) (٢) .

وقال : (ألم * كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد) (٣) .

وقال كذلك : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) (٤) .

والسنة النبوية كذلك فهي للتطبيق والاتباع والالتزام ، قال صلى الله عليه وسلم : (تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعسى إلا هالك) (٥) .

هذا ولقد كانت نتيجة البعد عن حقيقة الإسلام قاسية وخسارة فادحة فعندما أراد المسلمون أن ينهضوا من كبوتهم ويتخلصوا من واقعهم ليلتحقوا بركب الحضارة والتطور وجدوا أنفسهم في بعد شاسع عن الإسلام وحقيقته وروحه ، وجدوا أنفسهم مسلمين بالتقليد والوراثة ، وجدوا الانحرافات والمفاهيم الخاطئة لمعنى (لا إله

١ - انظر الإسلام على مفترق الطرق ، محمد أسد ، ص ١٣ ، ترجمة عمر فروخ

دار العلم للملايين ، بيروت .

٢ - سورة النحل آية ٦٤ .

٣ - سورة ابراهيم آية ١

٤ - سورة المائدة آية ٤٤

٥ - رواه أحمد ج ٤ ، ص ١٢٦ ، وابن ماجه في المقدمة ٦ .

إلا الله) ، راية الإسلام وشعار التوحيد وأساس الدين ، وجدوا أنهم يجهلون أن الإسلام هو دين المدنية والحضارة والابداع العلمى والنمو العقلى ، وقد غلب على ظنهم أن الإسلام يعادى المدنية والاكتشافات العلمية ومواكبة نمو الإنسانية وتطورها ، كشأن دين الكنيسة المحرف .

وجدوا أنهم إذا أرادوا التمسك أو العودة إلى الإسلام فإن هذا يعنى التأخر والجمود والتفوق والانكماش على النفس ، ولا بدَّ لهم حتى يلحقوا بالحضارة والمدنية أن يهجروا ذلك كله ، ويقلدوا الغرب فى كلِّ ما صنع ، ويعزلوا الإسلام عن واقع الحياة كما فعلت أوروبا عندما هجرت الدين والأخلاق وآثرت اللادينية والحياة الوثنية .

تلك هى نتيجة البعد عن حقيقة الإسلام واختلاط مفاهيمه وانحراف أتباعه عنه وعدم التزامهم به فى العهد الأخيرة التى مرت وتمزبها الشعوب الإسلامية (١) .

١ - انظر الحل الإسلامى فريضة ضرورة - د . يوسف القرضاوى ص ١٨٦ .

ثانيا - التخلف فى جميع نواحي الحياة

إلى جانب بعد المسلمين عن حقيقة الإسلام فى العهد الأخيرة فقد صاروا إلى أحوال لا يحسدون عليها ويفرح لها أعداؤهم ، فقد امتدَّ التخلف والركود والانحطاط إلى مختلف نواحي الحياة ومجالاتها علميا وفكريا وماديا وأخلاقيا ، وذلك لأن هذه النواحي جميعها مترابطة و متداخلة بحيث تؤثر وتتأثر ببعضها البعض ، إذ أن الخلل فى أحدها يلحق الضرر فى القسم الآخر ، وهذا من سنن الله فى الكون فكل أمة تستعمل ما حباها الله تعالى من قوى الفكر والعقل وتمضى قدما فى طريق البحث العلمى والتحقيق والاكتشاف فإنها تتمتع إلى جانب رقيها الفكرى وقوتها العقلية ، بالرقى والتقدم المادى وتحظى بمكانة قوية وهيبة عظيمة بين الأمم ، فى حين أن كل أمة تتقاعس عن التفكير والبحث العلمى تصاب مع انحطاطها وتخلفها عقليا وفكريا بالتقهقر والاضمحلال المادى والحضارى ، ومن ثم تكون هدفا للمطامع ، وأهلا للخضوع والتبعية والتقليد .

وهذا ما صارت إليه أحوال المسلمين مؤخرا ولا سيما فى القرن الرابع عشر الهجرى أو العشرين الميلادية فى جميع دولهم شرقا وغربا (١) .

إن حالتهم الحاضرة لا ترضى لا من جهة الدين ولا من جهة الدنيا ولا من المادة ولا من جهة المعنى (٢) .

فالنظر المتأمل فى أحوال المجتمع الإسلامى ، يجده مجتمعا متأخرا من الناحية الفكرية بشكل عام ، ومن الناحية العلمية المتعلقة بالكون بشكل خاص ، فقد ضعف الابداع العلمى ثم زال واختفى (٣) ، وفقد المسلمون القدرة على التفكير الكلى الشامل الذى يستطيع أن يستخرج من الجزئيات الكليات ومن الحوادث سننها وقوانينها العامة ، وشاع فيهم التفكير الذى يقتصر على النظر فى الجزئيات بمعشورة مشتتة دون القدرة على وضعها فى مواقعها من نظام عام شامل (٤) .

- ١ - انظر كتاب نحن والحضارة الغربية - المودودى ص ٧٠
- ٢ - انظر كتاب لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم - الأمير شكيب أرسلان ، ص ٥٠
المركز السلفى للكتاب - القاهرة ، عام ١٩٨١ م .
- ٣ - حول دور المسلمين فى مختلف العلوم ، انظر كتاب : عبقرية العرب فى العلم والفلسفة ، د . عمر فروخ .
- ٤ - انظر المجتمع الإسلامى المعاصر ص ٩٦ .

ولم ينحصر التأخر في العلوم الكونية أو الطبيعية بل تعداه إلى علوم الدين وخاصة علم الفقه فانعدم الاستنتاج والاستنباط ، وركدت الحركة الفقهية ووقفت عملية الاجتهاد التي كانت تمكن الفقهاء من حل المشكلات الطارئة في ضوء مقاصد الشريعة وأهدافها ، ولم يعد هناك من يتصدى لحل المسائل والمشكلات الحضارية التي استجدت ولم يكن لها جواب فقهي مما سهّل دخول الحلول والقوانين الوضعية إلى ديار الإسلام والرجوع إليها والاكتفاء بها بدلا عن شرع الله ومنهجه والوقوع في الوثنية^(١) ، وأبتعد الفقه الإسلامي عن واقع حياة الناس ، وصار مادة جافة تخاطب العقل تبدأ به وتنتهي فيه وكأنها مسائل منطقية ودراسات فلسفية لا تصلح لمواكبة التطور الحضاري والتقدم العلمي ، وتقوقع الفقهاء على أنفسهم واعتزلتهم المجتمع وصار لكل فريق فكره وثقافته ومدارسه ومعاهده ، وتمّ بذلك عزل الدين عن الحياة وفصل الشريعة عن واقع الناس العملي^(٢) .

وقد امتدّ هذا الجمود الفكري والضيّق العقلي بحيث شمل كافة فروع العلم النظرية من حديث وتفسير وتاريخ ونحوه وصرف وانعدمت روح التجديد والابتكار فيها ، وأصبحت هذه العلوم مجرد دراسات نظرية جافة ودروس تقليدية تقتصر إلى روح الإسلام وفلسفته ، فصارت دراسة موضوعات العقيدة أو التوحيد أو ما يسمى بعلم الكلام استعراضا لجزئيات العقيدة بدلا من عرض الأسس والنظريات القرآنية الشاملة للكون والحياة والإنسان والخالق المدبر لها بأسلوب متسق ومتكامل^(٣) .

وكذلك الشأن في تفسير القرآن الكريم وعلومه فقد اختفت الروح الإيمانية في دراسته وتحليله لدرجة أن القارئ للقرآن ليحس بلذّة ما تعذّر لها لذّة فإذا ذهب يقرأ تفسير القرآن استعجم عليه واستغلق بسبب تلك العناية الشكلية التي غلبت على معظم المفسرين الأوائل واكتفى بتردادها وتكرارها أو مجرد إعادة طبعها وتصويرها المقلدون من العلماء المحدثين من غير زيادة أو نقصان في معظم الحالات^(٤) .

١ - موسوعة الحضارة د . شلبي ، ج ٣ ، ص ٢٤٧ .

٢ - انظر يوم الإسلام ، احمد أمين ص ١٢٨ .

٣ - انظر المجتمع الإسلامي ، المبارك ص ٩٢ .

٤ - انظر موسوعة الحضارة ، د . شلبي ، ج ٣ ، ص ٢٢٣ - ٢٢٢ .

وكان من نتائج ذلك أن خفيت حقائق الإسلام على الكثير من أبناء المسلمين وعمَّ الجهل معظم طبقاتهم في أبسط قواعد التوحيد لدرجة أن الذين يدعون الإسلام ويزعمون أنفسهم مسلمين ، يوجد فيهم أشنع ما يكون من أنواع الأوهام وعقائد الشرك ، بل هم يعتنقون مبادئ ونظماً تدعو صراحة إلى الإلحاد والوثنية والخروج من دين الله والتحلل من الأخلاق والقيم والمبادئ الإنسانية الشريفة ، وينادون بشعارات وثنية كالقومية والوطنية وتأسيس الدولة على نظم شيوعية أو ديمقراطية أوروبية ، ومع كل هذا وذلك لا يشعرون بأن الإسلام الذي يدعون أتباعه لا يتلاءم أبداً مع هذه الأفكار ، وأنه مغاير لها تماماً من كل وجه ويمتيز عن كل ذلك (١) .

وقد امتدت آثار التأخر العلمي والجمود الفكري بحيث شملت مختلف نواحي الحياة في العالم الإسلامي وإن كان تأثير بعض النواحي أبلغ من غيرها ، وانتهى الحال بالمسلمين إلى حدوث أزمت ومشاكل في مختلف نواحي الحياة تأثرت بها إلى حد كبير الأحوال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . . . الخ (٢) .

فقد ركزت الحركة الاقتصادية التي كانت مزدهرة إثر انتشار الإسلام والفتوحات الإسلامية الواسعة ، وتوقفت هذه الحركة الاقتصادية في ميادين الزراعة والصناعة والتجارة وغيرها ، وأصبح العالم الإسلامي يعتمد اعتماداً كلياً على الاستيراد من الدول الصناعية المتقدمة مما كان له أكبر الأثر في وقوع العالم الإسلامي في أزمت اقتصادية خانقة ومجاعات قاتلة ، وتفشى الأمراض وانتشار الأوبئة لعدم وفرة الغذاء وقلة الخدمات الصحية من مستشفيات ولوازم طبية مختلفة .

وساءت بذلك الحالة الاجتماعية بجميع جوانبها المادية والأخلاقية والمعنوية ، وساءت الخدمات العامة ذات الصفة الاجتماعية التي كانت متوفرة حتى أوائل العهد العثماني تقريباً ، وقد كان المفروض أن تتطور وتزداد ولكنها قلت بشكل ملحوظ بسبب ربما انعدمت وتلاشت في أكثر الأوقات .

وأما الجانب الأخلاقي من الناحية الاجتماعية ، فقد صار متروكاً لضمائر الناس وتقواهم من غير ضابط يضبطه ولا رادع يرد عنه ، وأصبحت الأخلاق مسألة شخصية وحرية فردية التزم من التزم وانحرف من انحرف ، فقد هورت الأخلاق بشكل عام وراج بين المسلمين أشنع ما يكون من العادات والتقاليد من أعمال الوثنية ، وأقصد

١ - انظر الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة ، المؤيد دى ، ص ١٦ .

٢ - انظر العقيدة والأخلاق ، محمد بيصار ، ص ٣٢ .

مظاهر الحضارة الغربية فلا تكاد تشعر طائفة منهم - إلا من رحمهم الله - بمدى انحرافها عن مبادئ ذلك القانون الذي تدعى الإيمان به ، فازدهرت فيهم كل فكرة خاطئة وكل طريقة زائفة من أين كان مأثاتها ، ويظنون أن الإسلام يسعها (١) .

وصارت المجتمعات الإسلامية تحكمها متناقضات عديدة مما أدى إلى تسويع ولاء الفرد المسلم بين الإيمان والشرك (٢) .

وظن الكثير من أبناء المسلمين أن النظام الإسلامي في الاقتصاد والاجتماع لا يتفق مع مقتضيات التقدم ، ولذا يجب أن يحوّر حسب الأسس الغربية (٣) .

وأما الناحية السياسية والعسكرية فلم تكن بأصلح حالا من غيرها ، فقد تعرّض العالم الإسلامي في مراحل الأخيرة لأحوال سياسية سيئة كان لها كبير الأثر في إضعاف شوكة الإسلام وتمزيق وحدة المسلمين ، واختفت الدولة العقائدية الإسلامية ذات الأهداف الإنسانية والأخلاقية ، ونشأت مكانها دويلات ممزقة من الحكم القاهر والسلطان الطاغى المتحكم ، ولا تكاد تجد من ينادى عن صدق وإخلاص بوحدة المسلمين بالرغم من وجود الكثير من أصحاب العواطف الإسلامية والاتجاه الدينى إلا أن الشجاعة لا تصل بهم للمناداة بوحدة العالم الإسلامي أمام التيارات الجاهلية الوثنية الحدیثة التي تحدى بهم ، بل لقد ترعزت فكرة الرابطة الإسلامية وظهرت مكانها روابط وثنية كرابطة الوطن والقوم وغيرها من الأفكار والمذاهب الوثنية التي تنافس الرابطة الإيمانية وتحاول القضاء عليها وتقضدّها مجتمعة رغم اختلافها ظاهرا وواقعا (٤) .

ويمكن قسمة العوامل السياسية إلى قسمين : الأول ويتعلق بالدولة الإسلامية نفسها ومن داخلها ، والثانى ما يتعلق بالهجمات الأوروبية الصليبية أو ما يعرف بالاستعمار الأوروبى فى التاريخ الحديث ضد العالم الإسلامى .

وقد كانت العوامل السياسية الداخلية عاملا هاما فى تشجيع الدول النصرانية وفتح عيونها على العالم الإسلامى حيث إن الدولة العثمانية التي حفظت الخلافة الإسلامية عهدا طويلا ورفعت راية الإسلام فى كثير من البلدان قد دبّ الضعف إليها

١ - انظر الإسلام فى مواجهة التحديات المعاصرة ، ص ١٧ .

٢ - المجتمع الحضارى وتحدياته ، محمد البهى ، ص ٤١ - ٤٢ .

٣ - رسالة التقليد ، محمد أسد ، ص ٦ ، مكتبة المنار ، الكويت .

٤ - انظر كتاب سكان العالم الإسلامى ، محمود شاکر ، ص ٩٨ - ١٠٢ ، الطبعة

الثانية ، مؤسسة الرسالة .

ووصلت إلى حالة من الضعف والانحلال شجعت الدول التي كانت خاضعة لسلطانها على التحرر والاستقلال السياسي خصوصا بعد قيام الدعوة إلى القومية التركيبية الطورانية (١) ، وأغرى بالتالي تلك الدول الوثنية الحاكمة على الإسلام والطامعة بخيرات بلاده باحتلال تلك الولايات المفككة واحدة بعد الأخرى واقتسام تركيبة (الرجل المريض) قبل موته والسيطرة عليها (٢) ، وامتصاص خيراتها وإفساد شعوبها أخلاقيا ودينيا وفرض الجهل على أبنائها واستخدامهم وتسخيرهم لخدمة مصالحها ونشر أفكارها ومبادئها الوثنية .

هذا وقد كان من الممكن أن تتخلص جميع الدول الإسلامية من الحكم الخارجي وتحظى بالاستقلال والحرية كما حصل فعلا ، غير أن العالم الإسلامي قد تعرض لاحتلال جديد أخطر وأضر من الاحتلال العسكري والقهر السياسي ، ذلك هو ما عرف بالغزو الفكري الثقافي (٣) ، واتصال المجتمع الأوروبي وحضارته القوية النشيطة المختلفة في تركيبها وأهدافها عن الحضارة الإسلامية بالمجتمع الإسلامي المتدهور إذ لم يعد ضعفه منعزلا ولكنه غدا أمام خصم يطلب النزال فلا يجد منازلا ويجد فراغا في الحكم والفكر والاقتصاد فيقوم لسد هذا الفراغ لمصلحته ومنفعته (٤) .

-
- ١ - انظر موسوعة الحضارة ج ٣ ، ص ١٧٧ - ١٨٩ .
 - ٢ - انظر يوم الإسلام ، أحمد أمين ، ص ١١٦ .
 - ٣ - سيأتي فيما بعد .
 - ٤ - انظر المجتمع الإسلامي المعاصر ص ٩٨ .
- وكتاب ردة ولا أبا بكر لها ، لأبي الحسن الندوي ص ١١ .

ثالثا - الغزو الصليبي الأخير (المعروف بالاستعمار الأوروي) :

تعرّض العالم الإسلامي في أكثر من مرة لحروب دينية تحت راية الصليب حتى نهاية الاحتلال الأوروي في العصر الحديث .

وقد ابتدأت حلقات هذه الحرب الدينية بتلك الهجمات المهمجية التي شنتها دول أوروبا النصرانية وأذكت نارها الكنيسة ورجال الدين وقادها مجموعة من مشاهير القادة من الحكام والملوك والأمراء النصارى ضدّ العالم الإسلامي واستمرت حوالي قرنين من الزمان على وجه التقريب^(١) ، بين نصر وهزيمة واتخذت الصليب شعارا لها ووساما على رؤس المقاتلين وصدورهم^(٢) .

وإذا كانت هذه أشهر حلقة من الحروب الصليبية ولها أثرها البالغ على العالم الإسلامي خصوصا من الناحية الاقتصادية ، فإن الحلقة الأخيرة التي شنتها أوروبا في القرون الأخيرة ضدّ العالم الإسلامي واتخذت اسم (الاستعمار الأوروي) للتمويه والتغطية وخداع عقول المسلمين وتضليل الرأي العام العالمي^(٣) ، تعتبر بحق أقسى وأشدّ وأضرّ حلقاتها بالإسلام والمسلمين ، إذ أنها تزامنت مع ضعف الدولة الإسلامية وتفككها وعدم قدرتها على الدفاع عن نفسها ، وأن هذه الحركات الاستعمارية تعتبر امتدادا طبيعيا وثيق الصلة بالحروب الصليبية السابقة^(٤) ، وذات طابع عقائدي ، وأن الباعث الأكبر لها كان لطمس معالم الدين الإسلامي ونشر الأفكار النصرانية الوثنية وترويجها في ديار الإسلام ، والثأر والانتقام للخسارة والهزيمة التي منيت بها دول أوروبا النصرانية في معظم حملاتها الصليبية السابقة ، وإن كان لا يخفى أنه إلى جانب هذا الباعث كانت هناك بواعث سياسية ومطامع اقتصادية وخطط توسعية وغير ذلك من الأهداف .

١ - موسوعة الحضارة ج ٣ ص ٢٧٤ - ٢٧٦ .

وانظر كتاب العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي ،

أنور الجندى ص ٤٠٧ - ٤٠٩ ، طبعة أولى ، دار المعرفة .

٢ - الجواب الصحيح ، ج ٣ ص ١٩ .

٣ - موسوعة الحضارة ، ج ٥ ص ٦٩١ .

٤ - انظر جهاد المسلمين في الحروب الصليبية ، د . سعيد عبد الفتاح

عاشور ، ج ٢ ص ٧٧ ، ط ٤ .

وما يدلُّ على أن هذه المرحلة الاستعمارية كانت امتداداً للحروب الصليبية
وأنها في معظمها كانت ذات طابع ديني مجموعة من الشواهد والأقوال لم يستطع
الغرب كتمانها إلى الأبد ومن ذلك ما جاء على لسان القائد البريطاني المشهور
(اللنبي) في أثناء الحرب العالمية الأولى وبعد أن تمكن من دخول القدس والسيطرة
عليها تحت راية الصليب قال كلمته المشهورة (الآن انتهت الحروب الصليبية) وقد
نشرت هذه العبارة في الصحف البريطانية تحت صورة ذلك القائد الصليبي المشهور (١)
وما قاله كذلك قائد الجيش الفرنسي (الجنرال غورو) عندما احتلَّ مدينة
دمشق توجَّه من فورهِ إلى قبر صلاح الدين الأيوبي عند الجامع الأموي وركله بقدمه
وقال له (ها قد عدنا يا صلاح الدين) (٢) .
وكذلك كلمات النشيد الإيطالي فهي تكشف عن الحقد الدفين في الصدور
الأوروبية النصرانية وتظهر حقيقة الحروب الصليبية الأخيرة .

تقول كلمات هذا النشيد : أماء صلي ولا تبكي بل اضحكي وتأملِي ، ألا تعلمين
أن إيطاليا تدعوني وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحاً مسروراً لأبذل دمي في سبيل سحق
الأمّة الملعونة ، ولأحارب الديانة الإسلامية التي تميّز البنات الأبيكار للسلطان
سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن ، تحمسي أيتها الوالدة ، وإن سألك أحد عن عدم
حدادك عليّ فأجيبه : (إنه مات في محاربة الإسلام) ، الطبل يقرع يا أماء أنا
ذاهب أيضاً ألا تسمعين هرج الحرب دعيني أعانقك وأذهب (٣) .

ولهذا فلنَّ الاستعمار الأوروبي للعالم الإسلامي في العهود الأخيرة يجب أن
يُسمَّى بما يدلُّ على حقيقته ويكشف عن هويته فهو غزو صليبي ديني تسترَّ باسم الاستعمار
وعلَّل حركاته بعِلل واهية لا تقوى أمام البحث العلي التاريخي ، وكلُّ من يجهمل
حقيقة هذا الاستعمار فهو إما من المخدوعين من ذوى النوايا الحسنة والقلوب الطيبة
أو من أصحاب النوايا الخبيثة الذين يعملون لحساب الغرب ودوله الوثنية ، ففي كل
يوم تقوى الأدلة وتزداد وضوحاً أن العداء ديني لا سياسي (٤) ، وأنه من الغفلة

١ - نقلاً عن قادة الغرب يقولون : دمروا الإسلام ، أبيدوا أهله ، تأليف جلال

العالم ص ٢٦ ، ط ٣ .

٢ - المرجع نفسه ص ٢٨ .

٣ - يوم الإسلام ، أحمد أمين ص ١١١ ، مؤسسة الخانجي بمصر عام ١٩٥٢ م

٤ - موسوعة شلبي ج ٣ ، ص ٢٢٦ .

أن نقول بأن الحرب اليوم حرب سياسية لا دينية لأن المظاهر كلها تدلُّ على ما نقول (١) .

وصدق الله العظيم حيث يقول : (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَارًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ) (٢) .

وقوله : (وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ) (٣) .

إن حقيقة هذه الحروب ظاهرة غير أن المسلمين وبسبب الأحوال التي هم فيها والظروف القاسية التي مروا بها ، وشدة الهجمة وتسترها بأستار خادعة قد غفلوا عن حقيقة الأمر ، وربما كان يُعدُّ أوروبا عن دينها واتجاهها في طريق العلمانية اللادينية وسلوكها مسالك الوثنية الحديثة قد خدع المسلمين وأخفى عليهم حقيقة الاستعمار الأوروى فربطوه بكل شيء إلا الدين .

هذا وقد كان من الممكن أن يعلن الغربيون ذلك لولا أنهم خشوا أن تحسَّ الدول الإسلامية بالخطر يتهددها جميعا فتتحد وتتعاون لمقابلة هذا العدو ، بينما الغرب حريمى على أن يثير الخلاف بين هذه الدول وأن يبذر بينها بذور الشقاق بإيهامها أن هذا العداء لا صلة له بالناحية الدينية ، وبذلك يتخطفها ويستذلها واحدة بعد أخرى (٤) ، وقد تحقق ذلك وتم للدول الصليبية ما خططت له وسقطت الدول الإسلامية المغككة في قبضة أوروبا واحدة تلو الأخرى ، وتوزعتها فيما بينها بناءً على اتفاقيات ومعاهدات سرية أبرمت بين تلك الدول المتسابقة والطامعة في السيطرة على العالم الإسلامى وتنصيره وتعييده للصليب .

فمنذ بداية القرن السابع عشر الميلادى إلى النصف الثانى من القرن التاسع عشر تمكن الاستعمار الغربى المسيحى من السيطرة التامة على المسلمين فى وسط آسيا وشرقها ، واتخذ له نقطة ارتكاز رئيسية فى أفريقيا ، كما تمكن من مسدِّ نفوذه إلى قلب العالم الإسلامى ومركزه الرسمى فى منطقة الشرق الأدنى ، وبذلك سلك طوق العالم الإسلامى من الشرق والغرب ، وسلط الأعيبه ودسائسه على بقية التجمعات

١ - يوم الإسلام ص ١٢١ .

٢ - سورة البقرة آية ١٠٩ .

٣ - " " " " ١٢١ .

٤ - انظر موسوعة شلبي ج ٣ ، ص ٢٧١ .

الإسلامية الأخرى بين هذين الطرفين ، فوهنت هذه التجمعات وانحلَّ عقدُها وسقط بعضها إثر بعض تحت نفوذ المستعمر الغربي ، وما جاءت الحرب العالمية الأولى وأنقض أجملها ، حتى أصبح العالم الإسلامي كله تحت نفوذ هذا المستعمر (١) .

ففي عام ١٧٩٨ م هجم نابليون على الشرق بتنظيماته الجندية واحتلَّ مصر وأخضعها لفرنسا مستغلا ضعف الدولة العثمانية وسوء حالة الجيش العثماني (٢) .

واحتلت فرنسا كذلك الجزائر وتونس والمغرب فيما بين عام ١٨٣٠ إلى عام ١٩١١ م ، ووضعت سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي عام ١٩٢٠ م .

وسيطرت بريطانيا على جنوب شبه الجزيرة العربية ومكَّنت سلطانها بسلسلة من المعاهدات مع سلطان مسقط والبحرين والكويت ، وكانت كلُّ معاهدة تضيف جديداً للنفوذ البريطاني لحماية طريق بريطانيا للهند التي كانت قد احتلتها في عام ١٩٥٧ م ثم احتلت مصر في عام ١٨٨٢ م بعد أن كانت القوات الفرنسية قد خرجت منها عام ١٨٠١ م .

وبالإضافة إلى هذا فقد كان من نصيب بريطانيا كلُّ من العراق والأردن ، وفلسطين ولم تلبث أن أعطت فلسطين لليهود .

في حين أن ليبيا كانت من نصيب إيطاليا عام ١٩١١ و جعلت أندونيسيا من نصيب هولندا تساعدها في ذلك بريطانيا في عام ١٨١٦ م أخذت بريطانيا جزيرة الملايو وأخذت هولندا الجزر الأندونيسية .

و أما إيران وأفغانستان فوزعت بين روسيا وبريطانيا بموجب معاهدة سرية عام ١٩٠٧ م بحيث يكون النفوذ في شمال إيران لروسيا وفي الجنوب لبريطانيا (٣) .

وقيت روسيا تتطلع إلى احتلال أفغانستان إلى عام ١٩٨٠ م حيث دخلتها القوات الشيوعية وشردت أهلها الآمنين وما زالت جاثمة على أرضها إلى يومنا هذا .

١ - الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي - محمد البهي ، ص ١٧ ،

ط ٤ ، مكتبة وهبه .

٢ - يوم الإسلام ص ١١٦ .

٣ - انظر موسوعة شلبي ج ٣ ص ٢٦٥ - ٢٩٢

ج ٥ ص ٧٠٦ - ٧٠٨

وانظر أساليب الغزو الفكري ، د . علي جريشة ص ٤٥ .

وهكذا صار حال العالم الإسلامي في العهد الأخيرة موزعا بين الدول الصليبية التي ثارت لفشل الحروب الصليبية الأولى ، فمزقته إربا ، بعد أن كان دولة واحدة متماسكة تحت ظل دولة الخلافة الإسلامية بقيادة الفئة المخلصة من سلاطين آل عثمان منذ قيامها إلى أن دبَّ فيهم الضعف وانحرفوا عن دين الله واتبعوا الشهوات ، وسقطت تلك الدولة التي حفظت العالم الإسلامي بضعة قرون من الزمان ، وألغيت الخلافة الإسلامية تماما عام ١٩٢٤ م بعد الإطاحة بالسلطان عبد الحميد ١٩٠٨ م وانجرفت تركيا في التيار العلماني الوثني بقيادة القوميين الأتراك وفقدت شخصيتها الإسلامية تماما في أكثر المجالات (١) .

ولقد كان لهذا (الاستعمار) أكبر الأثر في الدمار والتخريب والفساد والانحطاط الذي أصاب العالم الإسلامي فكان من لوازم هذه التسمية (الاستعمار) أن يعمل على استبدال العلم بالجهل والغنى بالفقر والتأخر بالتقدم والازدهار ، ولكن شيئا من هذا لم يكن ، بل كان العكس ، فما ازداد الجهل إلا جهلا والفقر إلا فقرا مدقعا والتأخر إلا تأخرا فظيما ، وصار وضع العالم الإسلامي مهلهلا من جميع جوانبه ونواحيه ، فقد كانت هذه المرحلة من الغزو والاحتلال الصليبي أشجع غزو تعرّض له العالم الإسلامي عبر التاريخ الطويل .

وقد صور (لوثروب ستوارد) مدى خطر هذا الغزو الصليبي الماكر حيث يقول : (إن سيطرة الغرب الحديثة على الشرق لا مثيل لها في التاريخ من حيث الفظاعة والخطورة والدمى والمجال ، فما كان لليونان ورومية من قبل من السيطرة المحدودة على بعض من العالم لا يعدُّ بالإضافة إلى سيطرة الغرب اليوم شيئا مذكورا) (٢) .

وصحَّ المستشرق (هانتو) مستشار وزارة الاستعمار الفرنسية عن دور فرنسا في محاربة الإسلام والمسلمين بقوله : (لقد صارت فرنسا بكلِّ مكان في صلة مع الإسلام ، بل صارت في صدر الإسلام وكبده حيث فتحت أراضيه ، وأخضعت لسلطوتها شعوبه وقامت تجاهه مقام رؤسائه الأولين : وهي تدير اليوم شؤونه وتجنّى ضرائبه ، وتحشد شبابه لخدمة الجندية وتتخذ منهم عسكريين يذبون عنها في مواقف الطعان ومواطن القتال) (٣)

١ - انظر فصل الدين عن الدولة ، إسماعيل الكيلاني ، ص ١٩٣ ، ط ١ .

٢ - نقلا عن العالم الإسلامي ، أنور الجندى ، ص ٤٢٥ .

٣ - الفكر الإسلامي الحديث ، محمد البهسي ، ص ١٩ .

هذه أقوال أبناء الصليب شاهدة على قوة الصدمة التي تلقاها العالم الإسلامي كله من جراء هذا الغزو الصليبي .
نعم لقد كانت الصدمة قوية جدا لدرجة يصعب وصفها والاحاطة بالآثار والخسائر الجسيمة التي ألحقتها بالإسلام والمسلمين في كل أصقاع العالم الإسلامي الكبير .
وقد كانت خطورة هذه الهجمة الصليبية مزدوجة فلم تكن أوروبا هذه المرة - كما كانت في الحروب الصليبية الأولى - مجرد قوة هوجاء متهوسة كأسلافها ، وإنما جاءت ومعها حضارة جديدة براقية ومؤثرة وانساحت على امتداد الرقعة الإسلامية كلها تقريبا ، ومهدت طريقها بغزو فكري واجتماعي غلاب ، وأخذت مراكز الحكم والتوجيه واستجلبت معها جاليات من كل لون ، ومكّنت لهم في الأرض وانسابت في علاقات إنسانية واجتماعية مع شعوب هذه الأمة في التعليم والثقافة والصدقة والتجارة والفنون والمسارح . . . الخ (١) .

وقد اجتمعت هذه الهجمة على العالم الإسلامي مع أحوال سيئة من جميع النواحي كان يعيشها المسلمون مما زاد الطين بلة ، ووطّن القدم الصليبية في البلاد الإسلامية فمزّقوا شملها وأنزلوا بأهلها الذل والهوان والاستعباد ، ونشروا بينهم الجهل والخرافات وسلّطوا البلاد موارد ها وتركوا الشعوب فقيرة جائعة ولقى الأحرار والمفكرون أسوأ المصائر في هذا الظلام القائم ، لقوا الحتف والنفي والتشريد ، وانفقت ثروات هذه البلاد على المبشرين الذين يحاربون الإسلام ويحسّنون للناس اعتناق النصرانية (٢) .

وقد كانت السياسة الصليبية واحدة ففي الهند مثلا نفذت السياسة نفسها التي طبقت في دول الشرق الأوسط من تمزيق البلاد إلى إمارات وأقاليم ونشر الجهل والخرافات ، وكانت الهند كما يقول المؤرخون درة التاج البريطاني ، ولكن سكان هذه الدرة كانوا يعانون الجوع والحرمان لتتهدأ للتاج البريطاني ألوان الرخاء والترقى (٣) .

١ - الغزو الفكري - عبد المتار فتح الله ، ص ٥٩ - ٦٠ .

٢ - موسوعة شلبي ج ٣ ، ص ٢٨١ .

٣ - نهضة الشعوب الإسلامية ، محمد حبيب أحمد ، ص ٣٨٩ .

وانظر ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٢٣٠ - ٢٥٠ .

و دليل ذلك أن الإنجليز لما غادروها كان عدد الأميين ٨٨% من مجموع أربعمئة مليون نسمة ، أما عدا الأميين وهم ١٢% من السكان فكان منهم ٢% . تعلموا شيئاً من اللغة الإنجليزية ، وأما العشرة فى المائة فلم تكن ثقافتهم تتعدى قراءة شئ من لغاتهم المحلية أما تعليم البنات فلم يتجاوز اثنتين فى الألف (١) .

ومن مظاهر سياسة الدول الصليبية التى احتلت دول العالم الإسلامى أنها كانت تركز على تعميق الخلافات الفرعية وتوسيع شقتها وإلقاء بذور الفتنة بين المسلمين وإثارة الخصومات والنعرات وعوامل التفرقة العنصرية وتشجيع الأقليات ودعمها ومساندتها ومنحها الامتيازات الأجنبية والراكز المهمة وأعطت أفرادها نفوذاً خاصاً متميزاً ، وضربت الطوائف والقبائل الاجتماعية بعضها ببعض (٢) .

وقد حرصت تلك الدول الوثنية أن تجعل فى كل قطر إسلامى (جيوب مشاكل سياسية تستنفذ طاقة القطر من ناحية ، ومن ناحية أخرى تؤثر على سير الإسلام سياسياً مشاكل حدود ، ومشاكل جوار ، مناطق وضعها الطبيعى أن تكون لأقطار وضعت بيد أقطار أخرى أقليات يوضع فى يدها الحكم ، إقامة دول غير عادية ليس لها مقومات الحياة المستقلة ، تقوية الاتجاهات الممزقة لوحدة المسلمين ، وجعلت بين الكيانات عقداً وأطلقت قضية المصلحة من عقالها وعملت على إيجاد الأنظمة المختلفة المتجاورة : نظام رأسمالي بجانبه نظام اشتراكى ، نظام ملكى بجانبه نظام جمهورى بجانبه نظام ديكتاتورى .

إن عملية استعمار العالم الإسلامى من جهات متعددة كافية لإيجاد عوازل ما بين أقطاره لأن كل قطر صبغته الدولة المستعمرة على طريقته الخاصة وأوجدت فيه ما تريد ، فيكفى أن تستعمر بريطانيا قطرا ، وفرنسا قطرا ، حتى يوجد بين القطرين من العوازل الشئ الكثير ، طريقة التفكير ، الجهاز الإدارى ، سلاح الجيشين تكوين الجيشين ، أجهزة الارتباط الخفية ، كل شئ يختلف فى أحد القطرين عنه فى القطر الآخر ، وفى النهاية تجد حواجز هائلة بين القطر والقطر وأوضاع مختلفة (٣) .

١ - باكستان دولة ستعيش ، د . عمر فروخ ص ٧٦ .

٢ - انظر موسوعة شلبى ج ٣ ص ٢٨١

العالم الإسلامى ، أنور الجندى ، ص ٤٢٤ .

٣ - انظر جند الله ، سعيد حوى ، ص ١٢ - ١٤ .

وهكذا فإن المخططات الاستعمارية تحرص على إبطال مفعول الوجدان الديني والأخلاقي وإعلاء شأن المفاهيم المادية والأفكار الوثنية والعادات الجاهلية ، ونشر المذاهب والآراء والدعوات العلمانية اللادينية والفلسفات المادية التي تقوم أساسا على الروابط والأسس غير الدينية ولهذا فقد قاومت فكرة نشوء الجامعة الإسلامية ووحدة المسلمين وشنت ضدها حربا عنيفة وحالت دون قيامها وأوجدت فكرة الجامعة العربية بدلا عنها ، فصار الولاء للعروبة والقومية والوطن ، لا للدين وأخوة العقيدة .

ومن الملاحظ أن الدول الصليبية ركزت على الأمة العربية أكثر مما ركزت على أي جزء آخر من العالم الإسلامي ، وكان التركيز على مصر بالذات أكثر من غيرها من الدول العربية ، فقد جعلت لها ضمن مخططات التخريب والتبشير والتخريب والإفساد قدحا معلى ، وأولتها أهمية خاصة باعتبارها تشكل أغلبية سكانية ، وذات حضارة قديمة ومكانة مرفوعة بين الدول العربية (١) .

جاء في جريدة الاستاذ المصرية (عدد ١٧ يناير سنة ١٨٩٣ م) (٢) عن دور الاستعمار الصليبي الانجليزي في إفساد أخلاق المصريين وتقاليدهم الأمر الذي أدى إلى انحلال الشخصية وموت الكرامة ما يلي : (قالت أوروبا إن وقوفكم على عاداتكم الشرقية وتخليقكم بأخلاق آبائكم ، بقاء على الهمجية والتوحش فلا بد من مجاراتنا في حركتنا المدنية لتساوونا في الرتبة ، وفتحت البير والخمارات والمقامر ، وأباحن الزنا والمقامر ووسعت دائرة اللهو والخسران ففعل الشرقيون عثما وراء ذلك من ضياع الدين والملك والمجد والشرف ، وانكبَّ الأغبياء والمغفلون على الخمر ، فسأت أخلاقهم وضعفت عقولهم وفسدت عقائدهم ، وتحولوا إلى المومسات فارتكبوا الإثم بارتكاب المحرم والعار باتخاذهم الوطنية آلة للفحش ، وجعلها عرضة للأجنبي بعدم غيرتهم عليها .

والكل عطف على المرابين ، يقترض ويصرف في الملاهي و متلفات العقل والجسم والملك ، حتى أسكن الأوروسى مكانه وصار له خادما بعد أن كان عظيما محترما ، وكلما تهالك الشرقيون على الخمر والملاهي وأصلت أوروبا رسائل الخمر ، وارتحل إليهم المومسات وأرباب الملاهي تحويلا للثروة وإزهاقا لروح الدين حتى أصبح المتلبسون

١ - انظر العالم الاسلامى ص ٤٢٥ .

٢ - انظر المجلد الأول ص ٥٠٩ .

بهذه الفضائح لا شرقيين ولا غربيين ، واتخذتهم وسائل لتنفيذ آرائها ووصولها إلى مقاصدها من الشرق ، وهى تحثهم على المثابرة على عملهم باسم المدنية وما هى إلا التوحش والرجوع إلى الحيوانية المحضة (١) .

وسخرت فى سبيل ذلك وسائل الإعلام والصحافة فهى التى كانت تحمل الأفكار والدعوات المختلفة ، وعملاء الاستعمار هم الذين يكتبون باللغة العربية فى المقطم والأهرام والهلال والمقطف والجامعة وغيرها من صحف اللبنانيين المتآمرين فكانت تحمل لواء مخطط التغريب كاملا ، وبذلك فإن هذه الصحف هى التى عاشت وامتدَّت بها العمر بينما سقطت الصحف الوطنية واحدة بعد أخرى (٢) .

وبالرغم من قوة الضغط العسكرى المتطور الذى كانت تتمتع به الدول الصليبية المحتلة ، فإن حركات المقاومة والدعوة إلى الاستقلال كانت شديدة جدا فى كثير من الدول الاسلامية ، فالجزائر مثلا قدمت من الأموال والأرواح الشئ الكثير فى سبيل طرد القوى الصليبية الفرنسية ، وكذلك مصر وليبيا وغيرها من دول العالم الإسلامى فقد حرصت كل دولة على نيل استقلالها وطرد الغزاة المحتلين والتخلص من السذل والعبودية والتطلع إلى الحرية .

وقد تحقق ذلك فى معظم ديار المسلمين واستردوا حريتهم السياسية والاقتصادية إلى حدٍّ كبير غير أنهم اعتبروا ذلك غاية الغايات فى التحرر والاستقلال .
(وكان شعار الاستقلال وهما كبيرا لهيت به جماهير المسلمين فقتعت بالأدنى من الأهداف دون الأجل الأكبر من مهمتها ورسالتها فى هذه الحياة .

(لقد كان البدهى المأمول أن يعى المسلمون السبب فيما منوا به من كسوارث الاحتلال ، وما خلفه فيهم من انهيار وانحلال فيكون يوم الجلاء فى كل إقليم هوبداية العمل الجاد للاستقلال الحقيقى الذى يتمثل فى العودة الشاملة إلى منهاج ربهم .
(بيد أن الأمور سارت على غير هذا الأمل البدهى ، حتى لتبدولنا هذه المرحلة وكأنها مرحلة (الاستمرار) على موروثات عهد الاحتلال بل هى أحيانا تزيد عليها لأنها تتم على أيدى المسلمين أنفسهم حتى ليصح أن توصف بمرحلة (الاستبدال) أو (الاستحلال) .

١ - الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ، د . محمد محمد حسين ، ج ١ ، ص ١٦٦ ، طبعة ٧ ، مؤسسة الرسالة .
٢ - العالم الإسلامى ص ٤٢٥ .

(لسنا بداهة نقول بتفضيل (الاحتلال) على (الاستقلال) ولكننا - بعد
مراجعة شاملة لأحوال المسلمين - نقول جادين : أين هو الاستقلال ؟

(إن أمتنا لم تنزل محتلة القلاع ، مستباحة الحصون مشدودة بأغظ قيود التبعية
فى أخطر وأجل ما ينبغى أن تستقل به أمة ، وتتميز به عما عداها ، أغنى فى الفكر
والتشريع والأخلاق والسلوك والتربية والاتجاه والغايات والأهداف .

(إن الاستقلال فى مفهوم الإسلام قضية عقيدة مقدسة ودين ، ومسؤولية
رسالة ودعوة ، وضرورة بعث ، وانقاذ لأنفسنا وللعالمين ، ثم هى مهمة قيادة وهداية
وتمكين لخط الوحي الإلهى المشرق ، وتمييز له عن المناهج والنماذج البشرية التى
سيطرت على الأرض وملأتها ضلالا وإلحادا) (١) .

لقد كان بالفعل استقلالاً موهوماً ليس له حقيقة ولا تطبيق فى الواقع ، إنه يعدُّ
بحق مرحلة جديدة من مراحل الاحتلال والسيطرة والتوجيه ، ولكن من الخارج البعيد
وليس من الداخل .

و للحق أقول : إن المسلمين بالرغم من كل ما أصابهم على الأيدى الصليبية
فى الغزو الأوروبى الأخير كان بمقدورهم أن يتبدلوا بالضعف قوة وبالجهل وعيا وعلما
فى ظل المنهج الإسلامى الشامل ، وكان يمكنهم أن ينتهوا من كل ذلك الانحراف وأن
يحاصروا أوجه الانحطاط فى أضيق نطاق ، لولا أن الدول الصليبية - كما سبق القول
- لم تكن هذه المرة مجرد قوة همجية تعيث فى الأرض الفساد ، ولكنها كانت ذات وعى
وفكر وتخطيط وكيد للإسلام والمسلمين ، وفى الوقت الذى كانت جحافلها تدك القلاع
والمدن الإسلامية وتزهق الأرواح وتلقى الرعب فى القلوب ، كانت قد أعدت خطة
وأحكمت حلقاتها جيدا تهدف إلى عزل المسلمين عن مصادر قوتهم وسرّ مقاومتهم
وأساس حضارتهم ، ليصبحوا لقمة سائغة وفريسة مستسلمة يسهل عليهم تدبيرها وتدويرها
فقد كانت المخططات الصليبية تسعى إلى تغيير أسلوبها العسكرى لتستبدل به أسلوب
غزو جديد أخطر وأفتك بالشعوب من الغزو العسكرى والصدام المسلح والذى يستثير
الهمم فى العادة ويشحذ القوى ويستفز الشعوب المغلوبة ولو بعد حين ويدفعها
للمقاومة ، ذلك هو ما عرف بالغزو الفكرى (٢) .

١ - الغزو الفكرى ، ص ١٦٢ - ١٦٤ .

٢ - سيأتى بيانه فى الفقرة اللاحقة .

و حققت هذه المكيدة المبيته ما لم تحققه الحروب و القوى العسكرية ، فمكَّت من تخذيل المسلمين وتخريبهم ونشر الأفكار والفلسفات والدعوات الوثنية الهدامة بينهم وألحقت بالعالم الإسلامي الضرر في جميع شؤونه السياسية والفكرية والخلقية والاقتصادية وغير ذلك بعد أن عزلته عن المنهج الرباني الصحيح (١) ، فتوهموا أنهم تحرروا من العبودية لتلك الدول الوثنية وهم في الحقيقة غير ذلك .

١ - انظر في ذلك : الفراغ الروحي (رسالة دكتوراه) جميل قرارة ، ج ٢ ، ص ٤٣٢ .

رابعاً - الغزو الفكري

سبق القول بأن الغزو الصليبي الأخير كان مخططاً ومبرمجاً ، وكان مزدوجاً ، والآثار والخسائر على العالم الإسلامي ، خسائر مادية وخسائر معنوية في الدين والأخلاق فهو بذ لك يعتبر غزوين أو حربين في آن واحد .

وقد يظن البعض أن الغزو الفكري كان متأخراً عن الغزو العسكري ، ولكن الحقيقة غير هذا ، فهو وإن تحددت معالمه وظهرت آثاره في مرحلة لاحقة متأخرة عن مرحلة الغزو الصليبي العسكري ، وحصول كثير من الدول الإسلامية على استقلالها وخروج قوات الاحتلال ، فإنه بدأ مع دخول الجيوش الصليبية لديار الإسلام ، ولكن بطبيعته بطيء التأثير والآثار إذا ما قورن بالآثار الظاهرة المترتبة على الغزو العسكري عسادة ، فالاحتلال الفرنسي منذ دخل مصر بقيادة نابليون باشا خطوات الغزو الفكري وكان نابليون يشعر بأهميته في مسح هوية الأمة الإسلامية ومحاولة تنصيرها وإفسادها دينياً وأخلاقياً .

فقد أثر عنه قوله : (إنه لقادر أن يفتح بخمسين قلماً ما لا يستطيع فتحه من البلاد بمئات الأساطيل وأشد أنواع الأسلحة فتكاً ، يحملها جنود مدرسون على فنون القتال) (١) .

وإذا كان الإحساس بأن الغزو الفكري قد جاء في مرحلة لاحقة فإنما ذلك لاهتمام العالم الإسلامي بمقاومة الوجود العسكري الظاهر من جهة ، وعدم تيقظهم لهذا النوع من الغزو لحدائته ولطف وسائله ودقة أساليبه ، ودهاء مستحدثيه ومنفذييه من جهة أخرى .

ولسائل أن يقول لماذا انفصل الغزو الفكري مؤخراً عن الغزو العسكري ؟ أو لماذا لجأت الدول الصليبية لهذا النوع واكتفت به عن الغزو العسكري ؟

(الغاية تبرر الوسيلة) . قاعدة تسير عليها كل الجاهليات والأمم الوثنية والدول المادية ، وأعظم غاية من غايات الدول الصليبية الأوروبية منذ زمن بعيد هي تحطيم كيان الإسلام والقضاء على جذوة العقيدة الإسلامية في نفوس المسلمين ، واحتلال ديارهم والسيطرة عليها وتسخيرها لمصالحها .

١ - نقلاً عن الفراغ وأزمة التدين عند الشباب المعاصر ، د . عبد العظيم

المطعنى ، ص ٦٨ ، ط ١ ، عام ١٩٧٨ م .

وقد اتبعت تلك الدول الصليبية في سبيل تحقيق هذه الغاية كل الوسائل والأساليب الممكنة ، وذلك كلٌّ غالٍ ونفيس ، ولم تكن تعرف حتى زمن متأخر جداً إلا القوة والهمجية والقتل والدمار والتخريب والوحشية وسيلة لتحقيقها ، ومارست كل ذلك في مناسبات متعددة ومعارك طاحنة فقتلت وشردت وأحرقت الأخضر واليابس في طريقها بكل أساليب الوحشية والدمار ، وقد أحرزت في كثير من المحاولات الدامية المرسرة شيئاً من الانتصارات السياسية والعسكرية ، وظفرت بمغانم كثيرة وألحقت بديار الإسلام والمسلمين خسائر جسيمة ، ولكنها عجزت عن إخماد جذوة الدين وحرارة العقيدة في نفوس المسلمين ، وتحتيتهم عن دينهم .

ففي كل مرة كانوا يتصورون فيها أن المعركة كانت مع الإسلام فاصلة ، وأنهم قد انتهوا منه ومن أتباعه ، يخرج عليهم دعاء الحق ليقولوا لهم : نحن هنا ، وإن الإسلام ما زال حياً وقادراً على الاستمرار والتأثير وتوجيه أتباعه لمجابهة الباطل .
ومن أعماق التجارب الكثيرة الفاشلة التي استخدمت فيها القوة من المال والسلاح ومورست فيها كل أساليب القمع لإخماد جذوة الإسلام في نفوس المسلمين ، فلم يزد هم ذلك إلا اعتصاماً به والتفافاً حوله .

ومن أعماق مفاجآتهم بالنتائج المضادة لكل أساليب المواجهة ، التي كانت تزيد جذوة الإسلام في النفوس اشتعالاً (١) .

ومن وحى الوصية (٢) الخبيثة الماكرة التي أوصى بها الملك لويس التاسع ملك فرنسا وقائد الحملة الصليبية الأخيرة ، بعد فشله وسقوطه أسيراً في أيدي المسلمين بمصر ثم إطلاق سراحه وعودته إلى فرنسا ، أعلن أنه لا سبيل إلى النصر والتغلب على المسلمين عن طريق القوة الحربية ، لأن تدنيهم بالإسلام يدفعهم للمقاومة والجهاد وبذل النفس في سبيل الله لحماية ديار الإسلام وصون الحرمات والأعراض به ، والمسلمون قادرون دوماً على الإنطلاق في عقيدتهم إلى الجهاد ودرح الغزاة ، وأنه لا بد من سبيل آخر وهو تحويل التفكير الإسلامي وترويض المسلمين عن طريق الغزو الفكري ، بأن يقوم العلماء الأوروبيون بدراسة الحضارة الإسلامية ليأخذوا منها السلاح الجديد

١ - انظر الغزو الفكري ، أهدافه ووسائله ، د . عبد الصبور مرزوق ، ص ١٣ - ١٢

مؤسسة مكة للطباعة والإعلام .

٢ - انظر مذاهب فكرية ص ٥٧٦ .

الذى يغزون به الفكر الإسلامى (١) .

ومن واقع الأحوال والظروف المناسبة لطبيعة العصور الحديثة نظراً لما طرأ على الشعوب من وعى وحساسية ورفض للغزو العسكرى المسلح ، وسفك الدماء .
من خلال هذا كله تحولت المعركة من ميدان القتال والسلاح إلى ميدان العقيدة والفكر ، فكان ما عرف (بالغزو الفكرى) هو الأسلوب الأمثل والأكثر ملاءمة لتزييف عقيدة المسلمين الراسخة ، وإفساد أخلاقهم وتحقيق جميع الأهداف الخبيثة التى تسعى إليها الدول الصليبية من غير إراقة دماء ومن دون اضطرار إلى حروب صليبية مسلحة (٢) .

إلى جانب هذا يمكن القول بأن هناك أسباباً أخرى ومرجحات جعلت أوروبا تميل إلى هذا الأسلوب الجديد من الغزو الصليبي وتفضله على الغزو العسكرى منها :
أ - أن هذا النوع من الغزو قليل التكاليف ويسير المؤونه نسبياً إذا قورن بالغزو العسكرى المسلح ، فى حين أن نتائجه وآثاره أبعد مدى من نتائج أى غزو عسكرى لأن الغزو العسكرى تنتهى آثاره بانسحاب قوات الاحتلال ، أما الغزو الفكرى فيستعمر الرؤوس والقلوب ، ويبقى مع المغزوين ما بقيت لهم حياة .

ب - أن الغزو الفكرى يفقد المطموح فيهم حالة الانتباه إليه والاستعداد له ، وربما لا يمكنهم إدراك وقوعهم فى قبضة الغزاة إلا بعد فوات الآوان ، بخلاف الحال فى الغزو العسكرى الذى يثير الصدام من أول لحظة ويبعث على الشجاعة ومقاومة العدو الغازى ، وبذلك يمكن تفادى جميع أسباب المقاومة التى يمكن أن يتعرض لها فى حالة المواجهة السافرة ، بل إنه من الممكن أن يجد له عملاء وأنصاراً لا يستنكفون من التعاون معه ، إما بالانخداع حيناً ، أو بالخيانة السافرة للدين والوطن مقابل الحصول على ثروة مالية أو وظائف ومناصب عالية حيناً آخر ، فى الوقت الذى لا يظهر فيه الغزاة - غالباً - على مسرح الأحداث وإنما يختفون وراء هؤلاء العملاء من أبناء البلاد المغزوة

١ - انظر أساليب الغزو الفكرى للعالم الإسلامى / د . على محمد جريشة ومحمد شريف الزبيق ، ص ١٩ ، ط ١ ، دار الاعتصام .
وانظر كذلك حقائق عن التبشير / عماد شرف ، ص ٩ ، المختار الإسلامى القاهرة .

والتبشير والاستعمار ، عمر فروخ ، ومصطفى خالدى ، ص ١١٥ ، ط ٤ .

٢ - انظر التبشير والاستعمار ، ص ٢٦٠ .

ويعملون من خلالهم في وضع النهار في ظل الحماية و التمكين و يقطعون الشجرة بأحد فروعها ، وهذا ما يندر توفره في حالات الغزو العسكري (١) .

وقد ظفرت أوروبا بمرادها و حققت هدفها بهذا الغزو الفكري الماكر - والعالم الإسلامي في غفلة عن ذلك ، يحسب أنه قد تحرّر من سيطرتها عليه بعد حصول أكثر دوله على الاستقلال الاسمي - فوجهت سهامها إلى عقول المسلمين وقلوبهم فقتلتهم شرّ قتل و مسخت هويتهم الإسلامية وغيّرت شخصيتهم الدينية ، وأفسدت عقيدتهم وأخلاقهم وزيفت تاريخهم وشوهت أفكارهم ومبادئهم ، وشحنت عقولهم بالأفكار والمذاهب والمعتقدات الوثنية الحديثة ، ورثت أولادهم ونشأتهم على العلوم والأخلاق الأوروبية ، وأنشأت منهم مسخاً جديداً ضعيف الصلة بدينه وأخلاقه ، لم يعرف المسلمون جيلاً أبعد عن حقيقة الإسلام من الجيل الذي نشأ وترعرع على الأيدي الصليبية فسى اليهود الأخيرة ، وبذلك يكون قد تحقّق أعظم هدف للغزو الصليبي بشكل عام والغزو الفكري على وجه الخصوص ، وهو عزل المسلمين عن دينهم وعقيدتهم وشريعتهم وقطع صلّتهم برسبهم ، وتاريخ أسلافهم وأمجادهم ، حتى لا تعود للمسلمين المكانة التي كانت لهم في الماضي والتي يمكن أن تكون لهم في الحاضر والمستقبل (٢) .

وبخصوص الوسائل أو المجالات التي سلكتها تلك الدول الصليبية لتحقيق غاياتها والوصول إلى أهدافها ، فيمكن القول بأن المجال التعليمي والمجال الإعلامي كان من أبرزها وأهمها ، إذ أنها ركزت تركيزاً شديداً على التعليم ووسائل الإعلام بشكل عام نظراً لما لهذين المجالين من أهمية بالغة في حياة الشعوب سلباً وإيجاباً وهدم الحضارات والدول أو بنائها وتدعيمها بالأسس والمبادئ الفاضلة والعقيدة الصحيحة .

١ - انظر الغزو الفكري ، عبد الصبور مرزوق ، ص ٣٨ .

٢ - انظر : الغزو الفكري وأثره في المجتمع الإسلامي المعاصر ، د . علي

عبد الحلیم محمود ، ص ٦٢ ، ط ١ ، دار البحوث العلمية -

الكويت .

وانظر : إلى أين يتجه الإسلام - المستشرق جب ، ص ٣٣٤ ، وراجع

اتجاهات وطنية ج ٢ ص ٢١٦ .

١ - الغزو الفكري من خلال المجال التعليمي (١) :

مجال التعليم والثقافة يعدُّ بحق من أخطر المجالات في الحياة الاجتماعية عند جميع الأمم ، والسيطرة عليه في أمة ما تعنى السيطرة على مستقبل تلك الأمة وتوجيهها نحو الوجهة التي يرضاها ذلك المسيطر أو الموجه .

ونظرا لهذه الأهمية الكبرى للتعليم في حياة الأمم والشعوب على اختلاف أجناسها ، فقد كان التعليم في جميع البلاد التي تعرّضت للغزو الفكري والبلاد الاسلامية على وجه الخصوص من أبرز المنافذ التي استخدمها الصليبيون لمسح الإسلام وتشويه حقائقه وإبعاد أهله عنه وزعزعة ثقتهم به ، وبالتالي تحويل مجرى الحياة في العالم الإسلامي بعيدا عن الإسلام .

ولهذا فقد كانت سياسة الدول الأوروبية واحدة في جميع الدول الإسلامية ، تركز على السيطرة على مجال التعليم وكل ما يتصل به ، لتضمن إعداد وتخريج الأجيال التي تقرّبها عيون الغزاة وترتاح لها قلوبهم .

يقول المستشرق الإنجليزي (جب) في كتابه (إلى أين يتجه الإسلام ؟) :
(السبيل الحقيقي للحكم على مدى التغريب أو الفرنجة هو أن نتبين إلى أي حدّ يجسرى التعليم على الأسلوب الغربي ، وعلى المبادئ الغربية ، وعلى التفكير الغربي ، والأساس الأول في ذلك هو أن يجرى التعليم على الأسلوب الغربي وعلى المبادئ الغربية وعلى التفكير الغربي) .

ويصل إلى القول : (بأن النشاط التعليمي والثقافي - عن طريق المدارس العصرية - قد ترك في المسلمين - من غير وعي منهم - أثرا جعلهم يبدون في مظهرهم العام لا دينيين إلى حدّ بعيد) (٢) .

ويقول المبشر (بنروز) رئيس الجامعة الأمريكية ببيروت : (ولقد برهن التعليم على أنه أئمن الوسائل التي استطاع المبشرون أن يلجأوا إليها في سعيهم لتنصير سوريا ولبنان) (٣) .

١ - انظر في هذا : غزوة في الصميم ، عبد الرحمن حبنكة الميداني ، ص ٢٤٣ -

٢٥٣ ، طبعة أولى ، دار القلم ، دمشق .

٢ - نقلا عن اتجاهات وطنية ، ج ٢ ، ص ٢١٦ - ٢١٨ .

٣ - راجع التبشير والاستعمار ، ص ٤٦ .

وأما التعليم في العالم الإسلامي فقد كان بصفة عامة تعليماً شاملاً لجوانب الحياة إلى ما قبل العصور الأخيرة فهو إلى جانب التركيز على العلوم الدينية يحتوي على العلوم الدنيوية ، بمعنى أن المتخرج على وفق تلك المناهج الإسلامية كان يستطيع أن يزاوِل حرفته أو مهنته مهما كانت : زراعية أو صناعية أو تجارية مع معرفته بشؤون العبادات والمعاملات أو بالأحرى بتعاليم الإسلام ومبادئه ، وهذا ما يجب أن يكون عليه التعليم في نظر الإسلام ، فهو إلى جانب تركيزه واهتمامه بالدين والعلوم الدينية وما يتصل بها فهو يهتم كذلك بباقي شؤون الحياة ليكتمل بناء الإنسان وتنسجم مجريات الأحداث في حياته (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا) (١) .

حقاً إن العالم الإسلامي كان مركزاً للعلم وبناراً يضيء على الدنيا في وقت كانت فيه أوروبا في جهل وظلام بل في معركة مستمرة ضد العلم والعلماء ولكن الأمر بدأ يتبدل حيث أخذ العالم الإسلامي يبتعد تدريجياً عن روح الإسلام ويتجه للضعف والجمود ، في حين أن أوروبا قد بدأت عهداً جديداً ساد فيه العقل والعلم وبدأت حركة الحياة فيها تتجه نحو التقدم الفكري والتطور المادي .

وكان التعليم في العالم الإسلامي من أبرز المجالات التي دبت فيها الجمود والتأخر ، فقد تغيرت النظرة للعلم تدريجياً بحيث انحسر الاتجاه العلمي وأسلوب البحث والتجريب في شتى مجالات الحياة ، وتراجع المسلمون عن دور القيادة وعهد الانتصارات العلمية ، واقتصر العلم على مجال العلوم الدينية ، بل على مسائل شكلية من الإسلام ، وساد الركود وخيم الجهل وانشلت حركة العلم ولا سيما في الأزهر الشريف الذي كان محط رحل طلبة العلم .

تلك هي - باختصار - حالة التعليم قبيل دخول الدول الصليبية للعالم الإسلامي واحتلالها له ، التي لم تلبث بعد ذلك أن استفلت سوء الحالة العلمية لصالحها ، فعملت على تعميق شقة الخلاف وتوسيع الفجوة بين العلوم الدينية والعلوم الأخرى ، حتى تقطع الفرصة على أية حركة أجنبية لتصحيح الحال التعليمية ومعهت النهضة العلمية من جديد .

ففكرت وقدّرت وأعدّدت للأمر عدته ، فعملت كلّ السبل للإبقاء على فصل العلوم الدينية عن العلوم الأخرى فصلاً تاماً يجعل بينهما هوةً سحيقة وشقة

بعيدة ، واصطناع الخلاف ثم العداء بين علوم الدين وعلوم الدنيا ، وبين علماء هذين النوعين من التعليم ، وتيسير المال والمجد الدنيوي لدارس العلوم غير الدينية ، وحجبها على نظرائهم من المتخصصين في العلوم الدينية ، وقد كانت مكيمة الفصل هذه شاملة لجميع مراحل التعليم بحيث يتم تنشئة أبناء المسلمين على نظام تعليمي يفصل الدين عن واقع الحياة ، ويجعله مجرد علاقات شخصية بين الفرد وخالقه وله الحرية في أن يقيم هذه العلاقة أو يقطعها متى شاء ذلك .

وعلى إثر هذا الفصل كان على دارس العلوم الدينية في معظم بلاد المسلمين أن يكونوا بعيدين عن كل مجال حيوي إلا مجال المساجد وما فيها من عبادات ، وبعض الوظائف ذات الاختصاص الديني ، مع تضييق موارد الرزق فيها وإلجائهم إلى طرق من الكسب تشير النقد اللاذع والازدراء والتندر .

وأما فيما عدا ذلك من المجالات فهم محجوبون عنها حجباً تاماً ، حتى يظلوا معزولين عن المجتمع ولا يكون لأفكارهم تأثير في التوجيه والتخطيط العام للنهوض بمجتمعاتهم ، والحجة في منعهم من تلك الوظائف أنه لا يتوفر فيهم الاختصاص المطلوب .

وفي مقابل ذلك وضعت الخطة في حسابها أيضاً عزل دارس العلوم الدنيوية عن المعرفة الدينية اللازمة إلا في النزر اليسير الذي لا يضمن لهم المعرفة بأصول الدين وبنظمه الإنسانية ، فيقدم لهم من الموضوعات ما لا يتصل بأسس العقيدة ولا أسس المعاملة ولا أسس إقامة المجتمع الإسلامي ولا أسس إقامة الحكم الإسلامي .

ثم فتحت لهم لاء الدارسين وفق هذه الخطة مجالات الحياة كلها ، وبمرور الزمن تعمق الفصل والفصام والنكدين الدين والحياة وضعفت صلة المسلمين بدينهم وقطعت صلتهم بالشرعية الإلهية ، وصار لا غنى لهم عن النظم الغربية وهي أنظمة قائمة على أسس مادية وثنية لا صلة لها بالدين ولا بالأخلاق .

وإحكاماً لخطة الغزو الفكري فقد بدأت الدول الأوروبية تعمل على إنشاء مدارس خاصة ومعاهد تابعة لها ومنفصلة تماماً عن سياسة التعليم في البلاد الإسلامية^(١) ،

١ - انظر : أساليب الغزو الفكري ، على جريشه ، ص ٣٠ .

والحركة الفكرية ضد الإسلام ، د . بركات عبد الفتاح دويدار ، ص ١٠٨ .
طبعة المركز العالي للتعليم الإسلامي .

واتباع فكرة البعثات الخارجية لأبناء المسلمين إلى المعاهد والجامعات الأوروبية .
و استخدمت هذه المدارس أفضل استخدام لتنشئة فئة من الأشخاص من أبناء
البلاد يقومون بكل ما لا يستطيع الغربي أن يقوم به من هدم لمبادئ الدين وإفساد
للمجتمع .

وقد نالت تلك المدارس والمعاهد التبشيرية إعجاب الطبقات الثرية والعائلات
الكبيرة والعريقة ، وذلك لما فيها من التنظيم والدقة والإتقان ، وما تعلمه من لغات
أجنبية وما يلاقيه الخريجون من وظائف يتقاضون منها مرتبات عالية بخلاف أحوال
المدارس العادية .

(ومن هنا فقد دأب الأمراء والأثرياء ورجال الطبقات العليا من المستورزين
والحكام على إرسال أبنائهم وبناتهم إلى هذه المدارس التي كانت تُعدُّ تلاميذها
لأسمى المناصب ، وأقبل عليها أبناء الطبقة المتوسطة تقليداً لهؤلاء الأثرياء في بعض
الأحيان واعجاباً بنظامها المحكم الدقيق وببراعة تلاميذها في اللغات الأجنبية) (١)

وقد كانت هذه المدارس طعنة بالغة الخطورة لثقافة الأمة الإسلامية ، بما
كانت تبثُّ من أفكار هدامة ومذاهب باطلة مضادة للدين والأخلاق ، بحجة نشر العلم
والتهذيب والتصدد ومحاربة الجهل والتخلف .

وقد أدرك الغزاة أن التعليم صار تحت إشرافهم ويوجه حسب رغبتهم وأنهم
قد نجحوا في توجيه العالم الإسلامي على الطريقة التي يريدونها وتخدم أهدافهم
وتربطه بدولهم .

يقول القائد الفرنسي الجنرال (بيير كيلر) عن هذا : (فالتربية الوطنية
كانت بكاملها في أيدينا ، وفي بداية حرب عام ١٩١٤ م كان أكثر من إثنين وخمسين
ألف تلميذ يتلقون دروسهم في مدارسنا ، وكان بين هؤلاء فتيات ينتمون إلى عائلات
إسلامية عريقة ، مما جعل الجمعية المركزية السورية التي تأسست في باريس تعلن عام
١٩١٧ م أن جميع ميول السوريين وعواطفهم تتجه نحو فرنسا ، بعد أن تعلموا
لغتها وخبروها على مر الأجيال وتأكدوا من إخلاصها وتجردها) (٢) .

وقد كان للغزو الفكري في المجال التعليمي آثار خطيرة ونتائج سيئة على
العالم الإسلامي منها ما يلي :

١ - انظر اتجاهات وطنية ج ٢ ص ٢٥٩

٢ - انظر الغزو الفكري ، عبد الستار فتح الله ص ٤٠ .

أ - أصبح التعليم في معظم الدول الإسلامية قائما على الاختلاط بين الطلاب والطالبات في أكثر المراحل التعليمية ابتداءً من رياض الأطفال ومراكز الأمومة والطفولة والمدارس الابتدائية والمرحلتين المتوسطة والثانوية في بعض الأوقات ، وأما الجامعات فقد أسست من أول يوم على ذلك .

على أن الاختلاط لم يقتصر على المدرسة والجامعة ولكنه تعداه إلى شتى المجالات بعد أن دخلت المرأة إلى ميدان العمل والوظائف العامة والخاصة . وهذا النمط من التعليم يعدُّ منافيا لمبادئ الدين وأبسط قواعد الأخلاق ، ولم يكن مقبولا في العالم الإسلامي إلا في العهد الأخيرة وبضغط من الغزو الصليبي الأخير .

ب - ومن ذلك تحويل ولاء الخريجين من المتعلمين والمتعلمات للغرب ومناهجهم وأساليبهم وفنونهم المختلفة والإقبال المنقطع النظير على الدراسة في الدول الأوروبية ، والتخصص في شتى الميادين عن طريق البعثات الرسمية والإرساليات التبشيرية الخاصة فعادت هذه الوفود مفسولة العقل وممسوخة الأخلاق وفاقدة للضمير - إلا ما رحم ربك - وصارت معاول هدم بدل من أن تكون أدوات إنتاج وبناء .

ومن الأعلام البارزة في هذا المجال قاسم أمين وطه حسين والشيخ علي عبد الرازق ، وهدى شعراوي ، وصفية زغلول ، ومن على شاكلتهم في بقية الدول العربية والإسلامية (١) .

وما زال هذا السيل الفاسد جاريا إلى الآن ، وهو يزداد سنة بعد أخرى عن طريق تلك البعثات الدراسية والمنح التي تقدمها الدول الغربية من غير مقابل أو عوض مالي في حين أن الخسارة أو الفدية التي تدفعها الأمة الإسلامية لا تقدر بالذهب أو الفضة وهي تلك التنشئة العلمانية اللادينية لأبناء المسلمين ، وإعدادهم لتسلم القيادة في أكثر المجالات في مجتمعاتهم .

ج - ومن ذلك أنه قد ساد شعور عام انبعث من فكرة فصل الدين عن واقع الحياة ، أن الدين علاقة شخصية فردية خاصة بين العبد وربه ، تقوم على الحرية الكاملة دون الالتزام بأي قيد اجتماعي ، وهذه العلاقة الدينية لا صلة لها بالنظم السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية ، وهي مجرد طقوس وشعائر تعبدية معينة يؤديها الإنسان لخالفه .

هذه النظرة الضيقة والخاطئة لدين الله كان من الممكن أن تكون في حالات فردية قليلة شاذة ونادرة ولكن الغزو الفكري للعالم الإسلامي جعل هذه النظرة الفاسدة شعورا عاما في مختلف طبقات المجتمعات الإسلامية ، حتى أصبح الإنسان المسلم يجمع بين متناقضات الأمور فتجده ملتزما بكثير من قواعد العبادات في حين أنه يبنى معاملاته وعلاقاته الاجتماعية على غير تعاليم الدين ، تماما كما هو حال الفرد في الدول الأوروبية الصليبية .

د - انتشار دعوات الإلحاد والزيغ والفساد ، وانحلال الأخلاق وتحسر المرأة وشيوع المذاهب والأفكار المادية .
وقد أدى كل هذا إلى الانبهار بالحضارة الغربية (١) والشعور بالنقص والضعف والهزيمة الداخلية التي أصابت المسلمين بشكل عام ، فأخذوا يدعون من غير تحرج إلى متابعة الغرب والاقتراف به والسير على خطاه ومناهجها (٢) .

٢ - الغزو الفكري من خلال وسائل الإعلام :

لم يكتف (الغزو الفكري) بإفساد مناهج التعليم والسيطرة عليها ، فلم يترك وسيلة إلا اتبعها لتحقيق أهدافه وكانت وسائل الإعلام من أخطر وسائله الخبيثة ، فقد تنبه لخطورتها وأهميتها في تكوين الرأي العام المطلوب .
يقول المستشرق (جب) : والواقع أن المدارس والمعاهد العلمية لا تكفى ، فليست هي في الحقيقة إلا الخطوة الأولى في الطريق ، وللوصول إلى هذا التطور الأبعد يجب أن لا يتحصر الأمر في الاعتماد على التعليم في المدارس الابتدائية والثانوية ، بل هو الاعتماد على الصحافة فهي أقوى الأدوات الأوروبية وأعظمها نفوذا في العالم الإسلامي (٣) .

وتأتى أهمية وسائل الإعلام وخطورتها البالغة من حيث كونها قادرة على التأثير والاتصال بال جماهير على اختلاف مستوياتهم وأحوالهم وأماكن وجودهم ، ويكفى أن بعض وسائل الإعلام تستطيع أن تستهوى الأميين وغير المتعلمين الذين لا يحسنون القراءة ، وهذا ما لا يتهدى في مجال التعليم حيث يكون أثره في الغالب مقصورا على فئة معينة وزمرة محدودة من أفراد المجتمع .

١ - سيأتي الحديث عنها في الفقرة الخامسة من هذا الفصل .

٢ - الغزو الفكري ، على عبد الحليم محمود ، ص ١٣٧ - ١٤٠ .

٣ - انظر اتجاهات وطنية ج ٢ ص ٢١٧ .

والإعلام إلى جانب اعتماده على الكلمة المقروءة فهو يستخدم أكثر من حاسة من حواس الإنسان في الوقت نفسه ، وهذا مما يجعله أبلغ أثرا في الجماهير ، فوسائله متعددة ومتنوعة فعلى الرغم من أن الصحافة تعتبر أهم وسائل الإعلام التي استخدمها الغزو الفكرى فى هدم دين المجتمعات الإسلامية وأخلاقها فهناك دور الإذاعة ومحطات التلفاز وبيوت السينما ، وهناك الساحات والبيادين العامة والشوارع والطرق ، بل وغرف النوم والجلوس والطعام التي استخدمت لنفس الغاية عن طريق إقامة التماثيل والصور والملصقات ، وهناك بالإضافة إلى ما سبق الكتب والمجلات والقصص والنشرات والتحقيقات إلى غير ذلك مما سخرته الأيدي الصليبية لمحاربة الإسلام والمسلمين فى كل بلد من بلدان العالم الإسلامى ، بطريقة فاقت فى نتائجها نتائج الغزو الفكرى عن طريق السيطرة على التعليم وتوجيهه .

وإذا افترضنا سلامة المجال التعليمى وخلوه من تدخل الأيدي الأجنبية -

وهو افتراض غير مسلم - فإن التعليم وحده لا يكفى فى رعاية الأجيال الناشئة وتوجيهها وحمايتها من الهجمات الفكرية ، ما لم تكن وسائل الإعلام جميعها محصنة وذات مناعة ضد كل الخطط الماكرة ، ولا بد أن تكون متحررة من الوقوع فى أيدي غريبة ، وأن تعمل كلها لهدف واحد وتسعى لغاية واحدة وهى تنشئة الأجيال على وفق هدى الدين والأخلاق الفاضلة .

غير أن الأمر على خلاف هذا فلا التعليم بمتحرر ولا وسائل الإعلام كذلك ، وهذا مما يزيد الطين بلة ، ويسهل عملية سحق الأجيال وتدميرها وتمزيق عقيدتها ومسح أخلاقها وصدّها عن دين الله ، والسير بها إلى حياة جاهلية ونظم وثنية .

وهذا ما قد حدث للأمة الإسلامية من جراء الغزو الفكرى فى العقود الأخيرة حيث صارت جميع وسائل الإعلام واقعة تحت تأثير هذا الغزو الصليبي الحاقد ، سواء أكان ذلك عن رضى واختيار أم عن تعسف وإجبار ، وكأنه لا هدف لها ولا رسالة تقوم بآدائها إلا خدمة الغازى ونشر أخلاقه وعقائده الفاسدة ومذاهبه الباطلة وأفكاره الوثنية ، واستلاب الإيمان من صدور الأجيال المسلمة وتشويه الصورة التي كان عليها آباؤهم وأجدادهم المالفين ، بما تكبته وتشره وتذيعه وتعرضه من قصص وكتب ومسرحيات وأفلام وأخبار وآراء ، وما تروجه من أفكار ومذاهب ومبادئ معادية للدين ومضادة للفضيلة السليمة كإثارة العصبية القومية والنمرات الطائفية ، وإحياء الحضارات البائدة وتاريخ الأمم الجاهلية ، ونشر الدعارة والأخلاق الفاسدة ومحاربة كل العادات والتقاليد والأعراف الحميدة .

فوسائل الإعلام بكافة أنواعها — من كتاب وقصة ومجلة وجريدة وإذاعة وتلفاز وسينما وأخيرا ما يعرف بالفيديو — تشترك في مهمة الإفساد والتدمير للإسلام والمجتمعات الإسلامية ، والتخطيط للعودة إلى الحياة الفوضوية التي تحلم بها الشيوعية ، والتي كانت تعيشها المجتمعات الجاهلية في فترات من الزمن طمست فيها آثار الدين الإلهي وضعف سلطان الأخلاق الفاضلة .

ولو أخذنا الإذاعة — ناهيك عن الصحافة وغيرها — مثلاً على ما تقوم به وسائل الإعلام من تشويه الدين والأخلاق ونشر الرذائل وخدمة الوثنية التي يريد لها الغزو الفكري ، فالسياسة التي تقوم عليها والفلسفة التي تنطلق منها هي إشباع الشهوات وقتل الوقت بالرخيص من الأغاني الخليعة والتمثيلات المنحلة ، فهي تفسد ولا تصلح ، وتضل ولا تهدي ، تعلم الانحراف في السلوك وتبرره وتهتم في كثير من الأوقات بالأخبار التافهة والقضايا الشكلية والتحقيقات السطحية ، وتفسر كل ظاهرة تفسيراً مادياً بحثاً بعيداً عن أثر الروح .

يقول محمد محمد حسين^{هـ} : (وإذا أرادت الإذاعة أن تسرى عن سامعيها ، وتذهب عنهم ما ألمَّ بهم من الملل من آثار (الجد) أسمعتنا في برنامج (ساعة لقلبك) — وما أظن أن القلوب المقصودة بالخطاب إلا قلوب الفارغين والغافلين — سيلا من الشتائم النابية ، والمهاترات الفظة الهابطة التي لا ترعى حرمة ولا تعف عن لفظ ، ورأينا تسفلاً إلى أحط المستويات الخلقية والاجتماعية ، تقدمه هيئة كان يظن أن مهمتها الارتفاع بالمتخلفين إلى مستويات فكرية أرقى وليست هي النزول بالمستمعين إلى مستواهم) (١) .

وأما القصة فقد أسهمت بالدور المنوط بها ، وحققت كثيراً من أهداف الغزو الفكري ، وفكت بطبقة المثقفين ، لاسيما وأنها كانت أبرز ما استحدثت من فنون الأدب ، بعد الحرب العالمية الأولى ، ولم تلبث أن طغت على سائر فنونه حتى كادت أن تقضى على الشعر ، ولاقت اهتماماً كبيراً من الصحافة وجعلت لها أبواباً ثابتة لتلبية لرغبات جمهور القراء ، وامتألت الصحف بحكايات ملفقة ، وقصص فارغة مليئة بـ (قال وقالت) وعبارات سوقية من غير مضمون ، وأصبحت القصة معرضاً للنماذج المنحرفة الشاذة المثيرة لأحط الغرائز ، وتعبيراً عن أمراض النفوس وانتكاس المعايير ، وتنفساً عن الشهوات تقدم باسم الواقعية تارة واسم التحليل النفسي تارة أخرى حتى أصبح فن القصة

أشدَّ خطورة من الكوكابين والحشيش والأفيون ، وصار من أبشع وسائل الإفساد والإغواء والهدم ، ومن أخطر الأدوات تأثيراً في المجتمع (١) .

وإذا رجعنا للحديث عن الصحافة باعتبارها أبرز ما اهتم به الغزوة الفكرى من وسائل الإعلام ونفذ من خلالها إلى أعماق المجتمعات والشعوب الإسلامية وجدنا أنها قد لعبت دوراً خطيراً في خدمة الأهداف الصليبية وتمزيق وحدة الأمة الإسلامية وهدم أسسها الدينية والأخلاقية ، وتزييف تاريخها وطمس معالم حضارتها وتغريب الأجيال الناشئة وتحويل ولائهم صدّهم عن عقيدة الإسلام (٢) .

قال (جب) : إن معظم الصحف اليومية العربية واقعة تحت تأثير الآراء والأساليب الغربية ، فالصحافة العربية لا دينية في اتجاهها (٣) .

ومن هنا قال الصواف : (إننى والأسف يحزُّ في نفسى أنهم غالبية الصحافة في البلاد الإسلامية ومنها العربية ، وأقول إنها سارت وتسير حسب المخطط الاستعماري الخبيث من حيث تدرى أو لا تدرى ، وأبعدت شيابنا عن المثل العليا ، وخوت من كل توجيه روحي وخلت من روح الإسلام ، بل ليس للإسلام نصيب في خيال أصحابها وكأنهم يعيشون في غير ديار الإسلام وساعدت هذه الصحافة على إعانة الظالمين والمتجبرين وكانت لساناً ناطقاً لكل متسلط متحكم ، صالح أو غير صالح ، وناصرت كل دعوة باطلة وفي الوقت نفسه حاربت دعوات الحق ووقفت في طريقها ، وباسم الحرية قتلت الحرية ولقد سارت في ركاب الاستعمار وعلو ضوء مخططاته اللهم إلا ما كان من بعض أصحاب الضمائر الحية .

هكذا سارت الصحافة ، وهكذا أريد لها أن تسير فجاءت كما أراد الاستعمار في مخطظه الموضوع لمكافحة الإسلام وهدم بنيانه وتقويض أركانه (٤) .

ويقول أنور الجندى : إن أخطر ما تدعو إليه الصحافة وتلحُّ عليه وتعمل له هو

- ١ - انظر اتجاهات وطنية ، ص ٣٥٤ - ٣٥٥ ، ج ٢
- ٢ - انظر الصحافة والأقلام المسمومة ، أنور الجندى ، ص ٢١٣ ، ط ١ ، دار الاعتصام - القاهرة .
- ٣ - المرجع السابق ص ٨ .
- ٤ - المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام ، محمد محمود الصواف ، ص ١٣١ ط ٣ ، دار الاعتصام - الدمام

تثبيت الواقع الخاطيء الذي شكلته عادات وتقاليد ومفاهيم دخيلة وواقفة استمرت فترة طويلة حتى أصبحت من المسلّمات مع الإيحاء باستحالة تغيير هذا الواقع أو الكشف عن زيفه في ضوء الإسلام ومفاهيم الدين الحق واستمرار البناء على هذا الواقع الخاطيء ، وكان فصل الدين عن السياسة أخطر الأطروحات التي قدمتها الصحافة لتثبيت النظم الواقفة : سواء الديمقراطية أو الماركسية ، وكان وراء ذلك جهد من الاستعمار الذي غذى هذه الفكرة المسمومة وعمل على انتشارها (١) .

وإذا كان (الغزو الفكرى) قد سيطر على جميع وسائل الإعلام ووجهها الوجهة التي يريد ها فإنه إحكاما للخطة سعى إلى شراء ضائير أصحابها ، والعاملين فيها والقائمين عليها وتطويعهم لخدمته وتحقيق أهدافه في العالم الإسلامى .

أضف إلى هذا أن أغلب هؤلاء القائمين على وسائل الإعلام والمالكين لها - خصوصا الصحافة - هم من غير المسلمين فى الأكثر ، أو من المسلمين المتغريين الدائرين فى فلك أوروبا ، والخاضعين لأفكارها ومذاهبها ، والمتحمسين لنشر فكرها الوثئى فى ديار الإسلام وبين أبناء المسلمين وأجيالهم الناشئة ، فهؤلاء وأولئك - من باب أولى - يكيدون للإسلام وأهله ، وقد ملئت صدورهم بالكراهية والبغضاء وتكاد قلوبهم أن تنفجر من شدة الغيظ ، ويتطلعون إلى اليوم الذى تسحق فيه أمة الإسلام .

ومن هؤلاء على سبيل المثال : جورجى زيدان مؤرّف التاريخ وهو صاحب دار الهلال ، وسليم تقلامؤسس جريدة الأهرام ، ويعقوب وفؤاد صروف صاحبى المقتطف ، والصحافى المشهور محمد حسنين هيكل ، والكاتب القصصى نجيب محفوظ ، والأديب توفيق الحكيم . . وغيرهم (٢) .

فهؤلاء ومؤسستهم الإعلامية واقعون فى قبضة (الغزو الفكرى) وهم لا يملكون مجرد التفكير فى الخروج على طاعته أو مخالفة ما يريد ، وأى صحيفة تحاول التمرد فإنها تكون مهددة بالتعطيل والمطاردة والانهييار والسقوط كما قد حصل لكثير من الصحف المصرية التى حاولت أن تلتزم كلمة الحق والعدل والشرف ،

١ - انظر الصحافة والأقلام المسمومة ص ٢١٥ .

٢ - انظر الولاء والبراء فى الإسلام ، محمد سعيد القحطانى ، ص ٤٠٦ ، ط ٢

والصحافة المسمومة ص ٨ ، ٢٢٧ .

ووقفت بجانب الإسلام وأدت بعض الواجب المطلوب (١) .

وقد كان المتوقع والمفروض أن تكون جميع وسائل الإعلام في العالم الإسلامي أداة صلبة تحطم كلَّ الجهود التي يبذلها الغزاة المخربون ، كان المؤمل أن تقوم بدور إيجابي تكشف به زيف هذا الغزو الثقافي الماكر وتفضح مخططاته ، كان المتوقع أن تنافح عن الإسلام والمسلمين ، كان المفروض أن ترفض المسالمة والمداهنة من أجل بعض المكاسب المادية ، كان المتوقع أن تكون منارات ينطلق منها صوت الدعوة إلى إعلاء كلمة الله ونشر دينه ، ومن خلالها ينطلق صوت المغادى بالجهاد في سبيل الله ومقاومة الأعداء و الفاصيين كان - وكان ، ولكن شيئاً من هذا لم يكن ، بل كانت أدوات طيبة تكذب وتنتشر وتذيع وتعلن وتدعو وترؤج وتعرض وتنادى بخلاف ما كان متوقفاً منها ومفروضاً فيها (٢) .

وتلك لعمر الحق قاصمة الظهر أن يستخدم عدونا أموالنا وإمكانياتنا ، ورجالنا وإعلامنا ومناهجنا وكل ما في بلادنا لمحاربة عقيدتنا وطمس آثار الفطرة في أنفسنا ، واستعبادنا كاستعباد الأحرار للعبيد الأشرار .

وما يبعث على العجب أن (الغزو الفكري) قد عمل على سحب ثقتنا بوسائلنا الإعلامية ، وذلك لما عوَّدها عليه من الكذب وعدم الأمانة والنفاق في الخبر وعدم تحرى الحقيقة في النقل والتحقيق ، وبعد أن أيقنا أن وسائل الإعلام في الدول الإسلامية تقوم على الكذب والتزوير والخداع ، ذهبنا نبحث عن الخبر الصادق والقول اليقين في الوسائل الإعلامية الغربية ، ورحنا نلهث وراء إعلام الغزاة لمعرفة الأخبار واستطلاع الأحداث ، وتقصى الحقائق ، ولو كانت عن واقعنا وأحوالنا وشؤون دولنا الإسلامية ، من غير شك أو ارتياب .

إذا قالت حذام صدَّ قوها فإن القول ما قالت حذام (٣)

و (عند جهينة الخبر اليقين) (٤) .

-
- ١ - انظر المخططات الاستعمارية ص ١٣٢ .
 - ٢ - انظر الصحافة والاقلام المسمومة ص ١١٥ .
 - ٣ - للشاعر الجاهلي ديسم بن طارق ، انظر شرح ابن عقيل ج ١ ص ٩٢ ، طبعة الثالثة مطبعة السعادة .
 - ٤ - مجمع الأمثال ج ٢ ، ص ٣ .

وهكذا فإن الغزو الفكري المنظم والمدروس قد استخدم كافة وسائل الإعلام إلى جانب سيطرته على المجال التعليمي ، ليضمن تنشئة جيل يقوم بالدور المطلوب ويأشرب نفسه هدم أخلاقه واقتلاع جذور الإيمان من واقعه .

وقد تحقق الكثير مما أراد ، وبمجرد إلقاء نظرة سريعة وعابرة يتبين للناظر مدى التغريب الذي صارت إليه أحوال العالم الإسلامي في كافة شؤونه في العهود الأخيرة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

خامسا - الانبهار بالحضارة الغربية :

لقد كان الانبهار والإعجاب الشديد بحضارة الغرب المادية نتيجة حتمية للظروف والأحوال السابقة التي عاشها المسلمون في العهد الأخيرة ، فالبعد عن حقيقة الإسلام وسوء فهمه ، والتخلف الشامل في مختلف نواحي الحياة ، والغزو الأوروسي وما ترتب عليه من آثار ومفاسد مادية ومعنوية كان أعظمها قطع صلة المسلمين بدِينهم وزعزعة ثقتهم به . . . كلُّ هذا وغيره أدَّى تلقائيا إلى تعلق المسلمين بحضارة أوروبا المادية وتقليد الأوروبيين في مظاهر حضارتهم وشكلياتها ، وشعورهم بضرورة التمسك بها والمحافظة عليها . إذا هم أرادوا أن يتخلصوا من الواقع المتأخر الذي يعيشونه ، ويتحقوا بركب الحضارة والتقدم .

ومن قبل كان ابن خلدون قد قرَّر في مقدمته أن المغلوب مولع بتقليد الغالب (١) ومحاكاته في ملبسه ومأكله ومشربه وسائر أحواله وعوائده ، والسبب في ذلك - كما يرى - أن النفس تعتقد الكمال في مَنْ غلبها ، وانقادت إليه ، ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبدأً بالغالب في ملبسه ، ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها بل وفي سائر أحواله وانظر ذلك في الأبناء مع آبائهم كيف تجدهم متشبهين بهم دائما وما ذلك إلا لاعتقادهم الكمال فيهم (٢) .

ومن ذلك أن أوروبا قد تغلَّبت على العالم الإسلامي وتقاسمته فيما بينها ، وفاجأته بالتقدم الهائل والتطور العلمي الواسع ، والمظاهر الحضارية الأخاذة والقاتنة وعندنا شعر المسلمون بالضعف والانهمامية وخارت قواهم فذلُّوا واستكانوا أمام قوة الغالب ، فانقادوا له وبدأت دورة التقليد والمحاكاة والتقمص في كثير من العادات والمظاهر البراقة والانكباب على أشكال الحياة الأوروبية ، من غير وعى ولا تفكير أو إدراك .

(فصار المترفون من الأغنياء يتهافتون على ما تخرج المصانع الأوروبية من وسائل الترف ، حتى غدت توافه الكمالات من ألزم الضروريات ، وأصبح قصارى ما يبلغه أحد من التمدن أن يتقن تقليد الأوروبيين في استعمال أدوات المائدة الأوروبية)

١ - بيدو أن هذا ليس قاعدة مضطربة ، ومن شواذها أن المغول قد تأثروا بأخلاق المسلمين بعد سيطرتهم على العالم الإسلامي حيث اعتنق أكثرهم الإسلام .

٢ - انظر مقدمة ابن خلدون ص ١٤٧ ط ٤ ، دار القلم بيروت .

وأن يحسن حفظ أساليبهم في استعمال اللباس والتمييز بين ما ينبغي أن يستعمل منها في مختلف المناسبات وأن يحسن استقبال النساء والتودد إليهن والتلطف في معاملتهن . . . حتى أصبح السيد في منزله يستحي الحياء كله من خادم غرفته الأوروبية أن تطلع منه على جهله ببعض عاداتها وعادات قومها ، حتى في لبس الرداء وخلع الحذاء أكثر مما يستحي من الله ومن الناس أن يهجموا منه على أرذل الرذائل وأكبر الكبائر ، وحتى أصبح طريق المشرق وتاريخ علمائه وأدبائه وفلاسفته وشعرائه صورة من أقبح الصور وأسجها في نظر كثير من الشرقيين (١) .

وأصبح التقليد نقطة يرتكز عليها تفكير الضعفاء الذين رأوا الغلبة المادية والسياسية بيد الغرب فأيقنوا بمعجزهم أمام أعدائهم فاندفعوا وراءهم يقلدوهم في كل شيء ، وأصبح الشعور بالنقص يهدد المجتمع بأكمله ، حتى ظن بعضهم أن لا أمل بالنجاح إلا بالافتداء بالغرب والسير على منواله خطوة خطوة ، فإن كل ما يصدر عنه إنما هو حقيقة واقعة وعلم صحيح ومن دون ذلك فلا يمكن لمجتمعاتنا أن ترقى إلى أول درجة سلم في الفكر الأوروبي وعلمه .

هذا الشعور جعل الكثير من أبناء المسلمين والذين ينتسبون إلى الطبقة المثقفة ، ودعاة التقدم والحضارة من أبناء الأقليات غير الإسلامية في المجتمعات الإسلامية يدعون في أغلب الأوقات إلى ضرورة التسليم والانقياد للدول الغربية واستيراد حضارتها المادية والسير في فلكها والتعلق بأهدابها وتطبيق أفكارها ومناهجها الوثنية ، ويبالغون في الاطراء على الغرب وحضارته ، وأنها تعتبر آخر ما وصل إليه العقل البشري وأنه لا منزلة وراءها ودعوا إلى تطبيقها برمتها وعلى عيالاتها في ديار الإسلام ودعوا بلادهم إلى التخلي عن الشرق الإسلامي وكل ما يتصل به والاتحاق بالقارة الأوروبية .

وصار المثل الأعلى عند المسلمين أن يدركوا ركب الحضارة الأوروبية بما فيها من خير وشر (٢) .

١ - انظر اتجاهات وطنية ج ٢ ص ١٩٥ .

وانظر : سكان العالم الإسلامي ، محمود شاكر ، ص ٨١ .

٢ - انظر في هذا : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٢٧٤ .

ويوم الإسلام ص ١٧١ .

ومكان المسلمين من العالم ، حسن عبد المقصود ص ٣٠ مطبعة التقدم .

ومن العناصر التي بهرتهم الحضارة الغربية الوثنية وصاروا دعواتها ومروجيها مجموعة كبيرة من الكتاب والأدباء والشعراء والفنانين ورجال الفكر والسياسة في معظم الدول الإسلامية ، وكان من أشهرهم في البلاد العربية الملقب بعميد الأدب العربي (طه حسين) في معظم مؤلفاته (كالشعر الجاهلي) ، و (مستقبل الثقافة في مصر) ، وكذلك (قاسم أمين) المعروف بمحرر المرأة في كتابه : (تحرير المرأة) ، و (المرأة الجديدة) يدعو فيها المرأة المسلمة إلى مشابهة المرأة الغربية كمودج للحضارة والتقدم ، وكذلك (الشيخ علي عبد الرازق) في كتابه : (الإسلام وأصول الحكم) وكذلك (سلامة موسى) في كتابه (اليوم والغد) ، وغيرهم من المشاهير الذين أعلت ذكركم و سائل الإعلام المختلفة (١)

يقول (سلامة موسى) في كتابه " اليوم والغد " (كلما ازدادت خبرة وتجربة وثقافة توضحت أمامي أغراض في الأدب كما أزاوله ، فهي تتلخص في أنه يجب علينا أن نخرج من آسيا وأن نلتحق بأوروبا ، فإنني كلما زادت معرفتي بالشرق زادت كراهيتي له وشعوري بأنه غريب عني ، وكلما زادت معرفتي بأوروبا زاد حبي لها وتعلقني بها وزاد شعوري بأنها مني وأنا منها ، هذا هو مذهب الذي أعمل له طول حياتي سرا وجهره فانا كافر بالشرق مؤمن بالغرب .

(ويقول بأنه قد آن الآوان لكي نعتاد عادات الأوروبيين ونلبس لباسهم ونأكل طعامهم ونصطنع أساليبهم في الحكومة والعائلة والاجتماع والصناعة والزراعة ، ونحن في حاجة إلى ثقافة حرة أبعد ما تكون عن الأديان . . فنلنول وجهنا شطر أوروبا . .) (٢) .

وجاء في كتاب (مستقبل الثقافة في مصر لطله حسين) مجيبا عن سؤال :
ما هو التجديد الذي نحتاج إليه في العصر الحديث ؟

قوله : (السبيل إلى ذلك واحدة فذة فذة ليس لها تعدد وهي أن نسير سبيل الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداد ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها حلوها ومرها وما يُحِبُّ منها وما يُكره وما يُخمد منها وما يعاب) (٣)

١ - انظر : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص ٢١٤

واتجاهات وطنية ج ٢ ص ٢٢١ .

٢ - انظر اتجاهات وطنية ج ٢ ص ٢٢٢ .

٣ - المجموعة الكاملة لمؤلفات طه حسين ج ٥ ص ٥٤ .

ويقول في مكان آخر : (من المحقق أن تطور الحياة الإنسانية قد قضى منذ عهد بعيد بأن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساسا للوحدة السياسية ولا قواما لتكوين الدول) (١) .

وأما مُستعبدُ المرأة ومُفسدُها (قاسم أمين) فيرى أن المدنية الأوروبية هي الحل الوحيد والعلاج الناجع لحال الأمة الإسلامية فيقول : (هذا هو الداء الذي يلزم أن نبادر إلى علاجه وليس له دواء إلا أننا نرى أولادنا على أن يتعرفوا شؤون المدنية الغربية ويقفوا على أصولها وفروعها ، وأثارها ، إذا أتى ذلك الحين - ونرجو أن لا يكون بعيدا - انجلت الحقيقة أمام أعيننا ساطعة سطوع الشمس وعرفنا قيمة التمدن الغربي ، وثيقنا أنه من المستحيل أن يتم إصلاح ما في أحوالنا إذا لم يكن مؤسسا على العلوم العصرية الحديثة) (٢) .

هذه نماذج من الذين بهرتهم الحضارة الغربية وهذه أقوالهم شاهدة على ذلك ، وقد صاروا من الكثرة بحيث يصعب حصرهم ويتعذر عدُّهم .

وبشكل عام فقد انقسم المسلمون في موقفهم من الحضارة الأوروبية بخيرها وشرها إلى ثلاث عقليات أو فرق (٣) .

الفريق الأول : وهو المحافظ على ما آل إليه أمر الإسلام في العهد الأخير من صورة امتزج فيها الأصيل بالدخيل والسليم بالعليل والخالص بالمشوب والمدخول المستمر في جموده وانغلاقه والوارث للماضي القريب بمساوئه ومحاسنه .

الفريق الثاني : وهو المنخلع من الماضي البعيد والقريب ، ومن الإسلام في صورتيه الأصلية والمشوَّهة ، الصحيحة والمزوّرة ، والمنساق مع التيارات التي غزت المجتمع الإسلامي والمتأثر بها تأثرا سطحيا أو عميقا على اختلاف هذه التيارات .

والفريق الثالث : وهو الاتجاه المعتدل الذي يحاول أن يزيح من وجهه الأثقال التي تراكت على الإسلام خلال قرون طويلة وأن يكشف عن الصورة الأصلية للإسلام عن هذه القرون وأساليبها المختلفة المتطورة وينظر إلى مشكلات العصر من جهة أخرى ليحلها في ضوء مبادئ الإسلام .

١ - المرجع السابق ج ١ ص ٢٥ .

٢ - تحرير المرأة ، قاسم أمين ص ١٨٥ ط ٢ ، عام ١٩٤١ م

٣ - انظر المجتمع الإسلامي ، المبارك ص ١٠٦

وهكذا فإن المجتمع الإسلامي صار إلى طرفين ووسط ، أما الطرفان ففيهما إفراط وتفریط كلاهما على خطأ وانحراف عن منهج الإسلام الصحيح ومتنكب لطريق الصواب .

فالفریق الأول جامد متفوق يظن أنه يمثل الإسلام ويدافع عنه ، والإسلام في أغلب الأحيان منه برئ ، فمن المعلوم بداهة أن عوائد الكفار ومنجزات الحضارة الغربية الحديثة لم تكن شرا خالصا بحيث ترفض دفعة واحدة ، ولكن إلى جانب ضرورها فيها خير لا ينكر وأمر تتفق وروح الإسلام ، ففيها من العلوم والصناعات النافعة والأمور المادية ما لا يستغنى عنه الإنسان المسلم ولا تنضرب بدينه وإيمانه ولا يعدُّ هذا من قبيل التقليد ومحاكاة الكفار ، وهذا ما لا يجوز رفضه والوقوف ضده ، وحمل ذلك على الإسلام ، لأن كون الحضارة الغربية في معظمها حضارة مادية لا دين لها ولا روح فيها ولا تقيم للأخلاق والمبادئ الفاضلة وزنا ولا قيمة ، هذا لا يبرر رفضها رفضا باتا والوقوف ضدها موقفا يتصف بالجمود والانطواء .

ولكن المناسب الذي يتمشى مع قواعد الإسلام ومفاهيمه أن يختار المسلمون من هذه الحضارة ما يناسبهم شريطة أن لا يخل بتعاليم الإسلام ولا يتنافى مع خلق من أخلاق المسلمين ، وبذلك يحافظون على روحانيتهم ولا يفقدون شخصيتهم ويستفيدون من منجزات العصر الحديث (١) .

وأما الفريق الذي اندفع في تيار الحضارة الغربية لا يرعوى عن شيء ولا يردعه رادع ولا يحده حد ، وأقبل عليها بشرها وخيرها ، وقد أذهله التطور والتقدم العلمي الشامل لمختلف فنون الحياة ، ظن أن أوروبا لم تبلغ هذا الحال إلا بعد أن تخلت عن الدين والأخلاق وولت عنهما مدبرة مكثفة بالجانب العلمي المادي ، ولم يدرك أن هذا التقدم العلمي والتطور لم يكن بسبب الخروج على الدين والأخلاق ، والفر بالروحانيات ، وإنما كان لاتباع الأسس العلمية الصحيحة التي كانت الكنيسة تحاربها وتقف ضدها ، ولم يدرك كذلك أن الأمر بالنسبة للدين الإسلامي الذي لم يأت به الباطل ولم يدخله تحريف ولا تبدل يختلف عن النصرانية التي أفسدتها الكنيسة ولم تعد تمثل الدين الرباني الصحيح .

ومن المؤلم جدا أن هذا الفريق الذي انغمس في تيار الحضارة الغربية لم يقتبس منها إلا القشور وكماليات الأمور صار كاللبغاوات يقلد كل ما يسمع أو يبصر من

غير تعقل ولا تفكر ، ولم يتجاوز ذلك إلى تقليد الغرب في قوته المادية ومخططاته العسكرية وتقدمه الصناعي وسبقه العلمي .

و أما الفريق المعتدل فقد رأى أن كلاً من الرضى الكلى أو الأخذ الكلى لحضارة أوروبا يعدُّ أمراً غير ممكن ولا بدَّ من التروى والتأمل واختيار المناسب والممكن ، وهذا ما كان يجب أن يكون عليه موقف المسلمين عموماً انطلاقاً من مفاهيم الإسلام لـولا تلك الظروف والأحوال القاسية التي تعرَّضوا لها في العهود الأخيرة مما أدى إلى بعد هم عن حقيقة الإسلام وجهلهم بعبادته وتعاليمه .

وقد كان هذا الفريق قلة قليلة وعناصر محدودة فهمت حقيقة الإسلام وأدركت شموله وصلاحيته للزمان والمكان وأنه لا يتنافى مع الأخذ من الحضارات والاقْتباس مما عند الأمم وتسخيروه في خدمة الدين والدنيا معاً إذا كان لا يسئ إلى أصول الإسلام وفروعه .

ومما يبعث على الأسى والألم أن الأمور قد خرجت من أيدي هذه الفئة المؤمنة وأبعدت عن التوجيه والإرشاد والقيادة وجُردت من كلِّ شئٍ وصارت الأمور في الأيدي التي درَّستها الدول الأوروبية ونشأتها نشأة غربية ، بحيث تغلغل تقديس الحضارة الغربية في نفوسها بكلِّ قيمها ومفاهيمها ومظاهرها وتصوراتها الفاسدة ، وآمنت بأن هذه الحضارة والفلسفة الوثنية قد بلغت القمة من العقل والرقى البشرى ، وحال التعصب الأعشى والانقياد لها من اطلاعها على مواضع الضعف والإخفاق فيها ، فقادت المجتمعات الإسلامية وفرضت عليها تلك الحضارة بكلِّ ما فيها من مفاصد وانحرافات لادينية (١) .

وهذا حال المسلمين اليوم شاهد على ذلك (فهاهى ذى مدارسهم ، ومكاتبهم وبيوتهم وأسواقهم ومجتمعاتهم حتى أجسامهم وأشخاصهم تشهد كلها بأنه قد استولت عليهم حضارة الغرب وامتلكت نفوسهم علوُّه وآدابه وأفكاره ، فهم لا يفكرون إلا بعقول غربية ولا يبصرون إلا بأعين غربية ولا يسلكون إلا الطرق التي قد مهَّدها لهم الغرب ، وقد رسخ في نفوسهم سواءً أشعروا به أم لم يشعروا ، أن الحق هو ما عند أهل الغرب حق والباطل ما يعدُّونه باطلاً ، إن المقياس الصحيح للحق والصدق والآداب والأخلاق والإنسانية والتهذيب هو الذى قد قرره الغرب لكلِّ ذلك ،

١ - انظر : عاصفة يواجهها العالم الإسلامى والعربى ، أبو الحسن على الندوى

فيقيسون بهذا المقياس ما بأيديهم من العقيدة والإيمان ويختبرون ما عندهم من الأفكار والتصورات والمدنية والتهديب والأخلاق والآداب ، فكل ما يطابق منها ذلك المقياس يطمئنون إلى صدقه ويفتخرون بمجىء أمر من أمورهم موافقا للمعيار الأوروسى وأما ما لا يطابقه منها فيظنونونه خطأ وباطلا ، شعروا بذلك أم لم يشعروا (١) .

وتحقق بذلك ما أخبر عنه خاتم الأنبياء والمرسلين بقوله صلى الله عليه وسلم (لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر ، وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم قلنا : يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟) (٢)

وقد كان هذا الانبهار والاعجاب بحضارة الغرب والانخداع بها وتتبع آثارها فى سفاسف الأمور ومظاهر الأحوال وتوافقه العادات ، والذي أحال العالم الإسلامى مرتعا خصبا وبيئة مناسبة لتقبل الأفكار والمذاهب والفلسفات الوثنية الحديثة التى نشأت فى أوروبا بعد انسلاخها من الدين والأخلاق .

فلم يقتصر الأمر على تقبل العادات الجاهلية والشكليات التافهة ، بل تجاوزه إلى أعظم من هذا حيث تهيأ الجو المناسب لزعف كل ما لدى الدول الأوروبية من معتقدات وثنية وفلسفات ملحدة ومذاهب فكرية مادية باطلة مناقضة لمبادئ الإسلام ومفاهيمه وشرائعه وأخلاقه وتعاليمه الحققة .

فمن دأج للديمقراطية ومن متطلع للحياة الاشتراكية ، ومن ناعق بالقومية والوطنية ، ومن مروّج لمفاسد الأخلاق والحرية ، ومن منادٍ بتطبيق القوانين الأوروبية وإقصاء الشريعة الإسلامية ، إلى غير ذلك من الدعوات الوثنية الحديثة التى غزت المسلمين فى ديارهم فى العهد الأخيرة ، بسبب البعد عن حقيقة الإسلام وعدم الالتزام به فى العقائد والشرائع .

وأخيرا فهذه نبذة وجيزة لأحوال المسلمين فى العهد الأخيرة والتسى

١ - نحن والحضارة الغربية ، أبو الأعلى المودود ص ٨

وانظر : الاتجاهات الوطنية ج ٢ ص ٢٠٥ .

ولماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ، شكيب أرسلان ، ص ١٥٠ ،

دار مكتبة الحياة ، بيروت .

٢ - رواه البخارى ، الاعتصام بالسنة ، ١٤ ، ومسلم فى العلم ، ٦ ،

وابن ماجه فى الفتن ، ١٢ .

ابتدأت بالانحراف التدريجي عن الإسلام ، وانتهت بالبعد الظاهر عن أحكام
الإسلام في كل شيء وانتقاض غراه عروة عروة ، فالله المستعان وهو نعم المولى
ونعم النصير ولا حول ولا قوة إلا بالله .

xxxxxxxxxxxxxxxx

الفصل الثاني

تأثر المسلمين بالوثنية الحديثة في شتى المجالات

تمهيد .

- ١ - تحكيم غير شريعة الله .
- ٢ - الدعوة لتحديد النسل .
- ٣ - مؤالة الكفار .
- ٤ - الدعوة للسفور والاختلاط .

الفصل الثاني

تأثير المسلمين بالوثنية الحديثة في شتى المجالات

تمهيد :

إن تأثير المسلمين بالوثنية الحديثة عن طريق الغزو الفكري أمر لا يمارى فيه عاقل ، فما من فكرة وثنية آمنت بها أوروبا إلا وقد وجدت لها طريقا إليهم ووجدت لها دعاة وأنصارا ومعتنقين ومدافعين عنها بينهم ، عن وعي أو غير وعي .
وأود أن أشير هنا إلى أن مظاهر عدوى الوثنية المعاصرة في العالم الإسلامي كثيرة جدا ، ويضيق المجال هنا لحصرها وتعدادها ، فقد دخل المسلمون - مع الأسف الشديد - في كل حجر من الحجور الوثنية ، التي دخلتها أوروبا بعد تخليها الكامل عن دين الكنيحة ، وسلكوا كلَّ السبل والطرق التي شقتها أوروبا بعد ما يسمون بعصر النهضة ، فأنحرفوا عن سبيل الله وصراطه القويم ، وعبدوا من دونه آلهة شتى وإن كانوا ما زالوا ينطقون بكلمة الشهادة ويقومون ببعض عاثر الإسلام وطقوس العبادة .

حقا إنهم اتبعوا سنن اليهود والنصارى في كلِّ شأن من شؤونهم ولم يدعوا كثيرا من انحرافاتهم إلا أتوها ، وصدق فيهم قوله صلى الله عليه وسلم وهو يحذرهم من هذا : (لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو أن أحدهم دخل حجر ضب لدخلتموه) (١) وقد ورد هذا الحديث في روايات كثيرة كلها تدلُّ على انحراف الأمة الإسلامية عن دين الله واتباعها أهواء البشر وضلالاتهم وسنن الذين كفروا .

وليعهد في في هذا الفصل أن أحيط بجميع أشكال التقليد والتبعية ومظاهر عدوى الوثنية المعاصرة التي انتشرت بين المسلمين لكثرتها وتعدد صورها وفنونها ، إنما سأقتصر على نماذج مختارة ، رأيت أنها من الأهمية والخطورة بمكان بحيث تستحق التنبيه والإشارة إليها وإن كان غيرها قد لا يقلُّ عنها خطورة وضررا على عقيدة المسلمين .

وقد وقع اختياري على أربعة مظاهر من مظاهر هذه العدوى الخبيثة وهي : إقصاء شريعة الله وإحلال القوانين الوثنية محلها . وهذا في نظري هو رأس الشرك والوثنية بل الكفر الذي يخرج عن العلة في كثير من الأحيان ، لأن

تحكيم شريعة الله هو مدار الأمر كله في الإسلام وعليه كان الصراع الطويل بين الرسل وأقوامهم ، فقد كان هدف الرسالات السماوية كلها هو إقصاء شريعة الأوثان وإقامة شريعة الله وحكمه في الأرض ، أما وقد انقلبت الصورة ، فصارت القوانين الوثنية المستوردة من دول الشرك في الغرب والشرق هي السائدة والمحكمة في معظم دول العالم الإسلامي - ولا شك أن تحكيم شريعة الله هو عنوان الدولة الإسلامية والمميز لها عن غيرها من الدول الوثنية التي تخضع لقوانين الطواغيت - فكان لا بد من اختيار هذه الظاهرة الخطيرة وجعلها في رأس القائمة ، لأن ما يعدها يقل خطورة عنها ويهون أمره إذا قورن بها .

ومنها كذلك : (الدعوة لتحديد النسل) كمظهر وثني ودعوة خطيرة انتقلت إلى المسلمين عن طريق العدوى والتأثر بالأفكار الوثنية ، وهي دعوة لا شك في خطورتها على عقيدة الأمة الإسلامية وكيانها ، وتكاثرها ، ونموها في فترة من الفترات هي في أشد الحاجة فيها إلى الكثرة البشرية والقوة العددية لمصارعة قوى الكفر والشرك والوثنية المحدقة بالأمة الإسلامية من كل جانب .

فهي طلاوة على أنها تقوم على سوء الظن بالله ، ومعارضة عقيدة الإيمان والتوكل على الله في مسألة الرزق ، ثم التنبؤ والتكهن بمستقبل الأيام على غير هدى من علم صحيح وخبريقيين ، وهذه كلها أمور تضر بعقيدة المسلمين - هي في الوقت نفسه تخطيط مدبر ومكر خبيث يحاك في الخفاء ضد الأمة الإسلامية للقضاء عليها وإضمار قوتها بقتل أبنائها حتى تصبح هزيلة ضعيفة لا شوكة لها ، فتركن إلى الذين ظلموا ، وتنقاد للدول القوية وتخضع لها . والمسألة الثالثة في هذا الفصل تتحلل في (موآلة دول الكفر) وهي كذلك لا شك مسألة خطيرة جدا تفضى إلى تعزيق العالم الإسلامي وتوزيعه بين الدول الوثنية عن رضا وطواعية ، وتحول دون وحدته واتحاده ليكون كستلة واحدة تقف أمام الدول الطامعة في الغرب والشرق . وهي بالإضافة إلى هذا مسألة ذات ماس بعقيدة الأمة الإسلامية إذا هي أعرضت عن الله ورسوله ، ووالت أعداءه من اليهود والنصارى وآثرتهم على موآلة المؤمنين وهذا هو الذي حصل في كثير من دول العالم الإسلامي فصار أشلاء متناثرة اقتسمتها فيما بينها دول الأعداء وصار لها السيادة والسع والطاعة على أتباع المسلمين في داخل بلادهم .

ومنها أخيرا مسألة : (السفور والدعوة إلى الاختلاط) ، وهذه في نظري خطيرة جدا وإن بدت لبعض غير ذلك ، لتبلىد الحس عندهم ، واعتبارها مجرد معصية وذنوب قد يغفره الله تعالى ولا يصل لدرجة الشرك .

فقد رأيت - كما هو معلوم - أن الصهيونية والصليبية العالميتين
تركزان على المرأة وإفسادها للوصول إلى تحقيق أهدافهما في أنحاء العالم
عامة والإسلامي على وجه الخصوص .

فما دامت المرأة المسلمة على عفتها وطهرها وحجابها والتزامها
بدينها ، وفي منأى من الاختلاط بالرجال . فلا مدخل لتلك القوى الوثنية
للوصول إلى تحقيق أهدافها في العالم الإسلامي .

يقول جلا دستون رئيس وزراء بريطانيا : (لن تستقيم حالة الشرق ما
لم يرفع الحجاب عن وجه المرأة ويغطى به القرآن) (١) .

ولهذا فقد اخترت هذا المرض الوثني الذي أصاب العالم الإسلامي
من بين أمراض كثيرة فتكت بالمسلمين من جراء تأثيرهم بالوثنية الأوروبية الحديثة .
فظاهرة السفور والاختلاط التي انتقلت عدواها إلى العالم الإسلامي

من جراء التقليد الأعى والتبعية للغرب تعتبر انتكاسة ظاهرة إلى ما كان عليه
عرب الجاهلية في ظل الشرك وعبادة الأوثان ، وهي تعد ذلك ردة إلى
الحياة الجاهلية التي حاربها الإسلام وقضى عليها ، فهي بذلك خطر كبير

يهدد العقيدة الإسلامية وكيان العالم الإسلامي ، لأنها وسيلة من وسائل الخيبت
والمكر والدهاء التي يمارسها أعداء الإسلام ليملاؤا حياة المسلمين بالشهوات ،
ويجعلوا المرأة شغلهم الشاغل ومعبودهم الجديد بعد أن يعمروها ويهزجوا بها
وسط الرجال سافرة من كل ما يعترعورتها ، وعند ذلك يبدؤون في تنفيذ
مخططاتهم وتحقيق أهدافهم ومطامعهم وهم في مأمن من المقاومة والمعارضة .
والآن إلى تفصيل القول في هذه المظاهر المختارة .

(١) نقلا عن الاسلام على مفترق الطرق / محمد أسد / ص ٤١ .

أولا : تحكيم غير شريعة الله :

كان من أبرز الأفكار الغربية والمظاهر الوثنية التي غزت المسلمين في عصر دارهم تنحية شريعة الله وإقصاؤها عن واقع المسلمين والحيلولة دون تطبيقها وتحكيمها في ديار الإسلام ، والترويج للقوانين الوضعية الأوروبية وتحكيمها في معظم أحوال المسلمين وقضاياهم ، بعد أن فرضت الدول الصليبية سيطرتها على معظم بلاد العالم الإسلامي ، وعزلتها عن دينها ، وقطعت صلتها بدستورها ومنهجها التشريعي الرباني ، بالغزو الفكري والثقافي الذي نهجته في كل بلد إسلامي دخلته .

وقد كانت هذه أعظم مصيبة نزلت بالإسلام وأصابت المسلمين منذ

نشأة الإسلام إلى نهاية القرن الثالث عشر الهجري تقريبا .

فمن المعلوم أن شريعة الله المستمدة من مصدرها الأساسي :

(كتاب الله وسنة رسوله) بقيت تحكم الحياة مدة طويلة . وظل التشريع

الإسلامي هو الموجه الفذ والمرجع الأوحيد لحياة المجتمع الإسلامي في كلِّ

العهود السابقة ، منه استمدت كلُّ الأحكام وعلى أساسه قامت كلُّ العلاقات

في كافة النواحي المدنية والجنائية والدولية والأسرية التي يطلق عليها في عصرنا

اسم الأحوال الشخصية .

كانت الشريعة الإسلامية مستوعبة لجميع ذلك ومتسعة لكلِّ شأن من

شؤون الحياة ، لم تهمل صغيرة ولا كبيرة ولم تترك شاردة ولا واردة ، شريعة

ربانية جامعة ورحمة من الله للبشرية مهداة ، استطاعت أن تغني بحاجات

كلِّ المجتمعات التي حكمتها وعالجت كافة المشكلات في كلِّ البيئات التي حلت

بها بأعدل الحلول وأمثل الأحكام ﴿ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ﴾ (١)

بقيت هذه الشريعة صاحبة السيادة في أرض الإسلام ، نافذة الأحكام

مع الطاعة والرضا والتسليم والانقياد ، ولم يخطر ببال أحد من أبناء الأمة

الإسلامية - حكاما ومحكومين - على مدى القرون الثلاثة عشر الهجرية السابقة ،

أن يحتكم يوما ما إلى أحكام غير أحكامها ومبادئ غير مبادئها ، كيف يكون

ذلك وهم يستشعرون في نفوسهم عظمة قوله تعالى ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل

الله فأولئك هم الكافرون ﴾ وقوله ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم

الظالمون ﴾ وقوله ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ ، فما

كان يدور بخلد حاكم مسلم سوا^١ أكان أمويا أم عباسيا أم عثمانيا أم غيرهم ، كما أنه لم يدر بخلد أي شعب من الشعوب الإسلامية العربية وغير العربية أن يستبدلوا بهذه الشريعة السماوية الخالدة ، شريعة وضعية أرضية ، أو شريعة دينية منسوخة كتابية أو وثنية ، بل كان الرضا والتمسك والاعتزاز بشريعة الله هو ما امتازت به الدولة الإسلامية على مرّ القرون .^(١)

فبالرغم من كل الانحرافات عن حقيقة الإسلام ، من بعد عنه وسوء فهم له ، وبالرغم من كل انحطاط في شتى مجالات الحياة كان يصيب الأمة الإسلامية بعض الوقت إلا أن الشريعة الإلهية المقدسة بقيت تحتفظ بهيبتها وقدسيتها ومكانتها العليا وهيمنتها على أبناء الأمة الإسلامية ، أفرادا عاديين وملوكا وسلاطين ، وعلما^٢ متخصصين ، فكان موقفهم واحدا محددًا وتمييزًا .

فها هو ذا شيخ الإسلام ابن تيمية ، والحافظ ابن كثير يفتيان بحرمة التحاكم إلى أي شريعة أو قانون سوى شريعة الله ومنهج رسوله ، عندما ظهر كتاب (الياسق) الذي وضعه جنكيز خان ودعا لتطبيقه وتحكيه والتزم به بنوه من بعدهم وقدموه على حكم الله ، فقد نصّ كلُّ منهما على حرمة التحاكم أو الرجوع إليه في أقل أمر من أمور المسلمين ، وترك شريعة الله ، وحكما بكفر من يفعل ذلك .

قال شيخ الاسلام - رحمه الله - : (ليس لأحد أن يحكم بين أحد من خلق الله لا بين المسلمين ولا الكفار ، ولا الفتيان ، ولا رماة البندق ، ولا الجيش ولا الفقراء ، ولا غير ذلك : إلا يحكم الله ورسوله . ومن ابتغى غير ذلك تناوله قوله تعالى ﴿ أنحكم الجاهلية يبغون . ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ﴾^(٢) وقوله تعالى ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾^(٣) .
فيجب على المسلمين أن يحكموا الله ورسوله في كل ما شجر بينهم ، ومن حكم بحكم البندق وشرع البندق ، أو غيره ما يخالف شرع الله ورسوله ،

(١) انظر الحل الاسلامي ، د . يوسف القرضاوي ص ٨٠ - ٨٢ ،

وشريعة الإسلام ، د . يوسف القرضاوي ص ٦٨ - ٧٠ .

وموقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين مصطفى صبري ج٤ ص ٩٢ ط٢ .

(٢) سورة المائدة آية ٥٠ .

(٣) سورة النساء آية ٦٥ .

وحكم الله ورسوله ، وهو يعلم ذلك : فهو من جنس التتار الذين يقدمون حكم
" الياسق " على حكم الله ورسوله ، ومن تعمد ذلك فقد قدح في عدالته ودينه (١) .
ويقول ابن كثير رحمه الله بعد أن ذكر شيئاً من " الياسق " : (فمن
ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء وتحاكم إلى غيره
من الشرائع المنسوخة كفر ، فكيف بمن تحاكم إلى " الياسق " وقدمها عليه !
من فعل ذلك فقد كفر بإجماع المسلمين) . (٢)

وقال في تفسير قوله تعالى ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ﴾ : (ينكر
الله تعالى على من خرج عن حكم الله تعالى المحكم المشتغل على كل خير ،
الناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي
وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله كما كان أهل الجاهلية يحكمون به
من الضلالات والجهالات ما يضمنونها بأرائهم وأهوائهم وكما يحكم به التتار
من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم " جنكيز خان " الذي وضع لهم
الياسق وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى : من
اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها ، وفيها كثير من الأحكام التي أخذها
من مجرد نظره وهواه فصارت في بنيه شرعاً متبعاً يقدمونه على الحكم بالكتاب وسنة
رسول الله صلى الله عليه وسلم) . (٣)

وعلى هذا الحال بقيت الشريعة الإلهية طوال تلك القرون العديدة حتى
أصبحت الأمة الإسلامية بالجمود ودبَّ فيها التقليد ، وبقي باب الاجتهاد موصداً
في عهد السلاطين الأتراك ، في الوقت الذي بدأت فيه أوروبا قمة الاجتهاد والاكتشافات
العلمية ، وقد أخذت تمتدُّ في حياة المسلمين مسائل وأحداث لم يكن لها مثيل
ولا شبهه فيما سبق وبالتالي فليس لها في كتب الفقهاء المتقدمين حلٌّ ولا جواب ،
وكان الأمر يستلزم الاجتهاد ضمن النصوص الشرعية ووضع الحلول الإسلامية المناسبة
لتلك الأحداث والمستجدات ، ولكن جمود العقلية على إرث الفقهاء السابقين
والتعصب الشديد لهذا الجمود ، كان سبباً في بداية الانحراف التدريجي عن

(١) مجموع الفتاوى ج ٣٥ ص ٤٠٢ - ٤٠٨ ، وانظر له منهاج السنة النبوية

ص ٤١٢ - ٤١٣ . وانظر كذلك إعلام الموقعين لتلميذه ابن القيم

ج ١ ص ٥٣ .

(٢) البداية والنهاية في التاريخ ج ١٣ ص ١١٩ مطبعة السعادة بمصر

(٣) التفسير ج ٢ ص ٥٩٠ .

شريعة الله ، والاتجاه إلى الشرائع والنظم والديساتير الوضعية من بلاد أوروبا النصرانية لسد الفراغ الذي حصل بتوقف العلماء عن الاجتهاد .^(١)

وأغلب الظن أن البداية كانت في عهد سليمان القانوني بن سليم الأول العثماني فهو الذي استقدم بعض القوانين الأوروبية لحل بعض الأمور والمسائل الجديدة التي لم يجد لها في الفقه الحنفي جوابا ، ومن هنا فقد أطلق عليه سليمان القانوني أو سليمان الكبير .^(٢)

وهكذا بدأت ملامح الانحراف الأولى عن شريعة الله ، ولكن هذه التعديلات القانونية التي أدخلها بعض السلاطين العثمانيين لم تكن خارجة عن نطاق الشريعة كما يشهد بذلك المستشرقون الغربيون أنفسهم . يقول هاملتون جب : (وعلى أي حال لم يذهب أحد إلى أن

قوانين السلاطين توفى قانونا علمانيا يناظر الشريعة ، أو أنها تتناول مجالا خارج نطاق الشريعة ، فهي لا تعدو أن تكون تنظيمات تتناول شؤوننا لم تحددها الشريعة ويفترض بطبيعة الحال أنها لا تتعارض مع أحكامها)^(٣) .

وهذا فإن الشريعة الإسلامية ظلت - على سوء في الفهم أو سوء في التطبيق في كثير من الأحيان - هي مصدر الأحكام ومرجع القوانين .

ولكن لم تلبث دولة الخلافة فيما بعد - وكان الضعف ينخرقواها - أن أخذت تستحدث من التنظيمات والتشريعات ما يخالف شريعة الله فكان

إنشاء ما يسمى بالمحاكم المختلطة و "المحاكم التجارية" وهما من ضمن مجموعة "التنظيمات الخيرية" التي أصدرتها دولة الخلافة بضغط من الدول الأوروبية

بعد معاهدة الصلح التي وقعت مع روسيا عام ١٨٥٦م تحت إشراف بريطانيا وفرنسا وهما أقوى دولتين يومها وأشدّها حربا للإسلام والمسلمين - كان ذلك

حدث الأحداث في بداية انهيار التشريع الإسلامي من حيث التطبيق والتنفيذ في حياة الأمة الإسلامية بشكل عام ، والاتجاه إلى القوانين الوضعية الأجنبية .^(٤)

(١) انظر موسوعة شلبي ج ٣ ص ٢٤٧ . وانظر الفكر الإسلامي الحديث في

مواجهة الأفكار الغربية / محمد المبارك / ص ١٩٨ - ٢٠٣ / ط ٣
عام ١٩٧٣م .

(٢) تاريخ العرب / فليب حتى / ج ٢ ص ٨٤٠ ط ٤ .

(٣) المجتمع الإسلامي والغرب / هاملتون جب واخر / ج ١ ص ٣٦ / ترجمة

د . احمد عبد الرحيم مصطفى ، طبعة دار المعارف .

(٤) انظر الغزو الفكري عبد الستار فتح الله ص ٤٢ .

يقول د . محمود مصطفى : (كان قانون العقوبات الفرنسي الذي صدر سنة ١٨١٠ م حدثا في تاريخ القانون الجنائي ونموذجا في عهده ، نقلت عنه دول كثيرة في داخل أوروبا وخارجها ، ورغبت تركيا في كسب سياسي بالتقريب بين نظامها والنظم الأوروبية الحديثة فأصدرت قانون الجزاء العثماني عام ١٨٥٨ م مستمدا أحكامه من القانون الفرنسي ، وبصدور هذا القانون انتهى عصر تطبيق الشريعة الإسلامية في كثير من الأقطار العربية حيث طبق عليها بحكم تيميتها لتركيا وهو ما حصل في سوريا ولبنان والعراق وفلسطين ، وقد ظلَّ قانون الجزاء العثماني مطبقا في هذه البلاد إلى أن أصدرت قوانينها الخاصة في القرن العشرين) .^(١)

هذا من جهة عامة وإما بخصوص بعض أجزاء العالم الإسلامي فيذكر المودودي بأن الهند كانت أول الأقطار الإسلامية التي بدأ فيها إلغاء الشريعة الإسلامية ، حيث استمرت أحكامها إلى أن وقعت في قبضة بريطانيا وخضعت للسيطرة الصليبية ، فبدأت تلك الدولة المغتصبة بإلغاء شريعة الله وتطبيق القوانين الوضعية بدلا عنها .^(٢)

وكذلك فعلت بريطانيا في مصر منذ اللحظة الأولى التي وضمت قدسها في أراضيها عام ١٨٨٢ م فقد بدأت بتخمية الشريعة الإسلامية تدريجيا واستبدلت بها القوانين الوضعية الأوروبية .^(٣)

كلُّ هذا وهيكُل الخلافة الإسلامية ما زال قائما ، والرجل المريف (تركيا) ما زال فيه بعض الرمق لم يلفظ أنفاسه الأخيرة وما أن خسرت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى ودخلت الجيوش البريطانية والإيطالية والفرنسية أراضي الدولة العثمانية وسيطرت عليها - حتى اشترطت عليها في معاهدة لوزان عدة شروط مقابل خروج بريطانيا من تركيا وكان من أبرز هذه الشروط : أن تقطع تركيا صلتها بالإسلام نهائيا ، وتختار لها دستورا مدنيا بدلا من دستورها المستمد من أحكام الإسلام .^(٤)

(١) أصول قانون العقوبات في الدول العربية / د . محمود مصطفى / ص ٩

وانظر الشريعة الإلهية لا القوانين الجاهلية / د . عمر سليمان الأشقر

ص ٦٤ - ٦٦ / ط ٢ دار الدعوة الكويت .

(٢) رسالة القانون الإسلامي وطرق تنفيذه / أبو الأعلى المودودي ص ١٠ .

(٣) انظر الشريعة الإلهية لا القوانين الجاهلية ص ٧٠ .

(٤) قادة الغرب يقولون : دمروا الإسلام وأبيدوا أهله / جلال العالم

وتخطيط الصليبية الأوروبية والصهيونية العالمية تمَّ عزل السلطان عبد الحميد الذي كان آخر سلاطين آل عثمان تمسكا بالإسلام وحجر عثرة أمام مطامع اليهود في فلسطين ، وعزله فقد انهارت الخلافة العثمانية تقريبا وترشَّح الرجل الصنم «مصطفى كمال أتاتورك» رئيسا لا دينيا لتركيا ، ولم يأل هذا الطاغية جهدا نحو طمس الشريعة الإسلامية ونقل تركيا إلى العلمانية وقطع صلتها بالإسلام ففي عام ١٩٢٦م تمَّ اعتماد القوانين الغربية رسميا وبعد ذلك عدَّل الدستور التركي وألغيت المادة التي تنصُّ على أن الإسلام دين الدولة ومنع تدريس الدين الإسلامي واللغة العربية .^(١)

وبذلك تكون تركيا قد فقدت شخصيتها الإسلامية واتَّجهت في ضمار العلمانية أو اللادينية مقبلة على أوروبا ومولَّية ظهرها للإسلام والعالم الإسلامي .^(٢) وبعد أن تحققت هذه الأمنية الصليبية وسقطت خيمة الإسلام بانكسار عمود الوسط فيها . وانحلت العرى التي كانت تشدُّ الدول الإسلامية وتربط بينها ، وسنحت الفرصة لدول أوروبا الطامعة ببلاد العالم الإسلامي ، فطارت إليها وتقاسمتها فيما بينها ، وخلال لها الجوفباضت فيها وصفرت ، وطارت بيدها مقاليد البلاد كلها من سياسة واقتصاد وتشريع وقضاء وتعليم وإعلام . . . إلخ وبدأت الحياة الوثنية الحديثة بشكل سافر في حياة الأمة الإسلامية ، إذ أن تلك الدول المفتتحة بدأت بفرض قوانينها ومبادئها ونظرياتها التشريعية من غير سدارة ولا مهادنة ، وصارت لها السيادة والسلطان فأحلت الحرام وحرَّمت الحلال وروَّجت لكل الموهقات ، وسنحت الفرصة لشذان الآفاق وطلاب الربح الحرام من الغربيين فأقبلوا من كلِّ صوب وشرعوا ينشرون الجانات ودور الفساد في جميع أرجاء البلاد الإسلامية لغياب أحكام الشريعة وتعطيل الحدود .^(٣) وظل الأمر يتدرج في فرض القوانين الوثنية وتعطيل أحكام الشريعة الإسلامية حتى أقصيت تماما ولم يبق لها إلا ما سعي بمجال الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وإرث ووصايا . . . إلخ .

(١) انظر غروب الخلافة الإسلامية د . علي حسني الخريوطي / ص ٢٠١

القاهرة
موسسة المطبوعات الحديثة ٧٠٠ وانظر : المخططات الاستعمارية

لمكافة الإسلام / محمد محمود الصواف / ص ١٢٨ ط / دار الاقتصاد
الدمام .

(٢) انظر اتجاهات وطنية ج ٢ ص ٩ ، والشريعة الالهية لا القوانين الجاهلية

ص ٦٦ - ٦٧ .

(٣) انظر الغزو الفكري - عبد الستار فتح الله ص ١٢١ .

وقد كانت سياسة الدول الأوروبية واحدة في جميع أنحاء العالم الإسلامي ، فما فعلته بريطانيا في الهند والباكستان ومصر والعراق مثلا فعلته فرنسا في الجزائر وسوريا ولبنان ، وفعلته إيطاليا في ليبيا ، وهولندا في اندونيسيا ، فقد كانت جميعها لشريعة الإسلام بالمرصاد وبدأت بنقض عراها عروة تلو الأخرى (١) ، وشرعت بإلغاء الحدود والجزايات ، فصار القاتل لا يتردد في إزهاق الأرواح والنفوس البريئة وهو آمن على نفسه ، والسارق لا يتوانى في انتهاب الأموال من حرزها وهو مطمئن على سلامة يده من القطع ، والزاني ينتهك الحرمات والأعراض وهو موقن بحماية القانون له ،

وفتحت المحاكم غير الشرعية تحت أسماء خادعة : (المحاكم الأهلية) أو (المحاكم الوطنية) أو (المحاكم المختلطة) وغير ذلك ، وتستمد هذه المحاكم أحكامها من القانون الفرنسي ولا تقيم لشريعة الله وزنا .
وزيادة في إحكام الخطة وتثبيت الشرائع الوثنية والقوانين الوضعية في العالم الإسلامي وترسيخها في عقول أبناءه . فقد أنشئت مدارس ومعاهد وكليات تدرّس هذه القوانين الباطلة وصارت تخرّج المتخصصين في القانون الوضعي من أبناء المسلمين ليمارسوا بأنفسهم هدم شريعة الله وإطلاء راية الوثنية في بلادهم وبين أهلهم .

وربما تكون (مدرسة الحقوق المصرية) أقدم هذه المؤسّسات الحقوقية والمعابد الوثنية ، أنشأها فرعون زمانه إسماعيل باشا لتدريس القانون الأوروبي وزرعه في نفوس الأجيال المسلمة في قلب أقوى دولة إسلامية ، وكذلك تمّ التخطيط لهدم الأزهر فصار (كلية للشريعة والقانون) وجمعت التسمية بين المتناقضين (٢) .

واستمرّ هذا الانحراف الكلي عن شريعة الله ، وترتّب أجيال من المسلمين على النظم والقوانين الوثنية الأوروبية ، وبرزت فئات وعناصر من أبناء جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا ويعيشون بيننا وربما كانت تربط بعضنا بهم أواصر النسب والقرابة في بعض الأحيان ، انتصروا لهذه القوانين وآسوا بها فراحوا يدعون لها

(١) انظر الشريعة الالهية لا القوانين الجاهلية ٢٣ - ٢٩٤ .

(٢) انظر الغزو الفكري جد الستار فتح الله ص ١٣٠ - ١٣٧ .

ويرؤجون لتطبيقها ويدافعون عنها ويختلفون المبررات لتثبيتها ، ويفتعلون لها الأجواء المناسبة ، ويذنبون بأقلامهم وألسنتهم وجميع وسائلهم عن الطواغيت وشريعة الأوثان .

وقد رأينا هؤلاء في مختلف أرجاء العالم الإسلامي في الهند وتركيا والسودان والمغرب ومصر وغيرها من بلدان العالم الإسلامي .

ومن ذلك قول رطه حسين في كتابه مستقبل الثقافة في مصر (ونظام الحكم عندنا أوروبي خالص نقلناه عن الأوروبيين نقلا من دون تحرُّج ولا تردد ، وإذا عيبنا أنفسنا بشيء من هذه الناحية فإنما نعيبها بالإبطاء في نقل ما عند الأوروبيين من نظم الحكم وأشكال الحياة) .^(٢)

فهو وغيره من أنصار الوثنية لا يستحي ولا يشعر بالحرج أن يكشف عن حقه وبغضه لشريعة الله ونصرته لشرائع الطواغيت .

ومن عجائب الأمور أن يتعلق المسلمون بالقوانين الوضعية ويصروا على تطبيقها فيما بينهم ، وهجر شريعة الله ومحاربتها والوقوف في وجه كل من يدعو إلى تطبيقها والاحتكام إليها ، في حين تعلقو صرخات رجال الفكر والقانون في العالم وفي مقدمتهم كثير من علماء الغرب يريدون تذمرهم منها وسخطهم عليها ، ويظهرون تبرمهم من نتائجها الوخيمة ويؤكدون فشلها وقصورها عن حل مشكلاتهم وتنظيم حياتهم على الوجه المطلوب ، ويرون أن الشريعة الإسلامية هي الحل الوحيد الذي يمكن أن ترجع إليه البشرية بعد أن جرت كل النظم والديساتير الوثنية ، ويعيبون على المسلمين بعدهم عن شريعتهم وتعلقهم بقوانين الكفر الأوروبية .^(٣)

يقول (سانتيلانا) : (إن في الفقه الإسلامي ما يفني المسلمين في تشريعهم المدني ، إن لم نقل ما يفني الإنسانية كلها) .

(١) راجع الفكر الإسلامي الحديث ص ٢٥ ، والصراع بين الفكرة الإسلامية

والفكرة الغربية للدكتور محمد المهدي ص ٨٢ .

وانظر ذيل الطل والنحل محمد سيد كيلاني ص ٨١ - ١٠٩ دار

المعرفة ١٩٨٠ م .

(٢) انظر المجموعة الكاملة لعوفات طه حسين ج ٤ ص ٤١ .

(٣) انظر : إطار إسلامي للفكر المعاصر / أنور الجندي ص ٣١٥ - ٣٢٠

ط ١ / المكتب الإسلامي .

ويقول (هوكنج) أستاذ الفلسفة بجامعة هارفرد : (إن سبيل تقدم البلاد الإسلامية ، ليس في اتخاذ الأساليب الغربية المتكثرة للدين كموجّه لحياتهم اليومية ، وإنما سبيل تقدمهم ونموهم اتخاذ الدين مصدرا ، فنظام الإسلام يستطيع توليد أفكار جديدة وأحكام مستقلة متفقة مع الحياة ، وإنني أشعر بأنني على حق حين أقرّر أن الشريعة الإسلامية تحتوي بوفرة على جميع العبادي^(١) اللازمة لارتقاء الإنسان) .

ويقول صاوا باشا الرومي في كتابه " نظرية الحقوق في الإسلام " : (أنا مسيحي معتقد بديني ولكن المسيحي الحقيقي هو الذي يعامل جميع الناس بالحق ولهذا أنا أفحص الشريعة الإسلامية فحس رجل مسيحي وأقدر لها قدرها بدون ضلع ولا ميل فأجدها لذلك جديرة بأعظم الإحترام)^(٢) .

فكيف تروج بين المسلمين القوانين الوضعية والشرائع الوثنية التي ضاقت بها أوروبا نزعاً فما عادت تصطبّر عليها ، وقد قدّمت في سبيلها كلّ غالٍ ونفيس - الدين والأخلاق وكرامة الإنسان - ولم تجنر منها إلا الندم والخسارة والحسرة على ما فرطت به من ذى قبل ؟

ألا تكون الدول التي تستورد قوانينها ونظمها ، لنطبقها على أنفسنا ، مثلاً نتعظّ به - والسعيد من اتعظّ بغيره - ونعود لتطبيق شريعة الله ومفارقة شرائع البشر ؟ أم أن عدوى الوثنية الغربية قد ملكت علينا عقولنا واستحوذت على جلّ اهتماماتنا ، وشدّت بأوروبا وثاقنا فصارت قبلتنا ومصدر تشريعنا ؟

وإن إضافة الصيغة الوطنية المحلية على القوانين الوضعية وتغيير الأسماء مع بقاء المسميات هو الذي خدعنا وزاد من تصكنا بها وخضوعنا لها ، بعد أن خرجت أوروبا من العالم الإسلامي وحصلت دويلاته على الاستقلال الموهوم ، وسميت القوانين الغربية باسم كلّ دولة ، فأصبح يقال القانون (أو الدستور) الهندي أو التركي أو السوداني إلى غير ذلك ، في حين أنها جميعها مستمدة من شريعة وثنية واحدة بمعيدة كل البعد عن دين الله^(٣) ،

(١) نقلا عن : كتاب مفتريات على الإسلام / أحمد محمد جمال ص ٥٦ - ٥٧ .

(٢) نقلا عن : موقف العقل والعلم والعالم ج ٤ ص ٢٩٩ .

(٣) انظر الشريعة الإلهية لا القوانين الجاهلية ص ١٤٥ .

وعلى الرغم من أن هذه الدساتير الوطنية تنصّ على أن الإسلام هو دين الدولة وأن الشريعة الإسلامية بمصدرها : الكتاب والسنة هي المصدر الرئيسي الذي يستمد منه القانون أحكامه ونصوصه ، فالكل يعلم أن الحقيقة غير هذا تماما ، وأن كلّ ما جاء في هذه الدساتير بهذا الشأن تضليل وخداع فالواقع يشهد بخلاف ما نصّ عليه نظريا .

(وأى نظرة نلقيها على المسلمين نجد بوضوح تام أن كتاب الله في واد والناس في واد آخر ، وأى نقاش تدخله مع الكثير من هم أبناء مسلمين تجد التسليم للنصوص فيه ضدّهم مفقودا) .^(١)

(بل إن الاستعمار الثقافي جعل بعض المسلمين المعاصرين يستحق من شرائع الحدود والقصاص ، ويريد أن تكون دار الإسلام مرقصا عاما تنعوم فيه الدنيا أو مسرحا يجد فيه المتوحشون فرسا شتى للاغتتيال والاعتداء) .^(٢)
وهكذا (فإن من أخطر ما يمرّ به العالم الإسلامي حديثا هو لجوء المسلمين إلى تحكيم الطاقات تمثلا في القوانين الوضعية المأخوذة من التشريعات اللاتينية وعلى رأسها القانون الفرنسي . . فأصبحت الآن جميع الشؤون المدنية والإدارية والجنائية تخضع للقانون الوضعي في العالم الإسلامي بصفة عامة ، واقتصر دور الفقه الإسلامي على مسائل الأحوال الشخصية . وأصبح بذلك الطاقات هو الذي يحكم جميع شؤون المسلمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم) .^(٣)

ومن هنا فإن العودة إلى تحكيم شريعة الله ، والرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم واجب شرعي ، وفرض لازم ، وإن هذا وحده هو الدين الذي جاءت به رسل الله أجمعين ، والخروج على هذا جزئيا أو كليا يعتبر خروجا من الإسلام وردة إلى الوثنية والحياة الجاهلية من جديد ، وإن هذه الحيدة التي يعيشها العالم الإسلامي عن منهج الله تعتبر خروجا عن الأصل والصواب إلى طريق الباطل الذي نهى الله عنه وحذّر من الوقوع فيه قال تعالى : ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ﴾^(٤)

(١) جند الله ثقافة وأخلاقا / سعيد حوى / ص ٧ / ط ٢ .

(٢) هموم داعية / محمد الغزالي / ص ١٢١ / ط ١ / دولة قطر .

(٣) الفقه الإسلامي آفاقه وتطوره / د . عباس حسنى محمد / ص ٢٢٧ /

وانظر سلسلة دعوة الحق العدد العاشر لعام ١٤٠٢ هـ محرم .

(٤) سورة المائدة آية ٥٠ .

وأن هذه القوانين الوضعية التي سادت العالم بما فيه الإسلامي تعدُّ من حكم
الجاهلية الذي لا خفاء فيه ومنافية للإيمان قال تعالى ﴿ فلا وربك لا يؤمنون
حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا
تسليما ﴾ (١)

هذه الحقيقة من المعلوم من الدين بالضرورة ويجب أن لا تغيب عن
الأذهان ولا تحتاج إلى دليل ، فكما أن الله تعالى هو الخالق لهذا الكون
فهو كذلك الأمر الناهي فيه وصاحب الحكم وإليه حق التشريع ﴿ ألا له الخلق
والأمر ﴾ (٢) ، وإن طاعته والالتزام بأمره من مظاهر العبودية له وحده ، وأى
خروج عن هذا يعدُّ استنكافا عن عبادته ومن ثمَّ فهو عبادة لما سواه من
الطواغيت والأوثان .

(ومن هنا فإن التحاكم إلى القوانين الوضعية من أقوال البشر عن
رضى وطواعية هو خلع لريقة الإسلام من الأعناق وخروج عن شريعة الديان) (٣)
والأدلة على وجوب تحكيم شريعة الله ، وتحريم الحكم بالقوانين الوضعية ،
وردة من يفعل ذلك وخروجه من الإسلام إلى الوثنية ، من الآيات القرآنية والأحاديث
النبوية وأقوال علماء الإسلام سلفهم وخلفهم من الكثرة بحيث يصعب حصرها
وهي كلها تنصُّ على أن الحاكمية لله وحده ولا يجوز لأمة رضيت بشريعة الله
قراءة ثلاثة عشر قرنا من الزمان أن تحيد عنها إلى ما سواها من الشرائع
الأرضية والقوانين الوضعية أياً كان مصدرها . (٤)

قال تعالى ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما
أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد
الشیطان أن يضلهم ضلالا بعيدا ، وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى
الرسول رأيت المنافين يصدون عك صدودا ﴾ (٥)
وقال تعالى ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ (٦)

-
- (١) سورة النساء آية ٦٥ . (٢) سورة الاعراف آية ٥٤ .
(٣) العقيدة وأثرها في بناء الجيل د . عبدالله عزام ص ١٢٣ .
(٤) انظر في هذا : الشريعة الإلهية لا القوانين الجاهلية . والاسلام
وأوضاعها القانونية / الشهيد عبد القادر عودة ص ٥٤-٦٢ / طبعة الاتحاد
الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ١٩٧٧ م .
والولاة والبراءة في الإسلام / محمد بن سعيد القحطاني ص ٢٩ - ٨٥ .
(٥) سورة النساء آية ٦٠ - ٦١ . (٦) سورة المائدة آية ٤٤ .

قال ابن القيم في هذه الآية (والصحيح أن الحكم بغير ما أنزل الله

يتناول الكافرين الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم فإن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة وعدل عنه ضيانا ، مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة فهو كافر أصغر ، وإن اعتقد أنه غير واجب وأنه مخير فيه مع تيقنه أنه حكم الله فهذا كفر أكبر (١)

وقوله تعالى في ذم أهل الكتاب ووصفهم بالشرك لخروجهم عن شريعة

الله : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله . . ﴾ (٢)

وقد فسرها الذي لا ينطق عن الهوى لعدى بن حاتم في قصة إسلامه

بقوله صلى الله عليه وسلم (ألم يحلوا لكم الحرام ويحرموا عليكم الحلال) (٣)

وسبقت فتوى شيخ الإسلام وابن كثير - رحمهما الله - في وجوب تحكيم

شريعة الله وتحريم التحاكم إلى غيرها من شرائع البشر وأحكام الطواغيت . (٤)

ومن هنا جاء قول أحمد شاعر : (إن الأمر في هذه القوانين الوضعية

واضح وضوح الشمس وهي كفر بواح لا خفاء فيه ولا مداراة ولا عذر لأحد ممن

ينتسب إلى الإسلام - كائنا من كان - في العمل بها أو الخضوع لها أو إقرارها

فليحذر أمروا لنفسه وكل امرئ حسب نفسه) (٥)

ويقول المرحوم سيد قطب (إن الذين يحكمون على عابد الوثن بالشرك

ولا يحكمون على التحاكم إلى الطواغيت بالشرك ، ويتخرجون من هذه ولا يتخرجون

من تلك ، إن هو لا يقرأون القرآن ولا يعرفون طبيعة هذا الدين ، فليقرأوا

القرآن كما أنزله وليأخذوا به بجد) (٦) قال تعالى ﴿ وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾ (٧)

ويقول القرضاوي ^{حفظه الله} - وهو من المهتمين بهذا الموضوع - : (ومن الشرك

الأكبر الذي يدق ويخفى أيضا على كثير من الناس ، اتخاذ غير الله شرعا أو ابتغاء

(١) مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ج١ ص ٢٢٦ ط ٢

(٢) سورة التوبة آية ٣١ .

(٣) سبق تخريجه .

(٤) انظر ص ٣٨٠

(٥) عمدة التفسير ج ٤ ص ١٢٤ .

(٦) في ظلال القرآن ج ٨ ص ٥٦ .

(٧) سورة الانعام آية ١٢١ .

غير الله حكما ، وبعبارة أخرى إعطاء بعض الناس لفرد أو جماعة حق التشريع المطلق لهم أو لغيرهم من البشر ، فيحلون لهم ويحرمون عليهم ما شاءوا ويشرعون لهم من الأنظمة والقوانين ، أو يضعون لهم من المناهج والأفكار ، ما لم يأذن به الله تعالى ، وما يصاد شرع الله سبحانه ، فيتبعهم الآخرون ويطيعونهم فيما شرعوا ووضعوا ، كأنه شرع إلهي ، أو حكم سماوي ، يطاع ولا يعصى ، فسي حين أن الذي له حق التشريع هو الله وحده ، فهو الذي خلقهم ورزقهم وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ، فمن حقه وحده أن يكلفهم ويأمرهم وينهاهم ويحل لهم ويحرم عليهم لأنه ربُّ الناس ، ملك الناس إله الناس وليس لأحد غيره من الربوبية والملك والألوهية ماله ، حتى يكون له سلطة الحكم والتشريع .

ومن أجل ذلك حكم القرآن الكريم على أهل الكتاب بالشرك وسماهم

مشركين لأنهم أعطوا أحبارهم ورهبانهم حق التشريع لهم ، فأطاعوهم فيما أحلوا لهم وما حرموا عليهم وما غيروا وبدلوا في أحكام دين الله .

قال تعالى ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ﴾ (١) .

وهذا هو الشرك الأكبر ، فكل من أطاع مخلوقا واتبعه على غير ما

(٢)

شرعه الله ورسوله فقد اتخذه ربا ومقصودا .

ويقول د . عبدالله عزام : ﴿ وعلى هذا فكل من رضي بالقوانين الأرضية

والشرائع القانونية التي شووها بخير إن من الله ، بل هي مصادمة للنصوص القرآنية

والنبوية أقول : كل من رضي بها أو تحاكم إليها غير مكره ، أو تدخل في تقنينها

أو إقرارها أو تنفيذها راضيا فهو من ينسحب عليه حكم الآية ويخرج بهذا العمل

(٣)

من دائرة الإيمان .

حفظه الله

ويقول د . محمد أبو فارس () والخلاصة أن القاعدة الأولى من قواعد

النظام السياسي في الإسلام تقرر أن على المسلم أن يعتقد أن الحاكم لله

تعالى ، لا يشارك فيها أحد ويجب على المسلم أن يتحاكم إلى شرع الله ،

ويحرم عليه أن يتحاكم إلى غير شرعة الله سبحانه ، بل عليه أن يرفض التحاكم إلى

القوانين الوضعية ، كما تقرر هذه القاعدة أن الذي يرفض حكم الله كافر ، والذي يرضى

(٤)

الحاكمية كافر والذي يتحاكم إلى الطاغوت برغبة وإرادة ورضى منه كافر .

(١) سورة التوبة آية ٣١ .

(٢) حقيقة التوحيد د . يوسف القرضاوي ص ٤٥ - ٤٨ ، ط ١ مكتبة وهبة .

(٣) العقيدة وأثرها في بناء الجيل ص ٨٤ .

(٤) النظام السياسي في الإسلام ص ٣٩ .

ومن هنا يتضح لنا الفهم الخاطي لبعض ما أثار من أقوال السلف في هذه المسألة عن جهل أحيانا وغير علم ، وعن علم وسوء قصد أحيانا أخرى ، وذلك أنه ورد عن ابن عباس رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ قوله إنه كفر دون كفر ، لا ينقل عن الملة ، وهو قول طاووس وعطاء^(١) .

وكذلك قول الإمام أحمد رحمه الله هو كفر لا ينقل عن الملة حتى يجي من ذلك أمرا لا يختلف فيه .^(٢)

وكذلك ما يفهم من كلام ابن القيم رحمه الله في كتاب الصلاة بأن من لم يحكم بما أنزل الله به كفر دون كفر بحيث لا ينقله من الملة^(٣) ، ولكنه رحمه الله قصد بكلامه الحاكم المسلم الملتزم للإسلام وشرائعه إذا خالف النص أو حاد عنه في قضية ما ، بخلاف من أدار ظهره لشريعة الله واحتكم للقوانين الوضعية الوثنية ، فإنه يعد مفارقا للإيمان ومرتدا إلى عبادة الأوثان .

ومن هنا فإن الصحابة ومن نهج نهجهم من علماء الأمة السابقين واللاحقين مبرأون عن الفهم السقيم الذي يروجّه أعداء الله ورسوله فسي هذه الأيام بخصوص جواز الاحتكام إلى القوانين البشرية الوضعية من فرنسية أو إنجليزية أو أمريكية تحت شعار الديمقراطية العلمانية ، أو روسية تحت شعار الاشتراكية الشيوعية .

وبذلك فإن التحليل والتحريم وسن الشرائع الباطلة واعتمادها بديلا عن شريعة الله بعد إقصائها عن الواقع ورميها بالجمود والتخلف والرجعية وعدم الصلاحية لمواكبة التقدم ومسايرة العصر ، وإن هذه القوانين والدساتير الوثنية أيسر منها وأصلح لهذا العصر من دون شريعة الله إن هذا كله يعتبر كفرا ظاهرا وشركا أكبر وردة إلى الوثنية من جديد .^(٤)

ومن هنا قال الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتي الديار السعودية ^{رحمه الله} : (إن من الكفر الأكبر المستبين تنزيل القانون للعين منزلة ما نزل به الروح الأمين على قلب محمد صلى الله عليه وسلم ليكون من المنذرين بلسان عربي مبين) .^(٥)

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١١١ .

(٢) انظر كتاب الصلاة ابن القيم ص ٢٥ - ٣١ ط ٢ المكتبة السلفية .

(٣) انظر الولاء والبراء ص ٦٧ .

(٤) انظر المرجع نفسه ص ٦٩ - ٧١ بتصرف .

(٥) تحكيم القوانين ، محمد بن إبراهيم آل الشيخ ص ١ طبع سنة ١٣٨٠ هـ

طريق العودة لتحكيم شريعة الله وترك شريعة الطواغيت .

لقد تسبب البعد عن الإسلام مثلا في عدم تطبيق شريعة الله بين خلقه وتنفيذ أحكامه عليهم ، واللجوء إلى القوانين الوضعية وجعلها أساس الحكم في كثير من دول العالم الإسلامي ، تسبب هذا في تكوين شعور من اليأس والقنوط عند بعض المسلمين لا سيما الذين تثقفوا منهم بثقافات غربية وثنية فأسرت عقولهم ، فصار عند البعض منهم شك وعند البعض وصل لدرجة اليقين في عدم صلاحية الشريعة الإسلامية لهذا العصر ، وإمكانية العودة لتطبيق الشريعة الإسلامية في مختلف نواحي الحياة من سياسية واقتصادية وفكرية وغير ذلك خصوصا وإن هذه المجالات قد فسدت وصارت أقرب إلى الوثنية منها إلى الإسلام الحقيقي .

ومن العجيب أن هذه السنوات القليلة التي هجرنا فيها شريعة الله واتبعنا الشرائع والدساتير الجاهلية الأوروبية كانت عظيمة الأثر على الأجيال المسلمة بحيث شككتهم في شرع الله الذي حكم ما يقارب ثلاثة عشر قرنا من الزمان من غير قصور ، وصار الكثير يتساءل هل نستطيع أن نواجه العالم المعاصر بما فيه من تطور هائل وتقدم كبير ؟ هل هذه الشريعة القديمة ما زالت صالحة للتطبيق ؟ هل بمقدورنا العودة إليها من جديد ؟

هذه التساؤلات وغيرها ترافقها في الوقت نفسه إجابة بالنفي وعدم إمكان تطبيق الشريعة الإلهية والعودة إلى دين الله .

هذه الحالة النفسية المثبطة ، وهذا الشعور القاتل قد سيطر على عقول الكثيرين من الكتاب والأدباء والمفكرين ورجال القانون وتعداه إلى بعض المنتسبين للأزهر وذلك لإحساس الجميع بالضعف والخور والهزيمة الداخلية أمام قوة الغرب الوثنية .

وفي الرد على هذه النظرة التشاؤمية التي تظهر من تساؤلات المنهزمين والمستعبدين للقوانين الوضعية الباطلة ، وتبيين الجواب الصحيح وتوضيح الطريق لعودة حكم الله وتطبيق شريعته في جميع دول العالم الإسلامي يقول القرضاوي : والجواب أن شريعتنا الخالدة قادرة على مواجهة التطور ومعالجة قضايا عصرنا وقيادة ركب الحياة من جديد على هدى من الله ومصيرة ، ولكن بشروط يجب توافرها وتحقيقها جميعا أبرزها ما يلي :

١ - العودة إلى الاجتهاد وفتح باب من جديد للمقارنين عليه والعودة إلى ما كان عليه سلف الأمة والتحرر من الالتزام المذهبي .
وليس معنى هذا أن نتخلّى عن تراثنا الفقهي ونطرح كل تلك المؤلفات بحجة أنها لا توافق العصر ، فهذا ما لا يقول به عاقل ، ولكن المراد أن نأخذ بعين الاعتبار تلك المذاهب والأقوال إلى جانب سعة الأفق في النظرة إلى مستجدات الأمور في حياتنا المعاصرة وننطلق من المفاهيم الواسعة لروح الكتاب والسنة وإجماع الأئمة في تحقيق مصلحة المجتمع ، وهذا يستلزم أن يكون الاجتهاد على شكل جماعي كعقد المؤتمرات والندوات والمجالس العلمية التي تجمع علماء الأمة البارزين بعيداً عن الاعتبارات السياسية والنزعات الجانبية ، وتخرج هذه الجهود بوضع أحكام فقهية جديدة تجمع بين المحافظة على الأسس والقواعد الشرعية وبين تلبية حاجات العصر وحل مشكلاته على ضوء التعاليم الشرعية عند ذلك نشعر بفناء الشريعة صلاحيتها لكل زمان ومكان ونشعر في الوقت نفسه أنها الأصل وأن كلّ التنظيمات والقوانين الوضعية خروج عن هذا الأصل .

٢ - أن يؤخذ الإسلام وحدة متكاملة من غير تجزئة .
والمقصود بهذا أن تكون تعاليم الإسلام هي الموجهة لكل نواحي الحياة والقاعدة لكل مؤسسات المجتمع ، فلا يكفي أن تأخذ المحاكم ببعض القوانين التشريعية الإسلامية وتهمل البعض الآخر ، كما لا يجوز أن تحكم المحاكم وحدها بالقوانين الإسلامية ، على حين أن أجهزة التربية والتعليم ووسائل الثقافة والإعلام توجهها أفكار غير إسلامية وقيم ومبادئ غير دينية .
ذلك أن تعاليم الإسلام كلّها لا يتجزأ . يستند بعضها بعضاً ، ويكمل أحدهما الآخر ، وأخذ بعضها دون بعض يعوق البعض الآخر فلسفه من إتياء ثمراته كاملة ، وربما أرهاق الناس من أمرهم عسراً .

فإقامة حدّ الزنا مثلاً يفترض وجود مجتمع مسلم ييسر طريق الزواج الحلال لمن أراد ، ويمدّ طريق الحرام في وجه من تحدّث به نفسه .
ومثل ذلك السرقة فلا يجوز في منطق العدل الإسلامي أن ننفذ أمر الله بقطع يد السارق أو المارقة جزاءً بما كسب ، ونهمل أمر الله بإيتاء الزكاة وإقامة التكامل الاجتماعي ومقاومة البطالة والتظالم بين الناس .
ومن عجيب المفارقات في أحوال دول العالم أنها تقف موقفاً معيناً

تجاه بعض الأمور المحرمة في حين أنها تتساهل في أمور لا تقل خطراً وضرراً بالدولة عن سابقتها ، ومن ذلك مثلاً موقف دول العالم - والإسلامية منها - تجاه مسألة المخدرات من مادة الحشيش والأفيون والهروين وغير ذلك ^(١) ، فسي حين أنك تجدها تبيح أو تسمح بتعاطي المسكرات وبيعها والإعلان والدعاية لها وفي مقدمة ذلك الخمر على اختلاف أصنافها وتسميتها بأسماء خادعة كقولهم المشروبات الروحية . أليست هذه المشروبات الروحية مخدرة ومفسدة من جميع النواحي ؟ .

ومن هنا فتطبيق أحكام الشريعة يجب أن يكون كلياً لا جزئياً مقصوراً على بعض الأحكام دون بعض .

ومن هنا يأتي قوله تعالى ﴿ أفنتون منون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون ﴾ ^(٢) .

وقوله تعالى ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴾ ^(٣) .

وبهذا تتضح لنا ضرورة تطبيق الشريعة وأخذها كلاً لا يتجزأ لأنها أصلاً لا تقبل التجزئة ، والمقصود بالشريعة هنا الإسلام كله عقائده وتصوراته وشعائره وعباداته ، وأفكاره وأخلاقه وقيمه ، وآدابه وتقاليده وقوانينه وتشريعاته . إن العقيدة الإسلامية لها أثرها في إحصان العبادة ، والعقيدة والعبادة لهما أثرهما في تكوين الأخلاق ، والأخلاق لها أثرها في حراسة التشريع ، والتشريع له أثره في حماية الدولة ورفقيها والدولة لها دورها في الحفاظ على العقائد والعبادات والأخلاق والتشريعات فكل هذه الأمور يؤثر بعضها في بعض ولا يستغنى بعضها عن بعض ، فلا بد من العناية بها جميعاً إذا أردنا أن نقيم حياة إسلامية متكاملة متوازنة كما أمر الله ، بدون ترقيع ولا تلفيق ببعض الجزئيات .

(١) يلاحظ أن محاربة المخدرات ليست دينية ولا من منطلق ديني .

(٢) سورة البقرة آية ٨٥ .

(٣) سورة المائدة آية ٤٩ .

٣ - التحرر من ضغط الواقع ومن التبعية لدول الشرك والوثنية .
إن الواقع الوثني المنحرف عن دين الله والمجاني له الذي يقع
العالم الإسلامي تحت تأثيره وضغطه في شتى مجالات الحياة ليس قدرا محتوما
يجب على الدول الإسلامية أن تقبله وتخضع له بالتسليم والطاعة والذل والانقياد
كما هو مشاهد على كثير من المسلمين .
هذا الواقع هو مجرد أثر من آثار الضعف والانحراف الذي أصاب الأمة
الإسلامية في العهود الأخيرة بضغط من الغزو الصليبي عسكريا وفكريا بأساليبه
النوعيّة وخطته المدبرة ، وتأثير بعض العوامل الداخلية في العالم الإسلامي
نفسه .

وبالرغم من أنه لا يوجد في العالم الإسلامي ما يجبر استمرار هذا الواقع
المحاد لدين الله بالمقارنة مع العالم الأوروبي النصراني الذي لم ينعم بتطبيق
الشريعة الربانية في يوم ما ، ولم يعرف العدل الإلهي ، ولم يعرف إلا ظلم
الإقطاع وطفيان الكنيسة ورجال الدين . وانحرافاتهم الأخلاقية ، ومن ثم لم
يعرف إلا الحياة الجاهلية والشرايع الوثنية المادية . بالرغم من كل هذا فإن
دول العالم الإسلامي قد اندفعت في التيار المادي من غير هواده ولا نظر ،
وأيقنت أن خلاصها وتقدمها وتطورها لا يكون إلا بالرضى والعتابعة لهذا
الواقع الجاهلي في كل مظهره أو أكثرها على الأقل .

ولهذا فلا بدّ من عودة الثقة بالنفس ومراجعة الأمور والتحرر من
ضغط هذا الواقع الخادع ، وسحب الثقة المطلقة منه ومن جميع المصادر
الوثنية التي يرتكز عليها ، وذلك لا يتم إلا بالتحرر من التبعية لدول الشرك
والوثنية والإلحاد سواء في الغرب أم في الشرق تحررا كاملا ، بغض النظر
عن مقدار الخسارة الوهمية التي يصوّرها ويتصورها المنهزمون من أبناء الإسلام
أمام قوة تلك الدول المادية . (١)

وفي رأيي أن الدول العربية تتحمل معظم المسوءولية ، لأنها كما
كانت في الأصل منطلق الدعوة في سبيل الله وحاملة الراية لنشر دين الله
والمنفذة الأولى لشريعة الله ، فهي ما زالت محط أنظار العالم الإسلامي

(١) راجع هذه الشروط بتوسع في كتاب شريعة الإسلام د . يوسف القرضاوي

أجمع ، إليها تهفو القلوب وتتطلع الأنفذة بأن تعود مرة أخرى لحمل شعلة
الإسلام وإعلاء دين الله والالتزام بأحكامه وشرائعه ، وما هي إلا خطوة واحدة
على الدرب مع عقد العزم والتصميم وعندها فلن يتخلى الله تعالى عنا .
وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله
ينصركم ويثبت أقدامكم . والذين كفروا فتعسا لهم وأضلّ أعمالهم ذلك
بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم ﴾ (١) .

(١) سورة محمد آية ٧ - ٩ .

ثانيا - الدعوة لتحديد النسل .

إن الأفكار الوثنية الحديثة ، والمذاهب المادية الغربية قد شملت مختلف نواحي الحياة ، وقلت بأن عدواها قد تجاوزت حدود الغنشا الأصلي إلى عقول أبناء الأمم والدول الأخرى ، وكان المسلمون في مختلف أصقاع العالم الإسلامي ممن أصيبوا بأمراضها . وخضعوا لتأثيرها ، هل كان التركيز على الدول الإسلامية أشد من غيرها لتطويعها وإرغامها على قبول كل ما تفرزه الدول الغربية من أفكار ومبادئ مناقضة للدين وقواعد الأخلاق بهدف إبعادها عن مصدر قوتها وعزلها عن دينها ليسهل أخيرا القضاء عليها أو تسييرها والسيطرة عليها في أقل تقدير ، وتبين فيما سبق أن المسلمين قد وصلوا لدرجة العبودية الفكرية لتلك الدول الوثنية ، بحيث أصبحوا على استعداد لتقبل كل ما يصدر عنها وتقليدها في كل شيء في مظاهر اللباس وطريقة الأكل وطريقة التفكير ، ومماثلتها في كل سفاسف الأمور ومحقرات الأشياء .

وقد وقعت كثير من الدول الإسلامية في القرن العشرين الميلادي تحت تأثير فكرة وثنية غربية دعا إليها بعض المفكرين الغربيين عرفت بتحديد النسل أو ضبط النسل وأحيانا بتنظيم النسل^(١) وهي ألفاظ مترادفة في حقيقة الأمر مؤداها تقليل الناس ، وإن ادعى مرؤجوها غير ذلك .

هذه الفكرة تدعو إلى الحد من التناسل والتوالد بأعداد كبيرة بحجة ضرورة التوافق بين عدد السكان في العالم والغذاء المطلوب خوفا من وقوع مجاعة عالمية تؤدي بحياة البشرية .

نشأت هذه الفكرة - كما يذكر الباحثون - في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، على يد القسيس البريطاني والعالم الاقتصادي (مالثوس) حيث إنه قد نشر في عام ١٧٩٨م مقالا بعنوان : (تزايد السكان وتأثيره في تقدم المجتمع في المستقبل) ذكر فيه أن وسائل الانتاج وأسباب الرزق في الأرض محدودة ، في حين أن البشرية تتكاثر بطريقة غير معقولة ولا محدودة ، وأنه إذا ترك الأمر بدون تنسيق وتدابير فإنه سيأتي يوم تضيق الأرض بمن عليها ولا يجدون من الغذاء ما يكفيهم (٣) .

(١) انظر تنظيم الأسرة وتنظيم النسل ، الإمام محمد أبو زهرة ص ٩٣ دار الفكر العربي القاهرة .

(٢) يرى البعض أنها امتداد للفكرة الإغريقية التي بدأها إفلاطون وغيره -

انظر النسل والعناية به / صر رضا كحالة / ط ٢ / ص ١١٢ .

(٣) انظر حركة تحديد النسل - أبو الأعلى المودودي ص ٤ طبعة ١٩٨٢م

وبعد (مالثوس) ظهر في فرنسا (فرنسيس بلاس) ودها لتأييد
الفكرة والحد من تزايد السكان ، وفي عام ١٨٣٣ م ظهر في أمريكا طبيب شهير
هو (تشارلس نوروتون) يؤكد على أهمية تحديد النسل ويشيد بذكر المنافع
الاقتصادية له ، وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي ازدادت الدعوة
انتشارا ولاقت رواجاً حتى شملت جميع الدول الأوروبية ، وأنشئت الجمعيات
وكشفت الجهود لإقناع الناس بمنع الحمل وقلة التناسل وتأخير سن الزواج
واستعمال موانع الحمل المختلفة التي صنعت خصيصاً لهذه الغاية (١) .
وكان وراء نجاح هذه الدعوة ورواجها بشكل غريب في أوروبا عدة أسباب
أشار إليها المودودي - رحمه الله - في كتابه حركة تحديد النسل (٢) . وفي رأيي
أن أهم سبب في نجاحها هو انقطاع صلة أوروبا بالدين والأخلاق في وقت مبكر
من النهضة الأوروبية الحديثة - كما يسمونها - ، وربطها بالأسباب المادية
المجردة ، أو بكلمة أخرى هي الوثنية الحديثة التي ارتدت إليها أوروبا .
وقد اتفق رأي دعاة تحديد النسل والمبشرين به - كما بناه مالثوس -
على أن عدد السكان في العالم يزداد بحتالية هندسية حسب الأرقام : ١ ، ٢ ، ٤ ،
٨ ، ١٦ ، ٣٢ ، ٦٤ ، ١٢٨ ، ٢٥٦ ، ٥١٢ ، ١٠٢٤ ، ٢٠٤٨ ، ٤٠٩٦ ، ٨١٩٢ ،
١٦٣٨٤ ، ٣٢٧٦٨ ، ٦٥٥٣٦ ، ١٣١٠٧٢ ، ٢٦٢١٤٤ ، ٥٢٤٢٨٨ ، ١٠٤٨٥٧٦ ،
٢٠٩٧١٥٢ ، ٤١٩٤٣٠٤ ، ٨٣٨٨٦٠٨ ، ١٦٧٧٧٢١٦ ، ٣٣٥٥٤٤٣٢ ، ٦٧١٠٨٨٦٤ ،
١٣٤٢١٧٢٨ ، ٢٦٨٤٣٤٥٦ ، ٥٣٦٨٦٩١٢ ، ١٠٧٣٧٣٨٢٤ ، ٢١٤٧٤٧٦٤٨ ،
٤٢٩٤٩٥٢٩٦ ، ٨٥٨٩٩٠٥٩٢ ، ١٧١٧٩٨١٨٤ ، ٣٤٣٥٩٦٣٦٨ ، ٦٨٧١٩٢٧٣٦ ،
١٣٧٤٣٨٤٧٢ ، ٢٧٤٨٧٦٨٤٤ ، ٥٤٩٧٥٣٦٨٨ ، ١٠٩٩٥٠٧٣٧٦ ، ٢١٩٩٠١٤٧٥٢ ،
٤٣٩٨٠٢٩٥٠٤ ، ٨٧٩٦٠٥٩٠٠٨ ، ١٧٥٩٢١١٨٠١٦ ، ٣٥١٨٤٢٣٦٠٣٢ ، ٧٠٣٦٨٤٧٢٠٦٤ ،
١٤٠٧٣٦٨٤٤٢٨ ، ٢٨١٤٧٣٦٨٨٥٦ ، ٥٦٢٩٤٧٣٧٧١٢ ، ١١٢٥٨٩٤٧٥٤٢٤ ،
٢٢٥١٧٨٩٤٨٤٨ ، ٤٥٠٣٥٧٨٩٧٦٩٦ ، ٩٠٠٧١٥٧٩٥٣٣٢ ، ١٨٠١٤٣١٩٠٦٦٤ ،
٣٦٠٢٨٦٣٨١٢٨ ، ٧٢٠٥٧٢٧٦٢٥٦ ، ١٤٤١١٤٥٥٣١٢ ، ٢٨٨٢٢٩١٠٦٢٤ ،
٥٧٦٤٥٨٢١٢٤٨ ، ١١٥٢٩١٦٢٤٩٦ ، ٢٣٠٥٨٣٢٤٩١٢ ، ٤٦١١٦٦٤٩٨٢٤ ،
٩٢٢٣٣٢٩٧٦٤٨ ، ١٨٤٤٦٦٥٩٥٣٦ ، ٣٦٨٩٣٣١٩١٥٢ ، ٧٣٧٨٦٦٣٨٣٠٤ ،
١٤٧٥٧٣٢٧٦٦٠٨ ، ٢٩٥١٤٦٥٥٣٣١٦ ، ٥٩٠٢٩٣١٠٦٦٣٢ ، ١١٨٠٥٨٦٢١٢٦٤ ،
٢٣٦١١٧٢٤٢٤٩٦ ، ٤٧٢٢٣٤٤٨٤٩١٢ ، ٩٤٤٤٦٨٩٧٨٢٢٤ ، ١٨٨٨٩٣٧٥٥٦٤٨ ،
٣٧٧٧٨٧٥١١٣٦ ، ٧٥٥٥٧٥٠٢٢٧٢ ، ١٥١١١٥٠٤٥٤٤٤ ، ٣٠٢٢٣٠٩٠٨٨٨ ،
٦٠٤٤٦١٨١٧٧٦ ، ١٢٠٨٩٢٣٣٥٥٢ ، ٢٤١٧٨٤٦٧١٠٤ ، ٤٨٣٥٦٩٣٤٢٠٨ ،
٩٦٧١٣٨٦٨٤١٦ ، ١٩٣٤٢٧٣٦٨٤٣٢ ، ٣٨٦٨٥٤٧٣٦٨٤٦٤ ، ٧٧٣٧٠٩٤٧٣٦٩٢٨ ،
١٥٤٧٤١٨٩٤٧٣٦٨٤٦٤ ، ٣٠٩٤٨٣٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٦١٨٩٦٧٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ،
١٢٣٧٩٣٥١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٢٤٧٥٨٧٠٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٤٩٥١٧٤٠٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ،
٩٩٠٣٤٨١٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ١٩٨٠٦٩٢٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٣٩٦١٣٨٥٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ،
٧٩٢٢٧٧٠١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ١٥٨٤٥٤٠٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٣١٦٩٠٨٠٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ،
٦٣٣٨١٦٠٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ١٢٦٧٦٣١٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٢٥٣٥٢٦٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ،
٥٠٧٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ١٠١٤١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٢٠٢٨٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ،
٤٠٥٦٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٨١١٢٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ١٦٢٢٥٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ،
٣٢٤٥١٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٦٤٩٠٢٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ١٢٩٨٠٥٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ،
٢٥٩٦١٠٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٥١٩٢٢١٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ١٠٣٨٤٣٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ،
٢٠٧٦٨٧٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٤١٥٣٧٥١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٨٣٠٧٥٠٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ،
١٦٦١٥٠٠٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٣٣٢٣٠٠١٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٦٦٤٦٠٠٢٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ،
١٣٢٩٢٠٠٥٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٢٦٥٨٤٠٠١٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٥٣١٦٨٠٠٢٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ،
١٠٦٣٣٦٠٠٤٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٢١٢٦٧٢٠٠٨٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٤٢٥٣٤٤٠٠١٦٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ،
٨٥٠٦٨٨٠٠٣٢٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ١٧٠١٣٧٦٠٠٦٤٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٣٤٠٢٧٥٢٠١٢٨٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ،
٦٨٠٥٥٠٤٠٢٥٦٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ١٣٦١١٠٠٨٠٥١١٢٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٢٧٢٢٢٠٠١٦٠٢٢٤٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ،
٥٤٤٤٤٠٠٣٢٠٤٤٨٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ١٠٨٨٨٠٠٦٤٠٨٩٦٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٢١٧٧٦٠٠١٢٨١٧٩٢٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ،
٤٣٥٥٢٠٠٢٥٦٣٥٨٣٦٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٨٧١٠٤٠٠٥١٢٧١٦٧٢٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ١٧٤٢٠٨٠٠١٠٢٥٣٣٤٤٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ،
٣٤٨٤١٦٠٠٢٠٥٠٦٦٨٦٨٨٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٦٩٦٨٣٢٠٠٤١٠١٣٧٣٧٦٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ١٣٩٣٦٦٠٠٨٢٠٢٧٤٧٥٢٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ،
٢٧٨٧٣٢٠٠١٦٤٠٥٤٩٥٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٥٥٧٤٦٤٠٠٣٢٨١٠٩١٩٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ١١١٤٩٢٨٠٠٦٥٦٢١٨٣٨٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٢٢٢٩٨٥٦٠٠١٣١٢٣٧٦٦٤٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٤٤٥٩٧١٢٠٠٢٦٢٤٧٥٣٢٨٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٨٩١٩٤٢٤٠٠٥٢٤٩٥٠٦٤٤٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ١٧٨٣٨٨٤٨٠٠١٠٤٩٩٠١٢٨٨٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٣٥٦٧٧٦٩٦٠٠٢٠٩٩٨٠٢٥٧٦٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٧١٣٥٥٣٩٢٠٠٤١٩٩٦٠٤١٥٢٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ١٤٢٧١٠٧٨٤٠٠٨٣٩٩٢٠٨٣٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٢٨٥٤٢١٥٦٨٠٠١٦٧٩٨٤٠١٦٦٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٥٧٠٨٤٣١٣٦٠٠٣٣٥٩٦٨٠٣٣٢٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ١١٤١٦٨٦٣٢٠٠٦٧١٩٣٦٠٦٦٤٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٢٢٨٣٣٧٢٦٤٠٠١٣٤٣٨٧٢٠١٣٢٨٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٤٥٦٦٧٤٥٢٨٠٠٢٦٨٧٧٤٠٢٦٥٦٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٩١٣٣٤٩٠٥٦٠٠٥٣٧٥٤٨٠٥٣١٢٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ١٨٢٦٦٩٨١١٢٠٠١٠٧٥٠٩٦٠١٠٦٢٤٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٣٦٥٣٣٩٦٢٤٠٠٢١٥٠١٩٢٠٢١٢٤٨٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٧٣٠٦٧٩٢٤٨٠٠٤٣٠٣٨٤٠٤٢٤٩٦٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ١٤٦١٣٥٦٩٦٠٠٨٦٠٧٦٨٠٨٤٩٩٢٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٢٩٢٢٧١٣٩٢٠٠١٧٢١٥٣٦٠١٧٠٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٥٨٤٥٤٢٧٨٤٠٠٣٤٤٣٠٧٢٠٣٤٠٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ١١٦٩٠٨٥٦٨٠٠٦٨٨٦١٤٤٠٦٨٠٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٢٣٣٨١٧١٣٦٠٠١٣٧٧٢٢٨٠١٣٦٠٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٤٦٧٦٣٤٢٧٢٠٠٢٧٥٤٤٥٦٠٢٧٢٠٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٩٣٥٢٦٨٥٤٤٠٠٥٥٠٩١١٢٠٥٥٤٠٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ١٨٧٠٥٣٦٨٨٠٠١١٠١٨٢٢٤٠١١٠٨٠٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٣٧٤١٠٧٣٧٦٠٠٢٢٠٣٦٤٤٠٢٢١٦٠٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٧٤٨٢١٤٧٥٢٠٠٤٤٠٧٢٨٨٠٤٤٣٢٠٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ١٤٩٦٤٣٥٠٠٨٨١٤٤٦٤٠٨٨٦٤٠٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٢٩٩٢٨٧٠٠١٧٦٢٨٩٢٠١٧٦٤٠٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٥٩٨٥٧٤٠٠٣٥٢٥٧٨٤٠٣٥٢٨٠٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ١١٩٧١٤٠٠٧٠٥١٥٦٨٠٧٠٤٠٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٢٣٩٤٢٨٠٠١٤٠٩٢٣٦٠١٤٠٨٠٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٤٧٨٨٥٦٠٠٢٨١٨٤٦٤٠٢٨١٦٠٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٩٥٧٧١٢٠٠٥٦٣٦٩٢٠٥٦٣٢٠٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ١٩١٥٤٢٤٠٠١١٢٧٣٨٤٠١١٢٦٤٠٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٣٨٣٠٨٤٨٠٠٢٢٥٤٦٧٢٠٢٢٥٣٠٠٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٧٣٣٦٨٤٢١٠٥٢٦٣١٥٧٨٩٤٧٣٦٩٢٨ ، ٧٦٦١

وهذا ما دفع (تاد فيشر) أن يقول : (إذا لم يبادر الإنسان إلى استعمال قواه العقلية لكبح جماح النعوالسكتي فسوف تضطلع قوى الطبيعة بهذا العمل نيابة عنه ، إذ ليس بمقدور أي نوع أن يبقى على قيد الحياة إذا تجاوز إمكانيات الموارد المتاحة له . . وعلى أي حال فالوقت لا يزال طويلا قبل أن نصل إلى الحد الذي تنزل فيه الطبيعة العقاب علينا .^(١) ولعله من هنا جاء قول " هوأيت ستيفنز " أحد خبراء علم الاجتماع^(٢) : (إن يوم القيامة سيوافق ١٣ / ١١ / ٢٠٢٦ م لأن المجاعة العالمية فسي هذا اليوم ستقتضى على الجميع) .^(٣)

وهكذا يتبين لنا المبدأ الوثني الذي انطلق منه دعاة تحديد النسل ومنع الحمل ومحااربة الإنجاب ومصادمة أصل الفطرة البشرية التي تعيل إلى التزاوج والتوالد والتكاثر ، معتمدين على تكهنات غير واقعية ومبررات لا دينية كاذبة ، متذرعين بالفيرة على مصلحة البشرية والعطف عليها والاهتمام بها . وكأنهم قد اطلعوا على الغيب وكشفوا الحجب وأسرار الكون . إن الإلحاد وعدم الإيمان بالله وعدم التوكل عليه وعدم الاعتقاد به خالقا ورازقا ومتكفلا لكل ما في هذا الكون ، تدفع الإنسان دائما إلى الاعتماد على ما بين يديه من الأسباب المادية المتاحة له فقط ، ويتجاهل أن هناك قوة عليا من وراء هذه الأسباب تنظمها وتوجهها حسب إرادتها . وبالتالي يستعبد نفسه لها من دون الله ، أو بالأحرى تستعبده هي من دون الله وتسيطر عليه وتوجه حياته وتحكم جميع تصرفاته .

ومن دواعي الاستبشار ودوافع الإيمان بالله لغير المؤمنيين وزيادات ضد المؤمنيين ، انكشاف زيف هذه الدعوى وظهور بطلانها بدلالة النتائج الوخيمة التي ترتبت عليها ، وأرقام الإحصائيات التي أجراها الأحناف بعد انقراض الاجداد الذين زرعوها الرعب في قلوب الأجيال البشرية من بعدهم ، فجاءت هذه الإحصائيات والدراسات لتعيد الثقة إلى النفوس وتذهب عنها الرعب والخوف من التوالد والتناسل غير المحدود ، ليعر هذا فحسب بل جاءت التوصيات

(١) عالمنا المزدحم / تاد فيشر / ترجمة حسين أحمد العليبي / ص ٢٥٣ ،

٢٥٤ / الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٢) نقلا عن قذاغ الحق - محمد الفزالي ص ١٩٥ منشورات المكتبة المصرية

ببيروت صيدا .

(٣) خلق الشيخ الفزالي على هذا القول بقوله : هكذا يقول الدكتور الألمعي

بعد حساب وفق قواعد علم الاجتماع لا قواعد علم التنجيم !

والنصائح تحدث الناس على الزواج وكثرة الإنجاب ، وأنه لا ارتباط بين زيادة عدد السكان في العالم وكمية الغذاء^(١) .

وصدق الله العظيم ﴿ قل أن أنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في

يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين *^(٢)

نقد تبيّن أن كمية الغذاء كافية وستوفرة لضيف سكان العالم ولا يحتاج

الأمر إلا لمضاعفة الإنتاج بطرق علمية حديثة واستغلال أكبر مساحة ممكنة من

الأراضي الزراعية في العالم ، وتوجيه الصناعة ، وتسخير الأموال التي تنفق

في مجالات جانبية متعددة لتوفير الغذاء اللازم للناس فهم بحاجة إلى

رغيف الخبز وكأس الماء أكثر من حاجتهم لأقراص منع الحمل وعمليات هتك

الأعراض وتشويه فطرة الله التي فطر الناس عليها .

ليس هذا فحسب بل لقد ثبت العكس ، أن الوضع الاقتصادي وإنتاج

الغذاء يضعف مستواه ويقلّ توفره تبعاً لقلّة الأيدي العاملة وأن كثيراً من

الدول الأوروبية التي طبّقت نظام " قطع الذرية " بدأت تحتاج إلى آلاف من

الأيدي العاملة الأجنبية لتعويض النقص في الطاقة البشرية الوطنية ، وكانت

خسارتها في جميع الأحوال كبيرة .

ومن هنا فإنني أستطيع القول بأن ارتفاع عدد السكان في بلد ما يعمل

على تحسين الوضع الاقتصادي ، إذا توفرت الرعاية الصحية والطبية والترهية السليمة

فإن ذلك يؤدي حتماً إلى حسن استغلال موارد الطبيعة ، وتسخيرها لخدمة

البشرية ، وإن تحديد النسل أو قطع الذرية يؤدي إلى شلل الناحية الاقتصادية

أولاً ويلحق أضراراً بالغة ببقية نواحي الحياة .

وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿ قد خسروا الذين قتلوا أولادهم سفها

بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراءً على الله *^(٣)

وقوله سبحانه وتعالى ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم

وإيتاكم ، إن قتلهم كان خطئاً كبيراً *^(٤)

(١) للاطلاع على هذه الاحصائيات والتوصيات وأقوال المختصين والمهتمين بهذه المسألة من الغربيين أنفسهم . انظر كتاب تحديد النسل للمودودي ص ١٥ - ٦٣ ، ١٠٠ - ١٢٨ . وكتاب المرأة بين الفقه والقانون ، د . مصطفى السباعي ص ٣٢٥ ط ٥ المكتب الإسلامي .

(٢) سورة فصلت آية ٩ - ١٠ .

(٣) سورة الانعام آية ١٤٠ . (٤) سورة الاسراء آية ٣١ .

وإنما كان الملحدون لا يذنون لقول العليم الخبير الذي يقطع قول كلِّ قائل فعليهم مراجعة قوائم الإحصائيات التي أجراها الباحثون من بني جنسهم وأتباع عقيدتهم الوثنية ، ليعلموا جهل وغباؤه وغفلة الذين يقولون بأن زيادة السكان ستحدث مجاعة عالمية تكون على يدها النهاية .
ونعود قليلا إلى الوراثة والذات إلى الجاهلية العربية قبل الإسلام كمونج لجاهليات التاريخ القديم - مع بعض الفوارق - لنرى كيف التقت معها الوثنية الأوروبية الحديثة في فكرة تحديد النسل وقتل الأولاد مع بعض الفوارق كذلك .

من المعلوم عند المؤرخين وكتاب السيرة النبوية أن عرب الجاهلية بعد أن انقطعت صلتهم برسالة السماء وديانة التوحيد التي جاء بها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، قد طغت عليهم الوثنية وغلبت عليهم النظرة المادية فكانوا ينظرون لمسألة الغذاء وربطها بكثرة الأولاد كما هي نظرة وثني العصر الحديث ولكن بفارق في الصورة والأسلوب ووحدة في الهدف والمبدأ الذي يرتكزون إليه .

فبعدُ هو لا وأولئك عن عبادة الله وحده وعدم الركون إليه والتصديق بكونه هو الرازق والمدبر لكلِّ ما في هذا الكون في العاجل والآجل جعلهم ينحون المنحنى نفسه ويسلكون المسلك ذاته .

فوثنيو العرب في الجاهلية كانوا يقدمون على جريمة قتل أولادهم بعد ولادتهم ، وكانت العقلية الوثنية تبرر لهم هذا المنكر وتحبب إليهم هذا الفعل البغيض ، فقتل الذكور كان خشية الفقر والجوع ووأد البنات خوفا من العار الذي قد تلحقه البنت بقومها ، بالإضافة إلى خشية الفجوة ذات اليد ، وقد يكون أحيانا طاعة للكهان وسدنة الأوثان ، كما قال تعالى ﴿ وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليرثوهم وليلبسوا عليهم دينهم ﴾ . (١)

قال قتادة : (هذا صنع الجاهلية كان أحدهم يقتل ابنته مخافة السباء والفاقة ويخذوكلبه .) (٢)

(١) سورة الانعام آية ١٣٢ .

(٢) تفسير الطبري ج ١٢ ص ١٥٤ طبعة أحمد شاکر .

وهو صنع دعاة تحديد النسل اليوم يقتلون (١) أبناءهم - ذكورا وإناثا - طاعة واتباعا لشركائهم ويغذون كلابهم وقططهم ويتكلمون في سبيلها نفقات باهظة قد تزيد على ما ينفق على الفرد في العالم النامي والدول الفقيرة . وهكذا تلتقي الوثنيات على وحدة الأفكار والعباد^٢ والقيم والمعايير ولا تختلف إلا في الصورة والقشرة الخارجية المناسبة لكل عصر .
والآن ننتقل إلى مرحلة جديدة من مراحل الدعوة لتحديد النسل ، وهي مرحلة انتقال عدواها إلى العالم الإسلامي بشكل عام وانتشارها ورواجها في كثير من الدول الإسلامية ذات الكثافة السكانية العالية كالهند وباكستان ومصر وتركيا وتونس وغيرها . (٣)

إن هذه الدعوة قد نشأت وترعرعت في الدول الغربية العادية ، ثم شاخت فيها وهرمت وأوشكت على الانتها^٤ - أو على الأقل انكشف زيفها وظهر بطلانها وازداد الإحساس بخطورها على حياة كافة الدول الأوروبية صغيرها وكبيرها - وهي ما زالت في أرض نشأتها وبين أقوام دعائها ومنشئها ، والعالم الإسلامي بعيد عنها معاني من بلواها ، ولم تجد لها طريقا إليه ، وذلك بتأثير ما بقي من آثار عقيدة التوحيد في نفوس أبناء العالم الإسلامي والتي من مبادئها الأساسية أن قضية الرزق أمر مفروغ منه لأن الله سبحانه وتعالى الذي خلق الخلق قد تكفل برزقهم وضمن لهم معاشهم ما داموا في طاعته وعبادته وما عليهم إلا أن يسلكوا الأسباب ويجتهدوا في الطلب متوكلين عليه .
قال تعالى ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ﴾ . (٤)

(١) تحديد النسل يختلف في أسلوب القضاء على الذرية عن عرب الجاهلية

البشع والذي يقوم على إزهاق الأرواح الحية ، في حين أن تحديد النسل يعتبر طريقة أخفى وأسهل لأنه يقطع أسباب التوالد قبل حصول الحمل فضلا عن الولادة إلا في مسألة الإجهاض وهي محدودة .

(٢) راجع العلاقة بين الوثنيين . ص ٩٠٩

(٣) راجع كتاب الدين وتنظيم الأسرة / أحمد الشرباصي .

وراجع كتاب تنظيم النسل / عبد المجيد رزق الله ، الشركة القومية للنشر والتوزيع / تونس .

(٤) سورة هود آية ٦ .

بقيت هذه المفاهيم موجّهة لحياة المسلمين إلى أن عظم الإعجاب وقوى الانبهار بحضارة أوروبا وأفكارها العلمانية ومذاهبها المادية ، واكتملت العبودية الفكرية للغرب وتمكّنت في النفوس من جراء الغزو الفكري والتخطيط الدؤوب لهدم الإسلام والقضاء على ثقل الكنيسة الإسلامية التي يعتبرها الغرب أعظم خطر يهدد كيانه ويحدّ من سلطانه ويؤثر على استمرار قيادته للعالم .

هنا تهيأ العالم الإسلامي واستعدت الشعوب الإسلامية - بعد ضعف صلتها بالله - لتقبل هذه الفكرة الخبيثة والدعوة السامة ضمن غيرها من الأفكار والمذاهب والدعوات الإتحادية الأوروبية ، وبدأت الدائرة تدور على النطف المسلمة للحيلولة دون تكونها وولادتها والقضاء عليها في مهدها قبل أن ترى النور وهي أيسر وسيلة على الصليبيين أن يستخدموها لقتل ذرياتها وإزهاق أرواحها ، وفيها تكون نهاية الأمة الإسلامية وعندها تستطيع الدول الغربية أن تحتفظ بسيادتها وقيادتها للعالم أجمع .^(١)

يقول محمد إقبال^{رحمه الله} : (وكل ما هو واقع اليوم أو هو على وشك الوقوع في القدر القريب في بلادنا ، إنّه هو إلا من آثار دعاية أوروبا . هناك سيل عرم من الكتب والوسائل الأخرى قد انجرف في بلادنا لدعوة الناس إلى اتباع خطة منع الحمل وتشويقهم إلى قبول حركتها ، على حين أن أهل الغرب في بلادهم أنفسهم يتابعون الجهود الغنية لرفع نسبة المواليد وزيادة عدد السكان ، ومن أهم أسباب هذه الحركة عندي أن عدد السكان في أوروبا في تدهور شديد وتناقص مطرد بناءً على الظروف التي ما خلقتها أوروبا إلا بنفسها ، وقد استعصى عليها اليوم أن توجد لها حلاً مُرضياً ، وأن عدد السكان في بلاد الشرق على العكس من هذا في زيادة مطردة فهذا ما ترى فيه أوروبا خطراً مخيفاً على كيانها السياسي) .^(٢)

ومن هنا كان الحل الوحيد أن يلقيها في روع المسلمين ، ويرموهم بها ويخرجوا من عواقبها سالمين ، وتبقى السيطرة والقيادة والغلبة والمتعة والراحة التامة والعيش الرغيد حكراً على الرجل الأبيض من دون جنس الملونين ،^(٣)

(١) انظر مستقبل الإسلام / د . محمد البهي / ص ١١٠

(٢) نقلا عن الملحق الثاني بتحديد النسل / للمودودي ص ١٨٥ /

للأستاذ خورشيد أحمد / بجامعة كراتشي .

(٣) انظر قذافي الحق / محمد الغزالي ص ١٩٥ .

وقديما قال العرب في أمثالهم (رمتني بدائها وانسلت) (١) ولقيت الفكرة رواجاً في كثير من الدول الإسلامية، واستقبلتها الفئة المستفربة من أبناء المسلمين واستبشرت بها لأنها - فقط - جاءت عن طريق الغرب القدوة والمثل الذي يحتذى، وأعمالها التقليد الأعمى عن كلِّ النتائج الفظيعة التي جنتها أوروبا من جراء هذه الدعوة الوثنية، بل لقد عميت هذه الفئة عن تعاليم دينها وأساليب الظن بخالفها، فاتخذتها على أنها حقيقة مسلمة جربت وطبقت على الدول المتقدمة والشعوب المتحضرة، واستعدت الألسن والأقلام وسائر وسائل الإعلام لنشرها والدعوة إليها بين المسلمين وإقناعهم بها، وركزت عليها تركيزاً قوياً بهشتي وسائل الإقناع، واختلقت لها المبررات، وأضفت عليها صفة شرعية مقبولة عند عامة الناس، وربطوها بفكرة العزل التي كانت معروفة لدى المسلمين، واتمست لها بعض الأحاديث النبوية الشريفة (٢) وفسرتها تفسيراً يوافق مرادها وطوعتها تطويها يقنع المنج وقليل الثقافة الدينية وهم كثر بسبب البعد عن حقيقة الإسلام وغربة مفاهيمه ومبادئه بين أهله، وأغفلت في المقابل تلك الآيات القرآنية التي تدلُّ على أن الرزق بيد الله وهو الذي خلق الخلق وقدر لهم أرزاقهم وأقواتهم، وتجاهلت الأحاديث النبوية الشريفة التي تحضُّ على الزواج وكثرة النسل وغير ذلك (٣) وتتبع الرخص الفردية والقضايا الشخصية المحدودة بسبب مرض أو ضرر يلحق بالزوجة مثلاً أو بالأولاد أو بالزوج (٤)، وجعلتها قانوناً عاماً وقاعدة كلية ونتج عنها ضرورة تحديد النسل ومنع الحمل والحدِّ الجماعي من التوالد، وخلطت بين ما يمكن أن يكون مقبولاً - في حالات معينة - في الشرع وهو تنظيم النسل، الذي يعني اختصار انجاب الذرية بحيث لا يأتي النسل إلا وفق نظام مرتب ومنسق (٥)، ويكون هناك فاصل زمني بين كلِّ مولود وآخر، وذلك كأن يستغرق المولود فترة الرضاع كاملة (٦)، خلطت بين هذا وبين تحديد

(١) مثل يضرب لمن يعيب صاحبه يعيب هوفيه . انظر مجمع الامثال / ابو

الفضل احمد بن محمد النيسابوري ج ١ ص ٢٨٦ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط ٣ .

(٢) وهذا هو دينهم في الترويج لكل دعوة مسمومة وغريبة عن واقع أمتنا الإسلامية .

(٣) سيأتي ذكرها في الأدلة على وثنية هذه الدعوة الخبيثة .

(٤) انظر الحلال والحرام - القرضاوي ص ١٩٢ - ١٩٤ .

(٥) انظر تنظيم النسل - الطريقي ص ١٨ .

(٦) كما في قوله تعالى ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن

أراد أن يتم الرضاعة﴾ البقرة ٢٣٣ .

النسل الذي يعني : منع أفراد الأمة من المعجى* بمواليد غير مرغوب فيهم عن طريق الإلزام أو التأثير الإطلاحي (١) والاكثاف* بمولود أو مولودين لكل أسرة ، مع مراعاة تأخير سن الزواج ووضع العراقيل أمام الشباب من إجابة دافع القطرة تفاديا لما يترتب عليها من الإنجاب والتوالد غير العرفوب فيه عند المفتونين بدعوة تحديد النسل ، خوفا من الفقر والجوع .

ومعلوم أن (العزل) و (تنظيم النسل) وإن كانا من الأمور العابحة والرخص الشرعية فإن ذلك لم يكن فكرة غالبية ولا تصرفا عاما بين المسلمين على مدى الأربعة عشر قرنا الهجرية التي انصرفت ، وإنما كان ذلك حوادث فردية وتصرفات محدودة بخلاف ما هو عليه حال زماننا هذا ، فتحديد النسل أصبح مخططا عالميا وسياسة قومية وفكرة مهيمنة على عقول الكثيرين ممن يدعون الثقافة المصرية والتقدم الحضارى ، خوفا من الفقر وتحسبا لوقوع مجاعة عامة الأمر الذى يجعل هذه الدعوة تتناقض مع توحيد الربوبية وعقيدة التوكل على الله تعالى . (٢)

ومن هنا فإن النزاع الذى بيننا وبين دعاة تحديد النسل ، ليس فى أصل المسألة ، فالتنظيم من الأمور العابحة ، ولكن النزاع - أو الوثنية - فى سوء توجيه الفكرة واستغلالها بطريقة مخالفة لدين الله بحيث تنطلق من سوء الظن بالله وعدم التصديق بأن الرزق محدود ، لا ينقصه العدد الكثير ولا يزيده العدد القليل ، ودعاة تحديد النسل أشدُّ تصديقا واتباعا لأقوال الطواغيت والشركاء الذين يحسنون تحديد النسل ويخوفون الناس وينذرونهم الجوع والفقر والهلاك ، من تصديقهم لله ورسوله واتباعهم لشريعة الله وتسليمهم لحكمه وقضائه .

والمسألة فيها سرٌّ خفي يوجّه لمصلحة الرجل الأبيض ضدّ غيره من الملونين وبالذات المسلمين فالرجل الأبيض قد استولى على أرزاق الأرض وانتهب خيرات الشعوب الفقيرة ، وهو يتنعم بها دون غيره ، ولا يريد أن ينافسها فى هذه المتعة والنعمة أحد غيره فيوحى له بأن تزايد السكان يسبب مجاعة ويحدث كارثة ويهلك البشرية لذا فيجب قطع النسل خوفا من ذلك .

(١) انظر تنظيم النسل ص ٢٨٨ .

(٢) انظر تحديد النسل للمودودى ص ١٣٨ - ١٤٢ .

وانظر تنظيم الأسرة / لأبي زهرة ص ٩٨ - ١٠٠ .

والمسلم إذا وقع في هذه المكيدة وصدق هو^١ لا^٢ السدنة والطواغيت فإنه لا شك^٣ يمس^٤ ظنه بالله ويشك في أصل عقيدته برّبه الذي خلقه وتكفل برزقه، ومن هنا فإنه يقع في الوثنية أو العبودية لغير الله لأنه صدّقه فيما يخالف قول الله ورسوله وأطاعه في معصية الله وهذه هي العبودية التي حذر منها الرسول صلى الله عليه وسلم في حديثه لعدي بن حاتم رضي الله عنه . وما يبعث على الدهشة والاستغراب أنه في الوقت الذي ترتفع فيه أصوات الكثير من الذين ينتسبون إلى الإسلام في البلاد الإسلامية بضرورة تحديد النسل ويظهرون تخوفهم من الأزد ياد السكاني خشية الفقر والفاقة وتدني مستوى المعيشة ، وينادون في كل مناسبة وفي كل حين لتقليل أعداد المسلمين والحدّ من كثرة توالدهم وتناسلهم تجد في الوقت نفسه أن غير المسلمين أو الأقليات غير الإسلامية من اليهود والنصارى التي تعيش بين المسلمين وتقاسمهم طعامهم وشرابهم وخيرات بلادهم تتواصى فيما بينها على التناسل والتوالد بأقصى طاقة ممكنة وتحضراً أسرع على كثرة الإنجاب من أجل مضاعفة أعدادها وزيادة عدد أفرادها ، لتنافس المسلمين وتطالبهم بمزيد من الحقوق والصلاحات . يقول محمود شاكر : (أما ما يشيع من نظريات اقتصادية فلا صحة لها وبخاصة أن مرّوجيها من الذين يخافون من زيادة نسبة المسلمين وتفوّقهم في النهاية ، وهذا ما رأيناه في الآونة الأخيرة من أن النصارى يدعون إلى تحديد النسل ويتواصون فيما بينهم بالتكاثر لترتفع نسبتهم ويقوى كيانهم) .^(١)

ويقول أحمد شلبي^٢ : (يهتم المسيحيون بكثرة النسل ويحاربون تحديده وما ينسب إلى البابا بيوس الثاني عشر قوله في الاتحاد الإيطالي لجمعيات العائلات الكثيرة العدد سنة ١٩٥٨ م يلي : (إن خصب الزواج شرط لسلامة الشعوب المسيحية ودليل على الإيمان بالله والثقة بعنايته الإلهية ، ومجلبة للأفراح العائلية) .

ويزيد اهتمامهم بكثرة النسل في البلاد التي يكونون فيها أقلية أو مساوين في التعداد تقريباً لأتباع غير المسيحية من الديانات ولذلك نراهم في الشرق بوجه خاص يتجهون إلى إكثار النسل في الوقت الذي يتجه فيه سواهم من أتباع الديانات الأخرى بهذه المنطقة إلى تحديد النسل) .^(٢)

(١) سكان العالم الاسلامي ، محمود شاكر ص ١٢٢ ط ٢ مؤسسه الرسالة .

(٢) المسيحية / أحمد شلبي ص ١٨٠ / ط ٢ / مكتبة النهضة المصرية .

بِسْمِ اللَّهِ

ويذكر الشيخ محمد السفزالي في «قضايا الحق» أن الكنيسة المرقسية بقيادة البابا «شنودة» قد وضعت مخططا لزيادة عدد شعب الكنيسة في مصر بحيث يتساوى مع عدد المصريين في مدة تتراوح ما بين ١٢ إلى ١٥ سنة من عام ١٩٧٣ م.

ويقول ذلك البابا الحقود : (ولذلك فإن الكنيسة تحرّم تحريما باتا تحديد النسل أو تنظيمه ^(١) ، وتعدّد كل من يفعل ذلك خارجا عن تعليمات الكنيسة ومطرودا من رحمة الرب وقاتلا لشعب الكنيسة ومضيفا لمجده .
ثم ذكر تفاصيل الخطة القاضية بزيادة عددهم ^(٢) .

ويقول د. محمد البهي : (وكان المسلمون في الهند ضحية هذا التنظيم أيام انديرا غاندي ، والمسلمون وحدهم يقصدون دون غيرهم من المسيحيين واليهود) ^(٣) .

وانظر إلى التخطيط الصهيوني وفعل اليهود في فلسطين كيف يدعون قوسهم لزيادة أعدادهم ويقدمون لذلك الضمانات الاقتصادية . ويتنادون للتجمع من كل بقاع الدنيا ليزداد عددهم ويكثر مقاتلوهم وترتفع نسبة الأيدي العاملة من العمال والصناع والتجار والعلماء والخبراء والفنيين وتكون لهم دولة قوية تحقق مآربهم ومطامعهم التوسعية على حساب المسلمين .

إنه تناقض ظاهر في كل بلد من بلدان المسلمين ، وهو لا يحتاج إلى تفكير وكثرة تأمل ، لأنه واضح ومعلوم ولا يخفى - ولعله ليس بخاف - إلا على من نصبوا أنفسهم أبواقا وطبولا تردد كل ما أفرزته الوثنية الأوروبية المعاصرة ، فعصيت أبصارهم ومصائرهم عن أبسط قواعد دينهم الذي ينتسبون إليه في شهادات الميلاد .

ومعد هذا الاستعراض الموجز لبعض جوانب هذه الحركة الوثنية ، يمكننا القول بأنه إذا جاز - وهو غير جائز - لأوروبا ومفكرها أن تدعو لهذه الحركة وتبناها وتكثف الجهود لتعميمها بين أبنائها من جهة وفي أصقاع العالم قاطبة من جهة أخرى ، باعتبار أنها فقدت صلتها بدين الله في وقت مبكر من النهضة

(١) إنه لا يحرم التحديد فحسب بل مجرد التنظيم الذي يتشدد به بعض المسلمين .

(٢) قضايا الحق ص ٦٠-٦١ .

(٣) مستقبل الإسلام / د . محمد البهي / ص ١١٠ .

المادية التي تعيشها اليوم ، بل باعتبار أنها لم تعرف العقيدة الربانية منذ أن اعتنقت الديانة النصرانية في عهد الامبراطور الروماني قسطنطين - كما سبق بيانه - ، إذا جاز لها بهذه الاعتبارات وغيرها أن تمتنق مثل هذه الفكرة وتسمي الظن بالخالق الرازق وتركن إلى نفسها وما توصلت إليها لعقول القاصرة ، وما ادعاه كهنتها ومفكروها وما أشار به علماءها ، وأتباعهم فيما يقولون وطاعتهم فيما يشيرون ويخططون وبالتالي عبادتهم بالطاعة والاتباع واتخاذهم أربابا من دون الله ، إذا كان كل هذا يجرر للوثنيين والدول الوثنية أن تسلك هذا المسلك - مع ملاحظة أنها قد عادت فتراجعت عنه واعترفت بخطئها - فإنه لا يجوز وليس هناك أدنى سبب للدول الإسلامية ومن يدعون الإسلام أن يؤمنوا بهذه الحركة الصليبية والخطة اللادينية لتقليل عدد المسلمين والحد من تزايدهم وتنازلهم بحجة الوضع الاقتصادي وظروف المعيشة الصعبة .

فالعقيدة التي يمتنقها المسلمون سليمة من كل تحريف وفساد ، وهي تربط المسلم بالله تعالى لا بالأسباب المادية والأفكار البشرية التي يضمها الطواغيت والأرباب من بني البشر ، وهذا ما حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على تثبيته في العقول منذ بداية الدعوة ، فالله هو الخالق وهو الرازق والقابض والباسط ، وهذا ما كان يعتقد المشركون في الجاهلية فقد كانوا مقرين بتوحيد الربوبية - كما سبق ذكره - وإن ساء ظنهم بالله وقتلوا أولادهم في بعض الأحيان ، وجاء الإسلام فأنكر عليهم هذه الجريمة وصحح اعتقادهم بالله وردّه إلى ما يجب أن يكون عليه . وأكد لهم كفالة الله تبارك وتعالى بالرزق والمعاش إذا هم سلكوا السبل واتبعوا السنن الكونية وجدوا واجتهدوا في الطلب .

ولهذا فنحن - المسلمين - لنا ديننا ولنا عقيدتنا الصحيحة ، ولنا فيهما الأدلة الواضحة والبراهين القاطعة والآيات البينة على القول بأن الدعوة إلى تحديد النسل بهذا المعنى وهذا الأسلوب وهذا المنطلق الفكري ، تعتبر مظهرا من مظاهر الوثنية وآفة من آفات الجاهلية غزت ديارنا وعقولنا من جراء الطاعة العمياء والاتباع من غير دليل صحيح والتقليد المذموم لكل ما جاءت به الحضارة الأوروبية التي تجتاح العالم بظواهرها البراقة وشكلياتها التسافهة . وهذه المسألة الخطيرة لا يصح أن ننظر إليها على أساس أنها من مستجدات الأمور التي تدخل في دائرة الشريعة لنبحث لها عن حكم فقهي

من حلٍّ أو حرمة أو إباحتة أو كراهية ، لا . إن السألة ليست كذلك إنها قبل كل شيء " تمسُّ العقيدة التي أرسيت قواعدها وحددت معالمها منذ أربعة عشر قرناً من الزمان ولا يصحُّ فيها الاجتهاد ، لأنه سيكون اجتهاداً مخالفاً للعقيدة والإيمان بالله .

إن القرآن الكريم قد تولى بيان هذا فربط أمر الرزق بالله سبحانه وتعالى وقطع القول بأن الله تعالى قد تكفَّل برزق كلِّ مَنْ في السموات والأرض قال تعالى ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها ... ﴾ (١) فهذه آية واحدة - وسيأتي غيرها بعد قليل - تكفي من أراد الرشد وتهدى من يضل الطريق فهي تقطع الشك باليقين في أن أرزاق العباد مكفولة من الخالق الباري الذي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده أو يمنع منه لحكمة ربانية .

أليس تحديد النسل بوائع الخشية من الإطلاق والفقير فيه شك في أن الله هو الوهاب الرزاق الفتاح المليم القابض الباسط ؟ (٢)
أما إذا كان المنطلق من غير زاوية الإيمان والتفكير بعيداً عن مبادئ القرآن ، أو أريد للأمر أن تصبح هكذا كما هي في أوروبا التي لا تقيم للدين وزناً في كلِّ تصرف من تصرفاتها ، إذا كان الأمر كذلك فلا علينا أن نفضِّل الوثنية على الإيمان بالله ، وتركن إلى الطواغيت والسدنة والكهان والمفكرين الاقتصاديين ونتبع أقوالهم ومخططاتهم ونعبدهم من دون الله ونقول بقول الواعظ الأمريكي الدكتور مزدك : (إنك لا تستطيع أن تضع ثقك بالرب وتنام خالي البال إذا سمحت لسكان الأرض أن يتضاعفوا كلَّ ستين سنة !) (٣) لأنه هذا هو الأسلوب الذي به يفكرون ، ودعاة تحديد النسل عليه ساعرون نعوذ بالله من شرِّ ذلك .

ومن هنا فلم يتحرج الكاتب محمد فتحي عثمان - وهو من دعاة التحديد - من القول : (وأنا أفهم أن يرفض تحديد النسل على أساس العقل والمنطق ، أو على أساس الرغبة والمزاج . . . ولكن لا أفهم لماذا يتقمص هذا الرفض رداً (٤) دينياً . . . والسألة أولاً وأخيراً مسألة اجتماعية يعالجها الباحثون المتخصصون) .

(١) سورة هود آية ٦ .

(٢) انظر الكتيب " حول تحديد النسل " للمحامي الشرعي فيصل أبو الفضل شبيب ص ٣٠-٣٢ دار الأنصار بالقاهرة .

(٣) نقلاً عن النسل والعناية به / عمر رضا كحالة ص ١١٤ / ط ٢٠٠٢ .

(٤) راجع الفكر الإسلامي والتطور / محمد فتحي عثمان / ص ٢٣٥-٢٤٠ .

ط ٢ / الدار الكويتية .

ذلك قولهم بأنفواهم وقد كبرت كلمة من تلك الأبواق ، يريدون أن يعزلوا المسألة عن مجال العقيدة لأن الدين لا وزن له في حياتهم .
إنه ليس غريباً ولا عجيباً من أمة لا تؤمن بالله الإيمان الصحيح
أن تبحث عن طريق إلى تحديد النسل الذي يرادف الانتحار القومي ، إذا
هي لم تنجح حملتها في كسب الرزق ولم توفّق في الوصول إلى رغيف الخبز .
بل لا غرابة كذلك أن تفعل ما كان يفعله عرب الجاهلية بأولادهم
خشية الفقر والمار .

وهذه بعض الأدلة الشرعية على أن حركة تحديد النسل دعوة جاهلية
وفكرة وثنية باطلة لا مدخل لها ولا ميرر لها عند من يدين بعقيدة الإسلام
ويلتزم بها أو يدعى بالالتزم بها .

أولاً : هذه الدعوة تنافي الإقرار بتوحيد الربوبية الذي فطر الناس
عليه وهي تشبه من قريب أو بعيد عادة وأد البنات وقتل الأولاد التي كانت
معروفة عند عرب الجاهلية قبيل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم بدعوة التوحيد
وقد أبطل الإسلام هذه العادة الجاهلية وحرم قتل الأولاد خشية الفقر والجوع ،
ومخافة المار ، واعتبرها أسباباً واهية باطلة لا تصح ميرر لإزهاق الأرواح وقتل
الأبناء قال تعالى ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ (١) ، وبين
- كما سيأتي - أن الرزق بيد الله سبحانه وتعالى ييسره لمن يشاء
ويقبضه تارة عن يشاء لحكمة ربانية لا يدركها النامر في كثير من الأوقات ،
ولا يعلمها إلا الخالق سبحانه .

قال تعالى ﴿ لَهُ مَقَالِدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ
وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢) .
والدعوة لتحديد النسل لا تختلف عن هذه العادة الجاهلية التي

حاربها الإسلام وقضى عليها ووضع مكانها العقيدة الصحيحة التي تربط الإنسان
بخالقه في قضية الرزق والقوت وتجعله متوكلاً على الله تعالى وحده ولا يركن
إلى عقله ولا يعتمد على الأسباب المادية وحدها من غير أن يربطها بإرادة إلهية
علياً مدبرة تعلم ما سيكون .

(١) سورة التكويد آية ٩ .

(٢) سورة الشورى آية ١٢ .

إنها تلتقي مع الجاهلية في السبب الدافع للتحديد وتلتقي معها في النتيجة وهي قتل الأولاد وتقليل عدد الناس في العالم، وإن كانت تختلف عنها في الأسلوب المتبع والذي يبدو في ظاهره رحيمًا وصعيدًا عن الهمجية والوحشية، فما ذلك إلا لتقدم الوثنية وتطورها وملاءمتها لظروف العصر المتطور وأحوال الناس في كل زمان.

ولا أظن أن هناك عاقلاً يقول بافتراق هذه الفكرة الوثنية الحديثة للفتك بالبشرية بحجة الغيرة عليها والحفاظ على مستقبلها، عن فعل الجاهلية في قتل أولادهم خوف الفقر والمار وطاعة للشركاء من الأصنام والأوثان والطواغيت، فهما في نظر العقلاء وكل الذين يعتقدون بأن الله تعالى هو وحده الخالق الرازق الذي يعلم ما ينفع الناس ويضرهم، شيء واحد.

فالقول بتحديد النسل خشية الفقر يهدم الإيمان بتوحيد الربوبية ويهدم بالتالي الإيمان بتوحيد الألوهية والعبادة ويفسد على المسلم دينه كله. (لأن فكرة ربوبية الله أساس إيمان المرء ودينه، ومن معاني الربوبية دوام الرزق الذي لا ينضب معينه ولا ينفد مدده، إلا لأجل رحمة إلهية أرادت قلة الرزق وانتشار المجاعة لمصلحة العباد والبلاد، ومن ثم يتضح لنا أن فكرة تحديد النسل كعلاج لقلة الرزق لا تعد خطأ جزئياً في التفكير، بل معناها أننا قمنا بهدم ذلك الأساس الذي يقوم عليه ديننا وإيماننا، وذلك هو أخطر جانب في حركة تحديد النسل، فمن كان يرى له مبرراً يجب أن ينظر في الموضوع من هذه الوجهة أكثر من الوجهة الفقهية.

(إن مشروع تحديد النسل لا يخطر على البال إلا إذا انصرف النظر عن ربوبية الله ورازقته، أما إذا تعدت هذه الفكرة إلى العمل فمعنى ذلك أن الإيمان انحسر وتلاشى في النفوس، وحل محله فكر ملحد ينادي بأن ليس هناك رب لهذا الكون، وإنما هو الإنسان وحوله الكون وحده.

(ولذلك إذا تأملنا في مشروع تحديد النسل ومنهجه الخاص والعامل الأساسي الذي يبعث على تنفيذه وهو خشية الفقر والجوع لا يعود ذلك ذنباً كبيراً نحسب وإنما يتمثل فيه عقلية ملحدة لا تمتد بخالق كفل للناس أرزاقهم وإنما تربط القضية بالجهود الإنسانية وحدها، وتعتقد أنها هي التي تستطيع أن تفتح أمام الناس أبواب الخير والرزق، فلما أعييت عن العمل انسدت عليهم الأبواب.

(وإذا فكر المسلمون في تحديد النسل خوفا من قلة الرزق وخشية الإملاق فإن ذلك نذير خطر عظيم لدينهم وإيمانهم يتضائل أمامه كل خطر اقتصادي وأزمة معاشية .

(إننا إذا سمعنا خبراً اقتصادياً في أوروبا يقولون : إن نسبة الزيادة في العمران إذا بلغت مبلغ كذا يشكل خطراً عظيماً ، آمناً بقولهم وخررنا عليه صا وعيانا ، وبدأنا بتنفيذ قانون تحديد النسل في طول البلاد وعرضها ، أما كتاب الله فيعلن مرة بعد أخرى بإخفاق الجهود الاقتصادية المستطاعة لأمة ظلت فريسة الانحلال الخلقي ولم تغير من أخلاقها السيئة ما لا يرضى به رب العالمين . ولكننا لا نلقى إليه سمعاً ولا نقيم له وزناً ، ولا نفكر فيما إذا علمنا به وصفنا الحياة في قلبه انفتحت علينا أبواب الرزق وتحقق وعد الله بإدراك الرزق وإغداق النعمة .

(والقرآن لا يؤكّد أن أمر الرزق بيد الله فحسب ، وإنما يكرر ذكر الرزق وينسبه إلى الرزاق الحقيقي حتى يتخلص الفكر من مظنة الريب والشبهة . إن البشرية اليوم حائرة تائهة ، فإما أن تخضع لقدرة الله وتتخلص من مأزق قلة الرزق ، أو تنفذ فكرة تحديد النسل وتقصر عمرها وأيامها .

وكما فكرنا في هذا الموضوع أو تعمقنا فيه ظهر لنا أن فكرة تحديد النسل كحل للأزمة الاقتصادية وطلاج لقلة المواد الغذائية مع الادعاء بالإيمان والإسلام هزءاً بالدين وسخرية من الأقدار) (١) .

وهذه الدعوة باعتبارها تنافي توحيد الربوبية فهي تتعارض مع آيات قرآنية محكمة وأحاديث نبوية صحيحة كلها تؤكّد أن الأقوات مقدّرة والأرزاق مفروغ من أمرها إلى يوم القيامة لا يزيدنها ولا ينقصها شيئاً تدخل البشر أو عدمه .

وسأكتفي بذكر بعض هذه الآيات والأحاديث التي تدلّ على تقدير الله للأقوات وكفالاته برزق مَنْ في السموات والأرض ، وهي لا تحتاج إلى شرح وتوضيح لدلالاتها الظاهرة على المطلوب ، وفيها الحجة القاطعة لمن أراد الهداية واهتمّ بمصالح البشرية وخاف عليها من الجوع والهلاك .

(١) تنظيم النسل ص ٣٢٣ - ٣٢٣ بتصرف .

وانظر أجنحة المكر الثلاثة / عبد الرحمن حسن هبنكة الميداني /

ص ٢٦٠ - ٢٦٥ / ط ٢ دار القلم .

(أ) قال تعالى ﴿ قُلْ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْمَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاً لِلنَّاسِ ثَلَاثِينَ ﴾ (١) .

وقال سبحانه ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رِوَاسِيًا وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونًا وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خِزْيَانُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ (٢) .

وقوله سبحانه ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (٣) .

وقال تبارك وتعالى ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفْئِلًا تَبْصُرُونَ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تَوَعَّدُونَ فُورَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنْكُمْ تُنطِقُونَ ﴾ (٤) (٥) .

وبعد أن طمأن الله سبحانه وتعالى الناس على قضية الرزق ، وقطع لهم فيها القول كي لا يزينوا ولا ينحرفوا ولا يسيئوا الظن بخالقهم ومدبر شؤونهم ومصالحهم ، بعد هذا نهبهم جلَّ وعلا عن قتل أولادهم خشية الفقر والإملاق ، فقال سبحانه وتعالى محذراً من أن تدفعهم الشكوك وسوء الظنون على الإقدام على قتل الأولاد وإزهاق الأنفس التي حرم الله قتلها ، فقال ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ (٦) .

وقال سبحانه ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خَطِيئَةً كَبِيرًا ﴾ (٧) .

-
- (١) سورة فصلت آية ٩ - ١٠ .
- (٢) سورة الحجر آية ١٩ - ٢١ .
- (٣) سورة هود آية ٦ .
- (٤) ذكر أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ - هذه الآيات - فقال يا سبحان الله من الذي أغضب الجليل حتى يحلف . ألم يصدقوه في قوله حتى الجأوه إلى اليمين ؟ يا وبيح الناس ! عن صفوة التفاسير - محمد طه الصابوني ج ٣ ص ٢٦٠ ط ٤ .
- (٥) سورة الذاريات آية ٢٠ - ٢٣ .
- (٦) سورة الأنعام آية ١٥١ .
- (٧) سورة الإسراء آية ٣١ .

وقد بيّن الله سبحانه وتعالى أن إقدام المشركين على قتل أولادهم خشية الفقر والجوع هو من تزيين الشركاء من الطواغيت والأوثان التي يعبدونها المشركون ، فغيّروا فطرتهم وأسأوا ظنهم بالله وإلا فالناس مفلطرون على توحيد الربوبية ، وهذا هو فعل الطواغيت في كلّ زمان ومكان ، فإنهم حريصون دائما على تحويل الناس عن عبادة الله وحده ، إلى عبادة معبودات باطلة والاعتقاد بأوهام وخرافات وأفكار مادية فاسدة ، وذلك حتى يذعن الناس لعباداتهم وينقادوا لهم وهذا هو مراد دعاة تحديد النسل في الوثنية الحديثة ، فهم يخوفون الناس وينذرونهم سوء العاقبة من كثرة الأولاد وقلة الرزق ، ويظهرون لهم حرصهم عليهم ، وبالتالي يطالبونهم بالطاعة والاتباع في كلّ ما يحلّلون ويحرّمون وتلك عبادتهم .

قال تعالى ﴿ وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون ﴾ (١) .
وقد كشف الله عن هوية هذه الفئة المفسدة ، فقال سبحانه ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألدّ الخصام وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد . وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالأثم فحسبه جهنم وليئن المهاد ﴾ (٢) .

وأخيرا فقد حكم الله رب العالمين بالخسران والضلال على من يقدمون على قتل أولادهم ويحدّدون نسلهم ويمنعون نساءهم من الحمل والانجاب بسبب تحسبهم وخوفهم من الفقر واتباعهم لأقوال الكهان وخضوعهم لطاعة الطواغيت في معصية الله وتناسي ما يقوله تعالى في هذه المسألة .
قال تعالى ﴿ قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرّموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين ﴾ (٣) (٤) (٥) .

(١) سورة الأنعام آية ١٣٧ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٣) و (٤) (قد خسروا ، قد ضلوا) وفي اللغة (قد مع الفعل الماضي)

تفيد تحقق وقوع الفعل .

(٥) سورة الأنعام آية ١٤٠ .

رحمه الله

قال الطبري في تأويل هذه الآية : (يقول تعالى ذكره قد

هلك هو لا المفترون على ربهم الكذب العادلون به الأوثان والأصنام ،
الذين زين لهم شركاءهم قتل أولادهم وتحريم ما أنعم به عليهم من أموالهم
فقتلوا لها أولادهم وحرّموا ما أحلّ الله لهم) (١)

(ب) وأما الأحاديث النبوية التي تدل على أن الرزق مقدّر بقدر من

الله لا ينقص لزيادة الخلق ولا يزيد لنقصانهم ، وأن الإيمان والتوكل على الله
في هذا واجب - وهذا كله تنكره الدعوة لتحديد النسل سواء بلسان الحال
أو المقال - فمنها ما يلي : (٢)

قال صلى الله عليه وسلم : (إذا مرّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة

بعث الله إليها ملكاً فصورها وخلق سمعها وصرها وجلدها ولحمها وعظامها .
ثم قال : يا رب ، أذكر أم أنثى فيقضي ربك ما يشاء ويكتب الملك . . . ثم
يقول يا رب رزقه فيقضي ربك ما يشاء ويكتب الملك . . .) (٣)

وقوله صلى الله عليه وسلم : (أيها الناصراتقوا الله وأجملوا في الطلب

فإن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها وإن أبطأ عنها فاتقوا الله وأجملوا في
الطلب . خذوا ما حلّ ، ودعوا ما حرم) (٤)

وقوله عليه الصلاة والسلام : (لو أنكم توكلتم على الله حقّ توكله

لرزقكم كما يرزق الطير . تغدو وخماصاً وتروح بطاناً) (٥)

وقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن ماجه بسنده عن ابني خالد

قالا : دخلنا على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يعالج شبيثاً . فأعناه عليه .

فقال : لا تياسا من الرزق ما تهزرت روءوسكما فإن الإنسان تلده أمه أحمر

ليص عليه قشر . ثم يرزقه الله عزوجل) (٦)

(١) تفسير الطبري ج ١٢ ص ١٥٣ .

(٢) انظر جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ص ٤١ - ٤٨ طبعة

دار الفكر .

(٣) صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٣٧ تحقيق عبد الباقي .

(٤) انظر سنن ابن ماجه ج ٢ ص ٧٢٥ تحقيق عبد الباقي .

(٥) انظر سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٣٩٤ .

(٦) انظر سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٣٩٤ .

ثانياً : هذه الفكرة تتعارض مع دعوة الإسلام إلى الحفر على الزواج والتكاثر والتناسل^(١)، وتفوت أعظم غاية من غايات النكاح وهو قصد الذرية والانجاب وهي بالتالي تتعارض مع أحاديث نبوية صحيحة في هذا الخصوص، الأمر الذي سيؤدى إلى إضعاف الأمة الإسلامية وتعطيل الجهاد والدعوة لنشر دين الله .

ومن هنا فإن طاعة الداعين إليها ، وتنفيذها وتطبيقها كما يريدون ويخططون تعتبر طاعة لغير الله في معصية الله .

وهذه طائفة من الأحاديث التي تتعارض مع هذه الفكرة الوثنية فسي دعوتها لتحديد النسل ومنع الحمل وعدم التكاثر .

قال صلى الله عليه وسلم : (تزوجوا الودود الولود فإنني مكاثر بكم الأم يوم القيامة)^(٢) .

وقوله صلى الله عليه وسلم : (إنكحوا أمهات الأولاد فإنني أباهي بهم يوم القيامة)^(٣) .

وظاهر من هذه الأحاديث وغيرها^(٤) أن الإسلام يحث على الزواج من المرأة المشتهرة بكثرة الإنجاب .

وظاهر كذلك أن الدعوة لتحديد النسل تهدف إلى تقليل النسل ، وجعل المرأة أقل إنجاباً بحجة الخوف من الفقر وانحطاط المستوى الاقتصادي للدولة وهذا لا شك أنه يخالف توجيه الرسول صلى الله عليه وسلم ويعارض قوله بقول الكهان والطواغيت والمنجمين من علماء الاجتماع والاقتصاد مما يدل على تحريم فكرة تحديد النسل أو الدعوة إليها والقطع بأنها دعوة إحصار وتعرد

على دين الله وركون إلى الأسباب المادية والقوى البشرية من دون الله . يقول المودودي^{رحمه الله} : (إن الحياة المادية التي يعيشها العالم أجمع

قد محت من عقول الناصر وقلوبهم فكرة الإله فضلاً عن أن يتوكلوا على الله ويتقوا به رازقته ، فهم إنما ينظرون إلى ما في أيديهم من الوسائل المادية ويحسبون أنفسهم رازقين لأنفسهم وأولادهم)^(٥)

(١) انظر تنظيم الأسرة وتنظيم النسل / الإمام محمد أبو زهرة ص ٩٤ - ٩٦ .

(٢) رواه أبو داود عن معقل بن يسار ج ٢ ص ٥٤٢ والحاكم ج ٢ ص ١٦٢ .

(٣) رواه أحمد ج ٢ ص ١٧٢ .

(٤) انظر كتاب تنظيم النسل / د . الطريقي / ص ٥٦٥ - ٥٦٩ .

(٥) حركة تحديد النسل ص ١٣ .

ثالثاً: وهي أخيراً تتنافى مع إجماع كثير من علماء الأمة الذين يعتدُّ بقولهم وهذه طائفة من هذه الأقوال والفتاوى التي صدرت ضدَّ الدعوة لتحديد النسل، والحكم بتحريمها لمنافاتها لمبادئ الإسلام ومساسها بصلب عقيدة التوحيد، وخطورتها على كيان الأمة الإسلامية لاسيما في هذه الظروف والأعداء يحيطون بها من كل جانب ويتداعون عليها كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها .

(أ) قرر المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في الدورة السادسة عشرة منع تحديد النسل والدعوة إليه تحت عناوين خادعة، وهذا ملخص ما جاء في القرار: (درس المجلس مسألة " تحديد النسل " أو تنظيمه كما يريد أن يسميه بعض دعاة واتفق أعضاء المجلس أن المخترعين لهذه الفكرة أرادوا أن يؤكدوا بها للأمة الإسلامية، وأن المحبذين لها من المسلمين وقموا في حبالها وستكون لهذا التحديد إن نجح - لا قدر الله - عواقب وخيمة سياسية واقتصادية واجتماعية وحربية . . . وهو نوع من الوأد الذي كانت تفعله الجاهلية . . . ولا يعتدُّ بالأسباب الواهية التي يذكرها أنصار تحديد النسل كخوفهم من كثرة السكان وتعذر التغذية وفساد التربية، ففي الآيات القرآنية المذكورة الجواب عن ذلك، فالرزق على الله وهو مكفول، والثروات الطبيعية عظيمة في البلدان الإسلامية ومجالات العمل رحبة . . . ثم إن هذا التحديد اعتداء على الدين وعلى الحرية الشخصية وعلى حقوق الإنسان . . . والمجلس يوصي الأمانة العامة باتخاذ ما تراه من وسائل لمقاومة هذه الفكرة الخاطئة ودرء مفسدها) (١)

(ب) وقرر مجلس هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية بتاريخ ١٣/٤/١٣٩٦ هـ تحريمها فقال: (ونظراً لأن القول بتحديد النسل أو منع الحمل مصادم للفطرة الإنسانية التي فطر الله الخلق عليها، وللشريعة الإسلامية التي ارتضاها الرب تعالى لعباده . . . وحيث إن الأخذ بذلك ضرب من أعمال الجاهلية وسوء ظن بالله تعالى، وإضعاف للكيان الإسلامي . . . يقرر المجلس بأنه لا يجوز تحديد النسل ولا يجوز منع الحمل إذا كان القصد من ذلك خشية الإملاق) (٢)

(١) انظر تنظيم النسل ٥٧١ - ٥٧٢ نقلا عن مجلة المجتمع / الكويت /

عدد ٢٤٧ في ١٨ / ربيع الثاني عام ١٣٩٥ هـ ص ٣١ .

(٢) تنظيم النسل ص ٥٧٢ - ٥٧٣ .

(ج) يقول المودودي رحمه الله (بأن حركة تحديد النسل أو تنظيمه ليست إلا شجرة من ثمار شجرة الإلحاد والدهرية ، وإن الذين تكون أذهانهم خالية من فكرة الإله ولا يتفكرون في نظام الكون ، ولا يتصرفون في مختلف شؤون الدنيا إلا على أن لا وجود للإله وأنه إن وجد فإنما هو كائن معطل ، وإن الإنسان بنفسه يضع مقاديره ويدير جميع شؤونه - هم الذين رفعوا لواء هذه الحركة وهم الذين تقع دلائلها من نفوسهم موقع القبول والإعجاب .

وضي عن البيان بعد إيضاح هذه الحقيقة أن هذه الحركة متصادمة مع الإسلام في صميمه ، وإن مبادئها ومبادئه على طرفي نقيض) .^(١)

(وخلاصة القول : إن قوانين الإسلام للحياة الاجتماعية والاقتصادية مع تعاليمه الخلقية وتربيته الروحانية قد محت كل سبب أو داعية من تلك الأسباب والدواعي التي لأجلها نشأت ثم تقدمت وانتشرت حركة تحديد النسل في المدنية الغربية فالإنسان إذا كان مؤمناً بالإسلام مصدقاً لتعاليمه وقوانينه من الوجهة الفكرية والعملية ، فإنه من المحال أن تنشأ في نفسه رغبة في تحديد النسل أو تعرضه في حياته ظروف ترفعه على الانحراف عن طريق الفطرة) .^(٢)

(د) ويقول الشيخ ابن باز - حفظه الله - في ردِّ له على فتوى بإباحة تحديد النسل وطاعة الدولة إذا أمرت به .

يقول : (فهذا القول في غاية السقوط بل هو ظاهر البطلان لأن الحكومة إنما تطاع في المعروف لا فيما يضر الأمة ويخالف الشرع المطهر ، والقول بتحديد النسل مخالف للشرع ومصلحة الأمة فكيف تلزم طاعتها فيه) .^(٣)

وهكذا إذا كان المقصود من الدعوة لتحديد النسل هو الخوف من الفقر وضيق في الرزق سيقع ، وسوء في المعيشة يحتمل ، فهذا من غير شك منطوق جاهلي وتفكير مادي تأباه قواعد الإسلام ، وترفضه عقيدة التوحيد ولا مجال له في الفكر الإسلامي .

إن القضية ليست قضية فقر في الموارد الاقتصادية والمنتجات الغذائية ولا زيادة في عدد السكان ، إنما هي قضية فقر في الأخلاق وتخلُّ عن العبادي الدينية والأسعرا إيمانية ، وزيادة في الإلحاد والانحراف عن دين الله ومعاداة الإنسانية .

-
- (١) حركة تحديد النسل ص ١٣٨ .
 - (٢) المرجع نفسه ص ٦٩ - ٧٠ .
 - (٣) نقلا عن تنظيم النسل ص ٣٧٥ .

والمسألة لا ينقصها إلا عودة جادة صادقة إلى عقيدة التوحيد والالتزام
بها ، وتطبيق شريعة الله على جميع وجوه الحياة لا قصرها على وجوه دون أخرى
أو عزلها عنها بالكلية ، وعند ذلك ترى البشرية ودعاة الوثنية على وجه الخصوص
أن الرزق وقير والخير كثير وصدق الله تعالى حيث يقول : ﴿ ولو أنهم أقاموا
التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ (١)
وقال تعالى ﴿ وقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم
مدارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا مالكم
لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا ﴾ (٢)
أما والحالة كما نشاهد فلا بد أن تظهر آثارها وتعمم بها البلوى
عقابا للناس من الله تعالى .

قال تعالى ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس

(٣)

ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ﴾ (٣)

يقول ابن القيم رحمه الله : (ومن آثار الذنوب والمعاصي أنها تحدث

(٤)

في الأرض أنواعا من الفساد في المياه والهواء والزرع والثمار والساكن)

فهل أنتم يا دعاة تحديد النسل والمفتونين بالحضارة الغربية

المادية راجعون إلى حظيرة الإسلام وموقنون بقول العليم الخبير ؟

(١) سورة المائدة آية ٦٦ .

(٢) سورة نوح آية ١٠ - ١٤ .

(٣) سورة الروم آية ٤١ .

(٤) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي / شمس الدين محمد بن

أبي بكر قيم الجوزية ص ٦٦ / المطبعة السلفية .

ثالثا - موالة دول الكفر والكفار .

وهذا مظهر آخر من مظاهر عدوى الوثنية وآثارها على العالم الإسلامي ، وهو لا يقلُّ خطورة عن مظهر التحاكم إلى القوانين الوضعية وإقصاء شريعة الله عن واقع حياة الناس .

فالناظر في أحوال البلاد الإسلامية بعين الناقد البصير سيلاحظ أنها مفككة الأوصال ، تكاد كلُّ دولة أن تشكل عالما قائما بذاته ، تختلف كلياً عن الدولة التي تجاورها في أغلب مظاهرها وأمورها ، ويكفي في الاختلاف والتباين أن تكون إحدى الدولتين التجاورتين تميل إلى دولة من الدول الكافرة بينما الأخرى تميل إلى دولة ثانية غير الدولة الأولى فربما تكون الأولى ديمقراطية علمانية والأخرى تطبق النظام الشيوعي الاشتراكي الملحد .

ولست ممن يرى قطع صلات الدول الإسلامية بغيرها من الدول في جميع الأحوال ، لأن هذا متعذر ويخالف أساس العلاقة التي تربط المسلمين بغيرهم من الأمم والشعوب والتي يقرها الإسلام ولا ينكرها .
وأما هذه العلاقة فهي تقوم على مبادئ فاضلة وأسس حميدة فهي تحضُّ المسلمين على التعارف مع غيرهم ، والبر بهم والعدل والقسط معهم ، والإحسان إليهم ، وتبادل المصالح والتسامح فيما بينهم ، ولكن بشرط أن لا يلحق بالدين ضرر ولا يمسُّ العقيدة خطر .^(١)

قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝ ﴾^(٢)

ويقول سبحانه ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ ﴾^(٣)

وإذا كانت هذه هي العلاقة التي تربط بني البشر بعضهم ببعض فهذا يستلزم أن تقوم بينهم الصلات البشرية والعلاقات الإنسانية ، فيتبادلوا المنافع والمصالح في حالة السلم لما يحصل من الألفة والمعاشرة والمعاطة فسي كثير من مرافق الحياة .

-
- (١) انظر مجموع الفتاوى ج ٤ ص ١١٤ ، فقه السنة / سيد سابق ج ٢ ص ٦٠٦
طبعة ثانية / دار الكتاب العربي بيروت لبنان ، معالم في الطريق ص ١٣٠
- (٢) سورة الحجرات آية ١٣ .
- (٣) سورة المتحنة آية ٨ .

ومن هنا فقد جعل الإسلام للمسلمين الحق في أن يبرموا من المعاهدات بينهم وبين غيرهم ما شاءوا في السلم والحرب، إذا كان العدو يريد الصلح والمهادنة والمسألّة ولا يظهر العداوة والمقاومة للدعوة الإسلامية .
قال تعالى : **وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** (١) .

والإسلام إذ يبيح التحالف والمعاهدة بين المسلمين وغيرهم من الدول الكافرة ومهادنتها ، فإنه لا بدّ من تحقق بعض الشروط ومراعاة بعض الأمور الهامة (٢) وهي :

- ١ - أن لا تمنّ هذه المعاهدة قانون الإسلام الأساسي وشريعته العامة التي بها قوام الشخصية الإسلامية ، ومن هنا فالإسلام لا يعترف بشخصية أى معاهدة تحتاح بها الشخصية الإسلامية ، وتفتح للأعداء باباً يمكنهم من الإغارة على جهات إسلامية أخرى ، أو تضعف من شأن المسلمين بتفريق صفوفهم وتمزيق وحدتهم .
 - ٢ - أن تكون مبنية على التراضي من الجانبين ، ومن هنا لا يرى الإسلام قيمة لمعاهدة تنشأ على أساس من القهر والغلبة .
 - ٣ - أن تكون المعاهدة محددة المعالم واضحة الأهداف ، تحدد الالتزامات والحقوق تحديداً لا يدع مجالاً للتأول والتلاعب بالألفاظ .
- هذه هي القاعدة العامة التي تربط المسلمين بغيرهم في الأحوال العادية ، إذا كان هو لا مسالمة غير محاربيين ولا متعاونين على الكيد للإسلام وأهله . (٣)
وهذه القاعدة ثابتة لا تتغير إلا إذا تغيّر غير المسلمين فعمل على إفساد هذه العلاقة وتمزيق هذه القاعدة ، وأظهر عداوته وفضه للإسلام والمسلمين وأعلن الحرب عليهم ، أو ظاهر عليهم أحداً سواً أكان بالفعل أم بالقول ، عند هذا ترتفع المعاملة بالحسن وتنتهي الروابط والصلات الطيبة ، وتصبح المقاطعة واجبة يستلزمها صدق الإيمان وإخلاص العبودية لله .

(١) سورة الأنفال آية ٦١ .

(٢) انظر كتاب الثقافة الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة / د . شعبان محمد

إسماعيل / ص ٢٣٩ دار العريخ الرياض عام ١٤٠٠ هـ .

(٣) انظر الحد الفاصل بين الإيمان والكفر / عبدالرحمن عبدالخالق /

ص ٥٦ - ٥٧ / ط ٤ دار القلم الكويت .

قال تعالى ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تُوَلُّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١) ويقول سبحانه ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ (٢)

من هنا فإنه يتضح لنا الفرق الكبير بين موالاة الكفار ومعاملتهم والتي هي أحسن ، كيفما كانوا ولو من ذوى القربى كالأباء والأبناء وغيرهم ، فضلا عن غيرهم من اليهود والنصارى وبقية الكفار أفرادا كانوا أو دولا وجماعات .
(نموآلة الكفار تعني التقرب إليهم وإظهار الولد لهم ، بالأقوال والأفعال والنوايا) (٣)

ومذلك يتحدد المراد ويذول الالتباس وينتهي الخلط في المفاهيم ، نموآلة الكفار وموادتهم ومحبتهم شي * ومجرد إحسان معاملتهم وانصافهم شي * آخر ، وهذا الإحسان والبر والقسط إليهم لا يستلزم موآلاتهم ومحبتهم ونصرتهم من دون المؤمن لأن هذا لا يستقيم مع عقيدة التوحيد .

قال ابن حجر ^{رحمه الله} في الفتح (٤) (البر والصلة والإحسان لا يستلزم التحايب والتودد المنهي عنه في قوله تعالى ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ (٥))

ومن جهة أخرى فإن النهي عن موآلة الدول الكافرة ، ونصرتها والتودد إليها ومحبتها ومخالفتها على حساب الدين والأخلاق ، إن النهي عن هذا وتحريمه لا يعني انحباس الدول الإسلامية وتقوقعها على نفسها وامتناعها عن الاستفادة بما وصلت إليه تلك الدول الكافرة من تقدم وتطور بالغ الدقة في مختلف مجالات الحياة المادية ، والاستفادة من خبراتها ، إذا لم يتعارض ذلك مع أصول الدين أو قاعدة من قواعد الأخلاق ، فإنه لا حرج في المبادرة إلى ذلك والمشاركة إليه ، بل إن ترك ذلك يدل على عدم الفهم لروح الإسلام والبعد عن حقيقته ، ومخالفة أسسه وقواعده .

-
- (١) سورة الممتحنة آية ٩ (٢) سورة المجادلة آية ٢٢
(٣) الإيمان حقيقته وأركانه ونواقضه / د . محمد نعيم ياسين / ص ١٤٥ / ط ٢٠٢
(٤) فتح الباري ج ٥ ص ٢٣٣ (٥) سورة المجادلة آية ٢٢

ولهذا فلا مانع من أن نتعامل معها ولكن بشرف ونظافة وتحفظ
ومحافظة على ديننا وأخلاقنا وشخصيتنا الإسلامية ، لا كما هي حال المسلمين
في العهود الأخيرة ، من الذل والخضوع ، والتبعية لدول الكفر والكافرين .
ولقد نهى الله تعالى عن مهادنة الكفار وموالاتهم ومعاهدتهم إذا
ظهرت منهم بوادر العصيان وناصروا المسلمين العدا^١ وأضرروا الكيد للإسلام
لأن مهادنتهم والتحالف معهم وموالاتهم في هذه الظروف والأحوال ، تتعارض
مع الإيمان وصدق العبودية لله ، ولا يجوز لمؤمن أن يفعل مثل ذلك ، في أي
شكل من الأشكال إذا كانت الحال هكذا .

قال تعالى - محذرا المؤمن من اتخاذ الكفار أولياء وأنصارا ،
ومواددتهم ومعاشرتهم والتقرب إليهم والاستعانة بهم وغير ذلك من وجوه
الموالاتة * لا يتخذ المؤمن الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل
ذلك فليس من الله في شيء * إلا أن تتقوا منهم تقاة^(*) ويحذركم الله نفسه
والى الله المصير * (١)

(١) سورة آل عمران آية ٢٨ .

(*) أرى أن الاستثناء في قوله تعالى * إلا أن تتقوا منهم تقاة * قد
صار ذريعة للمسلمين في العهود الأخيرة التي ضعفت فيها شوكة
الإسلام ، ولم تعد له دولة ولا قوة تدافع عنه كما لغيره من قوى الكفر
والوثنية دول ذات شكية وغلبة ، مما أدى إلى الضعف والخور والانهزامية
والانتكاس على هذا الاستثناء وحمله على غير محله ونهيه فيما خاطبنا
تبعاً للمهزمنة الداخلية التي وقع فيها المسلمون ، في حين أن الآثار
الواردة عن السلف وأقوال المفسرين تؤكد على أن التقية المذكورة
في الآية ليست كما يذهب إليه الناصريون بحيث أعطوا الدنية نسي
دينهم ، وذلوا لعدوهم فوالوه وخضعوا له خضوعاً قلبياً بحجة أنه
أقوى ويملك أسباب القوة والدمار ، وأنهم في حالة ضعف لا تسمح
لهم بالمعاداة والبراءة من أعداء الله .

فالتقية هنا ليست هي الجبن والاستسلام والشعور بالضعف أمام العدو
وترك الجهاد والدعوة إلى دين الله .

كما أنها ليست من باب الموالاتة التي نهى الله عنها ، وإنما هي حالة
عارضة ورخصة تقدر بقدرها لدفع الضرر الذي يلحق بالمسلمين ، كي
يستعدوا لإتمام نقصهم وإكمال ما فقدوه شريطة أن لا يطول ذلك

ليس هذا فحسب بل إن الله نهانا - حتى في الأحوال العادية -
في أكثر من آية من آيات القرآن الكريم عن استبطان غير المسلمين من المنافقين
والمشركين والكفار وأهل الكتاب وغيرهم ، لأن هو لا المخالفين في العقيدة
يترتبون بالمسلمين الدوائر ويتحشون الفرص المناسبة ليظهروا كيدهم ويشفوا
ظليل صدورهم .

قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم
خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد
بيننا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ﴾ (١) .
ولهذا كان السلف رضي الله عنهم يستدلون بهذه الآية على ترك
الاستعانة بهم في الولايات والأعمال .

فروى الإمام أحمد بإسناد صحيح عن أبي موسى الأشعري رضي الله
عنه قال قلت لعمر رضي الله عنه : إن لي كتابا نصرانيا . قال : مالك ؟
قلت : الله . أما سمعت الله يقول ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود
والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ﴾ ألا اتخذت حنيفا ؟ قال قلت :
يا أمير المؤمنين ، لي كتابه . وله دينه . قال : لا أكرههم إذ أهانهم الله .
ولا أعزهم إذ أذلهم الله . ولا أدنيهم إذ أقصاهم الله . (٢)
وقال القرطبي في تفسيره : (نهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين
بهذه الآية أن يتخذوا من الكفار واليهود وأهل الذمة ولجاء ، يفاوضونهم في
الآراء ويسندون إليهم أمورهم .

وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان باتخاذ أهل الكتاب كتبة وأمناء
وتسودوا بذلك على الأغنياء من الولاة والأمراء . (٣)

===
بحيث يمتد أجيالا ويصبح أصلا أصيلا ودينا جديدا كما هو حال
المسلمين اليوم .

انظر بتوسع : الولاة والبراءة في الإسلام ص ٣٧٢ - ٣٧٣ .
وراجع تعليق محمد منير الدمشقي على مختصر شعب الإيمان ص ٢١٧
دار الطهارة المشيرية .

(١) سورة آل عمران آية ١١٨ .

(٢) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ص ٥٠ ، وتفسير الزمخشري ج ١ ص

٦١٩ ، وتفسير الرازي ج ١٢ ص ١٦ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن / القرطبي ج ٤ ص ١٧٨ ، ج ٦ ص ٢١٦ .

وليت شعري ماذا يقول القرطبي - رحمه الله - لورأى ما عليه الحال في زماننا نحن ، من اتخاذهم مستشارين في أهم الأمور السياسية والعسكرية والاقتصادية ، واستقدامهم إلى ديار الإسلام وتولييتهم كثيرا من شؤون المسلمين كتدريب الجيوش والتخطيط لمستقبلها والإشراف عليها ، وإطلاعهم على عورات بلدان المسلمين ومعرفة نقاط القوة والضعف فيها ، وصار منهم الأطباء والمدرسون والموجهون وأمناء الأسرار ، والكتبة ، ويستقبلون بالتسهيل والترحيب في معظم ديار الإسلام .

والأنظع من ذلك كله أنه أسندت إليهم في بعض الهلاد الإسلامية مهمة وضع القوانين المدنية ، وتنقيحها وتنظيمها ، بدلا عن أحكام الشريعة الإسلامية ^(١) ، فكانت هذه - لعمر الحق - قاصمة الظهر .

وليت الأمر وقف ضد الاستعانة بغير المسلمين ومآلاتهم ومخالطتهم ومخالطتهم والتودد إليهم حال كونهم أفرادا وجماعات معدودة . ولكن الأمر تجاوز ذلك إلى مستوى مآلة الدول الكافرة ومخالفتها والتودد إليها والخضوع لها والانقياد لأقوالها ، وظهور بين المسلمين من يدعو إلى حسن الطاعة ، وملاطفة الدول الصليبية المحتلة وسهانتها ومد يد العونة وطلب القربى إليها ، ظنا منهم أن ذلك سبب النصر والقوة والمنعة ، وسهيل التقدم والتحضر ، من غير أن يتفكروا في الأمر وينظروا هل يتفق هذا مع عقيدة الإيمان والتوحيد ، ويقبله الإسلام الحقيقي ، ويرضى به المؤمنون الموحّدون ؟

ومن هؤلاء الدعاة إلى مآلة الدول الأوروبية - على سبيل المثال لا الحصر - عبد الرحمن الكواكبي . فقد أصدر كتابا بعنوان (أم القرى) عام ١٨٩٩ م جاء فيه من الإشارات العربية التي تدعو المسلمين إلى مآلة الدول الأوروبية المحتلة لديار المسلمين وسهانتها وتقديم الطاعة لها واحترام آرائها والتقيد والالتزام بتوجيهاتها الشيء الكثير ومن ذلك قوله : (وكفتح أبواب حسن الطاعة للحكومات العادلة والاستفادة من إرشاداتها ، وإن كانت غير مسلمة ، وسدّ أبواب الانقياد المطلق ولولمئل عمر بن الخطاب) ^(٢) .

(١) انظر الشريعة الإلهية لا القوانين الجاهلية ص ١٠٣ - ١٠٥ .

(٢) انظر ماذا خسّر العالم بانحطاط المسلمين ص ٢٦٣ .

(٣) نقلا عن أزمة العصر/ محمد محمد حسين ص ١٩ دار عكاظ ، واتجاهات

هكذا قال - ويقولون - من غير تحفظ بأن الدول الصليبية عادلة وطاعتها والخضوع لها أولى من طاعة من يشبه همربن الخطاب لأنه في نظره حاكم متصلط غير عادل ورجل فظ غليظ القلب لا يعرف من الرعية إلا الطاعة العمياء والانقياد والخضوع المطلق!

وهناك الكثير من هم على رأى الكواكبي ويدعون لهذا من أمثال :
(طه حسين) (قاسم أمين) و (علي عبد الرازق) وغيرهم من الشخصيات التي فرضتها وسائل الإطلام على المسلمين وأعلت من شأنها تلك الدول التي يدعون لحسابها ويروِّجون لجدائها الوثنية .

ولا أدري هل نسي الكواكبي وأسأله أن الإسلام والمسلمين قاسوا من الدول الغربية المحتلة ألوانا من العذاب ولا يزالون يقاسون وأن دماء الأحرار الزكية من المسلمين الذين قتلتهم أسلحة تلك الدول لم تكن قد جفت بعد في الوقت الذي كان هو يلهج بذكرها في الهند ومصر وسوريا ، ولبنان واندونيسيا والجزائر وليبيا وغيرها من الدول الإسلامية ، حتى يصفها بالعدل ويطلب من المسلمين موالاتها وحسن الطاعة لها ؟

هل من العدل كلُّ تلك الحروب والويلات والدمار التي ألحقها تلك الدول بالعالم الإسلامي ؟

هل من العدل تلك الجهود الشيطانية التي بذلتها الدول الأوروبية

لطمس العقيدة الإسلامية ونقل المسلمين عن دينهم بهزؤ فكري منظم ؟
والآن وقد استقلت الدول الإسلامية وتحررت من العبودية المباشرة للدول الأوروبية المحتلة التي بقيت تتعج بالسيادة المطلقة في العالم الإسلامي سنوات طويلة ، وخرج السادة طوعا أو كرها ، وفكَّت قيود الشعوب الإسلامية المسترقة وأعطيت شيئا من الحرية ، وأقيمت وما زالت تقام الاحتفالات والأعياد بذكرى الاستقلال ونيل الحرية في كلِّ بلد إسلامي .

ولكن هل حقا تحررت الدول الإسلامية من الاحتلال الأوروبي وصار لها كيانها المستقل ونالت حريتها الكاملة ، وهي ما تزال تابعة لتلك الدول الكافرة ؟

إن الناظر إلى واقع العالم الإسلامي في العهود الأخيرة يدرك حقيقة الحرية والاستقلال الذي حصلت عليه أكثر الدول الإسلامية ، فهي إلى جانب كونها قد صارت دولا مجزأة وشعوبا مشتتة ، تفرقها الأوطان والجنسيات والقوميات الجاهلية وتفصل بينها الحدود المصطنعة .

إلى جانب هذا كله فهي موزعة الولا^١ بين اتجاهات متضادة ، وورقات متعددة . ومأسورة لدول مختلفة في الشرق والغرب بالولا^١ والخضوع والتبعية ، فتلقى منها الإرشادات والتوجيهات وتنتظر منها الهبات والمساعدات وتستورد كل ما لديها من قيم وسيادى^١ وأفكار ونظم مختلفة بعيدة عن حقيقة الإسلام ، بل ومناقضة له في بعض الأحيان .

وسبب ذلك أن هذه الدول المحتلة لم تغادر بلاد المسلمين إلا وقد خلفت وراءها فئة من أهنا^١ المسلمين أنفسهم أعدتها لإعداد المطلوب لتكمل الدور الذى بدأتها تلك الدول الكافرة ، فقد لقنتها من العلوم والمبادئ والأفكار والمفاهيم الوثنية ما يؤهلها لتكون خلفا لذلك السلف الوثني ، تؤمن بأفكاره وتتخلق بأخلاقه وتلهج بذكره في كل المناسبات والأحوال ، وتدعو إلى موالاة^١ والتحالف معه والانضمام إلى حزبه .

وقد كانت هذه الفئة عند حسن الظن بها فقامت بأداء^١ الدور المطلوب ونهضت بالواجب الذى ألقته الدول المحتلة على عاتقها خير قيام ، فهي ما زالت متعلقة بها وموالية لها على حساب دينها وعقيدها ولا ترى مفازا ولا نجاة ولا صلاحا لدولها إلا باتباع خطى تلك الدول الوثنية بغض النظر عن مقدار ما وصلت إليه من بعد عن دين الله وانحطاط في الأخلاق والسلوك ، وتفرض ذلك على الشعوب الإسلامية التي تهيأت بدورها لتقبله .

وهاهي ذى بلادنا الإسلامية موزعة الولا^١ بين الشرق والغرب : فمنها الموالى لدولة غربية رأسمالية تقوم على الديمقراطية والعلمانية اللادينية ، ومنها الموالى لدولة شرقية شيوعية ملحدة ، وقد تكون الدولتان متجاورتين متقاربتين على الخريطة الجغرافية ، ولكنهما متباعدتان . وذلك بسبب اختلاف ولائهما بين الشرق والغرب ، وبالتالي تختلف السياسة أو الفلسفة التي توجه كلا منهما نحو صورة من صور الوثنية الحديثة التي تتبناها تلك الدول الكافرة .

وأما بالنسبة لمظاهر هذه الموالاة التي ابتليت بها أمتنا الإسلامية في العهود الأخيرة فيمكن ذكر أهمها وأبينها وأشدّها خطرا على ديننا وأخلاقنا وبالتالي على سعادتنا وأمن بلادنا ، والتي قد يكون بعضها من نواقض الإيمان ومخرجا من ملة الإسلام ، والبعض الآخر يعدّ من كبائر الذنوب والمعاصي على أقل تقدير وذلك لأن (مسمى الموالاة يقع على شعب متفارقة منها ما يوجب الردة كذهاب الإسلام بالكلية ، ومنها ما هو دون ذلك من الكبائر والمحرمات) (١) .

(١) الرسائل المفيدة ، الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ / ص ٤٣

وعلى كل الوجوه ، وكافة التقديرات فان هذه الموالاة لدول الكفر التي يعيشها العالم الاسلامي اليوم تعبر عن مقدار الهزيمة الروحية الداخلية التي أصابت المسلمين ففقدوا ملامح الشخصية الإسلامية المتميزة بسبب الجهل بمبادئ عقيدة التوحيد واختلاطها بالمفاهيم الجاهلية الوثنية والتباسها على أبناء الإسلام ، حتى صار الواحد منهم يقع في الشرك الأكبر وهو يلتصق لنفسه أو يلتصق له أقبح الأعداء والجررات ، ولا يلقي لذلك كبير أهمية ولا عظيم اهتمام .
وصدق الله حيث يقول ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ (١)
وهذه هي أشهر صور موالاة الكافرين التي وقع فيها المسلمون في العهود الأخيرة . (٢)

١ - الصورة الأولى وتتمثل في الانبهار بما عند الكفار وتقليدهم في كل حركاتهم وتقمص شخصياتهم واتباع آثارهم في كل صغيرة وكبيرة من الأمور القافية والمظاهر الخارجية البراقة وسفاسف العادات والإعجاب بها .
وقد أخبر بذلك الرسول صلى الله عليه وسلم وحذرت أمته من ذلك فقال : (لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه . فقال الصحابة ، اليهود والنصارى ؟ قال فمن إذن) . (٣)
وقد وقع كل ذلك وما ترك المسلمون شيئا ما ابتدعه أهل الكتاب إلا وقد فعلوه (٤) ، وهذا من دلائل موالاتهم لهم التي أقل ما فيها أنها من كبائر الذنوب والمعاصي ، وتفضيل الأخلاق والعادات الجاهلية والمعبودية لها ولأصحابها ، كما هو ملاحظ على حال معظم شباب وشابات المسلمين الذين استعبدتهم الموضات الأوروبية وسبوت الأزياء بما تستحدثه من ألحسة وأحذية وتسريحات للشعر وأدوات تجميل للوجه ، فهم مطيعون لها ومنقادون لما تفرضه عليهم ولا يملكون الخروج عليها ينفقون في سبيلها كل ما في جيوبهم ، فأى عبودية هذه التي وقعوا فيها .

(١) سورة يوسف آية ١٠٦ .

(٢) للمزيد من صور الموالاة للكفار . انظر رسالة الولاء والبراء في الإسلام

ص ٢٣٤ - ٢٥٢ .

(٣) الحديث متفق عليه . البخاري في الأنبياء ٥٠ وسلم في العلم ٦ .

(٤) راجع الانبهار بالحضارة الغربية .

٢ - الصورة الثانية وتتمثل في التصديق بما عندهم من الأفكار والعقائد والمذاهب السياسية والاجتماعية والترويج لها والانخراط فيها .

وهذا ما هو شاهد وملحوظ في واقعنا الإسلامي ، فالكثير من المسلمين قد آمن بالأفكار الديمقراطية العلمانية ، والكثير يؤمن بالشيوعية الاشتراكية ، والكثير يرى أن القومية والوطنية هي أساس التجمعات البشرية وأن الدين لم يعد صالحا لوحدة البشرية وقيام المجتمعات الحضارية ، فرؤجوا لفصل الدين عن الدولة تماما كما فعلت أوروبا مع الدين الكسبي والكثير يروج للحرية والاختلاط والسنفور والانخلاع من كل قيود الأخلاق كما هو الحال في أوروبا .

وهكذا فقد انتشرت هذه المذاهب الوثنية بين المسلمين وصار فيها الولاء والحب والنصرة .^(١)

ومعلوم أن هذا ما نهى الله عنه وحذرنا من الوقوع فيه فقال تعالى
ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين
نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ، إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما
دون ذلك لمن يشاء . ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالا بعيدا .^(٢)

فالإيمان بهذه المذاهب الباطلة والتصديق بها والترويج لها يبين المسلمين في ديار الإسلام يعتبر من الموالاة لدول الكفر ، وهي تناقض عقيدة التوحيد وتفضى إلى الشرك والوثنية والعيان بالله .

٣ - الصورة الثالثة : في مداراتهم ومجاملتهم ومداهنتهم على حساب الدين والاختلاط بهم ومدحهم والثناء عليهم وتعظيمهم ووصفهم بعظيم الصفات والألقاب .

وهذا شيء وقع فيه الكثير من أبناء الإسلام وعلى كافة المستويات ، وهو يعد نتيجة طبيعية للهزيمة الداخلية التي يشعر بها المسلمون في كافة الأقطار الإسلامية ، فقد رأوا أن الدول الكافرة قد تفوقت عليهم في مختلف المجالات المادية فظنوا أن التودد إليهم ومجاملتهم والتقرب منهم والاختلاط بهم ومدحهم وتوقيرهم والإذعان لهم يقربهم من الدول المادية ويرفعهم إلى مصافها ، وكان ذلك على حساب الدين والأخلاق فبدأوا ينسلخون من دينهم ويتحللون من أخلاقهم مجاملة ومدارة للكفار ، وكانت النتيجة مؤلعة والخسارة فادحة ، حيث خسروا دينهم وفقدوا أخلاقهم ولم يصلوا إلى المستوى المادي الذي عليه دول الكفر التي قطعت شوطا بعيدا في التطور المادي .

(١) الردة بين الأمن واليوم ، محمد كاظم حبيب ص ٤٠ ط ١ .

(٢) سورة النساء آية ١١٥ - ١١٦ .

٤ - الصورة الرابعة من صور الموالاة لدول الكفر والكافرين وتتعلل في اتخاذهم بطانة من دون المؤمن وتوليتهم كثيرا من الأمور والركون إليهم والاعتماد عليهم وطاعتهم فيما يأمرون ويشيرون به .

وهذه صورة جد خطيرة وهي تخالف ما أمر الله به في آيات كثيرة قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خِيَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْيَاءُ مِنْ أَمْوَاهُمْ وَمَاتَخَفِي صَدُورَهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١)

وقال تعالى ﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ (٢)

قال القرطبي في هذه الآية : الركون حقيقته الاستناد والاعتماد والسكون إلى الشيء والرضا به .

واتخاذهم بطانة وتوليتهم أمور الدولة يستلزم طاعتهم والالتزام بما يرونه ويشيرون به ، وقد نهى الله تعالى عن طاعتهم وبين أنها سبب

للخسران وقد يفضي ذلك إلى الشرك نعوذ بالله من ذلك . (٤)

قال تعالى ﴿ وَلَا تَطَّعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا ﴾

وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ خَاسِرِينَ ﴾ (٥)

وقال سبحانه ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ (٦)

قال ابن كثير في هذه الآية : (حيث عدلتن عن أمر الله لكم وشرعه

إلى قول غيره ، فقدتم عليه غيره فهذا هو الشرك) (٧) ، كما قال تعالى :

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرَهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (٨)

(١) سورة آل عمران آية ١١٨ .

(٢) سورة هود آية ١١٣ .

(٣) تفسير القرطبي ج ٩ ص ١٠٨ .

(٤) سورة الكهف آية ٢٨ .

(٥) سورة آل عمران آية ١٤٩ .

(٦) سورة الأنعام آية ١٢١ .

(٧) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٣٢٢ .

(٨) سورة التوبة آية ٣١ .

وقد سبقت الإشارة إلى أن السلف رضوان الله عليهم كانوا يستدلون بهذه الآيات على ترك الاستعانة بالكفار وغيرهم، وكانوا يمثلون لها ويلتزمون بها .

والمسلمون في العهد الأخيرة قد وقعوا في شر من هذا حتى أصبحت هذه المخالفات من أهون الأمور في نظر الكثير منهم، بل إن استيطان غير المؤمنين صار شبه ضرورة عند البعض .

٥ - والصورة الخامسة وتتمثل في التآمر معهم والتجسس لحسابهم

(١)

وتنفيذ مخططاتهم والدخول في أحلافهم وتنظيماتهم .

وهذه الصورة بارزة الظهور وهي من أخطر ما ابتليت به الأمة الإسلامية في هذا العصر، حيث إنه قد نشأت من أبناء المسلمين فئات متآمرة مع أعداء الله سخرت نفسها لطاعة الشيطان، وتنفيذ مخططات اليهود والنصارى التي وضعوها لتدمير الإسلام وإفساد المسلمين في عقرب دارهم، فهم العيون الساهرة على إنجاحها في كافة المجالات : تربويًا، وتعليميًا، وسياسيًا، واقتصاديًا، وأخلاقيًا، ودينيًا . . . إلخ فكلها تسير على خط الموالاة لدول الغرب .

يقول الشيخ سيد سابق ^{هفظه الله} عن هؤلاء : « وأمثالهم من المتعاونين مع دول الكفر مبيننا حكم الإسلام فيهم : (إن حكم القرآن في هؤلاء الذين يتعاونون مع الاستعمار وأعداء العرب والمسلمين ببيان واضح، وإن ذلك خيانة لله، ولكتابه ورسوله ولائمة المسلمين وعامتهم، وإنهم لم يراعوا حق الإسلام ولا حق التاريخ) » (٢)

٦ - الصورة السادسة من صور الولاة لدول الكفر والكافرين تبدو في

ظاهرة التحاكم إليهم من دون الله، والرجوع إليهم في حل قضايا المسلمين،

وتلك لعمر الله قاصمة الظهر، فلما تخلت معظم الدول الإسلامية عن شريعة

الله وتحكيمها في مختلف شؤونهم العامة والخاصة، وتبعوا في ذلك الدول

الأوروبية، لم يبق أمامهم إلا القوانين الوضعية والدساتير الدولية الباطلة،

والمحاكم اللادينية، وهذا في داخل بلادهم، وأما في الخارج وعلى المستوى

الدولي، فليس هناك إلا هيئة الأمم المالية ومجلس الأمن الدولى، وكلها

أسست من أول يوم لخداع المستضعفين ومعاصرة الأقوياء الظالمين في ظلمهم . (٣)

(١) راجع الإيمان / د . د . مجد نعيم ياسين / ص ١٨٨-١٨٩

(٢) فقه السنة، سيد سابق ج ٢ ص ٦٠٨ ط أولى دار الكتاب العربى بيروت .

(٣) انظر موقف العقل والعلم والمالم، مصطفى صبرى ج ١ ص ٥٥ .

فما من قضية من قضايا المسلمين إلا وقد عرضت في هذه المحاكم اللادينية، وخضع المسلمون فيها لأحكام الطواغيت ومع هذا فإنها لم ترد لهم حقا ولا أمنا مفقودا، ولا كرامة مهانة ولا حنى مستباحا .
ويا للعجب كيف نرجو من بيوت الأصنام ومحاجر الأوثان ومخافيل الطواغيت، والسدنة والكهان أن تنصف الإسلام والمسلمين وترد لهم حقوقهم! كيف تكون هذه الدول حكما لنا في حل قضايانا، وهي في الوقت نفسه عدونا وخصمنا ؟

متى كانت الوثنية منصفة للتوحيد وهما نقيضان ؟
هل قبل الإسلام في تاريخه الطويل وعلى مدى ثلاثة عشر قرنا هجرية مثل هذا التخاذل والولاء والتبعية لدول الكفر ؟
هل حصل من المسلمين - عندما كانوا مسلمين حقا - مثل هذا الذل والهوان والمؤالة ؟

إن هذا لم يحصل أبدا، وإن الأحوال الميقة التي عاشها المسلمون في اليهود الأخيرة كانت وراء كل هذا البعد والانجراف وراء التيارات الوثنية المعاصرة ومهادنتها والسير في ركاب الدول التي ترعاها وتحمل رايتهما .
ولن نعود إلى سابق عهد أمتنا المجيد، ولن تكون لنا شخصية دولية يهابها الأعداء إلا إذا أعدنا النظر بجد وصدق في مسألة مؤالاتنا ومحالفتنا لأعداء الله، وضيطناتها بالضوابط الشرعية وجعلنا الولاء أولا وأخيرا لله ورسوله ومن يلتزمون بدينه، وتركنا كل ولا للطواغيت وقطعنا كل عهد وثني التزنا به في لحظة غفلة عن دين الله وعهد عن شريعته .

يجب أن نعلم أن مؤالاتنا للدول الأوروبية وتوسلنا إليها لحل قضايانا السياسية والاقتصادية، لا تزيدنا إلا خسارة، ففي كل يوم تنكشف مكاييد الأعداء وتظهر عداوتهم لنا ويغضهم للإسلام، وفي كل حادثة من الحوادث يتضح موقفهم من دين الله ومعاداتهم لأوليائه .

وفي كل اجتماع من اجتماعات كبار السدنة ورووس الطواغيت، وفي كل لقاء من لقاءات القادة (١) يوم كدون اتفاقهم على محاربة دين الله والنيل من الإسلام والمسلمين .

فإلام ستدوم مؤالاتنا ومودتنا ومحبتنا لأعدائنا ؟

(١) راجع : قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبويدوا أهله . جلال العالم .

وأخيراً فهذه مجموعة من صور الولاة للكفار ومظاهرتهم في عصرنا ، ليست على سبيل الحصر ولكنها على سبيل المثال ولفت النظر لما صار إليه المسلمون مؤخراً ، وقد سبق القول بأن هذه الصور الوثنية تتأرجح بين الردة الكاملة عن دين الله والخروج عن ملة الإسلام هيمن كباثر الذنوب والمعاصي ، وذلك لأن الموالاة والمودة والحب وغيرها ذات صلة وارتباط بالقلب الذي لا سلطان لأحد غير الله عليه (١) ، فإذا رضي القلب وانشرح الصدر بأى شكل من أشكال هذه الموالاة فإن هذا يعتبر ردة عن الإسلام وخروجاً من الدين وتفضيلاً للشرك والوثنية ، وإذا كانت الموالاة لم تصل لهذه الدرجة وبقيت مجرد أعمال ظاهرية وتساهل فإنها تكون من كباثر الذنوب والمعاصي تفوق في الإثم والمعصية بعض الكباثر من الزنا والقتل والسرقه .

وإله
وخلاصة الأمر كما يقول شيخ الإسلام /: (إن من كان في هذه الأمة موالياً للكفار: من المشركين ، أو أهل الكتاب ببعض أنواع الموالاة ، ونحوها : مثل اتيانه أهل الباطل واتباعهم في شيء من مقالهم وفعالهم الباطل : كان له من الذم والعقاب والنفاق بحسب ذلك ، ومن تولى أمواتهم أو أحياء هم بالمحبة والتعظيم والموافقة فهو منهم) (٢)

وأخيراً فليُنظر المسلمون أين هم من هذا ، ويخلصوا عبوديتهم لله تعالى وحده ويجعلوا ولاههم حتى يعملوا من لوثة الوثنية ، ولا يغلبتهم الخوف على زهاب السلطان أو ضياع الأموال وفقدان المراكز وغير ذلك من المخاوف الدنيوية التي لا تصح ولا يقبلها الله تعالى عذراً لهم (٣) ، لأنها في مجملها من وساوس الشيطان وتزيين الكهان وتخويف سدنة الأوثان .

فكل محبة تطغى على محبة الله ورسوله فهي باطلة ومناقضة لصحة الإيمان ، وكل موالاة لأعداء الله فهي مرفوضة في منظار الإسلام .

قال تعالى ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فترهبوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ (٣)

(١) رسالة العبودية ص ٩٥ - ٩٦ ، ط ٤ .

(٢) مجموع الفتاوى ج ٢٨ ص ٢٠١ .

(٣) انظر الإيمان ، د . نعيم ياسين ص ١٩٣ .

(٤) سورة التوبة آية ٢٤ .

رابعاً - الدعوة إلى السفر والاختلاط

سبق القول أكثر من مرة بأن عدوى الوثنية الغربية الحديثة قد أصابت المسلمين في مختلف جوانب الحياة فلم تبق لهم عادة ولا قيمة من القيم الثابتة ، ولا خلقاً من الأخلاق الحميدة ، ولا مميّزة من المميزات التي اختصوا بها عن غيرهم من أهل الأديان إلا وغزتها الوثنية وحاولت أن تصبغها بصبغتها وتطبعها بطابعها المتحلل من قيود الدين وقواعد الأخلاق الفاضلة ، الذي صارت إليه أوروبا بعد ثورتها على الكنيسة وتحللها من الدين في بداية ما يعرف بعهد النهضة .

وقد كان من المظاهر الأخلاقية الفاضلة التي امتازت بها الشعوب الإسلامية ظاهرة الأدب والاحتشام بين النساء أو ما يعرف بالحجاب مخالفة لكلّ الجاهليّات والشعوب الوثنية التي عُزِّقَتْ نساؤها بالتبذل والتبرج والسفور والاختلاط .

وبقيت هذه الظاهرة الطيّبة سائدة في العالم الإسلامي نحو ألف وثلثمائة عام هجري ، حتى رمى العالم الإسلامي بالتقليد الأعمى والاتباع الأهوَج لكلّ ما جاءه عن طريق الغرب ، في العهد الأخير عن طريق الغزو الفكري ، ودخل المسلمون في كلّ جحر دخله الغربيون وسلكوا كلّ مسلك محاد للدين وبياعد للأخلاق سلكته أمامهم الدول الصليبية .

واستقرّ في نفوس الكثير من المسلمين - لا سيّما الطبقة المثقفة - أن أوروبا لم تتقدم هذا التقدم ولم تتطور هذا التطور المادي الكبير إلا لخروجها على الدين وعدم التزامها بقواعد الأخلاقية ، وأنه لا بدّ لنا إذا أردنا أن نصير إلى ما وصلت إليه ، ونصل إلى ما وصلت من تقدم وتطور أن نحذو حذوها في كل ما فعلته ونتبع خطاها حذو الفعل بالفعل ، ولهذا فإنه لا بدّ أن نتخلى عن ديننا وأخلاقنا ولو بصورة جزئية .

فبدأت هذه الفئات المبهورة تشنّ حملات دعائية على كافة المستويات وبمختلف الوسائل الإعلامية لإقناع المسلمين بهذه المعادلة الخاطئة (دين وأخلاق يساوي الجهل والتأخر والانحطاط ، لا دين ولا أخلاق يساوي حتماً العلم والتطور والتقدم والازدهار) .

وكانت مسألة الحجاب من أبرز مسائل المرأة التي هاجمها دعاة التقدم وأنصار الوثنية .

ولست أقصد بالتبرج والسفور - في هذه الفقرة - مجرد كشف المرأة وجهها وكفيها كما هو معروف في محلّ النزاع بين الفقهاء ، فالمسألة لم تقف عند هذا الحد بل تجاوزت الحال كلّ الحدود حتى صار مجرد كشف الرأس كاملا واليدين إلى الذراعين والقدمين إلى الركبتين لا يلفت النظر ولا يجلب الدهشة ولا يبعث على الاستغراب ، والاستنكار في كثير من الدول الإسلامية ، وتبلك حس الأجيال الناشئة التي شبت وألفت هذا الأمر .

إن السفور الذي أعنيه هو ما نراه ونعيشه من واقع حياتنا المعاصرة من العري والتفتك والتحلل من مكارم الأخلاق .

هو الانغماس في الشهوات والرذائل والخطّ من القيمة الإنسانية في المرأة ، وحملها على بذل نفسها والتنازل عن عفتها وكرامتها ودفعها إلى حياة أفحش مما كانت عليه المرأة في الجاهلية الأولى .

يقول مصطفى صبري / (لا نتكلم في سفور النساء بمعنى الكشف عن وجوههن بحجة أن المرأة هي الأخرى إنسان كالرجل يضايقها ما يضايقه من الاحتجاب والاستتار . . بل بمعنى كونهن كاسيات عاريات لا يقنعهن ما يقنع الرجل من أعضائه المكشوفة فيزدن بكثير على مبلغهم فيها وإن شئت فقل في اختصار يتفق مع تعبير القرآن : سفورهن بمعنى إبداء زينتهن لغير الأقربين من الرجال المعدودين في آية الحجاب التي ينكر أنصار السفور وجودها في كتاب الله . . إبداء زينتهن مستهترات في إبدائها الممنوع في تلك الآية يتكوّن ويتفنّن على حسب العادات المستحدثة في الغربيات غير المسلمات) (١) .

هذا هو المعنى المقصود من السفور ، أو هذا هو السفور الوثني الذي أعنيه وأشير إليه والذي ربما فاق سفور الجاهلية التي ذمها الله سبحانه وتعالى ونهى نساء المسلمين أن يتشبهن بها ، (ولا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى) (٢) .

ومن أعظم ما جاء في وصف سفور المرأة في تلك الجاهلية ، ما رواه ابن كثير - رحمه الله - عند تفسير قوله تعالى (وليضرنّ بخمرهن على جيوبهن) (٣)

١ - موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين ، مصطفى

صبري ، ج ١ ، ص ٢٨٥ .

٢ - سورة الأحزاب آية ٣٢ .

٣ - سورة النور آية ٣٠ .

عن مجاهد قوله (كانت المرأة تخرج تمشى بين الرجال فذلك تبرج الجاهلية)
وعن قتادة قوله (كانت لهن مشية تكسر وتخنج فنهى الله عن ذلك)
وعن مقاتل قوله : (والتبرج أنها تلقى الخمار على رأسها ولا تشده فيدارى
قلائدها وقرطها وعنقها ويبدو ذلك كله منها) (١) .

وقال ابن كثير : (لقد كانت المرأة منهن - أى نساء الجاهلية - تمر بين
الرجال مسفحة بصدرها لا يواريه شيء ، وربما أظهرت عنقها ، وذائب شعرها
وأقرطة آذانها فأمر الله المؤمنات أن يستترن فى هيئاتهن وأحوالهن) (٢) .

وقال الزمخشري فى الكشاف : (كانت المرأة تلبس الدرع من اللؤلؤ لئلا تمشى فى
وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال) (٣)

وقال فى نساء المؤمنين قبل نزول آية الحجاب : (كانت جيوسهن واسعة تبدو
منها نحو رهن وصدورهن وما حوالينهن وكفى يسد لى الخمر من ورائهن فتبقى مكشوفة
فأمرن أن يسد لىها من قوامهن حتى يغطينها) (٤) .

هذا من أعظم ما جاء فى وصف سفور النساء وتبرجهن فى ظل الوثنية واليهود
الجاهلية السالفة .

وقد كان الإسلام شديد الحرص على إصلاح المجتمع الإسلامى الذى بناه
على أنقاض تلك المجتمعات الوثنية ، والقضاء على كل مظاهر الانحلال والفجور
وسد جميع منافذ الفتنة التى تهدد كيان المجتمع ، فأمر النساء جميعهن بالاحتشام
والاحتجاب ولبس الجلاب وغطى البصر وحفظ الفروج وعدم إظهار زينتهن أمام غير
محارمهن واعتزال الاختلاط بالرجال .

وصارت النساء لا يظهرن إلا متلفعات بجلابيهن من غير زينة تلفت الأنظار ،
والتزمن بذلك زمنا طويلا ، وقيت المجتمعات الإسلامية طاهرة ومحافضة على دينها
وأخلاقها ، نقية من كل ما يكدرها ، ولم يشعر المسلمون - ذكورا وإناثا - أن الالتزام
بعباد الحجاب كان فى يوم ما عائقا لهم عن ممارسة أعمالهم والقيام بواجباتهم ،

١ - انظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٨٢ .

٢ - المرجع السابق ج ٣ ص ٢٨٤ .

٣ - تفسير الزمخشري ج ٣ ص ٢٦٠ .

٤ - المرجع السابق ج ٣ ص ٦٢ .

وانظر : فى ظلال القرآن ج ٥ ، ص ٢٨٦٠ - ٢٨٦١ .

كما يقرُّ بذلك (قاسم أمين) مبتدع هذه الفتنة ومؤسسها الأول ، كما سيأتى بيانه فيما بعد (١) .

يقول : (ومعكس العادات الغربية التى يظهر أنها وضعت لتعميم اللذات فى هذا العالم والإكثار من دواعيها فيه بنيت عاداتنا - معشر الإسلام - على مبادئ الفضيلة والعفاف وها هو قد مضى على المسلمين زيادة على ألف وثلثمائة عام وهم متبعون هذا الطريق مفضلون الفضيلة على شهوة النفس فصار ذلك عادة فيهم جهلية لا ينفكون عنها) (٢) .

هذا حال العالم الإسلامى وموقفه من حجاب المرأة ، فلم تكن هناك مشكلة كما نطق بذلك الذى انقلب على عقبيه وافتعل مع مرديه وأنصاره قضية لم يكن لها وجود هزت العالم الإسلامى وحطمت كيان الأسرة المسلمة بعد أن فسدت ربة البيت وانطلقت من عقال الدين وآثرت العودة إلى ما كانت عليه أختها فى الجاهلية من تبرج وسفور واختلاط بالرجال .

والدعوة لسفور المرأة وتبرجها واختلاطها مع الرجال فى مختلف ميادين الحياة - التى حمل لواءها قاسم أمين - تعتبر مظهرا من مظاهر عدوى وثنية الحرية الشخصية والاباحية المطلقة التى صارت إليها الدول الأوروبية بعد ما يسمى بعصر النهضة وتحللها من قيود الدين والأخلاق لاسيما بعد الثورة الفرنسية ، وهذا بالطبع لم يكن معروفا بين الشعوب الأوروبية فى فترة العصور الوسطى - عهد الكنيستة والاقطاع - رغم التأخر والانحطاط والظلم الذى كان يلف أوروبا وقتئذ ، فقد بليت محافظة على بقايا من أمور الدين ومبادئ الأخلاق الإنسانية ، حتى كان عصر النهضة أو عصر الردة إلى الوثنية الاغريقية وتم كليا فصل الدين عن الدولة ، وتحررت النظم والقوانين الاجتماعية من سيطرة الدين ، وصارت الحرية شعارا يرتكب باسمها كل محذور (٣) .

١ - كان هذا فى عام ١٨٩٤ م ولم يلبث بعد ذلك إلا ستة أعوام حتى صار يشار إليه بأنه محرر المرأة (بل مستعبدها) .

٢ - نقلا عن فصل الخطاب فى المرأة والحجاب ، محمد طلعت حرب ، ص ٣٤ - ٣٥

طبعة ١٩٠١ م ، وفضل مراجعة الكتاب بشكل عام .

٣ - انظر أزمة العصر ، محمد محمد حسين ، ص ١٢٠ .

وقطعت الإباحية والسفور الفاحش مرحلة كبيرة من تاريخها وهي تفتك بأوروبا وهزت دعائم مجتمعاتها هذا عنيفا حتى أفقدتها الاستقرار والاتزان ، وعرضتها لأشد الأخطار وألحقت بها كثيرا من الأضرار ، والعالم الإسلامي في بعد وحماية من ذلك .

ولهذا فقد عز على أوروبا والطفمة الفاسدة من أبناء المسلمين التي ترثت على أفكارها وآمنت بها ، عز على هؤلاء جميعا أن تبقى المجتمعات الإسلامية والمرأة المسلمة في منأى عن شرور هذه الدعوة وأخطارها وعواقبها الوخيمة ، فكان لابد من التخطيط لنقل العدوى إليها ورميها بذات الداء الذي أصيبت به تلك المجتمعات اللادينية .

وأخذت الفئات المستغربة من أبناء جلدتنا في مختلف نواحي العالم الإسلامي على عاتقها أن تفتعل المبررات وتهيئ الأجواء المناسبة لنشر السفور والتبرج والاختلاط وإقناع المرأة المسلمة بذلك ، وتقليد أوروبا والسير على نهجها (١) .

وكانت الدعوة للسفور والتبرج والحرية غير المقيدة أضخم تفجير فجره الغرب الوثني ومن سار على دبره ، داخل البيت المسلم حتى تزعرع هذا البيت في عقائده وشرائعه وعباداته ومعاملاته وكل شؤونه في الداخل والخارج .

ومن المعروف أنه إلى نهاية القرن التاسع عشر لم يعرف العالم الإسلامي مشكلة للحجاب ، ولم يألّف السفور والتبرج والاختلاط ،

ويذكر أنه في عام ١٨٩٤ م قام أحد الأقباط الصليبيين بمصر وهو (مرقس فهمي وكان محاميا) يدعو النساء في مصر إلى خلع الحجاب وسفور الوجه ، وتقليد المرأة الغربية في زيّها وجميع تصرفاتها حتى تلحق بركب الحضارة ومسايرة الدول المتطورة وتحقق لنسائها الحياة الكريمة بعيدا عن السجن والكفن والقيود وظلام البيوت ، فنشر كتابا في قالب رواية أسماء (المرأة في الشرق) وتجاوز هذا الكاتب كل حدود الدين والأخلاق فطالب بالحرية المطلقة للمرأة وإنصافها في كل حقوقها ، ودعا إلى تمكين الفتاة المسلمة من الزواج بغير المسلم من الأقباط (٢) .

ولم تلق دعواته استحسانا عند المسلمين نظرا لزيادة حرية أفكاره بالإضافة إلى أنه لم يدع لذلك باسم الدين كما فعل غيره فيما بعد .

١ - انظر حصوننا مهددة ص ١١٤ .

٢ - انظر حركة تحرير المرأة في ميزان الإسلام/أنور الجندى ص ٢٦ ، دار الأنصار ،

وفصل الخطاب ص ٧ .

وفي العام نفسه نشر (الدوق د اركور المحامي الفرنسي) كتابه (المصريون) يدعو فيه لحرية المرأة المسلمة في مصر التي يراها مستذلة ومستعبدة ومججورا عليها في المنازل حتى الموت ، فقال في معرض السخرية والتهمك والاستهزاء : (لا يمكن أن يجد الناس طريقة أشنع ولا أفظع لتعذيب المجرمين عندنا من الحكم عليهم بأن يعيشوا عيشة النساء المصريات)^(١)

وهنا هبَّ (قاسم أمين)^(٢) من دون الناس جميعا يندد بالدوق ويكتابه ويؤكد على شرعية الحجاب وضرورة التزام المرأة المسلمة به فألف كتابا يردُّ فيه على ما جاء في كتاب الدوق الفرنسي^(٣) .

قال قاسم أمين : (اعترف بأنني عندما شرعت في قراءة الفصل الذي خصَّصه الدوق د اركور للكلام على نساتنا ظننت بكل بساطة وسذاجة أنه سيذكرهن بكل خير كما هي عادة الدوق الفرنسي عند الكلام عليهن أو على الأقل لا يقول عنهن إلا كل حقيقة .

ثم تبين لي أنني أخطأت في الفكر إذ صادفت في هذا الفصل تلك الأغلاط والمبالغات التي أتى بها في باقي فصول كتابه ولكني لا ألومه على عدم معرفته حقيقة حالة نساتنا لأن ذلك من الأمور التي يكون فيها أقل وقوفا على حقائقها ولا يمكن غير مصري أن يعرفها تماما ولذلك أتشرف بأن أشرحها للقراء فأقول : إنه من الخطأ المحض أن يقال إن المرأة في مصر محبوسة في المنزل)^(٤) .

واستمر الحال على ما هو عليه من ذي قبل ولم تتجرأ المرأة المسلمة على التبرج والسفور وخلع الحجاب ، إلى أن ظهر قاسم أمين الذي كان بالأمر مدافعا عن المرأة وحجابها ، يدعو لنفس الأفكار التي كان يفندها ويندد بها ويكشف زيفها ، طلع قاسم أمين على العالم الإسلامي في عام ١٨٩٩ م^(٥) بعد عودته من فرنسا بكتاب له^(٦) أسماه (تحرير المرأة) أشدَّ على المرأة المسلمة من كلِّ

١ - فصل الخطاب ص ١٩ .

٢ - كان هذا قبل تبنيه دعوة تحرير المرأة بخمسة أعوام .

٣ - انظر حركة تحرير المرأة ص ٢٧ - ٣٠ .

٤ - فصل الخطاب ص ٤٨ - ١٩ .

٥ - انظر اتجاهات وطنية ج ١ ص ٢٩٣ .

٦ - ذكر أنور الجندی أن الإمام محمد عبده كان له دور في تأليف الكتاب ومراجعته

ما كتبت الأقلام الصليبية قبטיها وفرنساويها ، فنادى بضرورة حرية المرأة وردّ اعتبارها ومنحها حقوقها ومساواتها بالرجل ، وادّعى أن الحجاب قيدٌ ثقيلٌ يكبلها ويحدّ من نشاطها ومنعها من أداء واجبها في خدمة المجتمع .

وأثار شبهة أن الحجاب عادة من العادات التي ورثها المسلمون عن غيرهم ولم يرد فيه نصٌّ صريح من قرآن أو سنة ولا أجمع عليه علماء الأمة (١) .

وراح يتصيد بعض الشواهد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والتفسير ويفسرها ويوجهها بطريقة تخدم غايته وتحقق مرامه (٢) .

وقد أثار كتاب - قاسم أمين - ضجة كبرى ، ولقى موجة شديدة من المعارضة اتسمت بالعنف والمهاترات ، وتصدى له بعض الكتاب (٣) ولكنه أخذته العزة بالأثم فأصدر كتاباً آخر في عام ١٩٠٠م بعنوان (المرأة الجديدة) (٤) كشف فيه عن حقيقة نواياها ودعا بصراحة إلى اطراح العادات الإسلامية والتعلق بأذيال الغرب ، وإعطاء المرأة الحرية التامة لأنها أساس كل خير ، ورمى فيه خصومه والمعارضين لدمعة السفور والتبرج بالجمود والرجعية والتأخر .

جاء في ص ١٥٠ قوله : (نقول هذا مع اطلاعنا على ما كتب في شأن المرأة الغربية ومع علمنا بما هي عليه ، ولا نرى مانعاً من السير في تلك الطريق التي سبقتنا إليها الامم الغربية ، لأننا نشاهد أن الغربيين يظهر تقدّمهم في المدنية يوماً فيوماً ونرى أن البلاد التي يتمتع فيها النساء بحريتهن وجميع حقوقهن هي التي تسير كالدليل أمام الأمم الأخرى وتهديها في سبيل الكمال في المدنية (٥٠٠) .

وفي ص ١٥٤ (وبالجملة فإننا لا نهاب أن نقول بوجود منح نسائنا حقوقهن في حرية الفكر والعمل بعد تقوية عقولهن بالتربية حتى لو كان من المحقق أن يمررن في جميع الأدوار التي قطعتها وتقطعها النساء الغربيات) .

١ - انظر تحرير المرأة لقاسم أمين ص ٥٥ - ٥٩ .

٢ - انظر اتجاهات وطنية ج ١ ص ٢٩٥ .

٣ - كان من أبرزهم : محمد طلعت حرب في كتابه (تربية المرأة والحجاب) .

٤ - في نقد هذا الكتاب انظر : اتجاهات وطنية ، ج ١ ص ٣٠٢ - ٣١٠ .

وجاء في ص ٢٠٩ قوله : (الكل متفقون على أن حجاب النساء هو مسبب انحطاط الشرق وأن عدم الحجاب هو السرفى تقدم الغرب) (١) .

ومن هنا نال قاسم أمين لقب (محرر المرأة) فى عرف أنصاره ومحبيه والبهوورين بكل دعوة وثنية لهدم الدين والأخلاق ، فلقبت دعوتة استحسانا وقبولا وطارت بها قلوب الجاهليين فرحا وسرورا .

على أن ذلك كان من الممكن أن يبقى حبرا على ورق ، ولكن القائد الوطنى (سعد زغلول) قد فعل بيده ما دعا إليه قاسم أمين - والصليبيون من قبل - بالقلم واللسان ، وطبق عمليا نزع الحجاب عن وجه قذوة السافرات (هدى شعراوى) التى استقبلته بحجابها مع مجموعة من النساء بعد أن أعادته بريطانيا من النفس فمدّ يده ونزع الحجاب عن وجهها وهو يضحك ، فصفت هدى وصفت النساء لهذا التهتك المشين ، ومن ذلك اليوم أسفرت المرأة المصرية استجابة لرجل الوطنية سعد وأصبح/نشازا فى حياتها (٢) .

وكانت ثورة عام ١٩١٩م . حدثا فى تاريخ التبرج والسفور فى عالم المرأة المسلمة فقد اجتمع عدد من المتظاهرات يربو على الثلاثمائة امرأة مسلمة تتقدم مهن (هدى شعراوى وصفية زغلول) (٣) فى طريقهن إلى دار المعتمد البريطانى احتجاجا على سياسة بريطانيا فى مصر ، واجتمعن فى ميدان الاسماعيلىة (التحرير اليوم) (٤) ، يهتفن بضرورة خروج بريطانيا من مصر ومنحها الاستقلال والحرية ، وفى لهيب المشاعر والهتافات خلعت كل من (هدى صفية) حجابها وأشعلت فيه النار (٥) ، وفعلت

١ - نقلا عن فصل الخطاب ص ١١ - ١٣ .

٢ - انظر تفاصيل القصة فى كتاب المرأة المسلمة ، وهبى غاوجى ص ١٥٠ .

٣ - هدى شعراوى هدى بنت سلطان باشا من كبار الضباط الذين تعاونوا مع الاحتلال البريطانى .

وصفية زغلول هى بنت مصطفى فهمى باشا أشهر أصدقاء الانجليز ، وقد انتسبت كل منهما إلى زوجها تقليدا للغرب ومخالفة للعرف الإسلامى .

٤ - أخذ هذا الاسم من الجريمة الكبرى التى ارتكبتها المتحررات من الحجاب .

٥ - يتعجب المرء لهذا الأمر ، إذ ليس هناك أدنى صلة بين خلع الحجاب وخروج الدولة المحتلة . وهذا يشير إلى وجود خطة سرية لم تعلمها أكثر المتظاهرات .

المتظاهرات فعلتهن تماما كما تفعل البيغاوات ورجعن إلى أهلهن SAFRAT بعد أن فرقهن الجيش البريطاني (١) .

وتجرات المرأة بعد ذلك ولم تقف عند خلع الحجاب ، فما كان ذلك إلا الخطوة الأولى في العودة إلى الجاهلية الأولى من غير هوادة .

واشتهر أمر (صفية وهدي) في تاريخ الدعوة لسفور المرأة وتبرجها واختلاطها بالرجال في شتى المجالات ، وأضفت عليهن وسائل الإعلام من الهالة والتعظيم والإكبار والمدح والإطراء ، فهن الزعيمات والرائدات وسيدات المبادرات والمخلصات في سبيل خدمة القضايا الوطنية . الخ .

وعرفت هذه الدعوة من الأعلام الذين طبَّق ذكرهم الآفاق من أمثال : (توفيق الحكيم ولطفى السيد وطه حسين وأحمد الصاوي وزكي مبارك ومحمد حسين هيكل) (٢) وغيرهم الكثير ممن كان يتطلع بفارغ الصبر لليوم الذي تصبح فيه ديار الإسلام ماخورا للفساد ومبائة للرديلة من غير دين ولا أخلاق كما هي الحال في العالم الغربي الماجن .

وراجت هذه الدعوة الفاسدة بين النساء بسرعة فاقت كل التوقعات ، بل إن قاسم أمين نفسه ما كان يتصوَّر ذلك في مثل هذه السرعة لأنه كان يرى الوقت غير مناسب لكل ذلك ، ولكنه فاته أن المرأة هي مصدر الفتنة فكيف إذا أعطيت حرية من غير قيود وصارت أميرة نفسها ؟

خلعت المرأة النقاب الذي كان يحجب وجهها عن الأنظار ، وكانت هذه الخطوة الأولى في طريق العودة إلى ما كانت عليه المرأة في الجاهلية المذمومة ثم بدأ انحسار الثوب الساتر الفضفاض الذي كانت ترتديه أيام حجابها رويدا رويدا ، وأخذ مقص صانعي الأزياء يتخيف الثياب في الذبول والأكام والجيوب وما زال يجور عليها حتى جعلها عارية أو شبهة عارية وعمت البلوى معظم البيوت - إلا ما رحم ربك - ووسائل الإعلام على اختلافها تشجع المرأة على ذلك وتدفعها بكل جرأة إلى المساوية .

حصل هذا في كثير من الدول الإسلامية والعربية وفي مصر - كما يقول محمد محمد حسين - على وجه الخصوص ، بسهولة بعيدا عن العنف والقسور

١ - انظر أزمة العصر ص ١٢٥ - ١٢٦ .

٢ - انظر المرأة المسلمة غاوي ص ٢٠٤ .

والتدخل المباشر من السلطات الحاكمة .
فى العراق مثلاً قام الشعراء كأمثال (١) : معروف الرصافي وجميل صدقى
الزهاوى يدعون لخلق الحجاب وتمجيد السفور وتشجيع المرأة على الفجور والمطالبة
بحقوقها المهضومة واسترداد كرامتها المفقودة .

يقول الرصافي (٢) :

لم أر بين الناس ذا مظلمة

أحق بالرحمة من مسـلمة

منقوصة حتى بميراثها

محجومة حتى من المكرمة

فأنصار المرأة ودعاة السفور يريدون أن ينصفوا المرأة من الله سبحانه وتعالى
الذى ظلمها فنقص ميراثها وحجبها عن أن ترى النور وتشعر بكرامتها وإنسانيتها
وما أدري ما هى العقيدة التى يعتقد ها هذا وأمثاله ؟

و أما جميل الزهاوى فقد اشتهر فى الدعوة للسفور أكثر من غيره وتحمل فى سبيلها
الأذى من المحافظين ، ولكنه بقى مصراً على ذلك ، والناظر فى ديوان شعره يجد
له قصائد كثيرة فى تشجيع السفور والتشجيع على الحجاب والمتحجبات والمحافظين
عليه .

يقول فى قصيدة بعنوان الغرب والشرق (٣) :

الغرب مركبه البخار أو الهواء أو الأثير

وركوبة الشرق الهجين أو الحمار أو البعير

هذا يثبطه الحجاب وذاك يحفزُه السفور

و كأنما المتحجبات بكل مملكة قبور

ما فى السفور لمن ترتبها الثقافة ما يضير

أما الحجاب فمنه تنبعث المفاسد والشورور

ويقول فى قصيدة أخرى ويبدو أن المرأة استجابت لدعوته (٤) :

-
- ١ - انظر موقف العقل والعلم ج ١ ص ٢٨٨ - ٢٩٢ .
 - ٢ - ديوان الرصافي ج ٢ ص ٣٤٧ / ط ٧ / المكتبة التجارية الكبرى بمصر .
 - ٣ - انظر ديوان جميل صدقى الزهاوى ج ١ ص ٤٨٠ دار العودة بيروت .
 - ٤ - انظر ديوان الزهاوى ج ٢ ص ٦٠١ .

شارت فمزقت الحجابا	من بعد ما انتظرت حقابا
كيف تنبذ ما أرابسا	عربية عرفت أخيرا
خسفا ويرهقها عذابا	كان الحجاب يسومها
خرقت بأيديها النقابا	حتى إذا ما استياست
صنعا واتبعتم الصوابا	أحسنت يا ابنة يعرب

وفى الهند كذلك ، لقيت حركة (قاسم أمين) قبولا ، وترجم كتابه (تحرير المرأة)
ولقى رواجاً وانتشاراً واسعاً ، واهتمَّ الانجليز ببحث قضاياها وإذاعة مسائله اهتماماً
عظيماً لما وراء العمل به من فائدة لهم (١) .

وإذا كانت الدعوة للسفور والاختلاط قد سارت في كثير من الدول الإسلامية
بطريقة كلامية واسلوب يقوم على المناقشة والأخذ والرد بين أنصارها والداعين لها
وبين المحافظين على دينهم وأخلاقهم ، فإنها قد اتخذت طابع الشدة والعنف
والقهر والالزام ، وتدخلت السلطات الحكومية في فرض السفور والتبرج والاختلاط في
بعض الدول الإسلامية (٢) ، ومن ذلك (تركيا) فقد فرض الطاغية مصطفى كمال
أتاتورك على النساء خلع الحجاب وسفور الوجه بقانون سنه لهذه الغاية وعاقب من
لم تلتزم بتنفيذه ، وكان هذا السفور الإجباري من ضمن المخطط العلماني الذي وضعه
أتاتورك لنقل تركيا من دائرة الإسلام وإحاطها بذيل القافلة الغربية ، وقطع صلتها
بالعالم الإسلامي .

فاتخذت وزارة التجارة التركية باخرة تحمل مجموعة من الفتيات التركيات
المسافرات ، وجعلتها معرضاً عاماً في رحلة على نفقة الحكومة ، تتنقل فيها بين
موانئ أوروبا الشهيرة ، فكتبت صحيفة السياسة الأسبوعية في مصر مقالا بعنوان :
(فتاة تركيا) تصف فيه تلك الرحلة فتقول : (إن هذه الباخرة كانت تقل خمسا
وعشرين فتاة من فتيات تركيا الجديدة ، كلهن جميلات مقصصات الشعور لا يكاد
يميزهن الرائي من فتيات لندرة وباريس ، ويروي مراسل الصحيفة عن إحدى الفتيات
في بعض الموانئ الإنجليزية قولها : (إن المرأة التركية اليوم حرة ، فلن تسير في
الطرق في ظلام ، وإنما نعيش اليوم مثل نساءكم الإنجليزيات ، نلبس أحدث الأزياء

١ - انظر المرأة المسلمة ، غاوجي ص ١٥٢ .

٢ - انظر عودة الحجاب ، محمد أحمد المقدم ، ص ١٠٣ - ١٠٧ ، دار

الأوروبية والأمريكية ، ونرقص وندخن ونسافر ونتنقل بغير أزواجنا) .
ويعلق مراسل الصحيفة على ذلك الوصف بقوله (١) : (إن هذا من أظهر
الآثار التي تدلُّ على تقدم المرأة التركية ومجاراتها لأختها الغربية في ميدان العمل
والجهاد الفكري والاقتصادي ، ولا يسع كلَّ محبِّ لتركيا إلا أن يغبطها على هذه
الخطوات) (٢) .

وقد اقتدى بهذا الطاغية كثير من أنصار السفور وهواة الحياة الجاهلية ،
فلم يكن عندهم مجال من الوقت حتى تنتقل عدوى السفور إلى نساء بلادهم فاستعجلوا
الأمر وحذوا حذو حكومة تركيا ، فعهد (رضا بهلوى) شاه إيران إلى فرض السفور
والتبرج ونزع الحجاب بقانون خاص شرعه لهذه الغاية ، وفعل مثل ذلك (محمد
أمان) في أفغانستان ولكن هذا لم يفلح ، وكذلك فعل (أحمد زوغو) و (أنور
خوجا) في ألبانيا ، وفعل ذلك (تيتو) في يوغسلافيا وغيرهم (٣) .

وما زالت بعض الأنظمة العلمانية في العالم الإسلامي تعمد إلى هذا الأسلوب
الوحشى كلما دعت الحاجة إليه لتفرض على نساء المسلمين كلَّ الأفكار والأخلاق
الجاهلية متجاهلة أحكام الإسلام في ذلك .

أنتجت هذه الدعوة الوثنية ثمارها وحقت كثيرا من أهدافها فشملت العالم
الإسلامي أجمع ، وظهرت المرأة سافرة بصورة مزرية ، وتبرجت تبرجا مشينا في كلِّ مكان ،
وألفت المجتمعات هذا العرى وكأنها لا تحتمل تركه فقد صار جزءا من واقعها ، وترتت
عليه الأجيال الناشئة ، وأقيمت على ضوءه كافة المرافق الحيوية .

وقد اتصلت بالتبرج والسفور دعوة إلى الاختلاط بين الذكور والإناث فسى
كافة المجالات ، وكان من الطبيعي أن تظهر الدعوة إلى إقامة المجتمع على أساس
مختلط ، لأنه لا بدَّ أن يصحب السفور والتحلل من تعاليم الدين قوانين وآداب وأخلاق
ومظاهر تصلح له ويصلح لها ، ومن هذه الآداب والأخلاق والمظاهر الفاسدة ،
الاختلاط والاختلاء والمشاركة والألفة والتقارب والتعارف والتعاون والمصادقة
والاحتكاك والتشاور (٤) . . . إلخ .

١ - لاحظ شدَّة إعجاب المراسل بهذا المنكر القبيح .

٢ - انظر اتجاهات وطنية ، ج ٢ ص ٢٥٥ - ٢٥٦ .

٣ - انظر المرأة المسلمة ، غاوى ص ١٥٠ .

٤ - انظر الحجاب والسفور ، أحمد عبد الغفور عطار ص ١٦٥ ، ط ١ .

وإذا كان السفور والتبرج غريبا ومستنكرا في نظر المسلم ، فإن مما لا شك فيه أن الاختلاط يعتبر بحق أشدَّ غرابة واستنكارا ، ولهذا كان لابدَّ من التمهيد والاعداد لهذه المرحلة الخطيرة ، ولا بدَّ من اختلاق المبررات والمرغبات حتى يكون اختلاط الأنثى بالذكر أمرا مقبولا وغير مرفوض ، فارتفعت أصوات الداعين إلى تحرير المرأة (وإفسادها) . يطالبون بإتاحة الفرض المناسبة وتهيئة الأجواء الملائمة للاختلاط بين الرجال والنساء ليعتادوا ذلك وبالفوه ويتمنوا عليه رويدا رويدا ، وطلبوا برفع الحواجز والقيود تدريجيا حتى يصبح الاختلاط في كافة المجالات أمرا غير مستغرب ولا مستنكر .

واحتجَّ دعاة السفور والاختلاط على تأييد باطلهم وثبیت دعوتهم وإقناع الناس بها بحجج واهية ومبررات كاذبة يخذعون بها عقول المراهقين ويفتنون السذج من العقلاء المدركين ، ويستدرجون الفئات الأخرى من الرجال والنساء لقبولهم والرضى بها .

فقالوا إن الاختلاط يهذب المشاعر ويصقل النفوس ويحفظ الجنسين من الأمراض النفسية ويفسح المجال لكل جنس أن يتعرّف على أحوال الجنس الآخر فتزداد الألفة ويحصل التفاهم والالتئام بين أفراد المجتمع وتختفى حوادث الجريمة والاعتصاب وتعرض الفتيان للفتيات ومعاكستهن أثناء تنقلهن ، وتقوى الروابط الزوجية لأنها تبنى على أساس المعرفة والتفاهم والخبرة والتجربة المسبقة وهذا كله يقود إلى الاختيار ، والاختيار طريق الاستقرار ، فتقلُّ حوادث الطلاق ومظاهر الخلاف بين الأزواج .

وسخّرت معظم وسائل الإعلام في العالم الإسلامي لتشجيع الاختلاط وترويض النفوس على تقبله ، وألحّت على ذلك إلحاحا شديدا ، ودار حول ذلك جسد كبير ومناقشات طويلة ، كانت وسائل الإعلام تنحاز فيها لجانب دعاة الاختلاط والسفور وتصور الفئة المعارضة لهذا النمط من الحياة المختلطة بصورة الرجعيين المتزمطين الجامدين المتأخرين ضيق الأفق الذين يريدون أن يحرموا الحياة من الزينة والمتعة والبهجة وجعلوها في كآبة الصحراء وجفاء البدوة وغلظة المتوحشين ، وفي المقابل تظهر صورة دعاة الاختلاط وأنصاره بمظهر التطور والتقدم والفهم والوعى ومجاراة متطلبات العصر ، بعقل حصيف وسلوك نظيف يبعث على الإعجاب والتقدير .

وهكذا فقد كانت وسائل الإعلام في جانب هذا التطور ، فلا تنشر إلا ما يؤيده ويؤكد صحته ويسفّه رأي من يعارضه (١)

وتطورت الدعوة إلى المجتمع المختلط وأصبح هذا الاختلاط حقيقة ماثلة ، شائعة في معاهد العلم وفي الإدارات الحكومية وفي المصانع والشركات وفي الأندية والمجتمعات ، وسرى هذا الداء بين الرجال والنساء في مجتمعات الأسر ، وفي الحفلات العامة والخاصة ، وفي نوادي التسلية والفن والثقافة (١) . وفي المراكز الاجتماعية وفي الأنشطة الطلابية والرحلات الترفيهية والمخيمات الكشفية والألعاب الرياضية التي ترعاها وتشرف عليها مؤسسات تربوية يجتمع فيها الفتيان والفتيات . ومعظمهم في سن المراهقة - تحت شعارات خبيثة خادعة ويقضون الأيام والشهور في اللهو والعبث والفجور (٢) .

والآن وبعد هذا الاختلاط الذي شمل كافة النشاطات اليومية هل تحققت الوعود الكاذبة التي كان أنصار الاختلاط يعدون بها الناس ؟ وهل صدقت الدعاوى الباطلة التي زينت الحقائق لفترة من الزمن ؟ هل تهذبت المشاعر الجنسية وكسرت حدتها وعنفوانها بين أفراد المجتمعات المختلطة ؟ هل ترفع الجيل الذي تربى على الاختلاط عن الفرائز والشهوات ؟ هل ظلت اللقاءات والاجتماعات شريفة نظيفة ؟ هل زالت العقد والأمراض النفسية واختفت مشكلات الأزواج وقويت أواصر المحبة بين الأزواج ؟ هل تهذبت أخلاق الشباب والشابات وخلت ألفاظهم من التعابير الفاحشة مراعاة لمشاعر الطرفين ؟ هل تغيرت صورة الرجل في ذهن المرأة وتغيرت صورة المرأة في ذهن الرجل من جراء هذا الامتزاج والانسجام والاندماج ؟ هل اختفت حالات الاغتصاب والاعتداء على المرأة ؟ وهل وهل . . . إلخ ؟

إن الواقع في المجتمعات التي طبقت الاختلاط يخالف كل ما قيل عن فوائده وحسناته ، فالفضائح الأخلاقية والشذوذ الجنسي وأنواع الانحرافات وارتفاع نسبة الطلاق ، وخداع الأزواج ، والتوتر العصبي والأمراض والعقد النفسية ، والقصاص الغرامية ، والمراقص والملاهي والمسرحيات المشحونة بالإغراءات والنزعات العارمة ونوادي العراة ومظاهر الانحلال ، وحالات الانتحار ، كل هذا من بركات الاختلاط الذي قُتِنَ المسلمون به .

١ - انظر أجنحة المكر الثلاثة ، عبد الرحمن حسن جنبكه الميداني ، ص ٣٥٨ ،

ط ٢ .

٢ - انظر الاختلاط بين الجنسين في نظر الإسلام ، محمد عبد الحكيم خيسال ،

ص ٢٩ ، ط ١ ، دار الدعوة .

وكلُّ الذى اختفى فى المجتمعات المختلطة هو التحايل على حصول المتع المحرمة ، لا بسبب الترفع و التنزه و التهذيب ، ولكن من شدة التيسير لتلك المطالب و المتع (١)

إن كلِّ ما استطاع الاختلاط أن يصنعه هو إشاعة الإباحية الجنسية ، وجعل الزنا أمرا عاديا مقبولا لا يهزُّ الضمير ولا يثير الحمية فى النفوس (٢) .

(فصارت المرأة المسلمة شرا من المرأة الجاهلية ومثل المرأة الغربية الفارقة فى الوثنية والفساد والانحلال ، لا يميزها عنها شئ بل بين المسلمات من هى أشد من المرأة الغربية تبرجا ووثنية وكفرا .

وانهيار المرأة أدى إلى انهيار المجتمع ، وزال عنه طابع الإسلام فانقلسب مجتمعا جاهليا وثنيا (٣) .

هذه هى عواقب السفور والاختلاط على المجتمعات الإسلامية فقد صارت صورة مشوهة لمجتمع الغرب الرأسمالي والشرق الشيوعي ، صارت أقرب إلى حالة المجتمعات الجاهلية التى سبقت الإسلام ، أكثر من قربها إلى صورة المجتمعات الإسلامية المحافظة على الدين والأخلاق .

١ - انظر حقوق المرأة فى الإسلام ، محمد بن عبد الله بن سليمان عرفه ، ص

١٩٢ - ١٩٣ ، ط ٣ .

وانظر الاختلاط بين الجنسين فى نظر الاسلام ، محمد عبد الحكيم خيال

ص ٦٧ - ٧٨ .

وانظر الحجاب للمودودى ص ٣٢ .

٢ - انظر : الفكر الاسلامى الحديث ، محمد المبارك ص ١٧٢ - ١٧٥ .

وانظر كذلك الحجاب للمودودى ص ٣٣٧ .

٣ - الحجاب والسفور ، ص ١٦٢ .

الأدلة على تحريم السفور والاختلاط :

إن الأدلة - من القرآن والسنة وأقوال العلماء - تقطع بتحريم السفور والاختلاط وتأمراً باجتنابه والتزام الحشمة والستر ومنع إبداء النساء لمظاهر الزينة لغير المحارم ، وعدم دخول الرجال على النساء والاختلاط بهن .

وهذه طائفة من الأدلة والبراهين على ذلك أسوقها لمن فشا فيهم هذا الداء فتجدت نساؤهم وتبرجن أشد من تبرج الجاهليات واختلطوا رجالاً ونساءً في شتى المجالات بعذر وبغير عذر ، وما زالوا ينتسبون للإسلام ويتظاهرون بأنهم من المسلمين حتى يراجعوا أنفسهم ويعرفوا مقدار وقوفهم عند حدود دين الله .

ولأسر المحافظة على دينها وشرفها ونساءها ورجالها في وسط المجتمعات الوثنية ، حتى تستمر على ذلك فلا تنحرف وتتأثر بما حولها من مظاهر التبرج والاختلاط والفساد .

وأما الذين لا تقنعهم هذه الأدلة (١) لأنهم أعلنوا صراحة خروجهم على الإسلام ونظروا إلى مبادئه وأحكامه على عادات قديمة وموروثات بالية لا تتناسب مع هذا العصر ولا تصلح له فيجب التخلص منها واتباع ما تقوله الدراسات النفسية والتجارب العلمية وغير ذلك مما يروونه مصدراً للحقائق والقوانين والأحكام التي توافق هواهم وتلبى رغباتهم وتشبع سعار الفوضى من نفوسهم - فهؤلاء وأمثالهم من اليهوس والنصارى وبقية الذين كفروا بدين الإسلام وأصيهم بدراسة أحوال المجتمعات والمدول التي سبقتهم لهذه الأمور وطبقتها من غير حدود ، وما ألت إليه من تعاسة وشقاء وويلات ومشاكل اجتماعية وفوضى أخلاقية ، مما ينذرنا بالدمار والخراب ويهددنا بالأفول والزوال بصورة تدريجية ، كما جرى لليونان والرومان من ذي قبل .

أ - الأدلة من القرآن الكريم (٢) :

١ - قال تعالى مخاطباً نساء النبي صلى الله عليه وسلم : (يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا

١ - قال تعالى : (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك) .

سورة البقرة آية ١٤٥ .

٢ - انظر : حصوننا مهددة ، ص ٨٦ - ٩٤ .

والاختلاط بين الجنسين ص ٣٥ - ٥٢ .

معروفا ، وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى (١) .

فهذه الآية موجّهة لنساء النبي تأمرهن بعدم التبرج والسفور ، وعدم الاختلاط بالرجال وعدم التحدث معهم بأمور فضولية بطريقة مريبة كالإنة القول وترقيق الألفاظ ونعومة الصوت وغير ذلك .

و القرآن إذ يأمر نساء النبي بهذه الأوامر يريد أن يقيم منهن قدوة سالحة ومثالا يحتذى في المجتمع المسلم ، تتأسى به نساء المؤمنين ، وهى بالتالي ليست مقصورة على نساء النبي وحدهن بل إن نساء المؤمنين مخاطبات بها من باب أولسى لأن احتمال وصول الأذى إليهن من الرجال أكبر وفرصه أوفر .

٢ - وقوله تعالى : (يا أيها النبي قل لأزواجك ونساتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما) (٢)

وهذه الآية عامة في نساء النبي ونساء المؤمنين جميعا تأمرهن أن يسترن أجسامهن بالثياب الساترة التى تحفظهن من العيون والأبصار ، حماية لهن وتكريما ، وبعدا بهن عن أطماع الفساق ومرضى النفوس والقلوب الذين يدفعهم التبرج والسفور وابداء الزينة إلى معاكسة النساء والتعرض لهن بالأذى .

٣ - ويقول الله تعالى : (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدن زينتهن إلا ما ظهر منها ، ولا يضررن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدن زينتهن إلا لبعولتهن أو آباءهن أو أبناءهن أو أخواتهن أو ما ملكت أيمنهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضررن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) (٣) .

هذه الآيات تأمر بغض البصر وحفظ الفروج وإخفاء معالم الزينة وعدم التبرج والسفور أمام الأجانب ، وتغطية الرأس والصدر بالخمار وصور جميع أعضاء الجسم

١ - سورة الأحزاب آية ٣٢ .

٢ - سورة الأحزاب آية ٥٩ .

٣ - سورة النور آية ٣٠ - ٣١ .

عن الظهور والتكشف ، أو التحايل لإظهار ما تتجمل به المرأة من حلي ومجوهرات
وغيرها من أدوات الزينة ، فتضرب برجلها الأرض ليعلم الرجال صوت خلاخيلها فتجلب
انتباههم وتشغلهم بالنظر إليها وملاحقة حركاتها في مشيتها وتكسرهما ، وهو ما تفعله
الساافرات في هذه الأيام ، فقد صنعت لهن أحذية مخصصة يسمع وقع خطاهن من
مكان بعيد فيجلبن إليهن أنظار الرجال ليعرضن عليهم سفورهن وتبرجهن المشين
الذي يكشف معظم الجسم الذي تأنقن في تزويقه وتزيينه وتحسينه بأدوات التجميل
المعدة لفتنة الرجال والنساء على السواء .

٤ - وقوله تعالى : (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن . . .) (١)

قال سيد قطب رحمه الله : (و الفواحش كل ما أفحش - أي تجاوز الحد -
وإن كانت أحياناً تخص بنوع منها هو فاحشة الزنا ويغلب على الظن أن يكون هو هذا
المراد في هذا الموضع . لأن هذه الجريمة ذات مقدمات وملابس كلها فاحشة مثلها
فالتبرج والتهتك والاختلاط المثير والكلمات والاشارات والحركات والضحكات الفاجرة
والإغراء والتزين والاستثارة . . . كلها فواحش تحيط بالفاحشة الأخيرة) (٢) .

وقال الدكتور محمد حسين^{صنّفه الله} بعد أن سرد مجموعة من الآيات القرآنية
في التدليل على تحريم التبرج والسفور والاختلاط : (ولا أظنني محتاجاً بعد ذلك
كله إلى إطالة القول في أن التزام هذه القواعد التي يأمر بها الشرع أمر قاطع لا يدع
مجالاً للتوفيق بين إسلام المسلمين ، وبين مذاهب دعاة المجتمعات المختلطة في
شتى صورها وأشكالها .

هذا هو حكم الدين لمن أراد أن يقيمه ، وتلك هي حدود الله لمن أراد أن
يلتزمها) (٣) .

ب - الأدلة من الحديث الشريف :

وقد جاءت الأحاديث النبوية الشريفة تؤكد ما جاء في القرآن الكريم ، ونستطيع
أن نجمع عدداً وافراً منها ، ولكن يكفي الاستشهاد ببعضها اختصاراً للقول
وعدم التطويل :

١ - سورة الانعام آية ١٥١ .

٢ - الظلال ج ٣ ، ص ١٢٣١ بتصرف

٣ - انظر حصوننا مهددة من داخلها ، ص ٩٣ - ٩٤ .

وأزمة العصر ص ١٣٠ .

١ - قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم عن أبي هريرة : (صنفان من أهل النار لم أرهما ، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات ميلات مائلات رؤسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا) (١) .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : (لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الواشمات والمستوشمات والمتنصصات والمتغلبات للحسن المغيرات لخلق الله) (٢) .
وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم لعن المتشبهات من النساء بالرجال والمتشبهين من الرجال بالنساء (٣) .

وعن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إذا استعطرت المرأة فمرت على القوم ليجدوا ريحها فهي كذا وكذا ، قال قولا شديدا) (٤) .
يعنى زانية .

فى هذه المجموعة من الأحاديث ينهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المرأة عن التبرج والسفور وابداء الزينة لغير المحارم ، ولعن المتجملات بوصول الشعر ونتفه من الحواجب ، وبالوشم فى اليد والوجه والتفريج بين الأسنان ، ولعن المتعطرات عند الخروج من البيوت ، ولعن المتشبهات بالرجال فى لباسهم وحركاتهم وجميع تصرفاتهم ، كما لعن كذلك الرجال الذين يتشبهون بالنساء فيما اختصهن الله به من دون الرجال ، وأمر النساء بستر أجسامهن وسر السافرات العاريات المائلات إلى الرجال الفاتنات لأنفسهن ولغيرهن بدخول النار عقابا لهن على ذلك .

١ - رواه مسلم فى اللباس والزينة ١٢٥ .

٢ - رواه البخارى فى اللباس ٨٢ ، وصلى فى اللباس ١٢٠ ، وأبوداود فى

الترجىل ٥ ، والترمذى فى الأدب ٣٣ ، والنسائى فى الزينة ٢٤ ،

وابن ماجة فى النكاح ٥٢ ، والدارمى فى الاستئذان ١٩ ، وأحمد

ج ١ ص ٤١٧ .

٣ - رواه البخارى فى اللباس ٦١ ، وأبوداود فى اللباس ٣١ ، والترمذى فى الأدب

٣٤ ، وابن ماجة فى النكاح ٢٢ ، وأحمد ج ١ ص ٢٥٤ .

٤ - رواه ابوداود فى الترجىل ٧ ، والترمذى فى الأدب ٣٥ ، والنسائى فى الزينة

٣٥ ، والدارمى فى الاستئذان ١٨ ، وأحمد ج ٤ ص ٤١٤ .

وما أصدق هذه الأحاديث على نساء زماننا إنهن كاسيات عاريات مائلات
ميميلات ، ناصحات وواصلات لشعورهن ومتعطرات ومتجملات ومتفلجات للحسن ومترجلات
لم يتركن شيئاً نهى الله ورسوله عنه إلا فعلته .

٢ - عن عقبة ابن عامر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال : (إياكم والدخول على النساء ، فقال رجل من الأنصار : أفرايت الحمى ؟
قال الحمى الموت) (١) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
(لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذي محرم) (٢) .

وعن معقل بن يسار رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : (لأن يطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة
لا تحل له) (٣) .

وعن عائشة رضى الله عنها : (كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا بايع
النساء بايعهن كلاماً ولا يأخذ أيديهن في يده فقالت : لا والله ما مسّت يده يمس
امرأة في المبايعه) (٤) .

وهذه المجموعة من الأحاديث - وهناك الكثير في معناها - كلها تحسّر
الاختلاط والاختلاء بالنساء و مزاحمتهم والدخول عليهن ، لغير المحارم خاصة في
حالة غياب المحرم وكذلك تحريم مصافحة الأجانب ، وأنه صلى الله عليه وسلم بايع
النساء من غير أن تمسّ يده يد امرأة مطلقاً فكان يبايعهن بالكلام ونهى كذلك عن
سفر المرأة مع غير ذي محرم .

١ - رواه البخارى فى النكاح ١١١ ، ومسلم فى السلام ، انظر صحيح

مسلم ج ٤ ، ص ١٢١١ .

٢ - رواه البخارى فى الجهاد ١٤٠ ، وأحمد ج ٣ ص ٣٣٩ .

٣ - رواه الطبرانى والبيهقى ، وأخرجه الألبانى فى الأحاديث الصحيحة
رقم ٢٢٦ .

٤ - رواه البخارى فى الأحكام ٤٩
ومسلم فى الامارة ج ٣ ، ص ١٤٨٩ .

وهذا يؤكد تحريم ما عليه حال المسلمين في هذه الأيام من الاختلاط الفاحش بين الرجال والنساء ، واختلاء النساء بالرجال بعيدا عن الأنظار وانفراد المرأة بالرجل في العمل و السوق و المتجر والسيارة و المكتب والمستشفى وفي البيوت . . إلخ وأما المصافحة والملاسة فلم تعد تثير الانتباه و لا تجلب النظر إذ وصل الأمر لما هو أفحش من ذلك من غير استنكار ولا استغراب ، وناهيك عن سفر النساء وتجوالمهن ورحلاتهن في طلب اللهو والمتعة في المخيمات الكشفية والمعسكرات التدريبية والأندية والألعاب الرياضية و المحافل والندوات واللقاءات والاجتماعات و المحافل العالمية التي أسست على الاختلاط الماجن بين الذكور والإناث .

وأغرب سفر للمرأة بدون محرم في عصرنا هذا - عصر الاختلاط - هو سفرها للدراسة وطلب العلم من دولة إلى دولة أخرى كما هو حال بنات من ينتسبون للإسلام والعروبة وبيعثون بناتهم الشابات السافرات من غير محرم للدراسة في جامعات الغرب العلماني والشرق الشيوعي الملحد ، فأى علم ذاك الذي تطلبه بناتهم في تلك الأحوال والظروف . . لا شك أنها تتعلم كيف تخرج عن تعاليم دينها وتترى على الاستهانة بأخلاقها وعفتها ، ثم تفتخر - ومعها أهلها - بأنها تلتد دراستها في الخارج وحصلت على شهادة جامعية من دولة خارجية .

ج - وهذه مجموعة من الأقوال لمجموعة من العلماء والكتاب الذين تنبهوا لخطر السفر والاختلاط فوقفوا منه موقفاً بيئاً :

١ - قال سيد قطب - رحمه الله - عند تفسير قوله تعالى : (وإذا سألتهم عن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) (١) .

(وهذه الآية تقرر أن الحجاب أظهر لقلوب الجميع فلا يقل أحد غير ما قال الله ، لا يقل أحد إن الاختلاط وإزالة الحجب والترخص في الحديث واللقاء والجلوس و المشاركة بين الجنسين أظهر للقلوب وأعف للضمائر ، وأعون على تصريف الغريزة المكبوتة ، وعلى إشعار الجنسين بالأدب وترقيق المشاعر والسلوك . . إلى آخر ما يقوله نفر من خلق الله الضعاف المهازيل الجهال المحجوبين .

و الواقع الملموس يهتف بصدق الله وكذب المدعين غير ما يقوله الله ، والتجارب المعروضة اليوم في العالم مصدقة لما نقول ، وهي في البلاد التي بلغ الاختلاط الحر

فيها أقصاه أظهر من هذا وأفضع وأقطع من كل دليل (١) .

٢ - وقال المودودي رحمه الله : (إنى لا أنكر ما بين العلماء من الخلاف حول جواز كشف المرأة وجهها لغير محارمها ولا ألزم غيرى أن لا يرى فى هذه المسألة غير رأى ولكن ٠٠٠٠ ياليت شعرى ما هو الدليل على جواز كشف المرأة ساقيهما إلى الركبتين ويديها إلى المنكبين وجزءاً عظيماً من صدرها وظهرها وخاصرتها ثم تجوالها - هكذا - فى الطرق والأسواق تتعرض للرجال وتغشى الأندية والمجامع المختلطة وتبرز مفاتنها فى كل وادٍ بكامل زينتها .

و أما إن كانت الحقيقة أن لا دليل على جواز كل ذلك ولا تأويل له فقل لى بالله أليس هو بخروج سافر على الشريعة الإلهية واستهزاء على أحكامها (٢) .

٣ - ويقول محمد المبارك ^{رحمه الله} : (إن من الخروج عن جادة الإسلام وعن جادة الاستقامة والفضيلة فى نظر الإسلام ما يفعله الناس اليوم من كشف الرأس والصدر والساق والذراع ومن تزيين الوجه والتعطر واتخاذ الألبسة الضيقة وذات الألوان اللافتة للنظر والمثيرة ، والألبسة القصيرة ، وما يفعلونه من القيام بزيارات مختلطة هو فى نظر الإسلام من كبائر الآثام ومن المحرمات التى لا يمكن أن تغطيتها أو تقبل معها صلاة أو دعاء أو حج لأن ذلك إعلان حرب على الله ورسوله وعلى الإسلام والقرآن فليترك الله هذا الفريق من الناس بوجه خاص ممن اتخذوا الإسلام ديناً وآمنوا بالله وكتبه ورسوله وتقربوا إلى الله بإقامة الصلاة وصيام رمضان ، وليعيدوا النظر فى حياتهم ليسجلوا أنفسهم فى سجل الإيمان والطاعة أو فى سجل الكفر والمعصية) (٣)

٤ - ويقول مصطفى صبرى - رحمه الله - : (إن واء السفور الذى أتى الشرق الإسلامى من الغرب بواسطة سمسرة مثل وقاسم أمين ، وجعل نساء المسلمين كاسيات عاريات كالغربيات ، لا شك فى أنه حرام بنص الكتاب والسنة وإجماع الأمة ، وهذه الحرمة دامت إلى هذا العصر الذى هو عصر فساد الأمة المشار إليه بالحد يث النبوى : (من تمسك بسنتى عند فساد أمتى فله أجر مائة شهيد) (٤) .

١ - الظلال ج ٥ ص ٢٨٧٨ .

٢ - الحجاب ص ٦ - ٧ .

٣ - الفكر الإسلامى الحديث ص ١٨٣ .

٤ - رواه ابن عدى فى الكامل ج ٢٠ ص ٩٠ ، وأورده الألبانى فى السلسلة

الضعيفة ج ٢ ص ٣٢٦ ، ط ٤ .

كما لا شك في كون هذا السفور المقلد للسفور الغربي فسقا ، وكون إباحته واستحسانه كفرا ، والحث عليه أشد الكفر (١) .

٥ - ويقول عطار : (الإسلام والجاهلية نقيضان ، ولا يجتمع الضدان ، والتبرج جاهلية ومادام جاهلية فهو باطل وحرام ، وفرض على المسلم والمسلمة أن تقضيا على كل مظاهر الجاهلية وتمحو آثارها وعاداتها وأخلاقها ومعتقداتها ، لأن الله وهب لهما البديل الصالح ، ولا يجوز تركه إلى ما أمر الله بتركه) (٢) .

٦ - ويقول شكيب أرسلاني^{رحمه الله} : (إن المسألة ليست منحصرة في السفور ، ولا هي بمجرد حرية المرأة في الذهاب والمجيء كيفما تشاء ، بل هناك سلسلة طويلة حلقاتها متصل بعضها ببعض ، لا بد من أن ينظر الإنسان إليها كلها من أولها إلى آخرها .

إن سلوكنا مسلك الأوروبيين حذو القذة بالقذة في هذه المسألة هذا له توابع ولوازم لا بد أن نقبلها ، ولا يبقى معها لكلمة : (أعوذ بالله) كلالا يوجد هناك (أعوذ بالله) بل تلك مدنية وهذه مدنية تلك نظرية وهذه نظرية ، فعلينا أن نختار إحدى الدينيتين أو إحدى النظريتين مهما استتبعت من الأمور التي كان يقال فسي مثلها عندنا (أعوذ بالله) (٣) .

-
- ١ - موقف العقل والعلم ج ١ ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .
 - ٢ - الحجاب والسفور ص ١٥٠ .
 - ٣ - نقلا عن اتجاهات وطنية ج ٢ ص ٢٥٩ .

وهكذا فإنَّ السفر والاختلاط والدعوة لذلك بين المسلمين في العالم الإسلامي يعتبر تحدياً سافراً لأحكام الإسلام وخروجاً ظاهراً على تعاليمه ومبادئه ، وهو بالتالي تفضيل للأعراف الجاهلية ورضى بالحياة الوثنية .

وقد رأينا أن الأدلة من القرآن والسنة وسيرة السلف الطاهرين وأقوال العلماء تصافرت على تحريمه ودلت على أنه لا يجوز أن ينتشر بين المسلمين فيطغى على نساءهم ورجالهم ويسود مجتمعاتهم ، لأن ذلك من صفات المجتمعات الجاهلية ، وأخلاق الأمم الوثنية التي نهينا عن تقليدها ومشابقتها ، والإسلام قد بنى مجتمعه على أساس التمييز عن غيره من المجتمعات الوثنية ، فله شخصيته وله عاداته وتقاليده وقواعده الأخلاقية التي يقوم عليها ، فهو مجتمع يقوم على الاحتشام والتحفظ والحياء والورع والتقوى ومباعدة ما بين الرجل والمرأة إلا عن طريق واحد وهو الزواج ، ولا غضاضة في أنه يقوم على الفردية وعدم الاختلاط والتزواج والامتزاج بين الذكور والإناث بطرق غير مشروعة ، وإذا تخلَّى المجتمع الإسلامي عن بعض خصائصه ومميزاته التي يمتاز بها عن المجتمعات الوثنية وبدأ بمحاكاتها وتقليدها ولو في جزئيات صغيرة ، فمعنى ذلك أنه أخذ في معايشة تلك المجتمعات وفي طريقه للذوبان والاندماج فيها ومهادنتها وسيفقد أخيراً صبغته الإسلامية وشخصيته المتميزة .

وقبول السفر والاختلاط والرضى به من مجتمع إسلامي يعني بوضوح ارتداداً وعودته الصريحة إلى الوثنية ، وعبوديته لغير الله تعالى ، التي طالما أنفق الإسلام في سبيل تحريره منها أعواماً كثيرة من عسر الدعوة إلى وحدانية الله وإقامة المجتمع الإسلامي الذي يلتزم بشرع الله .

ولا يخفى على عاقل أن قبول هذا المنكر والرضى به قد يصل لدرجة الكفر الذي يخرج به الإنسان من ملة الإسلام ، وذلك في حالة استحلاله والاعتقاد بعدم حرمة كما هو شأن الكثير من المتحضرين ، لأن استحلال الحرام يفضي إلى الكفر (١) .

فإذا وصل الحال بالسافرات وأفراد المجتمعات المختلطة ، والداعين للسفر والاختلاط والمروجين له والمدافعين عنه والراضين به والمحبين للحياة في ظلمه ، إذا وصل الأمر بهم لئلا إلى هذه الدرجة فاستحلوا ما حرم الله ، وأباحوا ما نهى الله عنه فليسوا من الإسلام في شيء ، وإن تظاهروا بأنهم مسلمون وقاموا بأداء بعض شعائر الإسلام .

وأما إذا كان قبولهم له ودعوتهم إليه وتطبيقهم له وتنظيم حياتهم على ضوئه نابعا من ضعفهم الفريرى ووساوس شياطين الجن والإنس لهم وعدم قدرتهم على مقاومته ، فإدبى بهم الحال إلى التهاون بأمر الله و التخاذل عن التزام حدوده وشرائعه مع اعترافهم بالذنب وشعورهم بالآثم فأقل ما فيه أنه من كبائر الذنوب^(١) والفسق الظاهر ، وضعف الإيمان وقلة الورع وعدم مراقبة الله وتقواه .
وهو فى كل الأحوال نذير خطر ، ومؤشر هلاك ، ودليل فساد لا يجوز السكوت عليه فضلا عن الرضى به والتسليم له .

قال تعالى : (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب)^(٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم : (من رأى منكرا فاستطاع أن يغيره بيده ، فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان)^(٣) .

وقوله صلى الله عليه وسلم : (إن الناس إذا رأوا المنكر لا يغيرونه أوشك أن يعصهم الله بعقابه)^(٤) .

١ - انظر موقف العقل والعلم ج ١ ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .

٢ - سورة الأنفال آية ٢٥ .

٣ - رواه مسلم فى الإيمان ٧٨ ، وأبو داود فى الملاحم ١٧ ، والترمذى فى الفتن ١١ ، والنسائى فى الإيمان ١٧ ، وابن ماجه فى الفتن ٢٠ ، وأحمد ، ج ٣ ص ١٠ .

٤ - رواه أبو داود فى الملاحم ١٧ ، والترمذى فى الفتن ٨ ، وابن ماجه فى الفتن ٢٠ ، وأحمد ج ٦ ص ٣٠٤ .

الفصل الثالث

وسائل العلاج

أ - تمهيد .

ب - الوسائل :

- ١ - التربية الإسلامية الصحيحة .
- ٢ - إصلاح مناهج التعليم .
- ٣ - إصلاح وسائل الإعلام .

الفصل الثالث

وسائل العلاج

أ - تمهيد :

١ - من المعلوم في عالم الطب أن تشخيص المرض على قدر ماله من الأهمية في نظر الطبيب لا يعتبر كافياً ولا بد له من مرحلة تالية ومتعمّة وهسي مرحلة تعيين العلاج وتحديد الدواء المناسب لاجتثاث جرثومة المرض من أصلها ، كما أن تشخيص المرض وبيان وتحديد العلاج وتوفيره وتقديمه للمريض ليس مرحلة نهائية حتى تنضم إليها رغبة أكيدة من المريض والتزام منه بتنفيذ خطة العلاج المرسومة له من قبل الطبيب ، وإن كانت على غير مراده وهواه ، نظراً لما يحتاجه العلاج من صبر وتضحية وتحمل ومخالفة لهوى النفس .

وإنني أسمى في هذا الفصل لتقديم العلاج ، بعد أن قمت بـ قدر جهدي واستطاعتي بتشخيص المرض الذي أصاب العالم اليوم وهو داء الوثنية مرض البشرية الخطير الذي يصيبها كلما انحرفت عن دين الله الحق وعن العبودية له وحده ، وتحكيم شريعته في واقع حياتها وعبدت من دونه آلهة أخرى . وطبيعة موضوع رسالتي يقتضي أن يكون العلاج لأوروبا منشأ الوثنية الحديثة ، ولكني رأيت أن المنطق السليم يقتضي غير هذا فالعالم الإسلامي هو الذي يحتاج للعلاج قبل غيره ، لأنه كما علمنا سابقاً كان من ضمن أسباب الوثنية الحديثة وانتشارها ، ثم رأينا كيف ازداد بعده عن الإسلام في العهود الأخيرة ، ثم رأينا أن عدوى الوثنية قد انتقلت إليه نفسه .

فمما لا يخفى على عاقل أن العالم الإسلامي الذي يملك العلاج هو نفسه قد تأثر بالمرض عن طريق العدوى ، وقد رأينا أن المسلمين قد تأثروا من جراء ذلك وأصيبوا به في عقر دارهم في أكثر مجالات الحياة ، وفي مقدمة ذلك تنحية شريعة الله وتطبيق النظم والمناهج البشرية ، وفصل الدين عن الحياة فصلاً شبه تام ، كما هو الحال في أوروبا التي نتحدث عنها .

ومن هنا فإنه من العيب وضياع الجهد أو من الجهل ومخالفة المنطق السليم أن نصف العلاج لغيرنا ونحن مرضى هلكت ، بمعيدون - كفيرنا - عن دين الله .

وما أصدق الشاعر إذ قال :

يا أيها الرجل المعلم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام كيما يصح به وأنت سقيم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم
إبدأ بنفسك وانهبها عن غيرها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل ما وهنت ويقتدى بالعلم منك وينفع التعليم (١)

نعم يجب أن لا نظن هذا مطلقا ما دام المسلمون في بعد عن حقيقة الإسلام وعن التمسك به ، وما لم يبدأوا هم أنفسهم بتطبيق الإسلام والتمسك به والعودة الصادقة إليه عقيدة وشريعة ومنهج حياة ، وما لم يقيموا ديانة التوحيد ويترجموها عمليا في واقعهم ، لا أن تبقى شيئا في الخيال . ولم يرفعوا راية الإيمان فوق كل راية علمانية ، من قومية أو وطنية . . . أو غيرها فهم الأحق والأولى والأجدر بهذا أولا .

أما أن نتنظر من أوروبا أو نتوقع منها أن تتخلى عن ما ديتها وطفانها وإلحادها وشركها بالله ووثنياتها الجامحة لتتقلب دفعة واحدة وتو^ت من بالله وتستقبل منا الإسلام كعلاج فعال ، فهذا ما ليس في الحسبان ولا من المعقول وقومه لمخالفته لسند الكون .

إن الأمر يحتاج أولا إلى التزام الأمة الإسلامية بعقيدتها وتطبيق شريعة الله ، ثم تقوم هي بعد ذلك بتحمل دورها ومسؤوليتها في نشر دين الله وهداية الآخرين ، عن طريق الجهاد في سبيل الله والدعوة إلى دين الله ونشره وتبليغه صافيا خالصا كما جاء في مصدره : كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم . ويكون هذا هو العلاج المطلوب والدواء الناجع لمحاربة الشرك والوثنية الحديثة التي تسود العالم المعاصر . وهذه هي طريقة العلاج التي لا تختلف باختلاف الزمان والمكان ، لأن المرض واحد فلا بد أن يكون الدواء واحدا وما أشبه الليلة بالبارحة .

بهذا تقوم الحجة على أوروبا بعد تعريفها بدين الله الصحيح الذي لم تعرفه المعرفة الصحيحة حتى الآن ، ويترك لها بعد ذلك الخيار التام في اتباع الإسلام والدخول فيه أو أن تختار طريق الردى والضلال والكفر

(١) البيت الأول والثاني لم أعثر عليهما في الديوان ، وأثبتهما من الذاكرة والأبيات منسوبة لأبي الأسود الدؤلي . انظر ديوانه ص ١٣٠ ط ٢ تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين .

وتبقى على ما هي عليه من الانحراف عن دين الله وتنتظر سوء العاقبة في الحياة الدنيا قبل الآخرة .

قال تعالى ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم . الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ (١)

وقال سبحانه ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . ﴾ (٢)

مرة أخرى أقول بالرغم من حاجة أوروبا الملحة إلى علاج جذري يقطع دابر الوثنية فيها ، وإن الإسلام هو العلاج .

فإن ذلك لا يكون - ولن يكون - ما لم تقم للإسلام دولة وتكن له قوة تحميه وجماعة مؤمنة صادقة تحمله وتدعو إليه وتنشره وتبشّره وتقوم بواجبها نحو دين الله ، بحيث يصبح الإسلام واقعا عمليا ملموسا .

والعالم الإسلامي - والعربي على وجه الخصوص - هو الذي تقع عليه هذه المسئولية وهو الذي يتحمل وزر التقصير والتفريط في حقها ، لأن المسلمين هم المعنيون في قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ (٣) وفي قوله سبحانه ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمن بالله ﴾ (٤)

أما المسلمون اليوم لا يختلفون عن غيرهم في موقفهم من الإسلام والتزامهم به وقد رأينا كيف أن عدوى الوثنية قد انتقلت إليهم وتأثروا بها في مختلف المجالات ، فهم العرضى ، بل هم أساس المرض ، وأصل الداء ، فالأمر إذن يقتضي أن يعالجوا أولا حتى يتمكنوا من النهوض بواجبهم في الدعوة إلى الله ونشر عقيدة التوحيد بين الناس ، وتحريرهم من العبودية لغير الله ، ومحاربة الوثنية والمعائد الباطلة التي تغمر وجه الأرض شرقا وغربا ، فصلاح حال المسلمين هو منطلق الإسلام وعلو رايته وهو أساس سعادة البشرية جميعها .

(١) سورة البقرة ٢٥٤ .

(٢) سورة طه ١٢٤ .

(٣) سورة البقرة ١٤٣ .

(٤) سورة آل عمران ١١٠ .

وإذا عرف المريض الحقيقي الذي يجب أن يعالج أولاً وهو العالم

الإسلامي وعرف كذلك نوع المرض وهو الشرك والعبودية لغير الله ، وعرف العلاج أو الدواء وهو التوحيد والعودة إلى دين الله وعبادة الله تعالى بالمفهوم الشامل الواسع للعبادة ، وهو علاج مجرب ومشهود لفاعليته بالتجربة الحسية والواقع التاريخي ، وهو في الوقت نفسه متوفر ومحفوظ بأفضل وأمنع وسائل الحفظ ، ﴿ إننا نحن نزلنا الذكر وإننا له لحافظون ﴾^(١) ، لم يبق أمامنا سوى البحث عن أسلوب العلاج وتحديد طريقة الاستعمال .

٢ - وما لا شك فيه أن المرض إذا كان مزمنًا وبالغا مبلغ الخطورة فإنه

بالإضافة إلى حاجته لوقت طويل وجهد كبير وخبرة ومهارة عالية . . فإنه كثيرا ما يبعث في نفس الطبيب الملل والسأم وعدم الأمل في إمكانية الشفاء وبالتالى ضياع الجهد المبذول وعدم الوصول إلى نتيجة طيبة ، مما يبعث في كثير من الأحيان على الإحباط والإحجام والاستسلام لتقل الأمر الواقع وضغطه ، غير أنني أحب أن أؤكّد - وقبل الشروع في بيان وسائل العلاج - أنه بالرغم من كلّ المثبطات من الأحوال والأقوال والأفعال التي تقف حجرة أمام هذا العلاج وتحول في أكثر الأحيان دون أن يعطى مفعوله وتأثيره ، بما تقدّمه للمرضى من مضادات كثيرة وميكروبات من شأنها أن تقوى المرض وتفسد خطة العلاج ، أن هذا كله وغيره يجب أن لا يشككنا في صلاحية العلاج وضرورته أولاً ، ولا يصدّنا عن حمله وتقديمه للناس ثانياً مهما كلفنا ذلك من الجهود والتعبات ، فالملاحظ أن حال الإسلام والمسلمين في هذا العصر لا تختلف كثيراً عن حاله في بداية عهد الدعوة الإسلامية في زمن البعثة النبوية ، وكأنما الزمان قد استدار كيوم بعثته صلى الله عليه وسلم ، فدولة فارس المجوسية كانت في شرق الأرض ودولة الروم كانت في غربها بكل ثقليهما ، والعالم كله غارق في الشرك والكفر والضلال ، والفئة التي حملت راية الدعوة لنشر عقيدة التوحيد ، وتحرير البشرية من الأوهام والخرافات وعبادة الطواغيت قليلة ضعيفة مجردة من كلّ وسائل القوة إلا قوة الحق واليقين ، والتاريخ يشهد كيف كانت العاقبة لها ، واليوم تريض روسيا الشيوعية في مكان فارس ، وأوروبا الديمقراطية بقيادة أمريكا قابضة مكان الامبراطورية الرومانية والفئة التي تطمع في الدعوة إلى دين الله ونشر عقيدة التوحيد وإحيائها من جديد كأختها بالأمن ، مجردة من القوة إلا قوة ذلك الحق واليقين .

﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إن أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إن هما في الغار إن يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم ﴾ (١)

يقول سيد قطب - رحمه الله - في كتابه (المستقبل لهذا الدين بعد أن استعرض حال الإسلام والمسلمين في مراحل مختلفة منذ بدء الدعوة حتى عصرنا الحاضر : (نحن اليوم في مثل هذا الموقف بكلّ ملبساته ، وكلّ سماته . مع الجاهلية كلها من حولنا فلا يجوز - من ثمّ - أن ينقصنا اليقين في العاقبة المحتومة . العاقبة التي يشير إليها كلّ شيء من حولنا . على الرغم من جميع المظاهر الخادعة التي تحيط بنا .

إن حاجة البشرية اليوم إلى هذا المنهج ، ليست بأقلّ من حاجتها يومذاك وإن وزن هذا المنهج اليوم - بالقياس إلى كلّ ما لدى البشرية من مناهج - لا يقل عنه يومذاك .

ومن ثمّ ينبغي ألاّ يخالجنّا الشك في أن ما وقع مرة في مثل هذه الظروف لا بدّ أن يقع . ولا يجوز أن يتطرق إلى قلوبنا الشك ، بسبب ما نراه من حولنا من الضربات الوحشية التي تكال لطلائع البعث الإسلامي في كلّ مكان . ولا بسبب ما نراه كذلك من ضخامة الأسس التي تقوم عليها الحضارة المادية . . إن الذي يفصل في الأمر ليس ضخامة الباطل ، وليس هو قوة الضربات التي تكال للإسلام إنما الذي يفصل في الأمر هو قوة الحق ومدى الصمود للضربات .

يجب أن نستعدّ بأن نرتفع إلى مستوى هذا الدين . . .

نرتفع إلى مستواه في حقيقة إيماننا بالله . وفي حقيقة معرفتنا بالله فإننا

لن نؤمن به حق الإيمان حتى نعرفه حق المعرفة .

ونرتفع إلى مستواه في عبادتنا لله . فإننا لن نعرف الله حق المعرفة

إلا إذا عبدناه حق العبادة .

(٣)

... والله معنا (٢) ﴿ والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾

وأما كيف نستعدّ بأن نرتفع إلى مستوى هذا الدين ؟ فهذا ما تشير

إليه وسائل العلاج التالية في هذا الفصل .

(١) سورة التوبة آية ٤٠ .

(٢) المستقبل لهذا الدين / سيد قطب / ص ١١٦ - ١١٨ بتصرف .

(٣) سورة يوسف آية ٢١ .

٣ - في كثير من الأحيان قد تتعدد طرق العلاج وتختلف أساليبه ووسائله ، وهذا التمدد لا قيمة له ولا خطورة فيه ما دام ذلك في حدود المعقول ، لأنها في نهاية المطاف ستلتقي على غاية واحدة وتصل إلى نتيجة واحدة - وإن كان بعضها أقصر أو أيسر من البعض الآخر - وهي قيام أو تكوين مجتمع إسلامي يلتزم بالإسلام عقيدة ونظام حياة التزاما كاملا من غير تفريط ، وإذا وجدت هذه القاعدة الشعبية المسلمة أو وجد الرأي العام المسلم ستوجد بالتالي السلطة المؤمنة التي تقود المؤمن إلى الجهاد في سبيل الله والدعوة إلى الله وتبليغ رسالته للناس أجمعين وتحطيم كل الحواجز والطواغيت التي تحول دون أن يختار الناس في شرق الأرض وغربها العقيدة التي يريدونها بحريسة تامة واختيار مطلق ، ولا أظن أنهم سيختارون عند ذلك إلا الإيمان بالله ، وعبادة الله وحده ، وشريعة الله نظاما للحياة ، بعد أن تخبّطوا في الإلحاد والشرك ودانوا للقوانين والنظم والأحكام الوثنية زمنا طويلا ولم يظفروا فيه بالسعادة الحقيقية ، ويتحقق عند ذلك وعد الله لعباده المؤمن بالنصر والغلبة والتثبيت .

﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ (١)

(٢) ثم إننا عندما نبدأ بالعلاج والبحث عن وسائله ، لن نبدأ من فراغ ، ولن نحتاج إلى أسلوب التجربة والخطأ . كلا . إن كل ما نحتاج إليه في مرحلة العلاج هو موجود ومعروف ومحفوظ ، إن بين أيدينا الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه : (كتاب الله وسنة نبيه) هما الدواء الشافي لسدأ البشرية ، وأماننا تجربة فريدة ونموذج رائع تمثل الإسلام عقيدة ونظام حياة ، بعد أن كان يتخبّط في تيه العبودية لغير الله وظلام الجاهلية فانتقل إلى عهد جديد وصار مثلا يحتذى وقدوة تتبع ، وجدير بنا اليوم أن نتأسى به ونحذو حذوه ونستهدى خطاه .

والمطلوب في مقدمة العلاج أن يشعر الناس بالحاجة إلى (التغيير) بأن يستعدوا لتغيير ما في أنفسهم أفرادا وأسرا ومجتمعات ويتذكروا أن الله ﴿ لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم ﴾ (٣)

وتغيير ما بأنفسنا من انحراف عن حقيقة الإسلام وشريعته ، يستلزم أن نغيّر ما بها من انهزامية وضعف وشعور بالعجز أمام قوة الوثنية وثقل الواقع المادي فنستعلى بإيماننا وفهمنا وعودتنا لديننا ، ونستبدل بكل مظاهر

(١) سورة محمد آية ٧ .

(٢) انظر كتابات على بوابة القرن الخامس عشر / د . عماد الدين خليل و د . عبد الحليم عويس / ص ٥٣ - ٦٥ / دار العلوم الرياض .

(٣) سورة الرعد آية ١١ .

الانحراف والخور تمسكا بعقيدة التوحيد وفيها واعيا لحقيقة الإسلام ، وعزة وأنفة وقوة أمام الباطل ، لأنه كما قال الإمام مالك رحمه الله : (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها) (١) فأما أداة الإصلاح فهي معنا ، وطوبى لمن ابتدرها فأصلح من نفسه وغيره ما قد فسد ، وهي في أكثر الأحيان لا تحتاج إلى زمن طويل حتى توهى أكلها وتخرج ثمارها ، إنها عقيدة ربانية إذا تأصلت في النفوس ظهرت نتائجها في الواقع .

✽ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء توهى أكلها كل حين بإذن ربها ✽ (٢) فمقيدة التوحيد كالشمس إذا برزت لا تلبث أن يعم نورها وتلمس حرارتها ودفئها .
وأما كيف يمكن أن يحدث هذا التغيير ؟ ففي تصوري أن ذلك يكون عن طريق اتباع ثلاث وسائل تعمل متكاملة متضافرة في وقت واحد من غير انفصام ولا تضاد ولا شناعة ، ليخرج بالتالي مجتمع إسلامي أو أمة مسلمة تقوم بواجبها في الدعوة إلى الله والجهد في سبيله .

وهذه الوسائل هي : التربية الإسلامية الصحيحة وإصلاح مناهج التعليم وتوجيهها الوجهة الدينية الصحيحة وإصلاح وسائل الإعلام المختلفة وتسخيرها في الدعوة إلى دين الله .

وهذه في نظري أبرز وأهم الوسائل التي يمكن استخدامها نظرا لما لها من أثر كبير على تنشئة الأجيال وتربيتها وصياغتها على الوجه المطلوب ، ومقدار تأثيرها على الرأي العام وتوجيهه نحو المقصود ، وهذا بالطبع لا يعني أن نغفل جوانب الحياة الأخرى ، بل يجب أن يستغل كل وجه من وجوه الحياة في سبيل الوصول إلى الهدف السامي المطلوب وهو تحقيق العبودية التامة لله تعالى في الاعتقاد والشعائر والشرائع المنظمة للحياة ، حتى يستحق المجتمع أن يوصف بأنه مجتمع إسلامي متعيز عن باقي المجتمعات الوثنية المعاصرة .
وليس هدفي ولا بوسعي أن استعرض بإسهاب هذه الوسائل وإنما أردت مجرد لفت الأنظار إليها فهذه المسألة تحتاج إلى لجنة من كبار العلماء والمختصين . فالمسألة جد خطيرة وتحتاج إلى عناية واهتمام على كافة المستويات في العالم الإسلامي والعربي على وجه الخصوص ليقوم العرب بدورهم الريادي الذي قاموا به من قبل ويتحملوا عبء الدعوة إلى الله .

(١)

(٢) سورة إبراهيم آية ٢٤ - ٢٥ .

ب - وسائل العلاج المقترحة لإصلاح واقع المسلمين :

أولاً : الوسيلة الأولى : التربية الإسلامية الصحيحة :

يرى الكثير أن الإنسان في حقيقته يشكّل انعكاساً للعملية التربوية التي يتربى على نهجها وينشأ على فلسفتها ، وقد كانت العملية التربوية من أبرز قضايا الإنسان عبر تاريخه الطويل (١) .

ولعلنا من هذا الباب نفهم قوله صلى الله عليه وسلم : (أدبني ربي فأحسن تأديبي) (٢) وقوله : (بعثت لأتم مكارم الأخلاق) (٣) ، وقول عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن خُلُقِهِ عليه الصلاة والسلام فقالت (إن خلق نبي الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن) (٤) .

ولا يخفى أن التربية في العالم الإسلامي اليوم بعيدة عن تعاليم القرآن ومكارم الأخلاق ولا تنشىء إلا أجيالاً مقطوعة الصلة بروح الإسلام ، تغلب عليها النزعة المادية في تقييم الأمور والنظرة إلى الحياة ، حتى صارت التربية الإسلامية في أذهان كثير من الناس ، وفيهم بعض العربيين ذات صورة باهتة خالية من الروح ، لها وقت معين وحصص مخصوصة ومحدودة لا تتعداها ، مقطوعة الصلة بغيرها من حصص العلوم الأخرى ، مما يصنع الازدواجية ويوهي بالتناقض بين العلم والإيمان ويدعو إلى الانفصام أو يوه كده زورا وبهتانا . (٥)

ومن هنا فإن التربية الإسلامية الصحيحة تعني نظاماً متكاملًا للتربية ، يشمل فلسفة التربية وأهدافها ومناهج التعليم وطرق التدريس والإدارة التعليمية والإدارة المدرسية وغيرها من وجهة النظر الإسلامية التي لا تفرق بين علوم شرعية وعلوم كونية ، حتى لا يكون هناك صراع بين العلم والدين كما هو الحال في النظم التربوية الوثنية التي تسود العالم وتقوم على أساس فصل الدين عن واقع الحياة وفي مقدمة ذلك التربية والتعليم . (٦)

(١) انظر المسلمون في معركة البقاء / د . عبد الحليم عويس / ص ١٠٧ / ط ١ عام ١٣٩٩ هـ .

(٢) أورده الألباني في السلسلة الضعيفة ج ١ ص ١٠١ وقال شيخ الإسلام في الرسائل الكبرى ج ٢ ص ٣٣٦ معناه صحيح .

(٣) رواه مالك في الموطأ في حسن الخلق ١

(٤) رواه سأم في صلاة المسافرين ١٣٩ .

(٥) انظر نحو منهاج إسلامي أمثل - يوسف العظم / ط ١٧ / ص ١ .

(٦) انظر نحو صياغة إسلامية لمناهج التربية والتعليم / د . إسحاق الفرغان

ومجموعة أخرى من المؤلفين / ص ٤٩ - ٥٠ / ط ١ عام ١٣٩٩ هـ - قطر .

فالإسلام عقيدة وعمادة ، دين ودولة ، نظام ومنهج رباني لكافة مجالات الحياة ، يوحد بين شطري النفس البشرية المادى والروحي ويجعل منها بناءً متكاملًا متزنًا .

والتربية الإسلامية الصحيحة يجب أن تنطلق من هذا المنهج وتتبنى تحقيق هذه الغاية ، فلا هي تربية روحية خالصة مقطوعة الصلة بالحياة الدنيا والمادة كما هو الحال في النصرانية ، ولا هي تربية مادية بعيدة عن الدين والوحي كما هو الحال في النظم والمذاهب الوثنية المعاصرة التي لا تؤمن إلا بالمادة ولا تقدّر في موازينها إلا الجوانب الحسية في الإنسان والكون والحياة ، فتراها تربي الأجيال على هذه الأسس المادية وتضخم في نفوسهم الجانب المادى فلا يبحثون إلا عن الطعام والشراب والملبس واللذة والشهوة والمتاع في كل تصرفاتهم وأفعالهم ، وأهملوا العقيدة والدين والعبادة والأخلاق الفاضلة التي يفرضها الدين ، والتربية الإسلامية لا هي من هذه ولا من تلك ، وإنما هي تربية شمولية تنطلق من العقيدة والأخلاق وتستغل الجوانب المادية وتوجهها أحسن استفلال وتوجيه بحيث تضمن في النهاية تكوين الإنسان السوي المتكامل الذي يقوم بدوره في الحياة على أحسن وجه .^(١)

والتربية في العالم الإسلامي المعاصر قد تأثرت بالنظم والمناهج التربوية غير الإسلامية - لأسباب كثيرة -^(٢) (نسموم الفكر الغربي المبني على الإلحاد والخلق الغربي المبني على الإباحية والاستهتار ، كل ذلك يفتك بجسم الشعوب الإسلامية من كل جانب فلا خلاص لها إلا بإعادة النظر في نظم الحياة من أساسها والأخذ بالنظام التربوي الإسلامي كاملاً : بأسسه وأهدافه وأساليبه وخصائصه ومبادئه ، لتخريج جيل مسلم حقا يفهم الحياة فهماً إسلامياً ويمارسها على أساس من الإيمان وتحقيق مستلزمات هذا الإيمان بالله واليوم الآخر ممارسة سليمة قوية هادفة ، فينشرون هذا الإيمان وينهض بأتمه ثم بالعالم أجمع) .^(٣)

كيف يمكن تحقيق التربية الإسلامية الصحيحة في العالم الإسلامي ؟
في رأبي أنه يمكن الوصول إلى هذه الغاية السامية بطرق كثيرة يمكن حصرها بما يردده الكثير وما يستلزمه الحال وتقتضيه سنة الكون التي هي إرادة الله ، وهو

(١) انظر منهج التربية الإسلامية / محمد قطب / ص ١٠١ - ٢١ / ط ٣ دار الشروق .

وانظر التربية الإسلامية والمشكلات المعاصرة / عبدالرحمن النحلاوي / ص ٩٠ - ٩٧

ط ٢ المكتب الاسلامي .

(٢) انظر كتاب نحو صياغة إسلامية لمناهج التربية والتعليم ص ٥ - ٧ .

(٣) التربية الإسلامية / نحلاوي ص ٢١ .

العودة الجادة والصادقة إلى الإسلام والالتزام به نظاما شاملا للحياة وفي مقدمة ذلك تطبيق شريعة الله وإيجاد النظم والمناهج والقوانين الوضعية التي تطبق الآن في أكثر ديار الإسلام .

ولا شك أن العودة إلى دين الله تستلزم أموراً متداخلة لا ينفك بعضها عن بعض ، وأى تخلفاً أو تأخر في شئ منها لا بد أن يعرقل سير الخطة ويحول دون الوصول إلى الغايات والأهداف المرجوة .

(١) ويأتي بيان حقائق الإسلام التي خفيت على الناس واختلطت على العقول والتبس فيها الحق بالباطل عند الكثير بسبب الهدم عن حقيقة الإسلام في العهود الأخيرة ، ومن جراء الغزو الفكري الذي تعرّض له المسلمون ، في مقدمة هذه الأمور .

وأذكر على سبيل المثال لا الحصر بعض المفاهيم والحقائق التي يجب تبينها وتوضيحها والعودة بها إلى معانيها ومدلولاتها الصحيحة التي يريد بها الإسلام وكما جاءت في القرآن الكريم والسنة النبوية وكما فهمها السلف الصالح . فمنها ضرورة التأكيد على أن الإسلام يشكل نظاماً شاملاً لكافة مجالات الحياة ، فكما أنه إيمان بالله وملائكته . . . وعبادة له بالطقوس والشعائر التعبدية من صلاة وصيام وحج وزكاة ودعاء ونذر وذبح . . . إلخ فهو كذلك تشريع وعبودية لله بالالتزام بشريعته وعدم الخروج عليها سواء في الأحوال الشخصية أم في الحدود أم في المعاملات أم في طلاقات الأفراد بعضهم ببعض ، فالإسلام عقيدة وعبادة وتشريع ، وليس كما صار في أذهان الناس مجرد عقيدة وعبادة لا صلة له بالحياة ، وذلك بسبب التوجيه المباشر وغير المباشر الذي يسعى لفصل الدين عن الحياة تقليداً واتباعاً لدول الغرب الوثنية .

وفهم الإسلام على هذه الصورة المتكاملة هو الفهم الصحيح لحقيقة (لا إله إلا الله) (١) التي صارت مجرد شعار يرددّه المسلمون مرات عديدة في اليوم واللييلة من غير إدراك لما تعنيه وتستلزمه ، وجعلها مجرد الإقرار بوجود الله والإيمان به ربا خالقاً لا سلطة له على نظام الحياة .
ومن ذلك (العبادة) (٢) أو العبودية الكاملة لله تعالى التي (٣)
تتسع لتشمل كافة نشاطات الإنسان ، بالإضافة إلى الطقوس والشعائر التعبدية .

(١) انظر معالم في الطريق ص ٩٧ .

(٢) راجع المصطلحات الأربعة في القرآن ص (١٠١-١٢٢) .

(٣) انظر مفهوم العبادة في الباب الأول من الرسالة .

- ومن ذلك (الإله) بمعنى المعبود المستحق للعبادة والطاعة والخضوع وليس كما يفهمه البعض أنه بمعنى الخالق والرب والموجود . ومنها (الرب)^(١) فكما أنه الخالق الرازق والمحيي المميت فهو الحاكم وهو صاحب الحق في التشريع ، وحصر معنى الربوبية في الخلق والإيجاد تحريف وتضليل .
- ومنها (الدين)^(٢) النظام الشامل لا أنه مجرد علاقة الإنسان بالله . ومنها (الصنم والوثن والطاغوت)^(٣) التي هي في الحقيقة رمز لكل معبود غير الله وليست مجرد أحجار وتماثيل ومعبودات معينة إذا اختفت أو زالت اختفى الشرك وزالت الوثنية ، كما هو مفهوم الناس اليوم .
- ومنها تجلية عقيدة التوحيد كما جاءت في الكتاب والسنة والتأكيد على توحيد الألوهية الذي أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل ، وأن التوحيد هو الأصل ، والشرك طارىء على البشرية ، وأن الوثنية تمنى العبودية لغير الله تعالى لا مجرد عبادة الأوثان .
- ومنها بيان نظرة الإسلام للإنسان والكون والحياة على أساس تحقيق العبودية الكاملة لله تعالى وأنها جميعها مسخرة ومخلوقة لله تعالى .
- ومنها بيان أن حاجات الإنسان ليست محصورة في الطعام والشراب وما في الأمور المادية التي لا يستغنى عنها ولكنها ليست هي قوام الحياة والمهدف الأعلى للإنسان فهناك جانب آخر في الإنسان وهو الجانب الروحي الذي يحتاج إلى الغذاء المتمثل في الصلة بالله وعبادته . هذا بخلاف ما تحاول أن تفرضه - بل ما فرضته - المذاهب والنظم الوثنية من أن الحاجات المادية هي المطلب الوحيد للإنسان في الحياة فإذا توفرت هذه المطالب تحققت السعادة ، وهذه في الحقيقة نظرة حيوانية للإنسان الذي كرمه الله على سائر الخلق .
- ومنها الأخلاق الفاضلة التي يجب أن تنشأ عليها الأجيال ، فيميز بين الخير والشر والفضيلة والرذيلة والحرام والحلال . . الخ
- هذه هي بعض المفاهيم والحقائق الإسلامية التي يجب أن تتربى عليها الأجيال الناشئة لتكون على فهم وإدراك لحقيقة الإسلام وامتنال لحقائقه ومعانيه وتطبيقاً لأحكامه ، أو بكلمة أخرى ليجتمعوا الإسلام ترجمة عملية وواقعية فلا يبقى مجرد
-
- (١) راجع المصطلحات الأربعة في القرآن ص ٣٧ - ٤٦ والباب الأول من الرسالة .
- (٢) راجع المرجع السابق ص ١٢٣ - ١٣٨ والدين / د . د راز ص ٢٨ - ٥٤ .
- (٣) سبق بيانها في الباب الأول .

حقائق ذهنية ومعاني مثالية في عالم الخيال ، ولا يخفى ما لهذا من فائدة عظيمة في إقناع الآخرين بالإسلام ومدى تقبلهم له .

(٢) وإلى جانب بيان حقائق الإسلام والعودة بها إلى معانيها الصحيحة كما جاءت في أصولها (القرآن الكريم والسنة النبوية) ، تأتي أهمية تربية الفرد والأسرة والمجتمع تربية إسلامية صحيحة^(١) ، بحيث تؤدي إلى تكوين رأى عام إسلامي وأعراف وعادات وتقاليد وأخلاق إسلامية ، نابغة من صميم الإسلام نظيفة من كل المكدرات من الأهواء والضلالات والبدع والأوهام والخرافات ، والتبعية والتقليد للمجتمعات المادية المنحرفة عن دين الله .

وهذا يقتضي أن يتربى الأفراد على كافة مستوياتهم على العبادات والأخلاق الإسلامية التي تربت عليها أجيال السلف الصالح ، يتربون أولاً على العبودية الكاملة لله تعالى في جميع أمورهم ، كما جاء في قوله تعالى ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له . . . ﴾^(٢) ، ثم بعد ذلك على الإخفاء والمحبة والصدق والإخلاص في العمل والصبر على الأذى في سبيل الله والجهاد في سبيل إعلاء دينه ونصرة المسلمين في كل مكان .

وعندها يتوجهون إلى الله تعالى بالدعاء أن ينجز لهم ما وعدهم فسي كتابه العزيز ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلِيُمَكِّنَ لَهُمْ دِينَهُم الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ﴾^(٣) وليبدل لهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً .

وإذا وجد الأفراد الصالحون - لا المواطنون الصالحون كما تقول نظم التربية الحديثة غير الإسلامية من قومية ووطنية ، لأن التربية الإسلامية تهتد ف إلى إعداد الإنسان أو الفرد الصالح الذي يعتد صلاحه وخيره وعطاؤه خارج حدود وطنه وقومه ، فلا تستعبده هذه النزعات والأهواء - إذا وجد هو لا أخذت تظهر ملامح الأسرة المسلمة وتنتضح صورة المجتمع المسلم ، وذلك لأن الفرد هو الركيزة واللبنة الأولى في جسم المجتمع وكيان الأمة ، وهذا ما قامت عليه دعوة الإسلام منذ البداية . فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يسعى لاكتساب أكبر عدد من الأفراد ثم يرببهم ويعدهم الإعداد المطلوب حتى كانوا فيما بعد نواة الدولة الإسلامية وأركانها الراسخة وحملوا دعوة التوحيد للبشرية كاملة .

(١) انظر رسائل الإمام الشهيد حسن البنا / ص ٤٥٣ طبعة مؤسسة الرسالة

(٢) سورة الأنعام آية ١٦٢-١٦٣ .

(٣) سورة النور آية ٥٥ .

ولا يخفى أن هناك تداخلا في دور الفرد والمجتمع إذ أن كلا منهما ذو تأثير - سلبي وإيجابيا - في الآخر ، ففي البداية يكون الفرد وفي النهاية يكون المجتمع الإسلامي الذي يتحمل بدوره بعد ذلك تربية الأفراد وتكوينهم وتنشئتهم على المنهج الإسلامي الصحيح ، ولعلنا ندرك هنا أن قوة تأثير المجتمع على الأفراد أقوى وأبلغ وأسهل في الوصول إلى المطلوب ، من تأثير الأفراد على المجتمع ، ولكن لا بدّ من الخطوة الأولى ، فكل بداية لا تخلو من الموارض والتحديات إلا أن الاقتناع والإيمان بالمبدأ والهدف لا بدّ أن يعطى أفضل النتائج وأطيبها .^(١)

ومن هنا فإننا نلاحظ أن الإسلام قد اهتم بتربية الفرد وإصلاحه اهتماما بالغاً لأنه واقعي في نظره للأمور ، فالبناء الضخم لا يتكون إلا من تلك اللبنة الصالحات التي تؤلف فيما بينها نظاما متكاملًا ، وإذا قام لا يضره في النهاية سقوط بعضها لسبب أو لآخر .

ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى الطرق والوسائل التي يمكننا من خلالها أن نقدم حقائق الإسلام ومبادئه بصورة صافية من كل ما يخالطها من تحريف في الفهم ، ونقوم بعملية تربية الفرد والأسرة وإعداد المجتمع المسلم إعدادا إسلاميا متكاملًا سواء من ناحية الإيمان وصحة الاعتقاد أو من ناحية الشعائر والعبادات وفهمها الفهم الحقيقي وتطبيقها تطبيقا صحيحا موافقا لمراد الشارع الحكيم ، أو من حيث التشريعات المنظمة لشؤون الحياة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وفكريا . إلخ ولا يكون ذلك إلا عن طريق الدعوة إلى الله وتطبيق المبدأ العظيم الذي امتدح الله جلّ و علا به الأمة الإسلامية ووصفها بأنها خير أمة أخرجها لهداية الناس ودعوتهم إلى إقامة العبودية الكاملة لله تعالى ، ذلك هو مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

قال تعالى ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُوِّدُونَ بِاللَّهِ نُورًا ﴾^(٢)

(١) راجع في ذلك : منهج التربية الإسلامية / محمد قطب ج ١ / ص ٢٦٥ -

٢٧٢ ، ونحو صياغة إسلامية لمنهج التربية والتعليم ص ٢٤ - ٢٦ ،

٢٩ - ٣٠ ، وأصول التربية الإسلامية وأساليبها / عبد الرحمن النحلاوي ،

ص ١٦٠ - ١٦٧ / ط ١ دار الفكر ، والحل الإسلامي فريضة وضرورة

/ د . يوسف الفضاوي ص ٥٩ - ٦٤ .

(٢) سورة آل عمران آية ١١٠ .

والدعوة إلى الله تعالى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تشكل قاعدة هامة من قواعد هذا الدين ، وهي مسؤولية كل فرد بحسب حاله وقدرته ومقامه قال صلى الله عليه وسلم : (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَاسْتِطَاعَ أَنْ يَغْيِرَهُ بِيَدِهِ فَلْيَغْيِرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَافُ إِيمَانٍ) .^(١)
وقوله عليه الصلاة والسلام (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته) .^(٢)
فهذه القاعدة الإيمانية تجعل كل فرد على كافة المستويات أن يقوم بدوره في سبيل الدعوة إلى الله وحفظ حدوده وإقامة دينه ورد الشاردين عنه إليه .
فهي لا تجعل من الفرد المسلم شخصا ضيق الأفق لا يهتم إلا بشؤون حاله وخصوصيات نفسه ، كما هو حال أكثر الناس اليوم الذين يفهمون خطأ قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾^(٣) وينسون ما أشرع السلف في فهمها وتفسيرها ، حيث قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : (إنكم تقروءون هذه الآية وتضعونها على غير مواضعها ، وإنا سمعنا النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بمقاب)^(٤)
ومن هنا فقد نبه الرسول صلى الله عليه وسلم أمته إلى سوء عاقبة المتهاون في أمر الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بذكر حال بني إسرائيل عندما تقاصوا عن ذلك .
فقال صلى الله عليه وسلم : (إِنْ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ : يَا هَذَا اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِّ فَلَا يَنْعَمُ . ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكْبَلَكَ وَشَرِيْبَهُ وَقَعِيدَهُ ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ لَعْنَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ . . . إِلَى قَوْلِهِ فَاسْقُونَ ﴾ ثُمَّ قَالَ : " كَلَّا وَاللَّهِ لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَتَأْخُذَنَّ عَلَى يَدَيْ الظَّالِمِ وَلَتَأْطُرَنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا وَلَتَقْصُرَنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا " .^(٥)

-
- (١) رواه مسلم في الإيمان ٧٨ ، وأبو داود في الملاحم ١٧ ، والترمذي والنسائي وابن ماجه .
(٢) متفق عليه . البخاري في الجمعة " وسلم في الامارة ٢٠ ، وأبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد .
(٣) سورة المائدة آية ١٠٥ .
(٤) رواه أبو داود في الملاحم ١٧ ، والترمذي في الفتن ٨ ، وابن ماجه في الفتن ٢٠ وأحمد ج ١ ص ٥١٢ .
(٥) رواه أبو داود في الملاحم ١٧ ، والترمذي في تفسير سورة التوبة ، وابن ماجه في الفتن ٢٠ / وأحمد ج ١ ص ٣٩١ .

ولهذا فلا بد لكل فرد أن يتحمل ولو قسماً من المسؤولية التي ألقيت على عاتقه، فيمثل هو بنفسه أولاً ثم بأسرته ومن هم في محيط دائرته من بني قومه وعشيرته ثم يتحملها بعد ذلك على نطاق المجتمع الإسلامي الكبير، فيبلغ الدعوة إلى الله قدر جهده واستطاعته من غير تكلف لما لا يستطيع، لأن الله تبارك وتعالى لا يكلف أنفسا إلا وسعها * (١)

وهذا هو المنهج الذي سارت فيه الدعوة منذ نشأتها الأولى، حيث بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسرته ومن يركن إليهم ويثق بهم ممن لبوا دعوته سرا وجهراً ثم امتد نشاطه بأمر من الله إلى عشيرته الأقربين * وأنذر عشيرته الأقربين * (٢) ولم يلبث بعد ذلك أن بدأ يوسّع نطاق الدعوة فيما حوله حتى بلغت الأكَاسرة والأباطرة في الشرق والغرب .

وما لنا من سبيل في هذا العصر إلا أن ننهج في الدعوة إلى الله المنهج نفسه ونترسم معالم الطريق عينها * ولينصرن الله من ينصره * (٣) وإلى جانب الدعوة إلى دين الله، يجب أن نسخر المناهج الدراسية في كافة المراحل التعليمية، من رياض الأطفال والمدارس والمعاهد والجامعات، أضف إلى هذا كله الاستفادة من كافة وسائل الإعلام المتعددة، وهذا ما سيوضح في النقطة الثانية والثالثة من وسائل العلاج العامة وهما :

ثانياً : إصلاح مناهج التعليم وتوجيهها وجهة إسلامية .

قيل : أرني مناهج أمة أخبرك : أين هي ومن هي وكيف هي ؟ وما أصدقها - كما يقول د . عبد الحليم عويس (٤) - من مقولة ، لأن

المناهج الدراسية هي الغذاء الفكري للأجيال الناشئة وعلى ضوءها يتحدد موقفهم من كل قضية في حياتهم وفي مقدمة ذلك قضية الإيمان والعبودية لله . فالمناهج الدراسية هي الكفيلة بتربية الجيل على الإيمان بالله وحده لا شريك له أو بزعزعة هذه المقيدة وتوجيه الجيل وجهة مادية مقطوعة الصلة بدين الله كما هو حال المناهج الدراسية في معظم دول العالم الإسلامي .

وهذا يستوجب أن تستقل كل أمة من أمم الأرض بمناهجها التعليمية (٥)

(١) سورة البقرة آية ٢٨٦ . (٢) سورة الشعراء آية ٢١٤ .

(٣) سورة الحج آية ٤٠ .

(٤) انظر المسلمون في معركة البقاء ص ١١٥ .

(٥) انظر : نحو التربية الإسلامية الحرة / أبو الحسن الندوي / ص ١٨-١٩

فالذى يصلح لأمة لا تؤمن من إلا بالمادة وما يقع تحت الحس والمشاهدة فإنه لا يصلح قطعاً لأمة تؤمن بما وراء المادة والحس أشد من إيمانها بالماديات ، وأن أمة لها رسالتها في الحياة ولها أخلاقها وبيادئها الكريمة لا تناسبها مناهج أمة أخرى ليس لها شيء من هذا ، أولاً تؤمن بشيء منه أصلاً .

وهذا فلا بدّ لنا - كما يقول الندوي^{منفله الله} - (من الاستقلال التعليمي ، بل لا بدّ من الزعامة التعليمية ، ولا بدّ من وضع منهاج تعليمي يجمع بين محكمات الكتاب والسنة وحقائق الدين التي لا تتبدل وبين العلوم العصرية النافعة والتجربة والاختبار وتدوين العلوم العصرية للشباب الإسلامي على أساس الإسلام وروح الإسلام وفيها كل ما يحتاج إليه النشء الجديد ، مما يحفظون به كيانهم) .^(١)

وهذه هي سمة المنهج الإسلامي فهو يستخدم كلّ جزئية في سبيل تقوية عقيدة الناس وتنشئتهم على الإيمان وتربيتهم على الأخلاق الفاضلة ، فلا يعرف هذه الثنائية القائمة بين العلم والدين ، ولا يقرّ هذا الفصام النكد والجفوة المفتعلة بينهما ، فجميع مفردات المناهج إلى جانب سعيها لتحقيق المعرفة وتوصيل الحقائق العلمية لأذهان التلاميذ فهي تخدم قضية الألوهية والعبادة ، ويجب أن تكون كذلك ، لأن الإسلام لا يقرّ الشعارات الوثنية التي تعلق من شأنها نظم التربية المعاصرة والمناهج الدراسية الحديثة : (كالعلم للعلم) و (المعرفة للمعرفة) و (الحياة للحياة) ، و (الفن للفن) وما إلى ذلك ، فالعلم والمعرفة والفن ، والحياة كلها في الإسلام تسمى لخدمة قضية واحدة في نهاية الأمر ، ولا بدّ من تحقيقها والوصول إليها في نهاية كلّ نشاط إنساني يقوم به الفرد .

هذا هو الدور المهم الذي يمكن أن تقوم به المناهج التعليمية في الدعوة إلى دين الله وترسيخ الإيمان في نفوس الأجيال الناشئة وتربيتهم التربية الإسلامية الصحيحة .

غير أن المناهج التعليمية المعاصرة في العالم الإسلامي على الصورة التي هي عليها لا يمكن أبداً أن تخدم هذه الأهداف ، بل على العكس إنها تشكّل خطراً كبيراً يهدد الإسلام ويقوّض أركانه ويخفي معالمه ويطمس حقائقه ويجعل منه صورة باهتة لا أشرك في النفوس ولا دوره في تنظيم الحياة ، ويجعله لا يختلف عن الدين في المفهوم الكنسي المسائد حالياً في الغرب كما ورثه عن القرون الوسطى بعد إفساد الكنيسة له .

فالمناهج الدراسية في العالم الإسلامي صارت بالفعل وسيلة للهدم أكثر

منها وسيلة للبناء ، وذلك بسبب الأحوال السيئة التي تعرّض لها العالم الإسلامي في العقود الأخيرة من الغزو الفكري ، والغزو الصليبي العسكري ، والتدخل المباشر في شؤون المسلمين وخصوصاً في المجال التعليمي وتوجيهه وجهة أقل ملاءمة لها لأنها لا تخدم الإسلام بل تسعى للقضاء عليه في مهده ، ووضعت المناهج في العالم الإسلامي على هذا الأساس من قبل عناصر لا تؤمن بالإسلام ، بل تمّ استيراد مناهج بحذافيرها من المناهج الغربية المادية التي تنطلق من منطلق وثني لا يخدم إلا المادة وطبقت في العالم الإسلامي ، وتخرجت أوتربت عليها أجيال متتالية مقطوعة الصلة بدين الله (١) .

ولا خلاص ولا مفاز للعالم الإسلامي إذا هو أراد العودة إلى الحياة الإسلامية من مراجعة النظر في المناهج التعليمية التي تتبناها وزارات التربية والتعليم ، وتعديلها جذرياً وقلبها رأساً على عقب ، وسبكها سبكا جديداً يتفق مع الإسلام في نظره للإنسان والكون والحياة ، بحيث يصل بعد فترة من الزمن إلى الصفة الإيمانية التي كان يمتاز بها التعليم في العقود الإسلامية السابقة . ومن هنا جاء قول الندوي^(٢) : (والحاصل أننا في البلاد الإسلامية في حاجة ملحة إلى نظام تعليمي إسلامي في الروح والوضع والسبك والترتيب ، لا يخلو كتاب من كتب تعلم مبادئ اللغة إلى آخر كتاب يدرّس العلوم الطبيعية ، أو الآداب الإنجليزية من روح الدين والإيمان ، وهذا إذا أردنا أن ينشأ جيل جديد يفكر بالعقل الإسلامي ويكتب بقلم مسلم ، ويدير دفة البلاد بسيرة مسلم وخلقه ، ويدير سياسة التعليم والعالية بمقدرة مسلم وبصيرة مسلم ، وتكون البلاد الإسلامية إسلامية حقا في عقلها وتفكيرها وسياستها ومالياتها وتعليمها .

إن أوضاع هذا المنهاج التعليمي من حاجات البلاد الإسلامية الأولى التي لا يسعها التغافل عنها ، والتساهل فيها ، وهو عمل شاق وواسع يأخذ وقتاً طويلاً ، وليس عمل فرد من الأفراد أو حفنة من الناس ، إنما هو عمل تقوم به جماعات ولجان ، ومجامع علمية بمساعدة الحكومات الإسلامية وتشجيعها ، ويستند كل جزء من هذا الإنتاج العلمي إلى جماعة تتوفر فيها مؤهلاته (٢) .

حقاً إن تغيير المناهج وإصلاح فسادها يعدُّ حاجة ملحة وضرورية في العالم الإسلامي في هذه الحقبة من الزمن لتوفر كثير من المشجعات على

(١) انظر المنهاج الإسلامي الجديد للتربية والتعليم / أبو الأعلى المودودي

ص ١٦ - ٢٢ / ط ٣ المكتب الإسلامي .

(٢) نحو تربية إسلامية حرة ص ٢٠ - ٢١ .

هذا ، فالعالم الإسلامي قد خرج من تحت القيادة والتوجيه المباشر والاحتلال الصليبي العسكري وتحزرت كثير من وزارات المعارف من الأيدي والخبرة الأجنبية غير المسلمة ، وأدركنا الأضرار والمخاطر التي لحقت بالأمة الإسلامية من جراء تبعية مناهجنا للفكر المادي الصرف ، ولكن لم نفتنم هذه الفرصة للعودة بمناهجنا إلى ما يتفق مع ديننا وعقيدتنا وأخلاقنا ، وبقيت - وما تزال - سائرة على المنهج المادي البحت كما خطط له في عهد الاحتلال .

وإذا لم تتدارك الأمة الإسلامية نفسها بالعلاج الجذري فتغيّر مناهجها الدراسية ، وتنزع عنها ضفة العداء أو السلبية ضد الإسلام فإنها وبقيّة العالم - لا قدر الله - ستكون فريسة للإلحاد الشيوعي المترصص بالعالم ، وأرجو أن لا يفهم البعض أن العودة بالتعليم إلى دين الله تعني أن يمتزل العالم الإسلامي أو غيره العلوم الكونية أو العلوم المادية بشكل عام وينحصر في دائرة ضيقة كما يدعي بعض دعاة العلم والتطور والحضارة فلا مدخل لمثل هذا الفهم السقيم لصلة العلم بالدين أو خضوع العلم لدين الله (١) ، وكل ما هو مطلوب أن توجه جميع العلوم وجهة دينية بمعنى أن تفسر القوانين والسنن والأسباب الكونية على أنها مظاهر من الإرادة والقدرة الإلهية تنظمها وتجريها إرادة خالقة خارجة عن نطاق المادة والمحسوس وهي التي أبدعت هذا الكون بما فيه ، لا على أساس تفسيرات مادية : كالصدفة والحتمة والتطور وغير ذلك من التفسيرات الوثنية للعلم التي تعطي الأجيال الناشئة صورة عن الحياة خالية تماما من كل أثر من آثار القدرة الإلهية الخالقة والمبدعة وبالتالي

(١) يقول الأستاذ محمد قطب في هذا المعنى : (حين تعتنق أوروبا هذا الدين فلن تحتاج أن تتخلى عن شي من تقدمها العلمي والمادي والتكنولوجي ولا شي من عبقريتها التنظيمية ، ولا شي من جلدتها الدؤوب على العمل والانتاج وهي العوامل التي حفظت لها بقاها حتى هذه اللحظة وإن كانت لا تستطيع أن تحميها من الدمار الحتمي الذي يجره عليها غياب الروح . كلا . لا تحتاج أن تتخلى عن شي من ذلك ، إنما تحتاج فقط أن تقيم ذلك كله على قاعدته الصحيحة وهي الإيمان بالله وتطبيق منهجه في الأرض كما تحتاج أن تتخلى عن عبوديتها للشهوات) . عن المذاهب الفكرية ص ٦٤٩ .

تنشيء أجيالا مقطوعة الصلة بدين الله وإن كانت من حيث الإيمان والمعقدة
تقرء وتمتقد بوجود رب خالق، فإن هذا الاعتقاد لا معنى له ولا روح فيه
وستبقى الأجيال والمجتمعات في معزل عن دين الله وشريعته، تعاني من
التعاسة والنكد والشقاء والضلال (١).

وإصلاح المناهج التعليمية يستوجب أن يعاد النظر في أمور كثيرة
جدا في مقدمتها إعداد المدرّس المسلم والبيئة المدرسية المسلمة، فيجب مثلا
تطهير التعليم من الاختلاط بين الطلاب والطالبات في جميع المراحل وفي
مقدمتها المرحلة الجامعية، وتوفير الوسائل التعليمية التي تتطلبها المناهج
على اختلافها ومراعاة قدرات التلاميذ وتوجيههم الوجهة التي تتناسب
مع قدراتهم وامكانياتهم العقلية والجسمية والبيئية والاجتماعية... إلخ وضرورة
تدريس المواد العلمية والطبية باللغة العربية لا باللغات الأجنبية التي تنافس
لغة القرآن، وإتاحة فرص التعليم لجميع أبناء المسلمين إما بالمجان أو بتكلفة
زهيدة وغير ذلك من الأمور التي تحتاجها العملية التعليمية يقدرها المختصون
في شوء ون التربية والتعليم وإعداد المناهج.

وأخيرا فلا بد من إعادة القول بأنه يجب وجوب احتيا لا مناص عنه

(القيام بإصلاح مناهج التعليم العام في ضوء النظرة الإسلامية التي تعلم
العلوم الشرعية وتربطها بالعلوم الطبيعية والاجتماعية، وتعلم العلوم الطبيعية
والاجتماعية بالروح الإسلامية التي تعزز الإيمان بالله، والنظرة الموحدة
للعلم، وتواءم على الاتزان فيما بينها لخدمة الفرد والمجتمع والإنسانية) (٢).

ثالثا : إصلاح وسائل الإعلام وتوجيهها وجهة إسلامية .

فما ينبغي الاستفادة منه في عملية التربية الإسلامية في هذا العصر
وسائل الإعلام المختلفة، وهذه الوسائل وإن كانت حديثة في أغلب أشكالها
وأدواتها فإنها وسيلة قديمة ومعروفة ولها دورها في خدمة الأهداف التي
يرجى تحقيقها إلا أنها في هذا العصر قد أصبحت من اليسر والسهولة والوفرة
والصلاحية بما يجعلها محط أنظار العربيين والدعاة، فالصحف والمجلات والكتب
والقصص والمسرحيات والندوات والاجتماعات والخطب والاحتفالات، ودور الإذاعة
والتلفاز وغير ذلك، تعتبر وسيلة يمكن أن تقوم بواجب كبير ودور عظيم في نشر
الوعي الديني وبيان حقائق الإسلام، وتكون لها آثارها ونتائجها الملموسة
والطيبة في تربية الأفراد والأسر والمجتمعات وصبغها بالصبغة الإسلامية الصحيحة،

(١) انظر المنهاج الإسلامي الجديد للتربية ص ٢٣-٢٤ .

(٢) نحو صياغة إسلامية لمناهج التربية والتعليم ص ٦٣ .

بما تنشره وتكتبه وتذيعه وتلقيه وتقدمه في كلِّ الأوقات والأحوال والظروف ،
بروح إسلامية صادقة يكون لها وقعها ومفعولها في النفوس ، بشكل لا يقلُّ بل
ربما يزيد عن الدور الذي توفِّره المناهج التعليمية ، وذلك لأن وسائل الإعلام
أكثر انتشاراً وأوسع نطاقاً وتأثيراً على الأفراد والمجتمعات ، فهي للصغير
والكبير وللأمي والمتعلم ، للقاصي والداني في أكثر ساعات الليل والنهار وفي
مختلف الأماكن والمجالات .

ولما كانت على هذا المستوى من الأهمية فإنه لا يمكن إغفالها أو تجاهلها
وإهمالها ، وهي في هذا العصر بالذات من أفضل الوسائل والطرق لتحقيق
الأهداف والوصول إلى الغايات ، ونظراً لهذه الأهمية فقد رأيت أنها داخلة
ضمن وسائل العلاج لواقع العالم الإسلامي المعاصر والتأثير الإيجابي لأفراده
ومجتمعاته .

وحتى تستطيع وسائل الإعلام على اختلافها وتعددتها أن توفِّر دورها
في الإصلاح والعلاج وتحقيق الأهداف لا بدَّ أن تكون هي سليمة وصحيحة من كلِّ
مفسدة أو عيب فيها .

وقد سبقت الإشارة بأن وسائل الإعلام في العالم الإسلامي قد سقطت
في قبضة أعداء الإسلام واستغلُّوها استغلالاً تاماً لخدمة أهدافهم وعلى رأسها
تفريب العالم الإسلامي والقضاء على دين الإسلام في مهده وبين أبنائه ، ومعنى
ذلك أن وسائل الإعلام قد صارت في حالة تستدعي الإصلاح ، وهذه حقيقة لا تكاد
تجد من يماري فيها ، إلا أن يكون من المكابرين أو ممن لا يدركون حقيقة الأمر
ولا ينظرون له من وجهة النظر الإسلامية .

فدور وسائل الإعلام في نشر الفساد وتضليل الناس عن حقائق الأمور ،
أظهر وأرجح في وقتنا الحاضر من دورها في الإصلاح والهداية ، وقد قامت
بهذا الدور السلبي الخطير إلى أقصى حدِّ ممكن ، وكانت أداة طيِّعة ومطيِّبة سهلة
ومدخلا واسعاً لفساد الإسلام والمسلمين وترويج الأباطيل والأفكار والدعوات
والمذاهب الهدامة والأخلاق الفاسدة ، إنها بحق قد قضت على الفرد والأسرة ،
والمجتمع بما كانت - وما تزال - تقدمه من فكر مناهض لعقيدة التوحيد ، ومقوِّض
لأركان الإسلام .^(١)

ولا نستطيع أن نستثنى شيئاً منها ، فقد اشتركت في الإثم الصحافة
كما اشتركت الإذاعة وغيرها ، قضيتها واحدة وهدفها واحد ومنطلقها واحد .

ومن هنا فإن إصلاح وسائل الإعلام لا يقتصر على بعضها دون البعض ، فكلها تحتاج إلى ذلك ، الجريدة والكتاب والقصة والمسرحية والمقالة ، وبرامج الإذاعة والتلفاز وأفلام السينما هذه جميعها تحتاج إلى إصلاح وتوجيه وبناء من جديد ، بحيث تعمل كلها في حقل واحد وتسعى لغاية واحدة هي تربية المجتمع وإصلاحه وعلاج أمراضه ، أو بكلمة أخرى أن تقوم بدورها في العودة إلى إقامة حياة إسلامية متكاملة في العقيدة والشعيرة والشريعة ، حياة إيمانية خالصة .

أما أن تبقى وسائل الإعلام على خطّ المادية ومنهج الجاهلية بينما نحن نبحث ونسعى لمنهج الإسلام فهذا مما لا يستقيم ولا يدع فرصة للإصلاح . ولا يكفي من وسائل الإعلام أن تهتمّ بالإسلام في مناسبات معينة وظروف خاصة وأوقات محدّدة ، وموضوعات مكرّرة بعيدة عن الواقع ، متفائلة عن القضية الأساسية والحقيقة الجوهرية للإسلام ، بينما هي في أغلب أوقاتها وبرامجها وموادها واهتماماتها تهدم الإسلام سرا وإطلانا . ولا يكفي كذلك أن تخصّص للإسلام بعض وسائل الإعلام تلميح بذكره ساعات من ليل أو نهار عن وعي أو عن غير وعي ، بينما الغالبية العظمى منها تقذفه بالحمم والبراكين صباح مساءً واعية أو غير واعية .^(١)

فكل هذه الثنائيات والازدواجيات مما لا يعرفه ولا يقوّه الإسلام الذي لا يقتصر على مناسبات بعينها ويهمل بقية الدهر ، أو يقيم بعض جوانب العبودية لله في بعض الأمور ، ويجعلها للأوثان والطواغيت في أمور أخرى ، أو يخصّص جزئيات من وجوه الحياة لطاعة الله ثم يجعل باقيها في طاعة الهوى والشيطان . فلا بدّ من إصلاح كلي وشامل لكافة وسائل الإعلام ، وتخطيط متكامل متوازن لبرامجها من حيث الأهداف والمضمون والطريقة ، لتسير في طريق موازٍ لمناهج التربية الإسلامية وفي إطار إسلامي شامل لتحقيق بذلك نفس الأهداف التربوية المتوخاة .^(٢)

فإذا أصلحت وسائل الإعلام ، وتبنت الإسلام فكراً ودعوة ، فإنها تكون قد خطت في سبيل العلاج خطوة حميدة وأدّت ما يجب عليها تجاه الإسلام ،

(١) انظر الفراغ وأزمة التدين / عبد العظيم المطعني ١٩٢-١٩٤ .

(٢) انظر نحو صياغة إسلامية لمناهج التربية والتعليم ص ٦٥ .

ولا يلهث الحال أن يتغير وتتعدل أحوال الأمة الإسلامية تدريجيا نحو حياة إسلامية صحيحة .

وإنما كانت الدعوة إلى الله تعالى والثروة الإسلامية الصحيحة ، من واجب الأفراد والجماعات الإسلامية والنشاطات المختلفة ، فإن إصلاح كل من المناهج التعليمية والوسائل الإعلامية وتوجيهها الوجهة الإسلامية هو من غير شك وبالدرجة الأولى من واجب السلطة الحاكمة وعليها تقع المسؤولية الكبرى لأن الإصلاح باليد والقوة منوط بها ، فما لم تقم السلطات الحاكمة بهذا الدور الكبير فسيظل المرض مستحكما ، وقد قيل إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .

هذه هي وسائل العلاج التي رأيت أن أتباعها يعود بنا إلى الإسلام

ليحل مشاكلنا ومشاكل العالم الترامي الأطراف والمشرف على الهلاك إن لم يكن قد هلك بالفعل ، إلى الإسلام الذي قد جُرب في هذه الأمة من ذي قبل فأعطى نتائج باهرة وحقق سعادة حقيقية شعر الناس بالعدل والأمن والاستقرار والألفة والاجتماع والتآخي ، ومن أنكر هذا فقد كذب التاريخ ، ونفى الواقع ، وجحد نعمة الله وتنكر آيات الله .

قال تعالى ﴿ لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ (١)

وقال سبحانه ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إن كنتم أعداء فألَّفَ بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبيِّن الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾ (٢)

هذا هو الدواء الذي لا دواء بعده وهو العلاج الناجع للمجرب .
(وأفضل أنواع العلاج هو ما جرَّبه المريض ، فحسم به دواءه ، وعجل شفاؤه ، والأحق من الناس هو الذي يدع الدواء للمجرب الموفور عنده ، ليجتنب عن دواء جديد ، عند الأجانب عنده ، بل عند خصومه وأعداء دينه وأمه ، مع أن هذا الدواء الذي يلتصه لم يشف أصحابه ، ولم يهيب لهم العافية ، ولم يزد هم إلا خيالا .

(١) سورة آل عمران آية ١٦٤ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٠٣ .

(أجل إن الحلول الأخرى - سواء أكانت رأسمالية أم اشتراكية - لم تجلب السعادة لأهلها ، ولم تحقق لهم رغد العيش وطيب الحياة ، ولا يزال أصحابها بين حين وآخر يغيرون فيها ويمدّلون وينقضون اليوم ما أبرموه بالأمن .

إن الحل الوحيد المجرب لهذه الأمة هو الإسلام ، ولا شيء غير الإسلام . إنه الحل الذي وضعه الله لعباده دستوراً ومنهاجاً ، وحكم به دواً وطلاجاً (١) * ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون * (٢)

وهذا ما أكد عليه وقرره وأوصى به سيد قطب - رحمه الله - بقوله :

(وانتهيت من فترة الحياة - في ظلال القرآن - إلى يقين جازم حاسم أنه لا صلاح لهذه الأرض ولا راحة لهذه البشرية ولا طمأنينة لهذا الإنسان ، ولا رفعة ولا بركة ولا طهارة ولا تناسق مع سدن الكون وفطرة الحياة إلا بالرجوع إلى الله . الرجوع إلى الله له صورة واحدة وطريق واحد لا سواه إنه العودة

بالحياة كلها إلى منهج الله الذي رسمه للبشرية في كتابه الكريم . إنه تحكيم

هذا الكتاب وحده في حياتها ، والتحاكم إليه وحده في شؤونها ، وإلا فهو

الفساد في الأرض والشقاوة للناس ، والارتكاس في الحمأة والجاهلية التي تعبد

الهبوى من دون الله (٣) * فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم

ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ، إن الله لا يهدي القوم الظالمين * (٤)

وإذا جاء اليوم الذي يعود فيه المسلمون لحقيقة الإسلام - وعسى

أن لا يكون بعيداً - والتزموا به عقيدة وشريعة ، وقامت للإسلام دولة تحميه

وتبشّر به وتدعو إليه ، عندها تبدأ مرحلة علاج العالم من حولنا بالجهاد

في سبيل الله لإزالة الأنظمة الوثنية وكسر الطواغيت التي تصدّ الناس عن

دين الله ، ومن ثمّ دعوة الناس إلى دين الله بالموعظة الحسنة .

هذا ما يجب أن ندركه تماماً ولا ننتظر من العالم أن يتجه من تلقاء

نفسه ووحى إرادته إلى دين الله والخروج من الوثنية .

(١) الحل الإسلامي فريضة وضرورة ص ١٧٣ - ١٨٠ بتصرف .

(٢) سورة العائدة آية ٥٠ .

(٣) في ظلال القرآن ج ١ ص ١٥ .

(٤) سورة القصص آية ٥٠ .

وبذلك فيجب أن يسارع المسلمون إلى استغلال أوضاع العالم الحالية بالدعوة إلى عقيدة التوحيد ومحاربة جميع مظاهر الشرك والوثنية التي تسود العالم لا سيما وأن هناك كثيرا من المبشرات والإرهاصات من الأقوال والأفعال والأحوال التي تبشّر ، وتدل على أن الإسلام أو الإيمان بالله تعالى وحده ، هو محطُّ أنظار الكثير من أفراد البشرية اليوم وعليه معقد الآمال والتطلعات في أن يكون - كما كان من ذي قبل - طريق خلاصهم وملانهم الوحيد والأخير ومنقذهم من الواقع الوثني الذي انتكسوا إليه ، لا سيما وأنهم قد جرّبوا كلَّ النظم والمذاهب والاتجاهات والقوانين ، فلم يتركوا سلكا إلا سلكوه ، فلم تنفعهم الديمقراطية الرأسمالية ولم تنقذهم الشيوعية الاشتراكية ، ولم توحّدهم القومية والوطنية ولم يهدم العقل والعلم وحدهما سبيل الرشاد ، وخانهم الاعتماد على الحواس ، وقادهم الرأي العام والعرف الفاسد إلى الضلال ، وحملهم الفن والتحلُّل من الأخلاق والتحرر من قيودها على الإنحلال والغواية وزاد من شقائهم وتماستهم واضطراب أحوالهم ، واسترقتهم العبودية لغير الله تعالى ، جرّبوا وجرّبوا كلَّ شيء وهم في كلِّ ذلك لم يحاولوا طريق العبودية لله وحده ، لم ينهجوا طريق الصراط المستقيم ولم يحاولوا حتى الآن أن يجرّبوا الإسلام منهجا للحياة كما جرّبوا غيره بالرغم من فشلهم في كلِّ مرة ، فالأمّ ستبقتي البشرية متنكبة للإسلام معرضة عنه تنابذه العداة والخصام وتسمى لإطفاء نوره وطمس حقيقته وتجاهل طريقه القويم ، وفي كلِّ يوم ترتفع الأصوات وتتعالى الصيحات والنداءات والتصريحات بأن الإسلام - والإسلام فقط - هو طريق خلاص البشرية ودوائها دائها البغيض في الوقت الحاضر بل وفي كلِّ زمان ومكان ، * وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون * (١)

وأرى أن أثبت في هذا المقام مجموعة من الأقوال والتصريحات لبعض القادة والمفكرين الغربيين التي تدلُّ على مدى نفورهم وسأمهم من الحياة في ظل المادة وحدها بمعيدا عن الدين والروح والأخلاق ، وتوعد أن الحضارة الأوروبية المعاصرة تسمى بخطى جثيشة وسريعة نحو الدمار والهلاك ما لم تتدارك الشعوب الأوروبية نفسها بالعودة إلى الدين والإيمان وتنمية الشعور الروحي والديني بين أفرادها وتطهيرها من الإنحلال الأخلاقي الذي صارت إليه .

ومن المؤكد أن (الدين) المقصود في بعض هذه التصريحات هو النصرانية التي تعرفها أوروبا بصورتها المحرّفة - كما سبق بيانها - ولكن بعضها قد نصّ صراحة على أن المنقذ الوحيد هو الدين الإسلامي ليس غير لأنه يمتاز عن النصرانية في كونه ديناً يجمع بين المادة والروح في النفس البشرية ولا يفصل بين الدين والدنيا أو كما يقال: (بين الدين والسياسة) وغيرها من جوانب الحياة . وبغض النظر عن الدين المقصود أو المطلوب في هذه الأقوال والإحرفات، وكلّ الملابس التي تحوطها فإن في ذلك دلالة ظاهرة على أن الحياة المادية بقيادة المناهج والنظم الوثنية لا تصلح ولا تتناسب مع النفس البشرية المفطورة على المبودية لله تعالى وتقبل دينه الحق، وهذا يؤكّد على ضرورة تقديم العلاج المناسب في الوقت المناسب عندما تكون الحاجة ماسة والحالة قد وصلت درجة الخطر .

يقول الرئيس الأمريكي (ولسن) (بلانكله عنه وزير الخارجية الأمريكي (مستر دالاس) في كتابه (حرب أم سلام) : (إن حضارتنا لا تستطيع الاستمرار في البقاء من الناحية المادية إلا إذا استردت روحانيتها) .^(١)

ويقول المفكر (لاموني) : (إن الجنس البشري بكامله يمشي بخطى حثيثة إلى الهلاك، إنه في النزاع الأخير، كذلك الإنسان الجريح المسكين الذي لا يرجى له شفاء، فكثرة الأخطاء في حضارتنا تجرّها إلى الفرق) .^(٢)

والفالدكتور (الكسيس كاريل) كتاباً بعنوان : (الإنسان ذلك المجهول)^(٣) ضمّنه - كما يقول المرحوم سيد قطب^(٤) - شهادة ضدّ

الحضارة المادية القائمة، لقتلها أهم خصائص الإنسان، وأطلق فيه صيحة مدوّية بالأخطار التي تتهدد الجنس البشري من جراء الاعتداء على القوانين الطبيعية . قال فيه بأنه كتبه : (لأولئك الذين يجدون من أنفسهم شجاعة

كافية ليدركوا - ليس فقط ضرورة إحداث تغييرات عقلية وسياسية واجتماعية - بل أيضاً ضرورة قلب الحضارة الصناعية وظهور فكرة أخرى للتقدم البشري) .^(٥)

ويقول : (إن القلق والمهوم التي يعاني منها سكان المدن العصرية

تتولد عن نظمهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية) .^(٦)

(١) نقلاً عن المستقبل لهذا الدين / سيد قطب ص ٩٠ دار الشروق ١٩٧٤ م .

(٢) نقلاً عن الإسلام مستقبل البشرية / د . عبدالله هزام ص ١٥ .

(٣) ترجمه للعربية شفيق أسعد فريد .

(٤) و(٥) و(٦) انظر المستقبل لهذا الدين ص ٧١ - ٧٨ .

ويقول مستر دالاس ، وزير خارجية أمريكا : (إن هناك شيئاً ما يسير بشكل خاطئ في أمتنا . وإلا لما أصبحنا في هذا الحرج ، وفي هذه الحالة النفسية . . . إن الأمر لا يتعلق بالماديات ، فلدينا أعظم إنتاج عالمي من الأشياء المادية ، إن ما ينقصنا هو إيمان صحيح قوى . فبدونه يكون كل ما لدينا قليلاً . وهذا النقص لا يعوّضه السياسيون مهما بلغت قدرتهم أو الدبلوماسيون مهما كانت فطنتهم أو العلماء مهما كثرت إختراعاتهم ، أو القنابل مهما بلغت قوتها .

وفي بلادنا لا تجتذب نظمنا الإخلاص الروحي اللازم للدفاع عنها . . إن الصعوبة ناشئة من أننا نقف موقفاً غامضاً من إيماننا ، ومن العلاقة التي بين هذا الإيمان ونشاطنا) .^(١)

ويقول المفكر الألماني (باول شتزر) في كتابه (الإسلام قوة الغد العالمية)^(٢) : (سيميد التاريخ نفسه مفقداً من الشرق ، عوداً على بدء . من المنطقة التي قامت فيها القوة العالمية الإسلامية في الصدر الأول للإسلام ، وستظهر هذه القوة التي تكمن في تماسك الإسلام ووحدته العسكرية ، وستثبت هذه القوة وجودها ، إذا ما أدرك المسلمون كيفية استخراجها والاستفادة منها ، وستقلب موازين القوى لأنها قائمة على أسس لا تتوفر في غيرها من تيارات القوى العالمية)^(٣) .

ويقول شينجلر : (إن حضارة جديدة أوشكت على الشروق في أروع صورة هي حضارة الإسلام ، الذي يملك أقوى قوة روحانية عالمية نقية) .^(٤)

ويقول الباحث الألماني (هربرت جوتشاك) في كتابه (الإسلام قوة عالمية متحركة) والذي أصدره في عام ١٩٦٢م : (يشتمل الإسلام على العناصر التي تمكّنه من التغلب على كلّ ظواهر الأزمان المتعددة التي تخلفها المدنية الحديثة) .^(٥)

(١) انظر المستقيم لهذا الدين ص ٨٢ - ٨٦ .

(٢) ترجمه للعربية محمد أبو شامة .

(٣) ص ٣٥٥ .

(٤) نقلا عن الإسلام ومستقبل البشرية ص ١٣٩ .

(٥) نقلا عن الفراغ الروحي ج ٢ ص ٨٢٩ .

ويقول أحد كبار أساتذة الإسلاميات في أمريكا وهو (شارلس جدر) في كلمته التي ألقاها في ١٣ ما يوعام ١٩٦٦ م في كراتشي : (إن الإسلام يملك جميع الخصائص التي تستطيع أن تنتشر السلام والانسجام في العالم، إن الغرب يوء مل من المسلمين الذين يحملون الدين الذي أنزله الله، وكان لهم ماضي مجيدٌ مشرقٌ أن يقدموا مبادئ الحياة وفلسفتها إلى الغرب، وذلك يستطيعون أن يحملوا راية السلام التي عيَّنت لهم في عالم الغد).^(١) فهذه مجموعة من الأقوال كلها توء كد أن العودة إلى الحياة الدينية هي العلاج الوحيد لما تعانیه أوروبا، وفيها إيماءة خفية أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يصلح لها .

والذي أود الإشارة إليه هنا أن هذه النداءات التي توء كد قوة الإسلام ومقدرته على إنقاذ البشرية - في أكثرها حق أريد به باطل.^(٢)

فالحقد الصليبي الذي ما زال دفيناً في الصدور الأوروبية ضد الإسلام والمسلمين لا يجعلنا نطمئن إليها أو نثق بها، وإن كنا نعتقد كون الإسلام هو العلاج الوحيد لمرض البشرية في كلِّ حين، وما أثبتتها واستشهدت به إلا للإستثناس بها والتدليل على تيرم أصحابها من ثقل الوثنية الحديثة والمبودية الذليلة التي صاروا إليها وضجرهم منها، لتدل أخيراً على حتمية العلاج من خارج نطاق العقل البشري وضرورة العودة إلى العقيدة الصحيحة والمنهج الرباني الذي ارتضاه الله تعالى للبشرية دينا ومنهجاً ودستوراً وفطرها على الحاجة إليه .

* بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضلَّ الله وما لهم من ناصرين . فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون *^(٣)
* أففير دين الله يبغفون وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون *^(٤)

(١) نقلا عن نحو التربية الإسلامية الحرة / ص ٤٠ .

(٢) انظر الفراغ الروحي ج ٢ ص ٨٣١ حاشية رقم ٢ / وكتابات على بوابة

القرن الخامس عشر / ص ٢٤ .

(٣) سورة الروم آية ٢٩ - ٣٠ .

(٤) سورة آل عمران آية ٨٣ .

هذا من خارج العالم الاسلامي ، وأما من داخله وبين أبنائه فبالرغم من البعد الكبير عن حقيقة الإسلام وغرته الظاهرة بينهم ، فإن الأمل أكبر والبشائر أدلُّ وأوضح والنداءات أكثر وأرجح ، وإن معالم العودة لدين الله ظاهرة في جميع الأقطار الإسلامية ، والإقبال الشديد على الإسلام من قبل الأجيال الناشئة لا يحتاج إلا لدم وتأييد وتشجيع وحسن توجيه من قبل ولاية الأمور على اختلاف مستوياتهم ومسؤولياتهم ، ورعاية العلماء الدينيين لها بالإرشاد والتوعية وتوضيح حقائق الإسلام وتبصيرها به .
فالضغط والكبت والاضطهاد والجهل بحقيقة الإسلام لا يزيد الأمور إلا سوءاً ولا يعود على الجميع بشيء من الخير .

السلامة

الخاتمة :

فى نهاية هذا البحث يجد ربي أن أسجل بعض النتائج التى تبينت لى من خلال الدراسة والبحث فى جوانب الموضوع وهى :

١ - أن الوثنية ليست مجرد إقامة الأوثان وعبادتها مع الله تعالى أو من دونه كما يفهمها البعض وكما يحلو للبعض الآخر أن يحصرها فى ذلك ، وإنما الوثنية هى العبودية لغير الله سواء فى العقائد أم فى الشعائر أم فى الشرائع والأحكام ، وما إقامة الأوثان والأصنام وعبادتها إلا مظهر من مظاهر الوثنية التقليدية ، وهذا ما ينبغى أن نفهم على ضوءه الوثنية ، فإذا تحققت العبودية الكاملة لله تعالى فى كل شئ فقد انتفت الوثنية وتحقق الإسلام ، وإلا فالوثنية هى الدين المتبع والبضاعة الرائجة وإن لم يكن هناك أصنام وأوثان محسوسة .

٢ - أن الإنسان عابد بطبعه وفطرته التى فطره الله عليها ، والعبادة حاجة من حاجات النفس الأصيلة ، لا يمكن أن تستغنى عنها ، والإنسان إذا لم يعبد الإله المستحق للعبادة فإنه لا محالة واقع فى العبودية لما سواه من المعبودات الباطلة ، لأنه كما يحتاج إلى الغذاء والشراب لحاجة الجسم المادى فهو بحاجة إلى العبادة غذاء للروح .

٣ - أن هناك محاولات دائمة تقوم بها فئة من الطواغيت لصرف الناس عن العبودية لله وتوجيههم إلى عبادة ما سواه بالترغيب تارة وبالترهيب تارة أخرى ، سواء فى الماضى البعيد أم فى الحاضر القريب .

٤ - أن الإنسان الذى يُصرف عن العبودية لله بالصوارف الإرهابية والقوى الجهارية الطاغية ، لا تموت حساسة العبادة فى نفسه ، وإذا لاحت له فرصة الخلاص من القيود والتعبير عن حاجته للتعبد لخالقه فإنه سرعان ما يعود للأصل ويلبى نداء الفطرة الكامن فى أعماقه ، وأمثلة ذلك فى النظام الشيوعى الملحد كثيرة جدا .

وأما فى الأنظمة الوثنية الحرة كالديمقراطية والعلمانية ، فإن الإنسان يعيش حياة القلق والاضطراب والفراغ الروحى ، لم تسدَّ جوعته الشهوات المادية المختلفة ولا يزال يشعر بحاجته إلى شىء يفتقده ، وكثير هم الذين أبوا لرشد هم واستجابوا لضغط الفطرة فأقبلوا على الله وتحزروا من العبودية لغيره .

٥ - وأن الإنسان الذى يعبد غير الله تجده فى اضطراب وتردد وعدم استقرار على معبود ما ، فكلما سنحت الفرصة تخلص من معبوده وتحول غبه إلى غيره

تبعاً للهوى والشهوة والمصلحة وغيرها من الأمور ، وهذه ملاحظة وجدتها بين
المستعبدين في الماضي والحاضر .

٦ - وأن العبادة - كما هي في دين الله - شاملة لجميع وجوه النشاط
الإنساني غير محصورة في وجه دون وجه ، ولكنها تقلصت في مفهوم الناس اليوم -
حتى في العالم الإسلامي - وصارت مجرد شعائر وطقوس دينية تقليدية تؤدى بطريقة
آلية لا أثر لها في الفرد والمجتمع .

بينما أخرجت باقى شؤون الحياة من دائرة الدين والعبودية لله ووجهت وجهة
وثنية خالصة بعيدة عن دين الله ، بل ومعادية له في بعض الأحيان .

٧ - وتأكد لي بأن التوحيد هو الأصل ، وأن الوثنية مرضٌ عرض للبشرية
وخروج عن الأصل طراً عليها - لأسباب كثيرة أهمها الغلو في تقديس الأشخاص ومحبة
الصالحين - لا كما يدعى أنصار الوثنية والتطور بأن التعدد والشرك هو الأصل ثم
تطورت البشرية من التعدد إلى التوحيد ، وأن القول بنظرية التعدد ينفي الحكمة
عن الله تعالى واللفظ بالإنسان يعطل الغاية التي خلق الناس لها ، فكيف يصح
في المنطق السليم أن يخلق الله الناس ثم يتركهم في حيرة تنازعهم المعبودات الباطلة
بادئ الأمر حتى يصلوا بعقولهم إلى عبادته وحده .

وأن التطور من التعدد إلى التوحيد إذا صحَّ فإنما يصحُّ على المذاهب
والاديان الباطلة التي استحدثها البشر لأنفسهم .

٨ - وأن التوحيد أو الدعوة لعبادة الله وحده هي مهمة جميع الرسائل
وإن اختلفت شرائعهم تناسبا لأحوال الزمان .

٩ - وأن التوحيد ذو أهمية كبيرة في حياة الفرد والمجتمع إذ هو أساس
السعادة والطمأنينة وحفظ القلب والعقل من كلِّ المفسد والأخطار والشُرور والأساس
الذي تلتقى عليه الجماعات .

١٠ - وتبين لي أن الوثنية الحديثة التي تصود العالم اليوم قد ولدت
ونشأت وترعرعت في أوروبا منذ بداية ما يسمى بعصر النهضة - وهو في الواقع عصر
الوثنية أو العبودية لغير الله - لأسباب كثيرة أهمها :

الأول : أن أوروبا لم تسعد بمعرفة الدين الرباني الصحيح ، عبيدة
وشريعة حتى بعد أن اعتنقت النصرانية في عهد قسطنطين ، وقد قيل بأن الروم
ما تنصرت ولكن النصرى ترومت .

وتبيّن أن الكميصة ورجال الدين فيها تتحمل الوزر الأكبر من آثام العالم الذى
يدين بالوثنية منذ عدة قرون ، لأنها كانت سببا فى إفساد العقيدة النصرانية وفصل
الشرعية عن واقع الناس مما كان له أكبر الأثر فى فهم الدين فهما جزئيا مشلوسولا
وقاصرا على العبادات دون الشرائع واعتباره مجرد علاقة بين الإنسان وخالقه .

ولم تكف بهذا بل وقفت من العقل والعلم والبحث موقفا سلبييا وفرضت عقائد
وأفكارا باطلة تتعارض مع العقل مستخدمة فى ذلك أبشع أنواع الضغط والإرهاب ،
والتعذيب كما هو معروف فى تاريخ محاكم التفتيش .

أضف إليه الطغيان السياسى والاقتصادى والفكرى الذى كانت تمارسه والمخازى
الأخلاقية وفضائح الرهبان والأديرة التى ذاعت وانتشر خبرها بين الناس مما يندى
له الجبين .

والسبب الثانى : يتمثل فى دور اليهود وتدخلهم واستغلالهم للظروف
والأحداث وتوجيهها لخدمة مخططاتهم الشريرة وتشجيع الإلحاد والوثنية ، فاستغلوا
الواقع الذى بدأ ينسلخ من الدين ، واستغلوا النظريات التى تسترت بستار العلم
كنظرية التطور لدارون ، واستغلوا الثورات كالثورة الفرنسية ، كل ذلك وغيره لتحطيم
الدين والأخلاق وإشاعة الفاحشة وترويج الإلحاد .

وظهر أن اليهود لا ينشئون الأحداث وإنما يستغلونها لصالحهم ويستفيدون
منها ، وهذا فبالرغم من كيدهم ومكرهم ومقدرتهم على الشر فإنهم ضعاف لا يصطادون
إلا فى ماء عكر ، ولا يقدررون على شئ ما لم يمدّهم الله بحبله ، وسعفهم الناس
كذلك بحبالهم .

والسبب الثالث : يقع على عاتق المسلمين وتقصيرهم فى الدعوة إلى دين الله
وعدم تقديم البديل فى الوقت المناسب ، ولكنهم - ولأسباب كثيرة - تخاذلوا عن
القيام بالدور المنوط بهم وحمل الرسالة التى كلفوا بها ، مما جعل أوروبا تتماهى فى
الوثنية والخروج من دين الله .

ومن هنا فإنه من المؤكد أن أوروبا قد تخلّت عن الدين وارتدت إلى الوثنية من
جديد فهى تدّين بالوثنية أكثر من تدّينها وإيمانها بالنصرانية وإن كانت تدّعى
أنها نصرانية فهى دعوى ضدها ألف دليل ودليل .

١١ - وتبيّن لي أن الوثنية الحديثة لا تختلف عن غيرها من الوثنيات
المابقة إلا فى القشرة والمظهر الخارجى ، بينما الحقيقة أو الجوهر والمخبر واحد ،

وهو العبودية لغير الله تعالى في أى شكل من الأشكال ، وأن لكل زمان أوثانــــه
التي تناسبه ، فالقوم والوطن والعقل والعلم والعرف والرأى العام والاقتصاد ، وغير
ذلك هى الأوثان البديلة فى عصرنا الحاضر ، لأنها تعبد مع الله أو من دونه نفسى
أكثر من شكل من أشكال العبادة ، لا ليتقرب بها الناس إلى الله كما كان شأن العرب
فى الجاهلية ، ولكن ليستغنوا بها عن الله ويزدادوا منه بعدا لأنهم لا يرون لوجوده
شمة فائدة ، هذا إذا لم ينكروا وجوده أصلا كما هو شأن الشيوعية .

١٢- ووجدت أن أبرز مظاهر الوثنية أو العبودية لغير الله التى تقوم عليها الحياة
اليوم هى الشرك فى الطاعة والاتباع وتحكيم غير شريعة الله ، بحيث اتخذ الناس لهم
أربابا من دون الله يحلّون لهم الحرام ويحرّمون عليهم الحلال ويبيحون لهم المنكرات
والفواحش .

وعليه فقد اتّضح لى أن جميع النظم والمذاهب والأفكار والعبادىء المعاصرة
سواء فى السياسة أم فى الاقتصاد أم فى الاجتماع وغير ذلك من : ديمقراطية وشيوعية
وعلمانية وعقلانية وقومية . الخ ، بعيدة عن دين الله تقوم على أصل الشرك والكفر
والعبودية لغير الله لا سيّما فى الشرائع والأحكام كما كانت حال أهل الكتاب السابقين
الذين اتخذوا أبحارهم ورهبانهم أربابا من دون الله يحلّون ويحرّمون تبعاً لهواهم
والناس لهم مطيعون تابعون .

وهذا يجب أن ندرك تمام الإدراك كما يقول الشيخ محمد المبارك^(١) ، أن

المرحلة التى تمرّ بها البشرية فى العصر الحاضر هى مرحلة وثنية جديدة ، وأن
المذاهب والفلسفات والنظم التى تغزونا وتغزو العالم أجمع عن طريق الفكر والعلم
أو عن طريق السياسة أو الاقتصاد هى مذاهب تنهل من هذه الوثنية وتستمد من
المادية وأنها قطعت صلتها أو كادت من الأديان وتراث النبوات .

ونساء على هذا فإنه لا يجوز بحال من الأحوال أن نهادن هذه المذاهب
الوثنية ونضفى عليها من معانى الإسلام ، أو نضفى على الإسلام من معانيها ، وأن
الخسارة فى كل الأحوال واقعة على الإسلام ، لأنها تخالفه فى أصل القاعدة ، وإن
التقت معه لقاءات عارضة فى بعض النقاط الجزئية .

١ - انظر : الفكر الإسلامى الحديث فى مواجهة الأفكار الغربية ،

١٣ - وقد اتضح لي أن المسلمين في العهود الأخيرة لم يسلموا من عدوى هذه الوثنية فغرتهم - مع الأسف - في عمق دأرهم وزاحمت في قلوبهم عبوديتهم لله تعالى التي دامت قرابة ثلاثة عشرة قرناً من الزمان ، لبعدهم عن حقيقة الإسلام وتخلّفهم في سائر المجالات العلمية والمادية والفكرية ، وتسلبت الول الصليبية والقوى الصهيونية العالمية عليهم بالغزو العسكري أولاً ثم بالغزو الفكري ثانياً ، وكانت الثانية أخطر وأدهس ، مما أورث فيهم انبهاراً أعمى بالغرب الكافر وحضارته الوثنية ، بحيث جعلهم على أتم استعداد لتقبّل كلّ ما لديه من أفكار ومبادئ وفلسفات وثنية ، وكان في رأس القافلة إقصاء شريعة الله وإحلال القوانين الوثنية والأحكام الجاهلية محلّها ، وكانت هذه قاصمة الظهر التي تهون من دنسها كسبل الأمور، وإن كان غيرها لا يقلّ غمها خطورة على عقيدة المسلمين كمخالفة أعداء الله أفراداً وجماعات وعلى كافة المستويات ، والدعوة لتحديد النسل وإضعاف قوة المسلمين، والسفور والاختلاط وإشاعة الفاحشة في الذين آمنوا ، مما صار من الصعوبة بمكان أن تميّز المسلم عن غيره في موطنه ، ولم يعد بمقدور علماء الدين أن يستنكروا ذلك ولو بمجرد اللسان دون اليد ، وبذلك لم يبق من مراتب الإيمان إلا أدناها فمن أنكر بقلبه فقد سلم ومن رضى وتابع وشرح للكفر صدره فقد برى من دين الله كما صحّ بذلك الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

١٤ - وأخيراً فقد اتضح لي أن المرض خطير جداً ، قضى أو كاد أن يقضى على الصابيين به ، وأنه لا بدّ من علاج سريع وفعال ثبت بالتجربة السابقة مفعوله وصلاحيته ، لا سيّما وأن المريض نفسه قد أظهر بلسان الحال والمقال حاجته لهذا الدواء ، فتحتم أن يقدم له العلاج على وجه السرعة .

وقد رأيت أن العلاج لا يكون أولاً إلا بعودة المسلمين عودة جادة صادقة لدين الله وتحكيم شريعته وإقامة الإسلام في الواقع وترجمته ترجمة عملية حيّة ، ثم بعد ذلك النهوض بعبد الدعوة ونشر عقيدة التوحيد في العالم ، وحمل راية الجهاد في سبيل الله ، إذ لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها كما قال الإمام مالك رحمه الله .

وأن علاجاً غير هذا العلاج يعتبر من قبيل المخدرات المؤقتة التي تضر أكثر مما تنفع ، وبالتالي لا يصلح علاجاً لهذا الداء الخطير .

وأما العودة لهذا الدين فلا بدّ لها من جهود وتضحيات ووسائل أجملتها

في ثلاثة أمور ، الأول ، وهو التربية الاسلامية الصحيحة للفرد والأسرة والمجتمع ببيان حقائق الإسلام الصحيحة وإزالة ما لحقها من غواشٍ وسوء فهم ، عن طريق المناهج التعليمية ووسائل الإعلام المختلفة والدعوة في سبيل الله بين الناس .

والثاني : هو إصلاح مناهج التعليم في العالم الإسلامي وإعادة بنائها وصياغتها من جديد بحيث تنطلق وتتفق مع روح الإسلام ، ولا بد من توفير الجهود والإمكانات اللازمة لذلك .

والثالث : هو إصلاح وسائل الإعلام وإحسان استغلالها ، وتوجيهها الوجهة الصحيحة لنشر دين الله ومحاربة الوثنية .

ولا شك أن العلاج يحتاج كذلك إلى إحساس بالمسئولية ، وإلى جهود جماعية وسلطة دينية حكيمة ترعاه وتحمله للناس وتحملهم عليه ، والإفستضیح كل الجهود التي تبذلها الأفراد والجماعات هنا وهناك . . . وإن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .

هذه هي أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال دراستي لهذا الموضوع ، والحمد لله على حسن توفيقه ، فإن أصبت فمن الله ، وإن أخطأت فمني ومن الشيطان وحسبي أن بذلت جهدي وقدر طاقتي ومعرفتي ، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا .

وأسال الله تعالى أن يردنا إلى ديننا ردا جميلا ، وأن يوفقنا لتحكيم شريعته إنه على كل شيء قدير وإجابة جدير .

ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

xxxxxxxxxxxx

قائمة المصادر والمراجع

- أولاً : القرآن الكريم .
- ثانياً : كتب التفسير .
- ١ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن / محمد الأمين الشنقيطي / مطبعة المدني
 - ٢ - تفسير سورة الفاتحة / محمد بن عمر الرازي / المطبعة البهية المصرية .
 - ٣ - تفسير القرآن العظيم / للحافظ ابن كثير / مطبعة الحلبي بمصر .
 - ٤ - التفسير الكبير / محمد بن عمر الرازي / الطبعة الاولى / دار الفكر بيروت .
 - ٥ - تفسير المنار / الشيخ محمد عبده / جمع محمد رشيد رضا .
 - ٦ - جامع البيان عن تأويل القرآن " المعروف بتفسير الطبري " / محمد بن جرير الطبري / مطبعة الحلبي بمصر .
 - ٧ - الجامع لأحكام القرآن / محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي / دارالكتاب العربي للطباعة والنشر .
 - ٨ - عمدة التفسير / أحمد محمد شاكر / طبعة دار المعارف بمصر .
 - ٩ - فتح القدير / محمد بن علي الشوكاني / ٣ / مطبعة الحلبي .
 - ١٠ - في ظلال القرآن / سيد قطب / طبعة دار الشروق .
 - ١١ - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الاقوال في وجوه التأويل / صر بن محمود الزمخشري / دارالكتاب العربي بيروت .
- ثالثاً : كتب الحديث النبوي الشريف .
- ١ - سلسلة الأحاديث الصحيحة / محمد ناصر الدين الالباني / المكتب الاسلامي .
 - ٢ - سلسلة الأحاديث الضعيفة / محمد ناصر الدين الالباني / المكتب الاسلامي .
 - ٣ - سنن ابن ماجه تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي / دار الكتب العلمية .
 - ٤ - سنن أبي داود / تحقيق عزت الدعاس وعادل السيد / دار الحديث / دمشق .
 - ٥ - سنن الترمذي " الجامع الصحيح " تحقيق احمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وابراهيم عطوة عوض / دار احياء التراث العربي .
 - ٦ - سنن الدارمي / دار الكتب العلمية .
 - ٧ - سنن النسائي / تحقيق عبد الفتاح أبي غدة / دار البشائر الإسلامية / بيروت .
 - ٨ - صحيح مسلم / تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي / دار الفكر بيروت .
 - ٩ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري / تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي / دار الفكر بيروت .
 - ١٠ - المستدرک طو الصحیحین للحاکم النیسابوری / دار المعرفة بیروت .
 - ١١ - مسند أحمد بن حنبل / دار صادر بيروت .
 - ١٢ - موطأ مالك / تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي / دار احياء التراث العربي بيروت .

- رابعاً : الرسائل الجامعية .
- ١ - أهمية الجهاد في نشر الدعوة الاسلامية والرد على الطوائف الضالة فيه / علي بن نفيح العلياني / دكتوراه .
 - ٢ - الديمقراطية وموقف الإسلام منها / محمد نور مصطفى الرهوان / ماجستير .
 - ٣ - العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الاسلامية المعاصرة / سفر بن عبد الرحمن الحوالي / ماجستير . طبعة أولى دار مكة .
 - ٤ - الفراغ الروحي وأثره على البشرية / جميل عبد المحسن القرارة / دكتوراه .
 - ٥ - فكرة القومية العربية على ضوء الاسلام / صالح بن عبد الله العبود / ماجستير . دار طيبة الرياض .
 - ٦ - موقف الإسلام من نظرية ماركس للتفسير المادي للتاريخ / أحمد العوايشة / ماجستير / طبعة أولى دار مكة .
 - ٧ - الولاء والبراء في الإسلام / محمد سعيد القحطاني / ماجستير / ط ٢ / دار طيبة .

خامساً : مراجع أخرى .

(حرف الألف)

- ١ - الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر / د . محمد محمد حسين / ط ٢ / مؤسسه الرسالة .
- ٢ - اجتماع الجيوش الاسلامية على غزو المعطلة والجهمية / ابن القيم / مطبعة الامام بالقاهرة .
- ٣ - أجنحة المكر الثلاثة / عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني / ط ٢ / دار القلم .
- ٤ - أحكام القرآن / أبو بكر بن العربي المالكي / تحقيق علي محمد البيجاوي .
- ٥ - أحكام القرآن / أبو بكر الجصاص / تحقيق محمد قماوي .
- ٦ - الاختلاط بين الجنسين في نظر الاسلام / محمد عبد الحكيم خيال / ط ١ / دار الدعوة .
- ٧ - أخطاء المنهج الغربي الوافد / انور الجندي / ط اولي / دار الكتاب اللبناني .
- ٨ - أديان العرب في الجاهلية / محمد نعمان الجارم / مطبعة مصر .
- ٩ - الأديان في القرآن / د . محمود به الشريف / ط ٣ .
- ١٠ - أزمة العصر / د . محمد محمد حسين / طبعة دار عكاظ / جدة .
- ١١ - الأسئلة والأجوبة الأصولية عن العقيدة الواسطية / عبد العزيز محمد السلطان / الطبعة العاشرة .

- ١٢- أساليب الفوز الفكري للعالم الاسلامي / د . علي جريشة واخرى / ط اولى / دار الاحتصام .
- ١٣- الإسلام / سعيد حوى / ط اولى عام ١٩٦٩م .
- ١٤- الإسلام على مفترق الطرق / محمد اسد / ترجمة د . عمر فروخ / دار العلم للملايين بيروت .
- ١٥- الإسلام في حل مشاكل المجتمعات الإسلامية المعاصرة / د . محمد البهي طبعة اولى .
- ١٦- الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة / أبو الأملى المودودى / دار القلم الكويت .
- ١٧- الإسلام قوة الغد العالمية / بول شمتز / ترجمة محمد أبي شامة .
- ١٨- الإسلام وأوضاعها القانونية / عبد القادر عودة / طبعة الاتحاد الاسلامي العالمي للمنظمات الطلابية .
- ١٩- الإسلام والدعوات الهدامة / انور الجندى / ط اولى / دار الكتاب اللبناني
- ٢٠- الإسلام والعالم المعاصر / انور الجندى ط اولى .
- ٢١- الإسلام والمدنية الحديثة / ابو الاملى المودودى / الدار السعودية جدة
- ٢٢- الإسلام يتحدى / و حيد الدين خان / ط ٦ / مكتبة القرآن القاهرة .
- ٢٣- أصول الاعلام الاسلامي / د . ابراهيم امام / دار الفكر العربي .
- ٢٤- أصول التربية الاسلامية وأساليبها / عبد الرحمن النحلاوى / ط اولى / دار الفكر
- ٢٥- الأصنام // أبو المنذر هشام بن السائب الكلبي / تحقيق أحمد زكي / الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة .
- ٢٦- إطار اسلامي للفكر المعاصر / أنور الجندى / ط أولى / المكتب الاسلامي .
- ٢٧- الاعلام والدعاية ونظريات وتجارب / د . محمد عبد القادر حاتم / مكتبة الانجاو المصرية عام ١٩٧٨م .
- ٢٨- إغاثة اللفهان من بصائد الشيطان / ابن القيم / طبعة انصار السنة بمصر .
- ٢٩- اقتضاء الصراط المستقيم / شيخ الاسلام ابن تيمية / ط اولى / المكتبة السلفية
- ٣٠- الإلحاد . أسباب هذه الظاهرة وظرق علاجها / عبد الرحمن عبد الخالق / ط أولى / الدار السلفية .
- ٣١- الانسان بين المادية والاسلام / محمد قطب / ط ٤ .
- ٣٢- " الله " / عباس محمود العقاد / ط ٦ / دار المعارف بمصر .
- ٣٣- الله جل جلاله / سعيد حوى / ط ٣
- ٣٤- الأوثان / مخائيل نعيمة / ط ٥ / دار صادر بيروت
- ٣٥- الإيمان / سميح عاطف الزين / ط ٢

- ٢٦- الإيمان : حقيقته . أركانه . نواقضه / د . محمد نعيم ياسين / ط ٢
٢٧- الإيمان وأثره في حياة الإنسان / د . حسن الترابي / ط ٣ / دار القلم الكويت .
٢٨- الإيمان والحياة / د . يوسف القرضاوي / ط ١٢ / مؤسسة الرسالة .

(حرف الباء)

- ١- بداية المجتهد ونهاية المقتصد ط ابن رشد ط اولي .
٢- البداية والنهاية في التاريخ / عماد الدين بن كثير / مطبعة السعادة بمصر .
٣- بروتوكولات حكماء صهيون / ترجمة محمد خليفة تونسلي / ط ٧ / دار الكتاب

العربي .

- ٤- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب / محمود شكري الالوسي / ط ٣ .

(حرف التاء)

- ١- تاريخ الأديان وفلسفتها / طه الهاشمي / مكتبة دار الحياة بيروت .
٢- تاريخ العرب / فيليب حتى ط ٤
٣- التبشير والاستعمار / د . عمر فروخ ومصطفى الخالدي / ط ٤
٤- تحذير الساجد من اتخان القبور مساجد / محمد ناصر الدين الالباني / ط ٣

المكتب الاسلامي .

- ٥- تحرير المرأة / قاسم امين ط ٢ عام ١٩٤١ م .
٦- تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب / اشير الدين الاندلسي / ط اولي
٧- تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة / أبو حيان أحمد البيروني
ط ٢ / مجلس دائرة المعارف العثمانية / الهند .
٨- تحكيم القوانين / الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ / طبعة عام ١٣٨٠ هـ
مطبعة الثقافة بمكة .

- ٩- التربية الإسلامية والمشكلات المعاصرة / عبد الرحمن النحلاوي / ط ٢ /
المكتب الإسلامي .

١٠- التصاريف / يحيى بن سلام / تحقيق هند شلبي

١١- التعريفات / الشريف علي بن محمد الجرجاني / ط اولي دار الكتب العلمية

بيروت .

١٢- التعصب والتسامح بين المسيحية والاسلام / الشيخ محمد الغزالي / طبعة

دار البيان .

١٣- التكامل في الإسلام / احمد امين / ط ٤ .

١٤- تكوين العقل الحديث / راندل / ترجمة جورج طعمة / دار الثقافة .

(حرف الثا)

- ١- الثقافة الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة / د. شعبان محمد إسماعيل /
دار المريخ الرياض / ١٤٠٠ هـ .

(حرف الجيم)

- ١- الجامع الفريد / الشيخ محمد بن عبد الوهاب .
٢- جاهلية القرن العشرين / محمد قطب / دار الشروق .
٣- الجفوة المفتعلة بين العلم والدين / محمد علي يوسف / بيروت ١٩٦٦ م .
٤- جند الله ثقافة و أخلاقاً / سعيد حوى / ط ٢ .
٥- جهاد المسلمين في الحروب الصليبية / د. سعيد عبد الفتاح عاشور / ط ٤
٦- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح / شيخ الاسلام ابن تيمية / مطبعة
المدني .

(حرف الحاء)

- ١- الحجاب / أبو الأعلى المودودي / دار الفكر بيروت .
٢- حجاب المرأة المسلمة في الكتاب والسنة / محمد ناصر الدين الالباني / ط ٢
٣- الحجاب والسفور / أحمد عبد الغفور عطار / ط اولى / مكة المكرمة ١٣٩٩ هـ .
٤- حركة تحرير المرأة في ميزان الإسلام / أنور الجندي / دار الانصار .
٥- الحركة الفكرية ضد الإسلام / د. بهركات عبد الفتاح دويدار / طبعة المركز
العالمي للتعليم الاسلامي بمكة المكرمة .
٦- حصوننا مهددة من داخلها / د. محمد محمد حسين / ط ٤ / المكتب الاسلامي
٧- حقائق عن التبشير / عماد شرف / المختار الاسلامي القاهرة .
٨- حقوق المرأة في الإسلام / محمد بن عبدالله بن سليمان عرفة / ط ٣ .
٩- حقيقة التوحيد / د. يوسف الفضاوي / ط اولى / مكتبة وهبة .
١٠- حقيقة الشيوعية / أمين شاکر وآخرون / ط ٢ / دار المعارف .
١١- حكم الإسلام في الاشتراكية / عبد العزيز البدرى / ط ٤
١٢- الحل الإسلامي لفريضة وضرورة / د. يوسف الفضاوي / ط ٣ مكتبة وهبة .
١٣- حياة المجتمعات - فرائب النظم والتقاليد والعادات / د. علي عبدالواحد واني
مكتبة النهضة بمصر .

- ١٤- حياة محمد / محمد حسنين هيكل / ط ١٣ / دار المعارف بمصر .

(حرف الخاء)

- ١- خصائص التصور الاسلامي ومقوماته / سيد قطب / ط ٤ دار الشروق القاهرة .
٢- خطر التبرج والاختلاط / عبد الباقي رضون / مؤسسة الرسالة بيروت .
٣- خطر اليهودية على الإسلام والمسيحية / عبدالله التل / ط ٢ .

٤ - الخمر بين الطب والفقہ / محمد علي البار / ط ٥ / الدار السعودية .
(حرف الدال)

١ - دائرة معارف القرن العشرين / محمد فريد وجدي / الشركة اللبنانية .

٢ - درء تمارض العقل والنقل / شيخ الاسلام ابن تيمية / تحقيق محمد رشاد سالم .
طبعة أولى .

٣ - دراسات في تاريخ العرب منذ ما قبل الاسلام الى ظهور الامويين / مصطفى

أبوضيف أحمد / مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية ١٩٨٢ م .
٤ - دراسات قرآنية / محمد قطب / دار الشروق .

٥ - الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد / محمد بن علي الشوكاني / ط اولى
بيروت .

٦ - دعوة التوحيد / محمد خليل هراس / ط ٢ / مكتبة الحاج ابراهيم مصطفى .

٧ - الديانات والمعائد / أحمد عبد الغفار عطار / ط أولى / مكة المكرمة .

٨ - الديمقراطية في الاسلام / عباس محمود العقاد / دار المعارف القاهرة .

٩ - الدين / د . محمد عبدالله دراز / ط ٢ / دار القلم الكويت .

١٠ - ديوان أبي الاسود الدؤلي / تحقيق الشيخ محمد حسن ال ياسين / ط ٢

١١ - ديوان بشار بن برد / جمعه الشيخ محمد الظاهر / ابن عاشور .

١٢ - ديوان جميل صدقي الزهاوي / دار العودة بيروت .

(حرف الراء)

١ - الرأي العام في الإسلام / د . محي الدين جد الحلیم / مكتبة الخانجي
بالقاهرة .

٢ - الرأي العام مقوماته وأثره في النظم السياسية المعاصرة / د . سعيد سراج /
الهيئة المصرية العامة ١٩٧٨ م .

٣ - الرأي العام والمخطط الصهيوني / فتحي الابياري / شركة الاطلاعات الشرقية
القاهرة ١٩٦٩ م .

٤ - الردة بين الامس واليوم / محمد كاظم حبيب / طبعة اولى .

٥ - ردة ولا أبا بكر لها / أبو الحسن الندوي / توزيع هيئة التوعية الاسلامية
بمكة المكرمة .

٦ - رسائل الامام الشهيد حسن البنا / طبعة مؤسسة الرسالة .

٧ - الرسائل المفيدة / جد اللطيف بن عبد الرحمن ال الشيخ / دار العلوم
القاهرة ١٣٩٨ هـ .

٨ - رسالة التقليد / محمد اسد / مكتبة المنار الكويت .

٩ - رسالة العبودية / شيخ الاسلام ابن تيمية / ط ٢ / المكتب الاسلامي .

- ١٠- الروح الأنا في شرح سيرة ابن هشام / عبدالله السهيلي / تحقيق عبدالرحمن
الوكيل / ط ٢٠٠

(حرف السين)

- ١- سقوط العلمانية / أنور الجندي / ط أولى .
٢- سكان العالم الاسلامي / محمود شاكر / ط ٢ / مؤسسة الرسالة
٣- السلام العالي والاسلام / سيد قطب / ط ٨ / دار الشروق .
٤- السيرة النبوية / ابن كثير / تحقيق د . مصطفى عبد الواحد / مطبعة
الحلبي ١٣٨٤ هـ .
٥- السيرة النبوية / ابن هشام / تحقيق مصطفى السقا واخرين / مؤسسة
علوم القرآن .

(حرف الشين)

- ١- الشبهات والأخطاء الشائعة في الفكر الاسلامي / انور الجندي / دار الاعتصام
٢- شرح الأصول الخمسة / القاضي عبد الجبار المعتزلي / تحقيق د . عبدالكريم
عثمان / مكتبة وهبة .
٣- شرح العقيدة الطحاوية / ابن ابي العز الحنفي / ط ٤ / المكتب الاسلامي .
٤- شرح العقيدة الواسطية / محمد خليل هراس / ط ٥ / مؤسسة مكة للطباعة .
٥- شريعة الاسلام خلودها وصلاحها للتطبيق في كل زمان ومكان / د . يوسف
القرضاوي .
٦- الشيوعية والأديان / د . طارق حجي / ط ٣ / ١٩٨٠ م .

(حرف الصاد)

- ١- الصحاح للجوهري / تحقيق أحمد عبد الغفور عطار / ط ٢٠٠ .
٢- الصحافة والأقلام المسمومة / أنور الجندي / ط أولى / دار الاعتصام .
٣- الصراع بين الايمان والمادية / أبو الحسن الندوي / دار القلم الكويت .
٤- الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية الأقطار الإسلامية / أبو الحسن
الندوي / ط أولى .
٥- صراع مع الملاحدة حتى العظم / عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني / ط ٢ /
دار القلم .
٦- صفوة المفاهيم والآثار / الشيخ عبدالرحمن الدوسري / ط أولى / مكتبة
دار الأرقم .
٧- الصلاة / ابن القيم / ط ٢ / المكتبة السلفية .
٨- الصنم الذي هوى / أندريه جيد وآخرون .

(حرف الطاء)

- ١ - طريق المهجرتين وباب السعادتين / ابن القيم الجوزية / مطابع الدوحة .
- ٢ - الطريق إلى حكم إسلامي / محمد علي الضناوي / ط أولى .

(حرف العين)

- ١ - عاصفة يواجهها العالم الاسلامي والعربي / أبو الحسن الندوي / المجمع الإسلامي العلمي / الهند ١٩٢٨م .
- ٢ - العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي / أنور الجندي ط أولى / دار المعرفة .
- ٣ - العبادة / محمد أبو الفتح البيانوني / ط أولى / دار السلام .
- ٤ - العبادة في الاسلام / د . يوسف القرضاوي / ط ٩ مؤسسه الرسالة .
- ٥ - عقربة العرب في العلم والفلسفة / د . عمر فروخ .
- ٦ - العدالة الاجتماعية في الاسلام / سيد قطب / ط ٢ / دار الشروق .
- ٧ - العصر الجاهلي / د . شوقي ضيف / ط ٤ / دار المعارف بمصر .
- ٨ - عقائد المفكرين / عباس محمود العقاد / مكتبة الانجلو المصرية .
- ٩ - العقل والسلوك في الهنية الاسلامية / عبد المجيد النجار / مطبعة الجنوب تونس .
- ١٠ - عقيدة المؤمن / أبو بكر الجزائري / ط ٣ / دار الشروق جدة .
- ١١ - العقيدة وأثرها في بناء الجيل / د . عبدالله عزام / مكتبة الرسالة الحديثة عمان .
- ١٢ - عمل المرأة في الميزان / د . محمد علي البار / ط أولى ١٩٨١م .
- ١٣ - عودة الحجاب / أحمد محمد المقدم / دار طيبة الرياض .

(حرف الغين)

- ١ - غاية الأمان في الرد على النبهاني / محمود شكري الألوسي / المطبعة العربية لاهور .
- ٢ - الغرب والشرق الأوسط / برنارد لويس / ترجمة د . نبيل صبحي / ١٩٦٥م .
- ٣ - غروب الخلافة الإسلامية / د . علي حسن الخربوطلي / مؤسسه المطبوعات الحديثة / القاهرة .
- ٤ - الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام / عبد الستار فتح الله سعيد / ط ٢ / مكتبة المعارف الرياض .
- ٥ - الغزو الفكري أهدافه ووسائله / د . عبد الصبور مرزوق / مؤسسه مكة للطباعة والإعلام .

٦ - الغزو الفكري وأثره في المجتمع الاسلامي المعاصر / د. علي عبد الحلیم محمود / ط أولى / دار البحوث العلمية الكويت.

٧ - غزو في الصميم / عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني / ط أولى / دار القلم دمشق
(حرف الفاء)

١ - فتح المجيد شرح كتاب التوحيد / عبد الرحمن حسن آل الشيخ / تحقيق محمد حامد فقي طبعة باكستان لاهور .

٢ - الفراغ وأزمة التدين ضد الشباب المعاصر / عبد العظيم المطعني / ط أولى

٣ - فصل الدين عن الدولة / إسماعيل الكيلاني / ط أولى .

٤ - فصل الخطاب في المرأة والحجاب / محمد طلعت حرب / طبعة عام ١٩٠١ م

٥ - الفقه الاسلامي آفاقه وتطوره / د. عباس حسني محمد / رابطة العالم الاسلامي ١٤٠٢ هـ .

٦ - فقه السنة / سيد سابق / ط ٢ / دار الكتاب العربي بيروت .

٧ - الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية / محمد المبارك / ط ٢

٨ - الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي / د. محمد البهي / ط ٤

٩ - الفوائد / ابن القيم / دار الفكر .

١٠ - نيفر الخاطر / أحمد أمين / ط ٤ مكتبة النهضة المصرية / القاهرة .

١١ - في العقيدة الاسلامية بين السلفية والمعتزلة / د. عبد المنعم خفاجي .

١٢ - في الفكر الديني الجاهلي / د. محمد إبراهيم الفيومي / ط ٢ / دار القلم الكويت .

(حرف القاف)

١ - قادة الغرب يقولون : دمروا أبيدوا أهلهم / جلال العالم / ط ٣ .

٢ - قذافي الحق / الشيخ محمد الغزالي / المكتبة المصرية بيروت .

٣ - القرآن والمجتمع / د. محمد البهي / ط ٢ / مكتبة وهبة .

٤ - قصة الأديان دراسة تاريخية مقارنة / د. رفقي زاهر / ط أولى .

٥ - قصة الحضارة / ول ديورانت / زكي نجيب محفوظ / ط ٤ القاهرة .

٦ - القصيدة النونية / ابن القيم دار المعرفة بيروت .

٧ - القومية في نظر الإسلام / محمد أحمد باشميل / ط ٢ .

(حرف الكاف)

١ - كتابات علي بوابات القرن الخامس عشر / د. عماد الدين خليل و د .

عبد الحلیم عويس / دار المعلوم الرياض .

(حرف اللام)

- ١ - لسان العرب / محمد بن مكرم بن منظور / دار صادر بيروت .
- ٢ - لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم / الأمير شكيب أرسلان / المركز السلفي للكتاب القاهرة .
- ٣ - لواعق الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدرّة المضيئة في عقيدة الفرقة الناجية المرضية / محمد بن أحمد السفاريني / ط ٢ / المكتب الإسلامي .

(حرف الميم)

- ١ - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين / أبو الحسن الندوي / ط ٨
- ٢ - مبادئ الإسلام / أبو الأعلى المودودي / بيروت .
- ٣ - مباهج الفلسفة / ول ديورانت / ترجمة أحمد فواد الأهواني / مكتبة الانجلو مصرية ١٩٥٧ م .
- ٤ - المجتمع الإسلامي المعاصر / محمد المبارك / ط ٢ دار الفكر بيروت .
- ٥ - المجتمع الحضاري وتحدياته من توجيهات القرآن الكريم / د . محمد البهي مكتبة وهبة ١٩٧٧ م .
- ٦ - المجتمع الإنساني في ظل الإسلام / الإمام محمد أبو زهرة / ط ٢ / الدار السمودية .
- ٧ - مجمع الأمثال / أبو الفضل أحمد النيسابوري / تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد / ط ٣ .
- ٨ - مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية / طبعة المكتب التلميمي في المغرب .
- ٩ - مجموعة الرسائل والمسائل / شيخ الإسلام ابن تيمية / لجنة التراث العربي القاهرة .
- ١٠ - المجموعة الكاملة لمؤلفات طه حسين / ط أولى دار الكتاب اللبناني .
- ١١ - محاضرات عن القومية العربية تاريخها وقوامها وراميها / الأمير مصطفى الشهابي / معهد الدراسات العربية القاهرة ١٨٥٩ م .
- ١٢ - محاضرات عن النصرانية / الإمام محمد أبو زهرة / دار الفكر العربي .
- ١٣ - محاكم التفتيش / د . إسحاق عبيد / جامعة عين شمس / ط أولى
- ١٤ - مختصر سيرة الرسول / محمد بن عبد الوهاب / طبعة عام ١٩٥٦ م .
- ١٥ - المخصص / علي بن إسماعيل بن سيده / المطبعة الأميرية ببولاق القاهرة .
- ١٦ - المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام / محمد محمود الصواف / ط ٣ / دار الاعتصام / الدمام .

- ١٧- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين / ابن القيم / ط ٢ .
- ١٨- مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم / د . عمار الدين خليل / ط أولي .
- ١٩- المذاهب الاجتماعية الحديثة / محمد عبدالله عنان / ط ٥ دار الشروق .
- ٢٠- مذاهب فكرية معاصرة / الأستاذ محمد قطب / دار الشروق .
- ٢١- المرأة المسلمة / وهيبي سليمان غاوجي / ط ٦ .
- ٢٢- مروج الذهب ومعادن الجوهر في التاريخ / علي بن الحسين السعودي / ط ٤ القاهرة .
- ٢٣- مستقبل الإسلام في القرن الخامس عشر الهجري / د . محمد البهي / مكتبة وهبة .
- ٢٤- المستقبل لهذا الدين / سيد قطب / دار الشروق ١٩٧٤ م .
- ٢٥- المسلمون تحت السيطرة الرأسالية / محمود شاكر / ط ٣ / المكتب الاسلامي .
- ٢٦- المسلمون في معركة البقاء / د . عبد الحلیم عويس / ط أولي / دار الاعتصام .
- ٢٧- المسيحية / د . أحمد شلبي / ط ٤ / مكتبة النهضة المصرية .
- ٢٨- المسيحية في القرآن والتوراة والانجيل / عبد الكريم الخطيب / دار الكتب الحديثة .
- ٢٩- المصباح النير / أحمد بن محمد الفيومي / مطبعة الحلبي .
- ٣٠- المصطلحات الأربعة في القرآن / أبو الأعلى المودودي / ط ٦ دار القلم الكويت .
- ٣١- مع الأنبياء في القرآن الكريم / عفيف عبد الفتاح طيارة / ط ٢ / دار العلم للملايين .
- ٣٢- معارج القبول / الشيخ حافظ الحكمي / ط أولي .
- ٣٣- معالم السنن للخطابي بهامش سنن أبي داود / تحقيق عزت الدعاس و عادل السيد / ط أولي .
- ٣٤- معالم في الطريق / سيد قطب / طبعة الاتحاد الاسلامي العالمي للمنظمات الطلابية .
- ٣٥- معجم الألفاظ والأعلام القرآنية / محمد إسماعيل إبراهيم / ط ٢ .
- ٣٦- معجم متن اللغة / أحمد رضا / دار مكتب الحياة بيروت .
- ٣٧- المعجم الوسيط / إبراهيم أنيس وجماعة من العلماء / ط ٢ .
- ٣٨- مفاهيم إسلامية حول الدين والدولة / أبو الأعلى المودودي / دار القلم الكويت .
- ٣٩- مفتريات علي الإسلام / أحمد محمد جمال / ط أولي / دار الفكر .
- ٤٠- مفردات غريب القرآن / الراغب الاصبهاني / مكتبة الانجلو المصرية .
- ٤١- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام / د . جواد علي / مطبعة المجمع العلمي العربي العراقي .

٤٢- مقارنة الأديان / د. أحمد شلبي / ط ٣ / مكتبة النهضة المصرية .

٤٣- مقدمة ابن خلدون / ط ٤ / دار القلم بيروت .

٤٤- مكان المسلمين من العالم / حسن عبد المقصود / مطبعة التقدم .

٤٥- اللبل والنحل للشهرستاني / تحقيق محمد سيد كيلاني / دار المعرفة .

٤٦- منشأ الفكر الحديث / كرين برينتون / ترجمة عبد الرحمن مراد / دمشق .

٤٧- من مفاهيم القرآن في العقيدة والسلوك / د. محمد البهي / ط أولى /

دار الفكر .

٤٨- المنهاج الاسلامي الجديد للتربية والتعليم / أبو الأعلى المودودي ط ٣ /

المكتب الاسلامي .

٤٩- منهج التربية الاسلامية / محمد قطب / ط ٣ / دار الشروق .

٥٠- منهج القرآن في التربية / عبد الفتاح عاشور / مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٧٩ .

٥١- من هنا نعلم / الشيخ محمد الفزالي / ط ٢ .

٥٢- موسوعة النظم والحضارة الاسلامية / د. أحمد شلبي / مكتبة النهضة المصرية

٥٣- الموسوعة في سماحة الإسلام / محمد الصادق عرجون / مؤسسة سجل

العرب / القاهرة .

٥٤- المؤمنة على الإسلام / أنور الجندي / دار الاعتصام .

٥٥- موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين / مصطفى صبري / ط ٢ .

(حرف النون)

١- نحن والحضارة الغربية / أبو الأعلى المودودي / مؤسسة الرسالة .

٢- نحو التربية الإسلامية الحرة / أبو الحسن الندوي / ط ٣ .

٣- نحو صياغة إسلامية لمنهج التربية والتعليم / د. إسحاق الفرغان ومجموعة

من المؤلفين / ط أولى عام ١٣٩٩ هـ قطر .

٤- نحو نهج إسلامي أمثل / يوسف العظم / ط أولى .

٥- النظام السياسي في الإسلام / د. محمد أبو فارس / عام ١٩٨٠ م .

٦- نظرية الإسلام وهدية في السيادة والقانون والدستور / أبو الأعلى المودودي

ط دار الفكر .

٧- النفس والمجتمع / محمد قطب / دار الشروق .

٨- نقد أصول الشيوعية / صالح اللحيدان / ط أولى / مكتبة الحرمين بالرياض

٩- نقد القومية العربية على ضوء الإسلام / الشيخ عبد العزيز بن باز / المكتب

الاسلامي .

١٠- نقص تأسيس الجبهة / شيخ الإسلام ابن تيمية / ط أولى .

(حرف الهاء)

- ١ - هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى / ابن القيم / دار الكتب العلمية / بيروت .
- ٢ - هزيمة الشيوعية في عالم الإسلام / أنور الجندى / طبعة الاعتصام .
- ٣ - هموم داعية / الشيخ محمد الفزالي / ط أولى / قطر .

(حرف الواو)

- ١ - واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم / أبو الأعلى المودودي / مؤسسة الرسالة ١٩٧٥ م .
- ٢ - الوجدانية مع دراسة في الأديان والفرق / د . بركات عبد الفتاح دويدار / مكتبة النهضة المصرية .

(حرف اليا)

- ١ - يوم الإسلام / أحمد أمين / مؤسسة الخانجي بمصر ١٩٥٢ م .

فهرس الموضومات

محتويات الرسالة

<u>الموضوع</u>	<u>الصفحة</u>
المقدمة	أ - ل
التمهيد في بيان مفهوم الوثنية :	
أولا ١ - معنى الوثن لغة واصطلاحا	٣ - ١
٢ - معنى الصنم لغة واصطلاحا	٤ - ٣
٣ - الفرق بين الصنم والوثن	٦ - ٤
٤ - معنى الطاغوت والجبت	٨ - ٦
ثانيا : مفهوم الوثنية :	٨
أ - المفهوم الشائع للوثنية	٩ - ٨
ب - المفهوم الصحيح للوثنية هو العبودية لغير الله وليست مجرد اقامة الاوثان وعبادتها من دون الله	١٩ - ٩
ج - رد شبهة القول بزوال الوثنية	٢٣ - ١٩
الباب الاول : الانسان والعبادة	٢٤ - ١٠٨
الفصل الاول : الانسان مفطور على العبادة	٣٥ - ٣٩
المبحث الاول : الانسان عابد بطبعه	٢٦ - ٣٢
لا تخلو حضارة اى امة من آثار تدل على التدين والعبادة .	
المبحث الثانى : مفهوم العبادة	٣٣ - ٤٦
العبادة لغة	٣٣ - ٣٤
العبادة اصطلاحا	٣٥ - ٣٧
الانحراف فى فهم العبادة	٣٧ - ٤٣
آثار ونتائج هذا الانحراف على حياة الامة الاسلامية	٤٣ - ٤٦

<u>الصفحة</u>	<u>الموضوع</u>
٥٢-٤٧	المبحث الثالث : وجوه العبادة
٤٩-٤٧	الوجه الأول : أن تكون خالصة لله تعالى
٥٢-٥٠	الوجه الثاني : أن تكون لغير الله تعالى
١٠٨-٥٢	الفصل الثاني : أحقية الله بالعبادة دون غيره
٥٩-٥٤	المبحث الأول : أحقية الله بالعبادة
٦٢-٦٠	المبحث الثاني : مفهوم التوحيد
٦٠	أ- التوحيد لغة
٦٢-٦٠	ب- التوحيد اصطلاحاً
٧٠-٦٢	المبحث الثالث : أنواع التوحيد :
٦٢	النوع الأول : توحيد الأسماء والصفات
٦٥-٦٤	النوع الثاني : توحيد الربوبية
	النوع الثالث : توحيد الألوهية وهو التوحيد الذي
٦٨-٦٥	جاءت به الرسل وأنزلت به الكتب
٧٠-٦٨	العلاقة بين أنواع التوحيد الثلاثة
٧٥-٧٠	المبحث الرابع : التوحيد دعوة جميع الرسل
٧١	الأدلة على ذلك من التوراة
٧٢	الأدلة من الإنجيل
٧٤-٧١	الأدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية
٧٥-٧٤	بعض أقوال العلماء
٨٥-٧٦	المبحث الخامس : التوحيد هو الأصل والشرك طارئ على البشرية
	القول بأن الشرك هو الأصل في العبادة وأشهر من قال
٧٦	بذلك من الغربيين
	«العقاد» ومحمد فريد وجدى أشهر من تبع الغربيين من
٧٨-٧٧	المسلمين .

<u>الموضوع</u>	<u>الصفحة</u>
أشهر من قال بأن التوحيد هو الأصل من علماء الغرب	٧٨ - ٧٩
أشهر من قال بذلك من المسلمين	٧٩ - ٨٠
القول الفصل في ذلك هو ما جاء في القرآن والسنة من أن الناس كانوا أمة واحدة على التوحيد .	٨٠ - ٨٥
البحث السادس : أهمية التوحيد في حياة الفرد والمجتمع ٨٦-١٠٨	
أ - أهمية التوحيد في حياة الفرد	٨٧
١- التوحيد يحقق السعادة التي ينشدها الإنسان	٨٧ - ٩٣
٢- التوحيد يحقق الحرية ويحفظ العقل من قيود الوثنية ٩٣-٩٩	
٣- التوحيد درع للإنسان من الشيطان	٩٩ - ١٠٢
٤- التوحيد مصدر العزة والشجاعة والكرامة وكل الصفات الحميدة	١٠٢ - ١٠٣
ب - أهمية التوحيد في حياة المجتمع	١٠٤ - ١٠٨
الباب الثاني : الوثنية القديمة	١٠٩ - ١٦٤
الفصل الأول : أسباب الانحراف عن التوحيد إلى الوثنية	١١٠
تمهيد في نشأة الوثنية الأولى وولادتها	١١١ - ١١٤
البحث الأول : أسباب الوثنية القديمة	١١٤
السبب الأول : تقديس الأشخاص والفلو في الصالحين	١١٤ - ١١٥
السبب الثاني : طول الأمد وتقادم السنين	١١٥ - ١١٧
السبب الثالث : الجهل بحقيقة التوحيد	١١٧ - ١٢٠
السبب الرابع : الاتجاه إلى المحسوسات والميل إليها	١٢٠ - ١٢٤
السبب الخامس : الانغماس في الشهوات واتباع الشيطان	١٢٤ - ١٢٥
السبب السادس : توجيه الطواغيت	١٢٥ - ١٢٧
البحث الثاني : نشأة الوثنية في جزيرة العرب	١٢٨ - ١٣١
« عمرو بن لحي الخزاعي » هو الذي حمل العرب على عبادة الأصنام وتغيير دين إسماعيل (عليه السلام)	١٢٩ - ١٣١

<u>الموضوع</u>	<u>الصفحة</u>
الفصل الثاني : صور من الوثنية القديمة	١٢٢ - ١٦٤
١- عبادة الأشخاص وأنها أقدم صور الوثنية وأن قوم نوح هم أول من فعلوا ذلك	١٢٢ - ١٣٥
تملق عرب الجاهلية بأصنام قوم نوح وعبادتهم لها ما لقيه الرسول من أذى المشركين	١٢٦ - ١٣٦
سدّه صلى الله عليه وسلم كلّ الذرائع المفضية إلى الشرك	١٣٧ - ١٣٩
٢- عبادة الأصنام والأوثان	١٣٩ - ١٤٦
اتجاه قوم نوح للأصنام والأوثان لتذكركم بآبائهم وأجدادهم الصالحين ، ثم عبادتها من قبل الأجيال التابعة	١٣٩
أشهر الأصنام المعروفة وُنْتَفَ من أخبارها	١٣٩ - ١٤٦
٣- عبادة النجوم والكواكب	١٤٦ - ١٥٥
قوم إبراهيم «عليه السلام» هم أول مَنْ عُرِفَ بذلك الشمس والقمر والزهرة أشهر المعبودات والخلاف في أيّها عبد أولاً	١٤٦ - ١٤٨
اتخاذ الأصنام رموزاً للكواكب وعبادتها من دون الله	١٤٨ - ١٥٠
العرب عبدوا الكواكب و "الشمري" هو أشهرها	١٥٠ - ١٥١
أبو كبشة هو أول من أحدث ذلك في العرب	١٥١
اعتقادات العرب الباطلة في النجوم والكواكب وموقف الرسول صلى الله عليه وسلم من ذلك	١٥١ - ١٥٥
٤- عبادة الحيوان	١٥٦ - ١٦٠
انحراف الإنسان عن العبودية لله يوقعه في عبادة الحيوانات التي خلقت لخدمته	١٥٦
البقرة والمجل أشهر الحيوانات المعبودة	١٥٧

<u>الصفحة</u>	<u>الموضوع</u>
١٥٧	السبب الدافع لعبادة الحيوان
١٥٨	الهندوس أشهر من عرفا بذلك
١٥٩	عجل بني إسرائيل
١٦٠	لم يشتهر العرب بعبادة الحيوان
١٦٠ - ١٦٤	٥ - عبادة النار :
١٦٠	القول بأن قابيل أول من عبد النار
١٦١	المجوس هم عباد النار ويدعون أنها أفضل العناصر
١٦٢	" بشر بن برد " الشاعر المعروف بهذا المذهب الباطل ^{بني}
١٦٢ - ١٦٤	طريقة المجوس في عبادة النار
١٦٥ - ٢٢٢	الباب الثالث : الوثنية الحديثة
١٦٦ - ٢٠٩	الفصل الأول : منشأ الوثنية الحديثة وأسبابها
١٦٧ - ١٧٠	المبحث الأول : منشأ الوثنية الحديثة :
١٦٧	أوروبا هي موطن الوثنية الحديثة
١٦٧ - ١٨	عصر النهضة العلمية في أوروبا يعتبر بداية عهد الوثنية الحديثة
١٦٨ - ١٧٠	عودة أوروبا إلى الوثنيتين الرومانية والإغريقية
١٧٠ - ٢٠٧	المبحث الثاني : أسباب الوثنية الحديثة
	السبب الأول : عدم معرفة أوروبا لدين الله الصحيح
١٧٠ - ١٩٦	بسبب إفساد الكنيسة له .
١٧١	كيف فسدت النصرانية من بعد المسيح ؟
١٧٢ - ١٧٤	بولص أول معاول الهدم
١٧٤ - ١٧٥	الامبراطور قسطنطين المعول الثاني
	الكنيسة ورجال الدين يتحملون الوزر الأكبر في تحريف
١٧٥ - ١٧٦	النصرانية

<u>الموضوع</u>	<u>الصفحة</u>
الدور المباشر للكنيسة ورجال الدين في إفساد النصرانية	١٧٦-١٨١
١- تشويه العقيدة وإفسادها	١٧٧-١٧٩
٢- فصل العقيدة عن الشريعة ثم تنحية الشريعة وتحكيم	
القانون الروماني	١٧٩-١٨١
الدور غير المباشر للكنيسة ورجال الدين في إفساد النصرانية	١٨٢-١٩٦
أ- طفيان الكنيسة ورجال الدين	١٨٢-١٩٠
١- الطفيان الروحي	١٨٣
٢- الطفيان العقلي والفكري والعلمي	١٨٤-١٨٥
٣- الطفيان السياسي	١٨٥-١٨٦
٤- الطفيان المالي ومساندة نظام الإقطاع الظالم	١٨٧-١٨٨
٥- مهزلة صكوك الغفران	١٨٩-١٩٠
ب- الفساد الخلقي لرجال الدين الكسبي	١٩٠-١٩٣
ج- محاكم التفتيش	١٩٣-١٩٦
السبب الثاني : تدخل اليهود وتوجيههم للنهضة الأوروبية	
حسب مخططاتهم لتحقيق أهدافهم التخريبية	١٩٦-٢٠٧
أوروبا لم تجد غير اليهود موجهًا لها بعد تحررها من	
سلطة الكنيسة	١٩٦-١٩٧
كيف كان اليهود سببا في نشأة الوثنية الحديثة ؟	١٩٨-١٩٩
أولا : استغلال نظرية داروين	١٩٩
"كارل ماركس" و"فرويد" و"دوركايم" و"فريزر"	
أشهر الطواغيت	٢٠٠-٢٠٤
ثانيا : استغلال الواقع الأوروبي ذاته	٢٠٤-٢٠٧
اليهود لا ينشئون الأحداث بمقدار ما يحسنون	
استغلالها لصالحهم	٢٠٤
وصف موجز للواقع الأوروبي قبل وبعد النهضة الأوروبية	٢٠٥-٢٠٧

الصفحة

الموضوع

- السبب الثالث : تقصير المسلمين وعدم قيامهم بواجب الدعوة
لنشر عقيدة التوحيد في أوروبا في بداية عصر النهضة . ٢٠٧ - ٢٠٨
- الفصل الثاني : العلاقة بين الوثنيين . ٢٠٩ - ٢٢١
- طريقان أمام الإنسان لا ثالث لهما . ٢١٠
- الوثنية جوهر واحد وهو العبودية لغير الله والاختلاف
في الصورة أو المظهر الخارجي . ٢١٠ - ٢١٥
- الوثنية القديمة تحاول أن تتقرب إلى الله بخلاف الوثنية
الحديثة تزداد منه بعدا . ٢١٦ - ٢١٧
- أظهر شرك الأولين في حالة النعمة والرخاء بخلاف الوثنية
الحديثة فهي أشد كفرا في النوازل والاطار . ٢١٧ - ٢١٨
- في جميع الوثنيات لا ثبات ولا استقرار على معبود معين . ٢١٨ - ٢١٩
- أسلوب الوثنيات واحد في الضغط والسيطرة على قلوب وأرواح
الستعبدين فيها . ٢١٩ - ٢٢١
- الفصل الثالث : صور من الوثنية الحديثة . ٢٢٢ - ٢٢٢
- تمهيد . ٢٢٣ - ٢٣٠
- ١- الديمقراطية ٢٣١ - ٢٤٠
- معنى الديمقراطية هو حكم الشعب أو سلطة الشعب . ٢٣١
- الديمقراطية هي البديل السياسي لنظام الحكم الإقطاعي . ٢٣٢
- أهم مبادئ الديمقراطية . ٢٣٣
- سيادة الشعب وسلطته التشريعية . ٢٣٣
- الديمقراطية لا تنكر وجود الله تعالى ولكنها لا تدع
له مجالا فيها . ٢٣٤
- الديمقراطية حكم وتشريع بغير ما أنزل الله
موقفا لإسلام من سيادة الشعب وسلطته المطلقة في
التشريع من دون الله كما هو نظام الديمقراطية . ٢٣٥ - ٢٤٠

<u>الموضوع</u>	<u>الصفحة</u>
٢ - الشيوعية .	٢٤٩-٢٤١
الشيوعية رد فعل شديد التطرف ضد الرأسمالية .	٢٤١
الشيوعية فكرة قديمة أول من دعا إليها الإباحي المعروف بـ (مزدك) (٢٤١)	٢٤١
أشهر دعواتها الجدد .	٢٤١
تسمياتها كثيرة وحقيقتها واحدة .	٢٤٤
أهم مبادئ الشيوعية .	٢٤٢
مراحل التاريخ البشري في نظر الشيوعية .	٢٤٣-٢٤٢
الشيوعية تؤهله الجانب المادي المتمثل في الاقتصاد وتجعله	
أساس التطور وتنكر أي أثر لقوة غيبية فهي قائمة على الإلحاد .	٢٤٣
الشيوعية ليست مجرد مذهب مادي اقتصادي كما يظن ذلك	
الكثير .	٢٤٤-٢٤٣
الشيوعية تعبد كل شيء سوى الله .	٢٤٦-٢٤٥
ظاهرة الإلحاد في الشيوعية مصطنعة ومقصودة ، لأن الإلحاد	
ليس من طبيعة الانسان .	٢٤٩-٢٤٦
٣ - العقلانية .	٢٥٥ - ٢٥٠
العقلانية نسبة إلى العقل على غير القياس .	٢٥٠
العقلانية تمنى " تمرير كل شيء في الوجود من قناة العقل ."	٢٥٠
العقلانية دعوة لتقديس العقل وعبادته من دون الله .	٢٥٠
الفلسفة الاغريقية تقوم على العقلانية .	٢٥٠
العقلانية الأوروبية ردت فعل مآكس لفعل الكنيسة وطغيانها	
وحجرها على العقل والفكر ، أدى إلى تأليه العقل .	٢٥٥ - ٢٥١
٤ - العلمانية .	٢٦٩ - ٢٥٦
العلمانية في لغة أصحابها تعني اللادينية .	٢٥٦
نسبتها للعلم تضليل وخداع وخطأ محض .	٢٥٧ - ٢٥٦

<u>الموضوع</u>	<u>الصفحة</u>
جميع هذه الصور الوثنية أوروبية المنشأ كرد فعل لمظالم الكنيسة .	٢٥٧-٢٥٨
العلمانية فصلت الدين عن جميع وجوه الحياة وخصوصا مجال السياسة والتشريع فهي حكم بخير ما أنزل الله في السياسة والاقتصاد والاجتماع والفن والأدب .	٢٥٨-٢٦٣
والعلم صار لا دينيا ووجهه وجهة وثنية ، بل صار معبودا من دون الله في ظل العلمانية .	٢٦٣-٢٦٩
موقف الإسلام من العلم والعقل .	٢٧٠-٢٨٢
القومية والوطنية .	٢٨٣-٢٩٢
القومية هي النسبة إلى القوم ، والوطنية هي النسبة للوطن . والتجمع على أساس ذلك .	٢٨٣
القومية والوطنية أوروبية المنشأ .	٢٨٤
بعض خصائص الطبع الأوروبي .	٢٨٥
" مارتن لوشر " هو الذي استثار النزعة القومية في أوروبا مما أدى إلى تفككها .	٢٨٥
القومية هي الدين البديل عن النصرانية .	٢٨٦-٢٨٧
القومية مبدأ وثني لأنها نحتت العقيدة وأقامت مكانها القوم والوطن .	٢٨٧-٢٨٩
عدوى القومية في العالم الإسلامي .	٢٨٩-٢٩٠
أشهر دعاة القومية وطائفة من أقوالهم .	٢٩٠-٢٩٢
موقف الإسلام من فكرة القومية والوطنية .	٢٩٣-٣٠٠
ليعرهناك دين سوى الإسلام استطاع أن ينتصر على الوثنية .	٢٩٣
القومية والوطنية أفكار لا دينية لا تتفق مع الإسلام .	٢٩٣
الإسلام لا ينكر على الإنسان أن ينتسب لقوم أو وطن ممين .	٢٩٤

<u>الموضوع</u>	<u>الصفحة</u>
ما الذى ينكره الإسلام على القوميين والوطنيين ؟	٢٩٤-٢٩٥
العقيدة الدينية هي الرابطة الحقيقية التي تجمع بين الأفراد.	٢٩٦-٢٩٨
الإسلام يحذر من التعصب للقوم والوطن .	٢٩٨
"تويني" يؤكد أن القومية لا تصلح أن توحد الإنسانية .	٢٩٩
القومية وغيرها من الأفكار الوثنية لا مدخل لها في العالم الإسلامي .	٢٩٩-٣٠١
القول بديمقراطية الإسلام واشتراكيته . . إلى غير ذلك من الأفكار الوثنية .	٣٠٢-٣٠٩
ظاهرة وصف الإسلام بالمذاهب الوثنية الحديثة ووقوع الكثير من المفكرين فيها .	٣٠٢-٣٠٦
الإسلام منهج متكامل متميز عن باقي الأنظمة البشرية ، وهو يختلف عنها في الأصول .	٣٠٦-٣٠٧
الإسلام سابق على جميع هذه الأنظمة والصحيح أن يتقرب اللاحق للسابق .	٣٠٧
الذين يدعون لترويج هذه الأنظمة الوثنية في العالم الإسلامي يشبهون بني إسرائيل إذ طلبوا من سيدنا موسى عليه السلام أن يجعل لهم آلهة من دون الله ، ويشبهون جهال الأعراب الذين طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم ذات أنواط .	٣٠٨-٣٠٩
الرأى العام	٣١٠-٣١٦
تعريف الرأى العام	٣١٠
الرأى العام ذو تأثير قوى على الأفراد	٣١٠
أنواعه ومكوناته	٣١١-٣١٢
اهتمام اليهود بالرأى العام وتوجيههم له	٣١٢
سلطة الرأى العام في الديمقراطية بخلاف الشيوعية	٣١٢

<u>الموضوع</u>	<u>الصفحة</u>
أهم وظائف الرأي العام .	٣١٣
الرأي العام مصدر للتشريع من دون الله .	٣١٣
بعض الأمثلة على ذلك .	٣١٤-٣١٦
موقف الإسلام من الرأي العام .	٣١٧-٣١٩
الرأي العام مقيد بحدود الدين والأخلاق وليسمح له أن يخرج عنها .	٣١٨
الأغلبية ليست مؤشرا على الحق دائما .	٣١٩
٧ - مظاهر جزئية من الوثنية الحديثة .	٣٢٠-٣٢٢
الباب الرابع : عدوى الوثنية الحديثة في حياتنا .	٣٢٢-٤٨٨
الفصل الأول : أحوال المسلمين في اليهود الأخيرة .	٣٢٢-٣٧٤
أولا : البعد عن حقيقة الإسلام .	٣٢٤-٣٣٣
١ - اختلاط مفاهيم العقيدة بشكل عام .	٣٢٥-٣٢٦
٢ - اختلاط مفاهيم معينة من العقيدة كسوء فهم عقيدة	
القدر .	٣٢٦-٣٢٧
٣ - فساد مفهوم العبادة .	٣٢٧-٣٢٩
٤ - تشعب الإسلام إلى تخصصات فرعية .	٣٢٩-٣٣٠
٥ - التعصب الأعمى للمذاهب الفقهية لدرجة التقديس .	٣٣٠-٣٣٢
نتيجة هذا البعد عن الإسلام وأثرها على المسلمين .	٣٣٢-٣٣٣
ثانيا : التخلف في جميع نواحي الحياة فكريا وعلميا وسياسيا	
واقتصاديا . . الخ	٣٣٤-٣٣٨
ثالثا : الغزو الصليبي " المعروف بالاستعمار الأوروبي "	٣٣٩-٣٥٠
الحروب الصليبية هي بداية هذا الغزو الديني	٣٣٩
" الاستعمار الأوروبي " غزو ديني صليبي .	٣٤٠-٣٤١
سقوط العالم الإسلامي في قبضة الصليبيين	٣٤١-٣٤٣

<u>الصفحة</u>	<u>الموضوع</u>
٣٤٢-٣٤٣	المواقب الوخيمة التي ترتبت على ذلك
	خروج القوى الصليبية بسبب المقاومة والدعوة إلى
٣٤٨-٣٥٠	الاستقلال ، وحقيقة الاستقلال
٣٥١-٣٦٦	رابعاً : الغزو الفكري
٣٥١	الغزو الفكري هو البديل للغزو العسكري
٣٥٢-٣٥٤	لماذا آثر الصليبيون هذا النوع من الغزو ؟
٣٥٥-٣٦٦	وسائل هذا الغزو
٣٥٥-٣٦٠	١- الغزو من خلال التعليم
٣٥٩-٣٦٠	آثار ذلك على التعليم في العالم الاسلامي
٣٦٠-٣٦٦	٢- الغزو من خلال وسائل الإعلام
٣٦٧-٣٧٤	خامساً : الانبهار بالحضارة الغربية
٣٦٧-٣٦٨	المفلوب مولع بتقليد الغالب
٣٦٩-٣٧٠	نماذج من المبهورين بالحضارة الغربية ودعاتها
٣٧٠-٣٧٢	انقسام المسلمين إلى ثلاثة فرق في موقفهم منها
	تحقق بعضها أخيراً به الرسول صلى الله عليه وسلم
٣٧٢-٣٧٤	بخصوص اتباع سنن من قبلنا من اليهود والنصارى
٣٧٥-٤٥٩	الفصل الثاني : تأثير المسلمين بالوثنية الحديثة في شتى المجالات
٣٧٦-٣٧٨	تمهيد :
٣٧٩	المظهر الأول : تحكيم غير شريعة الله
٣٧٩-٣٨٠	الشريعة الإسلامية هي الحاكمة حتى ثلاثة عشر قرناً
٣٨٠-٣٨١	فتوى شيخ الاسلام وابن كثير بتحريم التحاكم إلى غيرها
	بداية عهد الانحراف على يد سليمان القانوني العثماني
٣٨٢-٣٨٦	ثم تدرج الأمر
٣٨٦-٣٨٧	شهادة كثير من غير المسلمين للشريعة الإسلامية

الموضوع

الصفحة

- إضافة الصبغة الوطنية على القوانين الجاهلية خدع
المسلمين عن حقيقتها
٣٨٧
- وجوب العودة لتحكيم شريعة الله وحدها
٣٨٨
- الأدلة على ذلك من القرآن والسنة وأقوال العلماء
٣٨٩-٣٩٢
- طريق العودة لتحكيم شريعة الله
٣٩٣-٣٩٧
- ثانياً : الدعوة لتحديد النسل
٣٩٨-٤٢٠
- فكرة تحديد النسل نشأت في أوروبا على يد القسيس "مالثوس"
٣٩٨
- أسباب نجاح هذه الدعوة في أوروبا
٣٩٩
- سوء الظن بالله هو أساس هذه الفكرة
٤٠٠
- الواقع يكذب هذه الدعوة
٤٠١-٤٠٣
- انتقال هذه الفكرة للعالم الإسلامي بطريق العدوى
٤٠٣-٤٠٥
- سوء توجيه الفكرة هو ضيع الوثنية ونقطة الخلاف
٤٠٥-٤٠٦
- السروراء هذه الدعوة
٤٠٦-٤٠٧
- وقوع المسلم في هذه المكيدة وتصديقه بها طاعة لغير الله
٤٠٧
- توقعه في الوثنية
٤٠٧-٤٠٨
- المسلمون هم المستهدفون من وراء هذه الدعوة
٤٠٨-٤١٠
- لا مبرر لهذه الدعوة في العالم الإسلامي
٤٠٨-٤١٠
- الأدلة على أن هذه الدعوة من الأفكار الوثنية
٤١١-٤٢٠
- ١ - أنها تتنافى مع توحيد الربوبية وتشبه عادة الواد في
الجاهلية العربية
٤١١-٤١٦
- ٢ - أنها تتعارض مع الإسلام في الحض على التزواج
والتكاثر والتناسل .
٤١٧
- ٣ - تتنافى مع إجماع علماء الأمة
٤١٨-٤٢٠

<u>الصفحة</u>	<u>الموضوع</u>
٤٢١ - ٤٣٤	ثالثاً: موالاة دول الكفر والكفار
٤٢١ - ٤٢٢	أساس العلاقة بين المسلمين وغيرهم وشروطها
٤٢٢ - ٤٢٦	الفرق بين الموالاة والمعاملة والتي هي أحسن
٤٢٦ - ٤٢٨	بعض دعاة الذل والخضوع للدول الفاصبة
٤٢٨ - ٤٣٤	أهم مظاهر الموالاة التي ابتلى بها المسلمون
٤٣٥ - ٤٥٩	رابعاً: الدعوة للسفور والاختلاط
٤٣٥	عدوى الوثنية شملت معظم وجوه الحياة
٤٣٦	السفور الذي أعنيه هنا
	ما جاء في سفور المرأة في الجاهلية ليس شيئاً بالنسبة لسفور
٤٣٧ - ٤٣٨	المرأة في القرن العشرين الميلادي
٤٣٩ - ٤٤٠	بداية هذه الدعوة في العالم الاسلامي
	" قام أمين " يدافع عن المرأة المسلمة قبل أن يأخذ على
٤٤٠ - ٤٤٢	عاقبه مهمة إفسادها ، نيا للمعجب
٤٤٢	" سعد زغلول " فعل بيده ما دعا إليه " قاسم أمين " بقله
٤٤٣	" هدى شعراوي " و " صفية زغلول " من طلائع الفتنة
٤٤٤ - ٤٤٨	الدعوة شملت معظم أنحاء العالم الإسلامي
٤٤٨ - ٤٤٩	الواقع يؤكّد أن السفور والاختلاط مقوّض لركان المجتمع
٤٥٠ - ٤٥٧	الأدلة على تحريم السفور والاختلاط :
٤٥٠ - ٤٥٢	أ - من القرآن الكريم
٤٥٢ - ٤٥٥	ب - من الحديث الشريف
٤٥٥	أغرب سفر للمرأة في عصرنا
٤٥٥ - ٤٥٧	ج - بعض أقوال العلماء في ذلك
	قبول السفور والاختلاط والرضا به واستحلاله في المجتمعات
٤٥٨ - ٤٥٩	الاسلامية يدل على الوثنية والعبودية لغير الله .

<u>الموضوع</u>	<u>الصفحة</u>
الفصل الثالث : وسائل العلاج	٤٦٠ - ٤٨٩
أ - تمهيد	٤٦١ - ٤٦٧
ب - وسائل العلاج المقترحة لاصلاح حال المسلمين	٤٦٨
أولا : عن طريق التربية الاسلامية الصحيحة	٤٦٨
١ - بيان حقائق الاسلام ومفاهيمه التي اختلفت على الناس في العهود الاخيرة .	
٢ - الاهتمام بالفرد والأسرة والمجتمع وتوجيههم	
توجيهها إسلاميا عن طريق الدعوة إلى الله ﷻ	٤٧٢ - ٤٧٥
ثانيا : إصلاح مناهج التعليم وتوجيهها وجهة إسلامية	٤٧٥ - ٤٧٩
ثالثا : إصلاح وسائل الإعلام وتوجيهها وجهة إسلامية صحيحة	٤٧٩ - ٤٨٣
يجب على المسلمين أن يسارعوا إلى استغلال أوضاع العالم بالدعوة إلى عقيدة التوحيد ومحاربة الوثنية .	٤٨٤
أقوال توه كد على أهمية الدين وأنه العلاج	
لمسرف العالم المعاصر	٤٨٥ - ٤٨٨
الخاتمة : وفيها أهم نتائج البحث	٤٨٩ - ٤٩٥
المراجع والمصادر	٤٩٦ - ٥٠٩
فهرس الموضوعات	٥١٠ - ٥٢٤

ترجمة لبعض الاعلام

اميل دوركايسم (١٨٥٨ - ١٩١٧ م)
يهودى فرنسى ، ينسب اليه علم الاجتماع الحديث لا سيما نظرية الفعل الجمعى الذى جعله حاكما على تصرفات الافراد .

باول شمترز :

رحالة ومفكر المانى ، عاش الظاهرة سنوات طويلة له خبرة بالشئون الاسلامية ، عمل فى حقل السياسة الاوربية من اشهر كتبة الاسلام قوة الغد العالمية نشره فى المانيا عام ١٩٣٦ م ترجمه للعربية محمد شامة .

جون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤)

فيلسوف انجليزى ، من انصار المذهب الحسى .

داروين (١٨٠٩ - ١٨٨٢)

هو تشارلز داروين صاحب نظرية التطور المعروفة التى احدثت انقلابا فكريا فى معظم حقول المعرفة فى اوربا بسبب ترويح اليهود لها ، له كتاب (أصل الانواع) .

روبرت اوين (١٧٧١ - ١٨٥٨)

اشتراكى بريطانى ، كان من رجال الاعمال الناجحين فى ما نشستر حاول اقامة مجتمعات اشتراكية فى بريطانيا وامريكا واهم كتبه (نظرة جديدة الى المجتمع) .

سانتيلانا (١٨٥٥ - ١٩٣١)

ولد فى تونس حصل على الدكتوراة فى القانون من جامعة رومة اشتهر فى فقه الاسلام ، عمل فى الجامعة المصرية استاذا لتاريخ الفلسفة ١٩١٠ م .

سان سيمون (١٧٦٠ - ١٨٢٥)

اشتراكى فرنسى ، دعا الى تسليم زمام الحكم الى رجال الصناعة والعلم بدل الاشراف والقانونيين .

سبنسر (١٨٢٠ - ١٩٠٣)

فيلسوف انجليزى ينتمى لمدرسة التطور ، اشهر مؤلفاته مبادئ علم النفس) .

ستالين (١٨٧٩ - ١٩٥٣)

اسمه الحقيقى فيسيارفيتش شوجا تشغيبلى واتخذ اسم (ستالين) اسما مستعارا اثناء الثورة فى بداية هذا القرن كان ابوه اسكافا فقيرا ، حاولت امه ان تجعله قسيسا فالحقته بمعهد ديونى ولكنه هرب منه والتقى مع (لينين) واصبح عضوا فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى عرف عهده بالوحشية والقسوة والجاسوسية والطغيان وفرض عبادة نفسه على الجماهير بقوة الجديد والنار ، وانحرف كثيرا عن منهج (لينين) وقد شن عليه الرئيس السوفيتى خروشوف بعد ان هلك .

فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩)

هو سيجمون فرويد يهودى نمساوى زعيم مدرسة التحليل النفسى التى تقوم على تفسير ال
السلوك تفسيراً جنسياً .

فيشنة (١٨١٤ - ١٩٦٢)

درس اللغة والفلسفة وعين استاذاً فى جامعة ايينا عام ١٧٩٣ نشر مذهبه فى كتابه المبادئ
الاساسية لنظرية المعرفة عام ١٧٩٧ ومن كتبه كذلك (القانون الطبيعى) -

فريزر (١٨٥٤ = ١٩٤١)

هو جيمس فريزر باحث اجتماعى له دراسات فى علم مقارنة الاديان كانت مرجعاً هاماً
للشيعيين ، اشهر مؤلفاته (الفصن الذهبى)

كارل بروكلمان ١٨٦٨ - ١٩٥٦ .

اختص باللغات السامية تتلمذ على المستشرق (نولدكه) له شهره فى فقه العربية
وكتابتها وفى التاريخ الاسلامى عين للتدريس فى جامعات كثيرة وهو عضو مجامع لغوية متعددة
له مؤلفات كثيرة جدا وهو عند الكثير مرجع فى التاريخ الاسلامى والادب العربى وهو
مستشرق خطير جدا رغم ماله من شهرة عالمية فهو لم يخرج عن ديدن المستشرقين فى غمط
الاسلام واخفاء حقائقه بل ربما كانت اشهر الحاقدين على الاسلام والمسلمين وله افتراءات
كثيرة على التاريخ الاسلامى بحيث الفت فيها رسالة جامعية بقسم التاريخ والحضارة بجامعة
ام القرى .

كالفن (١٥٦٤ - ١٥٩)

ولد فى مدينة نيويون ، فرنسى من رجال الاصلاح الدينى تحول عن الكاثوليكية عام ١٥٣٣
وصار من قادة البروتستانت ومن كتبه (انظمة الدين المسيحى) وضح فيه مبادئ اللاهوت
مذهبه الجديد .

لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦)

من اشهر رجال الاصلاح الدينى وهو مؤسس المذهب البروتستانتي فى المانيا ، وخدم
اليهود كثيراً .

لينين (١٨٧٠ - ١٩٢٤)

اسمه الحقيقى فلاديمير ايلينش لينين اوليانوف اعتنق الماركسية سنة ١٨٩٤ وشارك فى
المنظمات الشيوعية فى روسيا وغيرها صاحب جريدة (البرافدا) حكم روسيا بعهده
نجاح ثورة عام ١٩١٧ م وسقوط الحكم القيصرى له تعديلات مشهورة فى الماركسية ومن
اشهر كتبه تتطور الرأسمالية فى روسيا .

ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣)

مؤسس المادية التاريخية ، وحا خام الشيوعية وفيلسوفها الاكبر درس القانون في جامعة برلين حصل على الدكتوراة في عام ١٨٤١ ، طرد من الجامعة بسبب اتهامه بالاحاد هاجر من المانيا الى فرنسا واستقبله الاشتراكيون في باريس استقل نظرية التطور وطبقها على حياة المجتمعات ليثبت ان العوامل البيئية البحتة هي المؤثر والوحيد على الانسان كان لثيما حقوقا عاصيا لوالديه اشهر كتبه راس المال والبيان الشيوعي

مالثوس: توماس روبرت (١٧٦٦ - ١٨٣٦)

تخرج من جامعة كامبرج عمل استاذ محاضرا في كلية خاصة اقامتها شركة الهند التجارية الحياة واثرا العيش في الريف فترة طويلة تزوج في سن متأخرة حينما اشرف على الاربعة وانجب ولدين ونفا اشتهر بدعوته لتحديد النسل .

نيوتن (١٦٤٢ - ١٧٢٧)

سير اسحق نيوتن عالم انجليزي فيزيائي وفلكي ورياضي كبير .

هامتون جيب : ١٨٩٥

من مواليد الاسكندرية وهو من المستشرقين المعاصرين اشتغل عضوا في المجمع العلمي العربي في دمشق يكتب بالعربية جيدا وكان من دعاة اقامة الجامعة العربية من آثاره المدخل الى الادب العربي و ترجم رحلة ابن بطوطة وله مؤلفات كثيرة اخرى .

هنري برجسون (١٨٥٩ - ١٩٤١)

صاحب النظرية الروحية الحديثة حصل على جائزة نوبل في الادب عام ١٩٢٧ من مؤلفاته التطور الخلاق .